

Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat

أول دورية عربية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية
متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م

UIF
AIF
DOI
Ulrichs
EBSCO
ناشري

Historical Kan Periodical

السنة الثانية عشرة
العدد الرابع والأربعون
يونيو ٢٠١٩ – رمضان ١٤٤٠





ISSN: 2090 - 0449
www.kanhistorique.org

رقمية المولد عربية الهوية عالمية الأداء



دورية كان التاريخية.- س١٢، ع٤٤ (يونيو ٢٠١٩/ رمضان ١٤٤٠)

Dawriyyat Kān al-Tārīḫiyyat
Iliktrūniyyat, muḥakkamat , rub' sanawiyyat
Vol. 12, no. 44 [June 2019]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
http://www.kanhistorique.org
Information on this issue: www.kanhistorique.org/Archive/2019/Issue43

تصنيف ديوي العشري – مقالات ودراسات ع٤٤ يونيو ٢٠١٩

٩٤٠,٣	الحرب العالمية الأولى؛ ١٩١٤ - ١٩١٨م
٩٤٠,١	تاريخ أوربا في العصور الوسطى
٩٥٣	التاريخ العام للعرب والمسلمين
٩٥٣,٠٨	دولة المماليك في مصر والشام والحجاز
٩٥٣,٠٧١	تاريخ الأندلس
٩٦٠,٠٤	تاريخ أفريقيا (العام والخاص)
٩٦٢,٤	السودان
٩٦٤,٠٩	تاريخ المغرب الحديث

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠١٩.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٤٤٩٠ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2019.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.



ISSN: 2090 – 0449 Online

أول دورية عربية إلكترونية مُحكّمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر ٢٠٠٨م



أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net

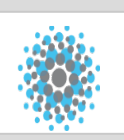


أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org





مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية
www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net





دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org

كُتّاب الدورية	478
الدول العربية والأجنبية	28
الجامعات والمؤسسات الأكاديمية والعلمية	141
المقالات والدراسات المنشورة في الدورية	846

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

www.kanhistorique.org

المشرف العام

أ.د. عبد العزيز غوردو
أستاذ التاريخ والحضارة
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
وجدة – المملكة المغربية

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

الهيئة الاستشارية

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

الهيئة العلمية

هيئة التحرير

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام





حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المَحَكَّمة

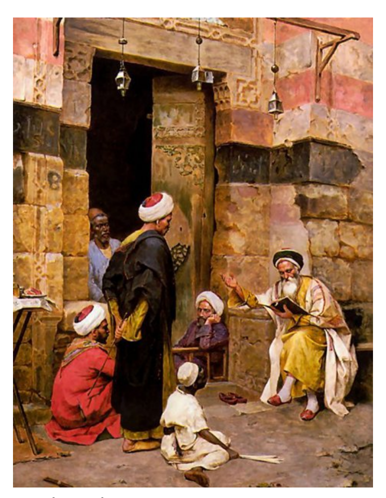
مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد

أستاذ مساعد تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



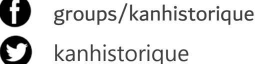
Reading The Koran
Arthur Ferraris
(1856 – 1936, Hungarian)

المراسلات

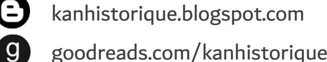
توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com











historicalkan
groups/kanhistorique
kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com
goodreads.com/kanhistorique
www.kan.nashiri.net

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي مستقل يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

لا تتحمّل دورية كان التاريخية أيّة مسؤوليّة عن الموضوعات الّتي يتم نشرها في الدورية. ويتحمل الكُتاب بالتالي كامل المسؤولية عن كتاباتهم التي تخالف القوانين أو تنتهك حقوق الملكيّة أو حقوق الآخرين أو أي طرف آخر.

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

دورية كان التاريخية مسجلة تحت التراخيص العامة غير التجارية لدى منظمة التشارك الإبداعي في سان فرنسيسكو استنادًا إلى موقعها الإلكتروني. "كان التاريخية" غير تجارية ولا تفرض رسوم على المراجعة والتحكيم والنشر.

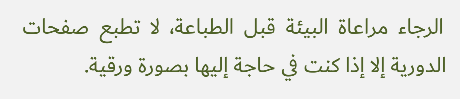
إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.





الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَشَر

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

- **عنوان البحث:**

يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**

يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**

ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**

يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.

البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**

الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**

الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**

تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**

يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**

ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**

في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**

تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**

يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**

يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية، ...الخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَّشَرِ

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفى الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان التَّارِيْخِية أربع مرات في السنة:
- (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات للبريد الإلكتروني:
  info@kanhistorique.org
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
  mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَياتُ الْعَدَدِ

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

التضاريس الجغرافية في النقوش العربية الشمالية "الصفائية"

كريمان عمر يونس صب لبن
باحثة دكتوراه في الآثار الشرقية القديمة
ماجستير في الحضارات العربية القديمة
المملكة الأردنية الهاشمية

د. زياد عبد الله العلي طلاحفة
مديرية آثار المفرق
دائرة الآثار العامة
عمان - المملكة الأردنية الهاشمية

مُلَخّص

التضاريس الجغرافية، والمواقع الجيمورفولوجية عند العرب الصفائيين ذات أهمية للكشف عن جانب مهم من حياة مجتمع القبائل العربية، خاصةً عندما يعطي فكرة واضحة عن طبيعة الأرض والبيئة التي عاشوا عليها ومارسوا عليها أنشطتهم المختلفة. انتشرت النقوش العربية (الصفائية) في منطقة البادية الشرقية من الأردن وجنوب شرق دمشق، إضافة إلى الجزء الشمالي الغربي من السعودية، وتعددت النقوش الصفائية التي أشارت إلى ألفاظ دالة على تضاريس جغرافية متنوعة، فقد دونت هذه النقوش على صفحات صخور سوداء ملساء خرجت من باطن الأرض أثر بعض البراكين التي انتشرت على سطح الأرض في تلك المناطق. فنحن أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي، الذي عُدّ من أهم المهن التي مارسها العرب الصفائيين، وهي مهنة تتطلب دوام التنقل مع قطعان الماشية من أجل البحث عن الكلأ والماء لرعي أغنامهم مصدر رزقهم والتي من خلالها ذكروا هذه الأماكن والمسميات.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢١ يوليو ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ نوفمبر ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

مواقع، تضاريس، رعي، نقوش، بيئة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055397

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

كريمان عمر يونس صب لبن، زياد عبد الله العلي طلاحفة. **"التضاريس الجغرافية في النقوش العربية الشمالية: الصفائية"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ١٠ – ١٨.

مُقَدِّمَة

يناقش هذا البحث أسماء التضاريس الجغرافية والمواقع الجيمورفولوجية عند القبائل العربية معتمدًا على نقوشهم وكتاباتهم كمصدر رئيس، وتعود أهمية البحث إلى دراسة جانب من جوانب الحياة وطبيعة مجتمع القبائل العربية خاصة عندما يعطي فكرة واضحة عن طبيعة الأرض التي عاشوا عليها ومارسوا عليها أنشطتهم وممارساتهم المختلفة، حيث انتشرت النقوش العربية (الصفائية) في مناطق البادية الشرقية من الأردن وجنوب شرق دمشق، إضافة إلى الجزء الشمالي الغربي من السعودية، يقول (Littmann) إن الصفائية اسم مأخوذ من تلال الصفا الموجود في بادية الشام ذكره جرير في بيت شعر: هبت شمالاً فذكرى ما ذكرتكم عند الصفاة إلى شرقي حورانا (لتمان١٩٤٩: ٢٤٨)، لم يرد في النقوش العربية القديمة ذكر أو إشارة تأكد هذه التسمية (ديسو١٩٥٩: ١٦٢).

دونت هذه النقوش على صفحات صخور سوداء ملساء خرجت من باطن الأرض أثر بعض البراكين التي انتشرت على سطح الأرض في تلك المناطق (علي١٩٦٨: ١٤٣). فنحن أمام قبائل عديدة حرفتها الرعي كانوا يقضون الربيع والشتاء حول تلال الصفا، وقلعة الأزرق، وجبل سيس، ووادي راجل، ووادي غرز، وفي الصيف يصعدون بقطعانهم إلى المنحدرات الشرقية من حوران، فهي قبائل متنقلة من مكان إلى

مكان للبحث عن الماء، والكلأ لرعي ماشيتها التي كانت مصدر رزقهم (طلافحة ٢٠٠٠: ٣).

تاريخ كتابة النقوش العربية القديمة

يُرجح أن أقدم هذه الكتابات يرجع إلى القرن الأول قبل الميلاد وحتى القرن الرابع بعد الميلاد أرخت بعض هذه الكتابات بحوادث محلية فردية عرفت عند أصحابها أو أحداثًا عامة وقعت لهم أو لجيرانهم فقد أرخ بعضها بيوم وفاة شخص ذي مكانة مرموقة في القبيلة مثل شيخ القبيلة مثلاً، أو بيوم وفاة قريب لصاحب الكتابة، أو بوقت نزوله في المكان الذي كتب به الكتابة، أو بحدوث ظواهر طبيعية؛ كهطول المطر والثلج، والمحل، والقحط، وهبوب الريح، والعواصف حتى أنهم أرخوا بحوادث ولادة ماشيتهم (طلافحة٢٠١٧: ٦).

اقترنت بعض الأفعال بالتضاريس الجغرافية في النقوش العربية القديمة وخاصة مهنة الرعي وهي من الأعمال التي امتهنها أبناء القبائل العربية وكانت رحلاتهم مقتصرة على تنقلاتهم مع قطعانهم من الأودية إلى منحدرات الجبال في فصل الصيف ويتجهون إلى منطقة الواحات في فصل الشتاء في بادية الشام، وكان للبيئة التي انتشرت بها القبائل العربية دور هام في تنقلاتهم، وقد اقترن الفعل "رعي" في النقوش العربية بالعديد من الأسماء الجغرافية والتي كانوا يرعون بها اغنامهم مثل: الحرة، الشريعة، الرحبة، القاع، التلع، مدبر، الضلع، أعتل وغيرها من الأسماء (العجرمي١٩٩٢: ٦٥).

اقتران بعض الأفعال بألفاظ التضاريس الجغرافية في النقوش العربية الصفائية

نظرا لاعتماد مجتمع القبائل العربية على مهنة الرعي في المرتبة الأولى، فقد تعايشوا مع الظروف المناخية للمنطقة، حيث كانوا يتنقلون بشكل موسمي للحصول على الكلأ والماء وضمان الاستمرار، وكانوا يمضون شهور فصل الربيع من السنة كشهري آذار ونيسان في المناطق الغربية كحوران وجبل العرب، نظرا لتوفر المياه والمراعي في هذا الوقت من العام (حراحشة، ٢٠١٠).

كما كانت توجد أماكن كالبرك تتجمع فيها المياه لفترات طويلة من العام، فكانوا يستقرون حولها لمدة معينة لاستغلال تلك المياه لسقي أنعامهم وري مزروعاتهم، لا سيما أنهم مارسوا زراعة بعض المحاصيل بالقرب من أماكن تجمع المياه، وقد كانوا يطلقون على هذه التجمعات المائية "محاذير" كالبركة التي كانت موجودة في منطقة قصر البرقع، حيث احتوت الكثير من النقوش التي عثر عليها هناك على الفعل "قيظ" بمعنى "قضى الصيف هناك" (الأحمد، ٢٠٠٨).

وما أن ينقضي الصيف حتى يتجهوا نحو الشرق في الحرة ونحو الحماد، حيث المكان يكون أكثر دفئًا في الشتاء، وتسقط هناك الأمطار الموسمية في شهري تشرين الأول والثاني (حراحشة، ٢٠١٠)، ولذا فقد كثرت في النقوش الصفائية لفظتي "شرق" و"دثأ"، فقضاء الشتاء في مثل هذه المنطقة يعني إمكانية الحصول على موارد مائية للزراعة، لسقاية الحيوانات، بالإضافة إلى حماية الإبل الصغيرة من برد الشمال الذي كان يتسبب بقتلها. وفي معظم هذه المواقع انتشرت بكثرة النقوش التي احتوت على الفعل "رعي" والذي ارتبط عادة بذكر أسماء لتضاريس جغرافية ساعدت على رسم صورة واضحة لطبيعة الأماكن الجغرافية التي عاشت وتنقلت فيها تلك القبائل.

والرعي مهنة تتطلب دوام الحركة والبحث والتنقل مع قطعان الماشية في مساحات شاسعة من أجل البحث عن الكل والماء، وكان للبيئة التي انتشرت بها القبائل العربية دور هام في تنقلاتهم وترحالهم (العجرمي١٩٩٢: ٦٥).

ألفاظ التضاريس في النقوش العربية الشمالية (الصفائية)

الأجمة (ʾjmh)

lʾʿtl bn Sʿdlh (طلافحة، ٢٠٠٩ نقش3 :34)

wrʿy hʾgmh

-لـ ʾ ʿtl بن Sʿdlh ورعي الأجمة.

الأجمة: هي الشجر الكثيف الملتف، أو منبت الشجر، والجمع أجْمٌ، وأجُمٌ، وآجام، والأجم موضع بالشام (اللسان مادة: أجم)، والأُجُمُ: القصر بلغة أهل الحجاز (سلوم١٩٨٧: ١٨)، ترد في السبئية "أ ج م" بمعنى: تام، كامل الحقوق الملك (Beeston; et al., 1982).

الأرض (ʾ**rḍ**)

l frhz bn kmd wṭrd mn ḥrn frʿy kll ʾrḍ (WH 161).

- لـ frhz بن kmd، وساق ماشيته من حوران، ورعى في كل أرض (أو كل مكان) وصل إليه.

الأرض: هي المكان أو الموضع (WH1978)، وفي العربية، الأرض: هي كل ما سَفل (الفيروزأبادي، ماد: أرض).
تكررت هذه اللفظة في أكثر من نقش صفائي (WH 440)، ووردت في السبئية بنفس المعنى (Beeston; et al., 1982).

أنشج (ʾnšj)

l ʿbd bn ġṯ bn whblh bn nʿmn ḏʾl sb wṣyr
mn dy rn(ẖ) ɔnšj fhlt [slm](WH7)
- لـ ʿbd بن ġṯ بن whblh بن nʿmn من آل sb، وعاد من دي مبتلاً من مجرى الماء، فيا اللات امنحيه السلام.
أنشج: هو مجرى أو جدول للماء(WH1978)، وفي العربية ترد هذه اللفظة بنفس المعنى.

التلعة (Tlʿt)

l ḥny bn sny bn ksṭ wrʿ htlʿt bqll (CIS 2206).
- لـ ḥny بن sny بن ksṭ، ورعى في تلعة فيها البقل.
التلعة: هي ما ارتفع من الأرض وما أنهبط منها، ومسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادي (الفيروزأبادي، مادة: تلع).
تعليق: تطلق لفظة التلاع على مسايل الماء من الإسناد والنجاف والجبال حتى ينصب في الوادي ولا تكون إلا في الصحارى (الفيروزأبادي، مادة: تلع)، ولذا فقد يكون المقصود من لفظة "tlʿt" الواردة في النقش هو "مجرى الماء" الذي نبت البقل بجواره (صب لبن٢٠١٠: ٧٣).

التل (Tll)

l bn mfny bn qdm bn mfny htll (عبادي ٧٠)
لـ بن mfny بن qdm بن mfny- .... هذا التل
التل: هي الرابية من التراب مكبوسًا ليس خلقة، والتل من صغار الآكام، وهو أصغر من الأكمة وأقل حجارة منها (اللسان: مادة تلل)، التل الرابية وجمعة تلاا (الزبيدي١٩٦٦ج٧: ١٤٣).

الجرف (Jrf)

l dẖl bn ẖdg bn ʾtm wrʿy jrf
(الخريشة ٤٥٠)
- لـ dẖl بن ẖdg بن ʾtm، ورعى في الجرف.
الجرف: هو الخصب والكلأ الممتد، أو يبيس الحماط، أو يابس الأفاني، كما يطلق الجريف (بكسر الجيم) على باطن الشدق، والمكان الذي لا يأخذه السيل ويُضم (الفيروزأبادي، مادة: جرف)، ووردت هذه اللفظة اسماً لعلم في الصفائية (SIJ 878).

الجرل (Jrl)

l ʾslm hʾjrl wbhʾ (WH 3136)
- لـ ʾslm هذه الأرض الحجرية، وأزال ما كان فيها، أو رحل عنها.
الجرل: وهي الأرض الصخرية (WH1978)، وفي العربية، ترد هذه اللفظة بنفس المعنى فالجرل: هي مفرد أجرال، وهي الحجارة، أو المكان الصلب الغليظ (الفيروزأبادي مادة: جرل)، وذكر هذا اللفظ في نقش صفائي آخر بنفس الدلالة (WH 2255)، كما واستخدمت هذه اللفظة في النقوش الصفائية اسما لعلم (WH 1917).

الحرة (Ḥrt)

l šhm bn rjl bn ʿmd bn mlk wʾšrq bhʾbl
mḥrn mmḥl fwjd ḥrt ẖbṯt fhlt wšʿhqm
lm wẖlṣt mbʾs hsnt ...(عبادي ٨٤)
- لـ šhm بن ʿmd بن mlk واتجه بالإبل شرقًا من حوران من المحل(القحط)، فوجد حرة خبثة، فيا اللات وشيع القوم امنحاه السلام والخلاص من بؤس هذه السنة.....
الحرة: هي أرض ذات حجارة نخرة سود (الفيروزأبادي، مادة: حرر).
تعليق: تمتد منطقة الحرة في المنطقة الشرقية والجنوبية الشرقية من دمشق، وفي المنطقة الشرقية من البادية الأردنية، وفي شمال غرب المملكة العربية السعودية تغطيها الصخور البازلتية السوداء وهي منطقة استيطان القبائل العربية، وفيها انتشرت رجومهم ونقوشهم (صب لبن٢٠١٠: ٧٥).

الحسى (Ḥsy)

L flṭṭ bn tm bn flṭṭ bn bš bn ɔḏnt w ẖll ʿl
hḥsy fklmh hʾsd fhlt slm (LP 161)
- ل flṭṭ بن tm بن flṭṭ بن bš بن ʾḏnt، وأقام في السهل الذي يحتوي الماء، فجرحه الأسد، فيا اللات امنحيه السلام.
الحسى: هي مكان تتواجد فيه المياه (Littmann, 1943)، وفي العربية الحسى: هي سهل من الأرض

يستنقع فيه الماء، أو غلظ فوقه رمل يجمع ماء المطر (الفيروزأبادي مادة: حسي).

الأخدود (Ḫdd)

W wrd ḫdd (SIJ 127)

-لـ.........وورد الأخدود.

الأخدود: هو شق في الأرض مستطيل، والخد هو الجدول (اللسان، مادة: خدد)، وفي التنزيل قوله تعالى ﴿قُتِلَ أَصْحَابُ الأُخْدُودِ﴾ {البروجآية ٤}.

الخميلة (Hmlt)

l bt bn ṣwl wrʿy hḫmlt lb (WH 3093)

- لـ bt بن ṣwl، ورعى إبله في الخميلة.

الخميلة: هي المنهبط من الأرض، وهي مكرمة للنبات، أو رملة تنبت الشجر، والقطيفة، والشجر الكثير الملتف، والموضع الكثير الشجر(الفيروزأبادي، مادة: خمل).

رم (Rm)

Lmlzan bn mlz bn ghm wwgd sfr ẓan al
bn ḫalh qant brm fymṯal fahlt slm"
lšrdhm

(طلافحة، الحصان ٢٠١٦: ٤٩)

-لـ Mlzn بن Mlz بن Jhm ووجد سفر ظن ال
بن خاله الذي قنط برم فيا مث ال ويا اللات
سلمي شاردهم.

"أ ل ر م"، "ه ر م"، "ر م"، "أل ه ر م"، أسماء وردت في النقوش الصفائية ويرى بعض الباحثون أنها تعني: "الرومان، أو روما"، ويرى "ماكدونالد "أن "ا ل ر م" هي قبيلة صفائية (العبادي٢٠٠٦، نقش٧٩: ١٠٥)، "ونت وهاردنج أعتبر بأن "رم" هي "روما" أو منطقة رومانية (WH1996A)، و"ر م" اسم منطقة، وربما تسمى المناطق العالية مثل: "رام "رام الله، ريمون، ورم "وربما يكون المقصود بهذا الاسم هو وادي "رم" المعروف في جنوب الأردن (الجراح١٩٩٣: ٣٦)، ونستبعد أن "ظن إل" ذهب إلى "روما" وقنط هنالك، بل نرجح بأنه ذهب إلى مكان مرتفع أو إلى منطقة "رم" وقنط هناك، و"رمراما" موقع أثري مرتفع في شمال الأردن يقع في منطقة لواء المزار الشمالي جنوب مدينة اربد (لنزن١٩٩١: ٣٥)، ومن المعلوم أن المناطق العالية تبعث في النفس الشجون والأحزان والتأمل، ويتضح أن عددًا كبيرًا من المواقع المرتفعة وكانت موئلاً للشعراء والمتأملين والعباد على السواء ومن أهمها "رجم العبد، وتل رماح، وجبل قعيس "في البادية الأردنية الشمالية الشرقية.

الروضة (Rḍt)

l mfny bn tm wrʿy hrḍt nwy (WH 2142)

- لـ mfny بن tm، ورعى في روضة أثناء تنقله.

الروضة: هي مستنقع من الماء لأستراضة الماء فيها، وفيها نبت (الفيروزأبادي، مادة: روض). وتكرر ذكر هذه اللفظة في أكثر من نقش صفائي (WH 54,784)، كما ترد هذه اللفظة في الصفائية اسمًا لعلم أيضًا (WH 429a)، والمقصود بالروضة هنا هو الحقل والحديقة، حيث يقال في اللهجة البدوية المحكية لأهل البادية الأردنية، ريّض، يريض فهو مريّض أي مقيم في منطقة الروضاء أي كثيرة الخضرة والمياه. ورد "ر ض ت" بدون حرف العلة "الواو" في نقوش صفائية أخرى بمعنى: الروضة (علولو١٩٩٦، نقش٣٤٥: ١٢٩؛ WH 2145)، وورد في اللهجة الجبالية والمهرية "م ر و ض" وتعني حجم، أو بُعد (مريخ٢٠٠٠: ٣٩٥).

الريع (Ryʿ)

hmtt Lgadlt bn afṢy wgry mhwyl arṢʿ al
rʿh fwgd

(الحصان، طلافحة٢٠١٤نقش١أ)

-لـ gadlt بن afsy وهرب من الويل الشديد إلى سكناه فوجد المتت.

الريعُ: هو المكان المرتفع من الأرض، والرِّيع الطريق، وقيل هو الجبل الصغير، الواحد رِيعَةٌ، والجمع رِياعٌ، وهو مضاف إلى الضمير المفرد المذكر للغائب الهاء "ريعه (الصحاح في اللغة مادة: ريع)، وفي التنزيل قول الله تعالى﴿أَتَبْنُونَ بكلِّ رِيعٍ آيةً تَعْبَثُونَ﴾ الشعراء آية ١٢٨، يبنون عند كل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخًا محكمًا لمجرد اللهو والعبث (الصابوني١٩٨١، ج١٠: ١٩)، والريع: الطريق بلغة جرهم (سلوم١٩٨٧: ١٧٨)، ونرى أن هذه اللفظة ترد لأول مرة أيضًا في النقوش الصفائية، وجاءت في النقوش الثمودية "ر ي ع" بمعنى: عاد (المهباش٢٠٠٣: ٨٠).

الريف (Rf)

l jrd bn mrṭ bn ẓlm wwḥd bhrf fhrḍw
slm (CNSI 603)

- لـ jrd بن mrṭ بن ẓlm، وأقام في الريف وحده، فيا رضو امنحه السلام.

الريف: أرض خصبة (Clark, 1980)، والريف هو أرض فيها زرع وخصب، والسعة في المأكل والمشرب، وتطلق حيث الخضر والمياه والزروع (الفيروزأبادي، مادة: روف).

السر (Sr)

l ᶜṯtfy bn kᶜmh wnfr hsr (WH 3342)

- لـ ᶜṯtfy بن kᶜmh وهرب نحو الوادي.

السر: هو الوادي (WH1978)، وفي العربية، السرر والسرار: هو بطن الوادي وأطيبه، وما طاب من الأرض وكرم (الفيروزأبادي، مادة: سرر)، وتكرر ذكر هذه اللفظة في أكثر من نقش صفائي (WH 648, 1638).

السفح (Sfḥ)

fasrq bmᶜzy hsfh (CIS 1276)

- لـ..........ذهب شرقًا بالمعزي إلى عرض الجبل

السَّفْحُ: عُرْضُ الجبل، حيث يَسْفَحُ فيه الماءُ، وهو عُرْضُه المضطجِعُ؛ وقيل: السَّفْحُ أَصل الجبل؛ وقيل: هو الحضيض الأَسفل، والجمع سُفوح؛ والسُّفوحُ أَيضًا: الصخور اللينة المتزلقة. أمَّا سَفْح الجبل فهو من باب الإبدال، والأصل فيه صَفح (اللسان مادة: سفح).

السهل (Shl)

l ṣhyn bn khl wnfr hshl sl (LP 736)

- لـ ṣhyn بن khl، وهرب إلى سهل sl.

السهل: وهو ما استوى من الأرض، معروف، ترد هذه اللفظة بنفس الدلالة في السبئية (Beeston 1982, C405/13)، واستخدمت في الصفائية اسمًا لعلم أيضًا (WH 1884)، وكذلك في العربية، وكان سهل من بني جشم بن عوف من الذين شهدوا بدرا (ابن دريد، ١٩٧٩). قراء ليتمان هذا النقش "ه س ه ل س ل" بالسهل الذي يكون على جانبي السيل (جراح١٩٩٣: ٨٢).

الشريعة الشرع (Ŝrᶜ)

Lnn bn flt wrᶜy hsrᶜ (CIS 2299)

-لـ Nn بن Fl ṭ ورعي في موضع كثير المياه.

الشَّريعةُ: هي المواضعُ التي يُنْحَدر إلى الماء منها (اللسان مادة: شرع)، وفي السبيئة ورد " ش ر ع ه" وتعني: الساقية (Beeston; et al., 1982)، والعرب لا تسميها شريعة حتى يكون الماء غزيرًا فيها والشريعة والشرعة مورد الشاربة التي يشرعها الناس فيشربون منها ويسقون دوابهم (الزبيدي١٩٦٦، ج٥: ٣٩٧).

شنظ (Ŝnẓ)

Lzhl bn akḫt whzr aḫwh hna wyᶜṯṯ wwal
bn aḫth wqḥs bn dadh asrn fhšyᶜqwm
rwh lqm šnẓ

(طلافحة، الحصان ٢٠١٥: 32)

- لـ Zhl بن ᵓkḫt وضرب أخوه بالعصا حتى صرعه والجأ ابن أخته، وقدم له الحماية، وأمسك ابن عمه أسيرًا، فيا شيع القوم امنح الأمان والطمأنينة لهذه النواحي.

الشنظ: هو اسم مفرد مذكر يطلق على النواحي والمناطق، مكان شَناظِي الجبالِ وأَعاليها وأَطرافُها ونواحيها، واحدتها شُنْظُوَةٌ على وزن فُعْلُوَةٍ (اللسان مادة: شنظ).

الضلع (Ḍlᶜ)

Lwbd bn qdmt bn kᶜmh wrᶜy hdlᶜ nqwy
(WH2149)

-لـ Wbd بن Qdmt بن Kᶜmh wrᶜy في منحدر نقاوة.

الضِّلَعُ من الجبل شيءٌ مُسْتَدِقٌّ مُنْقادٌ، هو الجُبَيْلُ الصغير الذي ليس بالطويل، والضلع هو الجبيل المنفرد، وقيل هو جبل ذلِيلٌ مُسْتَدِقٌّ طويل (اللسان مادة: ضلع).

العارض (ᶜrḍ)

l ẓn bn tm bn msk bn ẓn bn ṯḥr bn qdm
wmṭy fhlt slm wᶜwr wᶜrg lḏ ᶜwr hḫṯṯ
wrᶜy bqll hᶜrḍ (CIS 2005).

- لـ ẓn بن tm بن msk بن ẓn بن ṯḥr بن qdm فيا اللات سلامًا، وعور، وعرج بالذي عور النقش. ورعى البقل في الوادي (أو سفح الجبل).

العرض: هو كل واد فيه شجر (اللسان، مادة: عرض)، وورد هذه اللفظة في نقوش صفائية أخرى (LP

326)، وأطلق هذا اللفظ في الصفائية اسمًا لعلم أيضًا (LP 1058).

العين (ʿn)

l ḫddt bn nfʿ bn ftš bn zdl bn kbst hʿn (LP 138)

- لـ ḫddt بن nfʿ بن ftš بن zdl بن kbst عين.

العين: ذهب ليتمان إلى تفسيرها بأنها بئر أو ينبوع (Littmann, 1943)، وفي العربية هي مكان جريان الماء (الفيروزأبادي، مادة: عين)، ووردت بنفس المعنى في النبطية بصيغة "ʿyn" (الذييب، ٢٠٠٠)، وفي السبئية (Beeston. 1982, Ra 10/1).

الغوطة (Ġṭ)

l nġbr bn ḥft h[ġ]ṭ (CNSI 60)

- لـ nġbr بن ḥft هذه الأرض الواسعة.

الغوطة: هي الأرض الخصبة (Clark, 1980)، والغوطة في العربية هي الوهدة في الأرض. والغيط: هو المطمئن الواسع من الأرض (الفيروزأبادي، مادة: غوط).

الغيبة (Ġybt)

l ʿly bn ḥmʾ wḫmrt nqth bhġybt (CNSI 296)

- لـ ʿly بن ḥmʾ، واختفت ناقته في الغابة (بين الأشجار).

فسر كلارك (ġybt) بأنها أرض منخفضة (Clark, 1978)، أما في العربية، فالغياب هو الشجر، وبتشديد الياء عروقه (الفيروزأبادي، مادة: غيب).

تعليق: يُعَدّ الإله ذو غابت (dġbt) أو ذو الغيبة (dġybt) من أهم آلهة اللحيانيين، ويُعتقد أنه إله الغابات والأحراش (كاسكل، ١٩٧١)، وقد عثر على بقايا معبد لهذا الإله في ديدان، وعلى العديد من النقوش اللحيانية التي تحمل اسمه (القدرة، ١٩٩٣)، وربما كان غنى مدينتي العلا ومدائن صالح بالغابات، هو ما دفع اللحيانيين لإطلاق هذا الاسم عليه، كما قد يكون الإله (dġybt) هو الإله الغائب لذلك فهو إله السماء لذا عُد المعبود الأهم لدى اللحيانيين (أبو الحسن، ١٩٩٧).

القاع (Qʿ)

Lḥy bn drh wrʿy hqʿ (WH 2532)

-لـ Lḥy بن Drh ورعي في القاع.

القاعُ: أرضٌ سَهْلَةٌ مُطْمَئِنَّةٌ انْفَرَجَتْ عنها الجِبالُ والآكامُ، وتجمع على قِيعٌ وقِيعَةٌ وقِيعانٌ (الفيروزأبادي، مادة: قاع)، والقاع ارض سهلية تمتلئ بالماء بعد هطول الأمطار وهي لا تحتوي على غطاء نباتي (السنكري١٩٨١: ١٣٩)، وربما يقصد كاتب النقش الأرض السهلية المحيطة بالقلع فالقاع لا يحتوي على غطاء نباتي (عجرمي١٩٩٢: ٦٢).

القناة (Qnwt)

ḏr bn ʿtq bn hṣ bn mʾl bn ʿḏr bn tmn bn ḫbb bn zmhr wrʿy hšfr ʿl qnwt (WH 1199).

l ḏr بن ʿtq بن hṣ بن mʾl بن ʿḏr بن tmn بن ḫbb بن zmhr، ورعى على ضفاف قناة الماء........

القناة: وهي قناة الماء، معروفة، لم ترد هذه اللفظة في النقوش الصفائية إلا مرة واحدة، ووردت في الصفائية اسم علم (LP 324).

كنيف (knf)

lʿg bn ldm bn sk wrʿy hknf fyrḍy slm w ʿwr m ʿwr (WH1772)

-لـ sk بن ldm بن ʿg ورعي جانب الأرض السهلية.

أَكناف الجبل والوادي نواحِيه حيث تنضم إليه، الواحد كَنَفٌ (اللسان مادة: كنف)، وفي السبئية تعني: الجانب أو الناحية (Beeston; et al., 1982)، وكنف تعني "ناحية الشيء" وجمعها أكناف (ابن دريد١٩٨٧،ج٢: ٩٦٩).

الماء (My)

l ʿry bn ġrb bn ʿn wwrd hmy (WH 189).

- لـ ʿry بن ġrb بن ʿn، وورد الماء.

وفي العربية "الماء" معروف، واستخدم إلى جانب استخدامه بدلالته الأصلية اسمًا لعلم، حيث كان يطلق على قبيلة في الجاهلية بنو ماء السماء، الذين اشتهر فيهم رجل كان يقطر من دمه فيسقى منه من أصابه داء الكلب فيشفى (ابن دريد، ١٩٧٩).

المرج (Mrj)

l bḥrh bn mskʾl hytḏʿ wrʿy hmrj (WH 2465).

- لـ bḥrh بن mskʾl، ورعي المرج.

المرج: هو سهل مغطى بالعشب (WH1978)، وفي العربية هو الموضع ترعى فيه الدواب، أو ترسل إليه

للرعي والخلط (الفيروزأبادي، مادة: مرج)، ولقد وردت هذه اللفظة في الصفائية اسماً لعلم (WH 3512).

المعنق (Mʿnq)

l nhb bn ṭyšt bn bdn wrʿy mʿnq hʾf (WH 156).

- لـ nhb بن ṭyšt بن bdn، ورعى في مكان عال فيه نبت جديد.

المعنق: تلة مرتفعة (WH1978)، وفي العربية، المعنق (بضم الميم وكسر النون): هو ما صلب وارتفع من الأرض وحواليه سهل (الفيروزأبادي، مادة: عنق).

النخل (Nẖl)

l šddt bn šbm wrʿy hnẖl wšy fhrḍy ġny lḏ
rʿy (العبادي: ٧٢)

- لـ šddt بن šbm، ورعى الشياه في الوادي، فيا رضي امنح الغنى للذي رعى.

النخل: وهو نبت معروف. وتكرر ذكر هذا اللفظ في النقوش الصفائية (WH 65).

تعليق: أطلق الصفائيون لفظة نخل على الوادي، وعند ورود هذه اللفظة في نقوشهم فالمراد بها هو الوادي وليس شجر النخل، وقد يكون أصل اللفظة أنها تدل على الوادي ثم استعيرت للشجر الذي ينبت فيه فأطلقت على شجر النخيل من باب إطلاق المحلّ على الحالّ، وفي اللحيانية يستخدم هذا اللفظ للدلالة على نبت النخيل (أبو الحسن ١٩٩٧، نق ٣٣)، وفي السبئية يدل على نبات النخيل، أو على ساقية تجر الماء (Beeston; et al., 1982, R 3946/18)، كما أطلق هذا اللفظ في الصفائية اسماً لعلم (SIJ 49)، ووردت كلمة "نخل" بمعنى الريف أو مجمع البيوت في شعرِ ذي الرمة حيث قال:

مِنَ آلْعِرَاقِيَّةِ اللاتي يُحِيلُ لها بَيْنَ الْفَلاَةِ وَبَيْنَ النَّخْلِ أُخْدُودُ

(ابن هشام ،1936،جـ1: 48).

النقيل (Nql)

l ʾsd bn msʾ hnql (CNSI 341).

- لـ ʾsd بن msʾ هذا السيل.

فسر كلارك لفظة (nql) بأنها مكان مشبع بمياه الأمطار (Clark, 1980)، أما في العربية، النقيل: هو السيل يجئ من أرض ممطورة إلى غيرها (الفيروزأبادي، مادة: نقل)، كما وورد هذا اللفظ في الصفائية اسماً لعلم (WH 1386).

الوحفاء (Wḥft)

l ʾdm bn knwt wbhʾ hwfḥt (WH 707).

- لـ ʾdm بن knwt، ورجع إلى الأرض ذات الحجارة السوداء.

الوحفاء: هي منطقة مغطاة بصخور سوداء (WH 1978)، وفي العربية الوحفاء هي أرض فيها حجارة سوداء وليست بحرة (الفيروزأبادي، مادة: وحف).

أطلقت هذه اللفظة في الصفائية (WH 1204)، والثمودية (King, 1990, KJB 113a)، أسماءً لأعلام، وفي العربية لقب مالك بن ثعلبة، الذي كان أول من قتل فارسا من الأعاجم في معركة ذي قار بالوحف (ابن دريد، ١٩٧٩).

الوفد (Wfd)

L škwt bn ʾṣry wfd (WH 706).

- ل škwt بن ʾṣry هذا المرتفع الرملي الذي يرشح الماء منه.

الوفد: هو ذروة الجبل من الرمل المشرف (الفيروزأبادي مادة: وفد)، ورد هذا اللفظ اسم علم في الصفائية (ISB 7)، وفي الثمودية (TIJ 416).

الوقع (Wqʿt)

l zhmn bn yʿly hwqʿt (WH 1753).

- لـ zhmn بن yʿly هذا المرتفع (أو هذا المستنقع من الماء).

فسر كل من وينت وهاردنج لفظة wqʿ بأنها تعني الصخور(WH1978)، وفي العربية، الوقع: هو المكان المرتفع من الجبل، والوقيعة: هي نقرة في جبل أو سهل يستنقع فيها الماء (الفيروزأبادي مادة: وقع).

تكرر ورود هذه اللفظة في أكثر من نقش صفائي (WH 3050)، واستخدم كاسم لعلم أيضا (LP 461)، وعند العرب من رجال هوازن بطن يقال لهم الوقعة (ابن دريد، ١٩٧٩).

خاتمة

تؤكد النقوش الواردة في البحث وخاصة بعد تناول الألفاظ الواردة فيها الدالة على التضاريس من حيث آفاقها الدلالية مدى معرفة الفرد الصفائي بجغرافية البيئة التي سكنها. وكيفية اختياره للأماكن التي كانت تناسب أنشطته وممارساته حسب المواسم ليتمكن من الاستمرار في تلك البيئة القاسية التي عاشها. وخاصة أن حياته الاقتصادية اعتمدت في المقام الأول على الرعي الذي فرض عليه ضرورة التنقل المستمر بحثا عن الماء والكلأ.

ومما تجدر الإشارة إليه؛ أن الصفائيين استخدموا بعض الألفاظ الدالة على أماكن وتضاريس كأسماء لأعلام كـ (جرف، جرل، روض، سهل، مرج، ماء، وغيرها...). كما استخدم الصفائيون أسماء لأعلام تتضمن إشارات ودلالات تتعلق بالبيئة الطبيعية للبادية التي من ضمنها التضاريس الجغرافية ولكنها لم ترد كألفاظ في النقوش الصفائية، كاسم بحر (الخريشة 151) والذي يدل أن الصفائيين كانوا على علم حتى بالتضاريس التي لم يألفوها في بيئتهم الصحراوية.

Abbreviations

ADAJ: Annual of the Department of Antiquities of Jordan.

CIS: Crops Inscriptionum Semiticarum.

CNSI Clark, Study of New Safaitic Inscriptions from Jordan, 1980.

HCH: G.L. Harding.1953.

HIN: Harding,G.L.1971.

ISB: W.G .Oxtoby.1968.

LP: Littmann,E.Safaitic Inscriptions,1943.

SIJ: Winnett.F.V.Safaitic Inscriptions from Jordan,1957.

TIJ: Harding,G.and Littmann,E.1952.

CSNS: Study of new Safaitic Inscriptions from Jordan1979.

WH: Winnett.F.V. and Harding,G.L.1978.

المراجع

أولاً: المراجع العربية

- الأحمد، أسماء، 2006، **مجتمع قبائل الصفا كما تعكسه النصوص المنشورة**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الأزهري، أبو منصور محمد احمد ١٩٦٤، **تهذيب اللغة**، تحقيق عبد السلام هارون، دار القومية العربية للطباعة، القاهرة.
- بيستون، جاك، ريكمنز، الغول، محمود، والتر، مولر.١٩٨٢، **المعجم السبئي**، مكتبة لبنان، ودار نشريات بيترز، بيروت.
- جراح، صالح رشيد سليمان١٩٩٣، **أسماء الأماكن والمواقع في النقوش الصفائية**، رسالة ماجستير غير منشورة، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، اربد.
- الجوهري، إسماعيل بن حماد١٩٩٠، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان.
- أبو الحسن، حسين.٢٠٠٢، **قراءة جديدة لكتابات لحيانية من جبل عكمة بمنطقة العلا**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الحصان، طلافحة٢٠١٤، نقوش عربية شمالية من البادية الأردنية الشمالية الشرقية، **أدوماتو، العدد التاسع والعشرون**، الرياض.
- ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن١٩٧٩، **الاشتقاق**، جمعه وحققه، عبد السلام هارون، بيروت.
- ديسو، رنيه١٩٥٩، **العرب في سوريا قبل الإسلام**، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، راجعه محمد مصطفى زيادة، نشرته لجنة التأليف والنشر، القاهرة.
- الذييب، سليمان بن عبد الرحمن٢٠٠٠، **المعجم النبطي**، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض.
- الروسان، محمود٢٠١٢، رجم المعبود كهل من خلال النقوش العربية الشمالية، **أدوماتو، العدد الخامس والعشرون**، الرياض.
- الزبيدي، محمود مرتضى١٩٦٦، **تاج العروس من جواهر القاموس**،١٠ أجزاء، بيروت دار صادر.
- ......، محمود مرتضى١٩٧٤، **تاج العروس من جواهر القاموس**، ٨ أجزاء، المطبعة الخيرية، القاهرة.
- سنكري محمد نذير، ١٩٨٥، **بيئات ونباتات ومراعي المناطق الجافة وشديدة الجفاف في سورية حمايتها وتطويرها**، الطبعة الثالثة، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية، حلب.
- سلوم، داود١٩٨٧، **المعجم الكامل في لهجات الفصحى**، عالم الكتاب، بيروت.
- صب لبن، كاريمان ٢٠١٥، **دراسة دلالية لألفاظ البيئة الطبيعية في النقوش الصفوية**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الهاشمية، الزرقاء.
- طلافحة، زياد٢٠٠٠، **لغة النقوش الصفائية وصلتها بلهجة أهل البادية الشمالية الأردنية**، دراسة مقارنة، رسالة دكتوراه غير منشورة، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة.

- ....، ٢٠٠٨، تفسيرات لغوية لبعض الأسماء في النقوش الصفائية، **أدوماتو، العدد الثامن عشر**، الرياض.
- ....، ٢٠٠٩، نقوش صفوية من تلة الفهداوي بالبادية الأردنية، **أدوماتو، العدد التاسع عشر**، الرياض.
- ....، ٢٠١١، نقوش صفوية جديدة من تلة الفهداوي بالبادية الأردنية، **أدوماتو، العدد الثالث والعشرون**، الرياض.
- ....، الحصان ٢٠١٦، نقوش صفائية من وادي سلمى أم الجمال الدفيانة في محافظة المفرق الأردن، **أدوماتو، العدد الثالث والثلاثون**، الرياض.
- عبادي، صبري٢٠٠٦، **نقوش صفوية من وادي سلمي"البادية الأردنية"**، مطبعة الجامعة الأردنية، عمان.
- عجرمي، منى١٩٩٢، **حياة الرعي والصيد عند الصفويين من خلال نقوشهم**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- علولو، محمد يوسف١٩٩٦، **دراسة نقوس صفوية جديدة من وادي السوع جنوب سورية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- عمر، أحمد٢٠٠٨، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، عالم الكتب، القاهرة.
- ابن فارس، أبو الحسن ١٩٧٢، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام هارون، القاهرة.
- الفيروز أبادي، مجد الدين ٢٠٠٥، **القاموس المحيط**، دار الرسالة، بيروت.
- القدرة، حسين محمد عايش١٩٩٣، **دراسة معجمية لألفاظ النقوش اللحيانية في إطار اللغات السامية الجنوبية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة اليرموك، إربد.
- كاسكل.ف، ١٩٦٩ **لحيان: المملكة العربية القديمة**، ترجمة منذر البكر، مجلة كلية الأدب، جامعة البصرة، ٥: ١٧٤ _ ١٩٥.
- ليتمان، إنو١٩٤٧، لهجات عربية قبل الإسلام، **مجلة مجمع اللغة العربية**، القاهرة.
- لينزن، ١٩٩١، دراسات أنثروبولوجيه في منطقة لواء المزار الشمالي، **الأنباء**، العدد ١١، معهد الآثار والأنثروبولوجيا، جامعة اليرموك، اربد.
- مريخ، عادل٢٠٠٠، **العربية القديمة ولهجاتها دراسة مقارنة بين ألفاظ المعجم السبئي وألفاظ لهجات عربية قديمة (الجبالية والمهرية**، منشورات المجمع الثقافي، أبو ظبي.
- ابن منظور١٩٥٥، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت.
- المهباش ٢٠٠٣، خالد بن عبد العزيز، **مفردات النقوش الثمودية دراسة دلالية مقارنة في إطار اللغات السامية**، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الملك سعود، الرياض.
- ابن هشام، محمد بن عبد الله ١٩٣٦، **السيرة النبوية**، مطبعة الحلبي، القاهرة.

ثانيًا: المراجع غير العربية

- *Ababneh, M., 2005, Neue Safaitische Inschriften und deren bildliche Darstellungen,Aachen.*
- *CIS: Crops Inscriptionum Semiticarum.*
- *Gesenius, (1978).Hebrew and English Lexice, Oxford, At the Clarendon Press.*
- *Harding, G. L. 1971. An Index and Concordance of pre-Islamic Arabian Names and Inscriptions: Toronto. (HIN) ......,1953*
- *The Cairn of Hani`.ADAJ 2: pp8-56 (HCH) ....,1951*
- *New Safaitic Texts, .ADAJ1:pp25-29(NST).*
- *King,G.,Early North Arabian Thamudic E: A Preliminary description based on a new corpus of inscriptions from the Hisma desert of southern of Jordan and published material,Unpublished Ph.D thesis School of Orriental and African Studis,1990,p500.*
- *Littmann, E., 1943. Safaitic Inscriptions, Leiden: Publications of Princeton University Archaeological Expeditions to Syria in 1904-1905 and1909. (LP).*
- *Oxtoby, W. 1968. Some of the Safaitic Bedouin, New Haven: American Oriental Series 50. (ISB).*
- *Winnett, F. Harding .G.1978. Inscriptions from Fifty Safaitic Cairns: Toronto: University of Toronto Press, (WH).*
- *Winnett.F.V.1957.Safaitic Inscriptions from Jordan, Toronto: University of Toronto Press, (SIJ).*

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

التّأثيرات العُثمانية على العِمارة الإسلامية في اليمن
دراسة آثارية مِعمارية فنية

د. محمد أحمد عبد الرحمن عنب
مدرس الآثار الإسلامية
كلية الآثار
جامعة الفيوم - جمهورية مصر العربية



مُلَخّص

دَخلت اليمن تَحت الحُكم العُثماني مُنذ عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، وكان هَذا الوُجود اسميًا فقط، وتأكّد مُنذ عام٩٤٥هـ/١٥٣٨م عندما أرسلت السُلطة العُثمانية حَملة عَسكرية بقيادة سُليمان بَاشا الخَادم لِتوطيد نُفوذها وَسُلطاتها الفِعلية في اليمن، ويَنقسم الوُجود العُثماني في اليمن لفترتين؛ الأولى (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م) تَلاها فَترة الاستقلال عن الدولة العُثمانية، ثُم الفَترة الثانية (١٢٨٩-١٣٣٦هـ/١٨٧٢-١٩١٨م)، وقد كَان لِلحُكم العُثماني بَصماته التَاريخية الوَاضحة طَوال تَواجده في اليمن؛ حيث كَان لِلعُثمانيين دَورًا بَارزًا في نُمو وتَطوّر المُدن اليَمنية؛ فقد حَرصوا عَلى إنشاء المُنشآت المِعمارية المُختلفة وَمِنها الحُصون وَالقِلاع وَالمَساجد وَالمَدارس وَبِناء الحَمامات وَالمَنازل ذات الطِراز التُركي، وقد ظَهر التَأثير العُثماني في شَكل وتَخطيط العَمائر الإسلامية في اليمن؛ فظَهرت المُنشآت المُصمّمة عَلى الطِراز العُثماني، كَما تَمثّلت التّأثيرات العُثمانية عَلى المُنشآت الدينية في إضافة بَعض العَناصر المِعمارية مِثل المَنابر الرُخامية التي لم تَكن مَعروفة من قَبل في اليمن، ودِكة المُبلّغ وغَيرها، كما ظَهرت العَديد مِن التَأثيرات الفنية العُثمانية كَزَخارف البَاروك وَالرُوكوكو المُميّزة لِلطِراز الرُومي التُركي عَلى بَعض العَمائر اليَمنية، ويَتناول البَاحث في هَذه الدِراسة شَكل وحَجم التَأثيرات المِعمارية والفنية العُثمانية عَلى العَمائر الإسلامية في اليَمن.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٨ نوفمبر ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٣ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

العُثمانيون، البَكيرية، سِنان باشا، صنعاء، السُلطان عَبد الحَميد الثاني، زَبيد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055398

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد أحمد عبد الرحمن عنب. "التأثيرات العُثمانية على العِمارة الإسلامية في اليمن: دراسة آثارية مِعمارية فنية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٩ – ٤٠.

مُقَدِّمَةُ

ظَهرت الدَولة العُثمانية كَدولة إسلامية تمَكّنت مِن بَسط نُفوذها عَلى مَناطق وَاسعة في الوَقت الذي أصبحت فيه مُعظم الدُول الإسلامية كَيانات إقليمية صَغيرة غير قَادرة عَلى مُواجهة الأخطار المُحيطة بِالدَولة الإسلامية وَبالأخص في البِحار الإسلامية المُحيطة بِالأماكن المُقدّسة كَالحَرمين الشَريفين وبَيت المَقدس، فَقد تمَكّن السُلطان العُثماني سليم الأول مِن الاستيلاء عَلى مِصر عام (٩٢٣هـ/١٥١٧م)، كَما أعلن شَريف مكة طَاعته لِلعُثمانيين، وَصار يُخطب لَه فِيها، وبِإعلان شَريف مكة الوَلاء لِلدولة العُثمانية انتقلت قِيادة الدَولة الإسلامية لِلدولة العُثمانية وَتأكيدًا عَلى ذَلك أُضيفت إلى ألقاب السُلطان العُثماني لَقب حَامي حِمى الحَرمين الشَريفين؛ تَأكيدًا عَلى زَعامته عَلى العَالم الإسلامي[١]، وَأصبح الدِفاع عَن الدِيار المُقدّسة وَاجب الدَولة العُثمانية، وَلمّا كَانت اليمن تمُثل خَط الدِفاع الأوَل عَن الدِيار المُقدّسة؛ نَظرًا لِمَوقعها الاستراتيجي المُهيمن عَلى شَواطئ البَحرين العَربي وَالأحمر؛ لِذا حَرصت الدَولة العُثمانية عَلى إحكام السيطرة عَليه خَاصة أنّ اليمن تمُثّل دُعامة الحِجاز، وَقد كَانت اليمن في حَالة ضَعف في تِلك الفَترة[٢]، وَلِذلك

أَمر السُلطان سُليمان القَانوني بِتَجهيز قُوة بَحرية ضَخمة بِقِيادة سُليمان بَاشا الخَادم عام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) إلى الشَواطئ اليَمنية لِتَحقيق عَدد من الأهداف منها:

١- مُواجهة الخَطر البرُتغالي[٣]؛فنَظرًا لأهمية مَوقع اليمن الاستراتيجي جَنوب الحَرمين الشَريفين، كَما أنّ بِلاد اليمن تمُثل أهم الطُرق البَحرية التي تمَر مِن خِلالها القَوافل التُجارية مِن الهند وَمِن مَناطق الشَرق المُختلفة إلى الغَرب[٤]؛ وَلِذلك وَضع العُثمانيون عَلى كَاهِلهم مُهمة تَأمين الحُدود الجَنوبية لِلإمبراطُورية الإسلامية وَضَمان الوُصول إلى المُحيط الهِندي لِتَحقيق غَايتين مُهمتين؛ الأُولى تَأمين طُرق التِجارة الإسلامية التي قَضت عَليها القُوات البرُتغالية المَوجودة هُناك، وَالثانية حِماية المُسلمين في بِلاد الهند وَفتح أَسواق جَديدة فِيها لِلتجارة الإسلامية[٥].

٢-حِماية الحَرمين الشَريفين؛ فَكما سبق القول أنّ مُهمة حِماية الإسلام والمُسلمين وَمُقدساتهم الدِينية أصبحت تَقع عَلى كَاهل الدَولة العُثمانية، وَلِذلك قَام العُثمانيون بِبناء أُسطول بَحري قَوي قَادر عَلى إحكام السَيّطرة عَلى السَواحل التي يمُكن أن تُهدّد الدِيار المُقدّسة، وَلاشك أنّ اليمن بِسَواحله الشَاسعة كَان لَه دَور كَبير في مُواجهة الخَطر الصَليبي الذي يُهدّد أمن الحَرمين الشَريفين.

٣- تَحقيق الإستقرار الأمني والإجتماعي في اليمن؛ حيث كَانت اليمن قَبل مَجئ العُثمانيين في حَالة اضطراب وَتمَزّق؛ فَكان يَتقاسم الحُكم ثَلاث كُتل تَتصارع فِيما بَينها مِن أَجل الإستئثار بِالسُلطة وَهَذه الكُتل هِي؛ المَماليك وَالطَاهريين بِقيادة السُلطان عَامر بن عَبد الوَهاب الطَاهري[٦]، أمّا الثَالثة فهي المُتمثلة في الإمام شَرَف الدين وَأعوانه[٧]، وَقد كَان لِهذه الإنقسامات مَردودات سَلبية عَلى المُجتمع اليَمني، وَبمُجرد عِلم السُلطان سُليمان القَانوني بِأحوال اليمن المُضطربة حَتى أَرسل حَامية عُثمانية بِقيادة الوَالي سُليمان بَاشا الخَادم[٨] وَكانت هَذه الحَملة مُوجّهة في أَول الأمر إلي الهند لِمُهاجمة البرُتغاليين ثُم أمرها بِالتوجه إلى اليمن[٩].

كَانت هَذه بَعض الأَسباب في إقدام العُثمانيين عَلى فَتح اليمن وَليس كَما يَزعم البَعض أنّ سَبب ذَلك هُو رَغبة الدَولة العُثمانية مِن فَرض سيطرتها عَلى كُل بُلدان العَالم الإسلامي، فقد شبّه البَعض بِأنّ تواجد العُثمانيين في اليمن وَغَيره بِالتَواجد الاستعماري لِنَهب خَيراتها[١٠]، وَهَذا الرأي لا أَساس لَه مِن الصِحة، ويَنفي هَذا الكَلام كَمْ الإصلاحات التي أحدثوها في كُل البِلاد التي قَاموا بِفَتحها وَمِنها اليمن[١١].

١- الوُجود العُثماني فِي اليمن

يَنقسم الوُجود العُثماني في اليمن إلي فَترتين: الفَترة الأُولي؛ والتي استمرت مُنذ عَام (٩٤٥هـ/١٥٣٨م) حتى (١٠٤٥هـ/١٦٣٥م) تَلاها فَترة تسمي الإستقلال عَن حُكم الدَولة العُثمانية[١٢]، ثُم جَاءت الفَترة الثانية لِلوُجود العُثماني سنة (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)[١٣].

١/١-الوُجود العُثماني الأَول في اليمن (٩٤٥-١٠٤٥هـ/١٥٣٨-١٦٣٥م):

بَدأ الحُكم العُثماني بِاليمن في فَترته الأُولى التي استمرت قُرابة المَائة عَام، وتَعاقب فيها عَلى حُكم اليمن ثَلاث وَعشرون وَاليًا، وَكَان مِن أوائل الوُلاة العُثمانيين عَلى اليمن سُليمان بَاشا الخَادم؛ والذي قَاد أَول حَملة مِن حَملات الأَتراك عَلى اليمن، وَكان مِن أشهر الوُلاه في هَذه الفَترة؛ الوَالي أزدُمر بَاشا وَمُراد بَاشا وَحَسن بَاشا وَسِنان بَاشا، وَكانت عَاصمة العُثمانيين بِاليمن مَا بَين صَنعاء وَزَبيد[١٤] وَتَعز[١٥].

٢/١-الوُجود العُثماني الثَاني في اليمن (١٢٨٩هـ-١٨٧٢م/١٣٣٦هـ-١٩١٨م):

ظَلّ اليمن مُحتفظًا بِسيادته بَعد جَلاء العُثمانيين لِلمَرة الأُولى مَا يَقرب مِن ٢٢٠عامًا، إلا أن حَدثت صِراعات بَين الأَئمة الزَيدية، وَكَان عَلى أثرِها أنْ استنجد أحدهم وَهُو "الإمام المُتوكل محمد بن يَحيي بن المَنصور" بِالعُثمانيين الذين وَجدوا تِلك فُرصة مُناسبة لِلرُجوع إلي اليمن مَرة ثَانية، وَعَليه بَعثت الخِلافة العُثمانية إلى اليمن حَملة عَسكرية بَقيادة أحمد مُختار باشا[١٦] في عَام (١٢٨٩هـ/١٨٧٢م)، وَتَوالى عَلى حُكم اليمن فِي هَذه الفَترة عَدد مِن الوُلاة العُثمانين أشهرهم؛ الوَالي مُصطفى عَاصم بَاشا ومحمد عِزت بَاشا وأحمد فَيضي وتَحسين باشا وحسين حِلمي بَاشا وغيرَهم[١٧].

واستمرت فَترة الوُجود العُثماني الثَاني نَحو ٣٦ سنة ظَلّت فِيها الحَرب بين اليَمنيين والعُثمانيين مُستمرة إلي أن تَمّ عَقد صُلح دَعان[١٨] سنة (١٣٢٧هـ/١٩١١م) بين الوَالي محمد عِزت بَاشا والإمام يحيى حيث اعترف الوالي العثماني بشَرعية الإمام يحيي بن حميد الدين للمناطق الجبلية، وفي سنة (١٣٣٠هـ/١٩١١م) عُين محمود نديم واليًا على صنعاء وهو آخر الولاة العثمانيين باليمن، حَيث تمّ جَلاء العُثمانيين عَن اليمن سنة (١٣٣٦هـ/١٩١٨م) خريطة (١)، وَهَكذا أُسدل السِتار عَن الحُكم العُثماني لِليمن نِهائيًا،

وَقد خلّف وَرائه عَدد مِن المَظاهر الحَضارية وَالمُنشآت المِعمارية المُختلفة.

٢-المَظاهر الحَضارية لِلعُثمانيين في اليمن

حَرِص العُثمانيون إلى جَانب تَثبيت النُظم الإدارية وَالمَدنية وَالعَسكرية عَلى إنشاء المَعالم المِعمارية؛ وَمِنها بِناء الحُصون وَالقِلاع وَالمَساجد وَالمَدارس وَبِناء الحَمامات، فَعِند وُصول العُثمانيين إلى اليمن في القرن (١٠هـ/١٦م) أطلقوا يَد التَوسّع العُمراني في صَنعاء؛ فَقاموا بِاستحداث أَحياءٍ جَديدة بِها مِثل حَي بُستان السُلطان وَحَي النَهرين، وَحَي بِير العَزب، كَما أدخلوا تَعديلات كَبيرة عَلى فَن العِمارة اليَمنية مِن حَيث تَشكيل المَباني وَالنَوافذ والتي صُممت مِن غَير عُقود، وَتَمَيّزت بِوُجود الحَدائق وَالبَساتين المُثمرة وَأمامها نَوافير المِياه البَديعة[١٩]، وَأحاطوا القسم الغَربي مِن صنعاء بِسُور دِفاعي يَفتح بِه بَابين هُما؛ بَاب الشَقاديف في الشمال وبَاب خُزيمة في الجَنوب، ويَنفذ مِنها أيضًا بَابان هُما بَاب السَبحة[٢٠] عَلى سُور المَدينة القَديمة، وَبَاب شَرارة المُؤدي إلى حَي بِير العَزب الجَديد[٢١].

واهتم العُثمانيون بِتَوسيع عَرض الشَوارع وَالطُرقات، وَتَركوا مِساحات عَامة خَالية مِن المُجمعات السَكنية، وَمِن أشهر هَذه السَاحات سَاحة شَرارة – مِيدان التَحرير حَاليًا- وَالتي تَتوسط حَي بِير العَزب، وَبِشكل عَام فَقد شَاع التَأثير التُركي في كَثير مِن مَظاهر الحَياه الحَضرية وَالثَقافية وَالعَسكرية وَالدينية في اليمن بشكل عَام وفي صَنعاء بِشكل خَاص، فَقد تَركوا لَنا عَدد مِن الشَواهد المِعمارية التي تَدل عَلى مَدى التَأثير الحَضاري وَالفَني لِلعُثمانيين في اليمن[٢٢].

٣-أشَكال التَأثيرات العُثمانية عَلى العِمارة اليَمنية

اهتم العُثمانيون بِتَرك بَصماتهم بِإنشاء مُختلف المُنشآت الدِينية وَالخَدمية وَالدفاعية وَالتَعليمية المُختلفة، وَلِلأسف لَم يَظهر التَأثير العُثماني بِشَكل كَبير عَلى هَذه المُنشآت إلا في نَماذج مِن الطُرز المِعمارية التي جَاءت وِفق الطِراز العُثماني، أو في استخدام لِبَعض الزَخارف العُثمانية أو في ظُهور بَعض العَناصر المِعمارية المُميّزة لِلعمارة العُثمانية وَالتي لَم تَظهر مِن قَبل في اليمن. وَظَهر التَأثير العُثماني عَلى العِمارة الإسلامية في اليَمن في عِدة أَشكال؛

- ظُهور طُرز مِعمارية عُثمانية.
- ظُهور عَناصر مِعمارية جَديدة.
- استخدام عَناصر فَنية وَزُخرفية.

٣/١-ظُهور طُرز مِعمارية عُثمانية

جَاء تَخطيط عَدد مِن المُنشآت الدينية وَالخَدمية وَالحَربية في اليَمن عَلى الطِراز العُثماني كَما يَلي:

-المُنشآت الدِينية: اهتم الوُلاة العُثمانيون خِلال تَواجدهم بِاليمن بِإنشاء مُختلف أنواع العمائر خاصة المُنشآت الدِينية التي تُخلّد ذِكراهم وتَعمل عَلى تَوطيد حُكمهم[٢٣]. وَقد جاء تَخطيط المُنشآت الدينية التي شيّدها وجدّدها العُثمانيون في اليمن بِالطِراز العُثماني، وَظَهر طِرازان مُميزان لِلعمارة العُثمانية في اليمن هُما:

التَخطيط عَلى هَيئة مُربع تَعلوه قُبة فيما يُعرف بـ"طِراز المَسجد القُبة":

ويُشكل عُنصر القُبة العُنصر الرَئيس الذي اعتمد عَليه المِعمار اعتمادًا أساسيًا في تَغطية المسجد، وَمِن المَعروف أنّ القُبة لَم تَكن شَيئًا مُستحدثًا في العِمارة الإسلامية؛ حيث كَان استخدامها شَائعًا وَمَعروفًا قَبل الإسلام بِقُرون عَديدة سَواء أكانت مِن الآجر أو الحَجر، عَلى أنّ استخدام القِباب في تَصميم المَساجد القَائمة بِذاتها كَانت مِن أهم الإضافات التي استحدثها المِعمار المُسلم[٢٤] بَل وَقَام بِتَطويرها وَابتكار أَنماط جَديدة مِنها[٢٥].

وَيَتكون هَذا التخطيط في جَوهره مِن مِساحة مُربعة تَختلف مِن مَسجد لآخر وَيَتوسط صَدرها حِنية المِحراب، وتُغطي هَذه المِساحة المُربعة قُبة شَاهقة الإرتفاع يَختلف قُطرها وَارتفاعها مِن مَسجد لآخر، وَتَقوم هَذه القُبة عَلى مَناطق انتقال مِن حَنايا رُكنية أو مثلثات كَروية أو مُقرنصات، وَكَانت تُزوّد هَذه المَساجد بِمَنابر رُخامية أو خَشبية حَال استخدامها كَمَساجد جَامعة[٢٦].

هَذا وَتَتقدم غَالبية تِلك المَساجد المُشيدة وِفق هَذا التَخطيط رِواق خَارجي أو سَقيفة[٢٧] تُغطّى بِالقِباب أو الأقبية أو الإثنين معًا، أمّا النَماذج التي تَخلو مِن مِثل هَذا الرِواق فَهي قَليلة جِدًا، وَقد مَرّ هَذا الطِراز بِعدة مَراحل مِن التَطوّر كَان الهدف الرَئيسي مِنها؛ هُو تَوسعة المَسجد لِيَستوعب أكبر عَدد مِن المُصلين وَهُو نَفس الهَدف الذي تَحقّق في كَثير مِن المَساجد الإسلامية الأُخرى عَن طَريق مَا اصطُلح عَلى تَسميته بِالتَوسعة أو الزِيادة أو الإضافة سَواء مِن دَاخل المَسجد أو مِن خَارجه، وَقَد صُممت غَالبية المَساجد العُثمانية في اليمن وِفق هَذا التَخطيط.

ويَنقسـم هَـذا التَخطـيط إلى عـدة أَنمـاط أَهمهـا؛ الـنَمط الـذي جَـاء عَليـه الشَـكل الأَسـاسي لِلمَسـاجد والمـدارس العُثمانيـة في الـيمن، وَهُـو يَنحصر في تَخطيطه عَـلى شَـكل المَسـاحة المُربعـة التـي تَعلوها قُبة وَيَتقدم هَذه المِساحة المُربّعـة رواق أو سَـقيفة تُغطّى بِقباب ضَحلة مُقامة عَلى مُثلثات كَروية، والحَـق أن الأُصول المِعمارية لِهَذا الطِراز[٢٨] بَدأت في مَسـاجد السَــلاجقة في قُونيــة؛ وَمِنهــا مَســجد طَــاش (٦١٢هـ/١٢١٥م) وَمَسـجد بِشـارة بِـك (٦١٣هـ/١٢١٣م) وَغَيرها[٢٩].

وَقد تَشابه تَخطيط المَسجد ذُو القُبة مَع تَخطـيط طِراز بُورصه الأول[٣٠] أو الطِراز المِعمـاري المُبكـر في اسـتانبول؛ وَهُـو طِـراز المَسـاجد عَـلى هَيئـة حَـرف T المَقلوب وتُعرّفه بَعض المَراجـع بِإسـم طِـراز المَسـاجد ذَات الوَظـائف المُتعـدّدة أو طِـراز المَسـجد الزَاويـة أو طِراز المَسجد ذُو المِساحات الجَانبيـة أو طِـراز المَسـجد ذُو التَخطـيط المِحـوري الصَـليبي أو المُتقـاطع وَيَـرى العُلـماء في تَأصيل تَخطـيط هَـذا الطِـراز؛ أنّـه اشـتُق أسَاسًا مِـن تَخطـيط المَـدارس السُـلجوقية ذَات القِبـاب المُرتدة عَلى هَيئة حَرف T المَقلوب وَمِن أشهر أمثلتـه مَدرسة قُرة طَاي وَإنجه مَنارلي بِقُونية[٣١].

وَقَد صُمّمت غَالبية المُنشآت الدِينية العُثمانية في الـيمن عَـلى هَـذا التَخطـيط في أبسـط أنماطـه، وَلكـن حَدثت عَليه بَعض التَغييرات مِنها؛ إضافة عُنصر الصَحن الذي كَان مَألوفًا في تَخطيطات مُعظم مَساجد الـيمن ذات الـنمط المَحـلي[٣٢]، وَعـلى الـرغم مِـن اشـتراك مُعظـم المَسـاجد العُثمانيـة في الـيمن في الشَـكل العَام لِهذا التَخطـيط وَلكنها اختَلفت فِـيما بَينها في وُجـود الـرُواق الـذي يَتقدم بَيْـت الصَـلاة وَمَوقـع هَـذا الـرُواق مِـن بَيـت الصَـلاة، وَكَـذلك وَسـيلة تَغطيتـه وَمِساحته، وَمِـن أَمثلـة المَسـاجد العُثمانيـة المُشـيّدة عَلى هَذا الطِراز في اليمن؛ مَسجد محمـد باشـا بِـيرَيم (١٠٣٠هـ/١٦٢٠م) إذ يَتكون مِن بَيت الصَلاة الـذي يَعلـوه قُبة كَبيرة يَتقدمها سَقيفة مَحمولـة عَـلى ثَـلاث قِبـاب صَغيرة مُقامـة عَـلى مُثلثـات كَرويـة، وَمِـن أَمثلـة هَـذا التَخطيط أَيضًا في اليمن مَسجد قُبة دَادية[٣٣] بِـذَمار[٣٤] والـذي يَعـود تَاريخـه إلى النصـف الأول مِـن القـرن (١١هـ/١٧م) (شكل١، لوحة١) وَتَخطيطه عِبارة عَن مِساحة مُربعة تَعلوها قُبة تَقوم عَلى حَنايا رُكنيـة وَيَتقـدمها صَحن، وَتَميّـز تَخطـيط هَـذا المَسـجد بِأنـه لا يُوجـد رِواق يَتقدم بَيت الصَلاة [٣٥].

أمّــا في صَــنعاء وَالتــي كَانــت مِحــور اهــتمام العُثمانيين بِاعتبارها العَاصمة فَقد انتشر هَذا التَخطيط في المَســاجد والمَــدارس التــي شَــيّدها الــولاة العُثمانيــون أو حتــى في المَســاجد القَديمــة التــي جدّدها العُثمانيون وَأضافوا لَها، وَمِـن أَمثلـة المَسـاجد التـي شَـيّدوها في صـنعاء عـلى هـذا الطـرز؛ مَسـجد وَمَدرسة المُرادية بِقَصر السِلاح[٣٦] (٩٨٤-٩٨٥هـ/١٥٧٦-١٥٧٧م) وَجَـاء تَخطيطــه عِبـارة عَــن مِسـاحة مُربعــة تَعلوها قُبـة مَركزيـة، وَيَتقدم الوَاجهـة الشَرقية مِـن بَيـت الصَـلاة رِوَاق يُغطيـه سَـقف خَشـبي مِـن بَـراطيم خَشبية. (شكل٢، لوحة٢)

وَمِن أَمثلة هَذا الطِراز أَيضًا في اليمن؛ مَسجد وَمَدرسة مُصطفى بَاشا النَشّار بزَبيد(٩٤٧هـ/١٥٤٠م)[٣٧] وَالتي تُعرف بِإسم المَدرسة البَيشية، وَجَاء تَخطيطه مِن مِساحة مُربعة تَعلوها قُبة مَركزية وَيَفتح بِها ثَلاث مِساحات مُربعة تَعلوها قِباب أَقل ارتفاعًا، وَيَتقدم الوَاجهة الجَنوبية مِن بَيت الصَلاة رِواق يُغطيه عَدد مِن القِباب الضَحلة.(شكل٣، لوحة٣)

وَمِن أَشهر أَمثلـة هَـذا الطِـراز في صَنعاء؛ مَسـجد البُكيريــة (١٠٠٥هــ/١٥٩٧م)[٣٨] والــذي يُعــد أروع الآثــار العثمانيــة لــيس في صــنعاء فحســب بــل في الــيمن بأكملهـا وجـاء تخطيطهـا مـن بيـت لِلصَـلاة ؛ عِبـارة عَـن مِساحة مُربعة يَعلوها قُبـة مَركزيـة ضَـخمة وَفُـتح في الجِدار الشَرقي مِنها إِيـوان صَـغير يَطـل عَـلى القُبـة المَركزية بِعقدين مُدببين يَستندان عَلى دُعامة قَصيرة في الوَسط وَيُغطي هَذا الإيوان قُبتين مُقامتين عَـلى مُثلثات كَروية، وَيَتقدم بَيْت الصَلاة مِن النَاحية الجَنوبية سَقيفة مِن رُواق وَاحد يَطل عَلى الصَحن مِن خِلال ثَلاثة عُقـود مُدببـة أكبرهـا أوسـطها، وَهـذه السَـقيفة مِـن تَجديــدات السُــلطان عبــد الحَميــد الثــاني ســنة ١٢٩٨هـ/١٨٨٠م، كَما يُوجـد رِواق في النَاحيـة الشَرقية ويَفتح عَلى الصحن بِواسطة سِتة عُقود نِصف دَائريـة. (شكلا٤-٥، لوحة٤)

وأيضًا ظَهر هَذا التَخطـيط في مَسـجد وَقُبـة طَلحـة بصــنعاء[٣٩] ، ويَرجــع هــذا المســجد إلى ق٤هــ/١٠م وجــدّدها بَالكَامــل الــوَزير محمــد باشــا ســنة (١٠٢٩هـ/١٦١٩م) وَجَعلها عَلى النَسق العُثماني؛ وَهـو يَتكـون مِـن مِسـاحة مُربعـة يُغطيهـا قُبـة مَركزيـة، وَيَتقدم بيت الصَلاة مِن النَاحية الغَربية سَقيفة تَتكون مِن رواق وَاحد تَطل عَلى الصَحن مِن خِلال عِقدين نِصف دَائـريين يَسـتندان عَـلى عَمـود في الوَسـط، ويُغطـى

هَذا الرُواق أَربع قِباب ضَحلة مُقامة عَلى مُثلثات كَروية في الأركان. (شكل٦، لوحة٥)

وَمِن أَمثلة المَساجد المُصمّمة وِفق هَذا الطِراز أيضًا؛ مَسجد وَمَدرسة أزدمر بَاشا بِباب شُعوب بِصنعاء[٤٠] والذي يَرجع إلى النصف الثاني مِن القرن (١٠هـ/١٦م)، وقد اختلف تَخطيط هَذا المَسجد بَعض الشئ؛ حيث كَان يَتكون مِن بَيت الصَلاة وَيَعلوه قُبتين وَليست قُبة وَاحدة كَما ذكر المُؤرخ الحُجري عِند ذِكره لِمَسجد أزدمروتَجديده عَلى يَد الوَالي العُثماني محمد باشا بِقوله (وَجَعله قُبتين بَينهما المَنارة)، وَلِلأسف هُدمت القُبتان وَاستُبدلت بِسَقف خَشبي مُسطح يَقوم عَلى ١٢ عَمود في عَهد الإمام المنصور بالله عَلي بن الإمام المَهدي عَباس سَنة (١٢٠٥هـ/١٧٩٠م) كَما أنه غيرّ اسم المَسجد إلى مَسجد الإيمان[٤١]، وَيَتقدم بَيت الصَلاة سَقيفة مِن رِواق وَاحد مِن النَاحية الجَنوبية، وَيَطل هَذا الرواق عَلى صَحن المَسجد مِن خِلال خَمسة عُقود نِصف دَائرية تَرتكز عَلى أَربعة أَعمدة حَجرية. (شكل٧، لوحة٦)

كَما يظهر هَذا التَخطيط في التَجديدات التي أَضافها العُثمانيون عَلى المَساجد التي تَرجع إلى ما قَبل الوجود العُثماني في اليمن، وَمِن أَمثلة هَذه المَساجد؛ مَسجد الصَحابي الجَليل فَروة بن مُسَيْك المُرادي[٤٢]، حيث جَدّده الوَالي العُثماني حَسن باشا سنة (٩٩٤هـ/١٥٨٥م) حَسبما ذَكر المُؤرخ ابن دَاعر وَجَعله بِقُبة، وَجَاء تَخطيطه عِبارة عَن مِساحة مُربعة تَعلوها قُبة كَبيرة وَكَان يَتقدمها سَقيفة مِن رِوَاقين بِواسطة بَائكة وَاحدة تَتكون مِن ثَلاثة عُقود مُدبّبة مَحمولة عَلى عَمودين؛ وقد قُسم هذين الرواقان إلى مِساحات مُربعة كَانت تُغطيها قِباب ضَحلة وَلكنها للأسف هُدمت وَاستُبدلت بِأَسقف مُسطحة، وَهذه السَقيفة تَتقدم بَيت الصَلاة وَتَفتح في الجِدار الجَنوبي. (شكل ٨، لوحة ٧)

كَما أنّ هُناك عَدد كَبير مِن المَساجد العثمانية المُندثرة وَالمُتهدمة التي شَيّدها العُثمانيون في صَنعاء كَان بَعضها مُشيد وِفق طِراز مَسجد القُبة ومنها؛ مَسجد الأبيضين وَالذي يَرجع إلى نِهاية القرن العاشر الهجري بداية من (١١هـ/١٦-١٧م)[٤٣] فَمن خِلال المُتبقّي مِن جُدرانه يَتضح أنّه كَان عِبارة عَن مِساحة مُربعة يَعلوها قُبة ضَخمة وَلكنها سَقطت الآن وَلم يَعد لها وَجود، وَلم يَشتمل ذَلك المَسجد سَقيفة تَتقدم بيت الصلاة كَما دلّت عَلى ذَلك المَساقط وَالأشكال التي رَسمها المُستشرق وِليم كَاري عَن هَذه القُبة، وَمِن ضِمن المَساجد المُندثرة أيضًا التي يُرجّح أَنها كَانت عَلى طِراز مَسجد القُبة؛ مَسجد وَقُبة اسكندر والذي يَرجع تَاريخه إلى عَام (٩٦٧هـ/١٥٢٨م)[٤٤].

وَقد احتذى الأئمة الزَيدية خِلال فَترة الإستقلال عَن حُكم الدَولة العُثمانية بهذا الطِراز العُثماني (طِراز مَسجد القُبة) في تَصميم مَساجدهم فَجَاءت عَلى نَفس نَسق المَساجد العُثمانية في اليمن كَمَسجد المُرادية والبُكيرية وَطَلحة وغيرها، وَمِن أَبرز أمثلة مَساجد دَولة الأئمة الزَيدية؛ مَسجد وقُبة الإمام المتُوكل[٤٥] المَوجودة بميدان التَحرير بِصَنعاء(لوحة ٨)، وكذلك مَسجد وقبة الإمام المهدي[٤٦] المَوجودة بصنعاء (لوحة ٩)، فَجَاءت كِلتاهما عَلى نَفس النَسق العُثماني مِن حَيث التَخطيط وَالإرتفاع الشَاهق وَالشُموخ مَع الإحتفاظ بِالتَفاصيل اليَمنية المَحلية.

التَخطيط الكِلاسيكي أو التَقليدي المُميّز لِلعِمارة العُثمانية:

تَابع المَسجد العُثماني تَطوّره أَثناء مَرحلة الإنتقال مِن طِراز بُورصة إلى الطِراز التَقليدي أو الكلاسيكي الذي ظَهر بَعد فَتح القُسطنطينية عَام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م)، وَقد خَضع هَذا التَطوّر إلى رَغبة السَلاطين العُثمانيين في إظهار تمَسكهم الشَديد بِالدين؛ وَمِن ثَمّ عَادوا إلى السُنة القَديمة في التَخطيط وَبِناء المَساجد عَلى نَسق المَسجد النَبوي في شَكله العَام، وَتَجَلى هَذا التطوّر في قِيام المِعماري العُثماني بِتَقسيم المِساحة المُراد بناؤها إلى قِسمين؛ إمّا أنْ يَكون كُل مِنها مُربع أو مُستطيل الشَكل، حَافظ في أَحدهما عَلى السُنة القَديمة في بِناء تَخطيط المَساجد؛ فَجَعل القِسم الأول عِبارة عَن صَحن مَكشوف تُحيط بِه الأَروقة؛ أمّا القِسم الثاني وهو المُخصص لِلصلاة فَجَعله مُغطّى بِقُبة كَبيرة لتتناسب مَع طَبيعة المناخ، وقد جَمع هَذا التَخطيط كُلاً مِن نمَط المَساجد الصَيفية وَالشِتْوية[٤٧].

وَأصبح هَذا الطِراز الجَديد يَتكون في جَوهره مِن قِسمين رَئيسيين؛ أَحدهما مُغطّى ويمَثل المَسجد نَفسه والذي يُعرف مَجازًا بِإسم (بَيْت الصَلاة)[٤٨]، وَالقِسم الأخر مَكشوف وَهو الصَحن الذي يُعرف بِإسم (حَرم الجامع)[٤٩] وَالذي يَتكون في الغَالب مِن صَحن مَكشوف تَتوسطه ميضأة تُستخدم لِلوُضوء، وتُحيط بِالصَحن الأَروقة مِن الأَربع جِهات؛ وتُقسّم هَذه الأَروقة إلى مُربعات صَغيرة تُغطيها قِباب ضَحلة، وَيَحتوي حَرم الجَامع عَلى مَدخلين أو ثَلاثة وَيَكتنف رُكني الضِلع

المُواجه لحَائط القِبلة مِئذنتان وَتَأخذ المآذن في هَذا الطِراز الشَكل الإسطواني الذي يَستدق كُلما ارتفعنا إلى أعلى وَيَنتهي إمّا بِشَكل خُوذة، أو بِشَكل مَخروطي والي يُعرف بـ (سِن القَلم الرُصاص)[٥٠]، ومِن أشهر أمثلة هَذا الطِراز في تُركيا جَامع شَهزاده باستانبول(٩٥١-٩٥٥هـ/١٥٤٤-١٦٤٨م)، وجامع السُلطان أحمد بإستانبول (الجامع الأزرق) (١٠١٨-١٠٢٧هـ/١٦٠٩-١٦١٧م)، وجَامع السَليمانية في أدرنة، وَجَامع السُلطان محمد الفاتح بإستانبول بَعد تَجديدة عَام(١٥٦٩-١٥٧٥هـ/١٨٧٧- ١٨٨٥م)[٥١].

وَقد ظَهر هَذا التَخطيط في مَساجد اليمن المُشيّدة خِلال العَصر العُثماني في مَسجد وَحيد فقط؛ وَهُو مَسجد جَناح[٥٢] بِسُوق المِلح بِصَنعاء؛ وَتَخطيطه عِبارة عَن قِسمين؛ الأول بيت الصلاة ، والثاني الصحن، وَيَتكون بيت الصَلاة مِن مِساحتين مُربعتين يَعلو كُل مِنهما قُبة، وَهُو بذلك يَختلف عَن الشَكل المَألوف مِن هَذا التَخطيط، وَالذي يَكون بَيْت الصَلاة فيه عِبارة عَن قُبة مَركزية يُحيط بها أنصاق قِباب وقِباب صَغيرة في الأركان. (شكل٩، لوحة١٠)

وَمِن المُلاحظ أنّه لَم يُقدر لجَوامع هَذا الطِراز الذُيوع والإنتشار في اليمن وَغَيرها مِن الوِلايات العُثمانية؛ وَذلك نَظرًا لما يَحتاج إليه هَذا التَخطيط مِن مِساحات كَبيرة وَإمكانيات مُعيّنة وَهَذا لَم يكن مُتوفرًا نظرًا لِظُروف المَوقع وَالمِساحات المُتاحة وَغَيرها مِن العَوامل المُؤثرة في شَكل وَتَخطيط المُنشآت، إلا أنّ هَذا التَخطيط يَتفق في بَعض عَناصره مَع الطِراز اليَمني المَحلي الذي كَان سَائدًا قبل الوُجود العُثماني؛ إذ يَتفق مَعه في أنّ المَسجد يَتكون مِن قِسمين فَضلاً عَن وُجود الصَحن وإن اختلف عن شَكل الصَحن في التخطيط العُثماني في أنّه لا يُحيط به أروقة في المساجد المُشيّدة وِفق الطِراز اليَمني.

- **المُنشآت الخَدمية:** ظَهر التَأثير العُثماني بِوُضوح في تَخطيط بَعض المُنشآت الخَدمية كَما في حَمام المِيدان[٥٣] (الذي يَرجع عِمارته إلى الوَالي العُثماني حَسن بَاشا وَيَقع بِجُوار مَسجد البُكيرية الشَهير، ويُعد هَذا الحَمام مِن أكبر حَمامات مَدينة صَنعاء القَديمة، وَجَاءت عِمارته عَلى طِراز العِمارة العُثمانية عَلى طِراز مَسجد القُبة الذي سبق ذِكره في تَخطيط المُنشآت الدينية؛ فَالقِباب تُغطي وِحداته وَعَناصره المِعمارية، وَتُعد القُبة المَركزية التي تَعلو المَسلخ المَلمح المُميّز لِهذا الحمام. (شكلا١٠-١١، لوحة١١)

- **المُنشآت الدِفاعية:** كَان مِن أَهم المُنشآت العَسكرية الدِفاعية التي شيّدها العُثمانيون في اليمن وَجَاءت عَلى الطَابع التُركي؛ (مُجمع العُرضي[٥٤] العَسكري) الذي لازال بَاقيًا حتى اليوم والذي أمر ببناؤه السُلطان عبد الحميد الثاني[٥٥] سنة (١٣٠١هـ/١٨٨٣م)، وتَمّ تَشييده على أقسام وَفَترات زَمنية مُتتالية وِفق مُخططّات وَتَصاميم دَقيقة وُضعت في استانبول، ونفّذها أَحد أشهر البّنّائين اليَمنيين وهو الحَاج أحمد قَصعه، وَهَذا المُجمع يَتكون مِن أربعة أقسام[٥٦]، وظَلّ يُستخدم حَتى مُنتصف التِسعينات مِن القَرن المَاضي كَميدان لِتَدريب الجَيش وَإقامتهم وَكذلك كَمَقر لإدارة المُوسيقى العَسكرية، كَما بَني العُثمانيون في وَسط سَاحته مَسجد العُرضي؛ الذي يُعتبر آخر المَساجد التي شَيّدها العُثمانيون باليمن، وَيتميز هذا المَسجد بِمئذنته الإسطوانية العَالية المَبنية مِن الحَجر رَائعة الإتقان والتي تُشبه في شَكلها العَام طُرز المآذن العُثمانية، كَما بَنوا دَاخل هَذا المُجمع العَسكري حَمامًا خَاصًا بِالجُنود عُرف بِإسم (حَمام العُرضي)، وَلايزال مُجمع العُرضي بَاقيًا عَلى حَالته في صَنعاء شَاهدًا عَلى أعمال البِناء وَالتَطوّر الحَضاري التي شَهدته صَنعاء خِلال الوُجود العُثماني، وتَجسدت أهمية هذا المَبنى بِتَحويله إلي مَقر وِزارة الدِفاع اليَمنية في عام (١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م)[٥٧].

٣/٢-استحداث عَناصر مِعمارية جَديدة عَلى العِمارة اليَمنية ومنها:

أ- المَنابر الرُخامية: تُعتبر المَنابر الرُخامية أحد أبرز التأثيرات العثمانية في العناصر المعمارية في العِمارة اليمنية، فَالشَاهد أن اليمن قد عَرفت المَنابر الخَشبية، غَير أنّ المَنابر الرُخامية لَم يُكتب لَها الظُهور إلا خِلال العَصر العُثماني[٥٨] ولكن كَان عَددها قَليل جِدًا؛ فلم تَعرف اليمن المنابر الرخامية؛ حيث أنّ صِناعة المَنابر الرُخامية تَتطلب وَقتًا كَبيرًا في التَنفيذ فَضلاً عَن ثِقل وَزنها، وَلِذا كَان الإقبال عَلى المَنابر الخَشبية أكبر؛ لأنها أسرع في التَنفيذ، فَضلاً عَلى أنّ مَادة الخَشب تَتميز بِطَواعية في الصِناعة وَالزَخرفة وَسُهولة حَمل القِطع أو الحَشوات المُراد زَخرفتها بِعَكس مَا يَحدث في الرُخام مِن صُعوبة في النَقل[٥٩].

وقد تَأثّرت هَذه المَنابر الرُخامية في شَكلها العَام بِالمَنابر التي صُنعت في استانبول؛ فَقد تَشَابهت مَع نَماذج المَنابر الرُخامية العُثمانية في استانبول كَمنبر مَسجد الشاه ذاده، ومِنبر مَسجد السُليمانية، وَتَشابهت أيضًا مَع المَنابر التُركية المَوجودة بِالولايات

العُثمانية الأُخرى، لِدرجة أنه يُقال أن صَانعيها هُم أنفسهم الذين قَاموا بِصناعتها في كُل الولايات العُثمانية[٦٠].

وتَتميز المَنابر الرُخامية العُثمانية بِشَكل الجَوسق؛ والذي يأخذ الشَكل المَخروطي المُدبب[٦١] ويُعرف بـ (سِن القَلم الرُصاص)، كَما يُطلق البَعض عَلى هَذ الجَوسق (المسلة)، وَقَد ذَكرتها الوَثائق العُثمانية بِمُصطلح (جَربوش)[٦٢]، وَهذا الشَكل تمَيّزت بِه المَنابر وَالمَآذن التُركية في استانبول وغيرها من الولايات العُثمانية كما في مصر والعراق وسوريا وغيرها، أمّا في اليمن فقد جَاءت قِمم جواسق المَنابر الرُخامية العُثمانية على هَذا الشَكل المُدبب، ومن أشهر أمثلة المَنابر الرُخامية في اليمن نمّوذجين هُما؛ مِنبر مَسجد البُكيرية بِصنعاء (لوحة١٢)، وَمِنبر مَسجد العُرضي بصنعاء. (لوحة١٣)

ب- المَحاريب:

استمرت أشكال المَحاريب في المَساجد التي شيّدها الولاة العُثمانيون في اليمن تَأخذ نَفس الشَكل الذي كان مَألوفًا بها قَبل الوُجود العُثماني؛ وهي عِبارة عَن حَنايا مُجوّفة تَجويف عَميق ويُزخرفها كَم هَائل مِن الزَخارف الجِصية المُتنوعة، غَير أنّه قَد تميّزت مَحاريب بَعض هذه المَساجد بِأنها جَاءت مُتأثرة بِالأمثلة التُركية في استانبول[٦٣] فقد جَاءت تُشبه مَحاريب ومَداخل العمائر الدِينية العُثمانية والتي جَاءت مُتأثرة بِدورها بِالعَمائر السُلجوقية، فجاءت أشكال هذه المَحاريب مَعقودة بِعُقودة مُدببة، ويمَلأ طَاقية هَذه المَحاريب حِطات مِن المُقرنصات المُتدرجة ومِن أشهر أمثلة ذَلك؛ مِحراب مَسجد المُرادية بِقَصر السِلاح بِصنعاء (لوحة ١٤)، ومِحراب مَسجد البُكيرية (لوحة ١٥)، ومِحراب مَسجد العُرضي (لوحة ١٦).

ج- دكة المُبلّغ:

تُعتبر دِكة المُبلّغ مِن العَناصر المعمارية المُهمة في المَساجد وَالمدارس الإسلامية؛ فَهي جُزء مُهم مِن أثاث المسجد شأنها في ذلك شَأن كرسي المُصحف والمِنبر[٦٤]، وَجَاءت حَلاً لمشكلة زِيادة المِساحات وتَزايد أعداد المُصلين؛ حيث وَجد المُصلون صُعوبة في رُؤية الإمام وسَماع صَوته ومُشاهدة حَركات الصَلاة[٦٥]، وَكَان الحَل هُو إضافة دِكة المبلغ[٦٦]، وهي عِبارة عن دِكة عَالية يَجلس عليها المُبلغ أو المُؤذن؛ وهو الشخص الذي يُوكل له مُهمة الآذان والتَبليغ، وَتَكون عَلى هَيئة شُرفة عَالية مَحمولة عَلى عَمد مِن الرُخام أو الخشب ويصعد إليها بواسطة سلم في أسفلها أو سلم مُتنقل يُوضع عند الإحتياج، وقد تكون دِكة المُبلّغ مُعلّقة علي جُدران المَسجد وَسُلمها دَاخل الجدران.[٦٧]

وقد ظَهر هَذا العُنصر في العِمارة اليَمنية بتأثير عثماني؛ حيث ظهرت في المَساجد العُثمانية في صَنعاء؛ وأطلقت عليه المَراجع اسم المُكبّرية[٦٨] وربما ذلك راجع إلى الوَظيفة التي كانت مُخصصة لها وهو تكبير الصوت وترديده وَتَبليغ كُل ما يُردده الإمام أثناء الصلاة.

ويُوجد ثَلاث نمَاذج لِدكك للمُبلّغ في مَساجد اليمن خِلال العصر العُثماني؛ أولهم المَوجودة في مَسجد المُرادية بصنعاء؛ وهي تقع في الجدار الجنوبي المُقابل للقبلة في بيت الصلاة داخل حِنية مَعقودة، وهي دِكة بَسيطة جدًا ومَرتفعة عَن سَطح أرضية بيت الصلاة بمقدار 1.12سم. (لوحة ١٧)

أما ثاني مثال لدكك المبلغ في مساجد اليمن؛ مسجد البُكيرية بصنعاء وهي تَقع في الجِدار المُقابل لجدار القبلة ويُصعد إليها بسلم داخل الجدار، وهي عِبارة عن شُرفة عَالية تَرتكز عَلى ثلاثة أعمدة رُخامية ذات تِيجان كأسية ويُحيط بهذه الدِكة دَرابزين وسِياج، ويُزخرفها زَخارف جِصية رائعة، ويُوجد أسفلها دِكة أخرى تُشبه دِكة مسَجد المرادية ولكنها تَرتفع عن الأرض بمقدار ٤٠سم. (لوحة ١٨).

وثالث مثال لِدكة المُبلغ في مسجد العُرضي بصنعاء؛ وتَقع أيضًا في مُنتصف الضِلع الجَنوبي لبيت الصلاة وَهي عِبارة عن شُرفة تَرتفع عن سَطح أرضية بيت الصلاة وتَحملها ثلاثة أعمدة إسطوانية، ويُصعد إليها عن طريق سلم بطرفين يَبلغ عدد درجاته ست درجات في كل طَرف، وقد اشتملت أيضا المساحة أسفل الدِكة على دِكة أخرى صغيرة بإرتفاع ٢٠سم ولها درابزين من برامق خشبية، وتُشبه هذه الدِكة دكة مَسجد البُكيرية في تَصميمها العَام، هذا وقد تعدّدت وظائف هَذه الدكك المَوجودة بالمساجد العثمانية باليمن وإن كانت ذكرت لنا وثائق الوقف الخاص بهذه المساجد أن دكة المبلغ وقد عُرفت باسم "المحفل" وأنها كانت تُستخدم هي والمنبر ليرقيا عليها المؤذنون للتبليغ عند الحاجة[٦٩] كما تعددت الآراء حول وظائفها بشكل عام خلال العصر العثماني في كافة الولايات العثمانية[٧٠]. (لوحة ١٩)

٣/٣-استحداث عَناصر زُخرفية جَديدة عَلى العِمارة اليَمنية ومنها:

- **زَخارف الطِراز الرُومي التركي**؛ عُرف هذا الطراز بهذه التسمية؛ نِسبة إلي ولاية ألبانيا وهي إحدي

الأقاليم أو الولايات التابعة للإمبراطورية العُثمانية الواقعة في الأراضي الأوروبية التي سُميت بالروملي أي (بلاد الروم أو ملة الروم أو أهل الروم)؛ إذ كانت هذه الأراضي ملكًا للإمبراطورية الرُومانية من قبل، وكلمة رُومي نفسها مُشتقة من الروم وهي كلمة استُعملت أحيانًا للتعبير عن الأتراك، وكان أصل هذا الطراز الفني هو طراز الرُوكوكو الأوربي، فقد كانت تُركيا فترة القرنيين (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م) قريبة من مسرح الأحداث الأوربية[٧١]؛ وكان نتيجة ذلك أن انتقل إليها هذا الطراز الفني في فترة القرن (١٢هـ/١٨م) والذي تقبلت فيه القُسطنطينية طراز الرُوكوكو الفرنسي بحماسة شديدة في دوائر البلاط والفنانين والطامحين إلي التطوير، ثم انتقل هذا الطراز إلي تركيا بعد أن انتشر في جميع أنحاء أوربا وانتقل اليها بواسطة فنانين وفدوا إليها من جنوب إيطاليا وصقليه[٧٢].

وازداد انتقال التأثيرات الأوروبية بشكل عام وطرازي الباروك والروكوكو[٧٣] بشكل خاص إلي تُركيا في عهد عدد من السلاطين العثمانيين خلال القرن (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م) ومنهم السُلطان أحمد الثالث (١١١٥-١١٤٣هـ/١٧٠٣-١٧٣٠م) والذي يُعتبر من أهم السلاطين الذين تأثروا كثيرًا بالعمارة والفنون الأوروبية[٧٤].

ويُلاحظ أن طراز الرُوكوكو التركي قد اختلف عن الرُوكوكو الأوربي؛ حيث نجد أنه قد ابتعد عن تصوير مناظر العرايا والجنيات والأساطير، والسبب في ذلك يرجع إلى أن فن الرُوكوكو التُركي كان وريثًا للفن العُثماني الإسلامي الذي كان مُنتشرًا في تركيا خلال ق١١هـ/١٧م، وبالتالي فقد تأثر بدروه بالبيئة العُثمانية ودخلت فيه لمسات من الفن العُثماني غيرت من شخصيته الأوربية وطبعته بطابع جديد يصح معه أن نُطلق عليه فن البَاروك والرُوكوك العثماني، وكان أول أثر للعُثمانيين علي هذا الطراز؛ جامع نُور عثمانية والذي شُيد بإستانبول بين عامي(١١٦١-١١٦٨هـ/١٧٤٨-١٧٥٥م)[٧٥]

ومن أهم السمات الفنية لهذا الطراز ما يلي:

- الثراء الزُخرفي في الأسقف والجُدران حتي لا نكاد يُرى مكانًا خاليًا من الزَخرفة.
- كثرة استخدام الفُروع النَباتية المُتداخلة مع بعضها البعض والتي غالبًا ما تتكون من الفُروع النَباتية التي تمتاز أشكالها بالرقة والإنسيابية الشديدة.
- انتشار الوُحدات الزُخرفية التي تتمثل في أشكال الفازات والشماعد وأشكال القواقع والصدف والمحار وباقات الوُرود.
- رُسوم السَتائر ذات الطيات والكَرانيش والتي يُراعى في رسمها أن تكون مُحاكاه للطبيعة.
- استخدام العَناصر المعمارية بكثرة في الزَخارف مثل رسُوم الأكشاك الصَغيرة والعُقود والأعمدة والكَرانيش التي نُفذت بشكل مُحاكي جدًا للطَبيعة ونُفذت جَميعها بالألوان الزَيتية، فضلاً عَن انتشار المَناظر الجَبلية والمَناظر الطَبيعية.
- تميّز طراز الرُوكوكو بإستخدام الألوان الرَقيقة في التزيين الداخلي سَواء للحَوائط والأسقف؛ فاستُخدمت دهانات اللاكية والوَرنيش، وحلّت الألوان الزاهية الخَفيفة محل الألوان الثقيلة، وتميزت المَوضوعات الزُخرفية بتناسق الألوان وانسجامها[٧٦].

وظهر استخدام طِرازي البَاروك والرُوكوكو التُركي على العَمائر اليمنية بتأثير عُثماني؛ ومن أشهر أمثلته في مَسجد البُكيرية في صَنعاء؛ حيث انتشرت هذه الزَخارف بكثرة في الجُدران الدَاخلية والقبة من الدَاخل، وفي زَخارف جنية المحراب. (لوحتا٢٠، ٢١)

كما يَظهر التأثير العُثماني بوُضوح في جَامع الرَوضة[٧٧] بقرية الرَوضة القريبة من مَدينة صنعاء؛ حيث زُخرفت جُدران المَسجد خَاصة جِدار القبلة الشَمالي وجنية المحراب بالزَخارف الجصية وقوامها فُروع وأوراق نَباتية وزَخارف الأربيسك، وأهم مَا يمُيز هَذه الزَخارف استخدام الأزهار التُركية بكثرة كزَهرة اللاّله العُثمانية المُميزة[٧٨]. (لوحتا٢٢، ٢٣ أ- ب)

استخدام الكِتابات باللغة العُثمانية والطُغراء[٧٩]

وقد ظهر التأثير العُثماني في استخدام اللغة العُثمانية في تسجيل النُصوص التأسيسية عَلى المُنشآت اليَمنية المُختلفة ومن أمثلة ذَلك؛ النص التأسيسي المُسجل على اللوح الرُخامي لمَسجد العُرضي الذي أمرّ بِبناؤه السُلطان عَبد الحَميد الثاني سنة (١٣١٨هـ/١٩٠٠م) (لوحة ٢٤)، كما تُوجد العَديد من النُصوص التأسيسية داخل مُجمع العُرضي العسكري بصنعاء مُسجلة باللغة العثمانية.

كما استُخدمت الطُغراء العُثمانية بكثرة في العَديد من المُنشآت اليَمنية ومن أشهر أمثلتها في مَسجد البُكيرية بصنعاء؛ حيث سُجلت طُغراء السُلطان العُثماني عبد الحميد الثاني على لُوح رُخامي يَعلو أحد فتحات الأبواب المُؤدية إلى بيت الصلاة، كما نُفذت الطُغراء لنفس السُلطان في مَسجد العُرضي بصنعاء وجَاءت تَعلو اللوحة التأسيسية للمسجد. (لوحة ٢٥ أ- ب).

كما استخدمت بعض الأبيات الشعرية من قَصيدة البُردة[٨٠]؛ والتي اهتم بها العُثمانيون وَظَهرت أبيات منها في شَريط كتابي يَعلو أحد النوافذ بمَسجد البُكيرية بِصَنعاء ونصّها (محمد سيد الكونيين وَالثَقليين والفريقين من عُرب ومن عَجم)، ولم تَظهر هَذه الأبيات الشعرية على المُنشآت اليَمنية قبل الوُجود العُثماني في اليمن.

وَأخيرًا نستنج من الأمثلة السابق ذكرها؛ وُجود عَدد مِن التَأثيرات العُثمانية عَلى العِمارة اليَمنية؛ ولكن جَاءت بِشكل لَيس بِالكبير مُقارنةً بِالتأثيرات العثمانية في الوِلايات العُثمانية كَما في مِصر وَبِلاد الشَام وَالعِراق وَغيرَها والتي حَكمها العُثمانيون، وذلك رَاجع لِلأسباب التَالية؛

١- سياسة العُثمانيين فيما يُطلق عَليه فَلسفة الحُكم العُثماني؛ وهَو الإبقاء الأوضاع عَلى مَا هي عَليه، بمَعنى أنّ العُثمانيين لم يَفرضوا ذَوقًا أو طِراز معماريًا خَاص بِهم، وقد كان ذلك وَاضحًا في كثير مِن البِلاد التي فَتحها العُثمانيون؛ كَمصر وَاليمن وغَيرها مِن أصحاب البِلاد ذَات العُمق الحَضاري وَالثقافي[٨١]، لذلك نجد حَتى المُنشآت التي شيّدها الوُلاة العُثمانيون فَقد استعانوا بِعُمال وَمِعماريين يمَنيين؛ وقد صمّموا هَذه العمائر حَسب الطِراز العُثماني في شكله العَام أمّا في مَضمونه فإنها كَانت مَحلية وِفق الطَراز اليَمني؛ في الزَخارف والعناصر المِعمارية وَالفنية والتي جاءت وِفقًا لِلأساليب التي تَعودوا عَليها وَألفتها أَيديهم وَلاقت قَبولاً مِن اليَمنيين.

٢- قد كَانت لِطَوائف الحِرف المُتعلقة بِالبناء وَفنونه أثر كَبير في استمرار الطَراز اليَمني المَحلي؛ حيث لَم تَتَخل تِلك الطَوائف عَن أساليبهم القَديمة وَطَابعهم المِعماري اليَمني والموروث الحَضاري الذي حَافظوا عَليه في ضُوء مَا سَمحت بِه ظُروف العَصر وامكانياته.

٣- قِصر مُدة حُكم الوُلاة العُثمانيين وَانشغالهم بَالحُروب وَالصراعات الدَاخلية والخَارجية، فَضلاً عَن أنّ بَعض الوُلاة العُثمانيين خَاصة فَترة الوُجود العُثماني الثاني (١٢٨٩-١٣٣٦هـ/١٨٧٢-١٩١٨م) كَانوا سَيئ السُمعة وَاشتهروا بِالسَلب وَالفَساد وانصرفوا عَن البِناء وَالتعمير، فَضلاً عَن قلة المَوارد التي كانت تُحصّل، ولذلك فحَتى المُنشآت المُشيّدة عَلى الطِراز العُثماني في صنعاء لا تَرقى إلى مَثيلاتها المُشيّدة في عَاصمة الخِلافة العُثمانية أو حَتى المَوجودة بالولايات العُثمانية المُختلفة، إلا إذا استثنيا مَسجد البُكيرية بصنعاء أَعظم المساجد العُثمانية في اليمن ومازال باقيًا مُحافظًا على رَونقة شَاهدًا بوضوح عَلى الوُجود والتأثير العُثماني في اليمن.

خَاتمَةُ

تَناولت الدِراسة التَأثيرات المِعمارية وَالفنية التي أحدثها العُثمانيون خِلال فَترة تَواجدهم في بِلاد اليمن، وَأوضحت الدِراسة أنّ العُثمانيين قَد أحدثوا نَهضة حَضارية كَبيرة في اليمن في كَافة المَيادين؛ التَعليمية وَالصِحية وَالصِناعية وَالمِعمارية، وأشارت الدِراسة إلى أشكال التَأثير العُثماني المُختلفة عَلى العِمارة اليَمنية، فقد حَرص العُثمانيون عَلى بِناء عَمائر مُشيدة عَلى طُرزهم العُثمانية المُميّزة حِرصًا مِنهم عَلى تَخليد ذِكراهم وإثبات السِيادة العُثمانية على اليمن، كما حَرصوا عَلى إضافة عَناصر مِعمارية وَزَخرفية مُميّزة لِلوُجود العُثماني.

وَقد تأثرت العِمارة الإسلامية في اليمن خِلال فَترة الاستقلال عَن الحُكم العُثماني الأول في عَصر دَولة الأئمة الزيدية؛ حيث جَاءت مُنشآتهم الدينية عَلى النَسق العُثماني سَواء مِن حَيث التَخطيط كَما في مَسجد الإمام المُتوكل وَمسجد الإمام المَهدي عَباس بصنعاء، أو مِن حَيث الزَخارف العُثمانية المُميّزة كَما في؛ مَسجد الرَوْضة بالروضة بصنعاء.

أوضحت الدِراسة أَنّ التأثيرات العُثمانية كَانت بشكل قليل في أمثلة مَحدودة، ولم يَستطع الطِراز العُثماني أن يَفرض نفَسه ولم تظهر وتنتشر المَلامح المعمارية والفنية المُميّزة للعمارة والفن العُثماني في مُدن اليمن المختلفة مثل استخدام المَآذن العُثمانية المُميزة، أو استخدام البلاطات الخذفية وغيرها حتى أنّ نمَاذج المُنشآت التي شُيدت وِفق الطِراز العُثماني جَاءت مِن حيث الشَكل العَام فقط، أمّا مِن حَيث المَضمون وَالجَوهر وتقنيات البناء والزخارف فجاءت وِفق الطراز اليَمني المَحلي وَذلك رَاجع لِعدة أسباب أهمها؛ العُمق الثقافي والحَضاري لبلاد اليمن، وقلة الفترة الزمنية لتَواجد العُثمانيين باليمن، وكثرة الحروب والثورات التي قام بها اليمنيون ضد العثمانيين حيث كان يعتبرونهم غزاه مُحتلون، فُضلاً عن الاختلاف السياسي والمذهبي بين العثمانيين ودولة الأئمة الزيدية مما كان له أبلغ الأثر في انشغال العُثمانيين بِالحُروب والصراعات.

دراسات

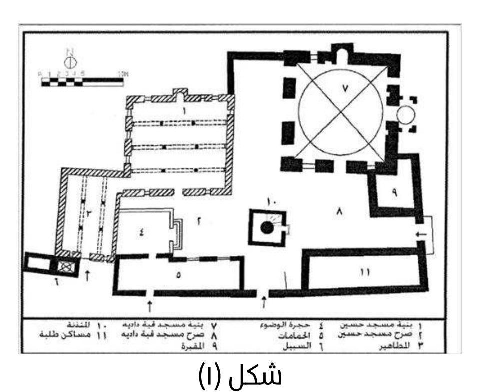
ملاحق



خريطة (١)

خَريطة تُوضح حُدود وِلاية اليَمن تَحت الحُكم العُثماني

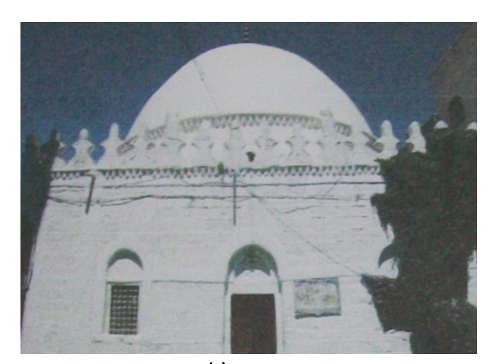
المصدر، أباظـه، فَـاروق عُـثمان، الحُكـم العُـثماني في الــيمن ١٨٧٢-١٩١٨م، دار العــودة، بــيروت، لبنــان، ط٢، ١٩٧٩م. ص٥٣١



شكل (١)

الموقع والمسقط الأفقي لمسجد وقبة

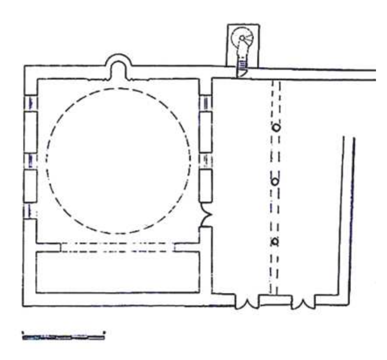
دادية بذمار. نقـلاً عـن، الكومـاني، صـلاح، مسـاجد ذمار، مخطط٢٠، ص٣٢٩



لوحة (١)

مسجد وقبة دادية بزمار– المسجد من الخارج

الواجهة الغربية. نقلاً عن، الكوماني، مساجد ذمار، لوحة ١٧٣



شكل (٢)

مَسجد المُرادية، المَسقط الأُفقي

عَمل البَاحث

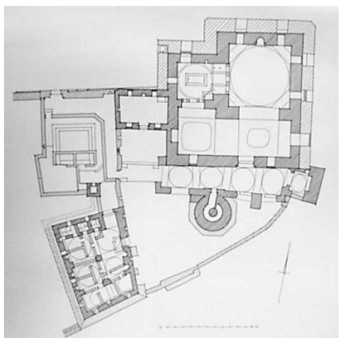
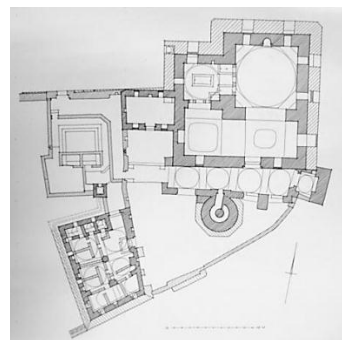


لوحة (٢)

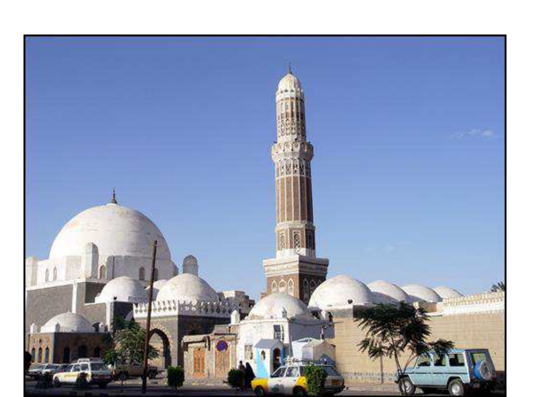
مَسجد المُرادية، المَسجد مِن الخَارج

الواجهة الجَنوبية. تَصوير الباحث

دراسات

شكل (٣)
مَسجد مُصطفى بَاشا بِزَبيد
المَسقط الأُفقي. المَصدر، الحضرمي، عبد الرحمن بن عبد الله، زبيد مساجدها ومدارسها، ص١٤٥ - ١٤٧

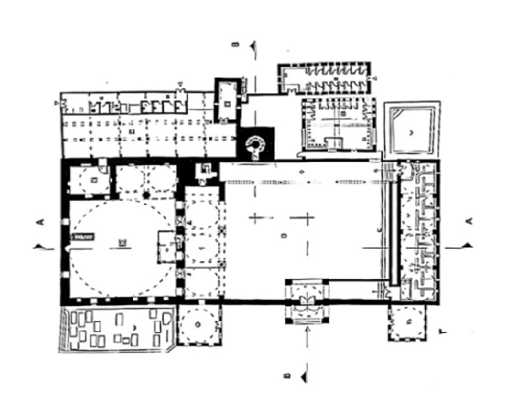


(شكل ٥)
مَسجد البُكيرية،
مَنظور تَحليلي لِمُكونات المَسجد.
المَصدر، مُنظمة العَواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري. ص ١٤٦

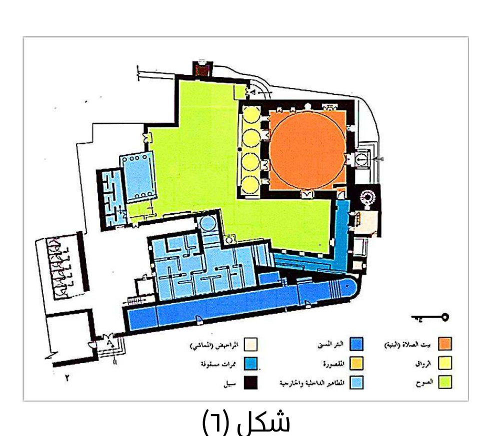


لوحة (٣)
مَسجد مُصطفى بَاشا بِزَبيد
مَنظر عَام لِلمسجد مِن الخَارج. الباحث

(لوحة ٤)
مَسجد البُكيرية، مَنظر عَام لِلمَسجد مِن الخَارج مِن الجِهة الغَربية
تَصوير البَاحث

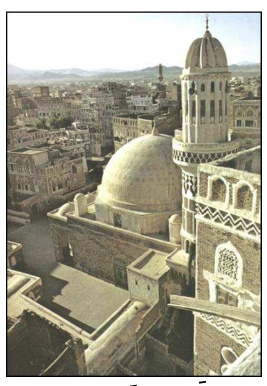


شكل (٤)
مَسجد البُكيرية، المَسقط الأُفقي
المَصدر، مُنظمة العَواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري. ص١٤



شكل (٦)
مَسجد طلحة، المسقط الأفقي
المَصدر، منظمة العواصم الإسلامية، أسس التصميم. ص٣٤١

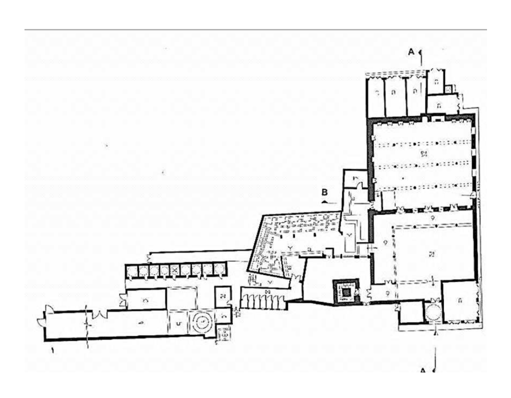
دراسات



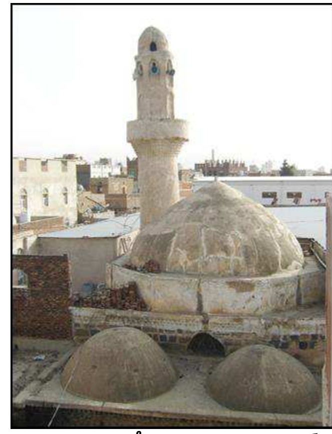
لوحة (٥) مَسجد طَلحة، مَنظر عام للمسجد يوضح القبة المركزية التي تغطي بيت الصلاة
تصوير الباحث



شكل (٨) مَسجد فِروة بِن مُسيك بصنعاء، المَسقط الأُفقي مُوضِح عَلَيه الإضافات العُثمانية بِاللون الأَزرق. المَصدر، منظمة العواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري.ص ٣٣١



شكل (٧) مَسجد أزدمر، المسقط الأفقي. المصدر، منظمة العواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري، ص ٣٣١



لوحة (٧) مَسجد فِروة بن مُسيك بِصنعاء، مَنظر عَام لِلمَسجد مِن الخَارج -جُزء الإضافَات العُثمانية لِلوَالي حَسن بَاشا سنة ٩٩٤هـ/١٥٨٥م
تصوير الباحث



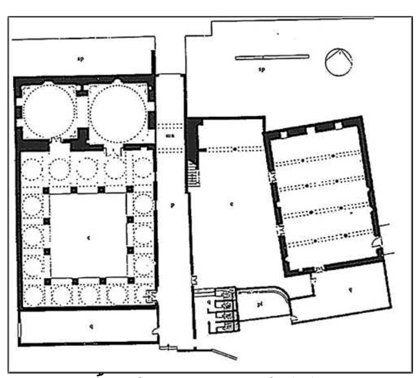
لوحة (٦) مسجد أزدمر، المسجد من الداخل والسقيفة التي تتقدم المسجد من الناحية الشمالية
تصوير الباحث

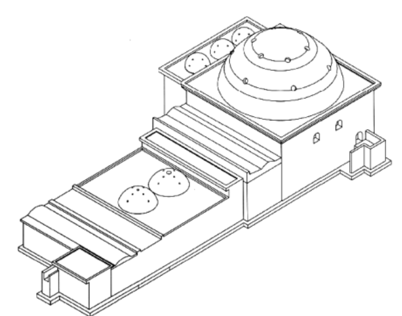


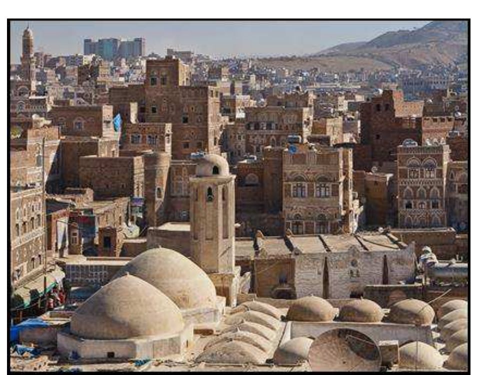
لوحة (٨) مَسجد وقُبة الإمام المتوكل، مَنظر عَام لِلمَسجد مِن الخَارج مِن الجِهة الشَرقية.
تصوير الباحث

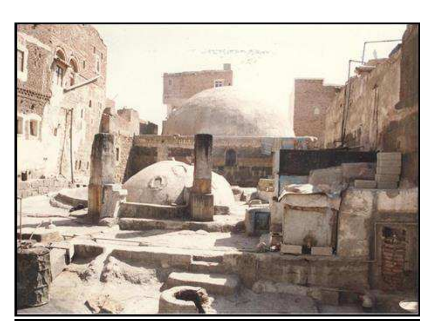

لوحة (٩) مَسجد وقُبة الإمام المهدي عباس بصنعاء، مَنظر عَام لِلمَسجد مِن الخَارج مِن الجِهة الشَمالية الشرِقية
تصوير الباحث


شكل (١٠) حَمام المِيدان بِصَنعاء
المَسقط الأُفقي وَقِطاع رَأسي
المصدر، منظمة العواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري. ص٢٥٥


شكل (٩) مَسجد جَناح وَالمُذهب
المَسقط الأُفقي
المصدر، غَيلان، حمود غيلان، مَحاريب صنعاء، شكل٧٣، ص٢٧١


شكل (١١) حمام الميدان بصنعاء
منظور شمالي شرقي
المصدر، منظمة العواصم الإسلامية، أسس التصميم المعماري. ص٢٥٦


لوحة (١٠) مَسجد جَناح والمُذهب
منظر عام للمسجد من أعلى
تصوير الباحث


لوحة (١١) حَمام المِيدان بِصَنعاء – مَنظر عَام للحمام من الخارج
الباحث

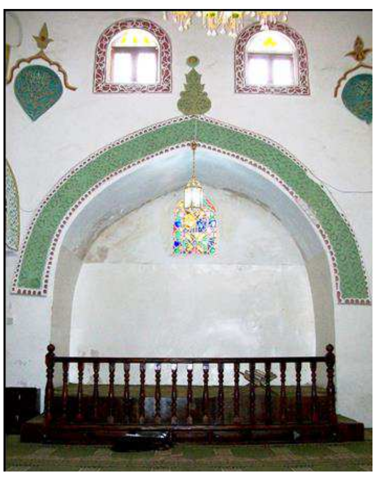

لوحة (١٢) مَسجد البُكيرية بِصنعاء
المِنبر الرُخامي
تصوير الباحث


لوحة (١٥) مَسجد البُكيرية
بصنعاء المَسجد من
الداخل- المِحراب.
تصوير الباحث


لوحة (١٣) مَسجد العُرضي بصنعاء- المنبر
الرُخامي. نقلاً عن، المرشد التاريخي للعُرضي،
دائرة التوجيه المعنوي، ص٣٧


لوحة (١٦) مسجد العُرضي بصنعاء-
المَسجد من الداخل- المحراب. نقلاً
عن، المرشد التاريخي للعُرضي،
دائرة التوجيه المعنوي، ص ١٢

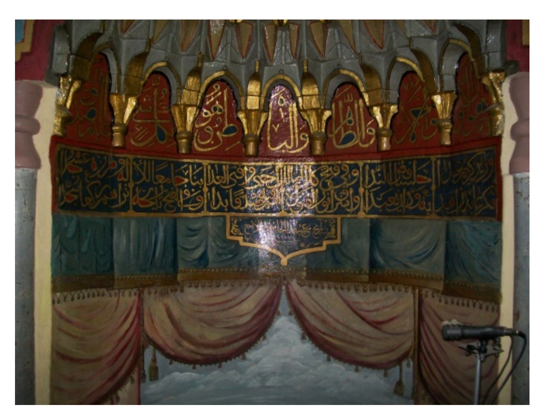

لوحة (١٤) مَسجد
المُرادية بصنعاء المسجد
من الداخل- المحراب.
تصوير الباحث


لوحة (١٧) دكة المَبلغ بمَسجد
المُرادية بقصر السلاح بصنعاء.
تصوير الباحث


لوحة (١٨) دكة المُبلغ بمسجد البكيرية بصنعاء تصوير الباحث


لوحة (١٩) دكة المبّلغ بمسجد العُرضي بصنعاء. تصوير الباحث

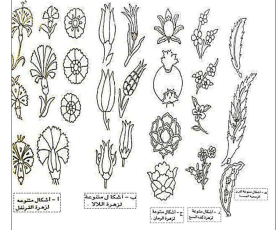

لوحة (٢٠) مَسجد البُكيرية بصنعاء – مَنظر عَام لِلقُبة المَركزية التي تُغطي بيت الصَلاة ويَظهر فِيها زَخارف الطِراز الرُومي التُركي
تصوير الباحث


لوحة (٢١) مسجد البكيرية بصنعاء –حنية المِحراب وَيُزخرفها رُسوم السَتائر المُميزة لِلطراز الرومي التركي. تصوير الباحث


لوحة (٢٢) مَسجد الرَوضة بالروضة – مَنظر عام لزخارف المحراب على الطراز العثماني. تصوير الباحث

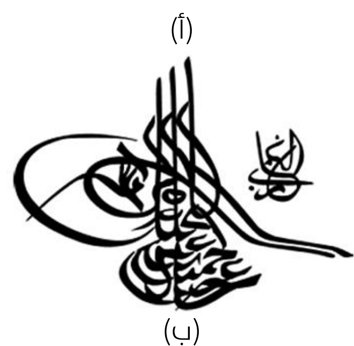
(أ)


(ب)


لوحة (٢٣) أ- تفاصيل من الزخارف النباتية وأشكال زهرة اللآله العثمانية بمحراب مسجد الروضة بالروضة. ب- أشكال متنوعة للزهور ذات التأثير التركي التي انتشرت في زخرفة العمائر الإسلامية في اليمن.


لوحة (٢٤) جَامع العُرضي بصنعاء – النص التأسيسي باللغة العثمانية يَعلوه طُغراء الخَليفة العثماني عبد الحميد الثاني


(أ)


(ب)

لوحة (٢٥) مسجد البكيرية بصنعاء أ- طغراء السلطان العثماني عبد الحميد الثاني في لوحة رخامية تعلو أحد المداخل المؤدية لبيت الصلاة.
ب- تفريغ لطغراء السلطان عبد الحميد الثاني من عمل الباحث

الهَوامِشُ:

(١) اهتم حُكام الدَولة العُثمانية بِالألقاب ذَات الطَابع الدِيني؛ مِثل لَقب خَادم الحَرمين الشَريفين الذي لُقب بِه السُلطان سَليم الأول، ثُم اتخذ لَقب حَامي حِمى الحَرمين الشَريفين بَعد دُخول الحِجاز في بَوتقة الدَولة العُثمانية، وَظلّ السُلطان سليم الأول وَغَيره من سَلاطين الدَولة العُثمانية يَهتمون بِهَذا اللقب وَيَعتزون بِه، لأنه يَدعم زَعامتهم عَلى العَالم الإسلامي. عن، ابن فهد الهاشمي (جار الله محمد بن عبد العزيز ت. ٩٥٤هـ/١٥٤٧م)، **نُخبة بَهجة الزمان بِعمارة مَكة لِمُلوك بَني عُثمان**، تَحقيق قِيس كَاظم الجَنابي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠١٠م، ص٨١.

(٢) عنان، زيد بن علي، "**العُثمانيون في اليمن**"، مجلة الإكليل، العدد الأول، السنة الثالثة، ١٩٨٥م، ص٤٠.

(٣) شكّل البرُتغاليون خَطرًا كَبيرًا عَلى شِبه الجَزيرة العَربية؛ حيث أَرسلوا حَملات صَليبية تَبشيرية مُزوّدة بِأحدث الأسلحة النَارية في ذلك الوَقت إلى الشَرق عَن طَريق رَأس الرَجاء الصَالح؛ لِلسَيطرة عَلى طُرق التِجارة الدَولية وَإحكام قَبضتهم عَلى مَصادرها، وَلكنهم كَانوا في قَرارة أَنفسهم يَهدفون إلى إعادة الكرّة لِشّن حُروب صَليبية أُخرى عَلى دِيار المُسلمين. عن، الأكوع، اسماعيل بن علي، "**عَوامل مُقاومة أهل اليمن لِلحُكم العُثماني**"، مِجلة الإكليل، عَدد٣١-٣٢، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، يناير– يونيو٢٠٠٧م، ص٢٧.

(٤) مصطفي، سيد سالم، **الفتح العثماني الأول لليمن ١٥٣٨-١٦٣٥هـ**، دار الأمين للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ١٩٩٩م، ص٦٥.

(٥) العزير، عبد الكريم علي، **التشكيلات المركزية العثمانية والإدارة العثمانية والإدارة المَحلية في اليمن ١٨٥٠-١٩١٨م**، صنعاء، ٢٠٠٣م، ص٣٢-٣٤.

(٦) هُو **السُلطان عَامر بن عَبد الوَهاب بن داود بن طَاهر** (٨٦٦-٩٢٣هـ/١٤٦١-١٥١٧م) آخر مُلوك الدَولة الطَاهرية وَأبرزهم، امتد حُكمه مِن صَعدة وَجِيزان شَمالاً إلى عَدن وَحَضرموت جَنوبًا، ثم قُتل عَلى يد المماليك. نقلاً عن، مُصطفى، **الفتح العثماني**، ص١٠٩،٥٠.

(٧) هو الإمام المُتوكل يَحيى شرف الدين وُلد في ٢٥ فبراير ١٤٧٣م، وَتُوفي في ٢٧ مارس ١٥٥٥م، كَان إمام الزَيدية في اليمن في الفترة مَا بين٩١٢هـ/١٥٠٦ حتى٩٦٣هـ/١٥٥٥م، وُلد في شَمال غَرب اليمن، قضى سَنوات في دِراسته حَتى أَصبح مُتهّجدًا (وَتُعني أنه أصبح رَجل دِيني زَيدي)، وَعِندما هُزم المَماليك عَلى يد السُلطان العُثماني سَليم الأول، استولى الإمام شرف عَلى المَدينة، وَشرع الإمام في تَوسيع أَراضي دَولة الإمامة الزَيدية عَلى حِساب الأمراء الطَاهريين الذين كَانوا لا يَزالون في الحُكم، واستطاع الإمام شَرف الدِين فَرض نُفوذه عَلى مُعظم المُدن الزَيدية في اليمن. للمزيد انظر، العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية، ص٣٧-٣٨، وللمزيد عن تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن انظر، زبارة، محمد بن محمد بن يحيى ت١٣٨٠هـ/١٩٦٠م، **تاريخ الأئمة الزيدية في اليمن حتى العصر الحديث**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٩٩٨م.

R.B. Serjeant & R. Lewcock, San'a'; An Arabian Islamic City. London 1983, p. 69

(٨) سُليمان بَاشا الخَادم هُو قَائد تُركى وَرَجل مِن رجال الدَولة العُثمانية فى عَهد السُلطان سُليمان القَانونى، بَدأ حَياته العملية فى الحَريم السُلطانى، وَغَادره وَهُو يَحمل رُتبة وَزير لِيَشغل مَنصب وَالي الشام ثُم تَولى حُكم مِصر مِن سنة (٩٣١هـ/١٥٢٥م) حَتى سَنة (٩٤١هـ/١٥٣٥م)، وَقاد حَملة كَبيرة لِفَتح اليمن، وَله عَدد كَبير مِن المُنشآت وَالمآثر العُمرانية بِمصر، وَتُوفي سنة (٩٥٥هـ/١٥٤٨م). للمزيد، عيسى، ميرفت مَحمود، **الطِراز العُثماني في مُنشآت التعليم بالقاهرة** (٩٢٣-١٢١٣هـ/١٥١٧-١٧٩٨م)، دراسة أثرية معمارية، مَخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٧م، ص١٩١-١٩٧.

(٩) المُوزعي، شَمس الدين عَبد الصَمد بن اسماعيل، **الإحسان في دخول مَملكة اليمن تَحت ظِل عَدالة آل عُثمان**، تَحقيق عبد الله محمد الحبشي، مكتبة الجيل الجديد، صنعاء، ط١، ٢٠١٢م، ص٤٠-٤١.

(١٠) لم يَستعمر العثمانيون الأتراك البِلاد العرَبية كما زَعم البعض، وإنما أعادوا لُحمة الوِحدة إليها تَحت الرَاية الإسلامية، ولم يَعتدوا عَلى البُلدان العَربية وإنما هَرعوا لإنقاذها مِن الأطماع الصَليبية، وَوحّدوا البِلاد العَربية كُلها تَحت رَاية الإسلام. نقلاً عن، أبو غنية، ذياد، **جَوانب مُضيئة في تَاريخ العُثمانيين وَالأتراك**، دار الفرقان، دراسات اسلامية هادفة، عمان، ط١، ١٩٨٣م، ص١١٥-١١٨.

(١١) العزيز، التشكيلات المركزية العثمانية، ص٣٩-٤٠.

(١٢) للمزيد عن تَاريخ الدَولة القَاسمية الزَيدية، انظر: الثور، أمة الملك اسماعيل قاسم، **بِناء الدَولة القَاسمية في اليمن في عهد المُؤيد محمد بن القاسم** (٩٩٠-١٠٥٤هـ/١٥٨٢-١٩٤٤م)، مع تَحقيق مَخطوط الجَوهرة المُنيرة في جمل من عُيون السيرة (جُزءان) للمُؤرخ المُطهر بن محمد الجَرموزي، مخطوط رِسالة دكتوراة، كُلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠٠٤م.

(١٣) الثور، أمة الملك إسماعيل قاسم، **الولاه العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية في فترتي الحكم العثماني الأولى والثانية لليمن** (٩٤٥-١٠٤٠هـ/١٠٣٨-١٦٣٠م) (١٢٨٩-١٣٣٦هـ/١٨٧٢-١٩١٨م)، مجلة جامعة الملك سعود، مجلد٢٢، الرياض، ٢٠١٠م، ص١٢٦-١٢٧.

(١٤) **زَبيد**؛ هي وَادي مَشهور يَصُب في سَاحل تهَامة ثم البحر الأحمر، وَكانت تُعرف قَديمًا بِإسم (الحَصيب) نِسبة إلى الحُصيب بن عَبد شمس بن وائل بن الغوث بن حيدان، ويُقال أن محمد بن زياد – مُؤسس دَولة بَني زِياد- هو الذي اختطها في القرن (٣هـ/٩م)، وقد اتخذها بَني أيوب عَاصمةً لَهم في أول حُكمهم لليمن في ق٦هـ/١٢م، وتَتميّز مَدينة زَبيد بمَعالمها التَاريخية ومَساجدها القَديمة وَالتي يُقدّر البَاقيَ مِنها حَوالي ٨٢ مَسجدًا، وَأكثر مِن ٢٥مَدرسة. نقلاً عن، المقحفي، إبراهيم، **معجم البلدان والقبائل اليمنية**، ج١، دار الكلمة، صنعاء، ١٩٨٥م، ص٧٣٢-٧٣٥.

(١٥) **تَعز**؛ هي مَدينة كَبيرة في السَفح الشَمالي لِجَبل صبر الشَامخ، وَتَبعد عَن صَنعاء جَنوبًا بمسافة ٢٤٥كم، قيل أنها لَم تُعرف بِهذا الإسم إلا في القرن (٦هـ/١٢م) عِندما سَكنها تُوران شَاه الأيوبي، ثُم إزدادت شُهرتها لمّا اتخذها الرَسوليون عَاصمةً لِدَولتهم، أمّا المَدينة فَقد كَانت تُعرف قَديمًا بإسم (ذي عُدينة)، ثُم غَلب إسم تعز عَليها، وقد تمَيّزت مَدينة تَعز في العَهد الرَسولي بالإزدهار العلمي وَالأدبي وَبِناء المَساجد وَالقِباب وَالقِلاع الشَامخة وَالمآذن العملاقة، وَأشهر مآثر الرَسوليين البَاقية إلى اليوم بتعز؛ جَامع الأشرفية وَجَامع المُظفر وَالمَدرسة المُعتبية وغيرها. نَقلاً عَن، المقحفي، **معجم البلدان**، ج١، ص٢٣١-٢٣٣.

(١٦) الغَازي أحمد مُختار بَاشا؛ وَلد في بروسة بِآسيا الصُغرى في شهر سبتمبر سنة (١٢٥٣هـ/١٨٣٧م)، وقدم الأستانة صغيرًا، فَدخل المَكتب الحَربي العَالي فنبغ من بين أقرانه ولم يَتخرج منه حَتى نَال رُتبة قَائم مَقام، وحَضر حَرب القَرم وَامتاز بِالبَسالة وَالشَجاعة، وتم تَرقيته والتحق مَع ضُباط الجيش المُرسل إلى اليمن تَحت إمرة رَديف باشا، وَرُقي إلى رُتبة مُشير وَجُعل وَاليًا عَلى اليمن سنة (١٢٨٦هـ/١٨٦٩م)، وَلُقب بِالغَازي؛ لاستبساله في الدِفاع عَن إقليم قرص شرقي آسيا الصغرى، وعن أرضروم في أثناء الحَرب التُركية الرُوسية (١٢٩٣-١٢٩٤هـ/١٨٧٦-١٨٧٨م). للمزيد، تيمور، أحمد باشا، **تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر**، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ٢٠٠١م، ص٥٣-٥٤.

(١٧) للمزيد عن الفتح العُثماني الثَاني انظر، حِرازي، **مُحسن بن أحمد، فترة الفوضى وعودة الأتراك الى صنعاء: السفر الثاني من تاريخ الحرازي**، (رياض الرياحين) (١٢٧٦-١٢٨٩هـ/١٨٥٩-١٨٧٢م)، تحقيق حسين عبد الله العمري، دار الفكر بدمشق، دار الحكمة اليمانية بصنعاء، ط١، ١٩٨٦م.

(١٨) صُلح دَعان؛ نِسبة إلى قَرية دعان في الشَمال الغَربي مِن قَرية عُمران، وفيها تَمّ الإتفاق بين الوَالي العُثماني أحمد عزت باشا كَمُمثل لِلدَولة العُثمانية والإمام المُتوكل يَحيى سنة (١٣٢٧هـ/١٩١١م) على إصلاح أُمور صَنعاء وَالمَناطق الجَبلية التي يَقطنُها الزَيديون، وَمِن أَهم بُنود ذَلك الإتفاق اعتراف الإمام بِالسِيادة العُثمانية، ويُشرف الإمام عَلى شُئون القَضاء وَالأوقاف وَتَعيين القُضاة. لِلمَزيد عَن بِنود هَذا الصُلح انظر، علي، فؤاد الشامي عبد الوهاب، **العلاقات بين الإدارة العثمانية والإمام يحيى (١٣٢٢-١٣٣٧هـ/١٩٠٤-١٩١٨م)**، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء، ٢٠٠٩م، ص٣٥٥-٣٦٣.

(١٩) يسر، محمد عبد العزيز، **المَوروث الحَضاري لِصَنعاء القَديمة**، إصدارات جامعة صنعاء، اليمن، صنعاء، ٢٠٠٤م ، ص١١٦-١١٨.

(٢٠) باب السَبحة؛ هُو مَدخل مَدينة صَنعاء القَديمة مِن جِهة خُزيمة جَنوبًا وَبير العَزب غربًا، وَكان أكبر أَبواب صَنعاء، وَتَمّ بِناءه في عَهد الوَالي العُثماني أحمد فَيضي باشا، وَكَان يُعتبر المَدخل الرَئيسي لِصَنعاء الجَديدة، وَيَتميز بِدقة

هَندسة بنائه. نقلاً عن، الحَاضري، أحمد محمد، **فَن وهَندسة البناء الصِنعاني**، الهَيئة العَامة لِلكتاب، صَنعاء، ط١، ٢٠٠٦م، ص٢٤، الثور، **الولاة العثمانيون وأبرز أعمالهم الإنشائية**، ص١٣٥.

(٢١) مُنظمة العَواصم وَالمُدن الإسلامية، **أُسس التَصميم المِعماري وَالتَخطيط الحَضري في العُصور الإسلامية دِراسة تَحليلية عَلى العَاصمة صَنعاء**، مَركز الطَاهر لِلإستشارات الهَندسية، جِده، السُعودية، ٢٠٠٥م، ص٩٠.

(٢٢) يسر، **المَوروث الحَضاري لِصنعاء القَديمة**، ص ١١٦-١١٨.

(٢٣) المَركز الوَطنى لِلوَثائق بصنعاء، وثيقة رقم DH.MUI 108\21.

(٢٤) جاء استخدام القُبة قَائمة بِذَاتها في تَغطية بَيْت الصَلاة دُون وُجود أعمدة تَحقيقًا لِبَعض مَفاهيم الفقه الإسلامي مِن حَيث أَفضلية الصَلاة في فَراغ مِعماري بِدُون أعمدة؛ حَيث رُوي عَن الرَسول صلى الله عليه وسلم عَن أنس رَضي الله عَنه قَال (كُنا نُنهي عَن الصَلاة بَين السَواري (الأعمدة) ونطرد عنها)، وَسَبب كَراهية الصَلاة بَين السَواري أَنّها مُصلى الجِن المُؤمنين، لِذَلك يُفضّل تَقليل عَدد الأعمدة في قَاعة الصَلاة حَتى لا تَقطع صُفوف المُصلين أو تَعوق رُؤية الخَطيب عَلى المنبر، وَفي حَالة تَوفر الإمكانات المَادية فيُفضل وُجود فَراغ مِعماري وَاحد لقاعة الصَلاة بَدُون أعمدة. نقلاً عن، وَزيري، يَحيى، **العِمارة وَالبُنيان في مَنظور الإسلام**، مجلة رَوافد، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الكويت، ط١، ٢٠٠٨م، ص١٥١.

(٢٥) الحدّاد، محمد حمزة، **المُجمل في الآثار والحضارة الإسلامية**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٦م، ص٥٣٨-٥٤٢.

(٢٦) الحدّاد، **المُجمل**، ص٥٣٨-٥٤٢.

(٢٧) يَذكر البَعض أنّ هَذه السَقيفة التي تَتقدم بيت الصَلاة وَتَفصل مَا بين الصَحن وَبيت الصَلاة اقتُبست الرواق المُستعرض في تَخطيط الكَنائس البَازيليكة. نقلاً عن، شَافعي، فريد، **العِمارة العَربية مَاضيها وَحَاضرها وَمُستقبلها**، جَامعة الملك سُعود، الرياض، ط١، ١٩٨٢م، ص١٤١.

(٢٨) يَرى الحَدّاد أنّه وِفقًا لِلإشارات التَاريخية المُتناثرة في المَصادر المُختلفة؛ أَنّ بَعضًا مِن مَساجد القَبائل العَربية في خِطط مَدينة الفُسطاط كَانت مُصممة وِفق هَذا الطِراز البَسيط مِنه، وَللأسف اندثرت هَذه النَماذج وَهي بِذلك تُمَثّل الإرهاصات الأُولى لِهَذا النَمط البَسيط. نقلاً عن، الحَدّاد، **المجمل**، ص٥٣٩.

(٢٩) الحداد، **المجمل**، ص٥٤٢؛ مَانتران، روبير، **تَاريخ الدولة العثمانية**، ج٢، تَرجمة بِشير السِباعي، دَار الفكر للدرسات وَالنشر وَالتَوزيع، القَاهرة، ط١، ١٩٩٣م، ص٣٦٣-٣٦٤.

(٣٠) يُعتبر طِراز بُورصة هُو الأسلوب الفَني المُبكّر الذي سَاد في عَمائر وَفُنون الدَولة العُثمانية مُنذ فَتح بُورصه سَنة (٧٢٧هـ/١٣٢٦م) وحتى أواخر (ق٩هـ/١٥م)، واستمر هَذا الطِراز المُبكر نَحو مَائتي سَنة تَقريبًا، وَتَظهر خَصائص وَسِمات هَذا الطِراز في العَمائر العُثمانية التي شُيدت قَبل فَتح مَدينة استانبول سَنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. نقلاً عن، عطيه، عبد الله، **دِراسات في الفَن التُركي**، مَكتبة النَهضة المَصرية، القَاهرة، ٢٠٠٧م، ص٢٥٧.

(٣١) بدر، مُنى محمد، **أثر الحَضارة السُلجوقية في دُول شَرق العَالم الإسلامي عَلى الحَضارتين الأيوبية والمَملوكية بمِصر**، ج٣، مَكتبة زَهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م، ص٢٢-٢٧.

(٣٢) وقد شجّع العثمانيون إعادة فكرة الصحن لديهم من عقيدة وشعور ديني كبير، فَقد رَغبوا في تَقليد المَساجد الاسلامية الكُبري المُتأسية بمَسجد الرَسول صلي الله عليه وسلم. نقلاً عن، ماهر، سعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، ج٥، وزارة الأوقاف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٤٦.

(٣٣) يَقع مَسجد دَاديه وَسط مَدينة ذَمار القَديمة، وَيُنسب إلى الشيخ الدَاعية التُركي حَسن بَاداده مِن استانبول الذي ارتحل إلى اليمن بِصُحبة نَفر مِن أتباعه خِلال الوُجود العُثماني باليمن، واستقر بِذَمار وَبَنى له مَسجدًا مُتواضعًا لِلفُقراء، وَبَعد بِضع سِنين تُوفى وَدُفن في فِناء هَذا المَسجد. نقلاً عن، خَليفة، رَبيع حامد، **مَسجد الأمير سُنبل (١٠٢٤هـ-١٦٣٢م) وَقُبة دَاديه بمَدينة ذمار القَديمة دراسة معمارية أَثرية**، مجلة كُلية الآداب، جَامعة صنعاء، العدد (١١)، ١٩٩٠م، ص٥١-٥٢؛ زكريا، محمد، **مَساجد اليمن نَشأتها وَتَطوّرها**، مَركز عبادي للدراسات والنشر، صنعاء، ط١، ١٩٩٨م، ص٦٨، وَللمزيد عَن هَذه المَسجد انظر، الكُوماني، صلاح أحمد، **مساجد مدينة ذمار حتى نهاية ق١٢هـ/١٨م**، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الآثار، جامعة صنعاء، ٢٠١٠م، ص١٣٨-١٤٥، وَقد أَرجع الكُوماني تَاريخ هَدم هَذة المُنشأة إلى النِصف الثَاني مِن القرن (١٠هـ/١٦م).

(٣٤) **مَدينة ذَمار**؛ هِي مَدينة كَبيرة تَقع جَنوب صَنعاء بِمسافة ٩٩كم، وَقال الحُجري في سَبب تَسميتها؛ نِسبة إلى ذَمار بن يَحصن بن دهمان بن سعد بن عُدي بن مالك بن سدد بن حمير الأصفر، بَينما يَذكر آخرون أنها سُميت بذمار نسبة إلى يَهبو ملك بدأ وذو ريدان ١٥-٣٠م، ويُعتبر جَامعها الكَبير مِن أقدم المَساجد الإسلامية إذ يُعود بناؤه إلى عَصر الخَليفة أبي بَكر الصِديق. نقلاً عن، المَقحفي، **مُعجم المدن**، ج١، ص١٦٧-١٦٨.

(٣٥) خليفة، **مسجد الأمير سنبل وقبة داديه**، ص٥٠-٥١.

(٣٦) مَسجد المُرادية هو مِن المَساجد العَامرة في قَصر صَنعاء عُلو المَدينة في الجِهة الشَرقية، عَمّرها مَع مَنارتها الوَزير مُراد باشا في سنة (٩٨٤هـ/١٥٧٦م)، وَأرّخ لعمارتها بَعض الأدباء بِحساب الجُمل بقوله؛ قُبة البَاشا مُراد- لُقبت بالعَادلية- جَاء تَاريخ بِنائها- كَمُستقر الحَنفية. نقلاً عن، الحُجري، محمد بن أحمد، **مَساجد صَنعاء عَامرها وَمُوفيها**، إصدارات وزارة الثقافة والسياحة، صنعاء، ٢٠٠٤م، ص١٢٢.

(٣٧) يُنسب هَذا إلى الوَالي العُثماني مُصطفى باشا النشّار، وَتَخطيطها عِبارة عَن قُبة كَبيرة ويَقع بجوارها مِن جهة الغَرب قُبة صَغيرة بِها قَبر مُصطفى بَاشا وَزَوجته وَأولاده،

وَيُوجد جَنوب قَبة المَدفن عِدة قِباب تَقوم على عُقود تمتد من الغرب إلى الشرق، ولبيت الصَلاة شباكان كَبيران شَرقًا وَغَربًا وَشباكان آخران مُتوسطان بَينهما حِنية المحراب في الوَسط. للمَزيد انظر، الحَضرمي، عبد الرحمن بن عبد الله، **زَبيد مَساجدها وَمَدارسها العلمية في التّاريخ**، المَركز الفرنسي لِلدراسات اليَمنية بِصَنعاء، المَعهد الفرنسي للدراسات العَربية بدمشق، ٢٠٠٠م، ص١٤٥–١٤٧.

(٣٨) يَقع مَسجد البُكيرية في الجِهة الشَرقية مِن مَدينة صَنعاء بالقُرب مِن قَصر السِلاح، وَيَذكر المُؤرخون أنّ مَكان هَذا المَسجد قَديمًا كَان مَقبرة قَديمة كَانت تُستخدم أيام الطَاعون الذي وَقع أيام الإمام شَرف الدِين وَقد أُزيلت وبُني مَكانها هَذا المَسجد، وَقد شيّدها الوَالي العُثماني حَسن بَاشا، وَمِن أَشهر أَعماله المِعمارية هَذا المَسجد، وسبب تَسميتها بالبُكيرية نِسبة إلى بكير بِك مولى الوَزير حَسن باشا وَكَان الوَزير يُحبه حُبًا جَمًا. نقلاً عن، ابن الحسين، يَحيى بن الحسين بن القاسم بن محمد بن علي (ت. ١١٠٠هـ/١٦٨٨م)، **غَاية الأَماني في أَخبار القُطر اليَماني**، تحقيق سعيد عبدالفتاح عاشور، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨م، ص٧٦٩، الأكوع، اسماعيل بن علي، **المدارس الإسلامية في اليمن**، منشورات جامعة صنعاء، دار الفكر بدمشق، ١٩٨٠م، ص٢٨٢-٢٨٣، محمد، غازي، **من روائع العمارة الإسلامية في اليمن القبه البكيرية في صنعاء**، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، عدد ٢٨، ١٩٨٠م، النصر، محمد سيف، "**نظرة عامة على المدارس اليمنية تخطيطاتها وعناصرها المعمارية**"، مجلة الإكليل، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، اليمن، العدد الأول، السنة الثالثة ١٩٨٥م، ص١١٤-١١٥، الحجري، **مساجد صنعاء**، ص٢٠. وللمزيد عن مسجد البُكيرية انظر، خليفة، ربيع حامد، "**البكيرية المسجد والمدرسة**"، مجلة الإكليل، وزارة الثقافة، صنعاء، ع٤، السنة الخامس،١٩٨٧م، شرف الدين، عيسى بن لطف الله (ت.١٠٤٨هـ/١٦٣٨م)، **روح الروح فيما حدث بعد المائة التاسعة من الفتوح**، تحقيق إبراهيم المقحفي، مركز عبادي للنشر والدراسات، صنعاء، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ص٢٢٤.

Lewcock R., The walled city of Sana'a ,(Uensco,1987), p.88

(٣٩) يَقع مَسجد طلحة في حي السرار الشرقي، ويُعتبر من المساجد القديمة في صنعاء، إذ أُشير إليه في خِطط مدينة صنعاء في القرن (٤هـ/١٠م) غير أنه لا يُعرف عَلى وجه التحديد تَاريخ إنشائه، فَيذكر المُؤرخ ابن لطف الله في كِتابه (روح الروح) (أنّه في شَهر شَعبان مِن سنة ١٠٢٩هـ/١٦١٩م أكمل الوَزير محمد باشا عِمارة مَسجد طلحة وعمَّر مَنارته وَأحيّاه بَعد أَن كَانت عِمارته عَلى شَفا جُرف، وَوسّعه فَصَار جَامعًا وزاد فيه مِنبرًا) فَهو كَان عِبارة عَن مَسجد قَديم العِمارة وَكَان صَغير الحَجم، وَأنّ أول مَن زاد فيه هُو محمد باشا سنة (١٠٢٩هـ/١٦١٩م). نقلاً عن، ابن لطف، **روح الروح**، ص١٠٣، الحجري، **مساجد صنعاء**، ص٧٦، خليفة، ربيع حامد، **مساجد مدينة صنعاء فترة الوجود العثماني الأول ١٥٣٨-١٦٣٥هـ**، مكتبة نهضة الشرق، القاهرة، ١٩٨٩م، ص٩٣.

(٤٠) يُعَدّ مَسجد أزدمر مِن المَساجد القَديمة العَامرة في الجِهة الشَمالية مِن صَنعاء بِالقرب من باب شعوب، وقد شيّده الوزير أزدمر باشا وذلك في النصف الثاني من القرن (١٠هـ/١٩م)، ويُرجّح أنّ المَسجد بُنى في الفَترة مَا بين سنة (٩٥١-٩٦٣هـ/١٠٤٩-١٥٥٥م)، وذلك اعتمادًا عَلى فَترة حُكم أزدمر باشا باليمن كَما ذكرت المصادر التاريخية. نقلاً عن، الحُجري، محمد بن أحمد، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، المجلد الأول، تحقيق اسماعيل بن علي الأكوع، دار الحكمة اليمانية، صنعاء، ط١، ١٩٩٦م، ص٥١٦، الحُجري، **مساجد صنعاء**، ص١٦-١٧.

(٤١) الحُجري، **مساجد صنعاء**، ص١٦-١٧.

(٤٢) مَسجد فروة بن مُسَيْك مِن المَساجد العَامرة خَارج صَنعاء في الجِهة الشَمالية بِالقُرب مِن الجَبّانة (مُصلىّ العِيدين، وَقَد جَدّده الوَالي العُثماني حَسن باشا في أوائل القرن (١١هـ /١٧م)؛ حَيث عمّر القُبة الكَبيرة غَربي مَسجد فِروة. للمزيد انظر، الحُجري، **مَساجد صنعاء**، ص٩٨.

(٤٣) الحجري، **مساجد صنعاء**، ص١٠.

(٤٤) الحجري، **مساجد صنعاء**، ص١٧-١٨.

(٤٥) يَقع مَسجد المُتوكل في بَاب السَبحة شَرق المُتحف الوَطني بِميدان التَحرير في صنعاء، وَكانت هَذه المِنطقة تُعرف قَديمًا بِإسم بُستان المِسك، وَقَد شيّد هَذا المَسجد الإمام المُتوكل قَاسم بن الحُسين سنة (١١٣٩هـ/١٧٢٦م)؛ وَهُو مُشيد حَسب الطِراز العُثماني المُبكر وَيَتألف مِن بَيت الصلاة مُربع المَسقط وَمَسقوف بِقُبة وُسطى ضَخمة يُحيط بِها مِن الجَانبين الشَرقي وَالغَربي أنصاف قِباب، وَمِن الجَانبين الشَمالي وَالجَنوبي ثَلاث قِباب صَغيرة في كُل جَانب، وَلِلجامع مِئذنة قَصيرة ذَات قِطاع مُرتفعة مُربعة التَخطيط، وَيُوجد بَالجَانب الخَارجي مِن الرُكن الشَرقي قُبة ضَريحية ضَخمة. وَللمَزيد عَن مَسجد المُتوكل، انظر، البَاشا، حَسن، **مَوسوعة العِمارة وَالآثار وَالفُنون الإسلامية**، ج٢، أوراق شرقية، القاهرة، ١٩٩٩م، ص٣٠-٣١.

(٤٦) يُعتبر مَسجد وقُبة المَهدي عَباس مِن أحسن المَساجد العَامرة وَأتقنها عمارة، بَناها الإمام المَهدي عَباس غَربي سَايلة صَنعاء عَلى الطَريق النَافذة إلى بُستان السُلطان عَام (١١٦٤هـ/١٧٥١م)، وهو يُشبه في تَخطيطه المَساجد العُثمانية كَمَسجد البُكيرية وَطَلحة؛ عِبارة عَن بيت الصلاة مُربع الشَكل وَيَعلوه قُبة ضَخمة، وَيُوجد بجوار المَسجد القُبة الضَريحية المَدفون بِها الإمام المَهدي. نقلاً عن، الحُجري، **مجموع بلدان اليمن وقبائلها**، مج١، ص٥١٦، العُمري، حسين عبد الله، **القبة**، **المَوسوعة اليمنية**، مج٣، مُؤسسة العفيف، صنعاء، ط١، ١٩٩٢م. ص١٣٦٧. وللمزيد انظر، سيـف، علي سعيد، **عمائر الإمام المهدي عباس الدينية (مساجد) في مدينة صنعاء**، (١١٦١–١١٨٩هـ/ ١٧٤٨–١٧٧٥م) "دراسة آثرية معماريـة"، صنعاء الحضارة والتاريخ، ج٢، دار الكتب، صنعاء، ٢٠٠٥م.

(٤٧) عبد السلام، ياسر إسماعيل، **العَوامل المؤثرة على مُخططات العَمائر الدِينية العُثمانية في القَاهرة وَالوَجه البَحري**، مَخطوط رِسالة مَاجستير، كُلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠١م، ص٢٤.

(٤٨) بيت الصلاة هو الجُزء المَسقوف من صحن المسجد نَاحية القبلة، وقد تعوّد الأثريون الأوربيون أن يُعبرّوا عَنه بلفظ بيت الصلاة وهو بالإنجليزية Sancatuary أما بالفرنسية Sanctuaire أما الألمان فيسمونه Gebet Hall أو Gebet Sall، وقد بدأ ظهور بيت الصلاة مع مسجد الرسول صلي الله عليه وسلم في المدينة وتطوّر حتى أصبح الجُزء الرَئيسي في المَسجد؛ حيث أن به جدار القبلة والمحراب والمنبر. نقلاً عن، مـؤنس، حسين، **المساجد**، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، العدد٣٧، يناير١٩٨١م، ص٧٦.

(٤٩) الحرم مُصطلح يُطلق على الصحن في الطراز العثماني التقليدي (الكلاسيكي)، وأيضًا يُعني الحرم Harem بأنه القسم الخاص بالنساء فهو أحد أقسام المَنازل والقصور، أمّا القِسم الخَاص بالرجال فيُقال له سَلاملك أي مكان الإستقبال والترحيب. نقلاً عن، صابان، سهيل، **المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية**، مكتبة الملك فهد الوطنية، السلسلة الثالثة (٤٣)، الرياض، ٢٠٠٠م، ص٩١. وأُطلق على الصحن في هذا التخطيط اسم الحرم ربما تَشبُهًا بالحرم المكي الشريف الذي أُعيد بنائه في عهد السلطان العثماني مراد الرابع عَلى هَذا النحو. نقلاً عن، ماهر، سُعاد، **مساجد مصر وأولياؤها الصالحون**، ج٥، وزارة الأوقاف، المَجلس الأعلى للشئون الإسلامية، القاهرة، ١٩٨٣م، ص٤٧.

(٥٠) الحدّاد، **المُجمل**، ص٥٤٩-٥٥١، عبد السلام، العوامل المؤثرة، ص٢٥.

(٥١) الحدّاد، **المُجمل**، ص٥٤٩-٥٥١.

(٥٢) مَسجد جَنَاح من المساجد العامرة بالقرب من سُوق المِلح غَربي مَسجد المُذّهب بِصنعاء، ويَرجع عِمارته إلى آخر القرن (١٠هـ/١٦م)، وَنِسبته إلى الشيخ الفَاضل محمد بن محمد بن أحمد بن جَنَاح الضمدي القادري المُتوفي سنة (٩٩١هـ/١٥٨٣م) وَالمَقبور دَاخل بَيت الصلاة في هَذا المَسجد. نقلاً عن، الحُجري، **مساجد صنعاء**، ص٤٦.

(٥٣) حمام الميدان يقع في حي القَطيع حارة الميدان، ويرجع تاريخ عمارته إلى الوالى العثماني حسن باشا (٩٨٨-١٠١٢هـ/١٥٨٠–١٦٠٣م)، غير أن المصادر التاريخية تشير إلى أن بناءه سبق بناء مسجد ومدرسة البكيرية الذي أمر ببنائها أيضًا الوالي حسن باشا، ويُعتبر حمام الميدان أكبر حمامات صنعاء القديمة إذ تَبلغ مساحته ١٣٥,٥م٢، وجاءت عمارة هذا الحمام على الطراز المعماري اليمني، ولكن أدخل عليه بعض الإضافات التركية جعلته على النسق العثماني. نقلاً عن، منظمة العواصم والمدن الإسلامية، **أسس التصميم المعماري**. ص٢٥٣، يسر محمد بن عبدالعزيز، **الموروث الحضاري**، ص٢٥٠-٢٥١.

(٥٤) يَرجع أصل كَلمة عُرضي إلى مُصطلحات وَكَلمات عُثمانية وَفَارسية الأصل؛ فَهي تَعود إلى كَلمة (أوردو)، وتُعنى بالتُركية (الجَيش أو القوة العثمانية أو ثكنة الجيش)، وَأُطلقت هَذه التَسمية عَلى الجُيوش المَغولية التي اجتاحت أجزاء وَاسعة مِن آسيا وَأوربا، وأصبحت تعني (ثكنة عسكرية أو منطقة التجييش وتجميع الجند)، فكلمة الأردو هي موَجودة في كل الأماكن التي تَواجد فيها العثمانيون وليست في اليمن فقط، وأخيرًا مَعناها الشامل المَكان المُخصص لِقيادة الجيش وإدارته وفروعه وَسِجلاته وَكُل مَا يَتعلق بشئون الجيش. العُمري، حسين عبد الله، العُرضي، **المَوسوعة اليمنية**، ج٣، ص٢٠٥٢، **المرشد التاريخي للعُرضي**، دائرة التوجيه المعنوي، المركز العسكري للوثائق، صنعاء، ط٢، ٢٠١١م، ص٦.

(٥٥) **السُلطان عبد الحميد الثاني** (١٢٥٨-١٣٣٧هـ/١٨٤٢-١٩١٨م)، هو ابن السطان عبد المجيد، وقد ولد في شهر شعبان (١٢٥٨هـ/ ٢١سبتمبر عام١٨٤٢م)، وتولي العرش خلفًا لأخيه مراد في شهر شعبان١٢٩٣هـ/ ٣١ أغسطس عام ١٨٧٦م، وكان شخصية قوية منذ صغره، وكان متدينًا في وسط جو أوربي يعيشه أمراء القصر السلطاني، وحريصًا علي أداء الصلاة في أوقاتها، عفيفًا لا يشرب الخمر، ويمنع تدخل نساء القصر في السياسة أو شئؤن الدولة منعًا باتًا، وكان حكم السلطان عبد الحميد برغم ماانتابه من المشاكل العديدة عهد استقرار، وكان الشعب يشعر بالأمان في عهده، وتُوفي في جمادى الأول (١٣٣٧هـ/ ١٠ فبراير ١٩١٨م) عن عمر ست وسبعين عامًا. نقلاً عن، حرب، محمد، **العثمانيون في التاريخ والحضارة**، سلسلة دراسات عثمانية (١)، المركز المصري للدراسات العثمانية وبحوث العالم التركي، القاهرة، ١٩٩٤م، ص٢٨-٤٢.

(٥٦) الثور، **الولاة العثمانيون**، ص١٣٦.

(٥٧) يسر، الموروث الحضاري، ص١٢٩، الثور، **الولاة العثمانيون**، ص١٣٣-١٣٤، وللمزيد عن مجمع العُرضي العسكري انظر، العُرضي **عمارة اسلامية حربية دلالات تاريخية وفنون العمارة الحربية في اليمن (١٢٨٩-١٣٣٦هـ/١٨٧٢-١٩١٨م)**، سلسلة المنشآت والعمائر الحربية في اليمن، دائرة التوجيه المعنوي، المركز العسكري للوثائق، صنعاء، د.ت.

(٥٨) أبدع الفنانون اليمنيون في أساليب تَشكيل المَنابر الخَشبية ونحَت الأخشاب والحفر عليها من أمثلة ذلك؛ مِنبر جامع الأشاعر بزبيد ومنبر الجامع الكبير في إب، ويُعتبر منبر جامع ذمار الكبير أقدم منبر باق في اليمن ويرجع تاريخ صناعته إلى ق٣–٤هـ/٩-١٠م، ومن أمثلة المنابر الخشبية في العصر العثماني المنبر الخشبي الذي أضافها الوالي مراد باشا إلى الجامع الكبير بصنعاء. نقلاً عن، شيحه، مصطفي عبد الله، **مدخل إلى العمارة والفنون الإسلامية في الجمهورية العربية اليمنية**، وكالة اسكرين، القاهرة، ط١٩٨٧م، ص١٤٦-١٤٧، الكوماني، **مساجد مدينة ذمار**، ص٢١٢.

(٥٩) أبوبكر، نعمت، **المنابر في مصر في العصرين المملوكي والتركي**، مخطوط رسالة دكتوراه، كلية الآثار، قسم الآثار الإسلامية، جامعة القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٢.

(٦٠) للمَزيد عن مساجد الشاه زده والسليمانية. انظر، آصلان آبا، أوقطاي، **فنون الترك وعمائرهم**، ترجمة أحمد عيسى، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون الثقافية، استانبول، ١٩٨٧م ، ص١٩٠-٢٠٦.

(٦١) كان أول ظهور لشكل القمة المُدببة في الأضرحة التي ترجع إلى العصر السَلجوقي ومن أقدم أمثلة هذه الأضرحة؛ ضريح جنيد قابوس في إقليم جرجان بايران ويرجع لسنة ٣٩٧هـ/١٠٠٦م وبعد ذلك ظهرت في مئذنة مسجد علاء الدين بقونيه ٥٥٠هـ/١١٥٥م والتي تتفق قمتها مع قمة جلسة الخطيب بمنبر المسجد والذي يُعتبر منبره من أقدم المنابر الخشبية التي تُوجت قمتها بالشكل المخروطي المدبب. نقلاً عن، الدسوقي، شادية، **الأخشاب في العَمائر الدينية بالقاهرة العثمانية**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط ١، ٢٠٠٣م، ص٦٧–٦٨.

(٦٢) عُرفت النهاية المدببة لقمم المنابر والمآذن العثمانية في المُصطلح الوثائقي باسم (جَربوش) فقد جاء في حجة وقف مسجد سنان باشا ببولاق بالقاهرة رقم ٢٨٦٩ أوقاف ما نصه (يَعلو رأس المنار جربوشا خشب مغلف بالرصاص بهلال نحاسي مطلي بالذهب)، وجربوش كلمة فارسية بمعنى غطاء الرأس ثم حُرّفت بعد ذلك إلى طَربوش وقد أطلقها السُوريون على القمة المَخروطية التي تُشبه سن القلم الرُصاص، وربما كان سبب هذه التسمية حيث اشتُق هذا المصطلح من شكل لباس رأس الدراويش الذي يُشبه الطرطور والذي كانت ترتديه أفراد تلك الفئة الذين وصلوا في العصر العثماني إلى مركز من مراكز القوى التي كان لها خطرها في الدولة. نقلاً عن، أبو بكر، **المنابر**، ص١٩٤-هامش١٥٦.

(٦٣) يَرجع بِداية ظهور فكرة المحاريب ذات الطواقي ذات صُفوف المُقرنصات لسلاجقة الروم وانتشر استخدامها في مُعظم العَمائر السَلجوقية، ثُم انتشر استخدامه في عمل طواقي المَحاريب في العمارة العثمانية، بل أنه أصبح الأسلوب السَائد في ذلك العصر ومن أمثلتها؛ المحراب الأوسط في جامع السليمية، وفي جامع أحمد باشا، ورستم باشا. شافعي، **العمارة العربية**، ص٢٥٤.

Yildiz Netice, Ottoman Decorative arts in Cyprus, pp. 11:20

(64) Hussein, Mahmoud Ibrahim, Diket El Muballigh, Extract from Islamic archeolkogical studies, vol3, 1988, p.362

(٦٥) يَرجع السبب في وجود دكة المبلغ حيث اشترط الفقهاء لصحة صلاة الجماعة ضرورة رؤية المأمومين للإمام أو مشاهدة بعض صفوف المسلمين، أو أن يتم سماع صوت الإمام أو صوت المُبلغ عنه، فكان هذا الحكم سبباً في ظهور دكة المبلغ كأحد عناصر الإنتفاع بالمسجد. نقلاً عن، عثمان، محمد عبد الستار، **نظرية الوظيفية بالعمائر الدينية المملوكية بمدينة القاهرة**، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، ٢٠٠٠م، ص٣٠٠، عثمان، محمد عبد الستار، عوض عوض الإمام، **عمارة المساجد في ضوء الأحكام الفقهية دراسة آثارية تطبيقية**، سجل بحوث ندوة المساجد، مج ٨، كلية العمارة والتخطيط، جامعة الملك سعود، ديسمبر ١٩٩٩م، ص١٥٤.

(66) Hillenbrand Robert, Islamic architecture form, function, and meaning, The American University in Cairo press, p.56-57.

(٦٧) ثابت، محمود حمادة، **دِكة المبلغ في شرق العالم الإسلامي ومصر خلال ق٧-١٢هـ/١٣-١٨م دراسة أثرية فنية مقارنة**، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآداب، قسم الآثار والحضارة، جامعة حلوان، ٢٠١٠م، ص٥٧-٥٨.

(٦٨) منظمة العواصم والمدن الإسلامية، **أسس التصميم المعماري**، ص٣٢٢.

(٦٩) **المسودة السنانية**، مكتبة الجامع الكبير، قسم المسودات، ص٤٣٦.

(٧٠) تَعدّدت الوظائف التي تقوم بها دكة المبلغ وتعتبر وظيفة التبليغ هي الوظيفة الأساسية للدكة ولكنها كان لها وظائف أخرى كثيرة واختلفت تبعًا لإختلاف العديد من المقومات التي تساعد في أداء وظيفتها سواء حجمها أو مساحتها وكذلك موقعها وأيضا بإختلاف البلد أو الإقليم التي أنشأت فيه المنشأة، فكانت من وظائفها؛ الإعلان عن الآذان الثاني، وكانت تُستخدم لصلاة السلطان وحاشيته أو لصلاة السيدات أو قراءة القرآن، وليس أدّل على ذلك أن قد نَصت وَقفيات المساجد العثمانية بأن؛ المَحفل اشترطت أن يُرتل به عشرة أنفار من حَفظه القرآن الكريم بالإضافة إلى مَدِحيات خير البرية، وعن استخدامه كَمُصلى للسيدات حيث أنه يَحجب السيدات عن المُصلى حِجاب مرتفع من الخشب يَحجب السيدات عند المرور بالدِهليز الضّيق المُوصل لهذا الدكة. نقلاً عن، عبد السلام، العوامل المؤثرة، ص٣١٦؛ محمود، **دِكة المبلغ**، ص٣٠٨.

(٧١) انفتحت تركيا العثمانية في هذه الفترة على الغرب مما أدى إلى حُدوث بعض التأثيرات على النَواحي الثقافَية والفنية والإجتماعية، وكان طبيعيًا أن يتأثر فن العمارة وغيره من الفنون العثمانية بهذه التأثيرات والأفكار الجديدة وساعد على ذلك أيضًا استدعاء بعض المهندسين والمُزخرفين الأوربيين لكي يُشيدوا القُصور والمَساجد ويُزينوها بالزخارف المُستمدة من فن البَاروك والرُوكوكو الأوربي. نقلاً عن، خليفة، ربيع حامد، **الفنون الإسلامية في العصر العثماني**، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،٢٠٠١م، هامش ص١٦٩.

(٧٢) كونل، أرنست، **الفن الإسلامي**، تحقيق أحمد موسى، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٦٦م, ص١٧٢، نجم، عبد المنصف سالم ، **قصور الامراء والباشوات**، ج٢، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة، ط١، ٢٠٠٢م, ص٢١٥.

(٧٣) **البَاروك Baroque** كَلمة أوربية تُعني؛ اللؤلؤه غير المُهذّبة في شكلها أو اللؤلؤه ذات الشكل الغريب غير المألوف، ثم تغير مدلولها فأصبحت تُطلق خلال القرن (١١هـ/١٧م) عَلى ذلك الطراز الفني الجَديد الذي ظهر في أوربا؛

وسبب تسميته بذلك لأنه شذّ في عناصره الزُخرفية عَما كان مألوفًا في فنون عصر النهضة الأوربية ولأن عناصره قد ظهرت في صُوره تَبدو مُشوهة إذا ما قِيست بالعناصر الزخرفية التي كانت رائعة في أوربا في ذلك العصر، ولعل أبرز ما يمُيّز هذا الفن الجديد هو إقباله على استخدام الخُطوط المُنحنية والحَلزونية وما يَتصدره مِن سُطوح مَائلة وَأقواس مُتقابلة، وَقد أقبل الإيطاليون عَلى استعمال هَذا الفن خِلال القرن (١١هـ/١٧م) وَأبدعوا فيه صُورًا مُختلفة، ثُم انتشر هَذا الأسلوب الفَني مِن بلادهم في جَميع أنحاء أُوروبا وَمِنها تَسرب إلى تُركيا العُثمانية. أمّا **طِراز الرُوكوكو Rococo** فهو مُشتق مِن كَلمة Rock وَمعناها الصَخرة أو الحجرة؛ وهي تُطلق أيضًا على النُقوش المَحفورة عَلى الحَجر وَهُو مثل فَن البَاروك يمَتاز في زَخارفه بِكَراهيته لإستعمال الخُطوط المستقيمة وَإقباله على استخدام الخُطوط الحَلزونية المُنحنية، إلا أنه يمَتاز عَن فن البَاروك بإتجاهه نَحو الرِقه والرَشاقة، ففن الرُوكوكو استمد رَوحه مِن فن البَاروك وانتقل إلى تركيا؛ حيث عاش العُثمانيون خلال من (١٢-١٣هـ/١٨-١٩م) في جو الفِن الأوربي، وانعكس هَذان الطِرازان الفَنيان على مَا أنتجته أيديهم مِن عَمائر دِينية ومَدنية، وقد أدخل العثمانيون على هذين الطرازين لَمسات الفن العُثماني الإسلامي والتي غيرّت مِن طَابعهم الأوروبي وَطبعتهم بطابع جدَيد صَح مَعه أن يُطلق عَليه (فن الباروك – الرُوكوكو العثماني). للمزيد، مَرزوق، محمد عبد العزيز، **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧م، ص٥٥-٥٩.

(٧٤) نجم، **قصور الأمراء والباشوات**، ج٢، ص٢١٦-٢١٧.

(٧٥) حسن، ذكي محمد ، **فنون الإسلام**، دار الفكر العربي، الكويت، ١٩٤٨م، ص٢٣١-٢٣٤، مرزوق، **الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني**، ص٥٩.

(٧٦) نجم، **قصور الأمراء والباشوات**، ج٢، ص٢٣١-٢٣٤.

(٧٧) بَدأ إنشاء الجَامع الكبير بمدينة الروضة بصنعاء باليمن سنة (١٠٤٤هـ/١٦٣٤م)، وقد بَناه الإمام أحمد بن الإمام القاسم بن محمد الذي دُفن بالقُبة الضَريحية داخل الجامع، وتخطيط الجامع عبارة عن مَبنى مُستطيل يَتجه من الجنوب إلى الشمال، يتوسطه صَحن مَكشوف يُحيط به أربع أروقة مَفتوحة بكاملها على الصحن؛ أكبر هذه الأروقة الرواق الشمالي (رواق القبلة)؛ وهو مُقسم إلى بلاطتين عن طريق صف من الأعمدة تَحمل ثمانية عقود مُفصّصة مُوازية لجدار القبلة. الحجري، **مساجد صنعاء**، ص١٧-١٢.

(٧٨) تُعرف زهرة اللآله بالتركية lâle ومَعناها شقائق النعمان، ويَرجع أصل هذه الزهرة إلي العصر العثماني، وقد أكثر العُثمانيون من استخدام هذه الزهرة في موضوعاتهم الزخرفية في القرن (١٢هـ /١٨م) خاصة في عهد السلطان أحمد الثالث حتى أصبح هذا العصر يُعرف بإسم عَصر زهرة اللآله lâle devir، وكان سَبب عِناية العُثمانيين بهذه الزهرة بجانب جَمال شكلها، أنها كانت تَرتبط لَديهم بمعاني مِيتافيزيقية ومَفاهيم عقائدية، إذ يُلاحظ أنّ أحرف هذه الزهرة هي نفسها أحرف إسم الجلالة (الله)، ومن ثَمّ فقد أَكسب هَذا التشابه في الحروف زَهرة اللآله شَرفًا وقُدسية عند الأتراك. نقلاً عن، ماهر، سعاد، **الخزف التركي**، الجهاز المركزي للكتب الجامعية والمدرسية والوسائل التعليمية، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٧٧-٧٩.

(٧٩) **الطُغراء**؛ هي كلمة ذات أصل تركي من "تُوغرول" أي الباز أو الصقر الفاتح جَنَاحيه، ومعناها توقيع الأمير، فهي علامة مَخصوصة تَحتوي اسم السُلطان وتُرسم على الفرمانات والقوانين وكافة أنواع الوثائق الرَسمية، وَهي واحدة من صور الزخرفة للكتابة العربية التي تَفنّن فيها الخطّاط العُثماني، ويُطلق عليها في اللغة الفارسية كَلمة "نيشان"، أمّا في اللغة العربية فتُعرف بـ "التوقيع"، وقد كَانت الطُغراء مَعروفة قَبل العُثمانيين فقد عَرفها السَلاجقة العظام وَكَذلك سَلاجقة الرُوم في آسيا الصُغرى، وَعَرفها سَلاطين المَماليك في مصر، وتُعرف بأنها العلامة أو التوقيع الذي يَحمل اسم السلطان وألقابه، يَتم تشكيلها على هَيئة مَخصوصة بأعلى الفَرمانات وَالأوامر السُلطانية الصَادرة بالقَلم الخَاص به لتكون عَلامة وَاضحة ومُميّزة تَدل عَلى صحة المَكتوب وَنُفوذه، ويصف ابن خلكان الطُغراء في تَاريخه بقوله (إنها الطُره التي تُكتب في أعلى البسملة بالقلم الغليظ ومضمونها نُعوت الملك الذي صدر عنه الكتاب)، واتخذ العُثمانيون أشكالاً زُخرفية جَديدة للطُغراء, وتَتكون الطُغراء مِن عدة أجزاء منِها الكُرسي والمُنتصبات والطوغ أو القول والبيضَتين والذراعين. للمزيد عن الطغراء، انظر، بيومي، محمد علي حامد، **الطغراء العثمانية**، مَخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ١٩٨٥م، ص١٢؛ مرزوق، **الفنون الزخرفية**، ص١٨١-١٨٢؛ أوغلو، أكمل الدين إحسان، **الأتراك في مصر وتراثهم الثقافي**، ترجمة صالح سعداوي، مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية، استانبول، ٢٠٠٦م، ص٤٢٢.

(٨٠) البُردة هي واحدة من أشهر قَصائد المديح النبوي، وتُنسب إلى الإمام العَارف بالله شرف الدين عبد الله بن هلال المَعروف بالإمام البوصيري الذي وُلد سنة (٦٠٨هـ/١٢١١م)، والبُردة الأصلية هي لأُميه كَعب بن زُهير، وَكانت تَقع في ثمَانية وَخمسين بيت، وقد حَظيت بإهتمام المسلمين لأن كعب ألقاها بين يدي الرسول صل الله عليه وسلم ونالت إعجابه وحينها خلع (صلى الله عليه وسلم) على كعب بُردته ومن ثم سُميت بالبُردة، وقد اهتم بها الشعراء والأدباء حيث أكمل عليها البُوصيري، وعُرفت كذلك بإسم (الكَواكب الدُرية في مَدح خَير البرَية)، وغيرها من المُسميات الكَثيرة، وانتشر تَسجيل نُصوص البردة في العصر العثماني؛ حيث سُجلت على العَمائر الدينية وعلى مَصاريع الأبواب الخشبية التي تُغلق على الشبابيك، وقد سُجلت نصوص البردة على المساجد العُثمانية في اليمن في بُحور كتابية تَعلو مَصاريع الأبواب الخَشبية ونفُذت بالتَلوين وَالتَذهيب. نقلاً عن، بَدر، بدر عبد العزيز محمد ، **نُصوص البُردة على العمائر العثمانية في مصر دراسة أثرية فنية**، مخطوط رسالة ماجستير، كلية الآثار، جامعة القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٠١، وللمزيد انظر، نفس المرجع ، ص٢٠١-٢٥٥ .

(٨١) الحدّاد، محمد حمزة، **موسوعة العمارة الإسلامية في مصر من الفتح العثماني إلى نهاية العصر عهد محمد علي المدخل** (الكتاب الأول)، مكتبة زهراء الشرق، القاهرة،٢٠٠٣م، ص٦١-٦٢.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

العمارة المدنية في دمشق
خلال العهد العثماني



إسماعيل شيخي شيخي أوسي

مدرس مساعد – قسم الفنون والآثار

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – بيروت

الجامعة اللبنانية – الجمهوريّة اللبنانية

مُلَخّصْ

لقد كان الفن العثماني استمرار للفن السلجوقي الإسلامي الذي ازدهر في الأناضول، والذي لا يختلف في كثير من عناصره عن الفنون المعمارية التي تأصلت في الشام في العهود الإسلامية، وانتشر هذا الفن الجديد في أنحاء الإمبراطورية وظهرت آثاره واضحة في الشام التي شملها الفتح العثماني منذ ١٥١٦م وكان هذا اللون الفني الجديد متجليًا في الظهر العام للمعنى وفي التخطيط وفي العناصر المعمارية والزخرفية، ولكن التقاليد الفنية السابقة للفتح لم تندمج كليًا بل امتزجت بالمظاهر الجديدة، ونلاحظ في العهد العثماني عناية خاصة بإنشاء الأسواق والخانات وذلك لتلبية للتوسع الذي حصل في المبادلات التجارية بين أقطار الإمبراطورية العثمانية وتطور بناء الخانات عن ذي قبل وأصبحت أكثر باحاته مسقوفة بالقباب والعقود. وأحسن نموذج للخانات العثمانية خان أسعد باشا في دمشق، كما خطيت الدور السكنية باهتمام خاص والتي يُطلق عليها اسم البيوت الشامية لما تحويه من تقاليد عريقة متماثلة حول بعضها إلى متاحف للحفاظ عليها، وأفضل نموذج لها هو قصر العظم، كما كان هناك عناية خاصة بمنشآت معمارية أطلاق عليها اسم "التكية" وهي تضم مجمع معماري يشمل المدرسة والجامع والسوق، وأفضل نموذج لها في دمشق هي التكية السليمانية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٠٦	مارس	٢٠١٩
تاريخ قبول النشر:	١٠	مايو	٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

العمارة المدنية، العهد العثماني، القباب، العقود، التكية، المسجد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055399

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إسماعيل شيخي شيخي أوسي. "العمارة المدنية في دمشق خلال العهد العثماني".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٤١ – ٥٥.

مُقدِّمَة

تعطي العمارة الإسلامية في دمشق أنموذجًا رائعًا عن نشأة العمارة الإسلامية وتطورها، فقد كانت دمشق عاصمة الدولة الأموية وكان لها الحظوة بضم عمارة الجامع الأموي داخل أسوارها الموغلة في القدم، فضلًا عن العديد من المباني التي أظهرت العمارة بحلة فريدة من نوعها جمعت التقاليد السائدة حينها مع الابتكار الجديد للعقل المعماري المسلم، بعد أفول نجم هذه الدولة ونشوء الدولة العباسية. كان من الطبيعي أن تتحول الأنظار عن دمشق ولكن ليس لمدة طويلة. فقد أقام السلجوقيون أبنيتهم الكبيرة التي تحتوي على أواوين ذات عقد حجرية واسعة مفتوحة على باحة البناء في جهاتها الأربع أو في ثلاث من جهاتها مع وجود بركة ماء في وسط الباحة. بينما كانت العمارة الأيوبية ضخمة تتصف بالتحصين والتقشف تعكس الحالة السياسية السائدة حينها من صراع مع الفرنجة. تميزت العمارة المملوكية عن سابقتها بالعناصر الزخرفية مع محاولة الاستفادة من الفراغ بكل أبعاده نظرًا لكثافة البناء في تلك الحقبة مع تقلص المساحة الصالحة للعمارة. أما العمارة العثمانية فكانت جديدة في مؤثراتها إذ جلبها العثمانيون من موطنهم ولاسيما إستانبول، وكانت بعض العمائر نسخًا عما هو

موجود لديهم، مثل عمارة التكية السليمانية. لكن هذه التأثيرات الجديدة انسجمت بشكل واضح في المراحل اللاحقة مع العناصر المحلية وشكلت أنموذجًا معماريًا فريدًا، وأصبح قبلة للعمارة الإسلامية كلها. يعود الاستيطان الإنساني في مدينة دمشق إلى حقب تاريخية قديمة، ففي الألف الأول قبل الميلاد، ومن خلال النصوص الآشورية يرد ذكر دمشق خلال الحملات التي قام بها الملك الآشوري شلمنصر الثالث لتوسيع نفوذه إلى منطقة البحر المتوسط. واستمر ذكر اسمها على أنها مركز مهم للمملكة الآرامية، واشتهرت بكونها مركزًا لعبادة الإله حدد ومكان المعبد جزء من المساحة التي قام عليها الجامع الأموي لاحقًا[١]. في الحقبة الهلنستية عانت دمشق من الصراع الدائر بين خلفاء الإسكندر، البطالمة والسلوقيين، حتى قدوم أنطيوخس التاسع عام ١١١ ق.م، الذي جعل دمشق عاصمة لولاية فينيقيا وسورية الداخلية. وشهدت دمشق خلالها استيطانًا تمثل بإنشاء حي جديد في المدينة، يقع في الشرق من التمركز الآرامي، ويمكن حصره في المنطقة الواقعة بين نهر بردى وشارع القيمرية الحالي. وفي هذه الحقبة تم تجديد المعبد القديم وأصبح اسمه معبد الإله زيوس أو جوبيتر الدمشقي كنظير أو بديل للإله حدد الآرامي[٢].

أخذت المدينة القديمة خلال الحكم الروماني (٦٤ ق.م-٣٩١ م) شكلًا أكثر وضوحًا، فقد شيد الإمبراطور ديوقليسيان Dioklisian بين عامي (٢٩٥-٢٦٦ م) حصنًا ومصنعًا للسلاح، وبموجب المرسوم الذي أصدره الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosus في سنة 391م، أصبح الدين المسيحي دينًا رسميًا للدولة الرومانية، وتحول معبد جوبيتر الدمشقي إلى كنيسة مسيحية. كما تم توسيع السور القديم للمدينة، فأخفى الكثير من أجزاء السور القديم أسفل السور الحالي والمنازل المبنية لاحقًا، وهو مستطيل الشكل أبعاده ١٥٠٠ X ٩٠٠ م، واتخذت المدينة مخططًا شبكيًا كما هو معروف في العمارة الرومانية السائدة[٣]، ويعد الشارع الممتد من جهة الشرق إلى جهة الغرب والمعروف حاليًا بشارع مدحت باشا هو المستقيم الرئيس Via Recta وهناك عدة أبواب للسور مازالت موجودة تعود للحقبة الرومانية مثل باب الفراديس، وباب شرقي، أما بقية الأبواب التي كانت تحمل أسماء الأبراج الفلكية، فهي معروفة من خلال الكتب التاريخية فقط بسبب قيام أبواب جديدة في أماكنها خلال الحقبة الإسلامية وهي؛ باب الجنيق وباب توما في الشمال، وباب بولص (كيسان) والباب الصغير في الجنوب، وباب الجابية في الغرب[٤]. وفي الحقبة البيزنطية حافظت المدينة على مخططها الروماني مع بعض التجديد في بناء الحصن، نظرًا للمواجهات العنيفة مع الفرس. كما تم بناء العديد من الكنائس في مختلف أرجاء المدينة. حملت بدايات القرن السابع الميلادي في مطاويها، الكثير وأبرز عناوين المرحلة الجديدة نشوء دين جديد في جنوبي الجزيرة العربية هو الدين الإسلامي. وهو الدين الذي سيسود العالم بعد حين ليكون، خاتم الديانات السماوية جميعًا. ولسنا هنا بصدد الخوض في التاريخ السياسي والديني لهذه المرحلة؛ بل سنتناولها من الناحية الفنية ونقصد هنا العمارة الإسلامية في دمشق في العهد العثماني. وربما يعطي هذا العنوان انطباعًا بتحديد الفنون الإسلامية الأخرى وتقليصها، لكننا كما سنرى لاحقًا، فإن دمشق القديمة تعد بحق مثالاً مختصرًا يلخص الفنون والعمارة الإسلامية. نشأت العمارة الإسلامية في دمشق على أيدي الأمويين العرب المسلمين وتجلى فيها أسلوبًا الإبداع والتجديد مع الإفادة من استخدام العناصر القديمة المقتبسة؛ لتظهر هذه العمارة وجميلة بحلة رائعة؛ وذلك أول مرة في التاريخ الإسلامي.

بعد هذا الدور المؤسس للإسلام أصبح النتاج الفني أكثر نضوجًا واستمر في ابتكار ما هو جديد؛ حتى إن الأصول المقتبسة من الحضارات السابقة للإسلام قد تلاشت تقريبًا وظهرت ملامح جديدة تمثلت بالقباب أو السقوف، والأبواب وفي تيجان وفي العقود، الأعمدة جميعها والتخطيط، وكذلك النقوش الزخرفية فضلا عن الهندسة. وكانت طبيعة المنشآت الجديدة ووظيفتها تصدر عن تلبية حاجات العقيدة الإسلامية والثقافة العربية وشروطهما، فظهرت الشخصية المتميزة والأصالة في الفن الإسلامي. ومن الخصائص العامة التي اتصف بها الفن الإسلامي في مجال العمارة والزخرفة هي، التنوع في الزخرفة وشمولها وتغطيتها كل فراغ، ومراعاة التناظر وتجنب تصوير الإنسان والحيوان ولاسيما في المباني الدينية، والتعويض عن ذلك بالزخرفة الطبيعة النباتية والهندسية ومشاهد الطبيعة. مع هذا التطور الجديد يجب ألا ننسى اتساع رقعة العالم الإسلامي في حينها، فامتدت الدولة العربية الإسلامية إلى الأند لس والمغرب العربي ومصر، وبلاد السند وشارف الوصول

دراسات

إلى أوربة لولا خسارة العرب معركة بواتييه. حمل الانتشار الجغرافي معه بذور الحضارة الإسلامية، وملامحها بما فيها العمارة التي نراها ماثلة في كل البلدان التي وصلت إليها هذه الحضارة. بيد أن هذا الاتساع لم يحتم بالضرورة التطابق التام للفنون الإسلامية. والنزعات الفردية، فقد أسهمت الأذواق وكذلك التقاليد الموروثة ومواد البناء المتوافرة في كل بلد وإقليم في تكوين المنشآت المعمارية. وأخيرًا نشير إلى التيارات السياسية الجديدة وما كانت تحمله من تأثيرات محددة في تغيير ملامح الفن السائد وتوجيهه في إطار جديد. الأمر الذي أدى إلى وجود مدارس فنية عديدة داخل نطاق الفن، الإسلامي المدرسة الأم، فكان الفن الأموي والعباسي والفاطمي والسلجوقي والأيوبي والمملوكي والعثماني[٥].

لمحة تاريخية

أدى انتقال الحكم من السلجوقيين إلى العثمانيين في آسيا الصغرى إلى تغير الحالة السياسية، فقد اخذ العثمانيون على عاتقهم تحطيم الإمبراطورية البيزنطية وحمل لواء الإسلام إلى ما وراء البوسفور واستولوا على أدرنة (٧٦٤هـ/١٣٦٢م) وبعد حوالي قرن استولوا على القسطنطينية سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) واتخذوها عاصمة للإمبراطورية الجديدة التي كونوها وفي أواسط القرن السادس عشر امتدت حدود إمبراطوريتهم من هنغاريا وبحر الادرياتيك إلى العراق ومصر، وأصبح لها مقام هائل بالاستيلاء على الأماكن الإسلامية المقدسة وانتقال الخلافة الإسلامية إليهم، كما حملت سفنهم علم الإمبراطورية فوق جميع البحار، وأصبح طابع استانبول، عاصمتهم هو الطابع الغالب على جميع المدن الشرقية مثل دمشق وبغداد والقاهرة وتونس والجزائر. ومنذ أن أصبحت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين أخذ ينشأ فيها أسلوب جديد في هندسة المباني متأثرة بطراز (أيا صوفيا) كنيسة جوستينان الشهيرة التي شيدت في القرن السادس للميلاد وتحولت إلى مسجد بعد الفتح[٦]. وكانت دمشق اختصارًا مركزًا ومثالًا دالاً على نشوء العمارة الإ سلامية وتطورها. وفيما يأتي سنستعرض ملامح هذه العمارة وأمثلتها خلال الحقبة العثمانية.

أولاً: خصائص العمارة الإسلامية العثمانية

عرف الفن الإسلامي في القرن الخامس عشر مركزًا من مراكز الحضارة ازدهرت فيه الفنون. ذلك هو القسطنطينية (استانبول)، العاصمة الجديدة للدولة العثمانية التي دخلها السلطان محمد الفاتح سنة (٨٥٧هـ/١٤٥٣م). ومنذ أن أصبحت هذه المدينة عاصمة للعثمانيين أخذ ينشأ فيها أسلوب جديد في هندسة المباني متأثر بطراز (أيا صوفيا) كنيسة جستنيان الشهيرة التي شيدت في القرن السادس للميلاد، وتحولت إلى مسجد بعد الفتح العثماني. وكان الفن العثماني قبل ذلك استمرارًا للفن السلجوقي الإسلامي الذي ازدهر في الأناضول والذي لا يختلف في كثير من عناصره عن الفنون المعمارية التي تأصلت في سورية في العهود الإسلامية. وانتشر هذا الفن الجديد في أنحاء الامبرطورية العثمانية، وظهرت آثاره واضحة في سورية التي شملها الفتح العثماني منذ عام (٩٩٢هـ/١٥١٦م). ونرى أن نبرز خصائص هذا الفن الجديد في النواحي التالية:

١/١-من حيث المظهر العام للعمائر:

نلاحظ أن العمارة العثمانية في الخارج تبدو كتلة متراصة بالغة الفخامة والارتفاع ويلاحظ في هذه الكتلة أشكال والعناصر المتنوعة كالشبابيك والشمسيات (النوافذ الجصية) والقناطر والرفاريف والدعائم الجدارية البارزة وهكذا يطغى التكوين المعماري ومجال التصميم على الزخرفة في المظهر الخارجي وفي الواجهات[٧].

٢/١-من حيث العناصر المعمارية:

- القباب:

نشاهد في الجوامع أن الحرم أو المصلى أصبح يبنى على شكل قاعة مربعة، مسقوفة بقبة كبيرة لها رقبة من طابق واحد كثيرة النوافذ. وبذلك أصبح المصلى قليل الأعمدة والعضائد التي كانت تقسمه إلى أروقة ومعازب. ويتقدم المصلى رواق مسقوف بالقباب أيضًا يطل على الصحن ونجد أمثلة على هذا التصميم الجديد في مساجد السليمانية والدرويشية والسنانية في دمشق. كما نجده في مساجد الخسروية والعادلية والبهرمية في حلب، وبدلاً من المدرسة المعروفة في العهود السابقة، ظهرت التكية بهندستها الجديدة كمجمع معماري ينم المسجد، وهو شبه مستقل ويشغل جناحًا خاصًا، وغرف السكن والمطابخ والمطاعم والقاعات والحدائق. فالتكية أكثر شمولاً وضخامة من المدرسة. ولم يعد التربة أو المدفن جزءًا من الجامع أو التكية. كما الحق مكتب لتعليم الأولاد بهذا المجمع. نجده في الدرويشية والسنانية بدمشق. ونلحظ في العهد

العثماني عناية خاصة بإنشاء الأسواق والخانات، كان ذلك تلبية للتوسع الذي حصل في المبادلات التجارية بين أقطار الإمبراطورية العثمانية، وكانت سورية تتمتع وقتئذ بمركز ممتاز بسبب موقعها الجغرافي مما جعلها منطقة مرور وتجمع لقوافل الحج.

تؤلف أسواق العهد العثماني مجموعة معمارية متكاملة تضم المخازن التجارية والخان والجامع والحمام والمدرسة. وأحسن مثال لهذه الأسواق سوق الخياطين والحميدية وكلاهما في مدينة دمشق. وتطور بناء الخانات عن ذي قبل، وأصبحت أكثر باحاتها مسقوفة بالقباب أو العقود، وعني ببنائها وزخرفتها بالحليات المعمارية.

- العقود:

أما الأقواس أو العقود، فقد شاع فيها شكل جديد، رأينا أن نسميه بالقوس الفارسي المتطور. لقد عرفنا سابقًا القوس الفارسي الذي ظهر في العهد العباسي ثم انعدم استعمال في سورية. وهو قوس مكسور أي مدبب، مؤلف من جزأين، الرأسي مستقيم والسفلي محدب. أما القوس الجديد العثماني فإن القسم المستقيم أصبح مقعرًا قليلاً نحو الخارج. وقل استخدام القوس المدببة المخموسة أو المتجاوزة، وهي الأشكال التقليدية في مباني العهود السابقة كذلك استخدم القوس نصف الدائري المجزوء أي الذي تقل فتحته عن نصف الدائرة في الأبواب والشبابيك، أما الأعمدة فقد شاع فيها استعمال التيجان المقرنصة، بأشكال متعددة لم تعرف من قبل، وقد ظلت المقرنصات بشكل عام عنصرًا لا يستغنى عنه في عقود بوابات المباني العامة وأحيانًا في زوايا القباب من أجل تأمين الانتقال بين المستويات المختلفة.

- العمد والعضائد:

تم استخدام عضائد ضخمة لحمل القباب الكبيرة المركزية وهي على أشكال مربعة أو مضلعة أو اسطوانية أو صليبية المسقط ويلاحظ هنا أن العضائد لا تنتهي عند ارتكاز العقود عليها بل تستمر لتبرز حول رقبة القبة. أما الأعمدة المنحوتة من الرخام أو الحجر فقد استخدمت لحمل قناطر الأروقة وكانت التيجان السائدة من النوع المقرنص وظهر نوع جديد من التيجان أطلق عليه بالتركية (بقلاوة) تشبها بنوع من الحنيات التركية اللذيذة المشهورة[٨].

١/٣-من حيث العناصر الزخرفية:

نجد ألواح الخزف الملون المسمى القاشاني تصبح عنصرًا هامًا في كسوة الجدران الداخلية وتزيينها، وفي أماكن محددة في الواجهات، كأن توضع لوحات منها فوق أبواب والشبابيك. ويتألف من رصف هذه الألواح مواضيع زخرفية جميلة بألوانها وأشكالها. ولقد عرفنا الخزف مستعملاً قبل ذلك في العهد المملوكي بشكل محدود جدًا. ولكن صناعة الخزف تطورت في العهد العثماني من حيث الصنعة والشكل والمواضيع الزخرفية. فهي بلاطات مربعة رسمت عليها المواضيع الزخرفية وهي غالبًا عروق نباتية وأزهار، يطغى فيها اللونان الأزرق والأخضر، وغطيت الألواح بطبقة زجاجية شفافة تحمي الرسوم الملونة. ازدهرت صناعة القاشاني في العهد العثماني وأنشئت له مصانع عديدة في سورية أهمها في دمشق وحلب، وذلك إضافة إلى مصانع المشهورة في كوتاهية ورودوس[٩].

إلى جانب القاشاني كعنصر جديد من عناصر الزخرفة فقد ظلت العناصر التقليدية مستعملة في المباني السورية، نذكر من ذلك الفسيفساء الرخامية والحجارة المنقوشة بالرسوم الهندسية والأحجار والرخام الملونة بالتناوب في مداميك الوجهات، والنوافذ الجصية المعشقة بالزجاج الملون مع تطور في مواضيعها الزخرفية. وشاع نوع جديد من الفسيفساء عرف (الأبلق) منفذ بطريقة جديدة وذلك بحفر المواضيع الزخرفية على الحجارة ثم ملؤها بنوع خاص من الملاط الملون. وغدا هذا النوع من الزخارف الفسيفسائية يزين الواجهات الداخلية وجدران الغرف في أكثر الدور والقصور. وتطورت كذلك زخرفة الأخشاب، فقلت العناية بأعمال الحفر والتخريم، وشاع بدلاً منها الخشب المدهون المزخرف بالرسوم الملونة والموشى بالذهب المعروف بالعجمي، المستعمل في سقوف الغرف وفي كسوة الجدران ولاسيما في القصور وبيوت السكن. وأما السقوف فقد غدت بزخارفها وألوانها كقطعة السجاد[١٠].

ثانيًا: أهم العمائر المدنية العثمانية في دمشق

سوف أقوم بدراسة لبعض المباني المدنية الهامة المشيدة في العهد العثماني في مدينة دمشق:

١/٢-خان أسعد باشا

شيدت في العهد العثماني خانات كثيرة، بسبب تزايد النشاط التجاري وانتظام قوافل الحج القادمة إلى دمشق من أنحاء العالم الإسلامي، ولقد أحدث

فيها هذا الموسم نشاطًا اقتصاديًا ملحوظًا، كان يستعد له أهل التجارة والمهن طوال العام. ونجد هذه الخانات موزعة داخل المدينة القديمة في مراكز التجاري المحصور بين أسواق مدحت باشا والبزورية والحرير والقلبجية والخياطين. ومن أهم هذه الخانات هو خان أسعد باشا الذي سأقوم بدراسة بشكل مفصل[١١].

-موقع الخان وتاريخه:

شيد الخان والي أسعد باشا إسماعيل باشا العظم الذي حكم بين عامي ١٧٤٣ و ١٧٥٦ وقد بدأ ببنائه في عام ١٧٥١ وتمت عمارته سنة ١٧٥٣، يعتبر خان أسعد باشا أحسن خانات دمشق، ويقع في قلب المدينة القديمة، وسط سوق البزورية الشهير الكائن جنوبي الجامع الأموي، وهذه المحلة عريقة في شهرتها التجارية منذ العهود العربية الأولى، تكثر فيها الأسواق والخانات وتستقطب النشاط التجاري لمدينة دمشق، وهي اليوم مركز بيع مواد العطارة والسكاكر والروائع العطرية والشموع والحلي وغير ذلك من الصناعات اليدوية المختلفة، والمنطقة إضافة إلى مكانتها التجارية، فإنها ذات شهرة سياحية واسعة بسبب وجود الجامع الأموي وقصر العظم وحمام نور الدين والعديد من المباني التاريخية الأخرى فيها[١٢].

-المخطط الوصف المعماري:

يحتل خان أسعد باشا رقعة تقدر مساحتها ب (٢٥٠٠) مترًا مربعًا، وشكله شبه مربع، أطوال واجهاته: الشرقية (٣٥,٥)، الشمالية (٥٢)، الجنوبية (٥١,٥)، الغربية (٤٦٣٥) مترًا. ويتألف من طابقين يحيطان بالصحن ومدخل مسقوف واجهته الرئيسية تحتل جانبًا من سوق البزورية وتحتوي على بوابة الخان ومسجد الخان ومسجد صغير وعلى عدد من الدكاكين والمخازن التجارية. كما تؤلف واجهته الجنوبية جزءًا من سوق الصقالين وتتوزع فيها مجموعة من الدكاكين الصغيرة. أما واجهته الشرقية، فهي سور أصم يطل على زقاق الحي المجاور، وكذلك مواجهته الشمالية فأنها محجوبة بالمباني الأقدم عهدًا منه (حمام نور الدين والمدرسة التنكرية)[١٣]. يضم الخان واجهة ضخمة فيها ردهة خارجية تضم البوابة الخشبية التي تؤدي إلى دهليز كبير يصل إلى باحة مربعة الشكل مغطاة بثماني قباب محمولة على أربعة أعمدة. ويقع مدخل الخان في وسط تلك الواجهة، وعلى جانبيه كوتان داخل كل منهما سبيل ماء، وتعلو كلاً منهما نافذة مستديرة يزين إطارها الخارجي زخارف رائعة، أما المدخل فيتألف من ردهة خارجية ضمن السوق ينتهي جدارها الجانبين من الأسفل بمقعدين حجريين يسميان (مكسلتين).

في كل زاوية من الزاويتيين الخارجيتين لتلك الردهة يوجد ثلاث أعمدة صغيرة القطر (سوبريات) منحوتة على شكل ضفائر حلزونية لتلك ومتكسرة وملتفة، ولكل عمود قاعدة وتاج مزخرفان. تنتهي الأعمدة الثلاثة السابقة من الأعلى بثلاث أقواس حجرية متتالية لكل منها شكل مختلف، تتألف القوس الخارجي من سلسلة من الحجارة المزخرفة المتناوبة (مشربيات)، أما القوس الوسطى فحجارتها مقولبة بأشكال تشبه أكعاب الكتب، والقوس الداخلي يتألف من حجارة مقصقصة ذات لون أبيض وأسود بالتناوب.

البوابة الخشبية للخان مصفحة بالحديد ومزخرفة بالمسامير، وتتألف من مصراعين ضخمين من الخشب في أحداهما باب صغير (باب خوخة)، ساكن البوابة عبارة عن جزء من قوس دائرية تعلوها واجهة مؤلفة من خطوط منحنية تتقاطع بدائرة صغيرة فيها ياقوتة فخمة مفقودة حاليًا (الشكل: ٢). ويعلو بوابة الخان مجموعة رائعة من المقرنصات معقدة الزخرفة تنتهي في الأعلى بتقعر على شكل صدفة[١٤] (الشكل: ٣). وتؤدي البوابة إلى دهليز طوله (١٢) م وعرضه (٤,٢) م وارتفاعه وسطيًا (٥,٧) م مسقوف بعقود حجرية متقاطعة تزينها زخارف جصية مؤلفة من خطوط متقاطعة وزهيرات ونجميات، وفي بداية الدهليز من كل جانب توجد غرفة، ثم يتوالى بعد ذلك عدد من الكتبيات الجدارية كانت تستخدم لعرض البضائع، وفي القسم الأخير من الدهليز يقع في كل جانب، درج يؤدي إلى الطابق العلوي، يلتقي الدرجان مع بعضهما عبر الأروقة، وينتهي المدخل بقنطرة واسعة مفتوحة على صحن الخان[١٥] الشكل:٤.

- الصحن والقباب:

يؤلف صحن الخان باحة مربعة طول ضلعها (٢٧) مترًا وهي مبلطة بالحجر الأسود يتوسطها بركة ماء كثيرة الأضلاع في وسطها فسقية (الشكل: ٥). والصحن مغطى بسقف يتألف من تسع قياسات كبيرة موزعة على ثلاثة صفوف وهي محمولة على عقود حجرية عددها (٢٤) عقدًا، تستند من ناحية على أربع عضائد مربعة في وسط الصحن، وتستند من ناحية ثانية على جدران الخان المحيط بالصحن. وهذه القباب متساوية من حيث الحجم والسعة والارتفاع قطر كل منها ثمانية أمتار وترتفع ذروتها عن أرض الخان اثنان وعشرون مترا.

دراسات

أما باقي مساحة الصحن فمسقوفة بأقباء أو عقود متقاطعة ولكن الوضع المعماري المتماثل للقباب لكامل عناصرها بنفي ذلك. (الشكل:٦-٧).

-الطابق الأرضي:

يحيط بالصحن من كل جهة غرف ومخازن موزعة على طابقين الطابق الأرضي له واجهة حجرية فتحت فيها أبواب المخازن وشبابيكها وهي شبابيك مستطيلة ذات شبك حديد موجود على مستويين أرضي وعلوي. والمخازن مصممة على شكل أجنحة مستقلة يتألف كل منها من غرفة أمامية تستخدم كمكتب، ويليها في الداخل غرفة أو غرفتان لهما طاقات أعلاها مفتوحة في جدار السور، وتعد هذه المخازن ثلاثة وعشرين تطل مباشرة على صحن الخان، سوى تلك التي تقع في زوايا البناء فأنها تتصل بالصحن بواسطة ممر ضيق مسقوف. ولا يشبه هذا التخطيط ما كانت عليه الخانات في العهود السابقة إطلاقا، بل هو أشبه بتصميم القصور الأموية كقصر الحير الغربي مثلاً [١٦]. ويتألف الطابق العلوي من ثلاثة وأربعين غرفة، دون عد غرفتين مقامتين على القسم الشمالي للجانب الغربي، المبنيتين فوق ضريحي الشهيدين واللتين لم تستعملا أطلاقًا احترامًا لهذين الشهيدين وتوجد أيضًا خمسة ممرات صغيرة جانبية في الطابق العلوي، إحداهما في منتصف الجانب الشمالي يؤدي إلى جناح صغير متهدم، ربما كانت فيه مظاهر هذا الطابق (الشكل: ٨). أن كل الغرف العلوية مقببة سريريًا، ومزودة بأبواب مقوسة في أعلاها بأقواس صغيرة منخفضة، وكل هذه الأبواب من خشب قديم منقوش، وكل غرفة مجهزة بنافذة تطل على الشارع وأخرى تطل على الرواق [١٧]. ولهذا الطابق واجهة حجرية مطلة على الصحن، مؤلفة من قناطر ثلاث في كل واجهة. وكل قنطرة من هذه القناطر عبارة عن قوس حجري مركب داخل الأقواس الحاملة لقباب الصحن مزود في الأسفل بدرابزين خشبي وعلى كل من جانبي القنطرة شباك مستطيل [١٨] (الشكل ٩).

- العناصر الزخرفية:

يعتبر المنجور الخشبي في الخان مثالاً رائعًا ومتميزًا للمنجور المستخدم في ذلك الوقت وشاهدًا على براعة حرفيي الرسام، فالنوافذ والأبواب مصنعة من الخشب الرومي ومنفذة بطريقة الحشوات، وقد زخرفت أبواب الغرف في الطابق الأرضي بالخيط العربي (أرابيسك)، أما أبواب الطابق الأول فقد نقشت عليها تشكيلات مختلفة ومتنوعة من الزخارف الهندسية المعقدة بواسطة الخطوط المحفورة المتقاطعة والمسامير الحديدية. أما النوافذ القباب فقد صنعت بأكملها من الخشب المعشق مع الجبس والزجاج الشفاف.[١٩] (الشكل:١٠)

٢/٢-قصر العظم

-موقع القصر وتاريخه:

يقع هذا القصر عند سوق البزورية إلى الجنوب من جامع بني أمية الكبير، شيده الوالي أسعد باشا العظم (١١٦٣هـ/١٧٤٩م) فوق جزء من معبد (جوبيتر) الروماني، وتعددت احتمالات وقوعه فوق قصر معاوية بن أبي سفيان المسمى (قصر الخضراء) أو (دار خالد بن الوليد)، ومن المعروف أنه يشغل مكان دار نائب السلطنة في العهد المملوكي (الأمير تنكز) المعرفة (بدار الذهب) لما كان فيها من غنى وزخرفة والمشيدة فوق (دار الفلوس).

وفي سبيل بناء هذا القصر، جند الوالي أسعد باشا أمهر الصناع والعمال، كما استولى على العديد من مواد البناء من دور أهل دمشق وأشجارها، واستغرق أنجاز العمل ثلاث سنوات فجاء آية في الإبداع وحسن العمارة والفخامة، وجمال الزخارف والنقوش، وقسم إلى (السلملك) وهو قسم الرجال، و(الحر ملك) للنساء زار هذا القصر عديد من الملوك والرؤساء والشخصيات في أيام الوالي حسين ناظم باشا، واتخذ المفوض السامي الفرنسي مقرًا لإقامته في بدايات الاحتلال، كما اتخذ أيضًا مقرًا (للمعهد الفرنسي) في تلك الحقبة وما أن بدأت نيران الثورة السورية بالاندلاع سنة ١٩٢٥ حتى أصيب هذا القصر بالقذائف التي أطلقت على المنطقة من ثكنات القوات الفرنسية المتواجدة في (قلعة المزة) وغيرها فأصيب إصابات مباشرة أدت إلى تهدم جزء كبير منه، فأعيد ترميمه إلى ما كان عليه في السابق، وصار متحفًا للتقاليد الشعبية في (١٣ أيلول ١٩٥٤).[٢٠]

- المخطط والوصف المعماري:

ساحة القصر ٥٥٠٠ م٢، يتألف المبنى من كتل معمارية أرضية فيها عدد من الأقبية (تحت القاعة الكبرى وفي جناح الخدم للمونة تحديدًا). وتعلوها في بعض الأجزاء غرف علوية تتألف بمجملها من: ست عشرة قاعة كبيرة – تسع عشرة غرفة أرضية – وتسع غرف في الطابق العلوي – ثلاثة أواوين – ورواق بخمسة أقْوس محمولة على أعمدة ذات قواعد وتيجان مزخرفة. في الفسحات السماوية من المبنى أربع برك كبيرة كانت تستمد ماءها من نهر قنوات، كما

ويوجد داخل القاعات والأواوين تسع عشر فسقية ماء، بعضها أرضي والبعض الآخر جداري. في المبنى حمام متكامل الأقسام براني وسطاني وجواني، فيه عدد من المقصورات وخزانة (أميم) بحلتين نارية ودخانية لتسخين الماء. كان يتبع للمبنى مصلى ألحق بدار ثانية / ومرآب للعرابات حول فيما بعد إلى مستودع واصطبل للخيل قبالة مدخل القصر حول إلى مخازن تجارية.[٢١] (الشكل:١١).

- أقسام القصر:

كانت البيوت الدمشقية العريقة المشادة في مرحلة الحكم العثماني ذات تقسيم ثلاثي الأجنحة، درجت تسميتها التركية، ولا تزال تتناقلها الألسن حتى الآن وهي: (الحر ملك) أي جناح العائلة، و(السلاملك) أي جناح الضيوف و(الخدملك) أي الجناح الخاص بالخدمة. تتوسط هذه الأجنحة بوابة كبيرة تفتح على دهليز مدخل القصر. يتألف مدخل القصر من بوابة كبيرة يتوسط فسمها السفلي باب صغير (باب خوخة)، تفضي البوابة إلى ممر عريض ذي سقف معقود بعقود متصالبة قليلة الإنحناء[٢٢] (الشكل: ١٢). يتفرع الممر إلى اتجاهين: يقود مساره الجنوبي العريض إلى جناح الضيوف، ومساره الشمالي إلى جناح العائلة ومنه إلى جناح الخدم.

-جناح العائلة (الحر ملك):

أطلقت تسمية (حرملك) التركية الأصل على هذا الجناح من القصر، لأنه مخصصًا لعائلة الباشا، وكان محضورًا على أي رجل غريب دخوله لما يتميز به المجتمع آنذاك من صرامة في الفصل بين الجنسين (الرجال والنساء) شغل هذا الجناح مساحة تزيد عن ثلثي مساحة القصر الإجمالية ويحلق به جناح خاص بالخدم (الخد ملك) في زاويته الشمالية الغربية، يمتاز الجناح (الحر ملك) بأبنيته الفارهة الغنية بالزخارف والمؤلف بعضها من طبقتين، وبفسحته السماوية الواسعة المتكظة بنباتات الزينة الفواحة، وأشجار الحمضيات وأشجار السر السامقة، كما يمتاز بوفرة بالبحرات والفساقي الرخامية والمساقط المائية الخلابة. (الشكل:١٣).

للجناح ثلاثة أبواب تصله بالمدخل الرئيس، وممر ضيق مجهز بخزانة دوارة يربطه بجناح الضيوف. في الجناح إيوانات شمالي معمد بشكل رواق بثلاث فساقي رخامية وجنوبي ذو قوس شاهق، والإيوانان مخصصات للجلوس، الشمالي شتوي والجنوبي صيفي الشكلان ١٤–١٥. خصصت الغرف الأرضية من الجناح لحاجات النهار من استقبال وراحة وطعام، أما الغرف العلوية فكانت مخصصة للنوم. خصصت أجمل قاعتين في الجناح لاستقبال ضيوف العائلة (قاعة العروس والقاعة الكبرى) (الشكل:١٦). وفي الجناح حمام خاص بالعائلة ويحتوي حاليًا على مشاهد ومعروضات متحف التقاليد الشعبية.[٢٣]

-جناح الضيوف (السلاملك):

يشغل جناح الضيوف الجهة الجنوبية من القصر ويتصل بمدخل القصر عبر ممر عريض، وبجناح العائلة (الحر ملك) عبر ممر ضيق مزود بدولاب خشبي دوار للتخديم، كما كان لهذا الجناح باب خارجي فرعي في جداره الجنوبي غرب الإيوان (الشكل: ١٧). يتكون جناح الضيوف من فسحة سماوية تتوسط بركة ماء كبيرة مستطيلة الشكل يتوزع فائض مياهها على البحرات الواطئة في جناح العائلة بواسطة مجارير أرضية يجري الماء فيها، لمبدأ اختلاف المناسيب ومن قاعتين تقعان عند الطرف الشمالي من الفسحة السماوية على جانبي الممر العريض المؤدي إلى جناح، ومن قاعتين أخريين تشكلان الجهة الجنوبية من الجناح، يفصل بينهما إيوان شاهق، نظن من خلال بعض البقايا المعمارية في الجزء الغربي المتاخم لقاعة الصناعات الجلدية أنه كان يلحق بهذا الجناح في الزاوية الجنوبية الغربية مطبخ صغير مستقل عن مطابخ جناح الخدم وذلك لتخديم هذا الجناح (الشكل: ١٨). أنجز ترميم هذا الجناح وجهز كمتحف للصناعات اليدوية والأزياء التقليدية في بداية الستينات من هذا القرن[٢٤].

- العناصر الزخرفية:

إذا وقف الزائر في باحة القصر، حار يقلب ناظريه، فواجهات القصر وجدرانه مزخرفة من أعلاها إلى أسفلها، بمداميك ملونة بالتناوب وبأشرطة منقوشة، وأحجار مرصعة بالفسيفساء ونوافذ مختلفة الأشكال متعددة الزخرفة. يتصف بناء القصر ببساطة مظهره الخارجي، وبفخامة وترف الزخارف على جدران وسقف قاعاته وواجهاته الداخلية المطلة على الفسحات السماوية. تقتصر زخرفة الواجهة الخارجية لمدخل على شريط حجري – حفر – غائر – متماوج ومحلزن يحيط بالقسم العلوي من الواجهة، وتحصر فوق ساكف البوابة المقوس بعض النجوم الحجرية المنزلة والمحاطة بأطر من الزخارف المحفورة، كما رصت حواف البوابة بقطع معينية الشكل من الصدف الزجاج[٢٥]. تتوزع في أنحاء متفرقة من القصر، وبخاصة في الأجزاء العلوية من الواجهات الداخلية ومن جدران

القاعات والأواوين وسطوح الأقواس الداخلية، زخرفة فسيفسائية كثيرة الانتشار في البيوت الدمشقية تعرف ب (الأبلق)، وهي طريقة تقليدية في مجال الزخرفة المعمارية، تعتمد على حفر المواضع الحجرية المراد زخرفتها، ثم ملئها بنوع خاص من الملاط الملون، تغلب على مواضيع هذه الزخرفة التقليدية الأشكال والخطوط الهندسية الدائرية والمستقيمة والمتعرجة والمنقطة بأشكال النجوم والعروق النباتية والأزاهير شديدة التناسق. تشكيلات من الجبصين بينهما فراغات تعشق بالزخارف الملونة، نوافذ القصر للحالية بسيطة، وربما كان شكلها الأقدم مزخرفًا بهذه الطريقة، لكننا نلاحظ أن النوافذ العلوية من القصر المطلة على الفسحة السماوية قد زينت بأطر جصية وحجرية حفر وبتشكيلات جصية كالمقرنصات (الشكل:١٩).

أما أبواب القاعات فقد نفذت بطريقة زخرفة الخيط العربي (الآربيسك) المدكك بحشوات ذات أشكال هندسية متنوعة، يتميز من خلالها شكل كل باب عن الآخر، هذا وقد رصعت بعض الأبواب في أقسامها العلوية بقطع صغيرة من الصدف الزجاج. كما تنتشر في أنحاء متفرقة من القصر في الفسحات السماوية وبخاصة في الأرضيات أمام الأواوين وأرضية الرواق المعمد، وفي عتبات القاعات والجدران الداخلية في القاعات الكبرى والفساقي، فسيفساء رخامية تدعى ب "المشقف" تتخذ أشكالاً هندسية مرصوفة في ألواح رخامية متنوعة الألوان.

أما المقرنصات الحجرية في القصر فقد استخدمت للزينة ولتأمين الانتقال بين مستويين مختلفين وبخاصة عند قواعد بعض الأقواس وفي الزوايا داخل القاعات وخارجها، وعند بعض الأجزاء العلوية فوق النوافذ لكن الزخارف الأكثر انتشارًا والتي لا تخلو منها أغلب القاعات والأروقة في المبنى هي الأخشاب الملونة، الزخرفة والموشاة بالألوان الترابية وبالذهب والفضة، المعروفة ب (العجمي). لقد استخدمت طريقة العجمي في تزيين كسوة الجدران والأسقف، بالاعتماد على مواضيع هندسية ونباتية مع حلية بشكل أشرطة من الخط العربي منظومة في أبيات شعرية وآيات قرآنية وأقوال مأثورة.[٢٦] (الشكل:٢٠).

٣/٢-التكية السليمانية:

-موقع التكية وتاريخها:

بنيت في عهد السلطان سليمان القانوني في مكان القصر الأبلق على شكل تكية من جهة الغرب ومدرسة في الشرق وسوق يمتد بين هذه المدرسة ونهر بردى، وقد بدأ بناء التكية سنة (٩٢ ه /١٥٥٤م) في عهد الوالي (خضر أو خضري باشا) وانتهى سنة (٩٦٧ ه/١٥٥٩) أيام نفس الوالي. أما بناء المدرسة فلم يبدأ إلا سنة (٩٧٤ ه/١٥٦٦م) أيام الوالي (الوزير والمشير لالا مصطفى باشا). تقع التكية السليمانية عند مدخل مدينة دمشق الغربي في ميدان (الشرق الأدنى)، يمر نهر بردى عن شمالها ويفصله عنها طريق كان يسمى قديمًا (طريق تكية السلطان سليم). كان المدخل الرئيس للتكية من الباب الشمالي المطل على بردى وأماه جسر يمتد حتى شارع بيروت، ومن الطبيعي أن بناء هذا الجسر تم في نفس الفترة الزمنية التي بنيت بها التكية، ومكان المهندس المشرف على البناء إيراني الأصل واسمه (ملا) يساعده العديد من مراقبي البناء الأتراك، أما طراز عمارتها فعثماني بحيث لم يكن هذا الطراز مألوفا في دمشق حتى تلك الحقبة خصوصًا (المئذنتين اللتين شبههما البعض بالمسلتين) لشدة نحولها. وفي عام ١٩٠٧ تولى دمشق الوالي شكري باشا فأمر بإنشاء جسر جديد يمتد من شارع بيروت حتى الطريق الواصلة إلى التكية الحميدية والفاصلة بين الواجهة الغربية للتكية وبين حديقة المتحف الوطني وسمي الجسر باسم جسر الحرية.[٢٧]

-المخطط والوصف المعماري:

يعتبر هذا المبنى منشأة عثمانية تتألف من تكية كبيرة في الجانب الغربي، ومدرسة مستقلة عنها في الجانب الشرقي، وسوق يمتد أمام المدرسة من شمالها وسأقوم بدراسة هذه المنشأة كل منها على حدة بشكل مفصل[٢٨] (الشكل ٢١-٢٢).

-التكية:

تتألف من صحن سماوي تتوسطه بركة مستطيلة تتوزع حوله مجموعة من المباني تكاد تكون مستقلة عن بعضها، يحيط بها جميعًا سور مستطيل أطواله (١٢٠ × ٩٤ مترًا) يخترقه باب في الجهة الغربية وآخر في الجهة الشرقية، يصل التكية بالسوق والمدرسة، وثالث صغير في الجهة الشمالية تتقدمه قبة صغيرة محمولة على أعمدة. (الشكلان:٢٣-٢٤). أما الحدائق فنجدها تشغل الفراغ الحاصل بين السور والمباني وكذلك بعضًا من أقسام الصحن الواسع نميز في التكية ست مبان قد توزعت حول صحن واسع، ثلاثة في كل جزأيها الشمالي والجنوبي، وهي شبه مستقلة عن بعضها ويوجد بينها الطراز المعماري الشكل العام المتمثل في الواجهات، وفي الأروقة المطلة

على الصحن بأقواسها الفارسية وعمدها ذات التيجان المقرنصة، وبالقباب التي هي أداة التسقيف في كل مكان، وأخيرًا في تناوب اللونين الأبيض والأسود في الجدران والأقواس (الشكل ٢٥). وفيما يلي نقدم وصفًا مفصلاً لهذه المباني:

- المسجد:

يحتل الجناح القبلي ويتألف من رواق عريض أمامه، أما القاعة فلها شكل مربع ضلعه ١٦ مترًا مسقوفة بقبة عالية من نوع القباب العثمانية لها رقبة كثيرة النوافذ وطاسة نصف كروية بالرصاص ويحمل القبة أربعة أقواس ملتصقة بجدران القاعة السميكة. زوايا الانتقال بين الأقواس مشغولة بمثلثات كروية عادية دون مقرنصات أو حنايا، وينفتح في جدران القاعة الأربعة شبابيك على الحدائق ويعلوها في كل جدار نافذة، وهذه النوافذ مع نوافذ القبة كانت من الجص المعشق بالزجاج الملون الذي تتألف منه مواضيع زخرفية رائعة، ذهب أكثرها مع الأسف (الشكل: ٢٦). واجهات المسجد الخارجية مبنية بمداميك من الحجر الملون يتناوب فيها الأبيض والأسود وتبدو الزخارف في الواجهة الشمالية فقط وهي عبارة عن كسوة من الرخام الملون والقاشاني الجميل.

وفي هذه الواجهة أيضًا يقع باب الحرم الرائع الصنع، المفتوح ضمن إيوان واسع على جانبيه محرابان مزينان بالقرنصات وفوق الباب أيضًا مقرنصات مزودة بالدلايات الحجرية وذلك تطور للمقرنصات المعروفة في العهود السابقة (الشكل: ٢٧). ونشير هنا إلى وجود لوحة رخامية تعلو ساكف الباب نقش عليها سطران باللغة التركية وبخط نسخي، تؤرخ بناء التكية ويحيط بالباب إطار من الزخارف الهندسية مركبة بواسطة قطع الرخام الملون (أبيض وأسود وأحمر). في زاويتي الجدار الشمالي للمسجد تقوم مئذنتان عاليتان كالاسطوانتين، لكنهما تتألفان من مضلع كثر الوجوه مبنيتان بالحجر الكلسي، ولهما رأس مخروطي مدبب يشبه قلم الرصاص، وفي كل مئذنة شرفة للأذان تحملها مقرنصات حجرية، ويبدو أن هاتين المئذنتين حددتا بعد ذلك في حدود سنة ١٧٤٦ (الشكل: ٢٨).

أما في داخل الحرم فنجد محرابًا تعلوه المقرنصات وتحيط به زخارف من الفسيفساء الرخامية وإلى جانبه منبر من الرخام الأبيض وتزين الجدران مجموعات من ألواح القاشاني موزعة فوق الشبابيك. ويتقدم المسجد رواق يرتفع من مستوى الصحن محمول على أعمدة ذات تيجان مقرنصة، مسقوف بثلاث قباب، وأمامه رواق آخر أقل ارتفاعًا منه، يطل على صحن التكية مباشرة، وله سقف خشبي مائل، ومحمول على قناطر وعمد موزعة على ثلاث جهات، سبع قناطر في الجهة الشمالية وثلاث في كل من الجهتين الشرقية والغربية، وأقواس هذه القناطر من النوع الفارسي، وحجارتها من لونين أبيض وأسود بالتناوب أما العمد فلها تيجان مقرنصة، ولكنها ذات شكل جديد مبتكر [٢٩].

- المجموعتان السكنيتان:

تتوزع غرف السكن على جناحين غربي وشرقي، في كل منهما ست غرف مربعة الشكل (٧ أمتار تقريبًا) يتقدمهما رواق يفصل بينهما وبين الصحن، والكل مسقوف بقباب، لكن قباب الغرف أكثر ارتفاعًا، وأكبر حجمًا من قباب الرواق هذا وفي كل غرفة مدفئة من الحجر المنحوت، ولها مدخنة تبرز فوق القباب كالمئذنة الصغيرة (الشكل: ٢٩). العنصر الزخرفي الهام الذي نجده هنا، هو ألواح القاشاني الجميلة التي كسيت بها المناطق الواقعة فوق الأبواب والشبابيك في سائر أنحاء التكية والمدرسة، ويغلب اللونان الأخضر والأزرق على قاشاني التكية، ولا نجد اللون الأحمر إلا في بعضها القليل.

- الجناح الشمالي من التكية:

تميز فيه قاعتين كبيرتين تمتدان من الشمال إلى الجنوب، أحدهما في الجانب الغربي والأخرى في الجانب الشرقي طول كل منهما أربعون مترًا، يقسمها إلى رواقين صفين من العضائد الغليظة تحمل قباب السقف الأربع عشرة (الشكل:٣٠). ويتوسط هاتين القاعتين بناء مؤلف من ثلاث غرف يتقدمه رواق على أعمدة على شاكلة الأروقة المحيطة بالصحن ويعتقد الدكتور الريحاوي بأن الغرفة الوسطى لهذا البناء كان مطبخًا بدليل أن القباب الأربع فيها دون سائر قباب التكية، مفتوحة في وسطها وعليها مناور من أجل مرور الدخان وبخار الطبخ، فضلاً عن وجود حوض للماء لحاجات الطبخ أيضًا، ولعل الغرفتين المجاورتين كانتا لموائد الطعام، أما القاعتان الكبيرتان فكانتا للمؤذن، وقد بطل ذلك منذ سنوات طويلة وشغلت التكية باستثناء مسجدها بمعروضات المتحف الحربي [٣٠].

-المدرسة:

وهي بناء مستقل يقع إلى الشرق من التكية أطوالها (٤٥ × ٤٠ م) تشبه في طراز عمارتها وتصميمها مبنى التكية المتقدم وصفه، في وسطها صحن مزود ببركة مستطيلة. تحيط به مجموعة من الغرف الصغيرة المسقوفة بالقباب في كل منها

مدفئة على شاكلة غرف التكية، وأمام الغرف رواق يحيط بالصحن تغطيه أيضًا القباب الصغيرة، محمول على أقواس وعمد قليلة الارتفاع، بالنسبة لأعمدة رواق التكية (الشكلان:٣١-٣٢).

في المدرسة أيضًا مسجد خاص بها، ليس له مآذن ولا منبر فهو مصلى على شكل غرفة مربعة تبرز عن حدود البناء باتجاه الجنوب مسقوفة بقبة. لها رقبة مضلعة مزودة بالنوافذ، لم يبق من نوافذ المسجد المعشقة بالزجاج الملون سوى واحدة فقط، ويكسو جدرانه ألواح القاشاني، ويتخلها شبابيك وخزائن كتب، ويتوسط الجدران شريط من بلاطات القاشاني، رسمت عليها شرافات كموضوع زخرفي[٣١]. وأمام المسجد مسطبتان ضمن رواق مؤلف من ثلاث قناطر، زينت جدرانه بأشرطة من الزخارف الملونة من نوع الأبلق ورصع ما فوق الباب بألواح القاشاني. وللمدرسة باب رئيسي كبير منقوش في منتصف واجهتها الشمالية وأربعة أخرى صغار تصل المدرسة بالحدائق المحيطة بها، ويؤدي الباب الرئيسي إلى دهليز متسع على جانبيه إيوانان صغيران كغرفتين للحراسة، ينتهي برواق على أعمدة يشرف على الصحن مسقوف بثلاث قبات، للوسطى منها رقبة، خالية من النوافذ، بل حل محلها كوى مزخرفة، والباب واسع مفتوح ضمن إيوان، ويقابله باب آخر مماثل له، مفتوح في الطرف الشمالي من السوق. ولكل منهما واجهة غنية بالزخارف، نجدها في القوس ذي الحجارة الملونة بالتناوب، وفي الأشرطة المنقوشة على شكل ضفائر وفي الحليات المستديرة المرصعة، والحجارة الملونة المفصصة الخ...[٣٢]

-السوق:

يتألف السوق من صنفين من الدكاكين بطول ٨٥ مترًا في كل صف اثنان وعشرون دكانًا تشبه الأواوين مسقوفة بأقباء طويلة، وينتهي السوق من جهته الغربية بباب واسع يؤدي إلى التكية، وباب آخر من جهة الشرق يؤدي إلى خارج المنطقة، وتوجد على الباب كتابة تشير إلى تجديده في عهد السلطان مصطفى الثالث الذي تولى السلطنة بين سنتين ١٧٥٧-١٧٧٣ ولقد زال الجناح الشرقي من الصف الشمالي للدكاكين وحلت محله أبنية حديثة لوزارة التربية، ثم أصلحت الدكاكين الأخرى واستخدمت مع المدرسة سوقًا سياحيًا للصناعات اليدوية افتتح منذ بضع سنين. (الشكل٣٣)[٣٣].

-العناصر الزخرفية:

على الرغم من طابع البساطة المسيطر على هذه المجموعة المعمارية فإن المتأمل لها يحس بانشراح ومتعة مبعثها ما تتجلى به من أناقة وانسجام في الخطوط ومن تناوب ألوان مداميك جامعها وحجارة قناطرها. وما في ألواح الخزف الملون (القاشاني) فوق سواكف أبواب قاعاتها من بريق وجاذبية، وتكاد العناية بالزخارف تنحصر في جامعها الذي يحتوي على عناصر زخرفية عديدة، نشاهدها في مقرنصاته الرائعة، وفي الفسيفساء الرخامية التي تزين المحراب وفي نوافذ الجص المطعمة بالزجاج الملون الموزعة في أطراف القبة، إلى غير ذلك من أنواع الزينة والزخرفة[٣٤] (الشكل:٣٤).

خاتمة

هكذا نلاحظ من خلال ما تقدم مدى التطورات التي طرأت على المنشآت المعمارية خلال العهد العثماني، وذلك لدخول الطابع الفني الخاص بذلك العصر والذي فرض صفته على تلك المنشآت المعمارية وصبغها بذلك اللون الفني، بحيث يمكن في العمارة الإسلامية أن يميز خصائص هذا العصر وذلك من خلال المقارنة بين المباني التي بقيت شاهد على ذلك الطابع الخاص بالعهد العثماني، بحيث رأينا أن ذلك اهتمام تجلى في بناء الخانات والأسواق، وكذلك الدور السكنية التي أصبحت في هذا العهد تشمل ثلاثة أجنحة الحر ملك والسلملك والخدملك، كما شمل هذا الاهتمام المجمعات المعمارية التي أطلق عليها اسم التكية والتي تضم المدرسة والمسجد والسوق.

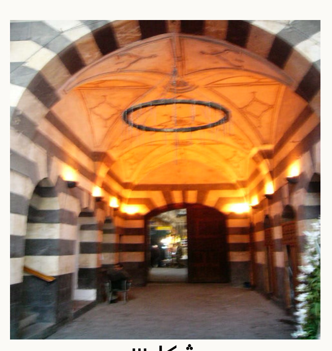
وتذخر دمشق القديمة بالعديد من المباني التي تعود للعهد العثماني من الخانات والبيوت السكنية والتكية والجوامع، الأمر الذي قضي منا كآثاريين العمل والسعي الحثيثين للحفاظ على هذه الشواهد المعمارية لتلك الفترة وتوظيفها بما يتلاءم مع طبيعة المبنى حتى نتمكن من الحفاظ على ذلك التراث المعماري المتميز سواء بعناصره المعمارية أو الزخرفية.

الملاحق

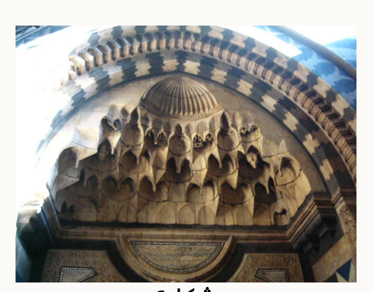
شكل١
مخطط خان اسعد باشا
[عن الريحاوي: العمارة العربية الإسلامية]



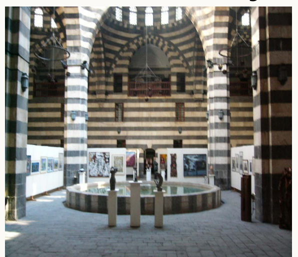
شكل٢
مدخل الخان [بعدسة الباحث]



شكل٣
المقرنصات التي تعلو بوابة الخان [بعدسة الباحث]



شكل٤
الدركاة [بعدسة الباحث]



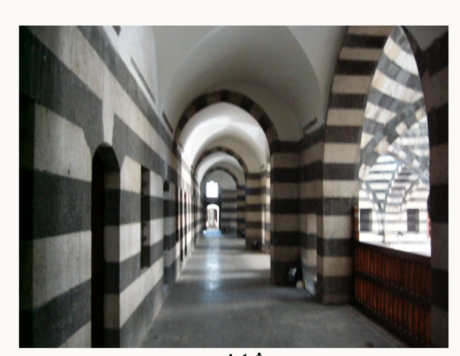
شكل٥
صحن الخان تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]



شكل٦
القبة الوسطى [بعدسة الباحث]



شكل٧
قباب الخان من الخارج [بعدسة الباحث]

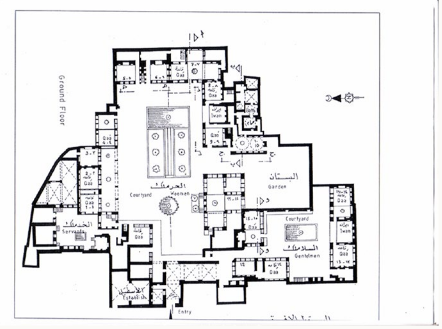


شكل ٨
رواق مقبب في الطابق الثاني [بعدسة ا الباحث]

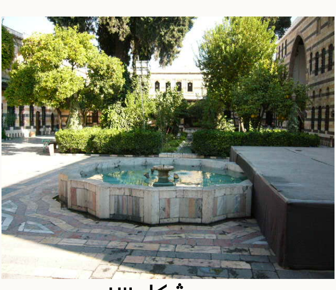


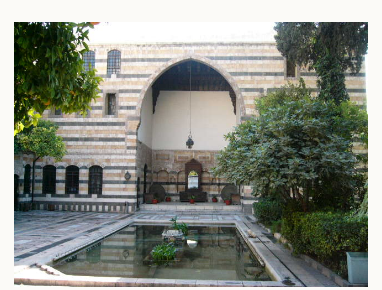
شكل٩
واجهة الطابق الثاني المطلة على الصحن
[بعدسة الباحث]


شكل١٠
نوافذ القباب [بعدسة الباحث]


شكل١١
مخطط قصر العظم [مديرية المباني]


شكل١٢
مدخل القصر [بعدسة الباحث]


شكل ١٣
قسم الحر ملك تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]

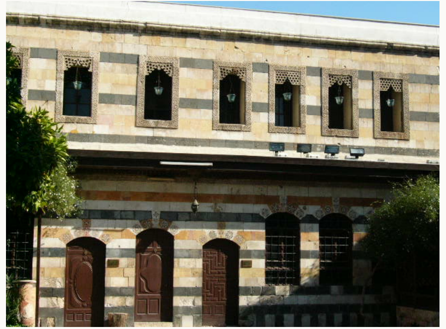

شكل١٤
الإيوان الجنوبي [بعدسة الباحث]


شكل١٥
رواق الإيوان الشمالي [بعدسة الباحث]


شكل١٦
واجهة القاعة الكبرى [بعدسة الباحث]


شكل١٧
الممر الواصل بين قسم الحر ملك والسلملك
[بعدسة الباحث]

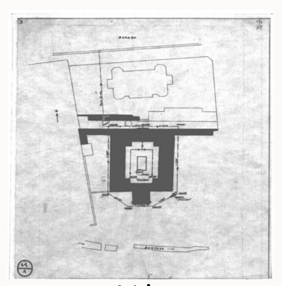

شكل١٨
قسم السلملك تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]



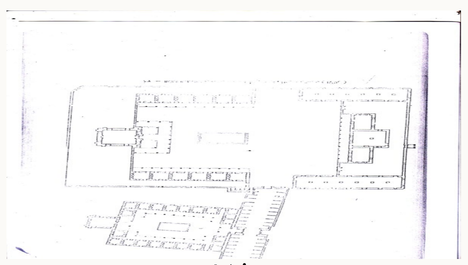
شكل١٩
النوافذ المزينة بأطر جصية [بعدسة الباحث]



شكل٢٠
سقف الإيوان الجنوبي المزين بالعجمي
[بعدسة الباحث]



شكل٢١
موقع عام للتكية [مديرية المباني]



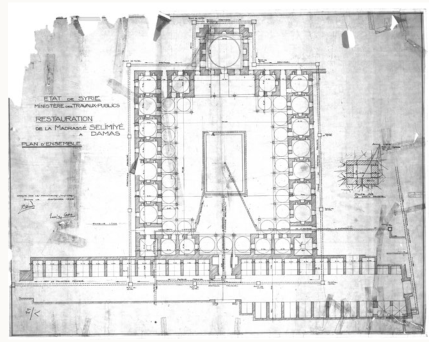
شكل٢٢
مخطط التكية السليمانية [مديرية المباني]



شكل٢٣
مدخل التكية الغربي [بعدسة الباحث]



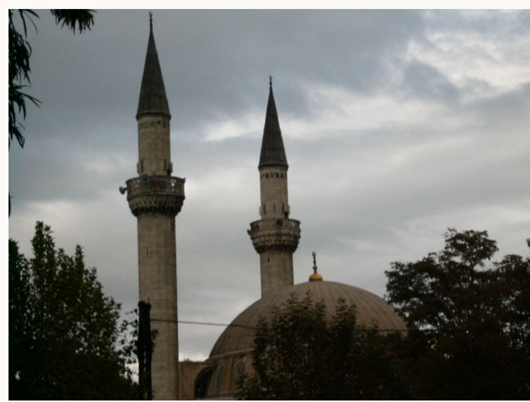
شكل٢٤
المدخل الشرقي [بعدسة الباحث]



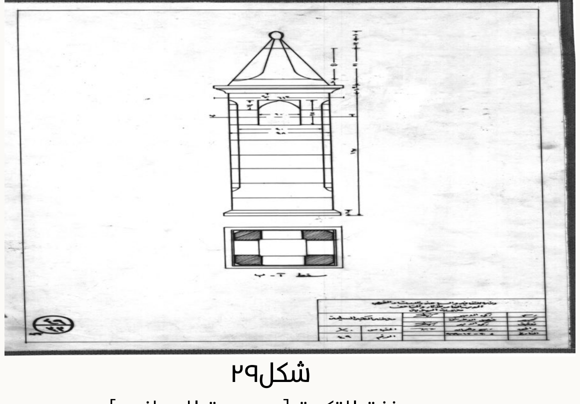
شكل٢٥
مسقط عام [مديرية المباني]



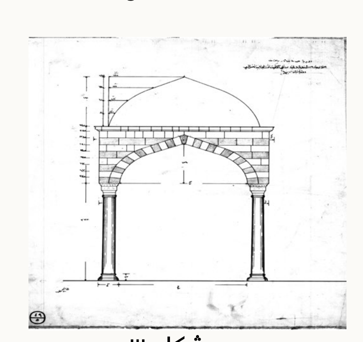
شكل٢٦
صحن الجامع تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]



شكل٢٨
مئذنتي الجامع [بعدسة الباحث]

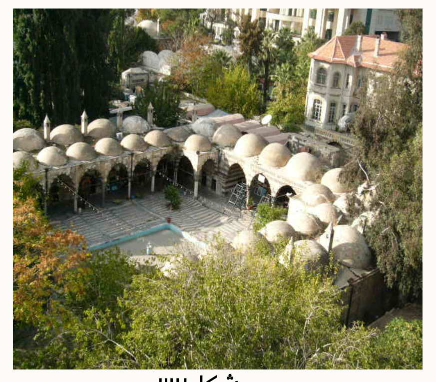

شكل٢٩
مدخنة التكية [مديرية المباني]


شكل٣٣
السوق بالقباب [بعدسة الباحث]


شكل٣٠
الواجهة الشمالية [مديرية المباني]


شكل٣٤
زخارف القاشاني في سواكف الأبواب بالقباب [بعدسة الباحث]


شكل٣١
صحن المدرسة تتوسطه البحرة [بعدسة الباحث]


شكل٣٢
الأروقة المسقوفة بالقباب [بعدسة الباحث]

الهَوامِش:

(1) Dussaud., Le Temple de Jupiter Damascenien et ses transformations aux epoques chretienne et musulmane, Syria 3, 1922, Pp. 35- 53.

(٢) دوروتيه زاك، **دمشق تطور وبنيان مدينة مشرقية إسلامية**، المعهد الفرنسي للشرق الأدنى، ترجمة قاسم طوير، مراجعة نزيه الكواكبي، ٢٠٠٥، ص٢١.

(3) Sack D., 1989, Entwicklung und Struktur einer orientaisch- islamischen Stadt, Mainz am Rhein: verlag Philip von Zabern, p.29

(4) Wulzinger K& Watzinger C.,1924, Damascus Die islamische Stadt, p.26

(٥) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، وزارة الثقافة، دمشق،١٩٧٩م، ص ٢٥.

(٦) خماش، نجدة، **دراسات في الآثار الإسلامية**، ط٣، جامعة دمشق، ١٩٩٣- ١٩٩٤، ص١٨٥.

(٧) خربوطلي، شكران، ومصطفى فوزي وعلي عبد الكريم، **الحضارة العربية الإسلامية**، آثار وفنون، جامعة دمشق، ٢٠٠٨، ص٢٢٧- ٢٢٨.

(٨) خربوطلي، شكران ومصطفى فوزي وعلي عبد الكريم، المرجع السابق، ص٢٢٩.

(٩) الريحاوي، عبد القادر، **مدينة دمشق**، دمشق، ١٩٦٩، ص ٢١٤- ٢٢٤.

(١٠) زكار، سهيل وشكران خربوطلي، **الحضارة العربية الإسلامية**، ط١، دمشق ٢٠٠٦، ص ٥١ – ٥٧.

(١١) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، الحوليات الأثرية العربية السورية، م٢٥، ج١-٢، ١٩٧٥، ص ٨٥.

(١٢) الريحاوي، عبد القادر، **مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص٦٤.

(١٣) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص ٦٦.

(١٤) عميري، إبراهيم وجبور خزامى، **خان أسعد باشا**، وزارة الثقافة، دمشق، د.ت، ص١٦- ٢٤.

(١٥) بهنسي، عفيف، **الفن الإسلامي**، دمشق ١٩٨٦، ص ١٥١.

(١٦) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص٦٦- ٨١.

(١٧) يحيى، فؤاد، **جرد أثري لخانات دمشق**، الحوليات الأثرية العربية السورية، م ٣١، ١٩٨١، ص ٩٦.

(١٨) الريحاوي، عبد القادر، **خانات مدينة دمشق**، المرجع السابق، ص ٦٨.

(١٩) عميري، إبراهيم وجبور خزامى، المرجع السابق، ص٤٨.

(٢٠) الشهابي، قتيبة، **دمشق تاريخ وصور**، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٦، ص ٢٨١.

(٢١) قدور، محمد سالم، **قصر العظم**، ط١، الجمعية التعاونية، دمشق، ١٩٩٧، ص ٢٤.

(٢٢) أبو خليل، شوقي، **الحضارة العربية الإسلامية**، ط١، دمشق، ١٩٩٦، ص ٢٥

(٢٣) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٣- ١٥.

(٢٤) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٦.

(٢٥) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، ط٢، دار البشائر، دمشق، ١٩٩٩، ص ١٩٩.

(٢٦) قدور، محمد سالم، المرجع السابق، ص ١٨.

(٢٧) الشهابي، قتيبة، المرجع السابق، ص ١٨٧.

(٢٨) أصلان آبا، أوقطي، **فنون الترك وعمائرهم**، ترجمة احمد محمد عيسى، استانبول ١٩٨٧، ص ٦٧- ٦٨.

(٢٩) الريحاوي، عبد القادر، **العمارة العربية الإسلامية**، المرجع السابق، ص٢٤٠- ٢٤٤.

(٣٠) خماش، نجدة، المرجع السابق، ص ١٩٥- ١٩٦.

(٣١) ابن عساكر، ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة اللّه، **تاريخ مدينة دمشق**، تحقيق المنجد ودهان، دمشق ١٩٥٤، ص ٢٤٤ – ٢٤٥.

(٣٢) واستنجر، كارل، **الآثار الإسلامية في دمشق**، مراجعة قاسم طوير، ١٩٨٤، ص ٨٨- ٨٩.

(٣٣) شافعي، فريد، **العمارة العربية الإسلامية، ماضيها وحاضرها ومستقبلها**، دمشق ١٩٨٢، ص ١٠١- ١٠٢.

(٣٤) عبد الحق، سليم عادل، **مشاهد دمشق الأثرية**، دمشق ١٩٥٠، ص ٤٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

المياه في سجلماسة
من خلال المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية



أ.د. الحسن تاوشيخت
أستاذ التعليم العالي – شعبة الآثار الإسلامية
المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث
الرباط – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

تعتبر سجلماسة من أولى المدن الإسلامية التي شيدت في المغرب الأقصى، حيث تأسست حوالي سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م) من طرف بني مدرار المكناسيين. واعتبارًا لموقع منطقة سجلماسة في مقدمة الصحراء الكبرى، فإن الماء أُعتبر من العناصر الحيوية والضرورية للحياة والحاجة إليه كانت من المشاغل الرئيسية للساكنة. وتشير الكتابات التاريخية أن سجلماسة كثيرة العمارة، على نهر كثير الماء، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة. كما أكدت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة الأثري واستنادًا إلى ما ذكرته المصادر المكتوبة على أن سجلماسة كانت تحيط بها المياه من كل النواحي، وتوضح صور الأقمار الاصطناعية أن الطبقات الجيولوجية الواقعة تحت موقع سجلماسة وخاصةً القريبة منها من السطح جد غنية بفرشة مائية مهمة. ويظهر من دلالة اسم سجلماسة أنها كلمة أمازيغية زناتية مكونة من شقين هما: "سج" ويعني طل، يطل، تطل ثم "لماس" ويعني الماء، وبالتالي فالكلمة كاملة تعني: تطل على الماء. وهذه الدلالة التي تنطبق تمامًا على الموضع الذي بُنيت عليه أول الأمر مدينة سجلماسة وسط واحة "تافيلالت حاليًا" ويحيط به الماء من كل جانب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٨ أكتوبر ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ يناير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

المغرب الأقصى، المدن الإسلامية، القنوات المائية، السواقي، الماء

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055400

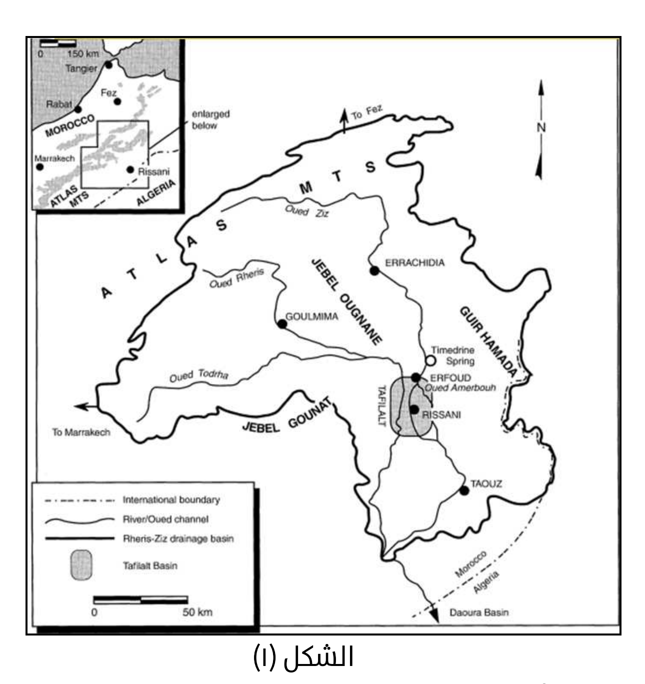
الاستشهاد المرجعي بالمقال:

الحسن تاوشيخت. **"المياه في سجلماسة من خلال المصادر التاريخية والأبحاث الأثرية"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٥٦ – ٦٣.

مُقَدِّمَة

تعتبر سجلماسة من أولى المدن الإسلامية التي شيدت في المغرب الأقصى، حيث تأسست حوالي سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م) من طرف بني مدرار المكناسيين. واعتبارًا لموقع منطقة سجلماسة في مقدمة الصحراء الكبرى، فإن الماء يعتبر من العناصر الحيوية والضرورية للحياة والحاجة إليه تبقى بالتالي من المشاغل الرئيسة للساكنة. وتشير الكتابات التاريخية أن سجلماسة كثيرة العمارة، على نهر كثير الماء، ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة. كما تذكر أن سجلماسة بُنيت على نهر يقال له زيز يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد. ويظهر من دلالة اسم سجلماسة أنها كلمة أمازيغية زناتية مكونة من شقين هما: "سج" ويعني طل، يطل، تطل ثم "لماس" ويعني الماء، وبالتالي فالكلمة كاملة تعني: تطل على الماء. وهذه الدلالة التي تنطبق تمامًا على الموضع الذي بُنيت عليه أول الأمر مدينة سجلماسة وسط واحة "تافيلالت حاليًا" ويحيط به الماء من كل جانب وخاصة من جهة الشرق حيث يوجد وادي زيز الأول ومن الغرب حيث يجري وادي غريس.

ويحاول هذا المبحث أن يعمل مقارنة ومقاربة بين النصوص المكتوبة الواردة في المصادر التاريخية وبين ما تحتفظ به الذاكرة الشعبية وبين ما كشفته التحريات الأثرية من حقائق ميدانية. وهي حقائق قد توافق أحيانا ما أوردته المصادر التاريخية، ولكن في غالب الأحيان هي معطيات جديدة وفي غاية الأهمية. فالمبحث يقدم الإجابة عن ثلاث أسئلة أساسية هي: ما هي أهمية الماء في بناء سجلماسة وفي نموها السريع وفي الاستقرار البشري الكثيف بمجالها؟ وما هي أهم المعلومات عن الماء بسجلماسة الواردة في المصادر التاريخية؟ ثم ما هي المعطيات الجديدة التي كشف عنها البحث الأثري حول أوجه استعمال الماء بسجلماسة؟



الشكل (١)

أهمية الموقع الجغرافي لمدينة سجلماسة

١-أهمية الماء في سجلماسة

تقع سجلماسة في منطقة يسودها مناخ شبه جاف، فهي تعرف تساقطات ضئيلة طيلة السنة ولكن وبشكل فجائي تشهد فيضانات مهولة من حين لآخر تخلف خسائر بشرية ومادية فادحة، كما تتميز المنطقة بوفرة العيون. فقد ذكر البكري أن سجلماسة تقع "على نهرين وعنصرهما من موضع يقال له أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها"[١]. ويُنقل عن محمد بن إبراهيم بن يحيى الأنصاري الكتبي" أن نهر سجلماسة المسمى زيز يستمد مياهه من عدة منابع"[٢]، وتقع هذه العيون بالقرب من مرتفع الجبيل. هذه العيون التي لا تزال الرواية الشفوية المحلية تتذكر منها عين تمدرين، التي كانت تمد وادي زيز بمياه جارية غير منقطعة. أمام قلة الماء وكثرة الطلب عليه، شهدت تقنيات استغلال الماء بتافيلالت تطورات كبيرة، ذلك أن الفلاح الفيلالي يحاول دائماً البحث عن سبل ووسائل تضمن له ممارسة نشاطه الزراعي بشكل مستمر. فكانت النتيجة أن تعددت طرق الاستفادة من المياه الجوفية فضلاً عن المياه السطحية. هذه المياه يتم جلبها بواسطة مصدرين أساسيين الأول يتمثل في الجريان الموسمي لواديي زيز وغريس اللذين يتغذيان من منابع جبال الأطلس الكبير ويخترقان الواحة من الغرب وفي الوسط والشرق. ويذكر اليعقوبي" أن سجلماسة على نهر يقال له زيز"[٣]. ويشير ابن حوقل أن سجلماسة" على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل في وقت كون الشمس في الجوزاء والسرطان والأسد"[٤]. ويشير مارمول أن "زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفس الجبال -الأطلس الكبير- وينحدر نحو الجنوب جاريا بين الجبال الشاهقة ثم هو قرب كرسلوين مخترقا إمارات كنانة ومطغرة والرتب فإقليم سجلماسة، ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ويخرج منها قرب مدينة سكهيلة (؟) ليتجه ثانيًا نحو الجنوب ويكون بحيرة في وسط رمال لا يسكن حولها أحد"[٥].

أما وادي غريس فينبع من وادي ملول بالأطلس الكبير الشرقي ويمر عبر عدة مضايق وأحواض وهي أمدغوس بآيت هاني، وأسول على علو ١٦٠٠ مترًا، وأملاكو، وأمسد، وتاديغوست على ارتفاع 1200مترا، ثم منخفض تازوميت، فواحة كولميمة حوالي ١٠٠٠ مترا من العلو، ثم يأخذ اتجاه شمال- جنوب/ شرق فيمر عبر تلوين، وتوروك، ثم شمال واحات الجرف وفزنة ليصل إلى غرب واحة تافيلالت. ويقتربا الواديان كثيرًا عند مدينة أرفود "ولا يفصل بينهما إلا مسافة ٦،٥ كلم، وهما يفرغان حمولتهما في قنوات مجاورة ومتباينة، ذلك أن مجرى غريس ينخفض ما بين ٥ و ١٢ متر تحت مستوى وادي زيز، ثم يتفرقا ليقتربا من جديد على بعد ٤٥ كلم إلى الجنوب، قرب بلدة الطاوس، وليلتقيا أخيرا قرب قصر الرملية على بعد ٩٠ كلم جنوبا"[٦]، فيكونا معا واد الدورة.

وقصد الاستغلال المفيد لمياه الواديين، استطاع سكان تافيلالت، خلال العصور التاريخية المتلاحقة من إنجاز شبكة هيدروغرافية مهمة تتمثل في بناء عدة سدود صغيرة والسواقي والناعورات والتي تقوم بتحويل هذه المياه نحو قنوات ذات اتجاهات متعددة وذات أهمية مختلفة وتخترق كل أطراف الواحة. ويمكن القول كذلك إن هؤلاء السكان حققوا معجزة كبيرة تتجلى في تحويل مجرى وادي زيز من شرق الواحة نحو وسطها لكي تستفيد من مياهه بشكل أفضل، ويطلق على هذا الوادي زيز الفيلالي. ومع ذلك فإن هذا التحويل كانت له بعض السلبيات حيث أدى إلى رفع مستوى الواحة بفعل توضعات الوادي، مما جعل الاستفادة من مياه وادي غريس جد محدودة، خاصة وأنه لم تشيد سدود متينة على هذا الوادي الأخير، ولم يتم تحصين وترميم ما وجد منها.

وذكرت بعض المصادر العربية أن تقنية بناء السواقي والقنوات المائية، تعود إلى فترة تأسيس مدينة سجلماسة، ففي سنة (١٤٠هـ/٧٥٧م) "قام عيسى بن يزيد الأسود بتنظيم مياه وادي زيز وقسمها بالتساوي بين قنوات تخترق الحقول والبساتين"[٧]. ويشير أحد الباحثين" ولما كانت سجلماسة محصورة بين فرعي نهر زيز فقد توفرت لها المياه، لهذا عمل عيسى بن يزيد على تنظيم الإفادة منها، فشق القنوات، وصرف إلى كل ناحية قدرها من مائه، واستكثر من غرس النخيل، حتى غدت سجلماسة مدينة النخيل والأعناب والفاكهة وبالتالي الاستقرار"[٨].

أما المصدر الثاني للمياه بتافيلالت، فهو جوفي يستمد مياهه من الفرشات الباطنية التي تحتل مساحة شاسعة وتمثل منبعًا لا ينضب بفعل تغذيته المستمرة بواسطة مياه الثلوج والأمطار والأنهار الجوفية. يتم استغلال هذه المياه عبر وسيلتين تهم أولاهما الخطارة، وهي عبارة عن قناة شبه جوفية تتخللها أبار ارتوازية وتقوم القناة بنقل الماء من مكان مرتفع جوفي نحو مكان سطحي ومنخفض نسبيا. واعتمادا على الوثائق التاريخية، يمكن القول إن نظام الخطارة "كان موجودًا من قبل في الحجاز، وإيران، وأرمينيا، وتوات، وتافيلالت. كان الطوارق يسمونه أفلي، والأمازيغ أفري.. وكانت الخطارة تطلق في الأندلس على عملية رفع الماء من الوادي بواسطة آلة رافعة أو عجلة أو أرجوحة.. ويتراوح طول الخطارة بمراكش بين ٥٠٠ متر و٥ كلم، وقد تصل آبارها المفتوحة للترميم والصيانة إلى ٣٠٠ بئر يبعد الواحد عن الأخر بحوالي ١٠ إلى ٢٠ م"[٩].

الوسيلة الثانية تتمثل في الآبار حيث يجلب منها الماء بواسطة الدلو أو أغرور .ويشير محمد بن الحسن الوزان إلى أنه بسجلماسة "كثيرًا ما يجف النهر في هذا الفصل [يقصد فصل الصيف] من السنة، ويقل الماء جدًا بحيث لا يجدون غير الماء المالح المستخرج من الآبار المحفورة باليد"[١٠]. ويذكر ابن خلدون أن المناطق التي استوطنها عرب المعقل من أولاد حسين من ذوي منصور، وخاصة منها سجلماسة "كانت تعرف طريقة في استنباط المياه الجارية لا توجد في تلول المغرب حيث تحفر البئر عميقة بعيدة المهوى وتطوى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر إلى حجارة صلدة"[١١]. ويتراوح عمق الآبار المستغلة بواسطة تقنية أغرور بين ١٠ و٢٠ مترا بينما يصل عرضها إلى حوالي متر ونصف. وحول جذور هذه التقنية يقول أحد الأساتذة "وإذا سلمنا بأن الخطارات من صنع قبائل زناتة.. فمن غير المستبعد أن يكون أغرور كذلك من صنعها، فيكون استعماله بمناطق سجلماسة قد بدأ احتمالاً مع قبائل مكناسة الزناتية، ثم تطور مع عرب المعقل الذين استولوا على هذه المجالات وأثروا في أحداثها ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي وحتى مشارف العصور الحديثة"[١٢]. وإذا كانت المصادر التاريخية لا تقدم تفاصيل أكثر عن هذه التقنيات خلال عصر سجلماسة؛ فإن محمد بن الحسن الوزان ينفرد بذكر" أن سجلماسة كانت مدينة متحضرة جدًا دورها جميلة وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع السودان وكان فيها مساجد ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤها من النهر تأخذه ناعورات من وادي زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة"[١٣].

وبفضل توفرها على الماء، عٌرفت سجلماسة بمنتوجاتها الفلاحية المتنوعة إلى جانب الصنائع وتجارة القوافل المسالكية. وتشير المصادر التاريخية أن مؤسس المدينة وحاكمها الأول عيسى بن يزيد الأسود (٧٥٧ – 772 م) كان أول عمل قام به بعد تخطيط المسجد الجامع ودار الإمارة هو شق القنوات المائية لتزويد المدينة بالماء وتشييد البساتين والحدائق، قبل أن يقوم بتوطين السكان على الأحياء حسب انتمائهم العرقي. وأثر النشاط الاقتصادي على تنظيم المدينة وطبيعة السكن بها، فقد كانت عبارة

عن حاضرة مجمعة تمتد على طول وادي زيز، وتنتشر بضاحيتها بنايات متفرقة يستقر بها عدد من الفلاحين. ففي الجانب الاقتصادي، تكون مصادر المياه ووسائل الإنتاج مشتركة ويتم توزيعها بدقة، ويتجلى ذلك في تجاور الحقول. والأكثر من هذا غالبًا ما يوزع الحقل الواحد بين مالك الأرض ومالك الشجر ومالك حق السقي. فالماء الذي يتم التحكم فيه بواسطة السواقي والخطارات وعبر تنظيمات وأعراف محلية، يعتبر من المشاغل الأساسية لسكان تافيلالت منذ عهد سجلماسة. ذلك "أن الظروف البيئية والمناخية القاسية التي كانت تعاني منها المنطقة جعلت سكان الواحات مؤهلين أكثر من غيرهم لابتكار تقنيات استنباط المياه الجوفية... من هنا كانت تقنية أغرور كما هو الشأن بالنسبة لتقنية الخطارة وليدة حاجة السكان للماء الجاري بصفة مستمرة لممارسة النشاط الزراعي بشكل منظم دون الاعتماد فقط على مياه الفيضانات التي يغلب عليها طابع التذبذب والموسمية".[١٤]



شكل (٢)

صورة جوية لمنطقة سجلماسة

٢-سجلماسة والماء في المصادر المكتوبة

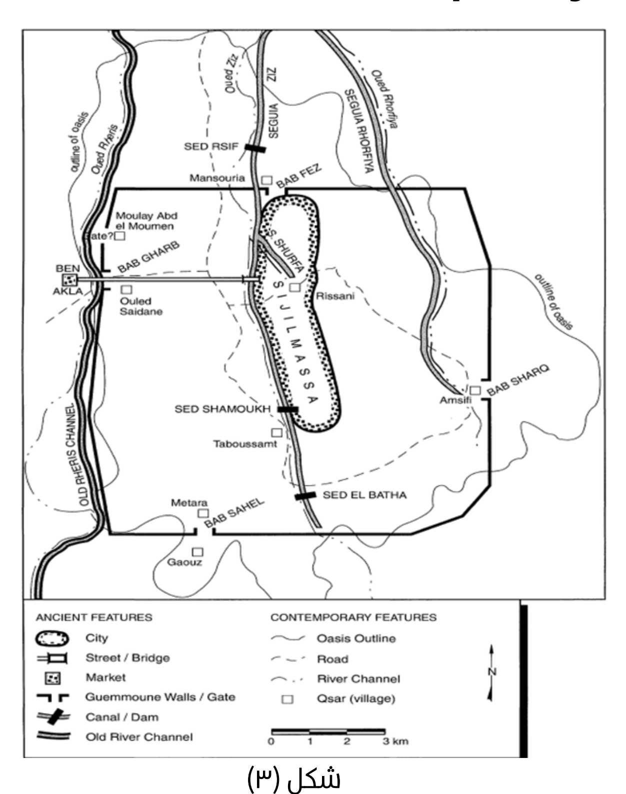
المؤرخون والرحالة العرب، وإن كان القليل منهم قد زار سجلماسة فعليًا، اعتبروها كمدينة كبيرة ومنطلق لتجارة الذهب وكثيفة السكان، وتحيط بها أرباض وحدائق خضراء، كما تواجدت بها قصور وبنايات عالية على ضفاف نهرين يحدها من الشرق ومن الغرب. فالبكري يقول: "ومدينة سجلماسة مدينة سهلية أرضها سبخة، حولها أرباض كثيرة وفيها دور رفيعة ومبان سرية ولها بساتين كثيرة...وهي على نهرين وعنصرهما من موضع يقال أجلف تمده عيون كثيرة، فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها"[١٥]. ويصفها الإدريسي قائلاً: "وأما مدينة سجلماسة فمدينة كبيرة وكثيرة العامر وهي مقصد الوارد والصادر، كثيرة الخضر والجنات رائقة البقاع والجهات ولا حصن عليها وإنما هي قصور وديار وعمارات متصلة على نهر كثير الماء"[١٦]. من جانبه يقدم العمري صورة كبيرة عن سجلماسة بقوله: "فهي مدينة ضخمة في جنوب مدن المغرب الأخرى بجوار الصحراء الكبرى وهي من أكبر المدن بالمغرب والأكثر ازدهارا في العالم. يخترقها نهر كبير وتتوفر على قصور متينة ومباني عالية وأبواب مرتفعة، الهواء بها طاهر نظرا لقربها من الصحراء"[١٧].

وأورد المقدسي وصفا أكثر دقة، إذ يشير إلى أن سجلماسة "قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها يفرغ في قبليها وهي طولانية نحو القبلة عليها سور من طين وسطها حصن يسمى العسكر فيه الجامع ودار الإمارة، شديدة الحر والبرد، صحيحة الهواء، كثيرة الأعناب والزبيب والفواكه والحبوب والرمان والخيرات، كثيرة الغرباء، موافقة لهم يقصدونها من كل بلد وهي ثغر فاضل برستاقها معادن الذهب والفضة"[١٨]. ويذكر صاحب كتاب الاستبصار: "ولمدينة سجلماسة اثنا عشر بابا، ولها بساتين وهي كثيرة النخل والأعناب وجميع الفواكه...وهي على نهرين من عنصر واحد في موضع يسمى أكلف، وتمده عيون كثيرة، ولهم مزارع كثيرة يسقونها من النهر في حياض كحياض البساتين"[١٩].

ويصف ابن الخطيب المدينة بقوله "تلك كورة، وقاعدة مذكورة، ومدينة محمودة مشكورة، كانت ذات تقديم، ودار ملك قديم، وبلد تبر وأديم، ومنمى تجر ومكسب عديم، معدن التمر، بحكمة صاحب الخلق

والأمر، تتعدد أنواعه فتعيى الحساب، وتجم بها فوائده فتحسب الاقتناء والاكتساب...فمنازلها ى تنال بهوان، وفدنها ودمنها تحت صوان، ونخلها تطل من خلف جدار، وتتبوأ الأيمان والدار، وحللها مبثوثة بين الدمن، وضياعها تتملك على مر الزمن، وسوائمها آلفة للسمن، موجودة بنزر الثمن، وفواكهها جميمة، ونعمها عميمة..."[٢٠]. ويذكر القلقشندي أن سجلماسة "كثيرة العمارة.. على نهر كثير الماء.. ويزرع على مائه كما يزرع على ماء النيل والزرع فيه كثير الإصابة، والمطر عندهم قليل، فإذا كانت السنة كثيرة الأمطار نبت لهم ما حصدوه في العام القادم من غير بذر"[٢١].

أما ابن بطوطة فيشبه المدينة عندما زارها سنة (٧٥٢ ه/١٣٥٢م) بالمدن الصينية: "وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي بلدة سجلماسة ببلادنا"[٢٢]. ويشير محمد بن الحسن الوزان الذي استقر بضعة أشهر بالمنطقة [حوالي سنة ٩١٨ ه/١٥١٦ م]، إلى أن سجلماسة "شيدت فوق هضبة على نهر زيز وكان يحيط بها سور عال ما زالت بعض أجزائه ظاهرة وكانت لها نافورات كثيرة يأتي ماؤها من النهر. وكان بها ناعورات كبيرة تحمل هذا الماء من زيز وتطلقه في قنوات تحمله إلى المدينة"[٢٣].



شكل (٣)

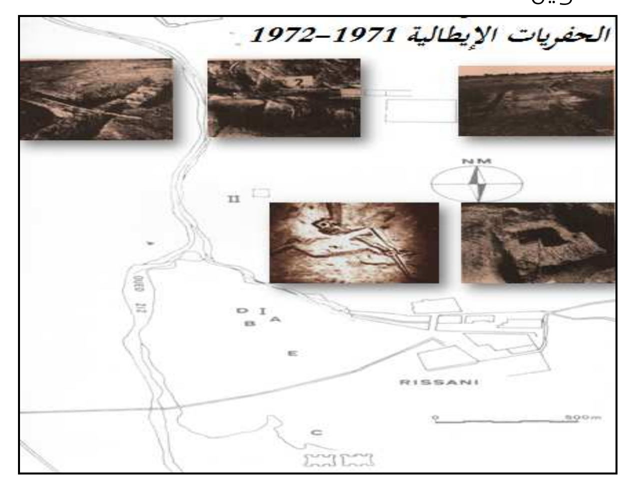
أهمية استغلال الماء في سجلماسة

٣-أهمية الماء في سجلماسة وفق الحقائق الميدانية

قدمت الأبحاث الأركيولوجية بموقع سجلماسة عدة نتائج مهمة لم ترد بالمصادر التاريخية ومنها المنشآت الإنتاجية من حيث تمركز معاملها وتطورها ومنتجاتها والأدوات المستعملة. ولعل من أكثر اللقى الخزفية مثلاً التي تم العثور عليها خلال الحفريات الأثرية بدءًا بالبعثة الإيطالية سنة ١٩٧١ وانتهاءً بالبعثة الفرنسية حاليًا ومرورًا بالبعثة المغربية سنة ١٩٧٤ وأبحاث مركز الدراسات والبحوث العلوية سنتي ١٩٩١ و١٩٩٢ والبعثة الأمريكية ما بين ١٩٨٨ و١٩٩٨ يمكن التأكيد على أن أواني الماء المتمثلة في القلل والجرات والخوابي فضلاً عن القواديس هي السائدة بامتياز. كما كشفت التحريات الأثرية أيضًا عن بعض التجهيزات المائية كالسدود وشبكة من القنوات التي تقوم بتوزيع الماء على عدة أماكن داخل المجال الأوسط لموقع سجلماسة، فضلاً عن الأحواض والخطارات وغيرها. كما ساهمت هذه الأبحاث بالرغم من محدوديتها في الزمان والمكان من تحديد وظيفة البناية التي اكتشفت وسط وادي زيز، والتي يفترض أنها عرفت مرحلتين من الاستغلال: الأولى ربما كحمام عمومي والذي تعبر عنه الطبقات الأثرية السفلى التي يتراوح عمقها بين متر واحد ومترين ونصف أمتار؛ المرحلة الثانية: تمثلها الطبقات العُليا وهي عبارة عن حوض وقناة مائية، وهما يشكلان ولا شك أجزاء من الناعورة ترتبط بشبكة مائية كانت تزود مرافق سجلماسة أو القصبة السجلماسية بما تحتاجه من المياه سواء المستعملة في الشرب أو السقي.

غير أن الحقيقة المهمة في المجال السجلماسي التي لم تثر اهتمام النصوص المكتوبة والرواية الشفوية فتتمثل في عملية تحويل وادي زيز إلى شكل مجرى اصطناعي يخترق وسط الواحة ويمر بالقرب من موقع سجلماسة. المجال النهري الحالي بتافيلالت يتضمن ثلاث أودية تعبر الواحة من الشمال إلى الجنوب وتتقارب كثيرًا شمال الواحة لتفترق من جديد في الجنوب قبل أن تلتقي لتشكل واد الدورة. فوادي زيز الذي يمر وسط الواحة، انقسم إلى سواقي تساير في معظمها الحد الغربي لموقع سجلماسة، بينما يجري وادي غريس على طول الهامش الغربي للواحة. هذا في الوقت الذي يتخذ

واد أمربوح "زيز الأصلي" الوجهة الشرقية للواحة بعد أن انفصل عن وادي زيز في شمال تافيلالت بالقرب من قصر أولاد الزهراء، ويلتقيان من جديد في جنوب الواحة. ويوضح كل من المسح الأثري والصور الجوية وصور الأقمار الاصطناعية، أن مجرى زيز على خلاف وادي غريس وواد أمربوح، يظل مستقيما وهو يعبر وسط واحة تافيلالت. ويؤكد هذا أن وادي زيز الحالي لا يمكن أن يكون طبيعيا خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار ما تم العثور عليه في موضع انفصاله عن واد أمربوح من بقايا ورش الأشغال والحجارة المستعملة في عملية التحويل.





شكل (٤)

القنوات المائية المكتشفة خلال التنقيبات الأثرية

٤-أثر الماء في خراب سجلماسة

تقدم الرواية الشفوية معلومات ضافية عن الموارد المائية وطرق استغلالها بسجلماسة. فالصورة المحتفظ بها هي أن الواحة كانت محاطة بسور وتوجد بها مدينة واحدة فقط. كما تشير الرواية المحلية أن القصور المنعزلة لم تكن موجودة، وأن الواحة لم تكن مقسمة إلى مشيخات وحقول فردية مثل اليوم وإنما كانت مجالاً فلاحيًا واحدًا واسعًا يؤمن للمدينة حاجاتها الكافية من المواد الغذائية.

الذاكرة الشعبية المحلية بأن عيون سجلماسة كانت كثيرة ومتنوعة أهمها عين تمدرين التي عمل السلطان الأكحل على تغويرها عند حصاره لسجلماسة وذلك قصد التحكم في سكانها حتى يؤدوا ما ذمتهم من الضرائب والكلف. وحسب الرواية الشفوية عرفت سجلماسة تدهورًا مستمرًا بفعل حصارها من طرف أبي الحسن المريني الملقب بالسلطان الأكحل الذي قام بتغوير عين تمدرين الواقعة على بعد ثلاثين كيلومترا شمال المدينة، والتي كانت تزودها بما تحتاجه من المياه الوافرة لسقي الحقول الزراعية. وكان لذلك تأثيرًا سلبيًا على قاعدتها الاقتصادية عامة والفلاحية على الخصوص بفعل تغوير عيونها الطبيعية والتي تشكل منبع الحياة بالمنطقة. وإلى ذلك يشير صاحب الاستقصا "أن أهل سجلماسة اختلفوا مع السلطان الأكحل فحاصرها واشتغل بتغوير ماء العين التي تسقى منها، فكان ذلك سببا في خلائها"[٣٤].

ويذكر محقق كتاب الأنوار الحسنية أن السلطان أبا الحسن علي بن عثمان المريني الشهير بالسلطان الأكحل ودفين شالة بالرباط (المحرم ٧٣١هـ / ١٣٣١م إلى ٧٥١هـ / ١٣٥١م) حارب "سجلماسة حيث غور العين التي هي عماد أهل سجلماسة في حياتهم الزراعية وهي العين المعروفة اليوم بـ "عين تيمدرين" القريبة من أرفود والتي حفر حولها مائة بئر، ثم طمسها بالصوف والقطران والرمال"[٣٥]. أمام هذه الحالة المستعصية عن الفهم، تطرح عدة إشكاليات لا نجد لها أجوبة مقنعة عند السكان المحليين ومنها: إلى أي حد، استطاع السلطان الأكحل عبر مراقبة موارد مياه زيز، من التحكم في نوع نظام السقي، وفي بسط سيطرته على المدينة؟ كيف قام هذا السلطان بتغوير عين تمدرين؟ وهل الوضعية السياسية كانت بالفعل سيئة إلى درجة أن السجلماسيين أرادوا الفرار من مدينتهم؟

من جهة أخرى، حددت الرواية الشفوية ثلاثة سدود وشبكة من السواقي المرتبطة بوادي زيز والتي شيدت قصد تحويل مياه هذا الوادي خلال فترة

سجلماسة، وبالتالي تطوير نظام الري وتوسيع المجال الفلاحي بالواحة. هذه السدود هي: سد الرصيف في الجزء الشمالي للواحة، سد البطحاء وهو أكبرها في أقصى الجنوب، سد الشموخ في الحدود الجنوبية للآثار المتبقية حاليًا من موقع سجلماسة. أما السواقي المهمة فهي: الغرفية وتتفرع عن وادي زيز في الشمال قصد سقي الحقول الواقعة في شرق الواحة. الشرفاء تتفرع عن وادي زيز في شمال القصبة السجلماسية لسقي المناطق الوسطى من الواحة [واد إيفلي سابقًا]. كما توجد سواقي صغيرة تتفرع عن هذه السواقي الكبيرة وعن وادي زيز ووادي غريس.

وأثبتت الدراسة الطبوغرافية والرواية الشفوية والدراسة الجيومورفولوجية من كون سجلماسة تعرضت لفيضانات مهولة مما أدى إلى تخريبها بالكامل. ذلك أن التوضعات النهرية بالمنطقة أدت إلى تزايد مستوى سطح الواحة بنسبة متر واحد تقريبا كل مائة سنة، ليتساوى بذلك تقريبًا مع مستوى الربوة التي أسست فوقها مدينة سجلماسة أول الأمر. فلما تعرضت لفيضان كبير أتى ذلك على كل معالمها العمرانية، خاصة وأن معظم بناياتها شيدت من الطابية. وهذا ما يؤيده أحد الباحثين، إذ يقول "اندثرت مدينة سجلماسة في نهاية القرن الرابع عشر الميلادي/ الثامن للهجرة، ربما نتيجة تخريبها بواسطة فيضانات غير عادية لنهري زيز وغريس، فتفرق سكانها على الأماكن والقصور المحصنة بالواحة"[٢٦].

خَاتمَةُ

أكدت الأبحاث الأركيولوجية والجيولوجية بموقع سجلماسة الأثري واستنادًا إلى ما ذكرته المصادر التاريخية وخاصة البكري، على أن مدينة سجلماسة كانت تحيط بها المياه من كل النواحي، وأن المدينة كانت في الحقيقة مبنية فوق موقع مرتفع يتكون من صخور ترجع إلى العصر الجيولوجي الأول، وأن هذا الموقع كان يشرف على واحة كانت تغمرها مياه السيول، ومياه وادي زيز، وأن التّدني الحالي لموقع سجلماسة يرجع إلى الترسبات التي تركتها السيول في الواحة خلال تعاقب مختلف العصور التاريخية، ويصل سمك طبقتها في بعض الأحيان إلى (٣٠) مترًا.

وتجدر الإشارة إلى أن الكتابات القديمة والدراسات المعاصرة وحتى الرواية الشفوية لم تذكر بتاتًا عملية تحويل مياه وادي زيز عن طريق شق قنوات وإقامة سدود تلية للاستغلال الجيد للمياه. وتوضح صور الأقمار الاصطناعية أن الطبقات الجيولوجية الواقعة تحت موقع سجلماسة وخاصة القريبة منها من السطح جد غنية بفرشات مائية مهمة. كما تمكنت هذه الصور من تحديد موضع العين الرئيسة للماء بسجلماسة على طول الحافة الشمالية لمرتفع "الجبيل"، غير أن مياهها لم تكن كافية، وهذا ما يفسر لجوء السكان إلى بناء سدود تلية على نهري زيز وغريس لتلبية حاجيات الواحة بشكل أفضل. كما كشفت تلك الصور عن تركز الأراضي الصالحة للزراعة وأهم الأنشطة الفلاحية بالجزء الشمالي من الواحة بفعل غناه إلى المياه الجوفية بالمقارنة مع الجزء الجنوبي.

الهَوامِشُ:

(١) البكري (أبو عبيد الله بن عبد العزيز بن محمد): **كتاب المسالك والممالك**. تحقيق أدريان فان ليوقن، أندري فيري، قرطاج، بيت الحكمة، الدار العربية للكتاب، جزءان ١٩٩٢ (ص ٨٣٦).

(2) Fagnan (Eugène): **Extraits Inédits relatifs au Maghreb, géographie et histoire**. Alger 1924 (p 54).

(٣) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن وحيد الكاتب): **كتاب البلدان**، القاهرة، المطبعة الحيدرية ١٩٥٧ (ص ١١٠).

(٤) ابن حوقل (أبو القاسم محمد النصيبي): **صورة الأرض**، بيروت، مكتبة الحياة، الطبعة الثانية ١٩٩٢ (ص ٩٠).

(٥) مارمول (كاربخا): **إفريقيا**. تعريب محمد حجي، ومحمد زنيبر، ومحمد الأخضر، وأحمد التوفيق وأحمد بنجلون الرباط، مكتبة المعارف ١٩٨٤، نشر الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ج:١ (ص ٤٦).

(6) Joly (Fernand): **Etudes sur le relief du Sud-Est marocain**. Rabat, imprimerie de l'Agdal, 1962.p291.

(٧) ابن الخطيب (لسان الذين): **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام**، الدار البيضاء، نشر إبراهيم الكتاني، ١٩٦٤ (ص ١٣٩).

(٨) محمود إسماعيل (عبد الرزاق): **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري**. الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة ١٩٨٥ (ص ١١٨)

(٩) جلاب (حسن): "من تاريخ الماء وأساليب الري والتوزيع بمراكش"، **دعوة الحق**، العدد: ٢٦٥ شوال-ذو القعدة ١٤٠٧هـ/ يونيو-يوليو ١٩٨٧ (ص ٧٨).

(١٠) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): **وصف إفريقيا**. تحقيق وترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر. الرباط، الشركة المغربية لدور النشر المتحدة، جزءان ١٩٨٢، ج ٢ (ص ١٢٦).

(١١) ابن خلدون (عبد الرحمن): **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر من تاريخ العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**. بيروت، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨١، الجزء السابع (ص ٧٧- ٧٨).

(١٢) حافظي (علوي حسن): **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن الهجري / الرابع عشر الميلادي**. المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ١٩٩٧. (ص ٨٠).

(١٣) الوزان محمد بن الحسن الفاسي، المصدر السابق (ص ١٢٧).

(١٤) عبد اللوي علوي (أحمد): **مدغرة وادي زيز، إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث**، المحمدية، مطبعة فضالة، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، جزءان ١٩٩٦. الجزء ١ (ص ١٠٢).

(١٥) البكري (أبو عبيد الله): المصدر السابق (ص ٨٣٦).

(١٦) الإدريسي (أبو عبد الله بن محمد بن إدريس): **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، حققه دوزي ودي كوخ بعنوان": **المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس**"، ليدن، مطبعة بريل 1864 (ص ٤٦).

(١٧) العمري (ابن فضل الله أحمد بن يحيى، **مسالك الأبصار في ممالك الأمصار**): تحقيق مصطفى أبو ضيف. الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٩٨٨ (ص ٢٥٠)

(١٨) المقدسي (شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر): **كتاب أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، دمشق، مطبعة وزارة الثقافة والإرشاد القومي 1980، (ص ٢٣١).

(١٩) مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار وصف مكة والمدينة ومصر وبلاد المغرب**. تحقيق سعد زغلول عبد الحميد. الدار البيضاء، دار النشر المغربية ١٩٨٥ (ص ٢٠٠-٢٠١).

(٢٠) ابن الخطيب (لسان الدين محمد السلماني): **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق محمد كمال شبانة. المحمدية، مطبعة فضالة، ١٩٧٦ (ص ١٨١).

(٢١) القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي الفزازي): **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق محمد قنديل البقلي، القاهرة، المؤسسة المصرية، (ص ١٦٤).

(٢٢) ابن بطوطة (شمس الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله اللواتي الطنجي): **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**. تقديم وتحقيق عبد الهادي التازي. الرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة التراث ١٩٩٧ المجلد الرابع (ص ٢٣٩).

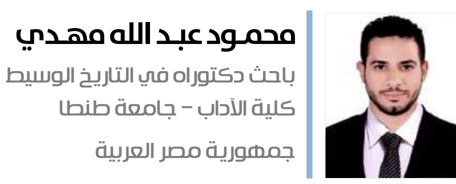
(٢٣) الوزان (محمد بن الحسن الفاسي): المصدر السابق (ص ١٢٦).

(٢٤) الناصري (أبو العباس أحمد خالد): **الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الدار البيضاء، دار الكتاب، الجز الثالث ١٩٥٤، ص: ١٢٠.

(٢٥) المدغري (أحمد ابن عبد العزيز ابن الحسن): **الأنوار الحسنية**، تحقيق عبد الكريم الفيلالي، الرباط، ١٩٦٦، ص: ٩٢ الهامش رقم: ١.

(26) Jacques-Meunié (Djinn): **Le Maroc saharien des Origines à 1670, avec 55 documents photographiques**. Paris, édition C. Klincksieck 1982. (p 284)

العلاقات السياسية بين الفرنجة والبرجنديين في بلاد الغال (٤٩٠ – ٥٣٤م)



محمود عبد الله مهدي
باحث دكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب – جامعة طنطا
جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

يتميز تاريخ العصر الوسيط Middle Age (٤٧٦–١٤٥٣م) بأهمية كبيرة في حقل التاريخ عمومًا، والتاريخ الأوروبي على نحو خاص. وتأتي هذه الأهمية لأسباب متعددة: فهذه الحقبة التاريخية الطويلة تشكل حلقة متصلة وأساسية في فهم التاريخ الأوروبي الحديث واستمرارًا منطقيًا للتاريخ القديم بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في أواخر القرن الخامس الميلادي على أيدي القبائل الجرمانية. فغالبية التطورات التي حدثت في أوروبا منذ عصر النهضة والعصور اللاحقة، تستمد أصولها من التاريخ الوسيط. ومن الأحداث الهامة في تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام عدد من الممالك الجرمانية على انقاض الإمبراطورية الرومانية مثل مملكة البرجنديين في جنوب شرق غاله، مملكة القوط الغربيين في جنوب غاله وإسبانيا، مملكة الفرنجة في غاله ومملكة القوط الشرقيين في شبة الجزيرة الإيطالية، وقد كان لمملكة الفرنجة أهمية خاصة، تلك المملكة التي غيرت وجه التاريخ الأوروبي في مطلع العصور الوسطى؛ لأنها المملكة الوحيدة التي استطاعت البقاء في أوروبا على حساب الإمبراطورية الرومانية، بعد أن نجحت في مزج الحضارة الرومانية بعادات الفرنجة. وقد كان لمملكة الفرنجة العديد من العلاقات السياسية الخارجية مع الممالك الجرمانية المجاورة. وقد وجدت عدة علاقات سياسية بين الفرنجة والبرجنديين ما بين علاقات ودية وتحالفات ومصاهرات سياسية تارة، وعلاقات عدائية تارة أخرى بلغت في أوقات كثيرة حد المواجهات العسكرية والحروب وانتهت العلاقة بينهما في النهاية باستيلاء الفرنجة على مملكة البرجنديين والقضاء عليها عام ٥٣٤م. وتتمثل أهمية الدراسة في رصد وتحليل العلاقات السياسية التي قامت بين الفرنجة والبرجنديين، وذلك من خلال المصادر التاريخية المرتبطة بهذه الفترة لاستجلاء وإبراز طبيعة هذه العلاقات حتى قضاء الفرنجة على مملكة البرجنديين والاستيلاء عليها عام ٥٣٤م مما أدى إلى توسيع مملكة الفرنجة وازدياد سياستها الخارجية مع القبائل الجرمانية الأخرى.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ نوفمبر ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ١٢ مارس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الفرنجة، البرجنديين، بلاد الغال، غالة، الجرمان، كلوفس، جندوباد

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055401

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمود عبد الله مهدي عبد الحافظ. "العلاقات السياسية بين الفرنجة والبرجنديين في بلاد الغال: (٤٩٠ – ٥٣٤م)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٦٤ – ٨٥.

مُقَدِّمَةٌ

من الأحداث الهامة في تاريخ الغزوات الجرمانية هو قيام عدد من الممالك الجرمانية على انقاض الإمبراطورية الرومانية مثل مملكة البرجنديين في جنوب شرق غاله، مملكة القوط الغربيين في جنوب غاله وإسبانيا، مملكة الفرنجة في غاله ومملكة القوط الشرقيين في شبة الجزيرة الإيطالية، وقد كان لمملكة الفرنجة أهمية خاصة، تلك المملكة التي غيرت وجه التاريخ الأوروبي في مطلع العصور الوسطى؛ لأنها المملكة الوحيدة التي استطاعت البقاء في أوروبا على حساب الإمبراطورية الرومانية، بعد أن

نجحت في مزج الحضارة الرومانية بعادات الفرنجة. وقد كان لمملكة الفرنجة العديد من العلاقات السياسية الخارجية مع الممالك الجرمانية المجاورة. وقد وجدت عدة علاقات سياسية بين الفرنجة والبرجنديين ما بين علاقات ودية وتحالفات ومصاهرات سياسية تارة، وعلاقات عدائية تارة أخرى بلغت في أوقات كثيرة حد المواجهات العسكرية والحروب وانتهت العلاقة بينهما في النهاية باستيلاء الفرنجة على مملكة البرجنديين والقضاء عليها عام ٥٣٤م.

وتتمثل أهمية الدراسة في رصد وتحليل العلاقات السياسية التي قامت بين الفرنجة والبرجنديين، وذلك من خلال المصادر التاريخية المرتبطة بهذه الفترة لاستجلاء وإبراز طبيعة هذه العلاقات حتى قضاء الفرنجة على مملكة البرجنديين والاستيلاء عليها عام ٥٣٤م مما أدي إلى توسيع مملكة الفرنجة وازدياد سياستها الخارجية مع القبائل الجرمانية الأخرى. وللحديث عن هذه العلاقات لابد أولاً من التعرض لأصل كلا من الفرنجة والبرجنديين وتوضيح نشأة مملكتي الفرنجة والبرجنديين وذلك قبل الحديث عن العلاقات السياسية بينهما.

١-نشـأة مملكة الفرنجة في بلاد الغال

يُعَدّ الفرنجة احد العناصر الجرمانية الغربية، وقد ورد أول ذكر للفرنجة في القرن الثالث الميلادي، وكان فلافيوس فوبيسكوس Flavius Vopiscus من أوائل الكُتاب الذين ذكروا الفرنجة، حيث سجل في كتابه أن الإمبراطور الروماني أورليان Divus Aurelinus Aurelian (٢٧٠-٢٧٥م) قاتل الفرنجة في مقاطعة ماينز Mainz . واقدم ذكر للفرنجة موجود في نقش Chamvi qui et Franci في لوحة بويتنجر[١] Peutinger Table، ويؤكد هذا النقش إن الفرنجة استقروا شمال الراين الأدنى[٢]. وكان أول ملوك الفرنجة المعروفين هو الملك كلوديو Chlodio (حوالي٤٢٨-٤٤٨م) الذي انتصر على القوات الإمبراطورية، واستولى على مدينة كامبريا Cambria عام ٤٣٨م ، ثم استولى على البلاد الوقعة على نهر السوم[٣] Somme غربًا، واتخذ من مدينة تورناى[٤] Tournai عاصمة له[٥]. وبذلك يمكن القوك أن الملك كلوديو وضع اللبنة الأولى لمملكة الفرنجة.

وقد خلف الملك كلوديو على عرش الفرنجة بعد وفاته الملك ميروفتش Merovech (٤٤٨-٤٥٦م)، الذي تنتمى إليه الأسرة الميروفنجية، وبرز اسمه خلال تصدي الفرنجة والرومان لموجة الهون بقيادة أتيلا (٤٤٥-٤٥٣م)، ويروي المؤرخ جوردان أن الفرنجة بقيادة ميروفتش حاربوا بشجاعة فائقة جديرة بأصلهم[٦]. وقد توفي الملك ميروفتش سنة ٤٥٦م، فخلفه ابنه الملك شلدريك Cheldric (٤٥٦-٤٨١م)، وكان حاكمًا نشيطًا، حافظ على صلة قومه بالإمبراطورية الرومانية، وساعد القائد الروماني بول Powl في قتال السكسون[٧]Saxon. وفي الوقت ذاته، اتبع شلدريك سياسة توسعية، فتقدم نحو اللوار، واستولى على انجرز Angers على سواحل الغال، بعد طرد السكسون[٨].

خلف كلوفس Clovis (٤٨١-٥١١م) والده شلدريك على عرش الفرنجة، وكان في السادسة عشر من عمره، وقد حاول كلوفس توطيد وضع مملكته الناشئة فبدأ أول نشاطه في غالة بتوجيه ضربة ساحقة لسياجريوس[٩]Siagrius الحاكم الرومانى لبلاد الغال و الذي كان يمثل الأرستقراطية الرومانية القديمة، حيث كان سياجريوس يحكم مملكة تضم كلا من ريميس، بروفانس، سونس Sens ، تروي Troyes وشالون[١٠] واوكسيرAuxerre ، ويتخذ من مدينة سواسون Soissons[١١] عاصمة له، وبذلك سيطر سياجريوس على الأراضي التي تمتد من سواسون في الشرق إلي حدود بريتاني[١٢] Bretagne في الغرب ومملكة القوط الغربيين في الجنوب، وهي مساحة شاسعة تمثل وسط بلاد الغال ذات الأهمية الاستراتيجية في تلك الفترة[١٣]. وعلى هذا الأساس سعي الملك كلوفس لحشد قواته والقضاء على سياحريوس، وقام كلوفس بالتحالف مع راجناشار[١٤] Ragnachar ملك كامبرى، وسار إلي سواسون عاصمة سياجريوس وأنزل به هزيمة ساحقة، وبذلك قضى كلوفس على أخر اثر للسلطة الرومانية في الغرب في معركة سواسون Bataille De Soisson سنة ٤٨٦م[١٥].

بعد القضاء على سياجريوس قام كلوفس بنقل عاصمته إلي باريس[١٦]. واستطاع الملك كلوفس أن يوسع سيطرته على انحاء بلاد الغال كلها فيما عدا برجنديا Burgundy وسبتمانيا[١٧] Septimania وبروفانس[١٨] Provence، وبذلك مهد السبيل لقومه للانتشار فوق الجهات الشمالية من غالة، وهكذا نجد أن الملك كلوفس نجح في تأسيس مملكة فعليه للفرنجة في غالة.

٢-نشأة مملكة البرجنديين فى جنوب شرق غالة

البرجنديون Burgundians هم أحد الشعوب الجرمانية الشرقية، وقد هاجروا من موطنهم الأصلي في شبه جزيرة اسكنديناوة من جزيرة (Bornholm) بورنهولم التي احتفظت باسمهم Burgunarholm[١٩]، واستقروا بين نهري الاودر والفستولا في القرن الأول الميلادي، وفي حوالى سنة ١٥٠م نزحوا إلى سيليزيا Silesia(ببولندا حاليًا)، ثم اتجهوا ناحية الجنوب في نهاية القرن الثاني الميلادي ودخلوا وادي نهر الماين Main[٢٠] ثم شقوا طريقهم إلى حوض نهر الراين فبلغوه في نهاية القرن الرابع الميلادي، واستقروا هناك فترة من الزمن[٢١].

تولى عرش البرجنديين الملك جنديكار Gundicar (٤١١-٤٣٧م) في تلك الفترة، الذي ساعد الإمبراطور (Jovinus) جوفيان (٤١١-٤١٣م) في الوصول لعرش الإمبراطورية الغربية عام ٤١١م وحكم بلاد الغال، بعد الإطاحة بالإمبراطور قسطنطين الثالث (٤٠٦-٤١١م)[٢٢]، وقد حكم جوفيان الإمبراطورية لمدة عامين، وكنتيجة على مساعدة البرجنديين له أن سمح لهم بالاقامه على الضفة اليسرى لنهر الراين حول ورمز Worms[٢٣] وسبايرSpeyer وماينز Mainz وستراسبورج Strasbourg[٢٤]، وفي عام ٤١٣م اتخذوا من مدينة ورمز عاصمة لهم، وأصبحوا معاهدين Foederati للإمبراطورية الرومانية[٢٥]. وبذلك استطاع البرجنديين تأسيس نواة لمملكتهم في جنوب شرق غاله. ولكن لم يكتفي البرجنديين بتلك المناطق الصغيرة ولم يجنحوا للسلم، وبدلاً من ذلك قاموا بإغارات على المناطق المجاورة لهم، وقاموا بأعمال سلب ونهب على جيرانهم، مما دفع القائد إيتيوس قائد جيوش الإمبراطورية الغربية أن يحرض عليهم جنوده المرتزقة من الهون الذين اشتبكوا معهم، وانزلوا بهم هزيمة فادحة أدت إلى مقتل ملكهم جنديكار سنة ٤٣٧م، ففروا إلى منطقة الرون الأعلى وفقدوا مملكتهم الصغيرة[٢٦].

وقرب منتصف القرن الخامس الميلادي استطاع البرجنديين إعادة تأسيس المملكة البرجندية من جديد، فتولى الملك جنديوك Gondioc (حوالى ٤٣٧-٤٧٣م) عرش المملكة، وهو من سلالة الملك اثناريك Athanaric القوطي[٢٧]، وقد تزوج شقيقة القائد ريكيمير Ricimer[٢٨]، واستطاع مصالحة الإمبراطورية الرومانية التي سمحت لهم بالنزول في منطقة سابوديا[٢٩] Sapaodia قرب نهر الساءون عام ٤٤٣م كمعاهدين للإمبراطورية الرومانية[٣٠]. كما شارك البرجنديون بقيادة ملكهم جنديوك القائد إيتيوس جهوده في صد الهون حينما تطرقوا إلى غالة في موقعة شالون ٤٥١م، وأفادوا من هذه المشاركة فحصلوا على سلام أمتد عدة سنوات حتى وفاة القائد إيتيوس والإمبراطور فالنشيان الثالث Valentinian III سنة ٤٥٥م[٣١]، وفي سنة ٤٥٦ دخلوا في خدمة الإمبراطورية في غالة، وقاموا بحملة عسكرية ضد السويفيين في إسبانيا[٣٢].

بعد وفاة الملك جنديوك سنة ٤٧٣م احتل أبناؤه الأربعة مكان الصدارة وقيادة الأسرة الملكية الجديدة، وتم تقسيم المملكة فيما بينهم، فحكم جودمار الأول Godomar I (٤٧٣-٤٧٤م) في جنيف، وشلبريك الثاني Chilperic II (٤٧٣-٤٨٦م) في فيينا[٣٣] Vienne، وجوديجزل Godegisel (٤٧٣-٥٠٠م) في بيساكونBesancon، وجندوباد Gundabad (٤٧٣-٥١٦م) في ليون lyons[٣٤]. وقد لعب جندوباد دورًا كبيرًا في الاحداث السياسية في الغرب الروماني، فقد شارك في كثير من الأحداث السياسية في الإمبراطورية الغربية، حيث أشار حنا الانطاكي John of Antioche إلى أن جندوباد ساعد خاله ريكيمير في خلع الإمبراطور الروماني الغربي انثيميوس (٤٦٧-٤٧٢م) Anthemius وقتله عام ٤٧٢[٣٥]، فاصبح للبرجنديين دور مؤثر في السياسة الرومانية. كما نال جندوباد لقب بطريق وقائدًا عامًا للقوات الرومانية (٤٧٢-٤٧٣م) بعد وفاة ريكيمير على يد الإمبراطور الغربي اوليبريوس Olybrius[٣٦] عام ٤٧٢م[٣٧]، وذلك قبل أن يصبح جندوباد ملكًا على البرجنديين، ويحكم المنطقة الممتدة من سهول شامبين Champagne إلى الديورانس Durance[٣٨].

كما ساعد جندوباد الإمبراطور جليكريوس Glycarios (٤٧٣م) في اعتلاء عرش الإمبراطورية الغربية عام ٤٧٣م[٣٩]، ولكن لم تعترف به القسطنطينية واختارت بدلاً منه يوليوس نبوس Nepos (٤٧٣-٤٧٥م) ليعتلي عرش الإمبراطورية الغربية، لذلك فضل جندوباد العودة إلى غالة خاصة بعد وفاة والده ٤٧٣م[٤٠]، ويعلق إيان وود على رحيل جندوباد على أنه متعلق بقدوم الإمبراطور الجديد الذي يدعم من القسطنطينية[٤١]، ولكن يبدو من الأحداث اللاحقة أن جندوباد عاد ليسيطر على المملكة بعد وفاة والده. وبالفعل عاد الملك جندوباد إلى وادي نهر الرون، حيث

ارسى دعائم مملكة البرجنديين الناشئة في تلك الجهات، واحتل جندوباد وادى نهر الساءون الأوسط والأعلى حتى منابعهما[٤٢]. واستطاع الملك جندوباد السيطرة على المناطق من أفينون Avignon [٤٣] حتى بيساكون Besancon ولانجر Langre[٤٤]، وحاول أن يثبت أقدام البرجنديين في مواقعهم الجديدة، ويؤكد استقلال مملكتهم الناشئة، ولاسيما بعد أن غزا الفرنجة غالة، لكن يبدو أن البرجنديين كانوا اكثر توفيقًا في امتدادهم جهة الشرق والشمال، فقد نجحوا في إزاحة قبائل الألماني عن تلك الجهات والحلول محلهم[٤٥]. وبذلك نجح البرجنديين في تأكيد مملكتهم الجديدة في تلك الجهات. وفي نهاية القرن الخامس الميلادي استقرت مملكة البرجنديين في جنوب شرق غالة، وأصبحت تمتد من نهر الديورانس في الجنوب إلى مشارف شامبين في الشمال، ومن سفيني Cevennes إلى ريوس Reusse وأقام ملوكهم في ليون وفيينا Vienne وجنيف Jeneva وبيساكون وبصفة خاصة في جنيف وليون[٤٦].

٣-زواج الملك كلوفس من كلوتيلـدا البرجندية

اتسمت العلاقات السياسية بين الفرنجة والبرجنديين بالود منذ البداية، فكثيرًا ما كان يرسل كلوفس السفراء إلى برجنديا، وكان للملك شلبريك الثاني شقيق جندوباد اثنان من البنات، الكبرى تدعى كرونا Chrona[٤٧]، واتجهت للعمل الديني، بينما الصغرى تدعى كلوتيلدا Clotilda فقد استقرت في فيينا، وكانت تمارس الأعمال الخيرية التي أدت إلى شهرتها في المناطق المحيطة بها، ولعل ذلك يرجع إلى تعاطفها مع الفقراء والمساكين. وكانت كلوتيلدا وفقا لوصف جريجوري التوري لها: "امرأة صغيرة أنيقة، ذكية وموهوبة بالنسبة لسنها، بالإضافة إلى دمائها الملكية"[٤٨]. ووصلت سمعة الأميرة كلوتيلدا في تلك الحين لكلوفس ملك الفرنجة من قبل السفراء الذين يرسلون إلى برجنديا. وكانت إحدى هذه السفارات التي أرسلها الملك كلوفس إلى الملك جندوباد التي بمجرد أن رأى أعضاءها جمال كلوتيلدا وحكمتها، وعلموا أنها من عائلة الملك، أخبروا بعد عودتهم مباشرة الملك كلوفس بذلك. واشتدت رغبة الملك كلوفس الذي كان يبحث عن عروس له في ذلك الوقت بالزواج من الأميرة كلوتيلدا، بعد أن سمع عنها من قبل سفرائه[٤٩].

يعلق المؤرخ إيان ووود Ian wood على زواج كلوفس وكلوتيلـــدا Clotilda قائلاً: "إن نفوذ كلوتيلدا على العلاقات بين الفرنجة والبرجنديين من الصعب تحديده". إن الاعتراف بهذا الزواج لا يمكن أن يكون فهمه أفضل من المفهوم التقليدى لزواج التحالف[٥٠]، وذلك بسبب طبيعة مصادرنا المتاحة. كما تميل اغلب المصادر التاريخية لشرح ذلك الزواج وفقًا للتوقعات التقليدية للزواج السياسي، ثم النظر في كيف أن هذه المصادر أكدت على أهمية المكانة والهيبة في الزواج، وأخيرًا وضع الزواج في سياق الصراع الداخلي الذي كان يشنه الملك كلوفس ضد منافسيه الآخرين من الفرنجة، وليس في سياق التنافس السياسي الخارجي. وقد وضعت سيرة ميخائيل روتشي Michel Rouche عن كلوفس تركيزًا كبيرًا على الوضع الظالم بين كلوفس وكلوتيلدا، حيث أن كلوتيلدا أميرة برجندية، في حين كلوفس ليس أكثر من مجرد ملك سالي صغير[٥١]، هذا ما دعى ميخائيل روتشى على دعوه زواج كلوفس وكلوتيدا بأنه زواج من طبقة أعلى[٥٢].

والمصادر التي لدينا تؤكد عدم رغبة جندوباد ملك البرجنديين وعم الأميرة كلوتيلدا وولي أمرها على زواج كلوتيلدا إلى كلوفس، وقد وقع الزواج بين عامي ٤٩٠ و٤٩٤م وكان كلوفس لا يستطيع منافسة نفوذ جندوباد الذي كان حينَئِذ قائدًا للقوات الرومانية في برجنديا. وبقرب عام ٥٠٨م كان كلوفس على الأقل يعادله، إن لم يكن قد تجاوز ذلك النفوذ عندما تولى القنصلية الشرفية Counsilship من قبل الإمبراطور البيزنطي انستاسيوس الأول Anastasius I (٤٩١-٥١٨م). وقد تعددت الروايات حول زواج كلوفس من كلوتيلدا، وجاءت الرواية الأولى من قبل جريجوري التوري كالتالى: "وإلى برجنديا كان كلوفس يرسل السفراء من وقت إلى آخر، وقد شاهد هؤلاء السفراء كلوتيلدا ولاحظوا إنها فتاة صغيرة السن، ذكية، لطيفة وإن الدماء الملكية تجرى في عروقها، وقد أخبروا كلوفس بكل ما عرفوه، وعلى الفور أرسل كلوفس بعض السفراء إلى جندوباد يطلب الزواج منها، ولم يستطع جندوباد الرفض فوافق على الزواج وسلم كلوتيلدا إلى مندوبي كلوفس الذين عادوا بها وقدموها لملكهم. ورغم أن كلوفس كانت لديه محظية بالفعل التي أنجبت له ولدًا يدعى ثيودريك، فإنه تزوج كلوتيلدا بعدما شاهدها وأعجب بها"[٥٣].

وبذلك الدوافع الكاملة لبحث كلوفس عن زوجة له لم تكن واضحة هنا تمامًا، فقد كتب جريجوري التوري مؤلفه بعد عده عقود، وربما كان لديه معلومات قدمتها له كلوتيلدا بنفسها، حيث قضت عدة سنوات في مدينة تور Tours. هذا ربما يوضح لنا لماذا ركز جريجوري هنا في الغالب على توفير أسباب مطالبة كلوتيلدا في وقت لاحق بالانتقام من جندوباد لمقتل والديها؟[٥٤]. ومع ذلك فإن كلوفس استشعر قوة جندوباد، وعمل على إيجاده طريقة لإقناعه بالزواج من اِبنة شقيقه ذات الدم الملكي. وقد لاحظ إيان وود "إن أسقف مدينة تور لمح إلى اختيار كلوفس عروس معتقدًا السبب القلق"[٥٥] هذا القلق من قوة جندوباد وزيادة نفوذه وتقربه من الإمبراطور البيزنطي في الواقع جعل كلوفس يضغط على جندوباد للموافقة على زواج كلوتيلدا منه. ربما للتحالف معه عن طريق الزواج وتأمين حدود مملكته من ناحية الجانب البرجندي، وربما ليجعل هذا الزواج ذريعة لتدخله فيما بعد في مملكة البرجنديين وضمها لممتلكاته.

أما عن موعد الزواج، فقد حدد يوجين ويج Eugen Ewig زواج كلوفس وكلوتيلدا في وقت مما بين عامي ٤٩٢ و٤٩٤م[٥٦]، واستند في استنتاجه إلى حد كبير على الرجوع إلى تواريخ ولادة أطفال وأحفاد كلوتيلدا. واستند جوهريا على مشاركة حفيد كلوفس جونتر Gunther الأبن الأكبر لابن كلوفس الأصغر كلوثر الأول Chlother I في حملة أبيه ضد القوط الغربيين عام ٥٣٢م. ومن ذلك يوجين ويج يحسب أن جونتر ولد حوالي عام ٥١٧/٥١٨ وبالتالي كلوثر ربما ولد في موعد لا يتجاوز عام ٥٠١/٥٠٢، وبالتالي فإن زواج كلوفس وكلوتيلد يمكن أن يكون حدث قبل ٨ أو ١٠ أعوام وذلك بإعطائهم وقت لإنجاب أبنائهم الأكبر سنًا[٥٧]. ولكن حاول المؤرخ فان فيفر Van de Vyver إرجاع الزواج إلى ما بعد الحرب الأهليَّة بين جندوباد وجوديجزل Godegisel (٤٧٣-٥٠٠م) عام ٥٠٠/٥٠١م[٥٨] التي أعطته الدور لتسوية أي عدواه بين كلوفس وجندوباد من ذلك الصراع. ولكن هذا يبدو بعيد الاحتمال، ومع النظر إلى حسابات يوجين ويج لا يمكن أن يكون كلوثر قد ولد حوالي عام ٥١٠ كما يبرهن فان فيفر حججه، وذلك لما نعرفه عن كلوفس وعن أولاده، كما أن حجج فان فيفر تبرهن إجازة كثير من التوقعات التي تتعلق بالزواج في وقت مبكر من فترة العصور الوسطى ولا يمكن التغلب على براهين يوجين ويج[٥٩].

وبذلك فإن زواج كلوفس وكلوتيلدا قد حدث في النصف الأول من عام ٤٩٠م، وذلك بعد بضع سنوات من هزيمة سياجريوس في معركة سواسون عام ٤٨٦م، وقبل سنوات قليلة من اِنتصاره على الألماني، البرجنديين والقوط الغربيين عام ٤٩٦، ٥٠٢ و٥٠٧/٥٠٨ على التوالى، ويبدو أنه ينتمي إلى فترة توليه الحكم في شمال الغال وبداية تحركاته التوسعية ضد التهديدات الخارجية الكبيرة. تلك الفترة التي يجب أن تشملها محاولة لتوسيع نفوذه من خلال جذب المزيد من المحاربين إلى جانبه، ومن خلال تقوية نفوذه من أجل كسب مزيدًا من الحلفاء سواء في حملاته الداخلية أو الخارجية. وبذلك يُعد الزواج من كلوتيلدا مناسبًا تمامًا لهذه البيئة. كما اقترح المؤرخ يوجين ويج أن الملك كلوفس توقع إن الملوك الفرنجة الآخرين سوف يدخلون في مصاهرات أجنبية لذلك نهض وقام بالمنافسة على القيادة الفرنجية[٦٠]. إذًا كلوفس بهذا الزواج لابد وأنه فاق جميع الملوك الفرنجة الآخرين الذين على الأرجح عقدوا مصاهرات مماثلة في وقت سابق من زواجه. لكننا لا نعرف شيًء عن هذه المصاهرات لهؤلاء الملوك كما أن هذا ظل متضاربًا في معظم الأحوال، ولكن يبدو منطقيًا أن نتوقع إن هؤلاء الملوك الفرنجة القاصرين تزوجوا من عشائر جرمانية ضعيفة[٦١].

أما حولية المورخ فريديجار Fredegar عن تاريخ الفرنجة فقد ذكرت قصه قد تضيف بعض التفاصيل المثيرة للاهتمام، وقريبة من كتاب المؤرخ المجهول وكتابه " كتاب تاريخ الفرنجة" “Liber Historiae Francorum”، وقد وجد كلا منهما أن القصة جديرة بما يكفي لتأخذ مساحة كبيرة من كتابهما[٦٢]، وفي هذه التقارير لعبت كلوتيلدا دورًا كبيرًا في مفاوضات الزواج. فيذكر فريديجار: "بما أن كلوفس كثيرا ما أرسل السفراء إلى برجنديا، سمع رسله عن كلوتيلدا، ولأنه لم يسمح له برؤيتها، أرسل كلوفس رجل روماني يدعى أورليان، الذي سعى للوصول إليها بكل الوسائل المتاحة له. فبدأ أورليان وحيدا كالمتسول، بملابس ممزقة وحقيبة على ظهره، وأخذ خاتم كلوفس للإيحاء بالثقة، ووصل جنيف، حيث تعيش كلوتيلدا مع شقيقتها سيديليوبا Sideleuba[٦٣]، واستقبل بالصدفة من قبل الأختين، الذين قدموا واجب الضيافة للغرباء، وبينما تغسل كلوتيلدا قدميه، انحنى أورليان بهدوء وقال لها: "لدي رسالة عظيمة لكي إيتها الأميرة إذا سمحت لي بالتحدث إليكِ في مكان ما، حيث يمكننا

التحدث بشكل سري". وافقت الأميرة على الفور، فقال لها أورليان: "لقد أرسلني كلوفس ملك الفرنجة، الذي يريد بإرادة الله أن تشاركيه في ملكه، ولكي تتأكدي من حسن نواياه، أرسل لكِ خاتمه". استلمت كلوتيلدا الخاتم ببهجة عظيمة، وأجابت: "خذ مائة دانق من الذهب، وخذ خاتمى، واستعجل بالعودة إلى سيدك، وأخبره أنه إذا كان لديه نية للزواج مني، يجب أن يرسل الرسل على الفور إلى عمي جندوباد، لأنني أخشى عودة مستشاره اريديوس من القسطنطينية، الذي إذا وصل في الوقت المناسب، سيفشل الموضوع بالكامل"[٦٤].

يواصل فريديجار روايته قائلاً: "ثم عاد أورليان إلى وطنه ووصل إلى حدود مدينة أورليان حيث التقى بمتسول فقير أصبح رفيقًا له، وبعد أن نام أورليان، سرق رفيقه محفظته بما فيها من العملات الذهبية، وعندما استيقظ سيطر عليه الحزن، بعد أن اكتشف سرقة المتسول لمحفظته، وعجل بالعودة إلى بيته، حيث أرسل عبيده لملاحقة السارق. وبالفعل أمسكوا به، وأخذوه إلى أورليان الذي أمر بجلده لمدة ثلاثة أيام بلا رحمة، وبعد ذلك ذهب إلى كلوفس في سواسون، وأخبره بتفاصيل ما حدث. وسُحر كلوفس بروح كلوتيلدا وذكائها وأرسل إلى "جندوباد" يطلب يد ابنة شقيقه. ورغب جندوباد - الذي لم يجرؤ على الرفض- في عقد صداقه معه، ووعد بمنحها له"[٦٥].

نزل أرديوس في مارسيليا، وعندما وصل، قال له جندوباد: "هل علمت أنني تحالفت مع الفرنجة، وزوجت ابنة شقيقي كلوتيلدا لكلوفس؟ فأجاب اريديوس يجب أن تتذكر يا سيدي، أن شقيقك شلبريك، والد كلوتيلدا مات بسيفك، وأنك ألقيت أمها في الماء، بعد أن ربطت حجرا حول عنقها، وألقيت أشقاءها في البئر، بعد أن قطعت رؤوسهم. وإذا أصبحت قوية، فستنتقم لأبويها. أرسل جيشك لإعادتها دون تأخير". وبالفعل بعد أن سمع جندوباد هذا الكلام أرسل الجيش للبحث عن كلوتيلدا، لكنه لم يجد شيئًا سوى الكنوز التي استولوا عليها، ووصلت كلوتيلدا إلى كلوفس قبل مغادرتها للأراضي البرجندية. وتوسلت له بسلب البلد وحرقها لمسافة اثني عشر ميلا. وبعد أن فعلوا ذلك بإذن من كلوفس، صاحت كلوتيلدا: "اشكرك يارب، أنني حضرت بداية الانتقام لوالدي وأشقائي"[٦٦].

ونلاحظ في تقرير فريديجار أن كلوتيلدا لعبت دورًا كبيرًا في مفاوضات الزواج، كما ذكر فريديجار كيف أن رسول كلوفس أرتدى ملابس مثل المتسولين وأتى إلى جنييف Geneva ووجد كلوتيلدا وشقيقتها التي تدعى سيديليوبا في هذه القصة. كما أننا ذكرنا في تقرير جريجوري إن جندوباد كان خائفًا من رفض طلب كلوفس، ولكن فريديجار قال إنه كان يأمل بهذا الزواج "الدخول في صداقة (amiciciam) مع كلوفس"[٦٧]. كما أن فريديجار في تقريره عن مقتل عائلة كلوتيلدا نجد أنه أضافَ شقيقين إلى عائلتها ورغبة كلوتيلدا في الانتقام[٦٨]، ومع ذلك ببساطة ربما يكون ذلك مبررًا للإجراءات اللاحقة التي أتخذها الملك كلودومير Chlodomer (٥١١-٥٢٤م) ابن كلوتيلدا ضد الملك سيجسموند بن جندوباد الذي في النهاية فقد مملكته أمام الفرنجة بداعى الانتقام لمقتل والدى كلوتيلدا. أما المؤرخ المجهول مؤلف كتاب "كتاب تاريخ الفرنجة" فروايته قريبة بعض الشيء من رواية المؤرخ فريديجار، ولكن بها بعض الاختلافات البسيطة حيث يذكر: "إن جندوباد كان معارضًا لفكرة الزواج، ولكنه وافق بسبب خوفه من كلوفس ونصائح مستشاريه الذين يخافون الفرنجة"، فيقول: إنه "بغضب" قدمها للفرنجة[٦٩].

وبذلك وفقًا لكلاً من فريديجار والمؤرخ المجهول، فإن كلوفس رغب الزواج بكلوتيلدا وأرسل مبعوثيه إلى جندوباد لاِتخاذ الترتيبات، وقد قابل مبعوثيه كلوتيلدا وسلموها اقتراح كلوفس في السر، وقبلت كلوتيلدا العرض وحصلت على خاتم الخطوبة، ولكنها تلاعبت بالأمور لجعل الزواج ينجح. الآن الزواج تم ترتيبة بين كلوفس وكلوتيلدا، ولكن موافقة جندوباد ليست مضمونة. عند هذه النقطة تختلف الآراء، فالمؤرخ فريديجار يقول إن جندوباد كان أكثر استعدادًا لزواج كلوتيلدا من كلوفس أملاً في تكوين صداقة مع كلوفس. في حين أن المؤرخ المجهول يركز على خدعة كلوتيلدا في إخفاء خاتم الخطوبة في كنز جندوباد، وإن الذي أجبر جندوباد على قبول الزواج إنه كان منشغلاً في مناوره حربية ضد منافسيه. ويدعي المؤرخ المجهول إن كلوفس كان مستعدًا للقتال من أجل خطيبته، وإن جندوباد كان مرتابًا من أن كلوفس يبحث عن ذريعة لمهاجمة البرجنديين[٧٠]. في النهاية حصل الملك كلوفس على عروس وثروة كبيرة، حيث إن كلوتيلدا في ليلة زواجهما طلبت من كلوفس مطالبة عمها جندوباد بميراثها من والديها[٧١].

وبذلك جميع الآراء تتفق على أن كلوفس كان يريد الزواج من ابنة شقيقي جندوباد الذي كان لا يرغب في زواجها من كلوفس. كما اقترح كارل فرديناند Karl

Ferdinand إن كلوفس قد استخدم تحالفه مع ثيودريك العظيم (٤٨٩-٥٢٦م) للضغط على جندوباد للحصول على الزواج من كلوتيلدا، على الرغم من أن النتيجة النهاية للزواج هي حياد جندوباد في حروب كلوفس القادمة مع آلاريك الثانى بل إنه أنضم إلى كلوفس بدلاً من الحرب ضده[٧٢].

هذه الاحتمالات ليس ذات أهمية كبيرة، ولكن في هذه الحالة لا يكاد يترتب عليها - خاصةً بعد إجبار جندوباد على الزواج من كلوتيلدا- مساعدة جندوباد لكلوفس أو حتى الحياد مرتكزًا على حقيقة أنه خطف ابنة شقيقه منه عن طريق خداع مندوبي كلوفس لجندوباد، إلى جانب ذلك لم يكن جندوباد محايدًا تمامًا في الحرب ضد آلاريك، ولكن تحالف مع كلوفس وتحمل العبء الأكبر في نهاية المطاف من هجوم ثيودريك المضاد. بين الزواج والحرب ضد آلاريك نجد أن كلوفس يقف ضد جندوباد أثناء الحرب الأهلية البرجندية. مع ذلك يذكر فريديجار أن جندوباد أعترف بحتمية الزواج، وأعرب عن أمله في صداقة كلوفس عن طريق هذه المصاهرة بين الفرنجة والبرجنديين، التي ينبغي أن تحدث نتيجة قرابة الزواج الفعلية طبقًا للتوقعات التقليدية للمصاهرات. ولكن بعد بضع سنوات كان كلوفس يهاجم جندوباد مهددًا حياته وملكه.

إن التفسيرات التقليدية للمصاهرة باعتبارها (زواج تحالف) لا تتناسب بشكل جيد مع رغبة كلوفس بالزواج من كلوتيلدا إلى جانب رأى فريديجار بأن جندوباد كان يرغب في صداقة كلوفس، ولكن ليس هناك أي إشارة في الزواج على أنه تحالف سياسي. الحقيقة أن التعاون المتوقع مستقبليًا يرتكز على القرابة الزوجية المعلنة، والرغبة علامة جيدة على أن هذا ما يعنيه الزواج. والتوقعات ليس حقيقية وأقرباء اليوم يمكن أن يكونوا منافسين مثلما كانوا حلفاء. جريجوري التوري تحديدًا رأى أن الزواج بمثابة بداية غزو الفرنجة لمملكة البرجنديين، وليس من أجل التحالف السياسى أو العسكرى بين كلوفس والبرجنديين[٧٣]. ومع ذلك ما الذي اتفقت عليه جميع المصادر هو أن كلوتيلدا كانت عروسة ذات هيبة، منذ وفاة والديها وأصبحت شقيقتها راهبة فكانت كلوتيلدا الوريثة الشرعية لثروة أبيها والتي سيطر عليها عمها جندوباد. حيث أن المصادر تخبرنا أن جندوباد أحكم السيطرة على ثروتها بمثابة الحامي لها، ولكن أظهرت كلوتيلدا رغبتها في الحصول على هذا الميراث ورسمت مخططاً لإجبار جندوباد على ذلك، وذلك بدعًم من الفرنجة[٧٤].

كلوتيلدا زوجة طاهرة غنيه، كما أكد جريجوري أيضًا على شهامة كلوتيلدا. وعندما قدمَ جندوباد وصفة بأنه شخص من نسل الملك اثناريك Athanaric" (حوالى ٣٦٥-٣٨١/٣٧٦)، الذي كان في وقت مبكر حاكم القوط، وربط كلوتيلدا بالقوط والسباق الأول للجرمان في القرنين الخامس والسادس[٧٥]. ومن ثم فقد نالت فضيلة الزواج من مكانتها وميلادها الرفيع. وذكر جريجوري أن مندوبى كلوفس "رأوا إنها امرأة انيقة وحكيمة وذات سلالة ملكية و حسنة الخلق كذلك"[٧٦]. على الرغم من تعدد الروايات عن زواج كلوتيلدا وكلوفس إلا أنه من الثابت تاريخيًا أن هذا الزواج قد حدث بصرف النظر عن الأساطير التي نشأت حول كيفية إتمامه. ورغم ذلك هناك مجموعة من الملاحظات التي يمكن استخلاصها من تلك الروايات وهي أولاً: أن جريجوري التوري هو الأقرب إلى الصواب لأنه هو الأقرب زمنيًا للحدث، عن فريديجار الذي كتب تاريخه في حوالى ٦٥٨-٦٦٠م، وعن المؤرخ المجهول الذي كتب مؤلفه حوالي عام ٧٢٦-٧٢٧ . ثانيًا: أن هذه الأساطير مكتوبة بشكل ظاهر من أجل تمجيد الفرنجة وإذلال البرجنديين، وهو ما ظهر في أكثر من مناسبة في رواية المؤرخ المجهول كما أن هذه الأساطير كلها هي تمجيد للملك كلوفس[٧٧].

٤-كلوفس والحرب الأهليّة البرجندية

بعد زواج كلوفس وكلوتيلدا اِقتصرت علاقة كلوفس بالملوك البرجنديين في المصادر التاريخية على حادثتين فقط، هما: تورط كلوفس في الحرب الأهليَّة البرجندية، ومشاركة البرجنديين في الحملة الفرنجية ضد القوط الغربيين عام ٥٠٧/ ٥٠٨م. ويقتصر تاريخ الحرب الأهلية البرجندية على السنوات ٥٠٠-٥٠١م طبقاً لحوليه ماريوس أسقف أفينش Marius of Avenches الذي كان معاصرًا لجريجوري التوري، وكان يعيش بالقرب من موقع الأحداث، والذي أضافَ وصفًا عن الحرب الأهليَّة البرجندية في حوليته عامًا بعد آخر[٧٨]. ويُعد تورط كلوفس في هذه الحرب مثالاً جيدًا على عقد تحالفات سياسية مع الملوك الأجانب، كما أنه في نفس الوقت دليلاً على أن زواج كلوفس من كلوتيلدا لم يخلق أي نوع من السلام الطويل بين كلوفس وجندوباد.

والحرب الأهليَّة البرجندية في الأساس كانت قتالاً بين جندوباد (حوالي ٤٧٣-٥١٦) وشقيقه جوديجزل على حكم مملكة البرجنديين. وفي عام ٥٠٠م كان الصراع بين جندوباد وشقيقه وجوديجزل على أشده مما هدد

بزوال المملكة. فقد ذكر جريجوري التوري: "كان الأخوان جندوباد وجوديجزل يحكمان البلاد الواقعة حول نهري الرون والساؤون جنبا إلى جنب مع مقاطعة مارسيليا، وكانا يعتنقان هما وشعبهما المذهب الآريوسي. وفي الوقت نفسه كانوا يقاتلون بعضهما البعض".[٧٩] يضاف إلى ذلك أن جندوباد هذا قد قتل شلبريك الثاني Chilperic II (٤٧٣-٤٨٦م) والد كلوتيلدا، الأمر الذي جعل كلوتيلدا تكن حقدًا شديدًا لعمها جندوباد. وقد تهيأت الفرصة للملك كلوفس لقتال جندوباد عندما لجأ جوديجزل إلى كلوفس- بعدما سمع عن انتصاراته - يطلب منه المساعدة للقضاء على شقيقه جندوباد سواء بالقتل أو بالطرد من المملكة، وذلك نظير الجزية التي يحددها كلوفس.

أما عن أسباب الصراع بين جندوباد وشقيقه جوديجزل، فأنه ليس من المعروف بالنسبة لنا أسباب هذا الصراع الذي بدأ بين العائلة البرجندية. وكان هناك حتى ذلك الحين وفاق بين الإخوة الذين عاشوا في سلام مع بعضهم، ولكن يبدو أن اختفاء شقيقهما شلبريك كان السبب الرئيسي للصراع بين الأخوين[٨٠]. حيث يذكر مؤلف "سيرة القديس سيجسموند Passio " " Sancti Sigismundi"أنه عند وفاة الملك البرجندي شلبريك، استولى جندوباد على ثلثي الميراث، ولم يتبق لجوديجزل سوي الثلث الأخير"[٨١]. ولكن هذه المعلومات ليست دقيقة تماما؛ لأنها لو كانت صحيحة، ما الدوافع التي دفعت جوديجزل إلى التخلي عن استيائه لفترة طويلة قبل أن يرضيه؛ لأن شلبريك توفي قبل عام ٤٩٠م، واندلعت الحرب بينهما في عام ٥٠٠م. ومما هو مؤكد في أسباب تلك الصراع هو أن التفوق المادي لجندوباد على جوديجزل، المعترف به من قبل المعاصرين ويشهد به عدد من الحقائق لا بد أنه كان مؤلماً جدًا لجرديجزل، وبالتالي كان التنافس على المصالح والغرور هو التفسير الأكثر عقلانية للحرب بين الأشقاء[٨٢].

فقد تمتع جندوباد بالعديد من المزايا على شقيقه جوديجزل، وكان في موقع الملك الحقيقي لبرجنديا، بينما كان جوديجزل أحد مساعديه. وهو ما اعترفت به القوى الأجنبية الذين فضلوا التعامل مع جندوباد عندما كانوا يرغبون في التعامل مع برجنديا. هذا التفوق سواء كان بسبب مواهبه الشخصية، أو نتيجة للظروف، كان من الطبيعي أن يثير النية السيئة لشقيقه الأصغر[٨٣]؛ لذلك عزم جوديجزل على وضع حد للوضع الراهن، ونتيجة لضعف قواته، صمم على الحصول على المساعدة من كلوفس زوج ابنة شقيقه شلبريك. الذي كانت علاقته بجوديجزل أكثر عمقًا وودًا من علاقته مع جندوباد، وربما يرجع ذلك إلى علاقة جوديجزل بكلوتيلدا [٨٤]. وبالفعل أرسل جوديجزل سرًا سفراءه إلى كلوفس يطلب مساعدته في الحرب ضد شقيقه، واعدًا إياه "بالمبلغ الذي يحدده كجزية سنوية"[٨٥]. وقد وافق كلوفس على ذلك بسرعة ووعده أن يأتي لمساعدته "متى ادعت الضرورة ذلك". وبالفعل تم الاتفاق على مجموعة من البنود يمكن استخلاصها فيما يلي :

١. أن يقوم كلوفس بغزو برجنديا، على أن ينضم إليه جوديجزل في ساحة المعركة[٨٦].
٢. أن يتم تقسيم المملكة البرجندية بين كلوفس وجوديجزل بعد القضاء على جندوباد.
٣. أن يتعهد جوديجزل بمنح كلوفس جزية سنوية.
٤. أن يقوم جوديجزل بإشعال نار الفتنة في هيلفتيا Helvatia، حيث يوجد إقطاعه وأعوانه الإقطاعيين، في حين يقوم ملك الفرنجة بمهاجمة جندوباد في وادي نهر السارون[٨٧].

ثم طبقًا لما ذكره جريجوري التوري لدى سماع جندوباد بأخبار تحرك كلوفس ولم يكن على علم بالاتفاق الذي تم بين شقيقه وكلوفس، أرسل إلى جوديجزل قائلاً: "تعالى لمساعدتي؛ لأن الفرنجة يتحركون ضدنا ويأتون إلى بلادنا من أجل السيطرة عليها. لذا دعنا نكون متحدين ضد تلك الأمة المعادية لنا خشية الانقسام الذي نعاني منه بدوره يجعلنا نعاني من نفس المصير الذي عانت منه شعوب أخرى. فرد عليه جوديجزل قائلاً: "سأتي إليك بجيشي، وسوف أقدم المساعدة لك". وبالفعل تقدمت الجيوش الثلاثة إلى نفس النقطة، وجاؤوا بكل معداتهم الحربية إلى Dijon[٨٨]. وما أن دارت رحى المعركة حتى انضم جوديجزل إلى كلوفس وسحقت قواتهم المتحدة جيش جندوباد. وهنا فر جندوباد "بعد أن اكتشف خيانة شقيقه، واتخذ الطريق على طول سواحل الرون حتى وصل إلى مدينة أفينون Avignon [٨٩] .

بعد أن حقق جوديجزل النصر، ووعد كلوفس بجزء من مملكته، غادر بهدوء ودخل فيينا في موكب المنتصر، كما لو كان الحاكم الفعلي للمملكة بأكملها. في حين حشد كلوفس قوات أكثر وخرج على أثر جندوباد الذي كان في حالة ذعر شديد خوفاً من أن يقتل، إلا أن ذكاءه هداه إلى استخدام الحيلة للإفلات

من قبضة كلوفس وجيشه مستعينا في ذلك بأحد بمستشاره أريديوس ذي المنزلة العالية الذي كان مشهورًا بدهائه. فأرسل له قائلاً: "تحيط بي الصعوبات من كل جانب، وأنا لا أعرف ماذا أفعل، لأن هؤلاء البربر جاؤوا لقتلنا وتدمير البلاد بالكامل". فأجاب اريديوس: "الآن يجب أن تخفف من شدة هذا الرجل حتى لا تموت... سوف أدعي الفرار منكم والانتقال إلى جانبه، وعندما أذهب إليه، سوف أمنع الإيذاء سواء لك أو لهذا البلد. فقط يجب أن تكون على استعداد للقيام بما يطلب منك من نصيحتي". فقال جندوباد: "سأفعل كل ما توجه به"[٩٠].

وبالفعل غادر اريديوس وذهب إلى الملك كلوفس، وقال له: "أنا خادمك المتواضع، جئت لحمايتك، وتركت جندوباد البائس، وإذا وافقت على استقبالي، فسوف أكون خادما مطيعا لك ولأطفالك". فاستقبله كلوفس، وعندما استقر كلوفس بجيشه حول أسوار المدينة، قال أرديوس: "أيها الملك، هل تتكرم بأن تسمع بعض الكلمات القليلة مني، رغم أنك لا تحتاج إلى مستشار، إلا أنني ألفظهم بكل إخلاص، فإنها سوف تكون مفيدة لك وللمدن التي ترغب في الذهاب من خلالها". وواصل أرديوس حديثه قائلاً: "لماذا تبقي جيشك هنا، بينما يجلس عدوك في مكان قوي جدا؟ إذا كنت تدمر الحقول، وتخرب المروج، وتقطع مزارع العنب، وتدمر جميع منتجات البلاد، أنت لا تصيبه بأي أذى، ويمكنك، بدلا من ذلك، فرض إتاوة عليه للأبد، وإذا رفض، أفعل ما يحلو لك". وبالفعل أخذ الملك كلوفس بالنصيحة وأمر جيشه بالعودة إلى الوطن. ثم أرسل سفارة إلى جندوباد، وأمره بدفع إتاوة سنوية[٩١].

يبدو من سرد جريجوري إن جوديجزل درس شروط اتفاقه مع كلوفس، وعرض جزءًا من مملكته لكلوفس، ثم ذهب إلى فيينا Vienne بعد النصر للاحتفال بمملكته الموسوعة حديثًا. وقد حاصر كلوفس جندوباد في أفينون حتى وافق على دفع جزية سنوية له أيضًا، بعد ذلك رجع كلوفس إلى مملكته. ومع إن كلوفس وجد الفرصة المناسبة للقضاء على جندوباد، لكنه اقتنع بقبول الغنائم التي نهبها، بالإضافة إلى دفع الجزية السنوية في المستقبل، ثم رجع إلى مملكته[٩٢]. الملك البرجندى التابع ربما كان يستحق أكثر من ذلك في فرض النفوذ، وربما ماليًا كذلك، حيث أن جندوباد دفع الجزية في السنة الأولى، ولكن رفض دفعها بعدما سار ضد شقيقه وقتله في العام التالي، واستطاع جندوباد السيطرة على برجنديا كلها[٩٣].

سرد جريجوري العام مؤكدًا في حوليه ماريوس أسقف أفينش [٩٤]. وسواء كانت تفاصيل جريجوري دقيقة تمامًا أو ليس لها علاقة بالموضوع، ولكن مع ذلك يكفي أن نعرف إن أنصاره سوف يصدقوه. كما أن هذه الحادثة لا تعتمد فقط على توقع السلوك بين الأخوين جندوباد الذي طلب مساعدة شقيقه عندما اعتدي عليه كلوفس، وجوديجزل الذي طلب مساعدة كلوفس ضد شقيقه، ولكن في الحقيقة نجد أن رابطة القرابة ليست ضرورية لكلوفس لكي يتحالف مع جوديجزل. على الرغم من إن جوديجزل أيضًا عم كلوتيلدا، ولكن القرابة بين جوديجزل وكلوفس لم تظهر في المصادر كتعبير عن تحالفهم، وهذا ليس مستغربًا، كما أن المصادر عندما تناقش زواج كلوفس كلوتيلدا فإنها تشير دائماً إلى مشاركة جندوباد في الزواج بدون مساعده جوديجزل. ولكن هذا لا يعنى رؤية الكثير من التحالف بين كلوفس وجوديجزل في فترات مختلفة[٩٥].

في الواقع الحرب الأهليَّة تورط فيها الأقرباء في القتال ضد بعضهما البعض. فبالنسبة لجوديجزل فإنه تحالف مع كلوفس ليتغلب على شقيقه. هذا يذكرنا بنهج كلوفس الخاص بإتباع المبادئ التقليدية لمهاجمة أقربائه، ذلك النهج مفيدًا في كثير من الأحوال، ولكنه خاضع للضرورة السياسية، مثل محاولة إغراء كلوفس لأقربائه الخائفين. وسر تحالف جوديجزل مع كلوفس حدث بشكل جيد لأنه لا يستطيع الاعتماد على جندوباد واِستدعاءه لمساعدته عند هجوم كلوفس. وهكذا جندوباد لم يقلق عندما ظهر جوديجزل واندهش عندما لم يشترك معه ضد كلوفس طبقاً للسلوك المتوقع المرتبط بحكم قرابته[٩٦]. أما بالنسبة لتحالف كلوفس وجوديجزل، يمكننا أن نستنج أن كلوفس وجوديجزل اتفقوا على الوقت المحدد للمعركة وحددوا قيمة مساعدة كلوفس، ومع ذلك إنها اتفاقية محددة المدة والنهاية، حيث أن الملك كلوفس لم يعود لمساعدة جوديجزل ضد شقيقه مرة أخرى، حتى إنه قبل خسارة وعد جندوباد بالجزية بعد فترة قصيرة، لكنه أخذ غنائم لوطنه وملئ خزانته[٩٧].

٥-مشاركة البرجنديين في الحملة الفرنجية ضد القوط الغربيين عام (٥٠٧/ ٥٠٨م)

على الرغم من العداوة التي كانت بين الملك كلوفس والملك جندوباد، إلا أنه يبدو أن العلاقات بينهما قد تحسنت بعد عام أو عامين من الحرب الأهلية البرجنديه، حيث التقى كل من كلوفس وجندوباد على ضفاف نهر كور la Cure ٥٠٢/٥٠٣م – الذي شكل الحدود بين المملكتين- من أجل تسوية النزاعات التي بينهما. وأقسم الملكان على الصداقة الأبدية وفقًا للعرف الجرماني، هذا النوع من التحالف الذي وضعه كلا من كلوفس وجندوباد على قدم المساواة، وهم مدينون لبعضهم بالمشورة والدعم المتبادل. وكان هذا التعاقد أكثر إقناعا من المعاهدة السابقة بين كلوفس وجوديجزل، والتي جعلت من جوديجزل تابعًا لكلوفس وأقل منه، على عكس تلك المعاهدة التي جعلت من جندوباد ندًا لكلوفس[٩٨].

ومن المؤكد أن الهدف الرئيسي من هذه المقابلة هو محو ذاكرة الخلافات والصراعات القديمة؛ لذلك لم يكن من الصعب الاتفاق فيما بينهما[٩٩]، أو أن الملك كلوفس رأى أن يتحالف مع جندوباد في الحرب المرتقبة مع القوط الغربيين، ذلك الحلم الذي طالما رواده بضم بلاد الغال جميعها إلى مملكته، كما أنه كان على علم بالتحالف الذي تم بين جندوباد وآلاريك الثاني Alaric II (٤٨٥-٥٠٧م) ملك القوط الغربيين في نهاية الحرب الأهلية البرجنديه، وذلك لكى يكون جبهه قويه ضد الملك كلوفس. فكان لابد من القضاء على ذلك التحالف بضم جندوباد إلى معسكره. ولم يكن جندوباد يدرك أن هذا التحالف بالنسبة له يعني تمزيق علاقاته مع القوط الغربيين، حلفائه بالأمس، ومع ذلك تم التحالف بين الطرفين وتخلى جندوباد عن حلفائه القوط الغربيين [١٠٠].على الرغم من تقديم آلاريك ملك القوط الغربيين الدعم لجندوباد في الحرب الأهليَّة البرجندية مقابل السيطرة على مدينة أفينون Avignon . أو ربما رأى جندوباد أن التحالف مع كلوفس خيرًا له من معاداته، حيث بالأمس القريب كان كلوفس محاصرًا له ويريد القضاء عليه، فربما رأى جندوباد أنها فرصه مناسبه للتحالف مع الفرنجة.

وقد ناقش المورخ ولفرام wolfram إن آلاريك قدم الدعم للملك جندوباد في الحرب الأهليَّة البرجندية ٥٠٠-٥٠١ م في مقابل السيطرة على مدينة أفينون [١٠١]. ووفقًا للتحالفات السياسية كان من المفروض أن ينضم جندوباد لمعسكر آلاريك وثيودريك ملك القوط الشرقيين ضد الملك كلوفس. ولكن على الرغم من هذه العلاقات بمجرد أن بدأ كلوفس الحرب ضد القوط الغربيين فإن جندوباد رأى إنها فرصة مناسبة للتوسع (أو على الأقل الحصول على أفينون مرة أخرى) وانضم إلى معسكر كلوفس وأدار ظهره لحليفه السابق آلاريك، بل انضم إلى الرجل الذي حاصره قبل سبع سنوات وفرض عليه الجزية.

وقد تقدم كلا من كلوفس وجندوباد وتقابلوا مع القوط الغربيين في سهل كامبوس فولجادنيسس Campus Volgadensis أو فوييه Vouille قرب مدينة تور- بواتيية Tour-Poitiers [١٠٢]، وعندئذ تقهقر الآريك الثاني ربما انتظارًا لمساعدة ثيودريك، غير أن قادة جيشه أجبروه في نهاية الأمر على خوض المعركة[١٠٣]، وفيها احرز الفرنجة والبرجنديين نصرًا كاملاً على القوط الغربيين، وقُتل آلاريك الثاني بيد كلوفس نفسه في ميدان القتال عام ٥٠٧م[١٠٤]، أما ابنه أماِلريك Amalaric والذي كان عمره لا يتعدى خمس سنوات حينذاك فقد كان أحسن حظًا من والده، حيث نجح فريق من القوط في حمايته والفرار به إلى إسبانيا وتنصيبه ملكًا[١٠٥].

أما بالنسبة لكلا من كلوفس وجندوباد فقد تقدموا غداة معركة فوييه نحو مدينة تولوز عاصمة القوط الغربيين واستولوا عليها[١٠٦]، ووضعوا أيديهم على كثير من كنوز القوط، والتي كان آلاريك الأول قد حملها من إيطاليا قبل ذلك بنحو مائة عام[١٠٧]، ولم يكتف الحلفاء بالاستيلاء على مدينة تولوز بل أحدثوا فيها كثيرًا من الخراب والدمار وأشعلوا فيها النيران[١٠٨]، ثم قسم المنتصرون أنفسهم إلى ثلاثة أقسام، الأول بقيادة كلوفس ووجهته المنطقة الغربية من مملكة القوط الغربيين واستولى على مدن فوذ Fauze وبازاس Pazas وبوردو وأنجوليم Angouleme[١٠٩]، والثاني برئاسة ثيودريك الأول Theuderic (٥١١-٥٣٤م) بن كلوفس ووجهته المنطقة الوسطى واستولى على مدن ألبى Albi ورودز Rodez وأوفيرني Auvergn[١١٠] والثالث برئاسة جندوباد ووجهته المنطقة الشرقية، حيث قام باجتياح إقليم بروفانس واستولى على كل مدنه بما فيها ناربون Narbonne باستثناء مدينة آرل التي صمدت بفضل مقاومة القوط الغربيين[١١١]، ولكن تحرك الملك ثيودريك القوطي ضد الحلفاء بعد أن أعاد ترتيب شؤون مملكته ونجح في استرداد إقليم بروفانس من البرجنديين مرة أخرى، وكانت النتيجة أن خرج جندوباد صفر اليدين من هذه الحرب بعد أن خسر ناربون.

وبذلك كانت هذه الحملة الفرنجية مفيدة للفرنجة دون سواهم، فلم ينجح جندوباد ملك البرجنديين في أن يسيطر على أي أملاك تخص القوط الغربيين، بل كانت تلك الحملة بداية السقوط الحقيقي لمملكة البرجنديين، والدليل على ذلك أنه منذ ذلك الحين لم تتقدم برجنديا باحتلال أراض جديدة مرة أخرى، إنما كانت بداية لفقدان العديد من المدن والأراضي في الجنوب لصالح القوط الشرقيين. كما أنها مكنت القوط الشرقيين من الاستقرار في الجنوب والتحالف مع الفرنجة في الشمال. الذين عملوا منذ ذلك الوقت على إنهاء الوجود البرجندي من بلاد الغال، وهو ما سوف يتحقق بعد حوالي عشرين عامًا(١١٢). أما بالنسبة لكلوفس ملك الفرنجة فقد فاز بالجزء الأكبر من مملكة القوط الغربيين حيث استولى على الكثير من كنوز القوط، كما استولى على مدن فوز Fauze وبازاس Pazas وبوردو وأنجوليم Angouleme، ألبي Albi ورودز Rodez وأوفيرني Auvergne.

٦-زواج الملك ثيودريك الأول الفرنجي من سوافيجوثا البرجندية

إنقسمت مملكة الفرنجة بعد وفاة الملك كلوفس عام ٥١١م بين أبنائه إلى أربعة أقسام ، فأخذ ثيودريك الأول(٥١١-٥٣٤) ريميس، وكلودومير Cholodmer(٥٢٤-٥١١) أورليان، و(Childbert I) شلدبرت الأول (٥١١-٥٥٨) باريس، أما كلوثر الأول(٥١١-٥٦١) Clothar I فقد أخذ سواسون Soissons(١١٣)، وأشتد التنافس الداخلي بين هؤلاء الملوك، كما كانت تلك الفترة فترة العصر العظيم للمصاهرات السياسية الأجنبية للميروفنجيون(١١٤) . وأرتبط هؤلاء الملوك بالزواج السياسي مثل جدهم كلوفس، وذلك للمنافسه فيما بينهم من أجل الذهب والأراض والأتباع المخلصين. وتاريخ مملكة الفرنجة من عام ٥١١م حتى وفاة كلوثر الأول ٥٦١م آخر ابن متبقى - من أبناء كلوفس-عبارة عن صراعا بين ورثة كلوفس من أجل السلطة المستمرة، ولكن لم يدعي أحدًا من خارج الأسرة الميروفنجية المُلك كما واجهه كلوفس، ولكن سعى إلى ذلك أخواتهم، أعمامهم وأبناء أعمامهم.

وفي وسط هذه المنافسة الشرسة نجد كل ملك من الملوك الفرنجة الأربعة، يسعى إلى تأكيد وتعزيز وضعه بين أشقائه، وذلك عن طريق الزواج السياسي، محاولاً كسب مزيد من السلطة والأراضي والثروة والاتباع المخلصين، والتي من شأنها تحسين وضعه بين أشقاءه، فضلاً عن الدعم العسكري في حملاته الخارجية. وهكذا نجد أن تقسيم مملكة الفرنجة أسفر عن صراع كبير بين الملوك المنافسين، ففي عام ٥١٠ وعام ٥٢٠م إحتدم الصراع بين ثيودريك الأول وأشقاءه، فقد سعى الأخوة إلى تحقيق التوازن، وأخذ كل واحدًا منهم يحاول الحصول على المساعدة في حملاته العسكرية والدعم في المشاريع السياسية الأخرى، ولكن في كثيرًا من الأحوال كانت هذه المشاريع توجه إلى أقربائهم.

وقد اختلفت طبيعة العلاقات بين الممالك الميروفنجية وبين مملكة البرجنديين في تلك الفترة بين الود تارة والعداء تارة أخرى، حيث كان الملك ثيودريك الأول على علاقة طيبة مع سيجسموند Sigismund (٥١٦ – ٥٢٣م) ملك البرجنديين بن الملك جندوباد Gundobad (٤٧٣-٥١٦م) (١١٥)، ودليلاً على هذه العلاقات الطيبة نجد أن الملك ثيودريك كان متزوجًا من ابنته سوافيجوثا(١١٦) Suavegotha من زوجته الأولى اوستروجوثا Ostrogotho، التي تعتبر حفيدة ثيودريك العظيم ملك القوط الشرقيين(١١٧). ولكن لم يشير المؤرخ جريجوري التوري إلى هذا الزواج عند الحديث عنه بطريقة منفصلة في كتابه، ولكن أشار إليه أثناء الحملات الفرنجية التي أسفرت عن غزو برجنديا (٥٢٣-٥٢٤، ٥٣٤م)، على الرغم إن معظم المؤرخين المحدثين لم يصنفوا زواج ثيودريك الأول من ابنة سيجسموند على أنه خدم ثيودريك الأول في المنافسة الداخلية في مملكة الفرنجة(١١٨).

٧-الحملات الفرنجية على مملكة برجنديا

على الرغم من العلاقات الودية بين ثيودريك الأول وسيجسموند إلى أن العلاقات بين باقي الملوك الميروفنجيين وسيجسموند لم تكن جيدة هي الأخرى، بل كانت عدائية، حيث كان البرجنديون يسيطرون على جانب كبير من بلاد الغال؛ لذلك كانت فكرة الحرب ضد البرجنديين والسيطرة على مملكتهم أمرًا طبيعيًا للفرنجة في توسعهم ناحية الجنوب الشرقي، وفي نفس الوقت أمرًا مؤجلاً لابد من تحقيقه عند الوقت المناسب، وقد جاء هذا الوقت عندما احس باقي الملوك الميروفنجيين بخلاف ثيودريك بضعف موقفهم تجاه مملكة البرجنديين التي ازداد نفوذها، وتجاه شقيقهم ثيودريك الذي تحالف مع سيجسموند ملك برجنديا، فكان لابد من اتخاذ موقف حازم تجاه البرجنديين، خاصة أن الملك سيجسموند أخذ يتقرب من الإمبراطور البيزنطي انستاسيوس الأول

ويكيل له عبارات المديح والثناء طمعًا في الحصول على ألقاب التشريف – مثل رتبة البطريق[١١٩] وقائد القوات الرومانية في برجنديا – ويظهر ذلك من خلال رسالته إلى الإمبراطور التي يقول له فيها: "لقد حافظ أسلافي على ولائهم للإمبراطورية، ولم يكن عندهم أشرف من الألقاب التي خلعتوها عليهم، ولقد التمس أفراد عائلتي دائمًا ألقاب التشريف من الأباطرة، لأنها أضفت عليهم مجدًا أعظم مما ورثوه من أبائهم وأجدادهم، فشعبي في حوزتكم، ....، ربما أظهر بمظهر الملك على هذا الشعب، ولكنى لست إلا جنديا من جنودكم، ....، وإني لأنتظر منكم الأوامر التي تتفضلون بإصدارها لي"[١٢٠].

ولا شك أن تلك السياسة التي اتبعها سيجسموند ملك البرجنديين أثارت قلق ملوك الفرنجة، كما أثارت ثيودريك (٤٨٩-٥٢٦م) ملك القوط الشرقيين على حد سواء، فقد رأى ملوك الفرنجة في تلك السياسة خطرًا عليهم إذ كان من السهل على الإمبراطور أن يقوم بتحريض البرجنديين ضدهم في بلاد الغال[١٢١]، حيث أصبح سيجسموند ندًا لهم، ومن أصحاب الحظوة عند الإمبراطور، الأمر الذي اعتبروه تقليلاً من شأنهم ومكانتهم ومساواتهم بغيرهم من ملوك الجرمان[١٢٢]. أما بالنسبة لثيودريك ملك القوط الشرقيين، فقد كان سيجسموند ملك برجنديا متزوجًا من اوستروجوثا ابنة ثيودريك [١٢٣]، وكان سيجسموند قد أنجب منها طفلا يدعى سيجريك Sigeric، وبعد وفاة اوستروجوثا تزوج سيجسموند مرة أخرى، وكانت زوجته الثانية من أصل وضيع، وبدلا من أن تعطف على سيجريك، وتكون له نعم الأم، تقمصت شخصية زوجة الأب الشريرة، وأخذت تؤلب زوجها على ولى العهد وتشعل نار العداء بينهما[١٢٤]، بزعم أن ولي العهد يريد التخلص من الملك ويتولى العرش بدلا منه، ولا يريد الانتظار حتى يؤول العرش إليه بالوراثة[١٢٥].

وقد لاقى ذلك الاتهام آذانا صاغية من سيجسموند، وبدلا من أن يتأكد بنفسه من حقيقة الاتهام، أو يعطى الفرصة لابنه لكي يدافع عن نفسه، أقدم على التخلص منه، وذلك بخنقه وهو على فراش نومه[١٢٦]، ولكن سيجسموند ندم على قتل ابنِه وألقى بنفسه على جثته، بعد أن اكتشف خطأه، وأخذ يندب حظه، ويلعن الحماقة العمياء التي حرمته منه، وانزوى الملك في ديره المفضل في أفينون لفترة من الوقت، وهو في حالة بكاء وصيام [١٢٧]. ولم يكن من الطبيعي أن يغض ثيودريك ملك القوط الشرقيين الطرف عما حاق بحفيده، فقد استبد به الغضب، وشرع في معاقبة البرجنديين[١٢٨]، ويعلق بيتر هيذر على هذه الحادثة قائلاً: إن البرجنديين ربما رأوا إن زواج سيجسموند من ابنة ثيودريك بمثابة هيمنه للقوط الشرقيين على البرجنديين، وربما قتل سيجسموند ابنه للخلاص من هذه الهيمنة[١٢٩].

وطبقًا لما ذكره جريجوري التوري فإن الانتقام الالهى لمقتل سيجريك أتى في شكل زواج ثيودريك الأول من سوافيجوثا ابنه سيجسموند، حيث استغلت الملكة كلوتيلدا الموقف وقامت بدعوة أبنائها ولاسيما الأكبر كلودومير لمهاجمة البرجندبين انتقاما لمقتل والديها، قائله: "لا تدعونني أندم، أطفالي الأعزاء، أتوسل إليكم بالانتقام لمقتل والدي ووالدتي"[١٣٠]. فلم تنس الملكة كلوتيلدا حجم المآسي والمصائب التي لحقت بأسرتها على يد عمها جندوباد، حيث قتل والدها شلبريك، وأغرق والدتها الملكة كارتين Caretene، بعد أن ربط حجرًا حول رقبتها وألقاها في بئر[١٣١]، ومن هنا حثت أولادها – بعد وفاة كلوفس – على الثأر والانتقام من سيجسموند، وربما التحالف مع القوط الشرقيين[١٣٢].

ولكن على الرغم من القصة التي ذكرها جريجوري التوري، ولكن يرفض أغلب المؤرخين الأخذ بها نظريًا وعمليًا، فمن الناحية النظرية إذا كانت كلوتيلدا قد سعت للانتقام من جندوباد، فلماذا انتظرت أكثر من ثلاثين سنة وانتقمت من أولاده، ولم تنتقم منه شخصيًا؟ ومن الناحية العملية كُتب على قبر الملكة كارتين والدة كلوتيلدا العبارة الآتية "عاشت أم كلوتيلدا على قيد الحياة في كنيسة ليون Leon، وتوفيت عام ٥٠٦م" وهكذا تبدو الراوية أسطورية، وليست حقيقة تاريخية قائمة بذاتها، ولاسيما إنها وردت في تاريخ جريجوري التوري، الذي عاش في القرن التالي لموت شلبريك والد كلوتيلدا، لذا يرجح أنه نقلها عن شخص غير ذي ثقة أو دخل فيها جزء أسطوري، وهو ما غلب على كثير من روايات العصور الوسطى[١٣٣].

كما يرى المؤرخ والتر بري Walter Perry أنه من الصعب على أميرة برجندية عزلت نفسها في كنيسه القديس مارتن منذ وفاة زوجها أن تفعل كل ما بوسعها لتربيه أبنائها على الأخذ بالثأر من سيجسموند ابن عمها، ومن الصعب أيضًا أن نخمن مصدر ذلك الإحساس الذي استطاع أن يخلق اضطرابًا في تأملاتها المقدسة في أديرة كنيسه القديس مارتن وأن يملأ قلبها بخطط الانتقام وإراقة الدماء، ونحن لا نستطيع

أن ننسب ثورتها في هذه المناسبة إلى ذلك الإحساس بالقسوة والظلم اللذين عانى منهما سيجريك، كما أن والد كلوتيلدا قُتل قبل عام ٤٩٠م، ولكننا نعلم أن جندوباد حينما هُزم على يد كلوفس عام ٥٠٠م حصل على شروط مُيسره، ولم يتم استخدام مقتل والد كلوتيلدا ضده في هذه المناسبة، فمن غير المحتمل أن يكون التعطش لمثل هذا الانتقام – الناتج بطبيعة الحال عن ذلك الجرح والذي ظل مشتعلاً في قلب كلوتيلدا قرابه الثلاثون عامًا– قد عاود الظهور بقوه أكبر بسبب جريمة ارتكبها شخص من جذور كريهه ضد ابنه[١٣٤].

وهكذا نرى اتفاق المصالح بين الفرنجة والقوط الشرقيين بالقضاء على مملكة البرجنديين؛ فالفرنجة يحلمون بالسيطرة على بلاد الغال جميعها واستكمال حلم والدهم، كما إنها فرصه لفرض نفوذهم وسلطتهم أو الحصول على الغنائم والاتباع التي سوف تفيدهم في تنافسهم الداخلي فيما بينهم. أما ثيودريك ملك القوط الشرقيين وجد إنها فرصه مناسبه أيضا لتوسيع مملكته، أو الانتقام لمقتل حفيده، أو ربما معاقبه البرجنديين لاشتراكهم في الحرب ضد القوط الغربيين عام (٥٠٧/٥٠٨م).

ولكن مسار الأحداث يوحى بأن هذه الحرب لم يكن لها علاقة بالثأر، بل إنها متعلقة كثيرًا بسياسة القوة والتوسع الخارجي على حساب البرجنديين. كما لاحَظَ إيان وود إن جريجوري التوري ربط الهجوم على مملكة البرجنديين مع ثأر كلوتيلدا لمقتل والديها، ولكن من المرجح أنه كان خطوة انتهازية لدفع الأزمة بعد مقتل سيجريك[١٣٥]، وزواج ثيودريك الفرنجي من ابنة سيجسموند أيضًا[١٣٦]. حيث يُعَدّ ثيودريك الأول أكبر ملوك الفرنجة عمرًا بسنوات عديدة " لديه ابنًا عمره تقريبًا من عمر أشقائه"، وأشدهم حبًا للحرب وأكثرهم قوة، وأي تقوية لنفوذه سوف تهدد نفوذ أخواته غير الاشقاء[١٣٧]. وبهذا الزواج من حفيدة ثيودريك العظيم وجندوباد ملك البرجنديين فإن ثيودريك الأول بالتالى أضافَ إلى نفسهِ هيبه ومكانة كبيرة، يجب تكون مصدر قلق لكلوتيلدا وأبنائها الصغار قليلي الخبرة. كم أن رد فعل كلوتيلدا (دعوة أبنائها) كما وصف جريجوري التوري يبدو إنه يقترح شيء هام: ذلك إن زواج ثيودريك الأول من ابنة سيجسموند يوضح نوعًا من التهديد لنفوذهم، وربما التحالف مع البرجنديين ضدهم وربما أيضًا مع البيزنطيين حيث كان سيجسموند على علاقة جيدة بهم، كما أن كلوتيلدا تعتبر نفسها بمثابة حامى لأبنائها منذ وفاة كلوفس.

أما المؤرخ ولفرام Wolfram فيرى أن مقتل سيجريك بن سيجسموند من زوجته القوطية بمثابة علامة ظاهرة لخرق التحالف بين البرجنديين والقوط الشرقيين[١٣٨]. وبشكل أكثر تحديدًا كما أشار إيان وود يحتمل أن سيجريك وريث محتمل لجده ثيودريك في إيطاليا، لذلك ربما كان القوط الشرقيين يثيرون التمرد ضد سيجسموند الذي كان يحمى مملكته من ابنه، الذي ربما كان متجاوبًا مع القوط الشرقيين وساعد تمردهم[١٣٩]. وقد حاول الملك سيجسموند بعد وفاة ابنه تقوية موقفة ضد القوط الشرقيين من خلال الألقاب الخاصة والاعتراف من الإمبراطور البيزنطي جستين الأول[١٤٠] Justin I(٥١٨-٥٢٧م) [١٤١]. وقد يكون هناك أيضًا تحدى محتمل على السلطة من شقيقه جودمار الثانى[١٤٢] Godomar II (٥٢٣–٥٣٤م) الذي سوف يصبح ملكًا كذلك بعد وفاة سيجريك.

وقد تحالف الفرنجة مع القوط الشرقيين من أجل القضاء على عدوهما المشترك[١٤٣]، واتفقا فيما بينهما على أنه إذا تأخر أحد الفريقين عن القيام بالغزو لسبب ما، فعلى الفريق الآخر أن يقوم بالغزو، وأن يلتزم الفريق الذي تأخر بدفع مبلغا من الذهب إلى الفريق الآخر، على أن يقتسما أراضي الخصم فيما بينهما[١٤٤]. بالفعل تحرك الجيش الفرنجي عام ٥٢٣م وعلى رأسه كلا من كلودومير(٥١١-٥٢٤م) ملك أورليان، شلدبرت الأول(٥١١-٥٥٨م) ملك باريس وكلوثر الأول(٥١١-٥٦١م) ملك سواسون متجها نحو مملكة برجنديا، أما الملك ثيودريك القوطي فقد أمر قائد جيشه بتأخير الزحف، وعدم دخوله أراضي العدو حتى يتأكد من انتصار الفرنجة على البرجنديين، وإذا حدث العكس فعليهم ألا يغادروا المكان الذي وصلوا إليه[١٤٥].

أما بالنسبة للملك ثيودريك الأول الفرنجي فإنه لم يشارك في هذه الحملة؛ لأنه كان على علاقة جيدة بالملك سيجسموند الذي يعتبر حماه، كما أنه لم يستطيع تقديم المساعدة له ضد أشقائه، وفي نفس الوقت لم يستطيع تقديم المساعدة لأشقائه ضد حماه، لقد كان ثيودريك الأول في موقفا حرجا، حيث كان قد تقلى مطالب من قريبة بمساعدته. ويصور ستفين وايت Stephen White مأزق ثيودريك الأول لدعم أحدهما فإنه محفوفًا بالمخاطر، أما منح أو منع الدعم للجانب الآخر سوف يثير غضب الجانب الثاني،

ولكن أي جهود للتوسط بين الاثنين يمكن أن تلاحظ كازدواجية[١٤٦]، ومع ذلك جريجوري التوري لم يقدم أي ذكر لأي استغاثة من الجانبين في بداية الحملة ربما الاثنين كلودومير وسيجسموند لم يفهموا موقف ثيودريك وفضلوا عدم توريطه في مشاركة جانب ضد آخر. وربما ثيودريك الأول اعتبر القتال المباشرة ضد الملك الفرنجي على إنه تصرف خطأ وضد معتقداته حول كيفية القرابة التي يجب أن يعاملوا بها بعضهم بعضًا أو على الأقل اتباعه لن يؤيدوه، ولكن بعد وفاة الملك سيجسموند فقط فإن وفقًا لما ذكره جريجوري التوري وافق على الانضمام لأشقائه ضد البرجنديين[١٤٧]. وقد خاض الفرنجة المعركة ضد البرجنديين دون سواهم، ووقعت مذبحة كبيرة، راح ضحيتها الآلاف من الفريقين[١٤٨]، إلى أن تمكن الفرنجة من هزيمة البرجنديين عام ٥٢٣م، وأخذوا الملك سيجسموند أسيرًا وسُجن مع زوجته وأطفاله في حصن بالقرب من مدينة أورليان[١٤٩].

وبناءً على هزيمة البرجنديون أسرع الجيش القوطي إلى ميدان القتال حسب تعليمات ملكهم، وألقوا تبعة تأخيرهم على صعوبة عبور جبال الألب، وبعد أن قاموا بدفع المبلغ المتفق عليه اقتسموا أراضي البرجنديين مناصفة مع الفرنجة. وبموجب ذلك الاتفاق استولى الجيش القوطي على الأراضي التي بين نهري الديورانس والدروم بما فيها من مدن أفينون، فيفرز، قاسون، كافاللون وكاربنتراس مقاطعة دوفين (Dauphine)، وبذلك بلغ التوسع القوطي أقصى مداه في الناحية الشمالية الغربية لمملكة القوط الشرقيين في شبه الجزيرة الإيطالية، أما الفرنجة استولوا على باقي مملكة البرجنديين. وقد استحسن بروكوبيوس القيصري سلوك ثيودريك وهو ما نستشفه من قوله: "وهكذا ظهر بعد نظر ثيودريك، لأنه بقليل من الذهب، نجح في ضم نصف أراضي عدوه دون أن يفقد أي فرد من قواته"[١٥٠]، ولم يختلف رأي كاسيدروس عن بروكوبيوس حيث علق عليه بقوله: "كان انتصارًا بدون حرب"[١٥١].

٨-الحملة الفرنجية الثانية ضد البرجنديين عام ٥٢٤م

بعد رحيل قوات الفرنجة والقوط الشرقيين نجح الملك (Godomar II) جودمار الثاني (٥٢٣–٥٣٤م) شقيق الملك سيجسموند الراحل في جمع شتات باقي البرجنديين وتولى عرش المملكة عام ٥٢٣م، وكان على الملك الجديد التصدي لهم ومنعهم من تصفيه مملكته، ومن حسن حظه أنه نجح في هذا إلى حد بعيد[١٥٢]. اعتقد ملوك الفرنجة أنه بعد القبض على سيجسموند وعائلته وأسرهم، أنهم قد استولوا على مملكة البرجنديين وبالتالي سحبوا قواتهم وعادوا مرة أخرى إلى بلادهم. مما ممكن جودمار والجنود البرجنديين المخلصين لأميرهم، من جمع شتات الجيش البرجندي، وأصبح لديه القدرة على استعادة السيطرة على جميع المدن التي قد استسلمت للفرنجة، والسيطرة على مملكة شقيقه الراحل، باستثناء عشر مدن تخلوا عنها للقوط الشرقيين بموجب معاهدة بين الطرفين مقابل حصول جودمار على مساعدات سرية من القوط الشرقيين[١٥٣].

ولكن عندما علم الملك كلودومير بتلك الأخبار فأنه صمم على استعادة السيطرة على مملكة البرجنديين، كما صمم على تنفيذ حكم الإعدام في عدوه الملك سيجسموند وزوجته وأطفاله قبل مغادرته للحملة البرجندية الثانية، ولم يستطع أحد ردعه أو إثنائه عن هدفه الدموي. حيث إنه رد على نصيحة القديس افيتوس الذي نصحه بعدم قتل سيجسموند وزوجته وأولاده قائلاً: "تبدو لي نصيحة حمقاء أن أترك بعض أعدائي في الداخل، بينما أسير ضد الآخرين، بحيث يكون الأول في المؤخرة والأخير في المقدمة، وأصبح أنا بين اثنين من أعدائي. فالنصر سوف يكون أفضل وأكثر سهولة من خلال فصلهما عن بعضهما"[١٥٤]. ووفقا لهذه الخطة، نفذ حكم الإعدام في الملك سيجسموند وعائلته بالقرب من مدينة أورليان، وألقى جثثهم في أحد الآبار[١٥٥].

بعد أن قام كلودومير بقتل الملك سيجسموند وعائلته فأنه طلب المساعدة من شقيقه ثيودريك الأول ضد البرجنديين، وقد وعده ثيودريك بتقديم المساعدة، وبالفعل توجه الملكان إلى برجنديا، والتقى الجيشان بالقرب من بلده فيزرون (Vézeronce) على نهر الأيسر (Isere) في فيينا عام ٥٢٤م، واستطاع الفرنجة في بداية المعركة هزيمه الملك جودمار الذي فر على الفور، فتعقبه الملك كلودومير الذي بَعُد عن رجاله بمسافة كبيرة، فاستطاع بعض أفراد الجيش البرجندي خداع الملك كلودومير على إنهم من جنوده الفرنجة وبالفعل انطلت الحيلة على الملك كلودومير، وعندما اصبح في وسط أعدائه، فأنهم قاموا بقتله وقطعوا رأسه ووضعوها على رمح ورفعوه عاليا[١٥٦].

ويرى المؤرخ كورث (Kurth) أن معركة فيزرون كانت كارثة فظيعة كُسر فيها شرف الجيش الفرنجي تقريبا، الذي كان في ذلك الحين الجيش الذي لا يقهر، حيث سقط كلودومير قتيلاً، وضرب الخوف قلوب جنوده، فهربوا مرتبكين. كما يخبرنا المؤرخ البيزنطي اجياثاس (Agathias) عن تلك المعركة قائلاً عن البرجنديين: "أنهم أنهوا الحرب بالأسلوب الأكثر فائدة وعلى شروطهم الخاصة، أما بالنسبة للبقايا المتفرقة من الجيش الفرنجي فكانوا شاكرين السماح لهم بالعودة إلى منازلهم"[١٥٧]. وهكذا نجد إن الملك كلودومير كان عازمًا بشكل واضح على غزو مملكة البرجنديين، ووجد في مطالب الثأر مبررًا نافعًا لمعاركة، ولكن هذه الحملة توضح أنها ليس علاقة بالانتقام بل متعلقة بالغزو والنهب وفرض النفوذ[١٥٨].

٩-الحملة الفرنجية الثالثة ونهاية مملكة البرجنديين عام ٥٣٤م

لم يتخلى الملوك الميروفنجيين عن هدفهم في استكمال غزو مملكة البرجنديين، حيث كانت مملكة البرجنديين تسيطر على جانب كبير من بلاد الغال كما ذكرنا سابقا، لذلك كانت فكرة غزو مملكة البرجنديين تسيطر على ذهن الملوك الميروفنجيين. وفي نفس الوقت أمرًا مؤجلاً لابد من تحقيقه عند الوقت المناسب.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا انتظر الفرنجة كل تلك الفترة حتى عادوا لاستكمال غزو مملكة البرجنديين؟

للإجابة عن هذا التساؤل لابد من معرفة الاوضاع الداخلية في مملكة الفرنجة، فقد توفي الملك كلودومير في معركة فيزرون عام ٥٢٤م، مما أدى إلى نشوب صراع داخلي في مملكة الفرنجة بين الملوك الباقين من أجل الاستيلاء على مملكة الأخ الراحل كلودومير وتقسيمها فيما بينهم، ولاسيما أن هذا الأخ لم يترك سوى بعض الأبناء الصغار، ولهذا اجتاح كل من شلدبرت وكلوثر أراضيه على نهر اللوار[١٥٩]، ولكن بعد ذلك انشغل كلا من كلوثر وشلدبرت بحربهم ضد القوط الغربيين[١٦٠]، أما ثيودريك الأول فقد انشغل بحربهِ ضد الثورنجيين تلك الحرب التي اشترك فيها كلوثر الأول (٥١١-٥٦١م) ملك سواسون مقابل جزء من الغنائم التي يحصلوا عليها[١٦١]. مما ساعد جودمار على التقاط أنفاسه شيئًا ما، واستعادة مملكته مثلما فعل من قبل بعد مقتل شقيقه سيجسموند.

أما بالنسبة للملك جودمار فقد انتهز فرصة انشغال الفرنجة، واتجه إلى ترتيب المملكة من الداخل فاستدعى شعبه إلى جمعية في إمبرويكس (Amberiex). تلك الجمعية الجرمانية التقليدية التي تحولت إلى اجتماع للأزمات، وتشهد جميع القوانين التي صدرت عنها على فوضى عميقة داخل المملكة، كما أنها تسلط الضوء على ظروف المملكة بعد حرب ٥٢٣م. تلك الفترة التي كان يكثر فيها فقدان البشر في هذا الوقت من الإبادة. وسعى جودمار إلى جلب قوة جديدة إلى الدولة بإقرار وضع البرجنديين العائدين من الخارج إلى وطنهم[١٦٢].

ولذلك اتحد الملوك الميروفنجيين معًا لاستكمال غزو مملكة برجنديا، واستأنف كلا من شلدبرت الأول وكلوثر الأول وثيودريك الأول تصفية أملاك البرجنديين وتحقيق ذلك المشروع الذي طال انتظاره، وانطلقت الحملة الفرنجية هذه المرة عام ٥٣٤م صوب مملكة البرجنديين ونجحت في ضرب الحصار على مدينة أوتون (Autun) مقر الملك جودمار، وحينما تصدى لهم جودمار محاولاً تخليص المدينة، تعرض لهزيمة ساحقة فر على أثرها إلى إيطاليا متخليا عن مملكته، وأخذ الفرنجة يستولون على البقية الباقية من مدن برجنديا الواحدة تلو الأخرى، حتى وصلوا بفتوحاتهم إلى حدود المملكة البرجندية مع مملكة القوط الشرقيين على جبال الألب ونهر الدروم، وليصبحوا بذلك سادة غالة كلها تقريبا ومن بينها برجنديا، وبهذا أضافوا الأراضي والثروة والموارد العسكرية لمملكة البرجنديين إلى ممتلكاتهم ، وقام ملوك الفرنجة بتقسيم أراضي البرجنديين فيما بينهم، فاستلم ثيودريك المدن التي تقع في الجزء الشمالي، في حين حصل شلدبرت على الجزء الأوسط بما في ذلك مدن ليون وأفينون، وحصل كلوثير على الجزء الجنوبي من المملكة[١٦٣].

وجدير بالذكر أنه رغم العداوة التي كانت تظهر بين الحين والآخر بين الملوك الميروفنجيين وسعيهم لخلع بعضهم البعض من الحكم أو محاولة قتل بعضهم الآخر، إلا إنهم - في بعض الأحيان - كانوا يوحدون قدراتهم نحو العدو الخارجي، وفي أوقات عديدة كانوا يطلبون الدعم العسكري من بعضهم البعض، مثلما فعل الملك ثيودريك عندما طلب العون من أخواته غير الأشقاء لشن هجومه على مملكة ثورنجيا، وكذلك عندما قام بتقديم الدعم لهم للاستيلاء على مملكة البرجنديين. وبذلك نجح الملوك الميروفنجيين

في غزو مملكة البرجنديين والسيطرة عليها نهائيًا خاصة بعد هروب الملك البرجندي جودمار.

خَاتِمَةٌ

وهكذا نجح الفرنجة في القضاء على مملكة البرجنديين تلك المملكة التي استمرت مائة وعشرون عامًا تقريبًا، ويرى أحد المؤرخين أن الجرائم العديدة التي ارتكبها جندوباد، والحروب المؤسفة التي كانت تلحق بها، وتقاعس سيجسموند، بالإضافة إلى ضعف جودمار كل هذا أدى إلى نهاية سريعة لتلك المملكة. كما يعتقد أن أحد الأسباب الرئيسة التي أدت إلى تدمير تلك المملكة على نطاق واسع في بدايات عهد جندوباد هي التغييرات التي أدخلها قانون جندوباد في الدستور البدائي للحكومة. تلك القوانين التي أدت إلى اختلاط البرجنديين مع الغالورومان بالقوانين النزيهة العامة المشتركة التي خلطت، إذا جاز التعبير، الفاتحين بالمهزومين، وسرعان ما اخذوا أساليب الغالورومان. تلك الأساليب التي خففت تدريجيًا من العبقرية العسكرية التي كانوا مدينين بها لمزاياهم الأولى[١٦٤]. وهكذا يتضح أن العلاقات السياسية بين الفرنجة والبرجنديين اتسمت بالود تارة والعداء تارة أخرى، وكانت العلاقات الودية مثل مصاهرة كلوفس وكلوتيلدا ومصاهرة ثيودريك الأول وسوافيجوثا، إلا أن تلك العلاقات لم تدم بسبب رغبة الملوك الميروفنجيين في الاستيلاء على مملكة البرجنديين.

الهَوامِشُ:

(١) **لوحة بويتنجر**: هي نسخة من القرن الثالث عشر لخريطة رومانية قديمة تبين الطرق الإمبراطورية العسكرية صُنعت في عام ١٢٦٥ من قبل راهب كولمار Colmar (الألزاس Alsace) على ١٢ ورقة من الرق. تحمل اسم جامع التحف كونراد بويتنجر Konrad Peutinger الذي ورثها عن صديقه كونراد سيلتيس Conradus Celtis الذي عثر عليها في عام ١٤٩٤، أراد بويتنجر نشر هذه الخريطة، لكنه توفي قبل أن يتمكن من ذلك. للمزيد انظر:

https://www.britannica.com/topic/Peutinger-Table

(2) Gregory of Tours The History of the Franks, Translated by Ernest Brehaut, New York: Columbia University Press,1916, P.27;

انظر أيضًا، عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، دار المعرفة الجامعية ١٩٨١، ص٨٧؛ محمود القيسي: **العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية**/ أطروحة دكتوراه إشراف صالح العابد، كلية الآداب-جامعة بغداد ٢٠٠٣، ص ٢٢.

(٣) **نهر السوم**: ينبع نهر السوم من وسط بلاد الغال، ويمتد مجراه شمالاً ليصب في بحر المانش Manche. انظر:

Moore: Encyclopedia of Places, p.727.

(٤) **تورناي**: تقع في شمال غرب الغال، استولى عليها يوليوس قيصر أثناء حروب الغال، ثم استولى عليها كلوديو ملك الفرنجة واتخذها عاصمة لمملكته الناشئة. انظر:

Moore: Encyclopedia of Places, p.791.

(5) Gregory of Tours: Franks, P. 31 ;

أنظر أيضًا، عمران: **معالم تاريخ أوروبا**، ص٨٧؛ فاطمة الشناوي: "**معركة سواسون عام ٤٨٦م**"، مجلة كلية الآداب جامعة حلوان، العدد ٢٢ لسنة ٢٠٠٧، الجزء الثاني، ص٨٧٥-٨٧٤.

(6) Jordanes: The Gothic History of Jordanes, eng . trans . Charles Christopher Mierow (Princeton University Press, 1915), p. 112;

انظر أيضًا، الحويري: **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**، القاهرة ١٩٩٥، ص ١٥٣.

(7) Fredegar :Fredegarii et aliorum chronica, In Monumenta Germaniae Historica Scriptores Rerum Merovingicarum (Hannoverae Impensis Bibliopolii Hahniani MDCCCLXXXVIII) , edidit Bruno Krusch ,Tomvs II, (Hannoverae. 1888),:pp.97-8 ; Jane Ellen Woodruff: The "Historia epitomata" (third book) of the "Chronicle" of Fredegar : an annotated Translation and historical analysis of interpolated material, Ph. D. University of Nebraska-Lincoln 1987,pp.24-5;

انظر أيضًا، محمود القيسي: **العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية**، ص٢٤؛ فاطمة عبد اللطيف الشناوي: **معركة سواسون ٤٨٦م**، مجلة كلية الآداب: دورية علمية محكمة (جامعة حلوان). س ١١، ع ٢٢، ج ٢(يوليو ٢٠٠٧)، ص٨٧٦.

Franks, P. 35. : Gregory of Tours(٨)

(٩) **سياجريوس**: هو ابن اجيديوس Aegidius الحاكم الرومانى في بلاد الغال ، وقد اجيديوس حكم الغال من الإمبراطور ماجوريان (٤٦١-٤٥٧م) واستقل بعد وفاة ماجوريان واتخذ من مدينة سواسون عاصمة له، وقد دخل اجيديوس في صراع مع ثيودريك الثاني (٤٥٣-٤٦٦م) ملك القوط الغربيين انتهى بمقتله، وتولى سياجريوس الحكم بعد وفاة ابيه..... للمزيد انظر:

Priscus of Panium: In The Fragmentary Classicising Historians of the Later Roman Empire, vol, 2, trans, Blockley, Roger C (Francis Cairns.1983), p.343; Gregory of Tours: Franks, P. 36; Woodruff: The Third book of the Chronicle of Fredegar, p.24.

(١٠) **شالون**: مدينة فرنسية تقع على نهر المارن Marne في الشمال الشرقي من باريس، وتبعد حوالي ٤٣كم من مدينة ريميس، وقعت بها معركة شالون سنة ٤٥١م بين الرومان والهون. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.165.

(١١) **سواسون**: مدينة فرنسية تقع في الشمال الشرقي من باريس وهي عاصمة لمقاطعة ازن Aisne وتبعد ٣ كم جنوب غرب لاوون laon وهي اسقفية وبها اسوار مزينة بالنباتات العربية وفيها كاتدرائية من القرن السابع، اقيمت على انقاض قصور ميروفنجية.انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.727.

(١٢) **بريتاني**: Bretagne أو Britaney ويطلق عليها إقليم ارموريكا أيضًا، يحدها من الغرب المحيط الأطلنطي، ومن الشمال بحر المانش ونورمنديا، ومن الجنوب بواتو Poitou ومن الشرق مملكة الفرنجة، وعاصمتها هي مدينة ران Rennes. وتنقسم بريتاني إلى بريتاني العليا وبريتاني السفلى، وجبالها قليلة الارتفاع، وأنهارها كثيرة. استوطنتها قبائل الكلت في أواخر القرن الخامس الميلادي. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.127; Marie Nicolas Bouillet: Dictionnaire universel d'histoire et de géographie, (paris 1872), pp. 282-3

(13) Gregory of Tours: Franks, P.36 ;

انظر أيضًا، فاطمة الشناوي: **معركة سواسون**، ص٨٨٠-٨٨١.

(١٤) **راجناشار**: هو ملك كامبري Cambrai وهو من أقارب كلوفس، وكان قد أصطحبه معه أثناء محاربة سياجريوس، وقد قتله كلوفس هو وأخوته فيما بعد وأستولى أراضيهم وثرواتهم..... للمزيد انظر،

Gregory of Tours: Franks, PP.49-50;

انظر أيضًا، عليه الجنزورى: **جريجوري التوري وقيام دولة الفرنجة**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٨٨، ص ١١١؛ عمران: **المؤرخ جريجوري التوري وتأريخه للملك كلوفس: من خلال كتاب تاريخ الفرنجة**، جامعة بيروت العربية، بيروت ١٩٨٠، ص ٤٣-٤٤.

(15) Gregory of Tours: Franks, P. 36 ;

أنظر أيضًا، عليه الجنزورى: **جريجوري التوري**، ص ٨٨؛ عمران: **جريجوري التوري**، ص ٢٦؛ فاطمة الشناوي: **معركة سواسون**، ص٨٨٢،٨٨٧.

(16) Gregory of Tours: Franks, P. 36 ;

انظر أيضًا، ديفز: **أوروبا في العصور الوسطى**، ترجمة عبد الحميد حمدي، ط١، الإسكندرية ١٩٥٨، ص٤٢؛ الشيخ: **الممالك الجرمانية في أوروبا في العصور الوسطى**، دار الكتب الجامعية، (القاهرة ١٩٧٥)، ص١٨٨.

(١٧) **سبتمانيا**: هي منطقة ساحلية تمتد من جبال البرانس غربًا إلى مصب نهر الرون شرقا، سميت بذلك الاسم لأنها تشمل سبع مدن وهم نيم وناربون واجديا وبيرنييه ولوديف وكركسون وعاصمتها مدينة ناربون. وتسمى أيضًا المقاطعة الناربونية أو بلاد الغال الناربونية و جوثية أو القوطية، انظر: اينهارد: **سيرة شارلمان**، ترجمة عادل زيتون، دمشق، دار إحسان للطباعة والنشر، ١٩٨٩، حاشية ص١١٣؛ نجاة محمد محمد عبداالله: **السياسة الخارجية لمملكة الفرنجة في عهد شارلمان (٧٦٨- ٨١٤م)**، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب جامعه بنها ٢٠٠٥، حاشية ص ٥١.

(١٨) محمود القيسي: **العلاقات الخارجية للدولة الكارولنجية**، ص٢٥.

(19) Thatcher (O): A Source Book for Medieval History, New York, 1905, P.36;

للمزيد انظر أيضًا، الحويرى: **رؤية في سقوط الإمبراطورية الرومانية**، القاهرة ١٩٩٥، ص١٤٠؛ بدران عبد الونيس محمد: **البرجنديون في غالة (٤٧٣-٥٣٤م)**، رسالة دكتوراه غير منشورة بكلية الآداب جامعة المنيا ٢٠١٩، ص٥، ٨-٩.

(٢٠) **نهر الماين**: يقع نهر الماين في ألمانيا طوله حوالي ٥١٥ كم (٣٢٠ ميل)، ويعتبر أطول روافد نهر الراين اليمنى، يمر خلال الولايات بافاريا وبادن - فورتمبيرغ وهسن. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.484.

(٢١) موس: **ميلاد العصور الوسطى**، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد؛ راجعه السيد الباز العريني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٨، ص٨٨؛ عمران: **معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى**، ص٧٥؛ الحويرى: **سقوط الإمبراطورية**، ص١٤٠؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٩.

(22) Olympiodorus of Thebes: in The Fragmentary Classicising Historians of the later Roman Empire, Trans by, R. C. Blockley, Francis Cairns 1983, p.183; Gordon: The Age of Attila, p.39; Drinkwater: The Usurpers Constantine III and Jovinus, p.288.

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ١٨-١٩.

(٢٣) ورمز: تقع ورمز بالقرب من الضفة اليسرى لنهر الراين على بعد ٣٤كم جنوب غرب دوقية هس- دارماستاد -Hesse Darmastead وهي حاليا مدينة بتلك الدوقية ، ويوجد بورمز كاتدرائية قوطية. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.865.

(24) Edouard Sécretan: Le premier royaume de Bourgogne, (Lausanne 1868), p. 9;

انظر أيضًا، الحويرى: **سقوط الإمبراطورية**، ص١٤٠-١٤١؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص١٩.

(25) Sécretan: Le premier royaume de Bourgogne, p. 9;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص٢٩؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص١٩.

(26) Hydatius: The Chronicle of Hydatius, Edited with an English Translation by R. W. Burgess, (Oxford.1993), p.93; Gordon: Age of Attila,p.39; George (P. M.): Late Roman Warlords, Oxford, 2002, p. 12.

انظر أيضًا، الحويرى: **سقوط الإمبراطورية**، ص١٤١؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٢٣.

(27) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(28) Sécretan: Le premier royaume de Bourgogne, p. 51; Gordon: Age of Attila, p.205.

(٢٩) **سابوديا**: أو سافوى Savoy الحالية هي منطقة تقع في شمال غرب إيطاليا، وقد ذكرت سافوى لأول مرة في كتاب اميانيوس مارسلينوس Ammianus Marcellinus ، سيطر عليها الرومان ثم تم احتلالها من قبل البرجنديين سنة ٤٤٣م أو ٤٤٧م، ثم أصبحت سافوى جزءًا من مملكة الفرنجة بعد القضاء على مملكة البرجنديين عام٥٣٤م وحاليًا تنتمى لإيطاليا. للمزيد انظر،

Ammianus Marcellinus: eng. Trans, Rolfe, (J.c.), vol. 1, (London. 1935), p.193; Gregory of Tours: Franks, P. 166; Ian Wood: The Merovingians kingdoms, 450 – 751, (London and Newyork. 1991), p.8; Moore: Encyclopedia of Places, pp.699-700.

(30) Wood: The Merovingians kingdoms, p.8;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٧؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٢٤-٢٥.

(٣١) الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٧-١٣٨؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٣١،٢٨.

(32) Avitus of Vienne: Introductionl of Letters and Selected Prose, Translated with an introduction and notes by Danuta Shanzer and Ian Wood, (Liverpool University Press. 2002),p.15;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٧-١٣٨؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٣١.

كما استغل البرجنديون فرصة وفاة الإمبراطور ماجوريان عام ٤٦١م لتوسيع مملكتهم الصغيرة على حساب أراضي الإمبراطورية الرومانية الغربية، فاستولوا على ليون lyons، وفيينا Vienne، وداي Die، وفيفاري Vivarais فيما بين سنة ٤٦١-٤٧٠م، لكنهم لم يستطيعوا الانتصار في بروفانس Provence وفيما وراء جبال الألب، بسبب وجود آلاريك ملك القوط الغربيين، فقد كان يتحكم حينذاك في مداخل نهر الرون والساحل البروفنسالي. انظر،

Sécretan: Le premier royaume de Bourgogne, P. 51;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٨-١٣٩؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٣٥.

(٣٣) فيينا: مدينة تقع على الضفة اليسرى لنهر الرون، وعلى بعد ٢٧كم إلى الجنوب من ليون. تحتوي آثارًا رومانية رائعة، وبخاصة معبد أغسطس كما تحتوي على كنيسة القديس موريس. انظر:

Moore: Encyclopedia of Places, p.833.

(34) Sécretan: Le premier royaume de Bourgogne, p. 51;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٨-١٣٩؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٤٨.

ليون: مدينة فرنسية تقع على نهر الرون، وهي عاصمة مقاطعة الرون وثالث أكبر المدن في فرنسا، أسست عام ٤٣ق.م كمستعمرة يونانية وكانت أول مدينة في غالة تحولت إلى المسيحية في القرن الثاني الميلادي. انظر:

Moore: Encyclopedia of Places, p.477.

(35) Priscus of Panium: Fragmentary, p.373; John of Antioche: Fragments, eng. trans, Gordon, (C.D.), in the Age of Attila, Fifth Century Byzantium and the Barbarians, (Michigan. 1960), Pp.122-3; Wood: The Merovingians kingdoms ,p.15.

(٣٦) الإمبراطور اوليبريوس (٤٧٢م): هو زوج ابنة فالنتيان الثالث، عينه ريكيمير امبراطور عام ٤٧٢م، ولكنه لم يبقي في الحكم غير شهرين فقط حيث توفي في نفس العام. انظر، سيد أحمد على الناصرى: **الرومان من القرية إلى الإمبراطورية**، القاهرة ١٩٧٦، ص ٤٨٢؛ مصطفى الروبي: الإمبراطور زينون، ص٨٣.

(37) Gordon: Age of Attila, p.126; George: Late Roman Warlords, P. 242.

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٤٥.

لم تحدد المصادر تاريخا محددا لحصول جندوباد على هذه الألقاب من قبل الإمبراطور أو ليبريوس، إلا أن تاريخ التعيين يجب أن يكون خلال الفترة ما بين ١٨ أغسطس ٤٧٢م وهو تاريخ وفاة ريكيمير، و٢٩ نوفمبر من نفس العام وهو وفاة الإمبراطور اوليبريوس. انظر،

George: Late Roman Warlords, P.242.

(٣٨) الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٩.

(39) John of Antioche: Fragments, eng. trans, Gordon, (C.D.), in the Age of Attila, Fifth Century Byzantium and the Barbarians, (Michigan. 1960), p.123; Evagrius: The Ecclesiastical History of Evagrius, eng. Trans, Whtby, (M.), (Liverpool. 2000), P.160; Wood: The Merovingians kingdoms ,p.15;

انظر أيضًا، سيد أحمد علي الناصري: **تاريخ الإمبراطورية الرومانية السياسي والحضاري**، ص ٤٨٢؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٤٥.

(40) John of Antioche: Fragments, in The Age of Attila, p.123; Wood: Merovingians kingdoms, p.15;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٤٦.

(41) Wood: The Merovingians kingdoms, 450 – 751, (London and New York. 1991), p.15.

(42) Oman: The dark ages, London1898, p.25.

تشير بعض الروايات إلى أن جندوباد لجأ إلى قتل أشقائه لينفرد بالحكم، فقتل شقيقه شلبريك الثاني لينفرد بالسلطة في المملكة، ويمد نفذوه إلى ساحل البحر المتوسط، غير أن الصراع بينه وبين شقيقه الآخر جوديجزل Gedegissl قد تأجل لفترة أخرى. انظر،

Gregory of Tours: Franks, P.141;

انظر أيضًا، الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٣٩.

(٤٣) **أفينون**: تقع مدينة أفينون في وادي نهر الرون على الضفة اليسرى في جنوب شرق غاله، تبعد ٩١كم عن مارسيليا، وهي من أكبر المدن تتميز بأنها سوق ومركز لتعليب الخضروات. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.66.

(44) Oman: The dark ages, p.25.

(٤٥) الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٤٠.

(٤٦) الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٤٠.

(٤٧) التزمت كرونا بالجانب الديني، ولا نعرف عنها شيئا إلا أنها أسست كنيسة القديس فيكتور في إحدى ضواحي جنيف. انظر،

Kurth: Clovis, PP.290-291.

(48) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(49) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(50) Wood: The Merovingian Kingdoms, p.43.

(51) Michel Rouche, Clovis (Paris: fayard, 1996), p.229.

(52) Rouche: Clovis, p.241.

(53) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(54) Moorhead: Theoderic in Italy,p. 214.

(55) Wood: The Merovingian Kingdoms, p.42.

(56) Ewig, Eugen: "Die Namengebung bei den ältesten Frankenkönigen und im merowingischen Königshaus" In Francia 18, no. 1 (1991):, Pp.50,54.

(57) Crisp: Marriage and Alliance, Pp.61-62.

(58) A. Van de Vyver, “La Victoire contre les Alamans et la Conversion de Clovis (suite).”, In Revue Belge de Philologie et d’Histoire tome 16, (1937), p.85.

(59) Crisp: Marriage and Alliance, P. 62.

(60) Eugen Ewig, "Studien zur merowingischen Dynastie" Frühmittelalterliche studien 8 (1974), Pp. 15-59. p.41.

(61) Crisp: Marriage and Alliance, P. 63.

(62) See also the introductions to J.M. Wallace-Hadrill, The Fourth Book of the Chronicle of Fredegar, Press, 1960.

(٦٣) يدعوها جريجوري التوري كرونا Chrona، ولكن فريديجار يدعوها سيديليوبا Sideleuba، ويعتقد والاس هاردلى Wallace-Hadrill في ترجمته للكتاب الرابع من حوليه فريديجار أن سيديليوبا هي امرأة أخرى غير شقيقة كلوتيلدا. انظر،

Gregory of Tours: Franks, P.38; Fredegar :Fredegarii et aliorum chronica, In Monumenta Germaniae Historica Scriptores Rerum Merovingicarum (Hannoverae Impensis Bibliopolii Hahniani MDCCCLXXXVIII), edidit Bruno Krusch, Tomvs II, (Hannoverae. 1888), p.99; Fredegar: The Fourth Book of the Chronicle of Fredegar, English & Latin with its continuations. Translated by J.M. Wallace-Hadrill. Westport, CT: Greenwood Press, 1981.p.14.

(64) Fredegar: III, MGH SRM II,PP.99-100; Woodruff: The Third book, p.32.

(65) Fredegar: III, MGH SRM II, PP.99-100; Woodruff: The Third book, p.32.

(66) Fredegar: III, MGH SRM II, PP.99-100; Woodruff: The Third book, p.32.

(67) Fredegar: III, MGH SRM II, PP.99-100; Woodruff: The Third book, p.32.

(68) Fredegar: III, MGH SRM II, PP.99-100; Woodruff: The Third book, p.33.

(69) Liber Historiae Francorum, In Monumenta Germaniae Historica Scriptores Rerum Merovingicarum (Hannoverae Impensis Bibliopolii Hahniani MDCCCLXXXVIII) , edidit Bruno Krusch ,Tomvs II, (Hannoverae. 1888), p.256.

(70) Liber Historiae Francorum, P.256.

(71) Liber Historiae Francorum, P.258.

(72) Werner, Karl Ferdinand: Histoire de France: Les origines (avant l’an mil) (Paris: Fayard, 1984), p.304.

(73) Crisp: Marriage and Alliance, P. 68.

(74) Crisp: Marriage and Alliance, P. 68.

(75) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(76) Gregory of Tours: Franks, P.141.

(77) Bury. (T.B.): The Invasions of Europe by Barbarian, Aseries of Lecture, without Numbers of the Pages, (London. 1928), Lecture 13, PP.115-116;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٢.

(78) Marius of Avenches in Chronica Minora Saec. IV. V. VI. VII edidit Theodorus Mommsen (Berolini apud Weidmannos MDCCCXCIII.1898). Monumenta

Germaniae Historica. Avctorum Antiquissimorum Tomvs, XI. VOL. II, p.231.

(79) Gregory of Tours: Franks, P.145.

(80) Kurth: Saint Clotilda, London, 1906,P.59;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٣.

(81) Passio Sancti Sigismundi Reges et Martyris et Sociorum, ed. By. Krusch and W. Levison, (M. G. H), Scriptores Rerum Merowingicarum, (Hannover, 1888), p. 333

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٣.

(٨٢) بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٣.

(83) Kurth: Saint Clotilda, P.60;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٣.

(84) Kurth: Saint Clotilda, P.60;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٣.

(85) Gregory of Tours: Franks, P.145.

(86) Wood: The Merovingians kingdoms, p.43;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٤.

(87) Oman: Dark Ages, pp. 61-62; Bachrach: Merovingian Military Organization, P.9.

انظر أيضًا، محمد مرسي الشيخ: **تاريخ أوربا في العصور الوسطى**، ط٢٠٠٠، ص١٤٥؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٤.

(٨٨) **ديجون**: مدينة فرنسية تقع على الطريق الرئيسي الذي يربط سواحل البحر المتوسط بشمال أوروبا بين منطقة باريس وحوض نهر الرون، وعلى بعد ٣١٠ كم جنوب شرق باريس ١٩٠كم شمال مدينة ليون. كانت مقرًا لدوقات برجنديا في القرن الرابع والخامس عشر الميلاديين. انظر،

Moore: Encyclopedia of Places, p.226.

(89) Gregory of Tours: Franks, PP.41-42.

(90) Gregory of Tours: Franks, PP.42-43.

(91) Gregory of Tours: Franks, PP.42-43.

(92) Gregory of Tours: Franks, P.43.

(93) Gregory of Tours: Franks, P.147; Crisp: Marriage and Alliance in The Merovingian Kindoms, PP.72-73.

(94) Marius of Avenches: MGH AA XI: P.234 .

(95) Crisp: Marriage and Alliance, P.73.

(96) Crisp: Marriage and Alliance, PP.73-74.

(97) Crisp: Marriage and Alliance, P. 74.

لم يعد كلوفس "لمهاجمة جندوباد مرة أخرى عندما قتل جوديجزل، وإنما أرسل حليفه من الجنوب ثيودريك، ملك القوط الشرقيين، الذي احتل ممرات جبال الألب، واستولى على مقاطعة مارسيليا، وتركها له جندوباد الذي نجح، بفضل هذا التنازل وبلطافته السياسية نحو رجال الدين الكاثوليك، في إنقاذ ما تبقى من ولاياته. كما انه من الصعب تفسير عدم تحرك كلوفس خلال هذه الحملة التي قام بها جندوباد لاسترداد مملكته، وربما يرجع ذلك إلى أنه كان هناك انفجار كبير لشعور البرجنديين تجاه الوجود الفرنجي في برجنديا، أو أن جندوباد بعد أن أضاف ممتلكات شقيقه إلى ممتلكاته، أصبح قويا بشكل كبير جعل تدخل كلوفس مرة أخرى شيئا من العبث. انظر،

Hodgkin, (TH.): Theoderic the Goths, (New York and London, 1891),194;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٧.

(98) Kurth (G.): Clovis, Paris, 1895,P.377; Favrod (J): Les Burgondes: un royaume oublié au coeur de l'Europe ,2002. P.91.

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٩.

(99) Kurth: Clovis, P.377.

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٩-٧٠.

(100) Kurth: Clovis, P.377.

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٦٩-٧٠.

(101) Wolfram, History of the Goths, trans. Thomas J. Dunap (Berkeley: University of California Press, 1997), p. 192.

(102) Gregory of Tours: Franks, P. 153.

(١٠٣) بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، دراسة وترجمة وتعليق عفاف سيد صبره، القاهرة، دار الكتاب الجامعي، ١٩٨٧، ج١، ص٩٢.

(104) Gregory of Tours: Franks., P. 46; Isidore of Seville: History of the kings of the Goths, Vandals, and Suevi, Translated From The Latin by Guido Donini and Gordon B. Ford, (Leiden 1970), P. 97; See Also, Schmidt: "The Visigoths in Gaul", 412 – 507, Cambridge Medieval History, (Cambridge. 1911), P. 287; Wood: Merovingian, P. 42.

(105) Gregory of Tours, Franks P. 153;

انظر أيضًا، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين في شبه الجزيرة الإيطالية (٤٩٣ – ٥٦٣م)**، كلية البنات – جامعة عين شمس ٢٠١١، ص ٢٣١.

(106) Gregory of Tours: Franks, P. 154.

(١٠٧) بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، ج١، ص٩٢؛ إسحق عبيد: **من آلارك إلى جستنيان، دراسة في حوليات العصور المظلمة**، الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٧٧، ص ٨١؛ إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٣١.

(108) Gregory of Tours: Franks, P. 154;

انظر أيضًا، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص ٢٣١.

(109) Gregory of Tours: Franks, 154; See Also, Pfister: "Gaul under The Merovingian, P. 114.

(110) Gregory of Tours: Franks, 154; See Also, Pfister: "Gaul under The Merovingian, P. 114 ; Wood : Merovingian : P. 46;

أنظر أيضًا، إسحق عبيد: **من آلارك إلى جستنيان، دراسة في حوليات العصور المظلمة**، ص٨١، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص ٢٣١.

(111) Jordanes: The Gothic, P. 96; See Also, Pfister: Gaul under the Merovingian Franks", in Cambridge Medierval History vol. II, (Cambridge. 1913), P.11;
أنظر أيضًا، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٣١.
(112) George: Late Roman Warlords, P. 275.
(113) Gregory of Tours: Franks, P.162.
(114) Eugen Ewig: "Studien zur merowingischen Dynastie", p.40.
(115) Gregory of Tours: Franks, P. 165.
(١١٦) **سوافيجوتا**: هي ابنة الملك سيجسموند من زوجته الأولى اوستروجوتا وتعد سوافيجوتا حفيدة ثيودريك العظيم، وقد زوج منها الملك ثيودريك الأول وقد تم ذكر ذلك الزواج أثناء الحملات التي أسفرت عن غزو برجنديا، ولكن لم يشير جريجوري إلى اسمها، وتم ذكر اسمها في كتاب فلودوارد: تاريخ كنيسة ريمس (Flodoard, Histoire de l'Eglise de Reims) في الكتاب الثاني فقرة رقم ١ ... للمزيد أنظر،
Flodoard, Histoire de l'Eglise de Reims, Trans, M Guizot, (Paris.1824), p 130.
(117) Gregory of Tours: Franks, P.165.
(118) Ryan Patrick: Marriage and Alliance, p. 91.
(١١٩) **البطريق**: منصب مدني ظهر في أواخر عصر الجمهورية الرومانية، وقد تلاشى تدريجيًا في عصر الإمبراطورية، حيث وقع أصحابه ضحايا للوشاة والمخبرين، وقد أعاد الإمبراطور قسطنطين الكبير ذلك المنصب مرة أخرى، وجعله منصبًا شرفيًا أكثر منه منصبًا فعليًا أو حقيقًا، وكان ذلك اللقب أعلى رتبه بعد الإمبراطور والقنصل، وقد منح الأباطرة هذا اللقب لحكام الولايات الإمبراطورية من الدرجة الأولي في حين منحوه للبرابرة بهدف إشباع غرورهم واسترضائهم. وأصبح صاحبه بمثابة الحاكم الفعلي والمسيطر على شئون الإمبراطورية وهو لقب كان منحه من الإمبراطور البيزنطي فقط وليس من حق البابا أن يخلعه على آخرين. انظر،
Hodgkin: Italy, Vol. 2.PP. 401-2;
انظر أيضًا: الحويري: **اللومبارديون في التاريخ والحضارة (٥٦٨ – ٧٧٤م)**، دار المعارف، القاهرة ١٩٨٦، ص١٢٥.
(120) Avitus of Vienne: Letters and Selected Prose, PP.146-148; Lot, (F.): The End of Ancient world and the Beginning of the Middle Ages, (London, 1931), P. 247;
انظر أيضًا: الشيخ: **الممالك الجرمانية**، ص١٤٣-١٤٤.
(121) Wolfram: Goths, P. 312; Wood: Merovingian, P. 51; Heather: Goths, P. 248.
(122) Wood: Merovingian, P. 51;
أنظر أيضًا، ايهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٣٩.
(123) Anonymus Valesianus: Excerpta Valesiana, recensuit Jacques Moreau (Bibliotheca Scriptorum graecorum et romanorum Teubneriana),Editionem correctiorem curavit Velizar Velkow, (Leipxic.1968),p. 18; Gregory of Tours: Franks, P.165; Perry: The Franks, P.103; Burns: the Ostrogoths , P . 95.
انظر أيضًا، بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، ج١، ص٩٠.
أخطأ المؤرخ المجهول عندما ذكر أن ثيودوجوثا تزوجت من الأمير سيجسموند بن جندوباد ملك البرجنديين، وكرر المؤرخ المجهول نفس خطأه عندما ذكر أن الأميرة اوستروجوثا تزوجت آلاريك الثاني ملك القوط الغربيين، أنظر،
Anonymus Valesianus: Excerpta Valesiana, p. 18.
(124) Gregory of Tours: Franks, P. 165; Perry: The Franks, P.103;
أنظر أيضًا، ايهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٣٩.
(125) Gregory of Tours: Franks, P. 165; Fredegar: III, MGH SRM II, P.104; See Also, Perry: The Franks, P.103; Bradley: Goths . P. 181; Wood : Merovingian, P. 52;
أنظر أيضًا، ايهاب صديق: مملكة القوط الشرقيين، ص٢٣٩.
(126) Marius of Avenches :MGH AA XI: p.234; See Also, Gregory of Tours Franks, P. 165; Oman : Dark Ages , p. 27 ; Perry: The Franks, P.103; Wolfram : Goth, P. 312;
أنظر أيضًا، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٣٩.
(127) Gregory of Tours: Franks, P. 165; Perry: The Franks, P.103.
(128) Wolfram: Goth, P. 312;
أنظر أيضًا، إيهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٤٠.
(129) Heather, The Goths, pp. 233, 248.
(130) Gregory of Tours: Franks, P.166; Fredegar: III, MGH SRM II, P.104; Liber Historiae Francorum, P.275; Stephen D. White, "Clotild's Revenge: Politics, Kinship, and Ideology in the Merovingian Blood Feud." *In Portraits of Medieval and Renaissance Living: essays inmemory of David Herlihy*, ed. Samuel Kline Cohn and Steven Epstein (Ann Arbor: University of Michigan Press, 1996), p.116.
(131) Gregory of Tours: Franks, P.141;
انظر أيضًا، عليه الجنزوري: **جريجوري التوري**، ص٩١؛ انظر أيضًا، ايهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٤٠.
(132) Gregory of Tours: Franks, P.166.
(133) Hodgkin: Italy, Vol. 3 P.328;
أنظر أيضًا، ايهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، هامش ص٢٤٠.
(134) Perry: The Franks, P.104.
(135) Wood. The Merovingian Kingdom, p. 52.
(136) White: "Clotild's Revenge" ,p.116.
(137) Perry: The Franks, P.105; White:"Clotild's Revenge" ,p.117.

(138) Herwig Wolfram, The Roman Empire and its Germanic peoples. Translated by Thomas Dunlap. Berkeley: University of California Press, 1997, p.256.

(139) Wood: the Merovingian Kingdoms,p. 53.

(١٤٠) **جستين الأول**: ولد الإمبراطور جستين الأول عام ٤٥٠م في منطقة بدريانا Bederiana بمقاطعة إليريكوم Illyricum بالبلقان، وكان رجلاً اميا لايدري من القراءة أو الكتابة شيئًا، وألتحق بالجيش البيزنطي عام ٤٧٠م و ترقى في الوظائف حتى أصبح قائد فصيلة، ووصل إلى قائد حرس القصر في عهد الإمبراطور انستاسيوس ، ثم تولى العرش بعد وفاة انستاسيوس، وقد اكتسب عهده أهميته من تأسيس سلالة جستنيان التي من ابرز حكامها ابن شقيقة جستنيان الأول، وتميز عهده بسن القوانين التي حدث من تأثير طبقة النبلاء البيزنطية القديمة... للمزيد أنظر، بروكوبيوس القصيري: **التاريخ السري**، ترجمة صبري أبو الخير سليم ، ط ١، القاهرة٢٠٠١، ص ٨٢-٨١؛ الشيخ: **تاريخ الإمبراطورية البيزنطية**، القاهرة ١٩٩٤.، ص٤٠-٤١؛ محمود سعيد عمران: **الإمبراطورية البيزنطية**، ص ٤٥-٤٦.

(141) Wolfram, The Roman Empire, pp.255-56; Heather, The Goths, p.248.

(١٤٢) **جودمار الثانى**: تولى الملك جودمار الثانى (٥٢٣ –٥٣٤م) حكم البرجنديين بعد مقتل شقيقه سيجسموند، وقد نجح الملك جودمار في هزيمة الفرنجة في موقعة فيزرون Vézeronce عام ٥٢٤م، وقتل فيها كلودومير ملك أورليان، ثم تنازع ملوك الفرنجة تقسيم تركة الملك القتيل، وهذا ما ساعد جودمار على التقاط أنفاسه. انظر:
Gregory of Tours: Franks, P. 166.

(١٤٣) بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، جـ ١ ، ص ٩١.

(١٤٤) بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، ص١ ، ص ٩١.

(145) Gregory of Tours: Franks, P 166; James: Franks, P.94.

(146) White, "Clotild's Revenge", pp.117-18.

(147) Crisp: Marriage and Alliance, P.94.

(148) Gregory of Tours: Franks, P 166.

(149) Marius of Avenches :MGH AA XI: p.235;Gregory of Tours : Franks , P 55; FredegarIII, MGH SRM II, P.104 ;Liber Historiae Francorum, PP.275-76; Perry: The Franks, P.105;

(١٥٠) بروكوبيوس القيصري: **الحروب القوطية**، جـ١، ص ٩١؛ ايهاب صديق: **مملكة القوط الشرقيين**، ص٢٤٠؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٤.

(151) Cassiodorus: The Letters of Cassiodorus eng. trans. Hodgkin, (TH.), (London, 1886, P. 355.

(152) Gregory of Tours: Franks, P.55; Fredegar: III, MGH SRM II, P.104; Perry: The Franks, P.105;

انظر أيضًا، الشيخ: **أوربا في العصور الوسطى**، ص١٤٩؛ بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٤.

(153) Fredegar: III, MGH SRM II, P.104;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٨٥.

(154) Gregory of Tours Franks, PP. 55-56; Perry: The Franks, P.106.

(155) Marius of Avenches :MGH AA XI: p.235; Gregory of Tours Franks, P. 166; Liber Historiae Francorum, P.276; Perry: The Franks, P.106;

أنظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص٨٥.
ظل جثمان سيجسموند وزوجته في هذا البئر لمدة ثلاث سنوات حتى نُقل بعد ذلك إلى دير القديس موريس في مدينة أجيني، وأصبح هدفا للعبادة، وأصبح دير القديس موريس وطنا للشهيد الملكي الأول في أوروبا في العصور الوسطى. أنظر، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٥.

(156) Marius of Avenches: MGH AA XI: p.235; Gregory of Tours: Franks, P.166; Fredegar: III, MGH SRM II, P.104; Liber Historiae Francorum, PP.276-277; Perry: The Franks, P.106.

ولكن يعلق فريديجار على ذلك قائلاً إن الملك كلودومير قُتل على أيدي جنود الملك ثيودريك الأول الفرنجي بعد أن قاموا بخداعه وليس على يد البرجنديين. انظر،
III, MGH SRM II, P.104.: Fredegar

(157) Agathias: The Histories, eng. trans, Frendo, (J.), (New York . 1975),PP.11-12; Kurth: Saint Clotilda, P.82;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨١.

(158) Gregory of Tours: Franks, P.166; Wolfram, The Roman Empire, p.256 .

(159) Gregory of Tours: Franks, PP.180-81;

(160) Gregory of Tours: Franks, P.170; Isidore of Seville : Goths, p.19; Liber Historiae Francorum, PP.278-79;See Also, Collins: Early Medieval Spain, P.34.

لم تكن حملة الملك شلدبرت من أجل الغزو والسيطرة، ولكنها كانت من أجل فرض النفوذ والاستيلاء على الغنائم والأسلاب، لذلك لم يحاول الملك شلدبرت الاحتفاظ بمدينة ناربون بعد الاستيلاء عليها ولكن احتفظ بمدينة أنجوليم. الباحث

(161) Gregory of Tours: Franks, P.167; Bachrach: Merovingian Military Organization, P.19;

انظر أيضًا، سونيا غازي: **علاقة مملكة أوسترازيا السياسية بالقوى المجاورة (٥١١-٥٥٥ م)**، مجلة المؤرخ المصري: دراسات وبحوث تاريخية محكمة، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم التاريخ، مج٤٩، يوليو ٢٠١٦، ص ٢٤٤.

(162) Favrod: Les Burgondes, P122;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٦.

(163) Marius of Avenches: MGH AA XI: P.235; Gregory of Tours: Franks, P. 166; Fredegar: III, MGH SRM II, P.104;

انظر أيضًا، بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٧.

(١٦٤) بدران عبد الونيس: **البرجنديون في غالة**، ص ٨٧.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

أثر السياسة المماليكية على الثغور المصرية
(٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)



د. حماده عبدالحفيظ فهمي أمين
دكتوراه في تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب – جامعة الزقازيق
جمهورية مصر العربية

مُلَخّصْ

اهتمت دولة سلاطين المماليك بتأمين الثغور بدرجة كبيرة، لا سيما خلال عصر دولة سلاطين المماليك البحرية، ولم تعي السلطات المماليكية ذات الطابع العسكري أن أمر الحروب الصليبية قد ضعف، فتمسكت الدولة بـ (فزاعة) الفرنجة وهو ما انعكس – بطبيعة الحال – على سكان الثغور، فأصيبوا بهاجس الخوف المستمر من خطر التعرض لبلاد المسلمين من قبل الفرنجة، خصوصًا وقد دعم القراصنة الإفرنج من هذا الاعتقاد، وقد اختلط لدى سكان الثغور مفهوم الحروب الصليبية مع عمليات القرصنة، والحقيقة أن الكنيسة سعت إلى محاربة مصر اقتصاديًا بعدما فشلت السبل العسكرية، وعمل المماليك على التعامل مع هذا الأمر، بل حققوا نجاحًا في ذلك وشكل ذلك انتعاشًا اقتصاديا للثغور، وساعدت الظروف المحيطة من غزو المغول للعراق وفارس ثم سقوط القسطنطينية على حدوث موجات من المكاسب التجارية للثغور. يجدر بالذكر أن الحركة الحضارية للثغور خلال عصر المماليك الجراكسة قد تراجعت بشكل واضح، وذلك بالمقارنة بعصر المماليك البحرية، ويبدو ذلك أنه كان يرجع إلى أن الأماكن الحيوية للبلاد أمست مسرح لأحداث الصراع السياسي ومشاكله بين الطبقة العسكرية الحاكمة. وبينما كانت دمياط والإسكندرية ثغرًا للجهاد ومضمار سباق لستر عورات المسلمين في عصر المماليك البحرية، فقد أمستا منفى وسجن للمغضوب عليهم من المماليك وغيرهم في عصر المماليك الجراكسة. وحقيقة أن أفادت السلطات المماليكية من العزلة النوعية للثغور وبعدها القطري عن القاهرة العاصمة المركزية، ومحل اتخاذ القرار، فاستغلت ذلك في نفي رجال السياسة المغضوب عليهم من الأمراء والسلاطين المخلوعين وأحيانًا الخلفاء، وربما نفي أصحاب الفكر أيضًا بزعم حصار أفكارهم، وليس سجنهم فحسب.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٣ مايو ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ أغسطس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

البابوية، سلاطين المماليك، السواحل البحرية، المماليك الجراكسة، ثغر الإسكندرية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055402

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

حماده عبدالحفيظ فهمي أمين الرخ. **"أثر السياسة المماليكية على الثغور المصرية (٦٤٨-٩٢٣هـ/ ١٢٥٠ - ١٥١٧م)"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٨٦ – ٩٥.

مُقَدِّمَة

اختارت دولة سلاطين المماليك لنفسها بعض الملامح التي حددت الطبيعة الوجودية لهذه الدولة، فكان منها النافع، ومنها الضار، ومنها الشاذ. فمن النافع السياسة الحربية لهذه الدولة، فقد نصبت نفسها حامية للمسلمين، والضار هو نزاعات المماليك وكثرة فتنهم، أما الشاذ فهو نظام الحكم نفسه.

والثغور هي اسم الجمع للمفرد "الثغر" الذي هو كل موضع قريب من أرض العدو[١]، كذلك هو دار الحرب وموضع المخافة من أطراف البلدان[٢]، ومنه سميت المدينة على شاطئ البحر ثغرًا[٣]. ونظرًا لطبيعة الموقع الجغرافي لمصر، حيث الصحراء الواسعة الممتدة، وطول السواحل البحرية، شمالاً وشرقًا، ونظرًا للتقاطع بين نهر النيل والحد الجنوبي، إضافة إلى

المكانة التاريخية التي حفلت بها مصر، فقد تعددت الثغور المصرية في الجوانب الشمالية والشرقية والجنوبية.

وتهدف هذه الدراسة إلى التعرف على أثر سياسة القبضة الأمنية التي انتهجتها سياسة دولة سلاطين المماليك ذات الطباع العسكرية وانعكاس ذلك على الحياة في الثغور المصرية خلال عصر سلاطين المماليك، إضافة للتعرف على الأسباب التي جعلت من الثغور منفى سياسي وأسوار الحصار لأفكار البعض ممن كانت ترفض أفكارهم أيدولوجيا المجتمع مثل ابن تيمية (ت: ٦٦١هـ/١٢٦٢م) الذي نفي وسجن بالإسكندرية، كما تهدف الدراسة لمعرفة دور السياسة المماليكية في التصدي لخطط البابوية التي بدأت ضد مصر منذ بداية عصر الحروب الصليبية ولم تتوقف حتى نجاح الاكتشافات البرتغالية ومعرفة الطرق المؤدية لمصادر الثروة. وتكمن أهمية الدراسة لما كانت تؤديه الثغور المصرية من خدمات جليلة، فهي همزة الوصل بين المعمور المصري وبين العالم الخارجي وقت السلم، وتكون الثغور نقطة الفصل بين الداخل المصري وبين المعتدي على البلاد وقت الحرب، فأمن القاهرة كان يبدأ وينتهي ليقظة أهل الثغور وانتباههم.

١-الهاجس الأمني

منذ بداية العصر المماليكي لم يكن من أمر إحكام السيطرة على الديار المصرية مع الثغور باعتبارها مفاتيح البلاد بالأمر اليسير، فنجد المماليك وقد بسطوا هيمنتهم على طول البلاد وعرضها، لذا نجد الثغور الشرقية حاضرة في خضم الصراع الأيوبي المماليكي على الحصول على كعكة الحكم واعتلاء العرش، وكان لهذه الأحداث أن تم قطع طريق الحج سنة (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) بسبب التصعيد الحربي بين الملك المعز وبين صلاح الدين يوسف صاحب حماة[٤]، واستمرت منطقة الثغور الشرقية محل نزاع حتى قرر الصلح بين الطرفين على أن تكون جملة الشام للناصر بينما تكن ديار مصر للمعز أيبك، ويحد بينهما بئر القاضي، فيما بين الورادة والعريش[٥].

وكان لتواجد القبضة الأمنية للسلطات وسيطرتها وانتشار عناصرها في منطقة الثغور الشرقية دورها الواضح في القضاء على مغامرة عيسى بن حسن العايدي، شيخ عرب العايدي بالشرقية وهجان السلطان فيما سبق، وكانت قد عظمت أمواله، وصارت الشرقية كلها تحت حكمه وفي خضم نفوذه، وبالطبع كان من المتوقع ألا ترضى السلطات المماليكية صاحبة الطباع العسكرية ذات النفوذ العنصري لهذا الأمر، فعملت على التخلص منه وقطع جذوره، ولما استشعر عيسى الخطر، وعلم أنه لا قبل له ببطش المماليك، فر هاربًا نحو الشرق يريد النجاة، فقصد ثغر الطور عام (٧٥٤هـ/١٣٥٣م) ظنًا منه سهولة الاختباء به، غير أن أمر السيطرة الأمنية كان واقع الأمر، فقبض عليه هناك وسمر[٦].

ومارست الدولة الضغط السياسي مستغلة انعكاسات انتصاراتها في عين جالوت؛ فوصلت البريدية من متولي قوص يخبر أنه قد استولى على جزيرة سواكن بعد فرار صاحبها (٦٦٤هـ/١٢٦٥م)، ثم أن صاحب سواكن أرسل يطلب من الظاهر بيبرس الدخول في الطاعة وإبقاء سواكن عليه، فرسم له الظاهر ما طلب[٧]، ويبدو أن السلطان بيبرس قصد أحكام سيطرة الدولة المملوكية على منطقة الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، إضافة إلى وضع حد أمام طموح متملك سواكن وتعرضه الدائم لأموال من يتوفى من التجار المصريين بسواكن، وقد بقيت حامية مملوكية هناك على أثر ما حدث[٨].ولما كانت الواقعة بين عرب جهينة ورفاعة قائمة في صحراء عيذاب عام (٦٨٠هـ/١٢٨١م)، قرر السلطان المنصور قلاوون أن يوفق بين الفريقين، خوفًا من تدهور الأوضاع وهو ما يؤدي حتمًا لفساد أحوال طريق الحج والتجارة، فكتب السلطان إلى الشريف علم الدين صاحب سواكن بما أراد[٩].

وخلال عام (٧١٦هـ/١٣١٦م) الذي صاحبه تعبث العربان بمنطقة صحراء عيذاب، لذا عين السلطان المملوكي تجريدة تكونت من ستة مقدمين ألوف، وألف مملوك، فلما وصلوا إلى هناك توجهوا إلى بلاد البجاة، وجاوزا الأقاليم الثلاثة، ولكنهم لم يتمكنوا من أحد العربان[١٠]. غير أن المتاعب الخاصة بالقبائل العربية والبجاة لم تتوقف عند هذا الحد، ولن تتوقف حتى قرار السلطان برسباي تخريب عيذاب بعد استنفاد السلاطين السابقين له لكل الطرق التي تحفظ الثغر وطرقه، فنجد في سنة (٧١٧هـ/١٣١٧م) أن عرب برية عيذاب قد أخذوا رسل صاحب اليمن وعدة من التجار وجميع ما معهم[١١]، والأصعب من ذلك إفساد العرب لثغر عيذاب وقتلهم الشاد المملوكي المقيم بها، ويبدو أن ذلك كان عملاً انتقاميًا لمطاردة السلطات على الدوام لهم في

صحراء عيذاب وأحراش سواكن. وفي محاولة من السلطات المملوكية السيطرة على الوضع تم ترقية آقوش المنصوري بإمرة طبلخاناة وإقطاعه ثغر أسوان؛ ترغيبًا له ليقيم في عيذاب ويضبط الأمن الغير مستقر حينئذ هناك(١٢).

خارجيًا - لم يدر سلاطين المماليك أن الحدة الصليبية الأولى قد خفت، وأن النعرة الدينية قد ضعفت، بل ظلوا يظنون أسوأ الظنون، لأن اقتحام السواحل المصرية ابتغاء الوصول إلى القاهرة جعلهم يتخيلون الصليبيين أقرب إليهم من ذي قبل، ثم إن المشكلة الكبرى بين المسلمين والصليبيين ظلت في جوهرها كما هي(١٣). لذلك اهتم سلاطين المماليك بإحكام السيطرة على كل الثغور المصرية، فعملت السلطات المملوكية على ضبط الأمن و تأمينها وتحصينها وإقامة المنشآت العسكرية بها(١٤)، وتوفير وسائل الدفاع والهجوم بكل ثغر(١٥)، كل حسب خطورة وطبيعة موقعه؛ فعندما شعر السلطان بيبرس أن سلاطين اليمن يسعون للتدخل في شئون الحجاز وكسب النفوذ فيه، عمل على سبقهم في هذا المضمار، ومهد لذلك بأن أرسل بعثة لتعمير قلعة السويس (٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م) لكي تكون على أهبة الاستعداد اذا جد جديد في الأراضي الحجازية (١٦)، وفي العام (٦٥٩هـ/١٢٦١م) أصدر السلطان الظاهر بيبرس مرسومًا بعمارة أسوار مدينة الإسكندرية، وحفر خنادقها وإصلاح ما وهن منها، ورتب لذلك جملة من المال كل شهر ينفق على هذه العمارة، وحرص على مباشرة الأعمال بنفسه، فزارها عدة مرات، أشرف خلالها على كثير من الأعمال الإنشائية، والإصلاحات الحربية والعمرانية في المدينة(١٧)، ومنها زيارة العام (٦٦٨هـ/ ١٢٦٨م) حيث توجه إلى الإسكندرية لتفقد التحصينات بنفسه بعد أن بلغت مسامعه بوجود تحركات صليبية(١٨)، إبان حصاره لحصن الأكراد(١٩).

ويذكر أن لشدة تحرز بيبرس على الإسكندرية فقد أمر بقتل الكلاب الموجودة بها، ومنع الناس من فتح حوانيتهم بعد المغرب، ومنع إيقاد النار ليلاً ونحو ذلك(٢٠). ويبدو جليًا اهتمام بيبرس بتعمير وتأمين الثغور الشمالية، وربما كان ذلك تفكيرًا منطقيًا كنوع من التأثر بنشاط الحركة الصليبية في السواحل الشامية في ذلك الوقت، ولذلك فقد امتدت الأيدي لتأمين المزيد من الثغور الشمالية، فأنشأ منارًا بثغر رشيد، وجدد عمارة ثغر دمياط بعدما كان خاربًا من أيام الملك الكامل الأيوبي، وردم فم بحر دمياط بالقرابيص وتضييقه حتى لا تدخل إليه مراكب الفرنج الكبيرة(٢١).

وسار على هذا النهج المنصور قلاوون، حيث بلغت مسامعه في العام (٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م) زيادة منسوب الرواسب في خليج الإسكندرية وهو ما يعيق حركة الملاحة فيه، ويصعب من أمر الدعم الحربي إذا ما تعرض الثغر لهجوم الأعداء، ولذا فقد أسرع في إصدار الأوامر لرفع الرواسب من الخليج(٢٢). وبعيد زلزال العام (٧٠٢هـ/١٣٠٣م) فقد حدثت عدة إصلاحات في الثغور، لإصلاح ما قد خرب أو تصدع؛ منها ما أمر به الناصر محمد بن قلاوون كترميم منارة الإسكندرية والتي كانت قد تصدعت وانهدم جوانب منها، كذلك الأسوار والأبراج(٢٣). وتسربت الأخبار سنة (٧٠٥هـ/١٣٠٥م) والتي تفيد بوجود اتفاق بين متملك قبرس وجماعة من ملوك الفرنج على عمارة ستين قطعة بحرية لغزو دمياط، التي كانت لازالت تسيل لعاب الغزاة لتجدد أهمية موقعها وكثرة خيراتها(٢٤)، فقررت السلطات عمل جسر ماد من القاهرة إلى دمياط خوفًا من نزول الفرنج وقت فيضان النيل(٢٥).

وثمة ردة فعل مهمة قد حدثت في العام (٧٦٧هـ/١٣٦٦م) عهد الأشرف شعبان، حيث طرق الفرنج الإسكندرية، وعمدوا إلى تخريب ما وقع تحت أيديهم، نهبًا وقتلاً وأسرًا؛ ولذا فقد تم استحداث نيابة الإسكندرية(٢٦)، وهي أول نيابة في مصر، وأصبح نائبها منذ ذلك الوقت يسمي ملك الأمراء، وكانت قبل ذلك ولاية تعد في جملة ولاية الطبلخانات(٢٧)، ثم أصبح نائبها من الأمراء المقدمين، وأول من تولاها من النواب الأمير الشريف بكتمر، وكان له من السلطان بها ما للسلطان بالقاهرة(٢٨)، وبها وال للمدينة، وبها قاضي القضاة مالكي، وقاضي حنفي مستحدث، وربما وجد بها قاضي شافعي، ونظرًا لمكانة المالكية بالإسكندرية فعد القاضي المالكي أكبر الكل بها؛ وهو المتحدث في أموال الأيتام والأوقاف، وبها كاتب السر، وناظر متحدث في الأموال السلطانية ومعه مستوفي، وتحت يده كتاب وشهود، وبها محتسب(٢٩). وقبيل هذا التنظيم فقد رسم السلطان إلى الأمراء الذين توجهوا إلى الثغر بأن يقيموا هناك، ويصلحوا ما أفسده الفرنج، وأن يمهدوا السبيل لعودة الناس إلى المدينة(٣٠).

ونظرًا لكثرة المخاطر الخارجية واضطراب العلاقات الدولية فقد أقدم السلطان قايتباي على خطوة دفاعية غاية في الأهمية، حيث قام ببناء القلعة محل المنار القديم، وأنفق على عمارته ما يزيد على المائة ألف دينار[٣١]. كذلك بنى الأمير يشبك من مهديفي طرف منطقة الإسكندرية برجًا أو قلعة صغيرة، في موقع مناسب بحيث يمكنه عن طريق المدافع بالاشتراك مع قلعة قايتباي من ضرب أي محاولة لسفن العدو الحربية لدخول ميناء الإسكندرية الشرقي، أو مهاجمة المدينة، وأوقف الأمير يشبك على هذا البرج، وعلى الفقراء والمجاورين بالجامع الأزهر في سنة (٨٨٥هـ/١٤٨٠م) أراضي بالوجه البحري بناحية صندلا بالغربية، ومنية خلف بالمنوفية، وأراضي بالوجه القبلي بناحية ماكوسا الشرقية والغربية، ومنية بني الخصيب بالأشمونين، وجعل من مصارف وقفه ما يصرف على أرباب الوظائف والمقاتلة أجناد العدة التي ترصد للجهاد في سبيل الله تعالى، كل ذلك بالبرج المذكور أعلاه، وهو ما يبين دور الوقف الإسلامي في عمليات الدفاع عن الثغور وتعدد وجوه مصارفه[٣٢].

وعملت السلطات المماليكية في عام (٨٣٨هـ/١٤٣٥م) على عمارة برجًا بالقرب من الطينة[٣٣] على ساحل البحر، وجاء مربع الشكل، مساحة كل ربع منه ثلاثون ذراعًا، وشحن بالأسلحة، وأقيم فيه خمسة وعشرون مقاتلاً، فيهم عشرة فرسان، فانتفع به غاية النفع، ذلك أن الفرنج كانت تقبل في مراكبها نهارًا إلى بر الطينة وتنزل بها وتتخطف الناس من المسلمين هناك في مرورهم من قطيا إلى جهة العريش من غير أن يمنعهم في ذلك أحد، لخلو هذا المحل من الناس قبل بناء البرج[٣٤]، وأبلغ مثال على ذلك ما حدث سنة (٨٢٨هـ/١٤٢٥م) من وصول غزاة إلى الطينة، وأصيب الناس بالهلع حتى أنه أدى لاضطراب القاهرة[٣٥]. وببناء البرج أمن الناس من خطف الفرنج لهم في كل قليل[٣٦]، وذيادة في الحيطة، يبدو أن السلطات رأت أن بناء برج واحد في هذه المنطقة غير كاف، لذا عزمت في العام (٨٦٥هـ/١٤٦١م) أن تقيم برجًا أخر "لحفظ الساحل من طروق الفرنج بالطينة"[٣٧].

كما أنشأ الأمير يشبك الدوادار عام (٨٨٤هـ/١٤٧٩م) على فم البحر، عند برج الظاهر بيبرس، سلسلة من حديد للتحكم في مدخل فم البحر، لتقنين عملية الدخول إلى ثغر دمياط[٣٨]. وتشي وثائق الوقف لقيام الأمير قجماس الإسحاقي – نائب السلطنة بالإسكندرية – بإنشاء رباط على بحر السلسلة، أودع فيه الأسلحة والأقوات وما يلزم المرابطين فيه، ووقف على هذا الرباط ومنشآته الأخرى، وعلى نفسه وذريته بعض الأملاك[٣٩].

ولمدة طويلة كان دخول فرع رشيد محظورًا تمامًا على الغربيين، سواء منهم القادمون بطريق البحر قاصدين الداخل أو القادمون من الداخل بقصد الوصول إلى البحر عبر النيل[٤٠]، وفي رأي الباحث أن السلطات المماليكية رأت في ذلك تأمين للإسكندرية في حال تعرضت لهجمات من البحر، فيتم الإمداد اللازم عن طريق مجرى النيل عبر رشيد، إضافة لأن فرع رشيد يمثل المدخل الثاني لدلتا النيل، ومع إغلاق فرع دمياط أبوابه في وجه السفن الكبيرة، فإن دور فرع رشيد سيكون متممًا لتلك السياسة التي تستشعر الخطر بشكل مستمر، لذلك فضلت السلطات التأمين على الدوام، وعدم قبولها بالمخاطرة أو المجازفة. وفي الحقيقة أن هذا الأمر سيكون له تأثير سلبي على الحركة الثقافية بالثغر مقارنة بباقي الثغور الشمالية.

ولما كانت دمياط مدينة غير مسورة ولا يوجد بها قلعة في القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي، فمن الناحية النظرية أنها مدينة بلا وسائل دفاع طبقًا لمقاييس ذلك العصر، لذا استعانت السلطات المماليكية بسرعة نقل الأخبار وقت الخطر عن طريق الحمام الزاجل، حيث يقف الأهالي على أخبار من يقدمون أو يسافرون بحرًا أو برًا، فيكونون على منجاة من الأخذ على غرة، لاسيما وهم يعيشون بلا وسائل دفاع عنهم وليس لديهم أسوار أو قلاع[٤١]. كذلك فإن الحمام الزاجل كان ينقل كل جديد بثغر قطيا؛ كحدوث حدث مرتقب،[٤٢] أو وصول شخصية مهمة[٤٣]. وقد كان الحمام بمصر متصلاً إلى قوص وأسوان وعيذاب، إضافة للذي كان موجوداً من القاهرة إلى الإسكندرية ومن القاهرة إلى دمياط، ومن القاهرة إلى السويس، ومن القاهرة إلى بلبيس متصلاً بالشام، ومن بلبيس إلى الصالحية أيضًا، ومن الصالحية إلى قطيا، ومن قطيا إلى الواردة، ومن الواردة إلى غزة[٤٤].

بيد أنه يجب أن نضع في اعتبارنا أن المجتمع المصري لم يبق على حال من الجمود والثبات طوال عصر سلاطين المماليك، والواقع أن المجتمع المصري في عصر الجراكسة قد اختلف عنه في عصر البحرية، ذلك أن الصورة الزاهية الزاخرة بالحركة والحيوية

للحياة المصرية في أوائل ذلك العصر كانت تعبر عن مجتمع إقطاعي في دور صعوده، فقد كان البناء السياسي متينًا محكمًا، وعلى قمة السلطة تربع السلاطين الأقوياء القادرون من أمثال الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون، الذين استطاعوا إحكام قبضتهم على مماليكهم وأمرائهم، وأن يرسوا دعائم الأمن والاستقرار، ولذلك كانت الدولة قادرة في الداخل، مهابة في الخارج[٤٥]، وساعدهم على ذلك نشاط زراعي مزدهر، وثروة كبيرة من عائد تجارة المرور[٤٦]، ولكن التدهور الذي ألم بالبلاد منذ بداية القرن التاسع الهجري تقريبًا/ الخامس عشر الميلادي، جعل الألوان الزاهية في صورة المجتمع المصري، تتراجع أمام الظلال والألوان القاتمة الحزينة التي جاءت إيذانا بسقوط دولة ومغيب شمس حضارة عاش العالم الإسلامي في نورها زمنًا طويلاً[٤٧].

فمن مظاهر الاضطراب مع نهاية عصر المماليك البحرية وبداية عصر المماليك الجراكسة، أن هجم أولاد كثير على ثغر أسوان، ونهبوا الدور التي بها، وقتلوا معظم أهلها، حتى أن والي أسوان قد فر هاربًا لينجو بعمره[٤٨]. كذلك استطاع مماليك الظاهر برقوق المنفيين إلى قوص قتل واليها و الهروب خارج قوص، فقصدوا السويس، وتوجهوا إلى الكرك، وأتوا إلى أستاذهم برقوق فقويت شوكته بهم[٤٩]. يبقى أن نشير أن الأحداث الدائرة بقلعة الجبل في القاهرة كانت لتحدث دوي وصدى بالثغور، حدث ذلك عام (٧٩١هـ/١٣٨٩م) حينما انتصر برقوق على منطاش، وقتها دقت الكوسات بالقلعة، ونودي في القاهرة بالزينة، وكتبت المراسيم بهذه النصرة إلى ثغر الإسكندرية وثغر دمياط وسائر الثغور[٥٠].

٢-ضغط البابوية وتدابير السياسة المماليكية

بعد فشل البابوية المستمر في الوصول لأهدافها، فقد أدركت أن مصر هي محور العمل العربي الإسلامي، عسكريًا وسياسيًا واقتصاديًا. ومنذ ذلك الحين أصبحت أرض النيل هدفًا دائمًا لكل الحملات والمغامرات الصليبية حتى نهاية العصور الوسطى،[٥١] فهي تدرك أنه لا سبيل لإضعاف هذه الدولة الفتية سوى بهدم اقتصادها. وقطعت الكنيسة بدورها شوطًا كبيرًا في إذكاء نار الكراهية ضد دولة المماليك على طول خط المواجهة، مهددة بتوقيع قرارات الحرمان على كل من يقوم بالاتجار مع دولة المماليك، وعملت على إعداد بعض السفن وتسليحها لمراقبة تنفيذ الحظر الاقتصادي المفترض على التجارة مع السواحل المملوكية[٥٢].

ومن جانب السلطات المملوكية، لن نجدهم يقفوا بلا حيلة أو مكتوفي الأيدي، فنجد السلطات قد أعطت تسهيلات ومنحت امتيازات للتجار الجنوية والبنادقة وغيرهم، وهو الأمر الذي وضع التجار الأوروبيين في حرج دائم أمام البابوية؛ فعمدت السلطات المملوكية إلى توفير كافة السبل الكفيلة براحة التجار، كتوفير الأمن لهم والتأمين لبضائعهم، وتسهيل عمليات السفر والتنقل والإقامة، وكل ما له علاقة بتسهيل الإجراءات التجارية الخاصة بهم، ومما يذكر في هذا الشأن ما حدث في ثغر الإسكندرية العام (٨٩٤هـ/١٤٨٨م) جاءت جماعة من تجار الإسكندرية يشكون من نائبها علي باي بأنه جار عليهم في الظلم والمصادرات، ولذا أرسل السلطان يحذره[٥٣].

وأول هذه الخطط للفرنج بعد أن فشلت جدوى المقاطعة الاقتصادية وفكرة الهجوم على مصر، رأوا القيام بعمليات التخريب الواسعة بالموانئ المصرية والشامية لشل الحركة التجارية بها. وبهذا تحولت القرصنة في حوض البحر المتوسط لأهم أسلحة الحركة الصليبية والتي تمسك به البابوية، وقد اشتدت هذه الهجمات على السفن الإسلامية في عرض البحر مثلما جعلت الثغور اللاسامية المطلة على البحر هدفًا ثابتًا لتعبثها، وقد كان هذا دافعًا لإذكاء روح الجهاد الإسلامي من جديد في مواجهة الفرنج[٥٤]. وقد دفع هذا السلطات المملوكية إلى التفكير الجدي في الدفاع عن ثغورها بالهجوم على مصادر تلك الهجمات؛ فهدفت إلى الاستيلاء على جزيرتي قبرص ورودس اللتين طالما اتخذاها القراصنة منطلقًا لتعبثهم وتجرأهم على الثغور المصرية[٥٥].

وانقضى القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي دون أن يستطيع البابوات وملوك الفرنج تحقيق المشروعات الصليبية التي دعوا إليها، إذ غدى تنفيذها وهمًا من الأوهام. وإذا كان لها من أثر سياسي، فإن الدولة المملوكية بعد أن اكتشفت خطط التآمر ضدها بين ملوك الفرنج وملوك الحبشة[٥٦]، قد قامت بتشديد الرقابة على طرق الاتصال بين أوروبا والحبشة وعدم السماح للفرنج بالمرور عبر أراضيها في طريقهم إليها، كما أن ملوك الحبشة قد تخلوا آخر المطاف عن تلك الروح الصليبية، وآثروا عودة العلاقات

الطيبة بين البلدين ورعاية المصالح المشتركة بينهما، والتمسك الشديد بالرابطة التي تربطهم بالكنيسة القبطية(٥٧).

ويبدو أن السلطات المملوكية لم تسع أن تؤسس سفارات وقنصليات لها في بلاد الفرنج، فلم يكن لهم عوز إلى ذلك، بل كان الشرق على الدوام يسيل لعاب الدول والجمهوريات الأوروبية بما يتميز به من تجارة وزراعة وصناعة ومقدسات ومزارات، ولذا سعت بلاد الفرنج بأموالها وتجارها وقناصلها إلى أسواق مصر والشام حرصًا على المكاسب الباهظة التي تجنيها بالإتجار معها. ولذا فإن السلطات المملوكية كانت مجبرة حين يتم الاعتداء على ثغورها أو شواطئها أو سفنها في عرض البحر أو وقوع أسرى للمسلمين في يد الفرنج، أن تقبض السلطات المملوكية على تجار الفرنج المقيمين بالبلاد و تتحفظ على أموالهم وتهدد بإغلاق كنيسة القيامة في وجه الحجاج(٥٨).

وفي خضم العمل الصليبي ضد مصر، نشط المغامرون البرتغاليون في مياه المحيط الهندي وأعالي البحر الأحمر، ونجحوا في قطع الطريق التجاري بين مصر والهند، وصاحب ذلك التعبث البرتغالي نشاط الفرسان الإسبتارية في المياه الشرقية للبحر الأبيض المتوسط، وقيامهم بشن سلسلة من الغارات على السفن المصرية وهي محملة بالبضائع والأخشاب والعتاد اللازم لبناء السفن، والقصد من ذلك هو عرقلة المجهود الذي يقوم به المماليك لمواجهة الخطر البرتغالي، ومن الثابت أنه كان هناك اتفاق بين فرسان الإسبتارية وملك البرتغال على خطة العمل في مهاجمة الدولة المملوكية.(٥٩)

وبالإضافة إلى محافظة المماليك على سياستهم في تأمين الطرق التجارية والموانئ، لم تسمح السلطات المملوكية لسفن الهنود والصينيين من اجتياز مضيق عدن في اتجاه الشمال، وكان على أولئك التجار تفريغ بضاعتهم لتقوم بالدور ذاته سفن المسلمين، كذلك لم يكن مسموح لأي تاجر أوروبي بأن يصعد جنوبًا بتجارته أو يتجول منفردًا ، خوفًا من تآمرهم مع الحبشة، إضافة لضمان عدم معرفة الأجانب بالطرق التجارية المارة في البلاد(٦٠).

٣-الثغور كسجن ومنفى سياسي وحصار فكري

تشي المصادر التاريخية أن الثغور كانت محلاً للنفي السياسي والإقامة الجبرية أو حتى السجن، وبالطبع فإن لهؤلاء المغضوب عليهم وضع اقتصادي واجتماعي خاص بهم، وقد امتزجت هذه العوامل مشكّلة في قالب ثقافي، حاط مجتمع الثغور بهالة جعلت لدائرة المحيطين بهم حالة فريدة. لقد تمتع هؤلاء الأمراء والسلاطين والخلفاء القابعين في المنفى بنوع من الثراء في معظم الأحيان، وهذه الثروة ستعمل على رواج اقتصاديات أصحابها، ومكان مقامهم، بل إننا نجد البعض قد عمل بالتجارة في أثناء إقامته بالمنفى، ومن هؤلاء الخليفة العباسي المستعين بالله، الذي اعتقل ونفي إلى الإسكندرية، وهناك اشتغل بالتجارة وربح منها، بل انه استطاب إقامة الثغر وفضله على غيره عندما سنحت له الفرصة بالتحرر من النفي، وبقي فيه حتى مات مطعونًا العام (٨٣٣هـ/ ١٤٢٩م)(٦١).

وقد بدأت هذه السياسة منذ بزوغ عصر سلاطين المماليك، واستمرت طوال العصر، بل زادت كلما تعمقنا داخل هذه الحقبة، فما أن أتم قطز المعزي أمره في السلطنة حتى قبض على جماعة من أعيان خشداشيته المعزية، وقيدهم وأرسلهم إلى السجن بثغري الإسكندرية ودمياط(٦٢). ونفي السلطان قلاوون الأشرف سلامش ابن بيبرس وأخيه خضر مع أمهما إلى الإسكندرية، ولما ورد إليه الخبر بأنهم قد راسلوا المماليك الظاهرية، قرر قلاوون أن يخرجوا إلى بلاد الأشكري، وتم ذلك في جنح الليل عن طريق البحر(٦٣).

وأثناء بداية سلطنة بيبرس الجاشنكير اضطربت الأحوال وانقسم العسكر فريقين؛ فريق مع الناصر محمد وفريق مع بيبرس الجاشنكير، ثم بلغ السلطان بيبرس أن بعض الأمراء كاتبوا الناصر، وهو بالكرك، فقبض عليهم وأرسلهم إلى السجن بثغر الإسكندرية، وقبض على ثلاثمائة من المماليك الناصرية، وأرسلهم إلى قوص(٦٤). وغضب السلطان الناصر على القاضي كريم الدين بن السديد فنفاه وولده إلى الشوبك في البداية، ثم نقله إلى أسوان عام (٧١٨هـ/١٣١٨م)، فسجن بها وهو مقيد بالحديد، فأقام بالسجن مدة يسيرة ومات بالسجن ودفن بأسوان(٦٥).

ولما تغير خاطر السلطان على الخليفة المستكفي بالله أبي الربيع سليمان عام (٧٣٨هـ/١٣٣٧م)، رسم له أن يتوجه هو وعياله إلى قوص، وتعد هذه سابقة، فهو أول خليفة نفي في مصر بلا جنحة ولا سبب، وقد توجه معه أولاده وعياله(٦٦)، ولم ينقضي العام نفسه حتى قام قوصون الأتابكي بالقبض على الملك

المنصور أبو بكر وخلعه من الحكم، وأرسله إلى قوص فسجن بها، وصحبه في سجنه أخواه[٦٧]، ومن ثم شرع قوصون بالقيام بعملية نفي موسعة ضد الأمراء ورجال دولة السلطان المخلوع، وكان سجنهم بثغر الإسكندرية[٦٨]. وكان غضب السلطان الصالح إسماعيل على الأمير آقسنقر سببًا لأن يقبض عليه ويسجن بثغر الإسكندرية[٦٩]،ونفي قاضي حلب المحب بن سالم الحنبلي إلى قوص سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م بسبب أنه كان له على آخر حق شرعي، وطلب أن يضع منه شيئًا فامتنع، وبلغ السلطان ذلك فحنق منه وأمر بنفيه إلى قوص[٧٠].

وشهدت دمياط على نفي الشريف إبراهيم بن حسن بن عجلان الحسني (ت.٨٥٥هـ/١٤٥١م) والذي قبض عليه مع أخيه علي بن حسن بمكة، ثم حمل إلى القاهرة وحبس ببرج القلعة مدة طوية، ثم أخرج مع أخيه إلى ثغر دمياط، فداما به حتى توفيا[٧١]. وعندما خلع المنصور عثمان عام (٨٥٧هـ/١٤٥٣م) فقد سجن بثغر الإسكندرية وعنده والدته وأولاده وجواريه[٧٢]، ويبدو أن حالهم في السجن لم يكن يرضي طائفة المماليك الأشرفية والظاهرية، فطالبوا في عام (٨٦٥هـ/١٤٦١م) بخروج المنصور عثمان من البرج وأن يسكن ما يختار من دور الإسكندرية ويؤذن له في الركوب إلى الجامع وغيره دون تحفظ عليه[٧٣]. واستمر خليل بن الناصر فرج في منفاه بدمياط حتى وفاته (٨٥٨هـ/ ١٤٥٤م)، بعدما كان في سجن وسكن ثغر الإسكندرية[٧٤].

واستمر الخليفة القائم بأمر الله حمزة مقيمًا بالإسكندرية حتى وفاته بها عام (٨٦٣هـ/١٤٥٩م)[٧٥]. ودام الملك الظاهر يلباي بالحبس بأحد أبراج الإسكندرية حتى وفاته داخل محبسه عام (٨٧٢هـ/١٤٦٧م)[٧٦]. وخرج من سجن الإسكندرية سنة (٨٦٥هـ/ ١٤٦١م) إلى النفي بطالاً بدمياط كلاً من الأمير تتم من عبدالرازق المؤيدي أمير سلاح والأمير قاني باي الجاركسي أمير آخور[٧٧]، كذلك خرج من الخدمة السلطانية الأتابك جرباش المحمدي إلى ثغر دمياط بطالاً عام (٨٧١هـ/١٤٦٦م)[٧٨]، وفي العام التالي، وبعد عزل كسباي المؤيدي من نيابة الإسكندرية سنة (٨٧٢هـ/١٤٦٧م) فقد توجه بطالاً إلى ثغر دمياط[٧٩].

كما شكل سجن البعض في الثغور نهاية مأساوية وقصة مخيفة، كتبت سطورها داخل غياهب الجب، فبعد سلطنة السعيد بن بيبرس قبض على الأمير آقسنقر الفارقاني نائب السلطنة، وسجنه بثغر الإسكندرية، ثم أرسل من خنقه وهو في السجن[٨٠]. وحدث هذا أيضًا عندما سجن الأمير سيف الدين تمراز المؤيدي- نائب صفد ثم غزة- مخنوقًا بسجن الإسكندرية[٨١]. ولما وصل المنصور أبو بكر إلى معتقله بقوص، أراد قوصون أن يتخلص من رأس الدولة السابقة – بعد أن نفى كل من كان له شأن – فأرسل إلى متولي قوصبأن يقتل الملك المنصور وهو في السجن، فقتله خنقًا ثم قطع رأسه وأرسلها للأتابكي قوصون بالقاهرة[٨٢]. كما قتل خنقًا أيضًا الأشرف جان بلاط، داخل محبسه في البرج بثغر الإسكندرية عام (٩٠٦هـ/١٥٠٠م)[٨٣].

كما كان النفي إلى الثغور في بعض الأحيان بمثابة تخفيف عقاب، أو إعطاء فرصة جديدة للحياة، هذا الأمر ينطبق على ما حدث لابن زنبور[٨٤]، حيث قرر صرغتمش التخلص منه وعاقبه بالقتل، بينما نجح شيخو في تخليصه من عقوبة الموت وأخرج على الفور إلى قوص، وهناك بغته الأجل (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)، وأحيط موته غموضًا، "فقيل أنه مات مسمومًا أو نهشه ثعبان"[٨٥]. وعلى النقيض من ذلك، يخبرنا ابن تغري بردي أن الأمير جانبكاك مسجونًا في الإسكندرية مكرمًا مبجلاً، إلى أن قرر الهروب من السجن، فأوسع الحيلة في ذلك، ونجح في الفرار عام (٨٢٧هـ/١٤٢٤م)، فعند ذلك حل به وبالناس بلاء الله المنزل المتداول سنين عديدة، ذهب فيه أرزاق جماعة، وحبس وضرب فيها بالمقارع جماعة كثيرة من أعيان الناس وأماثلهم، وأما ما قاساه الناس من كبس البيوت ونهب أقمشتهم وما دخل عليهم من الخوف والرجيف فكثير إلى الغاية، ودام ذلك نحو العشر سنين، فهذا ما حل بالناس نتيجة هروبه[٨٦].

وأقام شيخ الإسلام ابن تيمية بمعتقله بالإسكندرية قرابة الثمانية أشهر، وقد وصف بأنه برج متسع نظيف مليح، له شباكان أحدهما إلى جهة البحر، والآخر إلى جهة المدينة، وقد وفر له مواد الكتابة ومستلزماتها، وأحيط بالعناية والتبجيل، وقد قرر الشيخ بنفسه هذه الحقيقة، وذلك حين أرسل رسالة من معتقله بالثغر إلى أصحابه بالشام[٨٧]. وعندما خلع سلطان افريقية نفسه، زكرياء أبو يحيى بن أحمد بن أبي حفص، المعروف باللحياني (٦٥٠- ٧٢٧هـ/١٢٥٢-١٣٢٧م)، فقد أقام بثغر الإسكندرية، وقد أمر الملك الناصر محمد بإنزاله بدار السلطنة في الإسكندرية[٨٨]، وهو ما يفتح الباب لنتسائل، هل تعدّ هذه السياسة هي إيواء

للفارين وإكرامهم لاستخدامهم كورقة ضغط ضد بلادهم عند الحاجه، أم أن ذلك بمثابة التحفظ عليهم كمساعدة سياسية للسلطان القائم بإفريقية؟

وكانت مراقبة المنفيين جزءًا من مهام ولاة قوص كما كانت جزءًا من مهام ولاة الإسكندرية. ومن الصعب رصد وسط المنفيين هذا في قوص، وإذا كانوا يحيون أحيانًا ممتزجين بسكان المدينة، فإن وصولهم أو رحيلهم هو نتيجة لقرار من السلطة لا صلة له بالوضع المحلي[٨٩]. فقد نفي السلطان جقمق الشيخ حسن العجمي – أحد ندماء الأشرف برسباي – إلى قوص سنة (٨٤٢هـ/١٤٣٨م)[٩٠]، كما رسم السلطان جقمق بنفي الأمير سودون الظاهري الحاجب إلى قوص ولكن شفع فيه[٩١]، وحينما تسلطن الملك المؤيد فقد قرر نفيه مرة أخرى إلى قوص واستمر بالمنفى حتى سنة (٨٢٤هـ/١٤٢١م)[٩٢].

ويبدو أن قوص قد حافظت على الامتياز الخاص والذي يتمثل في كونها موقع النفي بالجنوب، فإلى قوص وليس إلى أسيوط، تتم مواصلة إحالة الأمراء المعزولين إلى التقاعد وعلى ما يحتمل ما هو أكثر من التقاعد، الإقامة تحت المراقبة أو السجن[٩٣]. والحال أن تعيين ولاة للصعيد الأعلى قد منح قوص دورًا غير متوقع في مراقبة القبائل وحفظ النظام، يسمح بالحركة في أمن تام للتجار الذين جرى أيضاَ تأمين طرقهم في البحر الأحمر[٩٤].

خاتمة

مما سبق نستنتج؛ أن السلطات المماليكية سعت بكل قوة لبسط نفوذها في الداخل وتأمين حدودها بما يقتضيه الواجب الديني بما يتسق مع مفهوم الدولة الحامية، غير أن الأمور لم تسير على نسق واحد، فمظاهر الضعف بدأت تطفو على السطح اعتبارًا من فترات حكم أحفاد المنصور قلاوون ومن تبعهم من المماليك الجراكسة، وواجهت الدولة مشكلتين؛ الاضطرابات الأمنية داخليًا، والعبث بالحدود خارجيًا.

وهذا يجعلنا ندرك أن الصورة التي رسمتها العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية على الثغور التي كانت بدورها كان لاعبًا فاعلاً نظرًا لما كانت تتمتع به من العزلة النوعية في عصر لم يكن فيه نقل المعلومات بالشيء اليسير، اضف إلى ذلك البعد الجغرافي النسبي عن عاصمة الحكم ومراكز القيادة والتأثير الشعبي، فقد أفادت السلطات المماليكية من هذا الأمر واستغلته لصالح هدوء القاهرة، وأمن قلعة الجبل، فقامت بإبعاد المغضوب عليهم بأمر السلطان، بهدف إقصائهم عن المشهد سواء كان سياسي أو غير ذلك، وقد شملت عمليات الإقصاء بعض الخلفاء والسلاطين السابقين والأمراء وبعض المفكرين وغيرهم. وكانت الثغور مخولة – بحكم موقعها-أن تكون وسيطًا تجاريًا بالغ الأهمية، خصوصًا ونحن نتحدث عن العصر المملوكي، حيث الثراء المالي والفاعلية السياسية على كافة الأصعدة، ولذا فقد تعددت الصلات التجارية بين الثغور المصرية من جانب وبين القوى التجارية العالمية من جانب آخر[٩٥].

الهَوامِشُ:

(١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، (المجلد الثاني، دار صادر، بيروت، د.ت)، ص٨٠؛ توفيق سلطان اليوزبكي، الثغور ودورها العسكري والحضاري، (مجلة آداب الرافدين، العدد١١، ١٩٧٩م)، ص١٢.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب**، (ج٦، دار المعارف، القاهرة، د.ت)، ص٤٨٦.

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، (طبعة خاصة بوزارة التربية والتعليم، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، ٢٠٠٠م)، ص٨٤.

(٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة**، (ج٧، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٧م)، ص٢٠.

(٥) ابن تغري بردي، **النجوم**، ج٧، ص٤٠.

(٦) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل في ذيل الدول**، (تحقيق: عمر تدمري، ج١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٢م)، ص٢٥٣.

(٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٣٩.

(٨) عطية القوصي، **بنو الكنز**، (رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة القاهرة، ١٩٧٠م)، ص٨٥.

(٩) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، (ت: محمد زيادة، ج١، ق١، القاهرة،١٩١٤م)، ص٧٠٠.

(١٠) ابن إياس، **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، (تحقيق: محمد مصطفى، ج١، ق١، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة،١٩٨٤)، ص٤٤٧.

(١١) المقريزي، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، ج٢، ق١، ص١٦٣.

(١٢) المقريزي، **السلوك**، ج٢، ق١، ص١٩٨.

(١٣) سعيد عاشور، **قبرس والحروب الصليبية**، (ط٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠٠٢م)، ص٤٥.

(١٤) محمد محمد أمين، **الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر**، (ط١، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م)، ص٧٩.

(١٥) ابن المغيزل، **ذيل مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: عمر تدمري، (ط١، المكتبة العصرية، بيروت، ٢٠٠٤م)، ص١٤٣.

(١٦) نبيلة عبد الفتاح، **علاقة دولة المماليك البحرية بعالم البحر الأحمر**، (رسالة ماجستير، غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الزقازيق، ١٩٩١م)، ص٥٠.

(١٧) المقريزي، **السلوك**، ج١، ق٢، ص٤٦١.

(١٨) المقريزي، **السلوك**، ج٣، ق٢، ص٧٢٣.

(١٩) **حصن الأكراد**: أو قلعة الحصن هي قلعة كاثوليكية تعود لفترة الحروب الصليبية تقع ضمن سلاسل جبال الساحل ضمن محافظة حمص في سوريا، وتبعد عن مدينة حمص ٦٠ كم، وتعتبر هذه القلعة بكونها واحدة من أهم قلاع القرون الوسطى المحفوظة في العالم، للمزيد عنها ينظر: أبو الفدا، **تقويم البلدان** (دار صادر، بيروت، مصورة عن طبعة باريس، ١٨٥٠م)، ص٢٥٨.

(٢٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج٧، ص١٤٩.

(٢١) بيبرس الدوادار، **زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة**، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز، (ط١، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، ١٩٩٨م)، ص٨٧؛ ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٣٤٠.

(٢٢) ابن حبيب، **تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، (تحقيق: محمد أمين، ج١، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٧٦ م)، ص٤٧.

(٢٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ج١، ص٢٥٣؛ ابن حجر، **الدرر**، ج٤، ص١٤٥.

(24) Jordan, William Chester: louis IX and the Challenge of the Crusade, New Jersey, Princeton University Press, 1979, P.125.

(٢٥) المقريزي، **السلوك**، ج٢، ق١، ص٨٤.

(٢٦) القلقشندي، **صبح الأعشى في صناعة الانشا**، (ج١١، دار الكتب، القاهرة، ١٩٢٢م)، ص٤٠٥.

(٢٧) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٦٤.

(٢٨) رزق نسيم، **الثغور المصرية**، ص٧٣-٧٥.

(٢٩) القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج٤، ص٦٣-٦٤.

(٣٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٢٤.

(٣١) السخاوي، **الضوء اللامع**، ج٥، ص٢٠٦.

(٣٢) **وثيقة وقف السلطان قايتباي**، ص٢٤٥ – ٣٤٦.

(٣٣) **الطينة**: بليده بين الفرما وتنيس من أرض مصر، وكانت نقطة عسكرية لحراسة الحدود، وسميت الطينة لوقوعها في أرض رخوة تعلوها مياه البحر في بعض الأوقات، وما تزال آثار قلعة الطينة باقية إلى اليوم شرق بور سعيد على بعد ٢٤ كم. انظر، ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص١٨٥، الهامش.

(٣٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٢٧٢.

(٣٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص٢٧٨.

(٣٦) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج٤، ص١٧٠. وقد ذكر إتمام بناء البرج سنة ٨٢٨هـ.

(٣٧) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج٦، ص٩٩.

(٣٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص١٤٦.

(٣٩) **وثيقة وقف السلطان قايتباي على المدرسة الأشرفية وقاعة سوق السلاح بدمياط، نشر**، محمد محمد أمين، (المجلة التاريخية المصرية، مجلد ٢٢، ١٩٧٥م)، ص٣٤٥.

(٤٠) ف. هايد، **تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى**، ج٣، ترجمة: أحمد محمد رضا، (الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة،١٩٩٤م)، ص٣٠١.

(٤١) بيرو طافور، **رحلة طافور في عالم القرن الخامس عشر الميلادي**، (ترجمة وتحقيق: حسن حبشي، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، ٢٠٠٢م)، ص٦٠.

(٤٢) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج٨، ص٨١.

(٤٣) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج٧، ص٢٠٠.

(٤٤) ابن فضل الله العمري، **التعريف بالمصطلح الشريف**، تحقيق: محمد حسين شمس الدين، (دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٨م)، ص٢٥٤.

(٤٥) قاسم عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك**، (ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م)، ص١١.

(٤٦) تلقت السلطات المملوكية ضربة موجعة في العام (٨٦٤هـ/١٤٦٠م) بعد أن وصل البرتغاليون إلى ساحل غانا، وأخذوا يقايضون الأهالي بسلعهم على ذهب السودان، وهكذا بدأ الذهب يتجه منذ ذلك الوقت إلى المحيط الأطلسي لا إلى البحر المتوسط، فحدث نقص في العملات الذهبية نتيجة لذلك. انظر: رأفت محمد النبراوي، **أسعار السلع الغذائية والجوامك في مصر عصر دولة المماليك الجراكسة**، (ط١، مركز البحوث، جامعة الملك سعود، الرياض، ١٩٩٠م)، ص٤٤.

(٤٧) العبيدي (إبراهيم بن عامر بن علي ت: ١٠٩١هـ)، **قلائد العقيان في مفاخر دولة آل عثمان**، (مخطوط رقم ٤٦٧٨، حفظ مكتبة تشستر بيتي، دبلن، إيرلندا)، ص١١٢ب؛ وانظر: قاسم عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك**، (ط٢، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٤م)، ص١١.

(٤٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٣٦٢.

(٤٩) ابن إياس، **بدائع الزهور** ج١ ق٢، ص٤١٧.

(٥٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق٢، ص٤٢٧.

(٥١) قاسم عبده قاسم، **عصر سلاطين المماليك**، ص٢٧.

(٥٢) أمال رمضان، **الحياة العلمية في الإسكندرية**، ص٦١.

(٥٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ٢٦٣؛ وانظر: أمال رمضان، **الحياة العلمية**، ص٩٢.

(٥٤) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، (دار الفكر العربي، القاهرة ١٩٦١م)، ص٩.

(٥٥) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٠.

(٥٦) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٥

(٥٧) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٧.

(٥٨) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٧-١٨.

(٥٩) أحمد دراج، **المماليك والفرنج**، ص١٣٩.

(٦٠) شوقي عبد القوي، **التجارة بين مصر وأفريقيا**، ص٤٦-٤٧.

(٦١) ابن حجر، **إنباء الغمر**، ج٣، ص٤٤٦.

(٦٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٣٠٣.

(٦٣) المقريزي، **السلوك**، ج١، ق٣، ص٧٤٧ – ٧٤٩.

(٦٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٨.

(٦٥) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٥٣.

(٦٦) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٧٤.

(٦٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٨٨.

(٦٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٨٩.

(٦٩) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٥٠٠.

(٧٠) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج٥، ص٢٤٧.

(٧١) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٧٤.

(٧٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٥٥ – ٥٦.

(٧٣) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٣٩.

(٧٤) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١٧٠.

(٧٥) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص١٢٧.

(٧٦) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٣٧١.

(٧٧) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٢٥٤.

(٧٨) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٣٥١.

(٧٩) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٦، ص٣٧١.

(٨٠) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٣٤٣.

(٨١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢١٣.

(٨٢) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج١، ق١، ص٤٨٩.

(٨٣) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ج٣، ص٤٦٢.

(٨٤) هو الوزير العلم عبد الله بن أحمد بن إبراهيم القبطي المعروف بابن زنبور، ولي عدة وظائف من أيام الناصر محمد، وجمع بين الوزارة، ونظر الجيش، ونظر الخاص. انظر: عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج١، ص٢٦٠-٢٦١.

(٨٥) عبد الباسط الحنفي، **نيل الأمل**، ج١، ص٢٤٩.

(٨٦) النجوم، ج١٥، ص٢١٢.

(٨٧) ابن كثير، **البداية والنهاية**، ص٢١٣٢.

(٨٨) ابن بطوطة، **الرحلة**، ج١، ص٤٠؛ المقريزي، **المقفى**، ج١، ص٦٨٥.

(٨٩) جان كلود جارسان، **قوص ازدهار وانهيار حاضرة مصرية**، (ترجمة: بشير السباعي، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ٢٠١٢م)، ص١٨٣-١٨٤.

(٩٠) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٢٧٩.

(٩١) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٥، ص٣٥٦.

(٩٢) ابن تغري بردي، **النجوم الزاهرة**، ج١٤، ص١٨٠.

(٩٣) جارسان، **قوص**، ص٣٧٠.

(٩٤) جارسان، **قوص**، ص٤٤٨.

(٩٥) شوقي عبد القوي، **التجارة بين مصر وأفريقيا**، ص٤٤.

ظاهِرةُ التَّضخُمِ النَّــقدي في العهد الزّياني
مُساهمةٌ في علاقة النَّقد بالأسعار



أمحمد طاهري
باحث دكتوراه في قسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية
جامعة لونيسي علي -البليدة (٢) – الجزائر

مُلَخّصْ

نحاول في هذه الدراسة أن نُلامس ظاهرةً اقتصادية مسّت النّقد في العصر الوسيط زمن الدولة الزيانية، والتي تجمع ما بين عدم ثبات قيمة النّقد، وترنّح الأسعار ما بين الارتفاع والانخفاض، تبعًا للظروف المحيطة بالدولة، ومجموعة من المبررات التي تؤكد وجودها، حيث كانت ظاهرة التّضخم أو الانكماش النّقدي، أهم مُشكل اقتصادي اعتور الوحدة النّقدية، وجعلتها غير قابلة للتداول وسط أفراد الرعية، ولعل هذا الوضع قد كان له أثر بالغ في عدم ثبات الأسعار بالأسواق، ورُغم نسبية الظاهرة التي ارتبطت عادةً بالأزمات الاقتصادية، إلّا أنّها أثرت على الاقتصاد والمجتمع الزياني بكل أطيافه، وأجبرت السُلطة الزيانية على حمل مشروع إصلاحي قائم على خلق توازن في العرض والطلب، حفاظًا على استقرار الأسعار، والحيلولة دون زوال قيمة النّقد حماية للمُستهلك الزياني.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٨ مايو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

النقد، الأسعار، التضخم، الاستقرار النقدي، الاقتصاد، بنو زيّان

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055403

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أمحمد طاهري. "ظاهِرةُ التّضخم النّــقدي في العهد الزّياني: مُساهمةٌ في علاقة النّقد بالأسعار".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٩٦ – ١٠٨.

مُقدِّمَة

تتأثرُ قِيمة النّقد عادةً بمجموعةٍ من المظاهر الاقتصادية، التي تُؤدي إلى ترنُّحِ الوضعية العامة للأسعار بالدولة، مما يؤثر على القُدرة الشرائية للرعية خاصة في مجال الاستهلاك. لذا يُعَدّ عدم ثبات النّقد أهم ظاهرة اقتصادية تواجه الدول في العصر الوسيط، -رغم ارتباط النّقد بقاعدة المعدنين-، نظرا لتأثيرها المباشر على الأسعار، التي تتعرض لعملية الارتفاع والانخفاض؛ ولعل هذا الوضع هو ما يجعل الوحدة النّقدية معرضة للاهتزاز، وغير قابلة للتداول وسط أفراد الرعية. ولما كان الاستقرار النّقدي هدفًا ساميًا تسعى له السياسة النّقدية، والذي ارتبط بعدة صُور من الأزمات النّقدية، كالكساد، والانقطاع، والغش، فإن لظاهرة الغلاء والرُخص، والتذبذب الواضح في قيمة العملة، التي تداولتها المصادر الزيانية، أثر بالغٌ في بروز عدة أزمات اقتصادية كان التّضخم النّقدي أثقلها وقعا على الاقتصاد الزياني.

ومن هنا تبدو أهمية العلاقة ما بين النّقد بالأسعار، في كونهما عاملان مُتلازمان، فوجود أحدهما يلزم وجود الآخر، في ظل الغلاء والرخاء الذي تعرفه الدولة، وفي وقت عرفت فيه السكة الزيانية عدة تطورات في الوزن والعيار، مرتبطة بالأوضاع المحيطة بها. من هذا المنطلق، فإنّ العلاقة المتلازمة بين النّقد والأسعار، هي ما تجعلنا نتساءل عن وجود هذه الظاهرة؟ ومُبررات وُجودها في العهد الزّياني؟ وإلى أي مدى تمكن السلطة الزيانية من الحافظ على استقرار نّقدها

المطروح للتداول؟ وما طبيعة العلاقة ما بين النّقد بالأسعار؟ وهل تمكنت السلطة الزّيانية التحكم في هذه الظاهرة حمايةً للمُستهلك الزّياني؟

أولاً: التّضخُمُ النّقدي (المفهوم والدلالة)

تذهب العديد من الدراسات الاقتصادية، أن التّضخم النّقدي هو الارتفاع التدريجي أو المفاجئ للأسعار، الناتج عن زيادة الطلب على النقد[١]، أو هو زيادة كمية النّقد غير المتطابق مع العرض والطلب [٢]، ويُقابله الانكماش، وهو الانخفاض المفاجئ للأسعار، وتراجع عرض النّقد مقارنة بالسّلع والخدمات[٣]. والظاهر أن هذا المفهوم المعاصر للعلاقة بين النّقد الأسعار، قد عبرّت عنها المصادر الإسلامية بالغلاء والرُخص، أو الرخاء – ارتفاع الأسعار وانخفاضها–، وفي ذلك يذكر المقريزي: "اعلم حاط الله نعمتك وتولي عصمتك، أن الغلاء والرخاء ما زالا يتعاقبان في عالم الكون والفساد منذ برأ الله الخليقة في سائر الأقطار وجميع البلدان والأمصار".[٤]

كما أشارت إليه المصادر المعاصرة لدولة بني زيان، فقد ذكر الوزان ذلك بقوله: "ودام الحصار سبع سنوات واستفحل الغلاء"[٥]، وقول ابن خلدون: "وغلت أسعار الأقوات"[٦]، ويُضيف التّنسي قوله: "وكان على أهل تلمسان بلاءٌ عظيمٌ من غلاء الأسعار"[٧]، وعن الرُخص يقول أحدهم: "أن صاع القمح بيع فيها أوّل النّهار بدينارين ورُبع وبيعَ آخر النّهار ثمانية أصُع قمح بثُمن دينار"[٨]. ويُقسم أحد المفكرين التّضخم إلى عدة أصناف، حسب تنوع الأسعار وتدرجها في الانخفاض أو الارتفاع، ومن أنواعه:

- تضخمٌ بطيءٌ زاحفٌ، الذي يقابله ارتفاع الأسعار بشكل دائم وبطيء.
- تضخمٌ سريعٌ مُفرط، وهو الارتفاع المستمر للأسعار في فترة زمنية قصيرة، وبشكل مفرط.
- تضخمٌ متوقعٌ، وغير مُتوقع؛ وهو الزيادة في الأسعار إما عن طريق التنبؤ بها، أو بشكل مفاجئ.
- تضخمٌ ناتجٌ عن زيادة الطلب على السّلع والخدمات، والمرتبط في العصر الوسيط أساسًا بزيادة الترّف عند الحكام [٩].

وبذلك فإن ظاهرة التّضخم النّقدي في العصر الوسيط، قد ارتبطت بالغلاء والرُخص، الذي يصيب الدولة نتيجة تذبذب واضح في أسعار المنتوجات الاستهلاكية، وتفاوت واضح في العرض والطلب، لذا فإن دولة بني زيان لم تسلم من هذه الظاهرة نظرا لوجود العديد من المُبررات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، وحتى الطبيعية، التي ساهمت في إذكائها وتضخيم حجمها عبر فتراتٍ تاريخيةٍ متتاليةٍ.

ثانيًا: مُبررات التّضخم النّقدي في العهد الزّياني

١/٢-تذبذبُ الأَسْعارِ:

تُعَدّ عملية إعطاء إحصائيات عددية بأسعار السّلع والخدمات زمن بني زيان أمرا مُتعسرًا، نظرًا لشُح المادة المصدرية من جهة، ومن جهة أخرى اقتصار الروايات التّاريخية على عبارات أدبيةٍ، وصفيةٍ للمظاهر العامة، خاصة لفظُ الغلاء أو الرُخص، دون أن تُقدم لنا تحليلاً مُقنعًا لهذه الظاهرة، إلا أنّنا ومن خلال نزرٍ يسيرٍ من المصادر والمراجع، يظهر لنا أن حجم الظّاهرة قد عرف تفاقمًا مع الأزمات الاقتصادية، التي أصابت الدولة في فترات مُتلاحقة. وللوقوف على مُعطيات رئيسيةٍ مُتعلقةٍ أساسًا بالغلاء والرخاء، فقد لا نجد في ثنايا هذه المصادر سوى الحديث عن مرحلتين بارزتين مُتفاوتة التّواريخ، تتحدث عن أزمة الحصار المضروب على تلمسان، أو في فترات أخرى قبل الحصار أو بعده.[١٠]

الملاحظ من خلال المُلحق المـُرفق، هو ذلك التفاوت الواضح في أسعار المنتوجات الاستهلاكية خاصة مادتي القمح والشعير، باعتبارهما المادة الأولية لصناعة الخبز، والمادة التي يُقبل على اقتنائها مُعظم سكان المنطقة، حيث عرفت ارتفاعًا واضحًا أيام الغلاء، بحيث بلغ أيام الحصار سعر القمح، من ٠٢ مثقال ونصف إلى ٣٠ مثقالاً،[١١] لينخفض بعد نهايته إلى ما بين ٠٣ مثاقيل إلى ١/٨ (دينار)، لكل ثمانية صيعان[١٢]. وكذلك هو حال الشعير الذي ارتفع إلى الدينار، و ١/٨ الدينار، لينخفض إلى ١/٨ دينار لكل ١٦ صاع بعدما كان ثمنه لصاع واحد[١٣].

والظاهر أن هذا التذبذب الواضح وغير المستقر، لمستوى الأسعار زمن بني زيان، قد ارتبط بآثار السُوق المفتوحة التي تعتمد أساسًا على قانُوني العرض والطلب، لذا جاءت الأسعار تترنّح ما بين الغلاء والرخاء[١٤]، كما كان للعوامل السياسية كالحروب مع الجيران، والأزمات الديموغرافية، والظواهر الطبيعية ، كالجفاف والمجاعات دور بارز في ذلك[١٥]، ولعل من أبرز المظاهر التي رفعت قيمة الأسعار هو ذلك الحصار المضروب على تلمسان سنوات ٦٩٨-٧٠٣ هـ/ ١٢٩٨-

١٣٠٣م، الذي وصفه ابن خلدون بقوله: "وغلت أسعار الأقوات والحُبوب وسائر المرافق بما تجاوز حُدُودَ العوائدِ... واستهلك النّاس أموالهم وموجُودهم وضاقت أحوالهم"[١٦].

واعتماداً على هذه المعطيات، يمكننا أن نُلاحظ بروز نوعان من التّضخم في مدة وجيزة، أبرزها:

- تضخمٌ سريعٌ مفرطٌ؛ نظرًا لارتفاع الأسعار بسرعة فائقة، ارتبط بشدة الحصار وانقطاع الأقوات.
- تضخمٌ متوقعٌ؛ وهو الارتفاع الشّديد للأسعار لكون الحصار المضروب على تلمسان كان مُتوقع الحدوث، نظرا لشدّة الصراع بين الطرفين.

في حين أن تراجع الأسعار بعد نهاية الحصار، قد نتج عنه ظاهرة الانكماش، أي الانخفاض الشديد للأسعار، ولعل بلوغ صاع القمح أيام الغلاء ٣٠ دينارا كحد أقصى، قد انخفض إلى مستويات دنيا، بلغ ١/٨ دينار لكل ١٦ صاع، دليل على هذه الظاهرة[١٧].

٢/٢-تداعياتُ الأزمة الاقتصادية:

تُعَدّ الحروب التي عرفها المجتمع الزياني، طيلة فتراتٍ تاريخيةٍ مُتواصلةٍ، سببا كافيا في تصاعد الأزمة المالية والنّقدية، حيث عرفت الدولة الزيانية صراعا مريرا مع جيرانها من بني حفص أو بني مرين، بلغ أقصاه أيام الحصار العسكري والاقتصادي على الدولة سنوات ٧٧٠هـ/١٣٦٨م[١٨]، وسنوات ٦٨٠هـ/١٢٨١م[١٩]، وسنوات ٦٨٩هـ/١٢٩٠م[٢٠]، والحصار الطويل الأول والثاني سنوات ٦٩٨-٧٠٣هـ/١٢٩٨-١٣٠٣م، وسنوات٧٣٥-٧٣٧هـ/١٣٣٤-١٣٣٦م[٢١]. والظاهر أن هذا النّوع من الحروب الاستراتيجية، كان من شأنه أن يرفع مستوى أسعار المنتوجات الاستهلاكية، ويقطع المدد المالي على الدولة والرعية، نظرا لشدة الحصار بعد ما أُغلقت نوافذ التّجارة الخارجية، ومُنعت الأقوات من دخول للمدينة[٢٢]، وما زاد الأمر سوءاً، بروز أزمة ديموغرافية جرّاء هذا الحصار، حيث تراجع سكان مدينة تلمسان إلى المائتين، أما الجند فبلغ الألف فقط[٢٣]، مع ارتفاع عدد القتلى الذين تراكمت أشلاؤهم وذاقت بهم الأزقّة.[٢٤]

وأمام هذا الوضع المتأزم، فقد تعرض السكان لأكبر امتحانٍ من نُقص الأنْفُس والثمرات، وغلاء المُقتنيات، وبروز أزمة مالية حادة رافقتها أزمة ديمغرافية، عطّلت الموارد المالية للدولة، وخلّفت عجزًا واضحًا في الموازنة العامة لبيت المال، ولعل هذا، قد كان له أثر على السكّة التي تعرضت للانقطاع، خاصةً وأن بني مرين قد منعوا دخول أي شيء للمدينة، بما فيها المواد الأولية، وحتى الغذاء، وبذلك يصبح النقد في نكسة حقيقية.

٣/٢-الغِشُ بالعُملة وانتشار النّقد الرديء:

تعتبر ظاهرة الغش بالعملة التي انتشرت زمن بني زيان، والتي تفاقمت بشكل واضح خاصة بعد سنة ٧٩١هـ/١٣٨٨م؛ نظرًا لمجموعة من الاعتبارات المتعددة، سواء الداخلية أو الخارجية، عاملا مهما في تراكم ظاهرة التّضخم، وبروزها بشكل متفاوت طيلة فترة حكم سلاطين بني زيان، ولعل كثرة الأزمات الاقتصادية التي عرفتها، قد أدت إلى انتشار الغش بشكل كبير، نظرًا للانقطاع الموارد الأولية على دار الضرب، وتوقف عملية سك العملة، مما يؤدي إلى الغلاء وتذبذب قيمة العملة، وتزايد وتيرة الإنفاق لدى السلطة، مقارنة بتراجع الإيرادات[٢٥]. وبذلك فإن هذا الركود الاقتصادي، يدفع الرعية والسلطة، إلى استعمال الغش بالعملة، مع الاحتفاظ بالعملة الجديدة، ليصبح النقد الرديء أكثر رواجاً[٢٦]، وهذا ما أكّده العُقباني الذي أشار لهذه الظاهرة بأن فساد سكة المسلمين قد أصبحت عامة ببلاد المغرب، حتى كادت رؤوس أموالهم تنقرض، نظرا للغلاء الذي صاحب انتشار النّقود الرديئة بدل النّقود الجيدة[٢٧].

لذا تصبح النظرية الكَمية[٢٨]، أكثر حضورا بأسواق بني زيان؛ نظرًا لتوفر كمية كافية من النّقد المغشوش بالأسواق، يصعب على الرعية التنازل عنها، لكونها قد أصبحت عُرفاً وعادةً في المُعاملات المالية، بعد فُقدان الجيّد ورواج الرديء[٢٩]، وهذا ما يزيد من سُرعة تداول العملة الرديئة، وتراجع قيمتها كون الرعية تريد التخلص منها خوفا من الغلاء، والتدرج السريع لقيمتها؛ وهذا ما أكده الفقيه أبو عبد الله محمد بن أحمد المقري (ت٧٩٥هـ/١٣٩٢م) بقوله: "فكانوا لذلك يتعاطونها في المُبايعات على كثرةٍ، حتى صار من عنده شيءٌ منها، – النّقد الرديء – يريد الخروج عنها في أي غرضٍ حضر، من غير مُبالاةٍ بغلاءٍ أو رُخصٍ لتوقُع قطعها"[٣٠]. ومن هُنا، فإنّ التّضخم تزيد وتيرته أيام الأزمة، في وقت تكثر فيه العُملات المغشوشة، مما يؤدي إلى هلاك الأسواق وتراجع النُمو الاقتصادي، خاصة بعد توقف الدولة عن إصدار النقد، الذي يقابله تراجع مُستويات الإنتاج وارتفاع النفقات.

٤/٢- التّرفُ وزيادة الطّلبِ:

تشير بعض النّصوص التّاريخية، أن ظاهرة الترف عامل أساسي في تراجع الجباية المالية، خاصة إذا اقترن الأمر بأيام الدولة الأخيرة، مما يدفع السلطة إلى ضرورة تدارك الوضع بفرض المغارم والمكوس، تغطية لترف الحكام[٣١]. والظاهر أن سلاطين بني زيان المتأخرين، قد دأبُوا على حياة الرفاهية التي تتطلب أموالا ضخمة، خاصة أيّام السلطان أبا تاشفين عبد الرحمن الأول الذي كان جَانحًا لملذّات الدُّنيا[٣٢]، وبلغ الأمر من الترف اتخاذ الرّكاب واللُجم والسيوف من خالص الفضة والذهب، تعبيرا عن حياة الرغد والرفاهية[٣٣]. وأمام تزايد النفقات الملكية، ونفقات الأعياد والاحتفالات، وتصاعد أجُور الجيش، وعمال الدولة، يصبح السلطان مجبرا على ضرورة توفير المال، مما يؤدي إلى زيادة الطلب على السّلع التي لا تتوفر عادة بالأسواق، خاصة أيّام الأزمات، وقد وصف لنا ابن خلدون حالة السُلطان أيّام الحصار بقوله: "واستهلك النّاس أموالهم وموجُودهم، وضاقت أحوالهم... وأشرفوا على الهلاك فاعتزموا على الإلقاءِ باليد والخروجِ بهم للإستماتة"[٣٤].

ويبدو أن هذا الوضع، المرتبط بزيادة الطلب وارتفاع مستوى التّرف، يدفع السلطة إلى زيادة كمية النّقد المتداولة، والتي عادة ما تكون مغشوشةً ترضيةً لفئة الحكام[٣٥]. ولعل هذا الأمر، ينتج عند نوع آخر من التّضخم النّقدي المرتبط بزيادة الطلب على السّلع والخدمات، والذي ظهر خاصة مع السلاطين المتأخرين من بني زيان، الذين أثقلوا كاهل الرعية بالمكوس والمغارم، نظرا لارتفاع النفقات وتراجع الإيرادات[٣٦]. ومن هنا يمكننا القول، أن التّرف يزيد من سرعة الطلب على الاستهلاك للسّلع والخدمات، والذي بدوره ينتج عنه التّضخم النّقدي المرتبط بزيادة الطلب، أو ما عبر عنه بتضخم الطلب[٣٧]. انطلاقًا من هذه المبررات يمكن القول، أن الدولة الزيانية قد عرفت عدة أصناف من التّضخم متفاوتة التأثير، أبرزها تضخم الطلب المرتبط بزيادة الترف والطلب على السّلع والخدمات، خاصة أيام السلاطين المتأخرين، لترتفع شدته أيام الأزمات الاقتصادية، وهذا ما عرف بالتّضخم المفرط والسريع، الذي يعد أخطر أنواع التّضخم تأثيرًا على الاقتصاد عامة، والنّقد خاصة، أمام غياب السلطة، وعدم تدخلها في الأمور الاقتصادية بشكل مؤثر.

ثالثًا: العوامل المؤثرة في استقرار النّقد الزّياني

٣/١-أصناف النّقد:

عرف المجتمع الزياني كحاله من المجتمعات الوسيطية نظام المعدنيين، الذي يعتمد على الذهب والفضة، كنظام أساسي في المعاملات المالية، لذا كانت هذه العملة في أغلبها صورة طبق الأصل في الشكل والمضمون عن العملة الموحدية[٣٨]. ومقارنة بالدول المجاورة، فقد كان النّقد الزياني على درجة من التقدم والتطور، خاصة إذا تمت مقارنته بالنقد في بلاد السودان، حيث عرفت السلطة الزيانية نوعان من السكة المستعملة، ومنها:

(٣/١) ١-النُّقود المعدنية:

شملت الدينار الذهبي، الذي اختلفت أوزانه ومقاساته، تبعا للتطور الحاصل في الاقتصاد الزياني، الذي يعمل على توفير مادة الذهب لصناعة النّقد، وكان أبرزه دينار السلطان يغمراسن بن زيان، حيث حمل مواصفات الدينار الحفصي شكلاً ومضموناً، لما كان بنو زيان في تبعية نقدية لدار الضرب الحفصية[٣٩]، والدينار الذي سكه السلطان أبو زيان محمد الأول بن عثمان بعد فك الحصار عن تلمسان، الذي فرضه السلطان المريني يوسف بن يعقوب سنة ٧٠٦ه/١٣٠٦م ، كتب عليها "ما أقرب فرج الله"، حيث تدل هذه العبارة، على نهاية الحصار، ونجاة أهل تلمسان من الهلاك[٤٠]، إضافة إلى عدة نماذج أخرى ساقها لنا هنري لافوا " Henri Lavoix" ، تمثل المراحل التّاريخية الكبرى لتطور العملة الذهبية، الذي سكت بدار الضرب الزيانية ابتداءً من السلطان أبي حمو موسى الأول (٧٠٧-٧١٨ه/١٣٠٧-١٣١٨م)، إلى غاية السلطان عبد الله محمد (٩١٠-٩٢٣ه/١٥٠٤-١٥١٧م)، حيث تراوح وزنه على العموم ما بين ٤٫٤٨ غرام، و٤٫٦٦ غرام، وقطره ما بين ٣٢ ملم و٣٤ملم.[٤١] كما كان للدرهم الفضي المربع وجود بالدولة الزيانية، اقتداءً بالموحدين، على أن أجزاؤه هي الدرهم الكبير والصغير ونصف الدرهم، ونظرا لشكله غير المنتظم، فقد تراوحت أوزانه ما بين ٠٫٨غ-٠٫٩غ، و٠٫٤٠غ-٠٫٦٠غ، وأبعاده ما بين ١٣×١٣ملم، ١٥×١٥ ملم، ١٥×١٦ملم[٤٢].

ومما تجدر الإشارة إليه، أن الفلس النحاسي، قد كان له وجود بالدولة، رغم أن الدراسات الأثرية قد وقفت عاجزة عن إيجاد نماذج منه، ولكن الرائج بين المفكرين أن هذه العملة قد استعملت لاقتناء

مقالات

مُحقرات اللّوازم، بعد تراجع كميات الذهب والفضة؛ وما يدعم هذا التوجه هو إقبال دار الضرب الزيانية، وتجار بني زيان، على جلب النّحاس من بلاد السودان، على شكل قُضبانٍ رقاقٍ أو غلاظٍ؛ لصهره أو استعماله في أغراض شتى، ومنها صناعة الفلس النحاسي[٤٣] والظاهر أن نقص المادة المصدرية ماعدا ما ذكره الوزان بقوله:" وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنّوع[٤٤]، يجعلنا نرجح أن هذه العُملة قد اختلفت أوزانها وأنواعها، فربمّا كان منها الكبير والصغير، أو الربع والنصف والثمن، وهذا ما أشار إليه الوزان على أنها مختلفة في النّوع، ولعل اختلاف القيمة يؤكد تفاوت أوزانها على قدر اختلاف أصنافها؛ وهذا ما يؤكد تراجع كميات النحاس زمن الوزان، وبذلك فإن الفلس النحاسي يقدر بنصف الحبة؛ أي ما يعادل ٠،٠٢٩٥ أو ٠،٠٣٥ كحد أقصى[٤٥].

(٣/١) ٢-النُّقود السِّلعية:

تتمثل في جميع السّلع سواء المعدنية أو غيرها، والمستعملة من طرف التّجار الزيانيين، أثناء عمليات التبادل التّجاري كوحدة للقيمة، لذا فقد تميزت هذه النّقود بنوع من المحدودية، نظرًا لانتشار نظام المعدنيين، لذا اقتصر التعامل بها على الأفراد دون الدولة، ولكنها تعبر عن ذلك التفاوت النّقدي بين مجتمعات المغرب الإسلامي، والسودان الغربي. ومنها دراهم الصُّلْحِ، وهي عبارة عن نوع من النّقود السلعية المعدنية، الذي لا تحوي رسومًا وأشكالاً تشير إلى دار الضرب، ولكنها يعبر عن قيمة محددة، لكونها قد ضربت من الذهب، ومنه فإن لجوء تجار تلمسان لهذا النّوع من النّقد كوسيط للتبادل مع أهل السودان، مردُّه لعدم درايتهم بالنّقود المعدنية [٤٦]، كما لجؤُوا إلى استخدام عدّة قطع معدنية من الحديد، تنوع ما بين الرطل ونصف الرطل، أو ربع الرطل، لاقتناء عدة لوازم منها الحليب والخبز والعسل[٤٧].

في الوقت نفسه استعمل بنو زيان نُقودا سلعية من غير المعادن، ومنها الوَدَعُ، وهو نوع من الأصداف التي تعامل بها أهل السودان مع التّجار الوافدين إليهم، حيث كان يستورد من بلاد فارس، وتعادل أربعمائة ودعةٍ مثقالاً واحدًا، على أنّه كان يستعمل لشراء محقرات اللوازم[٤٨]، إضافة إلى الملح، الذي حبّذ أهل السودان التعامل به بدل النّقود المعدنية، كوحدة نقدية في المعاملات المالية مع التّجار الوافدين لأقاليمهم، نظرا لقلته ببلاد السودان، ولعل ندرة هذه المادة وكثرته ببلاد البربر، هو ما دفع أهل السودان للاقتصاد في استعماله[٤٩]، حيث بلغ ثمن الرطل منه المثقال ؛أي أنّ ثمانين مثقالاً تعادل ٨٠ رطلاً = ٤٠ كلغ[٥٠]

٣/٢- المؤثرات الداخلية:

نظرًا لما يتميز به النّقد عموما بعدم الثبات في القيمة، فإنّه يتأثر عادة بعدة عوامل تجعل قيمته تترنّح ما بين الغلاء والرخص تبعًا للأوضاع المحيطة بالدولة، لذا فقد تعددت أشكال ومظاهر بروز الأزمات النقدية، في بلاد المغرب الإسلامي، والظاهر أن النّقد الزياني هو أيضا كان عرضة لعدم الاستقرار في الوزن والقيمة والعيار، تماشيًا مع التطورات الخاصة بالسلطة السياسية، وتقلبات الاقتصاد والأسواق، التي كانت لها تأثير مباشر على النّقد وصرفه، ومن أهم العوامل الداخلية نذكر:

- تعـدد أخطـاء دار الضرب في عمليـة سـك العملـة؛ وتُعَدّ هذه العقبة من أبرز الأسباب التـي تـؤدي إلى تفاوت قيمـة وعيـار ووزن النقـد، المطـروح لعمليـة التداول في الأسواق، وقد ساق لنا صاحب الدوحـة عدة أشكال من هذه الأخطاء التي تـرتبط بعـمال دار الضرب سهوًا، أو عمدًا، أو من طـرف الـذين يـترددون عـلى دار الضرب.[٥١] وأمـام نقـص المـادة المصـدرية حـول أخطـاء النّقـد الزيـاني، إلا أن ذلـك لا يمنـع مـن وجـود أخطـاء تسـبب بهـا العـمال، ولعـل مـن أبـرز الأخطاء المتعمـدة ذات البُعـد الشخصي، تمثـل في سك السلطان عملة غير خالصة من الذهب والفضـة والنّحاس أواخر أيام الدولة.[٥٢]
- تراجـع كميـات المـواد الأوليـة المعتمـدة في سـك النّقد خاصة الذهب والفضة، والتي كانت تجلب عـادة من بلاد السودان[٥٣]، حيث عرف النّقد إثر ذلـك تذبـذبًا واضحًا، أدى إلى عدم استقراره بالأسواق خاصة من حيث الوزن والشكل، وهـذا مـا أكـده لافـوا مـن خـلال النماذج المعروضة، والتي تراوح وزنها مـا بـين ٤،٤٤غ و٤،٩٠غ، والمتعلقة بالدينار الذهبي، ولعل هذا الأمر مـا دفـع الـسـلطة لتعـويض هـذا الـنّقص بـالفلس النّحاسي، حفاظا على آليات صرف النّقد.[٥٤]
- إقبال السلطة على سك نقـد غـير خـالصٍ خاصـة بعـد تراجـع المـوارد الأوليـة مـن الـذهب والفضـة، نظـرا لتصـاعد الأزمـة النّقديـة والمرتبطـة بدرجـة تـوفير المعـدن، إضـافة إلى بـروز المنافسـة الأوربيـة في الحصول على الموارد الثمينة.[٥٥]

- التـدخل المبـاشر لليهــود في عمليـات الصـيرفة النّقدية، بعد امتناع المسلمين عـن هـذه المعـاملات لأمـور دينيـة مرتبطـة بالربـا، مـما أدى إلى تفشي ظاهرة الغش بالنّقد خاصة العملة الزائفة، والنّقد الناقص على الوازن(٥٦)، ومن هنا فإن لليهـود يـدٌ فاعلـةٌ في عـدم اسـتقرار النّقـد بالأسـواق، ولعـل اسـتخدامهم أيـام بنـي زيـان في عمليـات الجبايـة المالية دليل على نفوذهم الواسع بالدولة(٥٧).
- انتشار ظاهرة الغش أيام بني زيان، والتي كـان لها دور في إضـعاف القُـدرة الشرائية للرعيـة، وتراجـع قيمة النّقد ووزنه وعياره كمظهر من مظاهر الأزمة النّقدية[٥٨].
- الغلاء وارتفاع الأسعار، نتيجة الأزمة الاقتصادية التي أصـابت الدولــة والتــي تــرتبط بــالحروب والحصــار، والصراعات الداخليـة حـول الحكـم خاصـة بـين أفـراد الأسرة الواحدة، التي استنزفت خزينـة الدولـة، وأدت إلى تغيير مجالات السياسة المالية والنقدية، حسب التوجه الفكري للسلطان في إدارة الدولة.[٥٩]

٣/٣- المؤّثرات الخارجية:

ويمكن إيجاز المؤثرات الخارجية في النّقاط التالية:

- تعدد الأزمات الاقتصادية المرتبطة بـالحروب الزيانيـة المرينية الحفصيـة، أو الصراع الإسـباني والعـثماني، مـن أبـرز المـؤثرات التـي تـؤدي إلى ارتفـاع الأسـعار وتراجـع قيمـة النّقـد، بعـد تـدهور النظـام المـالي، وتزايد الأزمة الديمغرافية، لذا يعد الغلاء من سمات الأزمة النّقدية التي أصابت الدولة أيام الحصار، ومن ذلـك مـا ذكـره ابـن خلـدون بقولـه: "وغلـت أسـعار الأقوات والحبوب وسـائر المرافـق لمـا تجـاوز حـدود العوائد وعجز وجـدهم"[٦٠]، كـما أن انخفـاض الأسـعار قد يؤثر على قيمة النقد على حد ما ذكره التّنسي في حال الأسعار بعد فك حصار تلمسان[٦١]
- رواج الأزمات النّقدية ببلاد المغرب الإسلامي، خاصـة الدول المجاورة المتعاملة اقتصـادياً مـع بنـي زيـان، وهـذا مـا سـهل عمليـات دخـول النّقـد المغشـوش بكميـات مُعتـبرة للأسـواق الزيانيـة نتيجـة الحركـة التجارية المستمرة، ومنها الأزمة النقديـة الحفصـية ســنة ٧٧٠ هـ/١٣٦٨م، والمرينيــة سـنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م[٦٢].
- المنافسـة الاقتصـادية مـع دول الجـوار والضـفة الأخـرى، حيـث يعـد النّقـد وسـيلة ومعيـار لقيـاس التطـور الاقتصـادي لهـذه الـدول، ولعـل مـن أبـرز الأمثلـة الدالـة علـى المنافسـة النّقديـة إقـدام دار الضرب المرينيـة علـى اختيـار العملـة الحفصيـة بـدل العملة الزيانية زمن صاحب الدوحة كمرجـع أساسي لسـك العملـة، مـما يـدل علـى التبـاين الواضـح في قيمة العملة واستقرارها بالمناطق الثلاث[٦٣]
- فقدان الدولة الزيانية مورد مالي مهم يعمد على توفير الذهب لدار الضرب خاصة طريق الذهب الـرابط بين تلمسان وسجلماسة، بعد أن خضعت للدولة مدة ١٣ سنة (٦٦٢هـ/١٢٦٣م إلى ٦٧٣هـ/١٢٧٤م)، ولعـل هـذه الخسـارة الماديـة قـد أفقـدت النّقـد الزيـاني توازنه، بتراجع كميات الذهب المتدفق أدت إلى أزمة نقدية أشار لها الوزان بدقة[٦٤].

وبهذا فإنّ تظافر العوامل الداخلية والخارجية، من شأنه أن يؤثر بشكل مباشر على تراجع قيمة النّقد الزياني سواء بالمعاملات المالية الداخلية أو الخارجية، وجرّه إلى مجال أضيق من ذلك، إلى غاية بروز الأزمة النّقدية، ومن هنا تصبح السلطة مُلزمةً ومُجبرةً على تفادي الأزمات النقدية وعوارضها، التي تضر بالإنتاج والثروة، وجميع المعاملات والالتزامات المرتبطة بالنقد.

رابعًا: عَلاقــة النّــقد بالأسعــار

يُعَدّ أمر الحفاظ على استقرار النّقد وقيمته أمرا ضروريا، في ظل المتغيرات والعوامل المؤثرة التي تحيط بالدولة الزّيانية، لذا فإن استقرار الأسعار مرتبط بثبات قيمة النقد وزنًا، وعيارًا، منذ صُدوره عن دار الضرب الرسمية، إلى غاية رواجه بين الأفراد[٦٥]. وبذلك فإن مهمة الإصدار النّقدي وجب اقتصارها على الدولة، باعتبارها وظيفة ضرورية للمُلك، بها يميز بين النّقد المغشوش وغيره[٦٦]، من حيث ثبات العيار والوزن، والابتعاد عن التقدير[٦٧]. وأمام المعطيات السابقة، يتبين لنا أن عملية الإصدار النّقدي يجب أن تتلاءم مع حجم الطلب، تجنبا للتّضخم (ارتفاع الأسعار) والانكماش (انخفاض الأسعار) حفاظا على استقرار أسعار السّلع والخدمات بالدولة[٦٨]. ومن هنا فإن علاقة النّقد بالأسعار علاقةٌ عكسيةٌ، حيث ترتفع قيمة النّقد بانخفاض الأسعار، وتنخفض قيمة النّقد بارتفاع الأسعار[٦٩]، لذا كان الحصار الطويل الذي ضرب على تلمسان دليل ذلك، حيث عرفت الأسعار ارتفاعا رهيبا نتيجة شدة الحصار، وانقطاع الموارد لمدة ٨ سنوات و٣ أشهر و٥ أيام[٧٠].

لذا فإن هذه المدة كافية لانخفاض قيمة النّقد، وارتفاع مستوى التّضخم النّقدي بشكل سريع، وما يؤكد هذا التوجه هي أسعار بعض المنتجات الاستهلاكية خاصة مادة القمح والشعير، التي ارتفع ثمنها بشكل رهيب حتى وصفته بعض المصادر بـ "بلاءٌ عظيمٌ من غلاء الأسعار"[٧١]. وبعد نهاية الحصار، عرفت الأسعار انخفاضا شديدا، أدى إلى أزمة أخرى تعرف بالانكماش النّقدي؛ وبه فإن انخفاض الأسعار سوف يرفع من قيمة النّقد بقول أحدهم: "ففي ساعة واحدة بيع عندهم القمح ثمانية صيعان بثمن دينار، والشعير ستة عشر صاعا بثمن دينار "بعدما ما كان "ثمن صاع قمحهم إلى دينارين وربع دينار، وصاع شعيرهم إلى نصف ذلك"[٧٢]. ومما تجدر الإشارة إليه، أن العُملة المتداولة أيام الحصار هي الدينار الذي تم سكه من طرف السلطان يغمراسن بن زيان، والذي بلغ وزنه ٤٤،٢ ومقاسه ٣٠ ملم، أيام تبعية الدولة لبني حفص[٧٣]، في حين أن العُملة المسكوكة بعد نهاية الحصار، وهي نقد السلطان أبو حمو موسى الأول الذي بلغ وزنه ٤، ٦٦ غرام، ومقاسه ٣٢ ملم[٧٤].

والملاحظ من خلال هذه الإشارات، أن النّقد قد حافظ نوعًا ما على وزنه ومقاسه قبل الحصار وبعده، مما يدل على أنه قد فقد نوعا من القيمة أثناء الحصار، نظرا لتراجع المادة الأولية المخصصة لسك العملة، وبذلك عرف تراجعا في قيمته، ليتدارك هذا النقص بفضل إصلاحات السلطان أبي حمو موسى، بنهاية الحصار مباشرة بقول التّنسي: "فلما انصرف كان أوّل ما بدأ به الملك أبو حمو... إصلاح ما تلثّم من تلمسان"[٧٥]. خُلاصة القول، أن علاقة النّقد بالأسعار علاقةٌ عكسيةٌ، فكلاهما يتأثر بالآخر حسب درجة الزيادة والنُّقصان، لذا فإن وجود ظاهرة التّضخم والانكماش، ما هُما إلا تعبيرٌ عن التذبذب الاقتصادي الذي أصاب الدولة في فترات متعددة بلغت أقصاها أيام الأزمات الاقتصادية. وعليه فإن كمية النّقد المتداولة، هي من تتحكم في حركة الأسعار ارتفاعًا وانخفاضًا، لذا فإن ثبات قيمة النّقد وتحقيق الاستقرار النّقدي مرهون بدرجة تحكم السلطة الزيانية في عمليات الإصدار النّقدي، الذي تقوم به دار الضرب، وعليه فإن حجم النّقد يتوافق مع درجة الطلب حفاظا على ثبات الأسعار واستقرارها.

خامسًا: الآثار والحلول

نظرًا لارتباط التّضخم بفكرة الغلاء، فقد خصص العلاَّمة تقي الدين أبي العباس المقريزي (ت. ٨٤٥هـ___/١٤٤١م)، فصلاً كاملاً سماه "أقسام النّاس وأصنافهم وبيان جُملٍ من أحوالهم وأوصافهم"، لغرض الوقوف على أهم آثار التّضخم على النسيج الاجتماعي، حيث عمد إلى وصف آثار ذلك على سبعة أصناف، يمكن الاستئناس بها المعرفة آثارها البارزة على المجتمع الزياني[٧٦].

١/٥- الطبقة الحاكمة:

وهم السلاطين والحكام، حيث تكون استفادتهم من التّضخم استفادةً شكليةً صُوريةً غير حقيقية، نظرًا لانخفاض قيمة النّقد وتراجع الحجم الإجمالي للنفقات، خاصة الملكية والجيش، مما يدفع السلطة لرفع الضرائب لتغطية العجز حفاظا على دوام الملك[٧٧]. والظاهر أن هذه القاعدة يمكن الأخذ بها نسبيا، خاصة مع السلاطين المتأخرين من بني زيان الذين كَثُرَ ترفهم على حساب الرعية، لأن في زيادة التّرف زيادة الطلب، وارتفاع نسبة التّضخم، خاصة مع السلطان عبد الرحمان بن تاشفين[٧٨]، والسلطان السعيد بن أبي حمو الذي ثارت عليه الرعية لكثرة إسرافه[٧٩].

وفي المقابل نجد من السلاطين من تأثر بالتّضخم نظرًا للغلاء الشديد، كحال السلطان أبي حمو موسى الأول، أيام الحصار الذي أظهر لأعيان دولته، حالته المزرية حيث أرسلهم إلى مطبخه ليشاهدوا غذاءه بذلك اليوم، فكان عبارة عن مزيج من لحم حصان، كان ثمنه ١٠ دراهم صغار (١/١٠ من المثقال)، وحبوب الشعير وورق اللّيمون، وأشجار أخرى ليزيد حجمه، وبذلك علم النّاس أن حالته أضيق من حالتهم[٨٠]. ولعل هذا الوضع، هو مُنافٍ لوصية أبي حمو لولده، الذي أمره بالادخار زمن القحط والفتن والثورات، كي يواجه بها آثار الفساد فيكون المال سندا له ولجيشه، وبه يُضعف عدوه، ويهدأ من روعة رعيته زمن الأزمة[٨١].

٢/٥-الطبقة الغنية (التّجار والأثرياء):

وهم مياسير الحال من التّجار والأغنياء أصحاب التّرف، تكون استفادتهم صُورية أيضًا نظرًا لارتفاع النفقات وكثرة اختلاف النّقد "فيعلم فساد ما كان يظنُ، وكذّب ما كان يزعمُ"[٨٢]. ويبدوا أن هذه الفئة، تعمد على اغتنام هذه الفرص لزيادة حجم ثروتها المالية، نظرًا لارتفاع الأسعار (غلاء)، حيث يعمد الكثير منهم

إلى اكتناز المال الخالص دون المغشوش، واحتكار السّلع لرفع ثمنها أيام الأزمة، وقد أشار العُقباني لهذه الظاهرة في تلمسان بتزامن الغلاء، حيث يعمد هؤلاء التجار إلى الاحتكار زمن الرخاء، اعتماداً على أخبار التحذير بضيق الحال خاصة أيام الحصار(٨٣). ولعل هذه الأساليب المتبعة من طرف الأغنياء، تدفع الحاكم إلى إرغام المحتكرين على بيع مخزونهم للرعية، خاصة مما فَضَل عن قُوتهم وقُوت عيالهم(٨٤).

وبالنّظر إلى أسعار المنتوجات أيام الغلاء، يعتقد التّاجر أو الغني، أنه اكتسب ثروةً من رفع الأثمان على الرعية، ولكنه في المقابل تزيد نفقاته، بتراجع قيمة العُملة المتداولة، لذا وصفهم المقريزي بالمـُغفلين والبُؤساء، لكون مالهم قد أتت عليه الأزمة(٨٥)، في حين نجد أن فئة أخرى من التّجار من أصحاب السلطان تعمد على رفع وتيرة العمليات الخيرية خاصةً ما حدث أثناء مجاعة ٧٧٦هــ/١٣٧٤م، التي دفعت السلطان أبي تاشفين لفتح المطامير، والحطِّ من الأسعار رفقا بحال الرعية(٨٦)، وهناك فئة أخرى من التّجار آثرت الفرار من الغلاء إلى المناطق بعيدة يسودها الرخاء، بقول أحدهم: "وفَرَّ أكثر أهلها فلم يبق فيها من الرعية إلا نحو مائتين"(٨٧).

٣/٥-الطبقة المتوسطة:

وتشمل الفئة العاملة من التّجار الصغار وأصحاب المعايِش وأرباب المهن والأجراء وصغار الكِسْبة من الخدم والبُنات والفَعلة وأصحاب الفلاحة، حيث تعرف هذه الطبقة زيادة في مداخيلها نظرا لارتفاع الأسعار أو انخفاضها، مع ارتفاع نفقاتها أيضا، وهذا ما يدفعها إلى اللّجوء للإستدانة تغطيةً للعجز أمام انخفاض قيمة العملة(٨٨). ويبدوا أن هذه الفئة المتوسطة قد تأثرت كثيرا بظاهرة الغلاء، رغم لجوئها أيضا للاحتكار على قدر المستطاع، تفاديا للأزمة خاصة أولائك الطحانون، وأهل الحوانيت وبائعُوا الحنْطة بتلمسان(٨٩)، إلا أن أغلبية ممارسي هذه المهن قد فرّوا من المدينة نظرا لشدة الحصار، والغلاء وانقطاع الموارد المساعدة على أداء الحرف والمهن(٩٠)، ومن ذلك ما ذكره ابن خلدون قوله: "وهو في ذلك مُستجمعٌ للمُطاولة في الحصار والتّضييق... يُنزل شديد العقاب والسّطوة لمن يمُيرها ويأخذ بالمرصاد على من يتسلل بالأقوات إليها... فلا يخلصُ إليهم الطّيف ولا يكاد يصل إليهم العَيْشُ مُدّة مَقامه عليها"(٩١) ، وبذلك فإن هذه الفئة قد قلّ وجودها زمن الأزمة، وانقطع عملها، وتزايدت ديونها، رُغم ارتفاع أُجورها الذي قابله كثرة إنفاقها(٩٢).

ويبدو أن طبقة الفلاحين حاولت رفع أسعار المنتوجات الاستهلاكية، التي بلغت ذروتها أيام الحصار والغلاء، بما تجاوز حدود العوائد، إلا أن طول المدة أتت على المخزون العام للرعية، مما دفع هذه الفئة إلى استهلاك مخزونها المالي وجميع الموجودات، إلى أن ضاقت أحوالهم، وأشرفوا على الفناء(٩٣)، كما يُضاف لهذه الفئة جماعة الجُند الذين توفي أغلبهم في ظل الصراع، وما بقي منهم اِكْتوى بنار الغلاء والتّضخم، وتراجع أجورهم، مما دفعهم إلى رغبة الإستماتة بدل ذُل الحصار، وقهر العدو وضيق الحال، لذا لم يبق منهم سوى إلاّ الألف(٩٤).

٤/٥-طبقة العلماء والطلبة:

يضع المقريزي هذه الفئة من ضمن الذين لحقهم الموت لسوء ما حلّ بهم، لذا فقد انتابتهم القِلّةُ والخصاصةُ وساءت مُعظم أحوالهم(٩٥). والظاهر أن فئة الطلبة قد تأثرت كثيرا بالغلاء وآثار التّضخم، نظرًا لانقطاع المساعدات عليهم، لذا فقد زاد فقرهم أكثر مما كانوا عليه سابقا، حيث وصفهم الوزان بقوله: "والطلبة أفقر النّاس لأنهم يعيشون عيشةً بئيسةً في مدارسهم"(٩٦)، وكذلك هو حال الفقهاء العلماء الفقراء الذين دفعتهم الفاقَةُ والغلاء لمغادرة المدينة، حيث وصف ابن مرزوق حال علمائها بقوله: "فكم خُرّبت فيها من ذِمَمٍ، وكم هلكت فيها من أُمَمٍ، وكم اِنْجلى من أهلها أعلامٌ، وكم كابَدُوا من محن فيها وانتقام"(٩٧). إلا أنّ بعض العلماء قد حملوا لواء والتكافل الاجتماعي زمن الغلاء، خاصة أولئك الأثرياء، ومنهم الفقيه أبي العباس ابن مرزوق (٦٨١-٧٤١ هـ/١٢٨٢-١٣٤٠م)، الذي فتح مطامير القمح والفحم، وأخذ يتصدّق بها على الفقراء زمن الغلاء، وكذلك الفقيه أبي عبد الله بن أبي بكر مرزوق، الذي كان شديد المساعدات المالية لأهل العَوَزِ من الفقراء(٩٨).

٥/٥-الطبقة العامة:

وهم أهل الخصاصة والمسكنة، وهي أكثر الطبقات المتضررة من التّضخم النّقدي وارتفاع الأسعار، لذا فإن معظمها يموت جوعا إلا قليل من أدركه الفرجُ(٩٩). الملاحظ أن هذه الفئة هي الأكثر معاناة من التّضخم؛ لكونها طبقة كادحةٌ تُستغلُ بأثمان رخيصة، ولعل هذا الأمر هو ما دفع أغلبهم إلى أكل الجيف من القطط والفئران وأشلاء الموتى، وخربُوا بيوتهم للوقود،

حتى عجز وُجدهم، وقل مالهم وضاقت أحوالهم[١٠٠]، ولعل أغلبهم فرّ من الغلاء، ولم يبق بالمدينة أيام الحصار سوى المائتين، بعدما كانوا قُرابة ١٢٠ ألف نسمة، نظرا لشدة أزمة الجوع وغلاء الأقوات، حتى أشرف بنو عبد الواد على الهلاك والانقراض[١٠١]. وبذلك فإن التّضخم النّقدي المفرط قد ولد أزمة ديمغرافية حقيقية؛ نظرًا لارتفاع الأسعار، وتراجع الموارد المالية للدولة، لذا فقد كانت هذه الفئة الدنيا هي أكبر متضرر من الظاهرة.

يتضح مما سبق ذكره أن آثار التّضخم، تتفاوت تفاوتا تدريجيا بين طبقات المجتمع الزياني، حسب قدرة كل فئة على تحصيل الثروة لمجابهة الأزمة، فكلما كان ارتفاع الأسعار واضحا، تفاوتت الاستفادة منها بصفة صُورية للعديد من الفئات، مع ارتفاع النفقات التي تأتي على كل ما تم اِدّخاره من القِيم النّقدية مُنخفضة القيمة، ولعل هذا الأمر هو ما يدفع أغلب الفئات للإستدانة؛ لكون النقد مُنخفض القيمة، أمام زيادة وتيرة النفقات التي تتطلب نقدًا أكثر. وبذلك يصبح للتّضخم آثارٌ اقتصادية، ترتبط بزيادة الهُوة بين الفقراء والأغنياء، وانخفاض القدرة الشرائية للفئات العاملة والطبقات الدنيا، لترتفع مستويات الطلب الاستهلاكي، الذي بدوره يرفع حجم الفقر والمعاناة، ومن هنا تصبح الدولة في أزمة خانقة سببها التّضخم النّقدي[١٠٢]. ولا سبيل للشك، أن سلاطين بني زيان قد حاولوا بشتى الطرق التخلّص من آثار التّضخم النّقدي، والقضاء على الغلاء الذي جثم على الرعية زهاء مدة طويلة، لذا فقد أظهر هؤلاء شجاعة وبسالة في الصمود ضد الحصار الاقتصادي، الذي صاحبه أزمة مالية ونقدية وديمغرافية، أتت على كل موجود[١٠٣].

لذا فإن أوّل عمل قام السلطان أبي حمو موسى الأول بعد نهاية الحصار والغلاء، أن رفع الغُبن عن الرعية وكسر قيود الغلاء، برفع وتيرة الإصلاح النّقدي بزيادة الإنتاج بدل الطلب، حيث عمد إلى إصلاح ما تلثّم من تلمسان وبناء أسوارها، وتوزيع المؤن على سكانها، واتخاذ الخنادق والمخازن تفاديًا للأزمة، وعمد إلى خزين الطعام والأدم، مالا حدٌ له ولا حَصْرٌ[١٠٤]. ومن دلائل الرخاء انخفاض الأسعار إلى مستويات دُنيا، جعلت المصادر تتعجب من ذلك التّحول، فقد ذكر صاحب البُغية ذلك قوله: "فلقد كان يفرج للشدّة بمعاقبتها الفرج"[١٠٥]، وعبر التّنسي بقوله: "فسبحان اللّطيف بعباده لا إله إلا هو"[١٠٦]. والملاحظ أن السلطان قد حافظ على نظام المعدنين (الذهب والفضة) في سك العملة، بل عمد إلى إصلاح نقدي شامل وجديد، حافظ فيه على أسرة بني الملاح التي كلفت بإدارة دار الضرب بتلمسان[١٠٧]، لذا تعد عملته أوّل نقد يعبر عن الاستقلال السياسي والاقتصادي، والنّقدي، حيث ضبط وزنه، وعياره، ومقاسه، كبداية لعهد جديد من الاستقرار النّقدي[١٠٨].

وبذلك فإن ما قام به يُعَدّ انتصارًا اقتصاديًا، به تراجعت الأسعار وتبدّد الغلاء، لتبدأ الرعية عهدا آخَر قائمٌ على تمهيد الملك، وإعمار الدولة. وبه نخلص إلى القول، أن ظاهرة التّضخم النّقدي، قد كان لها أثر بالغ بشكل متفاوت في زعزعة المسار الطبيعي لحركة الأسعار والنّقد، مما أدى إلى عدة أضرار مسّت المجتمع والاقتصاد بالدرجة الأولى، ولعل شدة الظاهرة قد بلغت أوجها أيام حصار تلمسان؛ لذا كان أكبر امتحان للمجتمع الزياني، والفكر النّقدي للسلاطين الذين ما فتأو يعملون على إيجاد حلول لهذه الظاهرة.

خَاتِمَةٌ

صفوة القول، أن ظاهرة التّضخم أو الانكماش النّقدي، مسألةٌ نسبيةُ الحدوث، ترتبط بالنّقد بشكل واضح، لذا كانت العلاقة بين النّقد والأسعار علاقة عكسية، يتوقف حجمها على درجة الوعي الاقتصادي ودرجة زيادة الإنتاج، والحد من الطلب، مع التشبث بقاعدة المعدنين التي تحافظ على استقرار قيمة النقد في النظام الاقتصادي الإسلامي. لذا فإن بروز ظاهرة التّضخم النّقدي خاصة المفرط، أو المتعلق بالطلب، برز بشكل واضح أيام الأزمات الاقتصادية التي تمثلت في الحصار العسكري والاقتصادي، مما أثر على الاقتصاد والمجتمع وأجبر السلطة على حمل مشروع إصلاحي قائم على زيادة الإنتاج دون الطلب، حفاظا على استقرار الأسعار، والحيلولة دون زوال قيمة النّقد.

الملاحق:

أسعار بعض السلع أيام الغلاء والرُّخص في تلمسان (٦٩٨-٧٠٣هـ/١٢٩٨-١٣٠٣م)

نوع السلعة	الثمن	الحالة العامة للأسعار	المصدر
– مكيال من القمح برشالة (١٢ رطل) – صاع من القمح – كيل روجيو من القمح	– ٢ مثقال ونصف – ٢ مثقال وربع – ٥٠ مثقال	ارتفاع الأسعار	– ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج٧، ص، ١٢٨. – التّنسي، المصدر السابق، ص، ١٣٤-١٣٥؛ يحي ابن خلدون، المصدر السابق ج١، ص، ٢٣٤. – الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص، ١٨
– ثمانية أصع من القمح -كيل سكورسو من القمح.	– ١ الدينار – ٣ مثاقيل	انخفاض الأسعار	– التّنسي، المصدر السابق، ص:١٣٤-١٣٥؛ يحي ابن خلدون، المصدر السابق ج١، ص، ٢٣٤. – الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص، ١٨ – ١٩.
-صاع الشعير. -١٦ صاع من الشعير.	-دينار١/٨ دينار ١/٨	-ارتفاع -انخفاض	-يحي ابن خلدون، المصدر السابق ج١، ص، ٢٣٤.
-رطل العنب والخضر. -كراء آلات زراعية. -كراء دار لمدة سنة. -ثمن دار. -١٦ أوقية من الزيت.	-درهم واحد. - ٧دنانير. - ١٢ دينار. - ٦٠ دينار. - ربع درهم.	استقرار الأسعار نسبيا	-المازوني، أبو زكريا يحي المغيلي المازوني (ت ٨٨٣ ه- ١٤٧٨م)، الدرر المكنونة في نوازل مازونة، تحقيق حساني مختار، مخبر المخطوطات، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر، ١٤٢٥ هـ/٢٠٠٤ م، ج٣، ص، ٧٧ . - نفس المصدر، ج٣، ص، ٩١. -نفسه، ص، ٩٤. -الونشريسي، المصدر السابق، ج٥، ص، ١٠٢. -نفسه، ج٨، ص، ٨٧.
-البقرة الواحدة. -رطل جلد بقري ميت. -دجاجة + بطيخ. -أوقية الشحم + الفول + الخس. -الفأر + رعية + أوقية ملح + حطب. - اتقاء والفقوس. -أرنب + الخيار. -الخيل. اتقاء-الضأن. -أوقية زيت + السمن. -البيضة + عصفور. -لفت. -حبة تين + اجاص. -رطل لحم البغال والحمير النحيفة. -الهر+ الكلب.	-٦٠ مثقال. -٣٠ درهم. -٣٠ درهم أو٨ دنانير للدجاجة. -٢٠ درهم. -١٠ دراهم. -٤٠ درهم. -٣/٨ دينار. -١٠ دراهم صغار أي ١/١٠ مثقال. -٧٠ مثاقيل ونصف. -١٢ درهم. -٦٠ دراهم. -١٥ درهم. -٢٠ درهم. -مثقال. -مثقال ونصف لكل منها.	ارتفاع الأسعار	- ابن خلدون، العبر، ج٧، ص، ١٢٨؛ التنسي، المصدر السابق، ص، ١٣٢.

الهَوامِشُ:

(١) حسن محمود العُمري، **نظرية استقرار النّقد عند المقريزي**، رسالة ماجستير، إشراف عبد الرؤوف الخرابشة ورياض المومني، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، قسم الفقه والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، ١٤١٧هـ/١٩٩٦م، ص: ٨١؛ خالد عبد الله المصلح، **التّضخم النّقدي في الفقه الإسلامي**، رسالة دكتـــوراه في الفقه الإسلامي، جامـــــعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، فرع القصيم، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص:٧٥-٧٦.

(٢) عدنان خالد التّركماني، **السياسة النّقدية والمصرفية**، مؤسسة الرسالة، عمان /بيروت، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ص: ٨١.

(٣) نفس المرجع، ص:٨٤؛ خالد عبد الله المصلح، المرجع السابق، ص:٧٨.

(٤) المقريزي، تقي الدين أبي العبّاس أحمد بن علي (ت٨٤٥هـــ/١٤٤١م)، **إغاثة الأمّة بكشف الغُمّة**، تحقيق كرم حلمي فرحات، ط.ا، عين للدراسات والبحوث العلمية والاجتماعية، جمهورية مصر العربية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٧م، ص: ٨١.

(٥) الوزان، الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت بعد ٩٥٧هـــ/١٥٥٠م)، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، ط.٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٤هـ/١٩٨٣م، ج٢، ص: ١٨.

(٦) ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان العبر والمبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٧، ص ١٢٨.

(٧) التّنسي، محمد بن عبد الله (ت ٨٩٩هـــ/١٤٩٣م)، **تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، مُقتطفٌ من نظم الدُّرِ والعُقيانِ في شرف بني زيان**، تحقيق محمود آغا بوعياد، دار موفم للنشر، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ١٣٢.

(٨) نفس المصدر، ص: ١٣٤-١٣٥.

(٩) خالد عبد الله المصلح، المرجع السابق، ص: ٨٤-٨٩.

(١٠) ولتبديد الرؤيا يمكن تشخيص هذه الأسعار، وقع الاختيار منا على الحصار الطويل لتلمسان للوقوف على درجة بروز الظاهرة بشكل واضح ولتحديد الفوارق في ثمن السلع أيام الغلاء، والرخاء لتشخيص الأزمة وتداعياتها النقدية (يُنظر الجدول الخاص بأسعار بعض السلع أيام الغلاء والرُخص بتلمسان (٦٩٨-٧٠٣هـ/١٢٩٨-١٣٠٣م) بالملحق)

(١١) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج٧، ص، ١٢٨؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص، ١٨.

(١٢) ابن خلدون، أبو زكرياء يحي (ت٧٨٠هـــ/١٣٧٨م)، **بُغية الرُوّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد**، تحقيق عبد الحميد حاجيات، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ج١، ص: ٢٣٤؛ التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٤-١٣٥.

(١٣) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤.

(١٤) مختار حساني، **تاريخ الدولة الزيانية**، منشورات الحضارة، الجزائر، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م، ج٢، ص، ٦٠.

(١٥) نفس المرجع، ج٢، ص: ٥٨- ٥٩؛ محمد بن ساعو، **التّجارة والتّجار في المغرب الإسلامي القرن ٠٧ – ١٠هـ/١٣ – ١٥م**، رسالة ماجستير، إشراف مسعود مزهودي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية، جامعة الحاج لخضر، باتنة، ١٤٣٤ – ١٤٣٥هـ/٢٠١٣ – ٢٠١٤م، ص. ٧٠-٧١.

(١٦) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج٧، ص:١٢٨.

(١٧) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص: ١٨.

(١٨) مبارك بن محمد الميلي، **تاريخ الجزائر في القديم والحديث**، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج٢، ص:٤٢٣.

(١٩) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص:٢٣١.

(٢٠) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج٧، ص: ١١٩-١٢٠.

(٢١) نفسه، ج٧، ص: ١٢٨؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص:١٩.

(٢٢) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، ج٧، ص: ١٢٨؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص:١٧-١٨؛ التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٠-١٣١.

(٢٣) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(٢٤) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، ج٧، ص: ١٢٨.

(٢٥) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣١؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص:١٩.

(٢٦) حسن محمود العُمري، المرجع السابق، ص: ١٠٢-١٠٣.

(٢٧) العُقباني، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد التّلمساني (ت ٨٧١هــ/١٤٦٧م)، **تُحفة النّاظر وغنيمة الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكر**، تحقيق علي الشنوفي، Extrait du Bulletin d'études orientales de L'institut Français de DAMAS, Tome xix, ١٩٦٧، ص: ٢٣٦.

(٢٨) تذهب هذه النظرية على أن النقود الرديئة تطرد النّقد الجيد من الأسواق، ويفسر المقريزي هذه الظاهرة أن سببها دخول الفلس النحاسي بكميات كبيرة إلى سوق العملة، نتيجة زيادة الترّف وارتفاع النفقات الملكية، مما دفع السلطة لإغراق الأسواق بالنقد، دون تطابق مع وتيرة الإنتاج، مما يضعف قدرة الرعية على اقتناء اللوازم، والظاهر أن هذه النظرة تتطابق مع نظرية (١٥١٩-١٥٧٩م) المستشار المالي Thomas Gresham للملكة إليزابيث الأولى، والقائلة أن " La mauvaise Monnaie Chasse La Bonne"، أي أن تخفيض العملة الجيدة يزيد من سرعة تداول النقد الرديء، مما يجعل الرعية تحتفظ بالجيد وتطرح الرديء الذي تزيد سرعة تداوله بين الأفراد، مما يؤدي إلى قلة تداول النقد الجيد. يُنظر: المقريزي، المصدر السابق، ص:١٤١، ١٤٥؛ حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ١٠٢-١٠٣؛
Henri Laurent, La Loi De Gresham Au Moyen –Age, Essai Sur La Circulation Monetaire Entre La Flamdre Et Le Brabant, A La Fin Du xiv e Siecle, Revue Belge De Philologie Et D' Histoire, Bruxelles, Tome 05, 1933, P: 748.

(٢٩) الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت ٩١٤هـــ/١٥٠٨م)، **المعيار المعرّب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج٥، ص: ١٨٩-١٩٠.

(٣٠) نفس المصدر، ج٥، ص: ١٩٠.

(٣١) ابن خلدون، عبد الرحمن (٨٠٨هـ/١٤٠٥م)، **مقدمة ابن خلدون**، ضبطه خليل شحادة وراجعه سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، ج١، ص: ٣٤٤.

(٣٢) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص:٢٣٩؛ التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٤١.

(٣٣) المازوني، أبو زكرياء يحي بن موسى بن عيسى (ت٨٣٣هـ/١٤٧٨م)، **الدُرر المكنُونةُ في نوازل مازُونة**، دراسة وتحقيق قندوز ماحي، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، د.ت، ج٢، ص: ٧٢٤-٧٢٥.

(٣٤) ابن خلدون عبد الرحمن، العبر، ج٧، ص: ١٢٨.

(٣٥) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٣٥-١٣٦.

(٣٦) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٣، خالد عبد الله المصلح، المرجع السابق، ص: ٨٩.

(٣٧) حسن محمود العُمري، المرجع السابق، ص: ٨١.

(٣٨) إدريس بن مصطفى، **العلاقات السياسية والاقتصادية للمغرب الأوسط مع إيطاليا وشبه الجزيرة الإيبيرية في عهد الدولة الزيانية**، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف مبخوت بودواية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، ١٤٢٧ – ١٤٢٨هـ/٢٠٠٦ – ٢٠٠٧م ، ص:٤١؛ مسعود كربوع، **نوازل النقود والمكاييل والموازين في كتاب المعيار للونشريسي**، جمعًا ودراسة وتحليلاً، رسالة ماجستير، إشراف رشيد باقة، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة، الحاج لخضر، باتنة، ١٤٣٤-١٤٣٥هـ/٢٠١٢-٢٠١٣م ص:٩٣؛ خديجة نشار بواشي، **العناصر الزخرفية على المسكوكات المغربية من القرن ١٠ إلى القرن ١٤م**، منشورات وزارة الثقافة، الجزائر، ١٤٣٤هـ/٢٠١٣م، ص:٢١٠؛ خالد بلعربي، **ورقات زيانية، دراسات وأبحاث في تاريخ المغرب الأوسط في العهد الزياني**، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٣٥هـ/٢٠١٤م ، ص:٢٢.

(٣٩) خديجة نشار بواشي، المرجع السابق، ص:٢١٢.

(٤٠) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج٧، ص:١٢؛ خالد بلعربي، المرجع السابق، ص:٦٢-٦٣؛ مسعود كربوع، المرجع السابق، ص:٩٣؛ عاطف منصور محمد رمضان، **النقود الإسلامية وأهميتها في دراسة التاريخ والآثار والحضارة**، ط.١، مكتبة الزهراء الشرق، القاهرة، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص:٨٤.

(41) Henri Lavoix, Catalogue Des Monnaies Musulmanes De La Bibliothèque National, Publier Par Ordre Du Ministère De L'instruction Publique, Espagne Et Afrique, Imprimerie National, Paris,1891,Tome 03,p :459-465.

(٤٢) العُمري، شهابُ الدّين ابن فضل الله (ت ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، **مسالكُ الأبصار في ممالك الأمصار**، تحقيق سلمان الجبوري ومهدي النجم، ط.١، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ج٤، ص:٩٨؛ عاطف منصور محمد رمضان، المرجع السابق، ص:٨٤؛ خديجة نشار بواشي، المرجع السابق، ص:٢١٢؛ صالح يوسف قربة، **المسكوكات المغربية، على عهد الموحدين والحفصيين والمرينيين خلال القرون السادس والسابع والثامن للهجرة الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر للميلاد، دراسة حضارية**، دار الساحل، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ج١، ص:١٧٢.

(٤٣) ابن بطوطة، محمد بن عبد الله (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)، **رحلة ابن بطوطة، تحفة النُظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار**، تحقيق محمد عبد المنعم العريان ومراجعة مصطفى القصاص، ط.١، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، ج٢، ص:٧١٠-٧١١.

(٤٤) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص:٢٣.

(٤٥) جودت عبد الكريم يوسف، **الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين، (٩-١٠م)**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص:١٧٧.

(٤٦) ابن بطوطة، المصدر السابق، ج٢، ص:٧١٠-٧١١.

(٤٧) لطيفة بشاري، **العلاقات التجارية للمغرب الأوسط في عهد إمارة بني عبد الواد من القرن السابع إلى القرن العاشر الهجريين (١٣ – ١٦م)**، ط.١، منشورات وزارة الشؤون الدينية والأوقاف، تلمسان، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص:١٩٠؛ بسام كامل عبد الرزاق شقدان، **تلمسان في العهد الزياني (٦٣٣-٩٦٢هـ/١٢٣٥-١٥٥٥م)**، رسالة ماجستير في التاريخ، إشراف هشام أبو رميلة، كلية الدراسات العُليا، قسم التاريخ، جامعة النجاح الوطنية، نابلس، فلسطين، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م، ص:٢١٦.

(٤٨) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص:١٦٧.

(٤٩) نفسه، ج٢، ص:٢٨٠.

(٥٠) نفسه، نفس الجزء والصفحة.

(٥١) ابن يوسف الحكيم، أبو الحسن علي (كان حيًا سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٨م)، **الدَّوحة المُشتبكةُ في ضوابط دار السكة**، تحقيق حسين مؤنس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد١-٢، المجلد السادس، ١٣٧٨هـ/١٩٥٨م، ص٥٢-٥٨، ٧٣، ٧٧.

(٥٢) الوزان، المصدر السابق، ص٢٣.

(٥٣) روبار برونشفيك، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥م**، ترجمة حمادي الساحلي، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ١٤٠٩هـ/١٩٨٨م، ج٢، ص: ٢٧١؛ محمد بن ساعو، المرجع السابق، ص: ١٦٥.

(54) Henri Lavoix Op, Cit, P459-465.

(٥٥) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص: ٢٣؛ عمر سعيدان، **علاقات إسبانيا القطّلانية بتلمسان في الثلثين الأول والثاني من القرن الرابع عشر الميلادي، دراسة ووثائق (رسائل ومعاهدات) وتعاليق وتحاليل**، ط.١، منشورات سعيدان، الجمهورية التونسية، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ص: ٩-١٠.

(٥٦) العقباني، المصدر السابق، ص: ٢٠٢.

(٥٧) ابن مرزوق، أبو عبد الله التّلمساني (ت ٧٩١هـ/١٣٧٩م)، **المُسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا أبي الحسن**، دراسة وتحقيق ماريا خيسوس بيغيرا، تقديم محمود بوعياد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص: ٢٨٥.

(٥٨) ترتبط عادة الأزمات النقدية في العصر الوسيط بعدة متغيرات يتعرض لها النقد أبرزها؛ الكساد، الانقطاع، الغلاء والرخص، وظاهرة الغش. للاستزادة يُنظر: نزيه حماد، **معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء**، ط١، دار القلم/ الدار الشامية، دمشق/بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص: ٨٨، ٣٧٩؛ محمد عمارة، **قاموس المصطلحات الاقتصادية في الحضارة الإسلامية**، ط.١، دار الشروق، بيروت/القاهرة، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م، ص: ٤١٠، ٤٨١؛ أحمد الشرباصي، **المعجم الاقتصادي الإسلامي**، دار الجيل، دون مكان النشر، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ص:٢٢٦، ٣٨٥؛ سعد رمضان

الجبوري، **المسكوكات الإسلامية**، ط.١، دار الفكر، عمان، ١٤٣٦هـ/٢٠١٥م، ص: ٢٤٩.

(٥٩) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص٢٣١؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص١٩؛ مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج٢، ص٤٢٧.

(٦٠) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، ج٧، ص١٠٨.

(٦١) التّنسي، المصدر السابق، ص ١٥٤-١٥٥.

(٦٢) البُرْزُلي، أبو القاسم بن أحمد البلوي التّونسي (ت٨٤١هـ/١٤٣٨م)، **فتاوى البرزلي جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تقديم وتحقيق محمد الحبيب الهيلة، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م، ج٣، ص: ١٥٥؛ الونشريسي، المصدر السابق، ج٦، ص٧٥؛ ابن يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص٧٦.

(٦٣) ابن يوسف الحكيم، المصدر السابق، ص٥٩؛ روبار برونشفيك، المرجع السابق، ج٢، ص٧٤.

(٦٤) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، ج٧، ص١١٤؛ حسن حافظي علوي، **سجلماسة وإقليمها في القرن الثامن من الهجري الرابع عشر الميلادي**، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مراكش، المملكة الغربية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص٢٠٣؛ الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص٢٣.

(٦٥) ابن خلدون عبد الرحمن، **العبر**، ج١، ص: ٣٢٢.

(٦٦) نفسه، ج١، ص: ٣٢٣.

(٦٧) نفسه، ص: ٣٢٥.

(٦٨) سيّد شُوربجي عبد المولى، **الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون، الأسعار والنقود، دراسة تحليلية**، إدارة الثقافة والنشر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، وزارة التعليم العالي، المملكة العربية السعودية، ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م، ص: ٦١.

(٦٩) نفس المرجع، ص: ٥٩؛ حسن محمود العمري، المرجع السابق، ص: ٧٧.

(٧٠) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤؛ التّنسي، المصدر السابق، ص:١٣٥؛ ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج٧، ص:١٢٨.

(٧١) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(٧٢) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤.

(٧٣) كريمة معريش، **أهمية السكة في تاريخ ملوك بني زيان**، مجلة آثار، العدد١٠، المجلد ١٣، جامعة الجزائر ٠٢، د.ت. ص ١٧٩.

(74) Henri Lavoix, op.cit, p :459-460.

(٧٥) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٥.

(٧٦) المقريزي، المصدر السابق، ص:١٤٧.

(٧٧) نفسه، نفس الصفحة.

(٧٨) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٤٠.

(٧٩) نفسه، ص: ٢٣٤-٢٣٥.

(٨٠) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص: ١٨.

(٨١) أبو حمو الثاني، محمد بن يوسف (ت٧٩١هـ/١٣٨٨م)، **واسطة السُلوك في سياسة الملوك**، تقديم عبد الرحمان عون، منشورات بونة للبحوث والدراسات، الجزائر، ١٤٣٢هـ/٢٠١١م، ص: ١٥٢.

(٨٢) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٤٨.

(٨٣) العقباني، المصدر السابق، ص: ١٢٩.

(٨٤) نفسه، ص:١٢٨.

(٨٥) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٤٨.

(٨٦) العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي بن أحمد بن سعود (ت. بعد٧٠٠هـ/١٣٠٠م)، **رحلة العبدري**، تحقيق علي إبراهيم كردي، ط.٢، دار سعد الدين للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م، ص: ٤٨.

(٨٧) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(٨٨) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٤٨-١٥٠.

(٨٩) العقباني، المصدر السابق، ص: ١٢٨-١٢٩.

(٩٠) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(٩١) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج٧، ص: ٢٩٢.

(٩٢) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٤٨-١٤٩.

(٩٣) ابن خلدون عبد الرحمان، العبر، ج٧، ص: ١٢٨.

(٩٤) نفسه، نفس الجزء والصفحة؛ التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(٩٥) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٤٩.

(٩٦) الوزان، المصدر السابق، ج٢، ص: ٢١.

(٩٧) ابن مرزوق، المصدر السابق: ٢٠٣.

(٩٨) ابن مرزوق، أبو عبد الله التّلمساني (ت ٧٩١هـ/١٣٧٩م)، **المناقبُ المرزُوقية**، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري، ط.١، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المملكة المغربية، ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، ص: ١٦٥، ١٩٠-١٩١.

(٩٩) المقريزي، المصدر السابق، ص: ١٥٠.

(١٠٠) ابن خلدون عبد الرحمان، **العبر**، ج٧، ص: ١٢٨.

(١٠١) نفسه، ج٧، ص: ٢٩٣؛ يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤؛ مبارك بن محمد الميلي، المرجع السابق، ج٢، ص:٤٥٤.

(١٠٢) خالد عبد الله المصلح، المرجع السابق، ص: ٩٠-١٠٠.

(١٠٣) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤؛ التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٢.

(١٠٤) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٥-١٣٦.

(١٠٥) يحي ابن خلدون، المصدر السابق، ج١، ص: ٢٣٤.

(١٠٦) التّنسي، المصدر السابق، ص: ١٣٥.

(١٠٧) رفيق خليفي، **حرفيُو السك النّقدي في المغرب الزياني، أسرة ابن الملاّح أُنموذجًا (٦٣٣-٧١٨هـ/١٢٣٥-١٣١٨م)**، مجلة النّاصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية، مخبر البحوث الاجتماعية والتاريخية، جامعة معسكر، العدد الرابع، جوان ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، ص: ٩١-٩٣.

Henri Lavoix, Op, Cit, P:459-460.

أزمة التجارة في الأندلس في أواخر عصر الإمارة (٢٥٠ ــــ ٣٠٠هـ)



أ.د. إبراهيم القادري بوتشيش
أستاذ التاريخ الوسيط الإسلامي
Moulay Ismail University of Meknes
جامعة مولاي إسماعيل - مكناس – المغرب

مُلَخّصْ

يسعى هذا المقال إلى تسليط الضوء على إحدى الحلقات المعتمة في التاريخ الاقتصادي للأندلس، ويتعلق الأمر بالأزمة التي عصفت بالتجارة الأندلسية خلال الفترة الأخيرة من عصر الإمارة، وذلك وفق منهج استقرائي يقوم على قراءة النصوص على ضوء الواقع الأندلسي، وربط تفاعلاته مع التحولات الدولية آنذاك، خاصة في مجال الملاحة بالحوض الغربي للبحر المتوسط. وقد ركّز البحث في المحور الأول على دراسة تجليات أزمة التجارة الداخلية، وإبراز الظرفية السلبية التي رافقت هذه المرحلة، والتي تميزت بالتشرذم السياسي، والحروب البينية التي استعرت بين الإمارات الانفصالية المتمردة على الحكم المركزي بقرطبة، فضلا عن انعدام الأمن، مما جعل التجارة الداخلية تجارة منغلقة، ومقتصرة على سلع الاكتفاء الذاتي كما تثبت ذلك مختلف البضائع المعروضة في الأسواق التي غلب عليها الطابع المحلي في تشكيلة المبادلات التجارية الداخلية. وأبرزنا أن أهم سلعة راجت بالأسواق تجسدت في تجارة العبيد بسبب الحروب الداخلية وتحول عدد من الأحرار إلى عبيد، وتسخيرهم في خدمات محلية، وأن الأوضاع المتدهورة أدت إلى هجرة التجار من الأندلس نحو مدن في الساحل المتوسطي لبلاد المغرب أو تأسيس مدن جديدة. وفي المحور الثاني الذي خصص للتجارة الخارجية، جرت متابعة تحولات الظرفية السلبية التي رافقت هذه المرحلة التاريخية، حيث تكسّرت السيطرة الإسلامية على المجال المتوسطي لصالح القوى النصرانية بسبب ضعف الأسطول الأندلسي، واحتلال القوى البيزنطية لأهم الجزر والموانئ المعدة للتصدير، مما جعل البحر المتوسط الغربي يتحول إلى بحيرة بيزنطية. وأضيف إلى ذلك الحروب الداخلية والانقسامات، مما جعل تجليات أزمة التجارة الخارجية تظهر بوضوح، إذ انحسر تصدير السلع نحو الخارج، واقتصرت الواردات على سلع الترف والكماليات الموجهة للأمراء في قرطبة أو الزعماء الذين استقلوا بحكم بعض المدن، مما أسفر عن تضرر طبقة التجار الأندلسيين، وحدوث خلل في الميزان التجاري بسبب غلبة المواد المستوردة على حساب السلع المصدرة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢١ مايو ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ٣٠ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

التجارة الداخلية، التجارة الخارجية، الصادرات والواردات، المدن الأندلسية، النوازل المعاصرة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055404

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إبراهيم القادري بوتشيش. "أزمة التجارة في الأندلس في أواخر عصر الإمارة: (٢٥٠ ــ ٣٠٠هـ)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٠٩ – ١١٥.

مُقدِّمَةُ

دأب معظم الباحثين على دراسة الجوانب المشرقة من تاريخ الأندلس السياسي والحضاري، في حين أهملوا جوانب الأزمات، على الرغم من أهمية هذه الأخيرة في إعطائه صورته المتكاملة، ذات الطابع الشمولي، وبالتالي وضعه في إطاره الصحيح. وإذا كانت تلك النواحي الثرية في حضارة الأندلس وتاريخها أمر لا يرقى إليه الشك بشهادة الدارسات الغربية، فإنها "قُتلت" بحثًا، في الوقت الذي لا زالت الأزمات

التي عرفها تاريخ الأندلس في حاجة ماسة إلى دراسة واستقصاء، ولعلّ من هذا القبيل، تلك الأزمة التي شهدتها التجارة الأندلسية في أواخر عصر الإمارة (٢٥٠ ــ ٣٠٠هـ). ومن نافلة القول، أن اهتمام الدارسين ـ عرب ومستشرقين ــ بهذه الفترة، انصب كليا على معالجة الظواهر السياسية، ولم يقحم أحد نفسه ــ في ذلك عمدة مؤرخي الأندلس العلامة ليفي بروفنسال[١] ــ في الوقوف على الأوضاع الاقتصادية التي سادت في هذه الحقبة رغم إشراقات قلمه في حقبة الخلافة، بل إن باحثا عرف بطول باعه في الدراسات الأندلسية، أكد هذا الغياب معلّلا إياه بقوله: (لا نجد مادة يهتم بها المؤرخون لرصد الحياة الاقتصادية في تلك الفترة، على كثرة ما ذكروا عن الفترة السابقة واللاحقة).[٢]

يكمن عمق المشكل في صمت المصادر التاريخية عن ذكر الجوانب الاقتصادية، وهذا الصمت في حدّ ذاته يترجم إحجام الباحثين عن التصدي للموضوع. غير أن الوقوف على مادة جديدة وردت على شكل نصوص في كتب النوازل والتراجم وكتب الحسبة[٣]، إضافة إلى بعض الإشارات المتناثرة في الحوليات التاريخية وبعض المخطوطات وكتب الجغرافيا، أمكن بها إنارة بعض الزوايا المظلمة من الإشكالية. وسينصب الاهتمام في هذه الدراسة على جانب هام من النشاط الاقتصادي في المرحلة مدار البحث، وهو التجارة بنوعيها الداخلي والخارجي.

أولاً: تجليات أزمة التجارة الداخلية

ففيما يخص التجارة الداخلية، لا شك أن ضآلة الإنتاج الزراعي واقتصاره على المواد المعاشية الاستهلاكية، وكذا انحطاط الإنتاج الصناعي[٤]، وتدهور المدن، كل ذلك ذلك قلّص من حجم المبادلات الداخلية. كما أن اندلاع الصراع بين الإمارات الأندلسية المستقلة، وما أسفر عن هذا الصراع من خراب الطرق التجارية، وانعدام الأمن، وتفشي حركة قطع الطرق، زاد الوضعية تفاقماً. نتيجة لهذه العوامل السلبية، اتسمت التجارة الداخلية بالاكتفاء الذاتي. ويكشف استعراض البضائع المعروضة في الأسواق غلبة الطابع المحلي على نوعية المبادلات الداخلية. فمن خلال النوازل المعاصرة، يستشف أن أهم السلع المعروضة في الأسواق تمثلت أساسا في الجلود المخصصة للاستهلاك المحلي[٥]. كما راجت مواد الاستهلاك الأخرى مثل العسل والزيت والسمن[٦]، كذا القمح الذي شكّل جوهر التجارة الداخلية، وبيع من طرف الدلال والجلاب، ثم الحنطة. وجرت العادة أن تكون الأسواق أمام أبواب المدينة أو أسوارها، أو أمام ضريح أحد الصلحاء، وفيها يعرض بائعو الحشو والدوم والحطب وغيرهم سلعهم البسيطة على سبيل البيع والشراء.

غير أن أهم بضاعة عرفت الرواج تمثلت في تجارة العبيد. وقد وفرت الحروب الداخلية أعدادا هائلة منها. وإذا كانت كثرة النوازل حولها تعكس أهميتها، فإن ابن سهل[٧] ترك نصا بالغ الأهمية لإبراز ظاهرة جديدة طرأت في أواخر عصر الإمارة، وهي تحويل الأحرار إلى عبيد وبيعهم في الأسواق، وهذا ما يفسر قوله: (كثر بيع الأحرار في فتنة ابن حفصون)، حتى أصبح من الصعب التمييز بين الأحرار والعبيد، وهو ما يوافق ما ذكرته نازلة أخرى حول امرأة سبيت فادعت أنها حرة[٨]. وقد تصدت الفتاوى لهذه الإشكالية، غير أن المفتين عجزوا عن إيجاد حلّ نهائي لها، فاكتفوا بالقول بأن (البينة على من ادعى الحرية)[٩]. وفي مناطق الثغور الأندلسية، عرفت تجارة العبيد ذروتها بسبب الحروب التي استعرت بين الكيانات الثغرية من جهة، والصراع القائم بينها وبين الممالك المسيحية المتاخمة لها من جهة أخرى. كما وفّرت الصوائف التي قام بها الجيش النظامي موردا هاما لهذه التجارة، حيث تمّ بيع العبيد بكثرة في أسواق النخاسة.

أما أصناف السلع الأخرى، فقد عرفت تدهورا خطيرا، ينهض دليلا على ذلك ما شهدته أسواق قرطبة من كساد تجاري، وارتفاع في الأسعار[١٠]. وساهم ضعف السلطة المركزية وعدم مراقبتها للأسواق، ثم عدم الضرب على أيدي المحتكرين في تأزم هذه الوضعية. ولم تتمكن من إزاحة الضرر الفادح الذي أصابها حتى خلت الأسواق من الأقوات، بل أصبح الحصول على الخبز متعذرًا[١١]، وشجّع ذلك المحتكرين الذين لم يستطع المحتسب وضع حدّ لهم[١٢]. وتوضح النوازل المعاصرة كذلك أن التجارة الداخلية أصبحت عرضة للنهب، واختلاط الحلال بالحرام، ولذلك طالب الفقهاء بترك الأسواق[١٣]، مما أضعف جانب الطلب. وفضلاً عن ذلك تعرضت هذه الأخيرة لتطاول العسكر ونهبهم. وفي هذا الصدد أورد الونشريسي[١٤] نازلة حول (قوم معروفين بالغصب ليس لهم مال إلا من الغصب لبعض الجند الذين بالأندلس). واشتطت السلطة الأندلسية في فرض المغارم والمكوس على التجار[١٥]، وفرضت عليهم أداء

ضريبة على الأبواب التي تدخل وتخرج منها البضائع، إضافة إلى زكاة السوق التي ابتدعتها لتموين بيت المال الفارغ[١٦].

ومن البديهي أن تتضافر هذه العوامل لترغم التجار على ترك الأندلس والهجرة إلى بلدان أخرى، خاصة بلاد العدوة المغاربية التي شيدوا فيها مدنا خاصة لمزاولة نشاطهم، بعيدين عن جور إمارة قرطبة. وفي هذا السياق، ذكر البكري[١٧] أن بعض التجار الأندلسيين من أهل البيرة وتدمير عبروا البحر الأبيض المتوسط إلى ساحل الغرب الإسلامي، وأسسوا مدينة تنس سنة ٢٦٢هـ[١٨]، وعاشوا مع أهلها في وئام إلى أن حلّ بهم وباء، فاضطر قسم منها للرجوع إلى بجانة، وهي المدينة الوحيدة التي سلمت من الكساد التجاري. وبقي قسم آخر منهم يقدر بحوالي أربعمائة أسرة في المدينة التي شيدوها، فازدادت أرباحهم وثرواتهم في فترات لاحقة. ويلاحظ أنه كان من بين هؤلاء المهاجرين مسلمون وغير مسلمين[١٩]، مما يدل على أن تجار أهل الذمة تذمروا هم أيضا من إفلاس تجارتهم داخل الأندلس. وعلى غرار المجموعة الأولى، هاجرت مجموعة ثانية إلى المغرب الأوسط فرارا من الأوضاع المتردية، وهربا من المغارم التي أثقل بها كاهلهم، فشيدوا مدينة وهران[٢٠] التي أصبحت (مرفأ في غاية السلامة وأكثر أهلها تجار)[٢١]، واستقروا فيها لمزاولة نشاطهم التجاري.

وبالمثل استقرت مجموعة أخرى من التجار الأندلسيين في مدينة القيروان[٢٢]. وفي المدن الثلاث لم يجدوا ضالتهم المنشودة: ففي تنس تعرضوا لوباء خطير[٢٣]، وفي وهران كان مصيرهم أسوأ حيث (خربت وهران وأضرمت نارا سنة ٢٩٧هـ، وأسلموا ذخائرهم وأموالهم)[٢٤]، أما في القيروان فقد كان بعضهم عرضة للاغتيال[٢٥]. وثمة إشارات إلى هجرة بعض التجار الأندلسيين نحو الإمارة الرستمية، لذلك تشير المصادر ولو في إيماءات مقتضبة عن انتشار أفراد من الجالية الأندلسية في جميع أنحائها إبان ثورة ابن حفصون[٢٦]. لقد لعبت هجرة التجار دورًا في انحطاط التجارة الداخلية، ولا أدلّ على هذا الانحطاط من انهيار قيمة العملة السائدة[٢٧]، فهل سلمت التجارة الخارجية من هذا المصير المحتوم؟

ثانيًا: تجليات أزمة التجارة الخارجية

لا تتم معرفة أحوال التجارة الخارجية بمعزل عن الصراع بين "دار الإسلام" و "دار الحرب"، ومحاولة كل طرف إقصاء الطرف الآخر من زعامة البحر المتوسط، في وقت كانت الأندلس إحدى الحلقات الرئيسية في هذا الصراع. وإذا اعتبرنا ما ذكره لويس أرشبالد[٢٨] صحيحًا من أن القوى البيزنطية لم تشكل أي عرقلة للإمارة الأموية في مرحلتها الأولى التي توافق النصف الأول من القرن الثالث الهجري، فلا جدال في أن أواخر عصر الإمارة عرف صراعا حادا بين الجانبين، تمثل في النزاع حول بعض جزر البحر المتوسط.

لقد انتهت سيادة بيزنطة على هذا البحر ابتداءً من سنة ٨٢١م (٢٠٦هـ)[٢٩]، بسبب انشغالها في حروبها مع البلغار، وبفضل الانتصار الباهر الذي حققه الأغالبة سنة ٢١٢هـ، وهو الانتصار الذي أصبح بموجبه البحر الأبيض المتوسط (بحيرة إسلامية) دون منازع[٣٠]. غير أن هذه السيادة تضعضعت ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، أي الفترة التي توافق أواخر عصر الإمارة. وبالرغم مما ذكره بعض الدارسين[٣١] من أن السيطرة الإسلامية امتدت طوال القرنين الثالث والرابع، فإن هذا الزعم غير صحيح. حسبنا دليلا على عدم صحته أن المسلمين فشلوا خلال النصف الثاني من القرن الثالث الهجري في الاستيلاء على الجزر الاستراتيجية في البحر المتوسط، حيث لم يوفقوا في احتلال سردانية[٣٢]، ولم يتمكنوا من فرض سيطرتهم على كل أجزاء صقلية، بل استردّ منهم بيزنطة بعض الجزر كقبرص[٣٣]، ولم يقدر لهم تحقيق هذه السيطرة حتى نهاية القرن الثالث على الأقل.

وابتداءً من سنة ٢٥٣هـ (٨٦٧م) انتهت السيادة الإسلامية على المجال المتوسطي تمامًا، وبذلك استأثرت القوى المسيحية بالسيطرة على شرايين التجارة العالمية. وتجلى ذلك في قطع الطرق على المسلمين للوصول إلى مدن جنوب إيطاليا، وتوجوا جهودهم بتحقيق انتصارات متتالية على الكريتيين في بحر إيجه سنة ٢٦٦هـ. وبعد ذلك بسنة، حققت القوات البيزنطية نصرًا مؤزرًا[٣٤]. وفي الفترة ما بين ٢٦٧هـ و٢٧٣هـ. نظمت حملات موفقة ضد الأغالبة، أرغموا إثرها على توقيع معاهدة سلم معهم[٣٥]. ولم تكن البحرية الأندلسية سوى صدى لهذا التراجع. فعلى الرغم من دعمها من قبل الأمير عبد الرحمن الأوسط

(٢٠٦ ـ ٢٣٨هـ) إثر هجوم النورمان[٣٦]، فقد عرفت ضعفًا لا نظير له في أواخر عصر الإمارة. وثمة من الروايات ما يقيم الحجة على ذلك: ذكر ابن عذاري[٣٧] أن عاصفة دمرت الأسطول الأندلسي أثناء توجهه إلى مملكة جليقية المسيحية في شمال الأندلس عبر المحيط بقيادة ابن مغيث سنة ٢٦٦هـ. وشكّل هذا الحدث كارثة مروعة إلى درجة أن أحد الباحثين[٣٨] ذكر أنها كانت بالنسبة للقوات المسيحية أكبر من كل الانتصارات التي حققتها، وهذا ما يفسر عدم قدرة الأسطول الأندلسي على مناجزة نظيره الأغلبي[٣٩].

وزاد تعاقب الغزوات النورماندية من ضعفه[٤٠]، وحسبنا قرينة على ذلك قيام بعض المتطوعة بمعارك بحرية، بمعزل عن الأسطول الرسمي الضعيف أصلاً. ففي سنة ٢٥٦هـ قامت فرقة من المجاهدين البحريين بمهاجمة شواطئ بروفانس[٤١]، وتمكنت من السيطرة على جزيرة كاماراج (Camarague)، والحصول على كثير من المغانم[٤٢]. وبعد سنتين، تمكن هؤلاء من الوصول إلى قمة جبل يشرف على جزء كبير من شواطئ بروفانس[٤٣]. كما تمكن مغامر آخر هو عصام الخولاني من اقتحام جزائر البليار وميورقة في نهاية هذا القرن[٤٤]. من ذلك يتضح ضعف الأسطول الرسمي الأندلسي، وهو أمر في غاية الخطورة. وتجلت هذه الخطورة في أن أبواب البحر الأبيض المتوسط قد أوصدت في وجه التجارة الأندلسية بسبب الحصار المسيحي، والقرصنة التي أصبح يعجّ بها، ولذلك تقلصت المبادلات التجارية، وتوقفت مع الشرق الإسلامي[٤٥]. وكرست طبيعة الإنتاج الزراعي والصناعي الموجه أساسًا للاستعمال المحلي هذه الوضعية، مما أدى إلى اختلال الميزان التجاري.

ويفسر هذا الاختلال بفقدان الدولة تحكمها في التجارة الخارجية والموانئ البحرية المعدة للتصدير، ذلك أن الكيانات التي انفصلت عن الحكم المركزي والواقعة على السواحل، احتكرت المبادلات التجارية. مصداق ذلك استئثار إمارة بني حجاج بالسلع الواردة من مختلف الأصقاع، مما سدّ في وجه الإمارة السلع الأساسية[٤٦]، حتى أنها اضطرت إلى إقرار سياسة التعايش السلمي معها كي تستفيد من تجارة الكماليات على الأقل. وبالمثل، أصبحت إمارة بجانة المستقلة قبلة للتجار الوافدين من مختلف الأقطار، مما هيأ لها الفرصة لاحتكار التجارة الخارجية لنفسها.[٤٧] وسيطرت إمارة ابن حفصون بدورها على تجارة الجزيرة الخضراء، إذ كانت لديها مراكب تسفرها إلى منطقة شمال إفريقيا، سرعان ما عادت عليها بالأرباح الطائلة[٤٨]. ونحن في غنى عن تأكيد استئثار مختلف الإمارات المستقلة الأخرى بمسالك التجارة، في الوقت الذي كانت السيطرة عليها حقا من حقوق السلطة المركزية.

كما يفسر اختلال الميزان التجاري أيضا بقلة الصادرات وكثرة الواردات، وهو أمر يعزى إلى ولع الأرستقراطية ـ أمراء وقادة جيش ورجال إدارة ـ باستيراد مواد الترف، حيث لم ينقطع طلبها عنها البتة. ويتأكد هذا الزعم برصد البضائع المستوردة: ذكر ابن حيان[٤٩] أن أحد التجار سعى إلى التوسط لدى صاحب طراز الخليفة في بغداد ليصنع له أثوابًا عراقية رفيعة تطرز باسم الأمير الأندلسي محمد بن عبد الرحمن. ولمّا تمّ له ذلك، عاد بتحفه إلى الأمير (ونال بها منزلة)، مما يدل على أن تجارة الترف كانت وسيلة للتقرب من الأمراء الأندلسيين. ومن مظاهر إسراف الأمير المذكور في اقتناء السلع الفاخرة، واعتنائه بتجارة سلع الكماليات، صدور أمره إلى صاحب العمل بالتوسع في هداياه لهم (فدخلت في أيامه الأندلس من المتاع الفاخر، والرياش النادر، والحيوان المستغرب والمستطرف ما لم يدخل من قبله من الخلفاء)[٥٠].

ومن بضائع الترف التي استوردها أمراء الأندلس في هذه الحقبة، الحيوانات غير المألوفة في الأندلس حيث استدعى الأمير محمد التجار لجلبها إليه. وتفصح المصادر إعجابه الشديد بها[٥١]. كما أن استجلاب أنواع الغروس لاستغلالها في غراسة المنيات والحدائق كمنية الرصافة شكلت إحدى مواد تجارة الكماليات[٥٢]. ونفس الشيء يقال عن الرقيق الأسود الذي جبل عليه الأمير السالف الذكر، مما جعل التجار يتقاطرون عليه حاملين معهم أعدادا كبيرة من إفريقيا السوداء[٥٣]. وعلى منواله، سعى الأمير المنذر سعيًا حثيثًا للحصول على مواد الترف، وتحفل المصادر بذكر تعامله مع تجار الكماليات، وخاصة مع التاجر محمد بن موسى الرازي[٥٤] الذي عرف باشتغاله في سلع الترف مثل الحلي والعقاقير[٥٥]. واكتسب تجار الكماليات مكانة رفيعة، إذ حضوا برعاية الأمراء الذين أنزلوهم منزلة كبيرة[٥٦]، وأغدقوا عليهم الهدايا والإنعامات[٥٧]. وحسبنا أن الأمير محمد أدخل التاجر الرازي في خدمته[٥٨] وندبه في مهمات سياسية حين بدأ الصراع بين العرب

والمولدين[٥٩]. كما درج الأمير المنذر على استشارته في كبريات أمور الدولة، ووضع فيه كل ثقته[٦٠].

ولما كانت قصور الأمراء وزعماء الإمارات المستقلة وكبار الموظفين في حاجة إلى عبيد لاستعمالهم كخدم، وجواري وغلمان لإشباع لذاتهم ومتعهم، لم يتقاعس التجار عن جلب الصقالبة والغلمان من بلاد الإفرنج كسلع للترف والبذخ. وفي هذا الصدد ذكر ابن الفقيه[٦١] المعاصر لهذه الحقبة (أن الذي يجيء من هذه الناحية -الممالك النصرانية - الخدم والصقالبة والغلمان الرومية والإفريقية والجواري الأندلسيات وجلود الخز والوبر والسمور). وقد ارتبطت عملية استيراد العبيد الصقالبة باليهود، خاصة اليهود الرهدانية الذين قاموا بهذا النشاط التجاري ضمن رحلاتهم شرقا وغربا. وساعدهم في ذلك إتقانهم اللغات العديدة كالفارسية والرومية والإفرنجية والصقلبية والأندلسية[٦٢]. لكن يهود أربونة أسهموا بنصيب أوفر في هذا النوع من التجارة، إذ جلبوا الرقيق الصقلبي إلى الأندلس عبر ممرات البيرينة أو عبر المحيط، ووصلوا حسب ما ذكره موريس لومبار حتى إفريقيا الشمالية[٦٣]. كما أن تجارة الجواري الإفرنجيات السودانيات والشرقيات على السواء شكلت مادة هامة من تجارة الكماليات التي تهافت عليها الأمراء الأندلسيون وقادة الجند الذين انفصلوا عن الحكم المركزي في الحقبة موضوع الدراسة ف وأسسوا دويلات لحسابهم.

في هذا السياق، تذكر إحدى الروايات أن التاجر محمد بن موسى الرازي أتى بجارية إلى الأمير محمد، ولكن حاجبه أفسدها عليه، ونبهه بأنها جاسوسة، ومع ذلك لم يخف الأمير إعجابه الشديد بها[٦٤]. وعلى غرار الأمراء، اهتم زعماء الإمارات الانفصالية التي انتشرت خلال هذه الحقبة في طول بلاد الأندلس وعرضها بجلب الجواري من الشرق، وبلغ شغفهم بهن إلى حدّ دفع أثمان خيالية لشرائهن. ومن هذا القبيل دفع إبراهيم بن حجاج صاحب إمارة إشبيلية كمية كبيرة من الذهب من أجل اقتناء جارية أعجب بها[٦٥]. كذا الحال بالنسبة لأمير غرناطة سعيد بن جودي الذي عرف بولعه الكبير بالجواري[٦٦].

نستشف من ذلك أن تجارة الترف التي أصبحت الخيط الموجه للتجارة الخارجية الأندلسية، هو وجه من الوجوه التي تعكس أزمتها. كما أن ارتباطها بالأرستقراطية، والسلع الفاخرة الأجنبية هو الوجه الآخر لهذه الأزمة. وهي أزمة تجد تفسيرها كذلك في غياب طبقة تجارية محلية أندلسية، وفي ضمور تجارة السلع المعاشية، وانعدام الشروط الموضوعية. وحسبنا أن خراب الطرق، واشتداد حركة القرصنة، وما نجم عن ذلك من ندرة رؤوس أموال التجار، كل ذلك جعل صغار التجار بل وحتى التجار الأندلسيين المشتغلين في التجارة بعيدة المدى يصطدمون بعدة صعوبات، وهو ما يفسّر خفوت ذكر نشاطهم في العاصمة قرطبة إبان عهد الأمير عبد الله (٢٧٥ ــ ٣٠٠هـ)، وما لحق بتجارة الكماليات نفسها من تدهور وتقلص وانكماش.

ومن الإنصاف القول، إن المدينة التي استفادت من أصناف التجارات الأخرى فضلاً عن تجارة الكماليات، هي مدينة بجانة بحكم موقعها الاستراتيجي، وتسيير شؤونها من طرف رجال اشتغلوا بالتجارة، وساهمت علاقات التبعية وارتباطها بالحكم المركزي ـ رغم انفصالها السياسي ــ على جعلها الميناء الذي أمّه تجار الشرق القاصدين بلاطات قادة الجيش وزعماء الإمارات المستقلة، ولذلك وصفت بأنها (باب الشرق ومفتاح الرزق)[٦٧]، وحجّت إليها سفن إفريقية وغيرها[٦٨]، واكتظت أسواقها بضروب التجارات التي اشتهرت بها، خاصة طراز الحرير. كما تميزت بنهضة عمرانية، حتى أن أحد الباحثين[٦٩] نعتها بأنها (دولة صغيرة).

ونظرًا لهذه الظروف المواتية، فقد نشطت مبادلاتها التجارية مع تنس ونكور ومالقة[٧٠]، وأقامت علاقات تجارية مع تجار وهران الذين كانوا قد هجروا الأندلس[٧١]، ومع ثغور الشام ومصر. إلا أن النهضة التجارية والعمرانية التي عرفتها مدينة بجانة يجب ألا تخفي عنا حقيقة هامة، وهي أن جميع المدن الأندلسية في هذه الفترة تعرضت للخراب، إلى حدّ يمكن الحديث معه عن "انحطاط مديني"، وهو أمر له مغزى عميق، إذ جاء صورة ناطقة بأزمة التجارة، وانعكاسًا أميناً للإفلاس الذي ظل ينخرها حتى بزوغ عصر الخلافة.

خَاتِمَةٌ

خلاصة القول، إن التجارة في الأندلس خلال العقود الأخيرة من عصر الإمارة، اتسمت بصبغتها المحلية، وطابعها الاستهلاكي غير المعدّ للتبادل، وبانحطاطها على المستوى الداخلي، وانغلاقها وتقوقعها، ثم اقتصارها على مواد الترف الأجنبية على المستوى الخارجي، وعدم وجود طبقة تجارية أندلسية مالكة لرؤوس الأموال، وقادرة على التنافس الخارجي. ناهيك عن انعدام الشروط الأمنية وتدهور الأوضاع السياسية بسبب الحروب الداخلية، مما يفسر أزمتها، وتكريسها لاقتصاد الندرة، وتلك معضلة التجارة في أغلب عصور التاريخ الإسلامي.

الهَوامِشُ:

(١) تناول الأستاذ ليفي بروفنسال في كتابيه الهامين (تاريخ إسبانيا الإسلامية) الجزء الثالث و(إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر) (بالفرنسية) الحياة الاقتصادية في عصر الخلافة، بينما لم يعالجها في هذه الحقبة.

(٢) أحمد بدر، **دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها**، ط٢، ج ١، ص ١٤٩.

(٣) لم نتمكن من الوقوف على أي كتاب في الحسبة يوافق الفترة موضوع الدراسة، ولذلك التجأنا إلى حلّ منهجي: فانطلاقًا من قناعتنا بوحدة التشريع في الغرب الإسلامي، تم الاعتماد على كتاب (أحكام السوق) ليحيى ابن عمر الذي عاش في إفريقية خلال نفس الفترة تقريبًا. وإذا كنا قد ارتكزنا على وحدة الظاهرة، فإن أسبابا ذرائعية جعلتنا نعتمد على يحيى بن عمر كذلك لأنه أندلسي من موالي بني أمية، وعلى يده درس كثير من العلماء الأندلسيين، مما يجعل حسبته انعكاسًا لأحكام الحسبة في الأندلس، فضلاً عن وحدة المذهب.

(٤) عن تدهور الإنتاج الزراعي والصناعي، انظر كتابنا: **أثر الإقطاع في تاريخ الأندلس السياسي من منتصف القرن الثالث الهجري حتى ظهور الخلافة**، منشورات عكاظ، الرباط، ص ١١٠-١١٧.

(٥) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المعرب**، بيروت ١٩٨١، ج٦ ص ١٨٤ وينقل عن الفقيه ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة.

(٦) يحي بن عمر، **أحكام السوق**، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مجلد ٤ سنة ١٩٥٦، ص ١١٤ ـ ١١٥.

(٧) **نوازل الأحكام** (مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم ٣٧٠ ق ص ٥٦.

(٨) مخطوط مجهول المؤلف ضمن مجموع رقم D2198 الخزانة العامة بالرباط ، ورقة ١٧٠، وفيها يقول المؤلف: (امرأة ألقيت بيد رجل ادّعت أنها حرة من موضع سمته، وأن متغلبا أغار على ذلك الجانب ، فسباها تلك الناحية، وذكر الذي ألقيت بيده أنه ابتاعها من ذلك الجانب).

(٩) هو قول الفقيه ابن لبابة المعاصر لهذه الفترة، انظر نفس المصدر والصفحة.

(١٠) عبد الملك بن حبيب، **التاريخ الكبير**، المخطوط المصور بالمعهد المصري للدراسات الإسلامية.

(١١) لين بول، **العرب في إسبانيا**، طبعة دار المعارف بمصر. ترجمة علي الجارم، ص ٩٢ ـ ٩٣.

(١٢) يحيى بن عمر، أحكام السوق ص ١٣٤ ـ ١٣٥.

(١٣) الونشريسي، م. س، ج٦ ص ١٨١: وهاك نص النازلة: (وسئل ـ ابن لبابة ـ عن شراء الأفرية والجلود واللحم وغير ذلك من الأسواق، وأخبر بالفتنة التي كانت، وكثرة الحرام واختلاطه مع الحلال فأجاب من أراد الورع فلا يشتري من تلك الأسواق شيئًا).

(١٤) نفسه، ص ١٧٢.

(١٥) محمود اسماعيل، **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، طبعة البيضاء ١٩٨٠، ج٢، ص٥٤.

(16) Provençal (L), Histoire de l´Espagne Musulmane, Tom III, Leiden 1950, P.301.

(١٧) **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، طبعة بغداد (دون ذكر تاريخ)، ص: ٦٠_ ٦١.

(١٨) أخطأ القزويني عندما جعل سنة ٢٣٠ هـ سنة تأسيسها، وهو لا يذكر المصدر الذي نقل منه هذا التاريخ، انظر كتابه: **آثار البلاد وأخبار العباد**، بيروت ١٩٦٠، ص ١٧٧. وللمقارنة انظر ابن عذاري: **البيان المغرب**، تحقيق ج.س كولان وليفي بروفنسال، بيروت ١٩٨٠، ج١، ص ١٧٧.

(١٩) أحمد بدر، م، س، ص ١٥٥.

(٢٠) البكري، م، س، ص ٧٠ _ ابن عذاري، م.س، ج١، ص ١٣٦.

(٢١) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**. بيروت (دون ذكر تاريخ)، ج٥، ص ٣٨٥.

(٢٢) ابن عذاري، م، س، ص ١٦٩.

(٢٣) البكري، م، س، ص ٦٠.

(٢٤) نفسه، ص ٧٠.

(٢٥) ابن عذاري، م، س. ويذكر ما نصّه: (وفيها _ يقصد سنة ٣٠٠ هـ _ قتل من التجار أبناء الأندلسيين بالقيروان أبو جعفر بن خيرون).

(٢٦) خير الدين طلفاح: **حضارة الأندلس**، بغداد ١٩٧٧، ص ٢٠٠.

(٢٧) ظلت العملة فضية فقط، قارنها بالفترة اللاحقة التي ستصبح فيها ذهبية. وكان (الطبل)، هو الوحدة الشائعة، انظر: ابن الفقيه: **مختصر كتاب البلدان**. طبعة ليدن ١٨٨٥، ص٨٨.

(٢٨) **القوى البحرية والتجارية في حوض البحر الأبيض المتوسط**، القاهرة (دون ذكر تاريخ)، ص ١٧٧.

(٢٩) نفسه ص ١٦٨.

(٣٠) عبد الجليل الراشد، **العلاقات السياسية بين الدولة العباسية والأندلس في القرنين الثاني والثالث الهجري**، الرياض ١٩١٩، ص ١٤٨ _ ١٤٩.

(٣١) السيد عبد العزيز سالم وأحمد مختار العبادي، **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، طبعة بيروت ١٩١٩، ص٦٧.

(٣٢) علي طرخان، **المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**، القاهرة ١٩٦٦، ص ١٠٩.

(٣٣) لويس، م، س، ص ١٦٤.

(٣٤) نفسه، ص٣٣.

(٣٥) محمود إسماعيل، **الأغالبة**: سياستهم الخارجية، ط٢، البيضاء ١٩٧٨، ص١٦١.

(٣٦) السيد عبد العزيز سالم ومختار العبادي، م، س، ص١٤٨. ويذكر ابن حيان أن البحرية الأندلسية وصلت آنئذ إلى ٣٠٠ مركب. انظر **كتاب المقتبس**، القطعة الخاصة بعبد الرحمن الأوسط، نشر محمود مكي طبعة القاهرة ١٩٧١، ص ١٤٤.

(٣٧) البيان المغرب، ج٢ ص ١٠٣ _ ١٠٤.

(38) Viardot, Histoire de Arabes et de Maures d´Espagne Tom 1, Paris 1851, p 146.

(٣٩) محمود إسماعيل، م. س، ص١٢٥.

(40) Rossewest (Hilaire), Histoire d´Espagne Tom 1, Paris, p314

(٤١) علي طرخان، م، س، ص ٢٠٣.

(٤٢) عنان: **دولة الإسلام في الأندلس**، ط٣، القاهرة ١٩٦٠، ص ٤٢٦.

(٤٣) علي طرخان، م، س، ص ٢٠٣.

(٤٤) عنان، م، س، ص ٣٤١ _ ٣٤٢.

(٤٥) محمود إسماعيل: **سوسيولوجيا الفكر الإسلامي**، ج٢ ص ٥١.

(46) Rosseewst, loc, op . cit, P371 .

(٤٧) ابن حيان: **المقتبس**، القطعة الخاصة بالأمير عبد الله، نشر ملشور أنطونيا، باريس ١٩٣٧، ص ٨٨.

(٤٨) ابن حيان: **المقتبس**، القطعة الخاصة بعبد الرحمن الناصر نشر شالميطا مدريد ١٩٧٩، ص ٧٨.

(٤٩) **المقتبس**، القطعة الخاصة بالأمير محمد ص ١٦٤.

(٥٠) نفسه، ص٢٧٦.

(٥١) نفسه، ص٢٧٧.

(٥٢) نفس المصدر والصفحة.

(٥٣) محمود إسماعيل، **مغربيات**، فاس ١٩٧٧، ص ١٦٨.

(٥٤) ابن حيان، م، س، ص ٢٦٩، ويذكر ما يلي: (وقد كان الرازي ترك من الأمير المنذر ألطف منزلة).

(٥٥) المقري، **نفح الطيب**، طبعة بيروت ١٩١٨، ج٣، ص١١١.

(٥٦) ابن حيان، م، س، ص١٦٤.

(٥٧) نفسه، ص٢٧٦.

(٥٨) بالنثيا، **تاريخ الفكر الأندلسي**، طبعة مدريد ١٩٤٥، ص١٩٦.

(٥٩) محمود إسماعيل، م، س، ص ١٥٩.

(٦٠) ابن حيان، م، س، ص٢٦٩.

(٦١) **مختصر كتاب البلدان**، تحقيق Decoeje، ليدن ١٨٨٥، ص٨٤.

(٦٢) ابن خرداذبه، المسالك والممالك، طبعة EJ_beill، ص ١٥٣.

(٦٣) لومبار، موريس، **الإسلام في عظمته الأولى**، بيروت ١٩٧٧، ص ٢٠٠.

(٦٤) ابن حيان: م، س، ص ٢٦٥.

(٦٥) من أشهر جواريه التي تذكرها المصادر بكثرة الجارية ((قمر)) التي اشتراها من الشرق، انظر: المقري: م، س، ج٣، ص ١٤٠ _ ١٤١.

(٦٦) ابن الأبار: **الحلة السيراء**، القاهرة ١٩٦٣، ج١، ص ١٥٧.

(٦٧) ابن غالب، **فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس**، تحقيق لطفي عبد البديع، نشر في مجلة معهد المخطوطات العربية، ج٢، المجلد، القاهرة ١٩٥٥، ص ٢٣٨. وانظر كذلك ياقوت الحموي، م، س، ج٥، ص ١١٩.

(٦٨) يفهم ذلك من خلال نازلة أوردها الونشريسي، انظر **المعيار**، ج٨ ص ٣١١.

(٦٩) السيد سالم: **تاريخ مدينة ألمرية الإسلامية**، طبعة بيروت ١٩١٩، ص ٢٨.

(٧٠) السيد عبد العزيز سالم، **تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس**، ص ٦١.

(٧١) المقدسي: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة ليدن ١٩٠٦، ص ٢٩٩.

من أدب الفضائل
حدود "الأرض المقدسة" في مخطوط منذ القرن السابع عشر الميلادي



أ.د. غالب إبراهيم عنابسة
رئيس قسم الدراسات العليا لتدريس اللغات
كلية بيت بيرل الأكاديمية
باقة الغربية

مُلَخّصْ

هذه المقالة ستتناول، مسألة الأرض المقدسة معتمدين على مخطوطة، ترجع للقرن السابع عشر، وردت تحت عنوان: الخبر التام في ذكر حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام، لصالح بن أحمد التمارتاشي (ت. ١٦٤٥م)، في ظلّ التأليف الملحوظ من قبل المؤلفين المسلمين في كلّ من فلسطين وسوريا بالمفهوم الواسع، بخصوص أدب فضائل الأرض المقدسة. لا شك أنّ هذا الأدب يعتبر جنسًا أدبيًا – دينيًا، أو تاريخيًا– جغرافيًا أو محليًا في القرون الوسطى. تجدر الإشارة أنّ المؤلفين قد اعتمدوا جمع موادّهم لمؤلفاتهم من مصادر تراثيّة على اختلاف أنواعها، دينيّة، تاريخية، جغرافيّة وغيرها. لكنّ المسألة التي تجذب نظر الباحث، هي استخدام روايات ذات صبغة محليّة، وأحيانًا غير واقعية لا تنسجم والفكر الإسلاميّ، بل هي خارج حدود روايات الحديث الرسميّة. ليس هدفنا الوقوف على الرواية من حيث صحّتها أو عدم صّحتها، وإنما إظهار دور الرواية المحليّة التي ظهرت في فترة معيّنة، وقد حُفظت عبر أجيال، وفجأة تظهر من جديد في فترة لاحقة، وذلك لإظهار قدسية مدينة أو مكان مقدّس معين. إنّ نقطة انطلاقنا في الدراسة، اعتمادًا على دراسة الباحث يوسف سدان، بالنسبة للمنافسة بين مركز بيت المقدس ومركز دمشق (وهي ليست منافسة إسلامية عامة) في الفترتين الملوكية والعثمانية، حول تحديد مقام النبيّ موسى عليه السلام، بين أريحا ودمشق والتي نحت منحًى آخر في القرن السابع عشر، لتحديد أو ربما تعريف ماهيّة الأرض المقدسة، بل وهل يمكن اعتبار مدينة دمشق هي الأرض المقدسة؟

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٦ فبراير ٢٠١٩
تاريخ قبـول النشـر: ١٠ مايو ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الأرض المقدسة، حدود، أدب فضائل الشام، روايات محلية، بيت المقدس، دمشق

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055405

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

غالب إبراهيم عنابسة. **"من أدب الفضائل: حدود الأرض المقدسة في مخطوط منذ القرن السابع عشر الميلادي"**.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١١٦ – ١٢٢.

مُقدِّمَة

حظيت الأرض المقدسة بمؤلفات كثيرة، تناولت قدسيتها ومكانتها في الإسلام، منذ بداية الإسلام وحتى أواخر الفترة العثمانية، هذه المؤلفات التي خصصت للمدن الإسلاميّة المقدسة (مكة، المدينة، القدس) وحتى مدينة دمشق، جذبت نظر العديد من الباحثين نذكر على سبيل المثال الباحث (M.J.Kister) والباحث (J.Sadan) وغيرهما من الباحثين، والمستشرقين.[١] وقد أطلق على هذه المؤلفات مصطلح "أدب الفضائل"[٢] وهو بمثابة جنس أدبيّ- دينيّ ذاع شأنه في بداية الإسلام، حيث حظيت مدينتنا

مكة والمدينة، ومدن أخرى بمؤلفات مستقلة في هذا المضمار.

لكن الذي يعنينا في دراستنا، المؤلفات المتأخرة التي خصّت منطقة فلسطين وسوريا في الفترة العثمانية، وبالتحديد مدينة القدس من جهة ومدينة دمشق من جهة أخرى، وهي ما تعرف بمادّة أدب "فضائل الشام" أو "فضائل الأرض المقدسة" التي تعتبر كجنس [genre] ديني أو جغرافي أو محلي [local patriotic][٣] وكما أشرنا أعلاه حيث تركزت هذه المادة بالمدن المقدسة في الإسلام، وكذلك بالمقامات والآثار والمراكز الدينية الأخرى، التي حظيت بقدسيّة معينة. من جانب آخر علينا أن نشير أنّ كتب الفضائل لم تُكتب كمؤلفات تاريخية بالمعنى الإصطلاحي بسبب قِلّة الأخبار فيها، أو لاحتوائها أحياناً على أساطير أو أحاديث وروايات جديدة، متأخرة، لم تذكر في مصنفات الحديث الرسمية، بُغية المؤلفين فيها وصف المكان المقدس، أو المدينة المقدسة. لكن بالمقابل تظهر في هذه الكتب، مواد تأريخيّة أو جغرافيّة، وقصص دينيّة وفولكلوريّة وروايات محليّة أيضًا.

أولاً: مفهوم الأرض المقدسة

لقد حظيت بلاد الشام[٤] (نخصّ بالذكر بيت المقدس) بمؤلفات تظهر قدسيتها ومكانتها، قبل القرن الخامس الهجري، لأسباب دينية، تاريخية وروحانية،[٥] لكن يبدو أنّ هذه المؤلفات ربما لم تصلنا، ورد ذكر بعضها، لدى كامل جميل العسليّ في كتابه، "مخطوطات فضائل بيت المقدس".[٦] لكن بدءًا من القرن الحادي عشر ميلاديّا، ظهرت مؤلفات مستقلة تخصّ الشام بالمفهومين العام والخاصّ. نذكر على سبيل المثال كتاب ابن المرجّى (ت. القرن الحادي عشر ميلاديا)، فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام[٧] وكتاب فضائل الشام ودمشق، لأبي الحسن الربعيّ (ت. ١٠٥٢م). ويبدو لنا من خلال اطلاعنا على المخطوطات والمصادر التي نشرت بخصوص قدسيّة بلاد الشام، أنّ الفترة العثمانية نخصّ بالذكر القرنين السادس عشر والسابع عشر، شهدت كثرة التأليف حول قدسيّة الشام (فلسطين وسوريا) بالمفهوم الواسع (فلسطين وسوريا) أو بالمفهوم الضيّق (سوريا أو حتى دمشق فقط).

ليس الهدف من دراستنا تحديد ماهية الأرض المقدسة،[٨] فإنّ مثل هذا الموضوع الذي ربما يكتنفه بعض الغموض لتعدد الروايات والتفاسير القرآنية في هذا المجال، فضلا أنّ هذه المسألة قد نالت حقّها في بعض الدراسات العربية والإستشراقية على السواء. وإنما نهدف في مقالتنا لتوضيح دور الرواية وأحياناً الرواية المحلية أيضًا، في مجال الكتابة والتأليف، بغية تحديد الأرض المقدسة وهي فكرتنا في المقال كما سنبينه لاحقًا، أو ربمّا في سياق آخر لإبراز شأن مكان مقدس، أو مدينة معينة.

لأجل دراستنا، سنعتمد على دراسة الباحث يوسف سدان، التي نشرها بالفرنسية عام ١٩٨١ حول المنافسة بين مركز بيت المقدس من جهة والمركز الدمشقي، (نعني المنافسة بين المؤلفين من كل جانب) بالنسبة لتحديد مقام النبي موسى عليه السلام.[٩] حيث أشار الباحث يوسف سدان في دراسته إلى عشرات المؤلفات (مصادر مطبوعة وأخرى مخطوطة) التي ظهرت في الفترتين المملوكيّة والعثمانيّة بالنسبة لاختلاف وجهات نظر المؤلفين حول المقام أعلاه، وهذا ما ورد حقّا في المؤلفات، فمثلا المؤلف الذي يتبع المركز القدسيّ جغرافيّا، يشير إلى المقام بالقرب من أريحا، بينما المؤلف الذي يتبع جغرافيّا للمركز الدمشقي، يشير إلى المقام بالقرب من مسجد القدم أو الأقدام أو الكثيب الأحمر جنوب مدينة دمشق.[١٠] وهذا يعني لنا وجود نزعات محليّة نسبيّا لدى المؤلفين من كلّ جانب من جهة، ومن جهة أخرى فمن الطبيعيّ أنّ المؤلف الذي يتبع أحد المركزين سيشير إلى المقام الاقرب إلى مكانة الجغرافيّ القريب منه.[١١] لكن من جهة أخرى، نجد لدى بعض المؤلفين الذين ينتمون إلى المركز الدمشقي، إشارة إلى المقام المنسوب إلى موسى عليه السلام بالقرب من أريحا، وهذا لا ينسجم مع النزعة الجغارفية التي أشرنا إليها.[١٢]

أنوّه أنه ليست بغيتنا من وراء ذكر المنافسة للمقارنة، بين بيت المقدس ودمشق، فلا مجال للمقارنة، كون بيت المقدس هي المدينة الثالثة المقدسة بعد مدينتي مكة والمدينة في الإسلام،[١٣] لكن لا نغفل من جهة أخرى أنّ مدينة دمشق لها أهميتها الإدارية، التاريخية والإقتصادية، وتحتوي على أماكن مقدسة لها أهميتها في الفكر الإسلامي.

ثانيًا: المنافسة حول ماهيّة الأرض المقدسة

لا شكّ لدينا أنّ بداية المنافسة بين المركزين القدسي والدمشقي، كان حول مسألة تفسير الأرض المقدسة، ثم تطور الأمر لاحقًا استناداً إلى المخطوطات والمصادر التي اطلعنا عليها، إلى مناحٍ أخرى، كالمنافسة التي أشرنا إليها أعلاه، حول مقام النبيّ موسى عليه السلام، وهي بمثابة منافسة لمنطقة جغرافيّة معينة، وليست منافسة عامة إسلاميّة، والتي تناولها الباحث قسطر، وسورديل ثومين (M. J. Kister, Sourdel-Thomine J.) في دراستيهما المشار إليهما في الملاحظة الهامشية أدناه.[١٤]

ومن خلال اطلاعنا على مخطوطة ترجع إلى الفترة العثمانية وبالتحديد القرن السابع عشر، وجدنا أنّ المنافسة تتجه نحو أمر آخر، تتمثل في تحديد أو ربمّا تعريف ماهيّة الأرض المقدسة، لكن من جانب آخر، نطرح السؤال التالي، هل في ظلّ هذه المنافسة يمكن أن نعثر على روايات أو آراء ذات نزعة محلية؟ نأخذ على سبيل المثال، الشام بالمفهوم الضيق (دمشق فقط) هل دمشق هي الأرض المقدسة؟ نشير أنّه ليس مهمتنا بحث ودراسة مسألة الروايات الصحيحة القديمة التي ترجع إلى بداية الإسلام، والتي لا تُعَدّ جانبًا في دراستنا، رغم أهميتها، لأنّ الروايات أو الأحاديث إذا كانت تعود إلى فترة النبي(ﷺ)، أو نسبت له بعد ذلك بفترة زمنيّة معيّنة، فالإمكانيتان بالنسبة لنا نفس الشيء، لكن من جانب آخر يمكن أن نوضّح كيف تظهر مثل هذه الأحاديث أو الروايات من الناحية الزمانية والمكانية؟

وإذن، فسوف لا نقف على المنافسة العامة الإسلاميّة، التي أشرنا إليها أعلاه، وهي منافسة يجب أن تُؤخذ بالحسبان، وإنمّا المنافسة المنطقية في إطار بلاد الشام، والأمر الذي يجب أن نظهره، المزاوجة بين المنافسة التي تكون صبغتها دينية، وبين الواقع التاريخي أو الجانب المنطقي الذي يكمن فيها.

أشرنا سابقًا أنّ بداية المنافسة بين مركزي بيت المقدس ودمشق، تتعلق بتفسير ماهية الأرض المقدسة.[١٥] ففي الفترة التي تخص دراستنا، ظهر على الأقل جدل شفوي، حول ماهية الأرض المقدسة، وبالتحديد هل دمشق هي الأرض المقدسة؟ كما نوّهنا من قبل. لتوضيح الأمر نختار نصًّا من مخطوطة صالح بن أحمد التمارتاشي الغزيّ (ت١٦٤٥م)، وهي تحت عنوان: (الخَبَرّ التّام في ذِكر حُدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام).[١٦] الذي ألّف كتابه بمبادرته بعد ظهور جدل شفويّ لدى حضوره في مجلس وزير مصر، بحضور رجال الحكم والعلماء، فيما إذا كانت دمشق، هي الأرض المقدسة. ورد في نصّ المخطوطة:

"لما سافرت عن الأهل والأوطان، وفارقت العيال والإخوان، وكان غاية المراد مصر المحروسة، حرسها الله تعالى وبلاد المسلمين على مدى الزمان، من شرار البغي والعدوان آمين. فكنت أسمع في مصر كما كنت أسمع في بلادي، بأنّ حضرة جناب الدستور المكرم والوزير المعظم.... مختار الدولة العثمانية.... حضرة مولانا الوزير علي باشا، بمصر المحروسة حالا، حفظه الله تعالى.... يحب العلماء ويكرم الأولياء والحكماء، وكان اجتماع الفقير بحضرة جناب صحبة سيد السادات العظام.... خليل افندي الروميّ المدرس بمدرسة الشيخونية وغيرها بمصر المحروسة، حفظه الله تعالى ومحبيه وبنيه.[١٧] ثم ورد في المخطوطة سبب تأليف الرسالة، من خلال جدل شفويّ في مجلس الوزير المذكور أعلاه، ورد فيها:

"فوقع السؤال في مجلس حضرة جناب مولانا الوزير المذكور، ضاعف الله تعالى له الأجور، آمين عن دمشق الشام هل هي أرض مقدسة أم لا؟، فاستخرت الله تعالى وجعلت هذه الرسالة تتضمن ذكر أراضي الشام وحدودها وسبب تسميتها بذلك، وذكر أراضي فلسطين وحدودها وسبب تسميتها بذلك، وذكر الأراضي المقدسة وحدودها وسبب تسميتها بذلك".[١٨]

تجدر الإشارة من خلال عنوان الرسالة، بأن المؤلف يستخدم مصطلح الشام، الذي يمكن أن يفسر بالمفهوم الأشمل والضيق، ثم يذكر فلسطين وحدودها والأرض المقدسة وحدودها، وهذا بالطبع يتنافى مع سبب تأليف الرسالة التي من المفروض جدلاً أن ترتبط بمدينة دمشق.

ثم يشير في بداية رسالته إلى بعض المصادر التي نقل عنها لأجل تأليف الرسالة، ذاكرا عنوانها يقول: "وسميتها بالخبر التام في ذكر حدود الأرض المقدسة وفلسطين والشام، وجعلته هدية من العبد الفقير لحضرة مولانا الوزير والله سبحانه وتعالى، أسأل وبنبيّه أتوسل أن تحل محل القبول، إنه خير مأمول ومسئول".[١٩]

من الجدير بالذكر أنّ المؤلف، قد جمع مادة المخطوطة من مصادر دينية وتاريخية وجغرافية وتراثيّة أخرى، وذلك بغية إظهار معرفته بموضوعات تاريخية ودينية، وبالتالي ليحظى بتقدير أحد الرجال المحليين، أو ربما للحصول على وظيفة معينة لدى الوزير المذكور أعلاه. كما يبدو ربما أعلاه، وبحسب المضامين في المخطوطة، فهو يشير في البداية نقلا عن كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، لمجير الدين الحنبلي العليمي (ت. ١٥٢١م) إلى تقسيم الشام، ورد في المخطوطة:

"إنّ الأوائل قسمت الشام إلى خمسة أقسام، الشام الأولى فلسطين وأوسط بلدا الرملة، والشام الثانية حوران ومدينتها العظمى طبريا، والشام الثالثة الغوطة ومدينتها العظمى دمشق، والشام الرابعة حمص ومدينتها الكبرى حمص، والشام الخامسة قنسرين ومدينتها العظمى حلب."[٢٠]

ثم يتناول مدينة دمشق، ومن بناها، وبنى أبوابها، وسبب تسمية الشام بهذا الاسم، حيث يشير إلى عدة روايات نقلا عن كتاب إتحاف الأخصا بفضائل المسجد الأقصى للسيوطي المنهاجي (ت. بعد ١٤٧٥م).[٢١] ومن ثم يتناول حدود الشام جغرافيا ورد في المخطوطة:

"وأما حدودها فإن حدها من الغرب البحر المالح...ومن الجنوب رمل مصر والعريش وتيه بني إسرائيل وطور سيناء.. ومن الشرق برية السماوة وهي كبيرة ممتدة إلى العراق... ومن الشمال مما يلي الشرق أيضا الفرات."[٢٢]

لكن الذي يعنينا من جهة أخرى مدينة دمشق أو لفظ الشام، فقد ورد ذكر الشام ودمشق تاريخيّا ودينيّا وفق المصادر التي يعتمد وينقل منها مؤلفنا، فيورد ذكر الشام ضمن الأحاديث والروايات التي تشير إلى قدسيتها، لكن يمكن تفسير الشام بالمفهوم العام أي فلسطين وسوريا، أو سوريا أو حتى مدينة دمشق، وهذا يعني أنه ربمّا لا يحدد بصراحة بأن دمشق هي الأرض المقدسة.[٢٣] ثم نذكر بأنّ تناول موضوعات مختلفة كما بينا أعلاه يشير إلى تردد وحيرة المؤلف بالنسبة لمسألة تحديد الأرض المقدسة وهو الهدف الأساسي في تأليفه لهذه الرسالة. ورد في المخطوطة: "اتفق العلماء على أن الشام أفضل البقاع بعد مكة والمدينة."[٢٤]

ثم ينقل عن تاريخ ابن عساكر (ت. ١١٧٦م) روايات تتناول الحث على سكنى الشام نذكر منها: "عن عبد الله بن حوالة الأسدي.... عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: ستجندون أجنادا، جندا بالشام وجندا بالعراق وجندا باليمن فقال له الحوالي: خر لي يا رسول الله فقال: عليكم بالشام فمن أبى فليلحق بيمنه وليسق من غدره، فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله."[٢٥]

وينقل عن أبي الحسن الربعي (ت. ١٠٥٢م) في كتابه فضائل الشام ودمشق، رواية من الإسرائيليات، "...عن كعب قال: إن الله بارك في الشام من العريش إلى الفرات."[٢٦] وهنا أيضًا يمكن حسب الرواية أن تفسر الشام بالمفهوم الأشمل والضيق. وأبتغي أن أشير أن مسألة تخريج الأحاديث ليس موضوع دراستنا فقد نعثر على أحاديث صحيحة وردت في كتاب الحديث الرسمية المتفق عليها، ومن جانب آخر على روايات ذات طابع محليّ وهذا يعتبر رائجا نسبيا في مؤلفات فضائل الشام. أشير أيضا أنه ليس هدفنا إثبات أو عدم إثبات الروايات التي أشرنا إليها، فهذا ليس موضوع اختصاصنا، ولكن بسهولة يمكن العثور على روايات مقبولة وهي روايات ترجع إلى بداية الإسلام، فترة النبي محمد (ﷺ)، وروايات متأخرة ليست مقبولة في محافل العلماء إسلاميًا.[٢٧]

لكن لأجل الحديث عن فضائل مكان ولادته نعني غزة، يتناول المؤلف أيضًا فلسطين وحدودها ذاكرا بعض المدن مثل مدينة القدس الشريف، والخليل ونابلس وعسقلان وسبسطية والرملة، وما يجذب النظر أنه يخص عسقلان والرملة بالذكر ولا يشير إلى أهمية المدينة الثالثة في الإسلام وهي مدينة القدس، من جانب آخر ينتهزها فرصة بعد ذلك للحديث أيضا عن فضائل غزة، كما يتبين أدناه وهي مكان ولادته كنزعة محليّة (local-patriotism) نعني مدينة صغيرة، بالموازنة مع المدن الكبرى الإسلاميّة التي وردت في فضائل الشام.[٢٨] ومن جهة أخرى يظهر تعتيمًا على بيت المقدس نسبيا، حيث يذكرها في نهاية المخطوطة مشيرًا بأنها وسط الأرض.[٢٩] ما يجذب النظر عندما يشير إلى مقام النبي موسى عليه السلام حيث يشير إلى المكانين المشهورين، دمشق، وبالقرب من أريحا وكان بإمكانه أن يورد رواية واحدة تتعلق بالمكان الأول المذكور لأن ذلك ينسجم مع سبب تأليف المخطوطة، والرواية أيضا من الإسرائيليات ورد لديه "عن مكحول عن عبد الله بن سلام قال: "..... وقبر موسى

عليه السلام بدمشق، والذي عليه الأكثرون أن قبر موسى عليه السلام بالقرب من أريحا".(٣٠)

وينهي المخطوطة بذكر حدود الأرض المقدسة كما يلي ذكره: ورد في المخطوطة "وأما حدود الأرض المقدسة، فمن القبلة أرض الحجاز... ومن الشرق من بعد دومة الجندل برية السماوة وهي كبيرة ممتدة إلى العراق... ومن الشمال نهر الفرات... ومن الغرب بحر الروم وهو البحر المالح ومن الجنوب رمل مصر...".(٣١) ونسبيًا هنا لا يختلف نسبيا الفرق بين تقسيم الشام وحدود الشام مما ورد أعلاه.

بهذا السياق أعلاه، فإنّ كلمة حدود تعني لنا تعريفًا (definitions) من الجانب الجغرافي، وليس مفهومها حدودا (Borders) وتجدر الإشارة أنّ سبب التفسير الذي توصلنا إليه يبدو واضحا، لأنّ بعض المؤلفين الذين استخدموا حدود الأرض المقدسة أو حدود الشام، لم يظهروا حدودًا شاملة في مؤلفاتهم، وإنما تعريفًا أو مفهومًا لتفرّع الموقع الجغرافي، نضيف بأن هذا التقسيم يرتبط بتقسيم جغرافي ماضٍ قديم، ولا يعبر عن الواقع التاريخي الذي ظهرت فيه المخطوطة.(٣٢)

خاتمة

ثمة عدد من الروايات التي تتناول الشام في أدب فضائل الأرض المقدسة، لا تعني فقط فلسطين وسوريا، بالمفهوم الأشمل وإنما سوريا أو حتى دمشق بالمفهوم الضيق. ويوجد عدد لا بأس به من الروايات، التي يمكن أن تفسر في كلا الجانبين، أي فلسطين وسوريا، أو سوريا وحتى دمشق فقط.

ثمّ يجب أن نفترض بأنّ معظم المؤلفين التابعين للمركزين القدسي والدمشقي والمناطق المجاورة لهما، حاولوا رفع شأن مكان كلّ منهما، لأسباب دينية، روحانية أو حتى شخصية، وهذا ما تجلّى من خلال المخطوطة التي اعتمدنا عليها، في مؤلفات فضائل الشام في الفترة العثمانيّة، وبحضور الحاكم المحلي في مصر.

وبالنسبة للتمارتاشي، رغم محاولته إثبات قدسية مدينة دمشق، وبالتالي تحديد مفهوم الأرض المقدسة، أو دمشق هي الأرض المقدسة فالمسألة لديه ربما يكتنفها الغموض، أو الحيرة والتردد، كما بينا بالنسبة لذكره حدود الأرض المقدسة، بمفهوم التعريف لديه وليس حدودا، لا نغفل أن المؤلف أشار إلى قدسية بيت المقدس، ومسقط رأسه في المخطوطة (غزة تتبع المركز القدسي) كنزعة محلية. لكن حسن التخلص نجده لدى مؤلف من القرن السابع عشر، نعني محمد بن حبيب (ت. ١٦٤٩) وهو من مواليد مدينة نابلس، الذي أراد إثبات بواسطة رواية محلية ليست مقبولة في الفكر الإسلامي، على أن دمشق هي الأرض المقدسة.(٣٣) ثم نذكر بأنّ تناول موضوعات مختلفة كما بينا أعلاه يشير إلى تردد وحيرة المؤلف بالنسبة لمسألة تحديد الأرض المقدسة وهو الهدف الأساسي في التأليف.

الهَوامِشُ:

(1) Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99.

(2) .Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99; Kister, M. J., “You Shall Only Set out for Three Mosques” ,pp.173-196.

(٣) من المؤلفات الأولى التي ظهرت ما يخص المدن الإسلامية المقدسة، مثل **فضائل مكة**، للأزرقي، **وأخبار المدينة**، لابن شاذان الواسطي، وغيرهما من المدن، هذا بالنسبة لمدن الحجاز المقدسة، أما بالنسبة لأرض الشام بالمفهوم الأشمل، فقد ظهرت مؤلفات قبل القرن الحادي عشر ميلاديا، لكن لم تصلنا، أوردها كامل العسلي، في **مخطوطات فضائل بيت المقدس**، في صفحة المحتويات، وما بين أيدينا اليوم يرجع للقرن الحادي عشر ميلاديًا، نذكر فضائل الشام ودمشق للربعي، وفضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام لابن المرجى.

(4) See: Sadan, J., “A Legal Opinion of a Muslim Jurist Regaring the Sanctity of Jerusalem”,pp. 231-245; Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99. Elad, A., Medieval Jerusalem and Islamic worship, pp. 164-173; Dahan, S., “The Origin and Devlopment of the Local Historians of Syria”, pp. 108-117.

حول أمر الأرض المقدسة فهناك عدة تفسيرات وردت في **القرآن الكريم** وكتب التاريخ منها الأرض التي بارك الله حولها ويمكن أن تكون أرض الشام أو فلسطين أو بيت المقدس أو أريحا، أو طور سيناء، انظر سورة ٢١: ٧١؛ السلمي، ترغيب أهل الاسلام، ١١- ١٢؛ مخطوطة الثعلبي، الكشف والبيان، ٧٦/٢ ورقة ١٥ظهر. وفي كتب فضائل الشام بمفهومها نعثر على روايات إسلامية صحيحة تشير إلى قدسية الأرض المقدسة، وهي ترجع إلى بداية الإسلام، وما ورد إما آيات قرآنية، أو أحاديث نبوية، أو روايات عن السلف الصالح.

(٥) كلمة **الشام** لها مفهومان وفق المصادر التاريخية والجغرافية في القرون الوسطى، الشام بالمفهوم العام وتعني فلسطين وسوريا، وبالمفهوم الضيّق وتعني سوريا أو حتى دمشق فقط.

(6) Sivan, E., “Le Caractère sacré de Jérusalem aux XIIe-XIIIe siècles”,pp. 149-150; في هذا المقال الكثير من المصادر Ashtor, E. W. Caskel, Z. Hirschberg, Ch. Matthews, A. N. Poliak, G.Vajda; Busse, H., “The Sanctity of Jerusalem in Islam”, pp. 441-468; “Jerusalem and Mecca: the Temple and the kaaba”; pp. 236-246; “Der Islam und die biblischen Kultstätten”, pp. 113-147; Kister, M. J., “You Shall Only Set out for Three Mosques” ,pp.173-196; Sivan, E., “The Beginnings of the Fadā’il al-Quds Literature”, pp. 100-110; Goitein, S. D.,“The Sanctity of Jerusalem and Palestine in Early Islam”, pp. 135-148; Lasarus-Yafeh, H., “The Sanctity of Jerusalem in Islam” ,pp. 211-225; Sadan, J., “A Legal Opinion of a Muslim Jurist Regarding the Sanctity of Jerusalem”, pp. 231-245; Kister, M. J.,“Sanctity Joint and Divided”, pp. 18-65.

محمود إبراهيم، **فضائل بيت المقدس في مخطوطات عربية قديمة**؛ كامل العسلي، مخطوطات فضائل بيت المقدس، Livne-Kafri, O., “A Note on Some Traditions of Fadā’il al-Quds”, pp. 71-83 قارن: קיסטר, י., הערה על קדמותן של מסורות שבחי ירושלים, ٦٩ – ٧١; חסון, י., ספרות שבחי ירושלים באסלאם,עמ', ٧- ٤٣; אשתור, א., ספר ערבי על שבחי ירושלים, ٢٠٩-٢١٤; גויטיין, ש,ד., קדושתה של ארץ ישראל בחסידות המוסלמית, עמ',١٢٠- ١٢٦; סדן, י., שלושה מקורת חדשים מספרות שבחי ארץ הקודש בערבית במאות הט"ז- הי"ז , עמ', ٢٢- ٢٣; לבנה, ע., על קדמותם של חיבורים המוקדשים לירושלים בספרות הערבית עמ', ٢٢;

فهيم جبر، **الأرض المقدسة في دراسات تراثية**، ٧ – ٢١.

(٧) انظر: كامل العسلي، **مخطوطات فضائل بيت المقدس**، مقدمة الكتاب "أ".

(٨) انظر: ابن المرجى، **فضائل بيت المقدس والخليل وفضائل الشام**، (تحقيق: عوفر لفني)، עפר לבנה, על קדמותן של חיבורים המוקדשים לירושלים בספרות הערבית, עמ' ٢١- ٢٦. قارن: Sivan, E., “The Beginnings of the Fadā’il al-Quds Literature”, pp. 100-110.

(٩) نجد في **القرآن الكريم** عددًا لا بأس به من الآيات التي تشير إلى الأرض المقدسة، انظر: سورة ٢١: ٧١، ٨١؛ ١٧: ١؛ ٥: ٢٤ وغير ذلك. فمثلاً الأرض التي بارك الله حولها، أو أرض الشام، أو فلسطين ودمشق وبعض الأردن، أو الرملة والأردن وفلسطين، أو أريحا، أو أجزاء من أريحا وفلسطين وسوريا، أو أجزاء من بيت المقدس.

(10) Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99

(11) Sadan, J., “A Legal Opinion of a Muslim Jurist Regarding the Sanctity of Jerusalem”, pp. 231-245; Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99.

(١٢) انظر مقالة الباحث يوسف سدان Sadan, J., “Le Tombeau de Moïse à Jéricho et à Damas”, pp. 60-99.

حول الروايات المختلفة، ورد في **مخطوطة كتاب تاريخ القدس والخليل** على لسان **مؤلف مجهول** يرجع للفترة العثمانية "هذا المكان الذي به موسى عليه الصلاة والسلام غير قطعي، فقد نقل العلماء في قبر موسى عليه السلام سبعة أقوال، قيل إنه بمدين وقيل بتيه بني إسرائيل وقيل بقرية لد وقيل بدمشق وقيل ببصرى من أرض الشام وقيل بالبلقاء وقيل بأرض أريحا من معاملة القدس الشريف"، انظر المخطوطة ورقة ٣٥ وجه Busse, H., “Der Islam und die biblischen Kultstätten”, pp.137-140.

انظر أيضًا مقالته:
"The Sanctity of Jerusalem in Islam", pp. 441- 468.

(١٣) انظر: عبد الغني النابلسي (ت. ١٧٣١م) **الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية**، أو رحلتي إلى القدس، ص٤٦.

(14) Kister, M. J., "You Shall Only Set out for Three Mosques" ,pp.173-196.

(15) Kister, M. J., "You Shall Only Set out for Three Mosques" ,pp.173-196; idem, Sanctity joint and divided, pp. 18- 65; Sourdel-Thomine, J. "Une image de Jérusalem au début du XIIIe siecél" in: The series cultures et civilisations médievales, pp. 217-223.

(١٦) تجدر الإشارة أنّ ثمة عدم وضوح نسبيًا بالنسبة لمفهوم مصطلح الأرض المقدسة، سنرى في الأمثلة كيف ابن حبيب يفسر الشام بالمفهوم الضيق أي دمشق. سورة ٥: ٢١ من الواضح أن في الاسلام نجد عدة تفاسير للأرض المقدسة، مثل الأرض التي بارك الله حولها أو أرض الشام، أو فلسطين أو دمشق وبعض الأردن، أو الرملة والأردن وفلسطين أو أريحا أو أجزاء من فلسطين وسوريا أو أجزاء من بيت المقدس. سورة ٢١: ٧١، ٨١؛ ١٧: ١؛ ٥: ٢٤؛ ١: ٩٣؛ ٧: ١٣٣؛ ٢٤: ٣٦؛ ٢١: ١٠٥؛ ٥: ٤١؛ **تفسير الطبري**، ١٠: ١٠٦؛ قارن تفسير الثعلبي، مخطوطة أحمد الثالث٢: ٧٦، ورقة ١٥وجه؛ قارن الربعي، فضائل الشام ودمشق،١- ٦؛ ابن عساكر ، **تاريخ مدينة دمشق**، ١: ١٤٠؛ ابن الجوزي، **فضائل القدس**، ٦٧ – ٦٩؛ السلمي، ترغيب أهل الإسلام،١١- ١٢؛ ابن حبيب، **در النظام**، ورقة ٦ظهر، التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة ١٨وجه؛ السيوطي المنهاجي، إتحاف الأخصا، ٢: ١٣٢؛ ابن طولون، **مخطوطة تحفة الحبيب فيما ورد في الكثيب**، ورقة ٤ ظهر؛ ٥ وجه.

(١٧) اعتمدنا على **مخطوطة استانبول**، أسعد افندي، أما رقم المخطوطة 2212/2 والمؤلف صالح بن أحمد التمارتاشي الغزيّ، انظر ترجمته في **الأعلام** للزركلي، ٣: ١٩٥؛ ولدى بروكلمان: C. Brockelmann, GAL, SII, p. 489. لقد قمنا بدراسة حول المخطوطة لدى دراستنا للماجستير في جامعة تل أبيب (١٩٩٢)، وثمة دراسة أخرى لصديق أحمد ترك، الجامعة الأردنية، (١٩٩٣).

(١٨) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة ٦ ظهر؛ ٧وجه.

(١٩) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة ٦ ظهر؛ ٧وجه، ٧ ظهر، ووجدت في كتاب إتحاف الأعزة في تاريخ غزة، لعثمان مصطفى الطباع الغزي أنه يوجد نسخة من المخطوطة في معهد إحياء التراث الإسلامي في أبو ديس قام بنشرها مبتورة، محمد يوسف حمد ٤: ٩٩؛ ١: ٧٣- ٧٦. أما المؤلف فهو لم ينتم إلى طبقة الكتاب الراقية في القرون الوسطى، كما هو الأمر بالنسبة لجده (كما بينته مقدمة المخطوطة).

(٢٠) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 7v.

(٢١) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 7v.

(٢٢) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 8v -8r. يشير أن الذي بنى دمشق هو غلام كان مع الإسكندر عندما رجع من المشرق. أما حول تسمية الشام بهذا الإسم فيذكر المؤلف نقلاً عن: الكتاب المذكور أعلاه عدة روايات منها" لأنها عن شمال الكعبة، وقيل سميت بذلك لأن أصحاب نوح عليه السلام لما خرجوا من السفينة، فمنهم من أخذ نحو يمين الكعبة، ومنهم من أخذ نحو يسارها... فقيل يمن وشام".

(٢٣) انظر: انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 9r-9v.

(٢٤) انظر: المخطوطة، ورقة ٧ ظهر- ورقة ٨ ظهر حول دمشق مثلاً وحول الشام والروايات التي ذكرت فيها؛ انظر: المخطوطة ورقة ٩ ظهر- ١١ظهر على سبيل المثال.

(٢٥) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 9v .

(٢٦) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 9v; 10r. قارن: ناصر الدين الألباني، تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي، ١٣. يذكر بأن الحديث صحيح جدًا.

(٢٧) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 12r.

(٢٨) انظر على سبيل المثال: بالنسبة للرواية المحلية ما ورد في المخطوطة "وبسنده إلى ابن عباس رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله (ﷺ): مكة آية الشرف والمعدينة معدن الدين، ...... والشام موطن الأبرار.....الخ"، ورقة 10v يذكر محمد ناصر الدين الالباني بأن الحديث منكر وبعض الجمل صحيحة "وأهل اليمن أفئدتهم رقيقة". تخريج أحاديث فضائل الشام ودمشق للربعي، ص٣٤.

(٢٩) انظر: **مخطوطة الخبر التام**، ورقة ١٤وجه، ١٧وجه. نقتبس من المخطوطة "وهي من أحسن المدن المجاورة لبيت المقدس، وفيها ولد سليمان بن داوود عليهما السلام، وهي من الثغور، فإن البحر قريب منها، وفيها كثير من الأشجار والنخيل وحولها كثير من المغارس والمزارع وفيها أنواع الفواكه، وهي من أحسن مدن فلسطين، وفيها خلق كثير ممن سلف من العلماء والصالحين. وتقدم أن الإمام محمد بن إدريس الشافعي رضي الله تعالى عنه ولد فيها، موضوع مولده معروف يقصد للزيارة".

(٣٠) انظر: المخطوطة: ورقة ١٨ وجه. "وسميّ المسجد الأقصى بالأقصى لأنه وسط الدنيا..... وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أوسط الأرضين بيت المقدس، وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس". ورقة 18r.

(٣١) انظر: التمارتاشي، **مخطوطة الخبر التام**، ورقة 13r.

(٣٢) انظر: المخطوطة: ورقة ١٧ وجه.

(٣٣) انظر على سبيل المثال: الإصطخري، **المسالك والممالك**، ٤٣، المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، ٦٢- ٦٣. انظر: محمد بن حبيب، **در النظام في محاسن الشام** (مخطوط جامعة برينستون) رقم ELs 1862.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

موقف المرابطين من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ/١١١١م



إسماعيل بن عبد المجيد بن عبد الله
أستاذ مؤقت بقسم التاريخ
كلية العلوم الإنسانية
جامعة تلمسان – الجمهورية الجزائرية

مُلَخّص

حاول هذا البحث إلقاء الضوء على الدور العلمي الذي قام به المرابطون –أمراء وعلماء– في سبيل تحقيق وحدة المغرب الإسلامي. فتوصّل إلى حقيقة مهمة وهي أن المرابطين أرادوا الحفاظ على امتداد عقيدة السلف منذ أن وطأت أقدامها أرض المغرب الإسلامي بسبب جهود الفاتحين الأوائل من الصحابة والتابعين. كما حافظ عليها أتباع الإمام مالك وأصحابه ومن جاء بعدهم من علماء المغرب بِعُدْوَتيه. فالتزم المرابطون بما كان عليه الإمام مالك عقيدةً وفقهًا وسلوكًا، وتشكّل لديهم اتجاه فكري موحّد، ومسار ثقافي لا يقبل التعدّد. هذا التوحيد أدى في النهاية إلى توحيد سياسي بحيث صار هوية لمجتمع المغرب الإسلامي في تلك الحقبة التاريخية. كما بيّن البحث موقف كل من الفقهاء والسلطة المرابطية من التيارات الفكرية المعارضة السائدة آنذاك من خلال عرض أنموذج، عن الأفكار التي رآها المرابطون دخيلة على منهجهم في فهم الدين الإسلامي، وهو كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي "رحمه الله"، فواجهوا تلك الاتجاهات الفكرية وتصدّوا لها، تارة بالمعارضة ومرّة بالانتقاد وأخرى بالإحراق. وبالمقابل، برز اتجاهٌ مساند ومؤيد لمضامين كتاب الإحياء، عُرف بالغزّالية، فكانت هذه الطائفة من جملة أسباب تحامل كثير من المصادر الموحدية على المرابطين، وذلك بحكم الاختلاف في مشرب الاتجاه الفكري، مما فتح أيضًا فيما بعدُ باب الطعن لعدد كبير من الباحثين المُحْدثين خاصة المستشرقين ومن نحا نحوهم ضد المرابطين. وقد عرض البحث أسباب إحراق كتاب الإحياء من خلال المصادر، المراجع وآراء الباحثين، وناقش تلك الأسباب معللاً كل ذلك ومُبرْهنًا أنّ المرابطين إنما لجئوا لعملية إحراق كتاب الإحياء، التزامًا بما كان عليه أسلافهم من التوجه الديني، وحفاظًا على وحدة الأمة المرابطية.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٧	أبريل	٢٠١٨
تاريخ قبول النشر:	٠٢	يوليو	٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

حرق الكتب، علم المكاشفة، المرابطون، المغرب والأندلس، الفقه والفقهاء

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055406

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إسماعيل بن عبد المجيد بن عبد الله. "موقف المرابطين من كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد محمد الغزالي المتوفى ٥٠٥ هـ/١١١١م".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٢٣ – ١٤٣.

مُقَدِّمَة

أُدخل كتاب إحياء علوم الدين لأبي حامد الغزالي[١] إلى المغرب والأندلس في حياة مؤلفه، زمن حكم علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي[٢]. ويعتبر القاضي أبو بكر بن العربي[٣] -وهو أحد تلاميذ الغزالي- من أول الجالبين لكتاب الإحياء إلى المغرب عند عودته من رحلته المشرقية عام ٤٩٥هـ[٤]، والتي وسمها بـ"ترتيب الرحلة للترغيب في الملة"، حيث قال فيها: "وكان أشهر من لقينا من العلماء في الآفاق، ومن سارت بذكره الرفاق لطول باعه في العلم، ورَحب ذراعه، الإمام أبو حامد بن محمد الطوسي الغزالي، فاستدعينا منه فتيا وكتابًا اختصرت لفظ الفُتْيَا لوقتٍ ضاق عن تقييدها"[٥]. ومنذ أن ظهر هذا الكتاب، وإلى الآن، تباينت تجاهه

الآراء، فذمّه قوم حتى أفتوا بحرقه ومنعه. ورفعه آخرون إلى درجة كبيرة من المدح، فقيل إن الرسول (ﷺ) قرأه ورقة ورقة من أوله إلى آخره ثم قال إنه لشيء حسن[٦]، وزاد بعضهم فقال: "كاد الإحياء أن يكون قرآنا"[٧]، وقيل أيضًا: "لو محيت جميع العلوم لاستُخرجت من الإحياء[٨]"، وإلى الآن لا يزال مثل مغربي متداول يبين اهتمام بعض الناس بالمغرب وحرصهم على اقتناء الإحياء، فيقول المثل: "بع اللحية واشر الإحيا"[٩]. فإلى أي شيء كان يرمي المرابطون بتتبعهم وحرقهم لكتاب الإحياء؟

إن الرؤية لمحتوى الإحياء اختلفت خلال العصر المرابطي إلى اتجاهين اثنين إن لم نقل إلى اتجاهات متباينة. والذي استقر في أذهان الكثير من المنتسبين للتأريخ أن الموقف السلبي للمرابطين تجاه كتاب الإحياء كان نابعا عن مصالح سياسية رعايةً لجهات معينة كان يدعمُها حرق الكتاب، لما فيه من المساس بشخصيتهم الفقهية والحد من نفوذهم. لذلك ارتأيت أنه من المفيد أن نستعرض أولا موقف الغزالي من الفقه وفقهاء المرابطين من خلال الإحياء قبل التطرق إلى موقف المرابطين من الكتاب.

أولاً: موقف الغزالي من علم الفقه والمرابطين

١/١-موقف الغزالي من علم الفقه والفقهاء

ذكر الغزالي في أول كتابه أن العلم قسمان علم معاملة وعلم مكاشفة، والمقصود من هذا الكتاب (يقصد الإحياء) علم المعاملة فقط دون علم المكاشفة والتي لا رخصة في إيداعها الكتب لأن علم المكاشفة لم يتكلموا فيه إلا بالرمز والإيماء على سبيل التمثيل والإجمال علمًا منهم بقصور أفهام الخلق عن الاحتمال[١٠]. وبيّن أن علم المكاشفة "هو علم الباطن وذلك غاية العلوم فقد قال بعض العارفين من لم يكن له نصيب من هذا العلم أخاف عليه سوء الخاتمة وأدنى نصيب منه التصديق به وتسليمه لأهله[١١]... وهو علم الصديقين والمقربين أعني علم المكاشفة فهو عبارة عن نور يظهر في القلب عند تطهيره وتزكيته من صفاته المذمومة وينكشف من ذلك النور أمور كثيرة"[١٢]. بينما يجعل فنّ الفقه من علم المعاملة[١٣]، وبيّن المسائل التي يتكلم فيها الفقيه قائلاً: "فاعلم أن أقرب ما يتكلم الفقيه فيه من الأعمال التي هي أعمال الآخرة ثلاثة: الإسلام والصلاة والزكاة والحلال والحرام، فإذا تأملت منتهى نظر الفقيه فيها، علمت أنه لا يجاوز حدود الدنيا إلى الآخرة، وإذا عرفت هذا في هذه الثلاثة فهو في غيرها أظهر".[١٤]

إذن علم الفقه عنده من علوم الدنيا، والمكاشفة من علوم الآخرة، وهو يفصل الفقه عن علم الآخرة، ليكون تعبيرًا عن الظاهر والشريعة، ويبقى التصوف تعبيرًا عن الباطن والحقيقة، لأنه في عُرف الصوفية - والغزالي منهم -هو حقيقة الدين. وأبرز الغزالي أن التكلم في أحوال القلوب وأمور الآخرة ليس من اختصاص الفقيه، فقال:" وأما القلب فخارج عن ولاية الفقيه ... وأما الآخرة فلا تنفع فيها الأموال بل أنوار القلوب وأسرارها وإخلاصها وليس ذلك من الفقه وإن خاض الفقيه فيه كان كما لو خاض في الكلام والطب وكان خارجًا عن فنه"[١٥].

وبناءً على ذلك فهو يعتبر مرتبة الفقيه أقل من مرتبة المتصوف، ويرى أن علم الفقيه لا يبلغ مرتبة علم المتصوف من حيث التجرد وإدراك الحقيقة وذلك لسببين: الأول أن الغاية الأخروية مختلطة بالغاية الدنيوية للفقه، والسبب الثاني ارتباطه النفعي بالسلطان، ومعنى هذا أن الفقيه يتاجر بعمله، وينشغل بعلم الظاهر عن علم الباطن. وما يؤكد ذلك أنه أشار إلى فضل علماء المكاشفة والباطن على علماء المعاملة والظاهر، فقال: "وقد كان أهل الورع من علماء الظاهر مقرّين بفضل علماء الباطن وأرباب القلوب، كان الإمام الشافعي[١٦] رضي الله عنه يجلس بين يدي شيبان الراعي[١٧] كما يقعد الصبي في المكتب، ويسأله: "كيف يفعل في كذا وكذا"، فيقال له "مثلك يسأل هذا البدوي". فيقول: "إن هذا وُفق لما أغفلناه"[١٨]. وقال: "كان أحمد بن حنبل[١٩] رضي الله عنه ويحيى بن معين[٢٠] يختلفان إلى معروف الكرخي[٢١]، ولم يكن في علم الظاهر بمنزلتهما وكانا يسألانه"[٢٢].

وقال الغزالي محفزًا على الاشتغال بالكشف: "فإن كنت مريدا للآخرة وطالبًا للنجاة وهاربًا من الهلاك الأبدي، فاشتغل بعلم العلل الباطنة وعلاجها.... فلا تشتغل بفروض الكفاية، لاسيما وفي زمرة الخلق من قد قام بها، فإن مهلك نفسه فيما به صلاح غيره سفيه، فما أشد حماقة من دخلت الأفاعي والعقارب تحت ثيابه، وهمت بقتله، وهو يطلب مذبة يرفع بها الذباب عن غيره ممَنْ لا يغنيه، ولا ينجيه مما يلاقيه من تلك الحيات والعقارب إذا همت به[٢٣]". وقال عن علم الخلاف في الفقه، والجدل في الكلام، والفتاوى في الخصومات والأحكام، أنها ليست من علوم الآخرة، ولا من العلوم التي قيل فيها تعلمنا العلم لغير الله

فأبى العلم أن يكون إلا لله[٢٤]. وقال في علم الباطن بأن إفشاء سر الربوبية كفر[٢٥]. وأضاف بأن أدنى درجات الفقيه أن يعلم أن الآخرة خير من الدنيا"[٢٦].

والقارئ للإحياء يجد هذا التفريق كثيرًا بين أسطره، فهو يسمي الفقه بأسماء مختلفة: علم المعاملة، علم الظاهر، علم الفقه الدنيوي، علم الدنيا، العلم الجلي. ويسمي التصوف: علم المكاشفة، علم الباطن، وعلم القلوب، علم الآخرة، العلم الخفي. وهذا التفريق بينهما في الحقيقة ما هو إلا لأن علم الفقه عند الغزالي لا يوصل إلى أصل النجاة لأنه علم دنيوي، على عكس التصوف فإنه قال فيه: "علمت يقينا أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، و أخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء، ليغيروا شيئًا من سيرهم وأخلاقهم، ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إليه سبيلا، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم، في ظاهرهم وباطنهم، مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به"[٢٧].

ثم بدأ بالتعريض بعلم الفقه وتنقُّص الفقهاء وأنهم لا يعتنون بعلم الباطن أو المكاشفة، فأورد عن أبي حنيفة النعمان[٢٨] وصاحبه أبي يوسف[٢٩] أنهما كانا يتحايلان على الشرع لمنع الزكاة: "فحكى أن أبا يوسف القاضي كان يهب ماله لزوجته آخر الحول، و يستوهب مالها إسقاطاً للزكاة فحكي ذلك لأبي حنيفة رحمه الله فقال ذلك من فقهه، (وقال الغزالي معقبًا): وصدق فإن ذلك من فقه الدنيا ولكن مضرته في الآخرة أعظم من كل جناية ومثل هذا هو العلم الضار"[٣٠]. وقال:" فإن تكلم (يعني الفقيه) في شيء من صفات القلب وأحكام الآخرة، فذلك يدخل في كلامه على سبيل التطفّل، كما قد يدخل في كلامه شيء من الطب والحساب والنجوم وعلم الكلام، وكما تدخل الحكمة في النحو والشعر[٣١]..... فكيف يُظن أنه علم الظهار واللعان والسلم والإجارة والصرف ومن تعلم هذه الأمور ليتقرب بها إلى الله تعالى فهو مجنون"[٣٢].

لقد بلغ تذمر الغزالي من الفقه لدرجة جعلته يعتبره نوعًا من السياسة والأحكام السلطانية، فقال: "فالفقيه هو العالم بقانون السياسة وطريق التوسط بين الخلق إذا تنازعوا بحكم الشهوات، فكان الفقيه معلّم السلطان ومرشده إلى طرق سياسة الخلق وضبطهم لينتظم باستقامتهم أمورهم في الدنيا.... وحاصل فن الفقه معرفة طرق السياسة والحراسة"[٣٣]. ويحصر الغزالي تعريفه للفقهاء والعلماء بأنهم المعرضون عن الحكام وليس الفئة الطالبة لهم من أولئك" الذين أكبّوا على علم الفتاوى، وعرضوا أنفسهم على الولاة... وطلبوا الولايات والصلات منهم[٣٤]. بل إن ابن عربي الحاتمي الطائي الصوفي نقل عن الغزالي قوله عن الفقه أنه سبب من أسباب عدم الالتحاق بدرجة الأولياء، وإدراك مرتبة العارفين، لأنه يفسد النفس ويعيقها عن تلقي المعارف الإلهية الحقيقية[٣٥].

أما عن فقهاء عصره فحَملتُه كانت شديدة عليهم، مُلخصًا أن الفقهاء لم يأخذوا من الأئمة المتبوعين الشافعي ومالك وأحمد بن حنبل وأبو حنيفة وغيرهم إلا خصلة واحدة وهي التشمير والمبالغة في تفاريع الفقه"[٣٦]، فوصف فقهاء عصره أنهم: "قد تصرفوا في الفقه بالتخصيص لا بالنقل والتحويل، إذا خصّصوه لمعرفة الفروع الغريبة في الفتاوى، والوقوف على دقائق عللها، واستكثار الكلام فيها، وحفظ المقالات المتعلقة بها، فمن كان أشد تعمقا فيها، وأكثر اشتغالاً بها يقال هو الأفقه"[٣٧]. وقال: "إني رأيت الرغبة من طلبة العلم صادقة في الفقه الذي صلح عند من لا يخاف الله سبحانه وتعالى المتدرع به إلى المباهاة والاستظهار بجاهه ومنزلته في المنافسات"[٣٨]. وقال عنهم كذلك: "ولو سئل فقيه عن معنى من هذه المعاني حتى عن الإخلاص مثلاً أو عن التوكل أو عن وجه الاحتراز عن الرياء لتوقف فيه مع أنه فرض عينه الذي في إهماله هلاكه في الآخرة، ولو سألته عن اللعان والظهار والسبق والرمي لسرد عليك مجلدات من التفريعات الدقيقة التي تنقضي الدهور ولا يحتاج إلى شيء منها"[٣٩].

وأورد عن سعيد بن المسيب رحمه الله أنه قال: إذا رأيتم العالم يغشى الأمراء فهو لص. وقال عمر رضي الله عنه: إذا رأيتم العالم محبًا للدنيا فاتهموه على دينكم فإن كل محب يخوض فيما أحب. وقال مالك بن دينار رحمه الله: قرأت في بعض الكتب السالفة إن الله تعالى يقول إن أهون ما أصنع بالعالم إذا أحب الدنيا أن أخرج حلاوة مناجاتي من قلبه[٤٠]. كما أن الغزالي أفرد الباب السادس من كتابه إحياء علوم الدين لعلماء السوء[٤١]. ولست بصدد استقصاء وتتبع كل ما قاله وقرره الغزالي عن الفقه والفقهاء، لأنه أولاً خارج عن موضوع البحث بطريق مباشر، وثانيًا تكفينا فقط إشارات

من كلامه، حتى نتبين في موضع لاحق ماذا كان موقف المرابطين من الكتاب؟ إذن كنتيجة أولية يمكن استخلاصها أن الغزالي يرى أن الفقه من علوم الدنيا التي هي آلة لعلوم الآخرة، وأنه علم لا يبحث في الأعمال إلا من حيث صورها وأشكالها، فهو أشبه بالطب وإن كان أفضل منه، وعليه فقد صار الفقيه وفقا لتصور الغزالي لا تعلق له بالآخرة إلا من حيث شروط صورة العمل.

٢/١-موقف الغزالي من المرابطين

إن العلاقات الأُولى التي ربطت الغزالي مع سلطة المرابطين، هي علاقته مع الأمير يوسف بن تاشفين التي كانت جيدة، اتّسمت بالودّ والحُسن، وكانت نتيجة للرسائل المتبادلة والسفارة المشكّلة من الوفد المرابطي وعلى رأسه ابن العربي الأب وابنه محمد القاضي اللذين رحلا إلى المشرق قصد الحصول على تقليد من الخليفة العباسي أبي العباس أحمد المستظهر بالله ليوسف بن تاشفين لكي يقوم بأمره[٤٢]، وكذلك استصدار فتوى من الغزالي وغيره من العلماء حول موقف الأمير يوسف من أمراء الطوائف والحق في قتالهم وضم الأندلس تحت سيادة الدولة المرابطية بسبب تفرق كلمة أمراء الطوائف وامتداد أيدي النصارى إلى أهل الإسلام في المنطقة[٤٣]. وقيل في هذه الفترة من حياة الغزالي أنه رأى في يوسف بن تاشفين الإمام الأمثل الذي طالما تمنى أن يراه، كما رأى في دولته الجديدة مدينته الفاضلة. ورُوي أنه أراد أن يذهب بنفسه إلى المغرب لملاقاته، ويرى ما كان عليه المرابطون من عدل، لكن ورد أنه ما كاد يبلغ الإسكندرية حتى علم بوفاة يوسف فعاد من حيث أتى[٤٤].

لكن الذي يظهر أن هذا الأمر مستبعد لأسباب:

- لم يُشر الغزالي لرحلته إلى مصر في شيء من كتبه[٤٥].
- لا يُعقل أن يتوجه الغزالي إلى مصر وفيها العبيديون الذين هاجمهم الغزالي هجوماً عنيفاً في مؤلفه "فضائح الباطنية".
- لو سلمنا جدلاً بأن ذلك قد حصل، فلا يمكن أن يكون ذلك سنة (٤٩٨هـ/ ١١٠٤م)، لأن موت ابن تاشفين كانت سنة (٥٠٠ هـ/١١٠٦م)، فكيف يكون نبأ موته قد بلغ الغزالي قبل سنتين من حصوله.[٤٦]
- إن جميع الروايات تؤكد أنه في هذه السنة أي ٥٠٠هـ كان الغزالي في خراسان، وعلى وجه التحديد في نيسابور للتدريس في نظاميتها، فلا يمكن إذن أن يكون الغزالي دخل مصر وبلغ الإسكندرية[٤٧].
- إن إثبات دخوله مصر والإسكندرية وقصده الركوب إلى بلاد المغرب يخالف ما رواه في كتابه المنقذ من الضلال، فهو لم يذكر سوى إقامته ببيت المقدس ودمشق، ثم حج ورجع إلى بلاده.
- ويقال أيضًا كيف قصد سلطان المغرب، وهو من ملاقاة السلاطين قد هرب، فقد كان له في بغداد الجاه الواسع، والمقام الرفيع، فترك كل ذلك متعللاً بالإعراض عن الدنيا وإيثار الخلوة وأداء مناسك الحج[٤٨].

ثم بعد ذلك توترت هذه العلاقة مع تسلّم علي بن يوسف مقاليد الحكم بعد أن بويع بإمارة المسلمين عام ٥٠٠هـ على إثر وفاة والده، فأصدر أمرًا بحرق كتاب إحياء علوم الدين[٤٩]، ويقال إن الغزالي بلغه خبر الإحراق، فتغير وجهه، ورفع يديه بالدعاء على دولة المرابطين بأن يمزق ملكها كما مزقت كتاب الإحياء، وأن يذهب دولتهم كما حرّقوه[٥٠]. وقيل إن محمد بن تومرت[٥١] حضر هذا الدعاء في مجلس الغزالي[٥٢]، وقال للغزالي: "أدع الله أن يجعل ذلك على يدي"[٥٣]. وبقيت الأمور سائرة على نفس الوتيرة على عهد تاشفين بن علي، ففي رسالته الموجهة إلى أهل بلنسية، وكانت من تدبيج الفقهاء، قال فيها: "ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة -وفقكم الله -كتب أبي حامد الغزالي، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها"[٥٤].

ثانيًا: موقف فقهاء المرابطين من الإحياء

إذا تتبعنا مواقف الفقهاء من كتاب الإحياء، نرى ونتبين أن إشكالية الإحياء قسمتهم على حسب بعض الباحثين إلى ثلاثة مجموعات، مجموعة تبنّت التحذير والإحراق، ومجموعة اكتفت بالتحذير دون الإحراق. أما المجموعة الثالثة فقد ساندت ما احتوى عليه الكتاب وأيدته. لكن الذي يظهر لي من خلال ما أسعفتنا به المصادر أن هذه المجموعة الثانية هي نفس المجموعة الأولى، فاتفقتا على الرد والمعارضة للإحياء مع زيادة واحدة منهما على الأخرى بإحراق الكتاب، وعليه ارتأيت تقسيمًا ثنائيًا، موقف سلبي معارض وموقف إيجابي مساند.

١/٢-الموقف المعارض للإحياء

كان المعارضون للإحياء الأكثر عددًا والأقوى نفوذًا[٥٥]. وما أن وقع كتاب الإحياء بيد الفقهاء في حواضر المغرب كقرطبة، ومراكش، وفاس... فقرأوه وتصفحوه؛ حتى ثارت ثائرتهم، وتنادوا لرفع الأمر لأمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين، وكان لا يخرج عن رأي الفقهاء في الأحكام، وسياسة الدولة، فاجتمعوا به وأخبروه بوجوب حرق الكتاب وإعدامه، وأفتوه بأنه: لا تجوز قراءته بحال[٥٦]. ولكي نأخذ صورة حية عن مواقفهم المناهضة لهذا الكتاب، نورد نماذج عن بعضهم:

(١/٢) ١-ابن حمدين القرطبي[٥٧]

أول مَنْ عُرف بذلك القاضي ابن حمدين القرطبي الذي كتب ردًا على الإحياء[٥٨]، قال فيه: "إن بعض من يعظ ممن كان ينتحل رسم الفقه، ثم تبرأ منه شغفا بالشرعة الغزالية، والنحلة الصوفية، أنشأ كراسة تشتمل على معنى التعصب لكتاب أبي حامد إمام بدعتهم، فأين هو من شنع مناكيره، ومضاليل أساطيره المباينة للدين؟! وزعم أن هذا من علم المعاملة المفضي إلى علم المكاشفة الواقع بهم على سر الربوبية الذي لا يسفر عن قناعه، ولا يفوز باطلاعه إلا من تمطى إليه ثبج ضلالته التي رفع لهم أعلامها، وشرع أحكامها[٥٩]. قال أبو حامد: وأدنى النصيب هذا العلم التصديق به، وأقل عقوبته أن لا يرزق المنكر منه شيئًا، فاعرض قوله على قوله، ولا يشتغل بقراءة قرآن، ولا بكتب حديث، لأن ذلك يقطعه عن الوصول إلى إدخال رأسه في كم جبته، والتدثر بكسائه، فيسمع نداء الحق، فهو يقول: ذروا ما كان السلف عليه، وبادروا ما أمركم به، ثم إن هذا القاضي أقذع، وسب، وكفر، وأسرف، نعوذ بالله من الهوى".[٦٠]

لقد كان هذا القاضي حامل مشعل الفتوى المطالبة بالإحراق بإجماع فقهاء قرطبة[٦١]، بل بالغ صاحب الحلل الموشية فيما ينقل عن ابن القطان[٦٢]، أن ابن حمدين كفّر جميع من قرأه، وعمل به[٦٣].

(١/٢) ٢-أبو بكر الطرطوشي[٦٤]

يعتبر أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشي أصالة من فقهاء المرابطين وإن رحل نحو المشرق وتوفي في الإسكندرية. وقد كانت معارضته شديدة على أبي حامد في كتاب الإحياء خصوصًا، حيث قال فيه:" وهو لعمر الله أشبه بإماتة علوم الدين..."[٦٥]. وكتب هذا الفقيه المرابطي رسالة، جوابًا عن سائل سأله من الأندلس عن حقيقة أمر مؤلف الإحياء، فكتب إلى عبد الله بن مظفر: "سلام عليك؛ فإني رأيت أبا حامد وكلَّمته، فوجدته امرءًا وافر الفهم والعقل، وممارسة العلوم، وكان ذلك معظم زمانه، ثم خالف عن طريق العلماء، ودخل في غمار العمال، ثم تصوَّف، فهجر العلوم وأهلها، ودخل في علوم الخواطر، وأرباب القلوب، ووساوس الشيطان، ثم سابها، وجعل يطعن على الفقهاء بمذاهب الفلاسفة، ورموز الحلاج، وجعل ينتحي عن الفقهاء والمتكلمين، ولقد كاد أن ينسلخ من الدين...فلما عمل كتابه الإحياء، عمد فتكلم في علوم الأحوال، ومرامز الصوفية، وكان غير أنيس بها، ولا خبير بمعرفتها، فسقط على أمِّ رأسه، فلا في علماء المسلمين قرَّ، ولا في أحوال الزاهدين استقر، ثم شحن كتابه بالكذب على رسول الله (ﷺ)، فلا أعلم كتابًا على وجه بسيط الأرض أكثر كذبًا على الرسول منه، ثم شبَّكه بمذاهب الفلاسفة ورموز الحلاج، ومعاني رسائل إخوان الصفا... ثم يسوق الكلام سوقا، يرعد فيه ويبرق، ويمني ويشوق، حتى إذا تشوفت له النفوس، قال: هذا من علم المعاملة وما وراءه من علم المكاشفة لا يجوز تسطيره في الكتب، ويقول: هذا من سر الصدر الذين نهينا عن إفشائه. وهذا فعل الباطنية وأهل الدغل والدخل في الدين يستقل الموجود ويعلق النفوس بالمفقود، وهو تشويش لعقائد القلوب، وتوهين لما عليه كلمة الجماعة، فلئن كان الرجل يعتقد ما سطره؛ لم يبعد تكفيره، وإن كان لا يعتقده، فما أقرب تضليله. وأما ما ذكرت من إحراق الكتاب؛ فلعمري إذا انتشر بين من لا معرفة له بسمومه القاتلة، خيف عليهم أن يعتقدوا إذًا صحة ما فيه؛ فكان تحريقه في معنى ما حرَّقته الصحابة من صحف المصاحف التي تخالف المصحف العثماني"[٦٦].

وقال: "وقد دخل على السّالكين ضرر عظيم من كتب هذا الرجل الطّوسي، فإنه تشبّه بالصّوفية ولم يلحق بمذاهبهم، وخلط مذاهب الفلاسفة بمذاهبهم، حتى غلط الناس فيها"[٦٧]. وقد ذكر بعض الباحثين أن أبا بكر الطرطوشي قصد الشام خصيصًا لملاقاة الغزالي ومناظرته، وتكلم عن هذا اللقاء أيضًا أحمد بن يحي الضبي، فقال: "وكان له غرض في الاجتماع مع أبي حامد الغزالي بجعل طريقه على بيت المقدس، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه حاد عنه، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده فقصد جبل لبنان..."[٦٨]. وحكي أنه اجتمع به في بلاد الشام، وقصد مناظرته، فقال له أبو حامد: "هذا شيء تركناه لصبية العراق يعني ترك المغالبة بالعلم والمفاخرة فيه"[٦٩].

(١/٢) ٣-أبو بكر بن العربي[٧٠]

ومن الذين اعترضوا على الإحياء القاضي أبو بكر بن العربي، تلميذ الغزالي، حيث وجه انتقادات لاذعة لما تضمنه الإحياء من انحرافات، حيث قال: "قد كان أبو حامد تاجًا في مهمة الليالي، وعقدًا في لبة المعالي، حتى أوغل في التصوف، وأكثر معهم التصرف، فخرج على الحقيقة، وحاد في أكثر أحواله عن الطريقة، وجاء بألفاظ لا تطاق، ومعان ليس لها مع الشريعة انتظام ولا اتساق، فكان علماء بغداد يقولون: لقد أصابت الإسلام فيه عين، فإذا ذكروه جعلوه في حيز العدم، وقرعوا عليه السن من ندم، وقاموا في التأسف عليه على قدم، فإذا لقيته رأيت رجلاً قد علا في نفسه، ابن وقته، لا يبالي بغده ولا أمسه، فواحسرتي عليه أي شخص أفسد من ذاته، وأي علم خلط وخلط فيه مفرداته، ماذا ألام من المحامد، وكم حايد عنه وحامد"[٧١]. وقال: "فأنا أجادله بالحسنى حين عجزت عن عقوبة الدنيا، وأقول: يعلم الله وتشهد كتبي ومسائلي وكلامي مع الفرق، بأني جدّ بصير بأغراض القوم ومقاصدهم، فإن معلمي (يقصد الغزالي) كان فحلاً من فحولهم وعظيمًا من عظمائهم، وتالله إني كنت محتشمًا له غير راض عنه، وقد رددت عليه فيما أمكن، واحتشمت جانبه فيما تيسّر"[٧٢].

ومن الأمور التي انتقدها عليه قوله: "ليس في قدرة الله أبدع مما كان"، معتبرًا إياها من قول الفلاسفة، فقال في شرح الأسماء الحسنى: "قال شيخنا أبو حامد قولاً عظيمًا انتقده عليه العلماء، فقال: وليس في قدرة الله أبدع من هذا العالم في الإتقان والحكمة، ولو كان في القدرة أبدع أو أحكم منه ولم يفعله، لكان ذلك منه قضاءً للجود[٧٣]، وذلك محال. ثم قال (القائل ابن العربي): والجواب أنه باعد في اعتقاد عموم القدرة ونفي النهاية عن تقدير المقدورات المتعلقة بها، ولكن في تفاصيل هذا العالم المخلوق، لا في سواه. وهذا رأي فلسفي قصدت به الفلاسفة قلب الحقائق ونسبت الإتقان إلى الحياة مثلاً، والوجود إلى السمع والبصر، حتى لا يبقى في القلوب سبيل إلى الصواب، وأجمعت الأمة على خلاف هذا الاعتقاد، وقالت عن بكرة أبيها: إن المقدورات لا نهاية لها لكل مقدر الوجود، لا لكل حاصل الوجود، إذ القدرة صالحة، ثم قال: وهذه وهلة لا لعا لها، ومزلة لا تماسك فيها، ونحن وإن كنا نقطة من بحره فإنا لا نرد عليه إلا بقوله"[٧٤]. بل إنه رد عليه في حياته أثناء تتلمذه عليه كما قال: "فاوضت يومًا الطوسي في ذكر تآليفه، فأعرض عن بعضها، ثم نظرت في كتاب "المعيار" فأعجبني فاستحسنته، وجئت إليه وعلى كمي كراسة منه، فقال لي: ما معك؟ فاستحييت ودفعته إليه فقرأه مليًا، وأنا أسارقه النظر وأرفض عرقًا، ثم رفع رأسه إليَّ وقال لي: كتاب حسن، ولكن لا تغتر بمخالفتنا فيه"[٧٥]. وقال عنه أيضًا: " شيخنا أبو حامد بلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيأهم فما استطاع"[٧٦].

(١/٢) ٤-القاضي عياض[٧٧]

وكان القاضي عياض من بين الذين طالبوا بإحراق كتب الغزالي على حد قول ابن العماد الحنبلي[٧٨]، وحذر من الإحياء، بل ومن مصنفه أيضًا، حتى قال: "والشيخ أبو حامد ذو الأنباء الشنيعة، والتصانيف العظيمة، غلا في طريقة التصوف، وتجرد لنصرة مذهبهم، وصار داعية في ذلك، وألف فيه تآليف مشهورة، أُخذ عليه فيها مواضع، وساءت به ظنون أمة، والله أعلم بسرّه، ونفذ أمر السلطان عندنا بالمغرب، وفتوى الفقهاء بإحراقها، والبعد عنها، فامتثل ذلك"[٧٩].

(١/٢) ٥-محمد بن خلف الألبيري[٨٠]

وممّنْ رد على الغزالي أبو عبد الله محمد بن خلف بن موسى الأنصاري الألبيري، في كتابه النكت والأمالي في الرد على الغزالي[٨١]. وهنا يأتي سؤال يفرض نفسه: ما سبب عدم وجود في عصرنا الحاضر ما سطره أولئك الفقهاء في الرد على الغزالي ومن نحا نهجه؟ ولم أظفر بجواب سوى ما قيل أن الأمير عبد القادر الجزائري[٨٢] قد سعى أثناء إقامته بدمشق بجمع كل كتب الردود على المتصوفة بالشراء والهبة، وطالعها كلها ثم أحرقها بالنار[٨٣].

٢/٢-الموقف المساند للإحياء

هذه المجموعة مثّلها من سماهم ابن القطان بالغزالية[٨٤] وهم المدافعون عن فكر الغزالي خاصةً في الإحياء. ومنهم:

(٢/٢) ١-ابن النحــوي[٨٥]

من بين الفقهاء الذين كان موقفهم إيجابيًا تجاه الغزالي، سلبيًا نحو المعترضين على الإحياء أبو الفضل ابن النحوي، الذي انتصر للغزالي وكتب رسالة إلى أمير المسلمين في ذلك[٨٦]، يعرّفه بالشيخ الغزالي وبعلو مقامه[٨٧]، فكان بذلك أكثر الفقهاء جرأة في التعبير عن موقف الاستنكار الذي عمّ صوفية العدوتين[٨٨]. ومن أقواله في الإحياء: "وددت أني لم أنظر في عمري سوى كتاب الإحياء"[٨٩]. وتحدث أحد تلامذته عن

الإحياء وما قوبل به في فاس، وعن معارضة عالمها أبي الفضل ابن النحوي لمصادرة الكتاب وإعدامه؛ فقال: "لما وصل إلى فاس كتاب أمير المسلمين علي بن يوسف بالتحريج على كتاب الإحياء، وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة إن كتاب الإحياء ليس عندهم، ذهبتُ إلى أبي الفضل أستفتيه في تلك الأيمان؛ فأفتاني بأنها لا تلزم. وكانت إلى جنبه أسفار؛ فقال لي: هذه الأسفار من كتاب الإحياء، وددت أني لم أنظر في عمري سواها. وكان أبو الفضل قد انتسخ كتاب الإحياء في ثلاثين جزءًا؛ فإذا دخل شهر رمضان؛ قرأ في كل يوم جزءًا"[٩٠].

كما أنه استفتي من طرف فقهاء تلمسان حول قضية إحراق الإحياء، ففضل الإحجام عن مناقشة الاعتراضات التي أثيرت حول الإحياء، واكتفى بطمأنة المستفتين بصواب أبي حامد وفضله، والتأكيد على خطأ المنكرين عليه وقصورهم في فهم مقاصد الكتاب[٩١]. ويذهب بعض الباحثين إل أن الرسالة التي وجهها هؤلاء الفقهاء لم يكن هدفهم منها معرفيا صرفا يجيب عن حيرة أمام مشاكل الإحياء، بقدر ما كان استنكارًا لما حل بهذا الكتاب في بعض بلاد المغرب، واستنصارًا بفقهاء آخرين لمقاومة التيار الجارف المضاد للتصوف في الغرب الإسلامي[٩٢].

(٢/٢) ٢-أبو الحسن علي ابن حرزهم[٩٣]

يحكي علي ابن حرزهم أنه قد اعتكف على قراءة الإحياء لمدة عام، فجرد المسائل التي انتقدت عليه، وعزم على حرق الكتاب. فلما نام رأى أنه ضُرب ثمانين سوطًا حد الفرية على كتاب الغزالي. فتاب حسب زعمه إلى الله مما انتقد به الإحياء، ثم تأمل تلك المسائل فوجدها موافقة للكتاب والسنة[٩٤]. وفي سياق آخر، أن أبا الحسن بن حرزهم كان قد بالغ في الإنكار على كتاب الإحياء، وكان مطاعًا مسموع الكلمة فأمر بجمع ما ظفر به من نسخ الإحياء، وهمّ بإحراقها في الجامع يوم الجمعة، فرأى ليلة تلك الجمعة كأنه دخل الجامع فإذا هو بالنبي (ﷺ) فيه، مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، والغزالي قائم بين يدي النبي وبيده الإحياء، فلما أقبل ابن حرزهم، قال الغزالي: "هذا خصمي يا رسول الله، انظر فيه فإن كان بدعة مخالفًا لسنتك كما زعم تبت إلى الله تعالى، وإن كان شيئًا تستحسنه، حصل من بركتك، فأنصفني من خصمي". ثم ناوله النبي (ﷺ)، فنظر فيه ورقة، ورقة، فأثنى عليه وقال: "والله إن هذا لشيء حسن". ثم أبو بكر وعمر ففعلا ذلك. فأمر به النبي (ﷺ)، فجُرد من الثياب (يعني أبو الحسن بن حرزهم) وضُرب حد المفتري، ثم بعد خمسة أسواط شفع فيه الصدّيق... فقام ابن حرزهم من النوم وأثر السياط في جسده وأعلم أصحابه، وتاب إلى الله واستغفر من الإنكار على الإحياء، وصار يعظم الإحياء ويبجله[٩٥].

(٢/٢) ٣-أبو محمد عبد الله المليجي[٩٦]

كان هذا الرجل الصوفي يسأل عن الذين أفتوا بإحراق الإحياء. فكان كلما سُميّ له واحد منهم دعا عليه، ثم قال: "والله لا أفلح هؤلاء الأشقياء"، فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء[٩٧].

(٢/٢) ٤-أبو الحسين البرجي علي بن محمد بن عبد الله الجذامي[٩٨]

استفتي أبو الحسين البرجي في إحراق ابن حمدين كتب أبي حامد الغزالي، فأفتى بتأديب محرقها وتضمينه قيمتها[٩٩]، لأنها مال مسلم، وقيل له: "أتكتب بما قلته خط يدك". قال: "سبحان الله كبر مقتًا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون"، ثم كتب السؤال في النازلة وكتب فتياه بعقبه.[١٠٠]

(٢/٢) ٥-ابن قسي[١٠١]

هو زعيم المريدين بغرب الأندلس، ومن الذين عُرفوا بنفوذهم على المنطقة. اتخذ من مؤلفات الغزالي وخاصة إحياء علوم الدين واجهة إيديولوجية وورقة سياسية كان يلعب بها ضد خصومه المرابطين، يقول ابن الأبار في هذا الصدد: "وأقبل على قراءة كتب أبي حامد الغزالي في الظاهر، وهو يستجلب أهل هذا الشأن محرضا على الفتنة وداعيًا إلى الثورة في الباطن، وقد استغل ابن قسي مسألة فتوى الفقهاء المرابطين بإحراق كتب الغزالي، فادعى أنه المهدي، وتسمى بالإمام"[١٠٢]، حيث كان ينظم لأتباعه دروسًا يشرح فيها أفكار الغزالي ويدافع عنها، ثم يرتب مع خاصة أتباعه الثورة على المرابطين. اتسمت جماعة المريدين هذه، التي يتزعمها ابن قسي، بكونها طائفة دينية أو فرقة صوفية، في الظاهر، وأداة سياسية في الباطن، استخدمها في تحقيق مطامعه للوصول إلى الحكم. وفعلاً، قاد ابن قسي مريديه مدة طويلة في الثورة، سواء ضد المرابطين، أو ضد الموحدين وقد بقيت هذه الحركة قائمة حتى قتله عبد الله بن سليمان زمن الموحدين، والتي انتهت معها حركة المريدين بالأندلس[١٠٣].

وما يمكن استخلاصه مما سبق أن الدفاع عن الإحياء من قبل هؤلاء المتصوفة كان غالبًا دفاعًا عاطفيًا يستعين بالدعاء على الفقهاء، والأحلام، والرؤى،

والحكايات، كمنام أبي الحسن المعروف بابن حرزهم المذكور أعلاه، في حين كانت معارضة الفقهاء تستخدم النقد والموضوعية.

ثالثًا: موقف السلطة

استطاع القاضي ابن حمدين وغيره من الفقهاء إقناع علي بن يوسف بضرورة التخلص من نسخ الإحياء وحرقها، خاصةً وأن هذا الفقيه كان جد مقرّب ومحبّب للمرابطين، وبلغ عندهم منزلة عظيمة، بحيث ذكر ابن القطان أنه عند وفاته "حزن الناس عليه، وكان محببًا لهم وللملثّمين (يعني المرابطين)، وكان قد حاز في المكانة لديهم مالم يحزه غيره ممن سلف، وكان جميل الطريقة ساعيًا في كل خير، قطع الضرائب والمعاون على أهل قرطبة، وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة، لأن ابن تاشفين كان لا يخالفه في شيء"[١٠٤]. إذن اقتنعت السلطة المرابطية بفتاوى الفقهاء، فأمر علي بن يوسف بإحراق الكتاب، فأُحرق أولا في قرطبة[١٠٥]، حيث جُمعت نسخُه ووُضعت على الباب الغربي من جامع قرطبة، وأُشبعت زيتًا كي يسهُلَ حرقُها بحضور علماء قرطبة وأعيانها[١٠٦]، ثم أحرق في كافة بلاد المغرب وبلاد الأندلس[١٠٧].

يقول ابن القطان في هذا الشأن: "في أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم علي بن يوسف -عن إجماع قاضي قرطبة أبي عبد الله محمد بن علي بن حمدين وفقهائها - على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي رحمه الله تعالى المسمى بالإحياء، فأُحرق في رحبة مسجدها على الباب الغربي على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتًا. وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرًا بإحراقه حيثما وجد، وأخذت منه نسخ من أيدي أصحابها كان مُعوَّل الغزالية عليها، منها كتاب ميمون بن ياسين[١٠٨] توعَّده علي بن يوسف على إحضاره، فأحضره له. وفقد الكتاب المذكور، ومنها كتاب ابن العربي حمله مع نفسه إلى الجزيرة الخضراء، ثم أمر بحلّه في الماء، فَحُلَّ معظمه، وفقد سائره، وتوالى الإحراق على ما اشتري منه ببلاد المغرب بقية ذلك العام"[١٠٩].

ثم صدرت الأوامر السلطانية بمنع دخول جميع كتب الغزالي للمغرب والأندلس، وإنزال أشد العقوبات بمن وجد عنده شيء منها، وذلك حسب شهادة عبد الواحد المراكشي، والتي يُفهم من سياقها أيضًا أن الإحراق عمَّ جل كتب الغزالي وليس فقط كتاب الإحياء: "ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي -رحمه الله -المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدم بالوعيد الشديد، من سفك الدم واستئصال المال، إلى من وجد عنده شيء منها.

واشتد الأمر في ذلك"[١١٠]. ومع أن المراكشي يتحدث عن إحراق كتب الغزالي بصيغة الجمع، إلا أن الثابت أن كتاب الإحياء هو الذي أُحرق فقط[١١١].

وفي السياق نفسه، نُدرج أيضًا ما جاء في ثنايا رسالة ابنه بعده الأمير تاشفين بن علي[١١٢]، حيث أصدر أمرَه إلى جميع الأقاليم بمصادرة الكتاب وإحراقه، وأمر بتفتيش المكتبات وبعث منشورًا جاء فيه: "ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة، وخاصة -وفقكم الله -كتب أبي حامد الغزالي، فليتتبع أثرها، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها، ويبحث عليها، وتغلظ الأيمان على من يتهم بكتمانها"[١١٣]. والذي يتبين من خلال هذه النصوص أن الموقف الرسمي كان يساند ويعاضد إحراق كتاب الإحياء.

رابعًا: أسباب إحراق كتاب الإحياء

بعد كل هذا العرض يأتي السؤال الذي يفرض نفسه، وهو كيف تسنى للمرابطين أن يعمدوا إلى إحراق كتاب الإحياء؟ أو ماهي الأسباب الحقيقية لإحراق الإحياء؟

هناك اختلافات بين المصادر والدراسات المعاصرة حول أسباب ودوافع إحراق كتاب الغزالي، يمكن إرجاعها عموما إما إلى مخالفة العقيدة الإسلامية الصحيحة في بعض المسائل، أو التعلّق بما حواه "الإحياء" من علم الكلام والأحاديث الضعيفة والموضوعة بالإضافة إلى بعده الصوفي وغير ذلك. أو هناك أهداف سياسية ومبررات اجتماعية على ما بينا آنفا، تمثلت فيما تضمنه إحياء الغزالي من أفكار إصلاحية قد تمس مصالح جهة معينة، أو تحدث خلخلة في البنيان الاجتماعي والسياسي للمرابطين[١١٤].

٤/١-في المصادر

نستخلص من كلام ابن القطان السالف الذكر في نظم الجمان؛ وهو أقدم مصدر تاريخي تكلم عن حادثة إحراق الإحياء؛ أن عليًا بن يوسف هو الذي أمر بحرق الإحياء مع عدم ذكر المبرر أو سبب الإحراق، وسلك ابن عذاري نفس المسلك[١١٥]، لكن صاحب الحلل الموشية يقول بأن الفقهاء "تكلموا فيه وأنكروا فيه أشياء"[١١٦]، دون أن يحدد أو يوضح طبيعة هذه الأشياء.

وعلى المستوى الديني، يشير المؤرخ عبد الواحد المراكشي إلى أن السبب يرجع ربما إلى تقبيح الفقهاء لعلم الكلام، وذلك بقوله: "... ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم الفروع - أعني فروع مذهب مالك - فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعمل بمقتضاها، ونبذ ما سواها ... ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل من ظهر منه الخوض في شيء

من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم من ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدى أكثره إلى اختلال العقائد ... حتى استحكم في نفسه (أي عليا ابن يوسف) بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعد من وجد عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي-رحمه الله - المغرب، أمر أمير المسلمين بإحراقها".[١١٧]

أما ابن الأحمر فيذهب إلى أن سبب إحراق الإحياء ومعارضة الفقهاء له، لما تضمنه من الأحاديث الموضوعة، حيث يقول: "... وزعم بعضهم أن سبب انقراض دولة لمتونة هو دعوة أبي حامد الغزالي عليهم، وذلك أنه لما ألف كتابه المسمى الإحياء وجه به إلى جامع قرطبة، فلما وصلها تكلم فيه فقهاء قرطبة لما فيه من الأحاديث الموضوعة التي لا أصل لها، وقالوا هذا الكتاب يضر بالمسلمين، الصواب إحراقه. فاتفق علماء قرطبة على إحراقه، فأحرقوه بقرطبة، وأما قاضيها ابن حمدين فقال بكفر مؤلفه، ثم كتب علماء قرطبة إلى علي بن يوسف يأمرونه بأن يأمر بإحراقه في جميع بلاد الأندلس والمغرب، فلما بلغه كتاب علماء قرطبة واتفاقهم على إحراق كتاب الإحياء للغزالي أمر بحرقه فحُرق في كافة بلاد المغرب وبلاد الأندلس".[١١٨]

٢/٤-في المراجع

أشرنا سابقًا إلى وجود اختلاف في الدراسات حول حقيقة الأسباب والدوافع الكامنة وراء إحراق الإحياء، وإن كانت المصادر -كما أسلفنا -قد حصرت هذه الأسباب في مخالفة العقيدة الإسلامية أو خوض الكتاب في علم الكلام واشتماله على أحاديث باطلة وضعيفة، فإن أصحاب المراجع والدراسات المعاصرة قد توسعوا أكثر في إيراد أسباب الإحراق. ويمكن إجمالها في العناصر التالية:

(٢/٤) ١-أسباب سياسية:

تمثلت في تحذير الإحياء من اتخاذ الفقه والعلم مطية لنيل حطام الدنيا، فكان الكتاب بمثابة دفاع عن الرعية في وجه الفقهاء الذين استبدوا بالمناصب والنفوذ واقتسموا الأموال باستغلالهم للوظائف الدينية[١١٩]، وربما وعى الفقهاء خطورة أفكار الإحياء وآرائه الإصلاحية، والتي قد تهدّد مصالحهم، بل ربما تهدد النظام المرابطي برمته،[١٢٠] فكان أن عارضوه بشدة خوفا على امتيازاتهم[١٢١]، في الوقت الذي لقي فيه ترحابًا من طرف العامة[١٢٢]. وسنلخص كلام الباحثين لهذه الأسباب السياسية في نقاط:

- موقف الفقهاء من تحريم الغزالي لغشيان أبواب السلاطين والدخول عليهم[١٢٣]. وقبول وأخذ أعطيات السلاطين[١٢٤].
- موقف الفقهاء من تحريم الغزالي لجميع أنواع الضرائب غير الشرعية على المسلمين[١٢٥]. حيث وقع الخلط من طرف المرابطين بين الموارد الشرعية والموارد غير الشرعية، في مسألة تحصيل الزكوات وجباية الضرائب من المسلمين[١٢٦].
- الطعن والتجريح في الفقهاء[١٢٧]، الذين كانوا انتهازيين لتملك الدنيا وكثرت لذلك أموالهم[١٢٨].

(٢/٤) ٢-أسباب عقائدية:

تتجلى في الانحرافات العقدية والبدع المخالفة لتعاليم الإسلام[١٢٩] مثل الخزعبلات والشطحات الصوفية، فضلاً عنما يحويه الكتاب من فلسفة وعلم الكلام المؤديان للمضرة بعقائد عوام الأمة، مع أن سياسة المرابطين كانت ترمي إلى توحيد العقيدة:

- والسبب الذي حملهم على ذلك الإحراق أنهم كانوا على السنّة، وعلى طريقة الإمام مالك في الأصول والفروع، فلما وصلهم الإحياء قرأوا فيه آراء المتكلمين، وفلسفتهم عن الإلهيات والنبوات، من مذاهب الأشاعرة والماتريدية والمعتزلة، فرأوها تأويلاً مخرجًا لنصوص القرآن ونصوص الحديث عن معانيها، معطلاً لما جاء فيها[١٣٠].
- حفظ وحدة المغرب الدينية، فما أمر به هؤلاء العلماء ممَنْ أفتى بإحراق الإحياء[١٣١]، اعتقادًا منهم أنه يحوي المضرة على عقائد عوام الأمة، فأرادوا حماية عقول العامة من الفساد العقدي[١٣٢]. وكان ذلك من قبيل الديانة لا العصبية والهوى[١٣٣].
- احتواء الإحياء على أصول بدع التصوف وغيرها[١٣٤]. وحشو الكتاب بمواد فاسدة من آراء المتكلمين والفلسفة ومذاهب الصوفية الفلسفية[١٣٥]. حيث تبنّى الكتاب فلسفةَ الكشف[١٣٦] والإشراق الصوفي[١٣٧]. وهذا الكشف الصوفي يُعرض عليه حتى القرآن والسنة فما وافق الكشف قُبل وما خالفه رُفض[١٣٨].
- إن غالب العقل الشرقي قبِل فكر الغزالي، فلأن المسلمين هناك كانوا فرقاً متعددة غزتهم كثير من التيارات الدخيلة فمزقت وحدتهم الدينية

والسياسية حتى أصبحوا فريسة للصليبيين، أما المغاربة فحافظوا على وحدة مذهبهم الديني في ظل وحدة سياسية متينة[١٣٩].

- مخالفات أخرى مثل: تفضيل سماع الغناء على سماع القرآن[١٤٠]. وأن طلب علم الحديث هو من الركون إلى الدنيا[١٤١]. واعتبار أن مرتبة الفقيه أقل من مرتبة المتصوف[١٤٢].

(٢/٤) ٣-أسباب فقهية:

- حرب فقهية مالكية من المرابطين على فقهاء الشافعية[١٤٣].
- اعتبار الغزالي من أهل الرأي[١٤٤].
- استشهاده بما في الكتب السابقة المحرفة كالإنجيل مثلا[١٤٥]، والتي يصعب معرفة صحيحها من سقيمها، وقد ذهب جمهور العلماء إلى أنها لا تصدق ولا تكذب.
- موقف الفقهاء من تحريم الغزالي من استعمال الكافر[١٤٦].
- عكوف فقهاء المرابطين على الفروع دون الأصول[١٤٧].
- إهمال باب الجهاد في الإحياء[١٤٨].

(٢/٤) ٤-أسباب حديثية:

تضمن الكتاب أحاديث موضوعة[١٤٩]، فيها الكذب على رسول الله[١٥٠]، وهذا راجع لعدم معرفة الغزالي بعلم الحديث[١٥١]. وقد أخبر الغزالي بذلك عن نفسه حيث قال: "وبضاعتي في الحديث مزجاة"[١٥٢]، وقد أحصى بعض الباحثين ٤٢٥٢ حديثًا ما بين ضعيف وموضوع، معتمدًا فقط في ذلك على تخريج أبي الفضل العراقي ومرتضى الزبيدي والسبكي[١٥٣]. ومن خلال استنطاق كتاب الإحياء، وإيراد أقوال العلماء المذكورة آنفا، وكذلك جمع ما أمكن جمعه من المصادر وكلام الباحثين والدارسين حول الأسباب المشار إليها أعلاه، يحسُن بنا أن ندلي برأيي في القضية، فنقول أولاً:

لقد كالت الحملة الموحدية عددًا من التهم للمرابطين تدل على تحامل وحقد، وارتكز بعض الباحثين عليها ممَّنْ جاء بعدهم خاصة المستشرقين[١٥٤]. ومن المعلوم أن دولة المرابطين قد اتسعت لكثير من ضروب المعرفة، فلماذا ضاقت ذرعًا بكتاب الإحياء وحده دون غيره من أنواع المعرفة الأخرى؟ حتما لأن تلك المعارف على تشعّبها لم تكن تشكل أي خطر على الاتجاه العام للدعوة المرابطية، بل هي معارف تقبّلها الناس وينبغي تعلمها ومعرفتها، على عكس ما سطره الغزالي في كتابه الإحياء بحيث انتُقدت عليه مسائل كثيرة رآها منتقدوه مخالفة لصميم الدين[١٥٥].

ولا تَعْدُ هذه التهم أن تكون ثلاثة قضايا:

- **الأولى**: دعاوى باطلة مثل التجسيم[١٥٦] لأن المرابطين كانوا يثبتون صفات رب العالمين دون تشبيه أو تكييف، وكذلك تهمة الحجر الفكري التي تلقّفها المستشرقون عن الموحدين. وفيما يبدو أن هدف الفقهاء كان نبيلاً وهو محاولةٌ لضمان عقائد الرعية من الانحرافات، وحفظ هذه العقيدة التي كان عليها أئمة المالكية من الزيغ (لا إسلام إلا إسلام السلف كما حافظ عليه مالك وأصحابه). وإذا كان إحراق الإحياء يُعدُّ تزمتًا وتعصبًا، فماذا يكون إحراق كتب المالكية من طرف الموحدين كمدونة سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادر ابن أبي زيد ومختصره، وكتاب التهذيب للبراذعي، وواضحة ابن حبيب، حتى كان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار[١٥٧]، مع أن الموحدين لم يوصفوا بما وُصف به المرابطون، بل وُصف عهدهم بالازدهار الفكري والنهضة العلمية.

على أنه يقال إن حادثة إحراق الإحياء اتخذت أكثر من حجمها، وندّد بها العديد من المؤلفين رغم أنها مسألة عادية أَلِفها الأندلسيون من قبل ومن بعد[١٥٨]. بل وُجدت أمثالها في العالم الإسلامي منذ عصر النبوة، فإن عمر بن الخطاب أتى النبي (ﷺ) بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه على النبي (ﷺ) فغضب، وقال: "أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب، والذي نفسي بيده، لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى (عليه السلام) كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني"[١٥٩]، وفيه أن عمر بن الخطاب ألقى بالكتاب في التنّور[١٦٠] لما غضب الرسول(ﷺ)[١٦١].

وقد حرّق كذلك الصحابة جميع المصاحف المخالفة لمصحف عثمان لما خافوا على الأمة من الاختلاف[١٦٢]. وقد أفتى العلماء بوجوب حرق كتب البدعة قياسا على ما فعله عثمان، فكان المنصور ابن أبي عامر[١٦٣]في الأندلس قبل عهد المرابطين قد قام بإحراق جميع الكتب الخاصة بالفلسفة واعتبروها خطرًا يهدد عقيدتهم. وظل بغضهم للفلسفة شديدًا حتى عهد المرابطين بالمغرب[١٦٤]، وقد نقل الشوكاني عن جماعة

من أهل العلم؛ منهم البلقيني، وابن حجر، وابن عرفة، وابن خلدون قولهم: "حكم هذه الكتب المتضمنة لتلك العقائد المضلة، وما يوجد من نسخها بأيدي الناس؛ مثل "الفصوص"، و "الفتوحات" لابن عربي، و"البدّ" لابن سبعين، و"خلع النعلين" لابن قسي، و"على اليقين" لابن برخان، وما أجدر الكثير من شعر ابن الفارض والعفيف التلمساني وأمثالها أن يلحق بهذه الكتب، وكذا شرح ابن الفرغاني للقصيدة التائية من نظم ابن الفارض؛ فالحكم في هذه الكتب كلها، وأمثالها إذهاب أعيانها متى وُجدت بالحريق بالنار والغسل بالماء"[١٦٥].

- **الثانية**: القصص المختلقة كدعوة الغزالي على المرابطين بزوال ملكهم وكان ذلك بحضور ابن تومرت فزال بذلك ملكهم، وقد بينا سابقًا عدم ثبوت القصة ولقاء الغزالي مع ابن تومرت.

- **الثالثة**: قضايا أخرى لا تخرج عن كونها من مسائل الفقه الإسلامي مما هو مختلف فيه بين أصحاب المذاهب. كتهمة كشف وجه المرأة المرابطية وتشبهها بالرجال[١٦٦]، وفرض الضرائب عند الضرورة.

فالمرابطون كانوا على مذهب مالك في الفتوى، والذي عليه العمل في المذهب أن المرأة عورة ما عدا وجهها وكفيها[١٦٧]، ولم يقل أحد من المسلمين أن سفور المرأة تشبه بالرجال سوى ابن تومرت[١٦٨]. أما قضية سنّ الضرائب، فقد اضطر العمال المرابطون إلى اتخاذها في ظروف صعبة ينضب معها بيت المال، كالظروف الحربية في الجهاد وغيره، حيث لم يجدوا بدّا من اللجوء إلى سن بعض الضرائب الإضافية[١٦٩]، لتغطية العجز المذكور. ولعل هذا الأمر -في رأيي-هو من باب الضرورات التي تبيح المحظورات (إذا ما اتخذ في ظروف استثنائية)؛ ولكنه لا يعني في كل الأحوال تساهلا من المرابطين في أمور الدين أو تليينا للمواقف كما حاول أن يوهمنا بذلك جورج مارسيه[١٧٠].

أما جعْلُ سبب الإحراق هو اعتناء الفقهاء بالفروع دون الأصول، أو الحرب المذهبية المالكية على الشافعية وغيرها من المذاهب الأخرى، فهي مجرد دعاوى عارية عن الدليل، فمصادر تراجم الفقهاء وأهل العلم في الفترة المدروسة تأبى ذلك، بل هي تنضح برعاية هؤلاء الفقهاء بالقرآن والحديث النبوي، ويكفي في ذلك الرجوع لكتب التراجم. كما لا يوجد فيما أسعفتنا به المصادر معلومات أو حتى إشارات إلى هذه الحرب المذكورة أعلاه من طرف المرابطين.

نعم، لقد التزم المرابطون في الفتوى بمذهب الإمام مالك كما كان عليه المغاربة والأندلسيون قبل وجود المرابطين، ولم يأت هؤلاء بدين جديد، وإنما واصلوا فيما وجدوا عليه المغاربة من قبل، بل يُقال في استحالة هذا السبب؛ ألم يكن متصوفة المغرب الإسلامي الذين عارضوا إحراق الإحياء على مذهب مالك، هل كانوا شافعية؛ كما كان الغزالي؛ حتى يساندوا مضامين الإحياء؟

من التهم كذلك التي رُمي بها المرابطون، مسألة استعمال الكافر من طرف المسلم[١٧١]، وهذه أيضًا من المسائل الفقهية الخلافية، فقد ثبت أن الرسول (ﷺ) استأجرَ في الهجرةِ رَجُلاً مشركًا، يُقال له: عبدُ الله بن أُريقط ليدلَّه على الطريق مِن مكَّة إلى المدينة[١٧٢]، فدلّ ذلك على جواز استعمال الكافر في بعض أعمال المسلمين بشروطٍ محلُ بسطِها في الكتب الفقهية، فهل يُقال في جناب رسول الإسلام أن هذا تجاهلٌ كما قيل في حق المرابطين؟

لقد امتازت الدولة المرابطية عما قبلها بالوحدة الدينية و السياسية و إعلاء الجهاد ضد النصارى، فكان الدعم من الغزالي بفتواه على عهد يوسف بن تاشفين، بَيْد أن هذه الروح التي كان عليها الغزالي في هذا الوقت تغيرت فيما بعد بتغيره وتقلّبه بسبب أزمته النفسية[١٧٣] وتقلبه بين مذاهب الفرق الإسلامية الأربعة التي مر بها في أطوار حياته[١٧٤]، وألف كتابه الإحياء في مرحلة تصوفه حاثّا على العزلة والخلوة والتصوف[١٧٥]، فما كان للمرابطين أن يقبلوا هذه الروح الانهزامية[١٧٦] في وقت يتنافى مع ما كانت تتطلبه المرحلة التي يجتازها العالم الإسلامي آنذاك من تجنّد ورباط وجهاد ضد الحملات الصليبية، فمن الانتقادات التي وُجهت له سلبيته تجاه الأحداث الكبيرة والكوارث العظيمة التي مرت بالمسلمين في زمانه مثل احتلال الصليبيين لعدد من بلاد الإسلام ولاسيما بيت المقدس، فقد كان الغزو الصليبي لأنطاكية سنة ٤٩١هـ، ودخولهم القدس سنة ٤٩٥هـ، ووصلت الأخبار بذلك إلى بغداد، وكان الغزالي - في الأغلب - هناك وقتئذ، ولم يُبْدِ حِراكًا، ولم يحرض على قتالهم مع أن القدس بقيت تحت وطأتهم لمدة أحد عشر عامًا[١٧٧]. و بينما كان بطرس الناسك يقضي ليله ونهاره، في إعداد الخطب وتحبير الرسائل، لحث أهل أوروبا على امتلاك أقطار المسلمين، كان الغزالي غارقًا في خلوته، منكبًا على أوراقه، لا يعرف ما يجب عليه من الدعوة والجهاد[١٧٨]. وقد بين أحد الباحثين أن سكوت الغزالي كان لسببين؛

المعاناة من مرضه النفسي، وكذلك موقف المتصوفة السكوتي من الحرب الصليبية. هذا الموقف الذي شاركهم فيه الغزالي لاعتقادهم أن هذه الحرب عقوبة من الله على المسلمين بسبب الذنوب والمعاصي[١٧٩].

إن الفقهاء عارضوا الإحياء لما احتوى عليه من مخالفات شرعية لا غير، بدليل أن ما في داخل الإحياء هو الذي يفسر فتواهم، فمن خلال الاطلاع على مضامين الكتاب، تتبين بعض الأقوال والآراء التي أقل ما يقال عنها أنه يصعُب تقبُّلها من طرف الإنسان العاقل فضلاً عن الباحث المؤرخ مهما كان تأويلها. من ذلك مثلاً ما رواه الغزالي أن "أبا تراب التخشبي كان معجبًا ببعض المريدين فكان يدنيه ويقوم بمصالحه، والمريد مشغولٌ بعبادته ومواجدته، فقال له أبو تراب يومًا: "لو رأيت أبا يزيد؟"، فقال: "إني عنه مشغول"، فلما أكثر عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد، هاج وجد المريد فقال: "ويحك ما أصنع بأبي يزيد، قد رأيت الله تعالى فأغناني عن أبي يزيد"، قال أبو تراب: "فهاج طبعي ولم أملك نفسي، فقلت: "ويلك تغتر بالله عز وجل، لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة!"[١٨٠]. وسأكتفي بهذا المثال، فلسنا بصدد تعداد وتتبّع ما في الكتاب من مخالفات وأحاديث باطلة، لخروجه أولاً عن مجال بحثنا، وثانيًا لو استقصينا كل ما عورض به الكتاب لطال حجم الدراسة.

على أنه يقال إن انتقادات علماء المشرق وافقت انتقادات علماء المغرب[١٨١]، وقد مر معنا آنفًا نقل ابن العربي عن علماء بغداد أنهم كانوا يقولون: "لقد أصابت الإسلام فيه عين (يعني الغزالي)، فإذا ذكروه جعلوه في حيز العدم، وقرعوا عليه السن من ندم، وقاموا في التأسف عليه على قدم"[١٨٢]، ولم تقتصر معارضة الإحياء من بعض فقهاء المغرب الإسلامي فقط، بل عمت العالم الإسلامي كله واستمرت على مر العصور[١٨٣]. وحقيقةً، لم يُعلم في شيء من المصادر المتاحة أن الإحياء أُحرق وقتئذ بالمشرق وإنما انتُقد فقط، وذلك في نظري كان راجعًا إلى أن غالب حكام دول المشرق لم يكونوا على عقيدة المرابطين السلفية الموحدة، بل كانوا يتبنّون كثيرا من الآراء الصوفية الغزالية أو الأشعرية أو غير ذلك بسبب الفرقة المذهبية القائمة آنذاك، كنظام الملْك الوزير السلجوقي الصوفي الأشعري[١٨٤]، فكيف يُعارِض الإحياء أو يُحرق وهو يحمل أفكارهم ومعتقداتهم. ويقابل ذلك أن هؤلاء الناقدون المشارقة لم تكن لهم مكانة رسمية في دولهم حتى يقوموا بإحراق الكتاب، ولا يخفى أن عمليةً كهذه -أقصدُ الإحراق -هي في ظني من صلاحيات الحاكم لا العالم، فالفقيه يُفتي والحاكم إما أن يطبق أو يرفض.

وإذا كان هؤلاء الفقهاء المشار إليهم هذا حالُهم -أقصد لم تكن لهم دول بالمشرق ولا الحظوة عند السلاطين كما كان الحال في المغرب-ومع ذلك عارضوا وانتقدوا الإحياء، فهل يُفهم أيضًا أنهم فقهاء سلاطين، وعلماء رسوم، وأنهم كانوا انتهازيين لتملك الدنيا، وأن الإحياء هدد مصالحهم فعارضوه كما هدد مصالح فقهاء المغرب، وغير ذلك من التهم المُلصقة بفقهاء المغرب التي لا تثبت أمام النقد التاريخي، بدعوى أنهم كثرت أموالهم وقوي نفوذهم. بل إن الغزالي "رحمه الله" عندما مات ترك دارًا حسنة وبستانًا أنيقًا[١٨٥]، فهل يُتهَم هو الآخر أنه انتهازي، وأنه تملّك الدنيا، أفلم يُهدّد الإحياء مصالحه هو الآخر!؟

لقد شكك بعض الباحثين -كما أشرنا آنفًا -في أن سبب إحراق الإحياء كان بسبب بعده الصوفي بالأساس، بدعوى أن المرابطين أنفسهم نحوا منحى تصوفيًا، فيوسف كان متقشّفا في مأكله ومشربه، زاهدًا في الدنيا، لباسه الصوف لم يلبس قط غيره[١٨٦]. وكان ابنه من الزهاد والمتبتلين أقرب منه إلى أن يُعد من الملوك والمتغلبين[١٨٧]. بل إنه كتب كتابًا لأحد المتصوفة يلتمس منه الدعاء[١٨٨]. ووُصف ابنه تاشفين بن علي بأنه كان يسلك طريق ناموس الشريعة ويميل إلى طريقة المستقيمين وقراءة كتب المريدين[١٨٩]. وكان القاضي ابن العربي له نسخة من كتاب الإحياء قبل الأمر بإحراقه[١٩٠]. كما أن القاضي عياض تمنى لو اختُصر الكتاب[١٩١].

ونرى أن هذه الاستدلالات لا إشكال فيها:

أولاً: لأن مبنى خطأ الباحثين فيها، هو عدم التفريق بين تصوف بعض المرابطين وبين تصوف الغزالية، فتصوف فقهاء وأمراء المرابطين كان من قبيل التصوف البسيط الذي يقابل الزهد والورع، أما تصوف الغزالي ومن تبعه فهو تصوف فلسفي إشراقي. ومن بين الأدلة على ذلك أن يوسف بن الزيات التادلي[١٩٢] صاحب كتاب "التشوف إلى رجال التصوف" لم يترجم للقاضي عياض في هذا الكتاب المذكور، مع أن زهد وورع هذا الأخير انتشر في الآفاق، وهذا دليلٌ آخر على تحامل الموحدين على المرابطين.

ثانيًا: أن القاضيان ابن العربي وعياض وغيرهما من فقهاء المرابطين، كان لهم عِلمٌ يفرّقون به بين الحق والباطل الموجودين في الإحياء، فيمكن لهم قراءة هذا الكتاب مع طرح المخالفات والانحرافات، وأخذ ما يمكن أخذه، وقد بينّا سابقًا أن الإحياء قد أُحرق خوفًا من مضرته على عوام الرعيّة، لا على العلماء. ومن المعلوم أيضًا أنه ليس كل ما جاء في الإحياء فهو مذموم، وحسبنا دليلاً على ذلك ما قاله القاضي عياض لما تمنّى أن يُختصر الكتاب: "لو اختُصر هذا الكتاب، واقتُصر على ما فيه من خالص العلم لكان كتابا مفيدا"[١٩٣].

وقبيل فراغي من هذا البحث، وقعت بين يدي مذكرة ماجستير بعنوان أثر كتاب الإحياء للإمام الغزالي في مجتمع الغرب الإسلامي، حكم فيها الباحث على طريقة تصدي المرابطين في الرد على المخالف - ويقصد بها كتاب الإحياء -أنها من منهج العوام، وفيها ابتعاد عن المنهج العلمي الذي يعتمد الحجة والبرهان وأضاف بأن ذلك حتمًا منهج خاطئ[١٩٤]. لكن هذا الحكم يعارض بعدة أمور:

- إن عملية الإحراق هي شبيهة اليوم بعملية مصادرة كتاب تراه الدولة مضرًا بمصالحها، وقد منع الاتحاد السوفياتي سابقًا عددًا من الكتب أن تدخل بلاده، ونرى في كثير من الدول أن الكتاب الفلاني ممنوع، وفي السبعينيات من القرن الماضي طلعت الصحف تحمل نبأ إحراق أعداد هائلة من الكتب الاشتراكية في ساحات عمومية بالأرجنتين[١٩٥].

- إن مصادرة كتب التيارات المعارضة كانت وما تزال وستبقى، ودليل ذلك هو الرقابة الموجودة اليوم في معظم دول العالم حول ما يكتب ويطبع وينشر في إطار ما يسمى محاربة الإرهاب، والجزائر -البلد الذي ينتمي إليه صاحب الحكم الذي نناقشه – واحدة من هذه الدول التي منعت الكثير من عناوين الكتب أن تدخل باسم المحافظة على المرجعية الوطنية ومحاربة المذاهب الدخيلة.

- إن الغزالي روجع في مسائل من كتابه الإحياء بالحجة والبرهان، لكنه انتهج حملة شديدة على منتقديه في كتابه "الإملاء في إشكالات الإحياء"، ولم يقبل الانتقادات التي وُجهت إليه بل وصل به الحد إلى رمي ناقديه بالغباوة والحسد والكذب[١٩٦].

خَاتِمَةُ

نستنتج مما سبق:

- أن الغزالي يفضل علم المكاشفة على علم المعاملة، وجعل مرتبة الفقيه أقل من مرتبة المتصوف.
- تحامل المصادر الموحدية على المرابطين وذلك بحكم الاختلاف في الاتجاه الفكري والمسار الثقافي، واعتماد الطعن الموجه من بعض الباحثين المحدثين خاصةً المستشرقين ومَنْ تبعهم؛ ضد المرابطين؛ بناءً على الانتماء للمدارس التاريخية المختلفة وبالتالي اختلاف النظرة التاريخية وتباين البناء والتركيب التاريخي للأحداث والوقائع التاريخية وكذلك الحكم عليها من خلال المعطيات الموحدية والميولات الدينية أو المذهبية.
- من خلال الجمع والطرح التاريخي للمعطيات، يتبين أن كتاب الإحياء لم يكن كتابًا سياسيًا، ولم يحمل في طياته معطيات سياسية لفئة ما، بل حتى إنه أغفل باب جهاد النصارى المشركين في تلك الفترة العصيبة. كما لم يثبت في شيء من المصادر التاريخية أن المرابطين كان لهم تعسف في استخدام الفقه والسلطة ضد أي مذهب فقهي آخر، فلا يمكن بحال أن يكون سبب الإحراق فقهيًا.
- تتضح الوحدة الدينية للمرابطين في محافظتهم على العقيدة السنية وفقه الإمام مالك، مقابل مواجهة كل ما يخدش في هذه العقيدة السنية كالفلسفة، وعلم الكلام، والتصوف الفلسفي.
- أحرق المرابطون الإحياء لسببين عقدي وحديثي، خوفًا على رعية عوام المسلمين من الانحرافات العقدية التي كان يحملها الكتاب في طياته، والبدع المخالفة لتعاليم الإسلام، والمواد الفاسدة في الفلسفة وعلم الكلام والتصوف، مع ما اشتمل عليه الإحياء من الأحاديث الباطلة وما تتركه هذه الأخيرة من أثر سيئ في رعية المسلمين.

الهَوامِشُ:

(١) محمد بن محمد بن محمد الإمام حجة الإسلام زين الدين أبو حامد الطوسي الغزالي، ولد بطوس سنة خمسين وأربعمائة، لازم طلب العلم حتى صار أنظر أهل زمانه وجلس للإقراء في حياة إمامه وصنف، وبعد وفاة الإمام حضر مجلس نظام الملك فأقبل عليه وحل منه محلاً عظيماً فولاه نظامية بغداد فدرس بها مدة ثم تركها وحج ورجع إلى دمشق وأقام بها عشر سنين وصنف فيها كتبًا، يقال إن الإحياء منها ثم سار إلى القدس والإسكندرية ثم عاد إلى وطنه بطوس مقبلاً على التصنيف والعبادة ونشر العلم ودرس بنظامية نيسابور مدة ثم تركها وبنى خانقاه للصوفية ومدرسة للمشتغلين وأقبل على النظر في الأحاديث خصوصا البخاري وقد ذكر له السبكي في الطبقات الكبرى ترجمة طويلة في أربع كراريس وأنشد قول القائل ماذا يقول الواصفون في وصفه، وصفاته جلت عن الحصر، توفي في جمادى الآخرة سنة خمس وخمسمائة. ابن قاضي شهبة أبو بكر بن أحمد، **طبقات الشافعية**، تح: الحافظ عبد العليم خان، عالم الكتب، بيروت، ط ١، ١٤٠٧ هـ، ج ١، ص ٢٩٣.

(٢) علي بن يوسف بن تاشفين اللمتوني، أبو الحسن (٤٧٧ - ٥٣٧ هـ = ١٠٨٤ - ١١٤٣ م) أمير المسلمين بمراكش، وثاني ملوك دولة الملثمين المرابطين. ولد بسبتة. وبويع بعد وفاة أبيه سنة ٥٠٠ هـ بعهد منه، بمراكش. وفي أيامه ظهر محمد بن عبد الله الملقب بالمهديّ (ابن تومرت) فعجز عليّ عن دفع فتنته، واضطربت أموره، فمات غما في مراكش. ولم يشهر خبر موته إلا بعد ثلاثة أشهر منه. ومدة خلافته ٣٦ سنة و٧ أشهر. خير الدين الزركلي، **الأعلام**، دار العلم للملايين، لبنان، ط ١٥، ٢٠٠٢، ج ٥، ص ٣٣.

(٣) محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد الإمام أبو بكر بن العربي المعافري الأندلسي الحافظ أحد الأعلام، ولد في شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة ورحل مع أبيه إلى المشرق ودخل الشام فتفقه بأبي بكر الطرطوشي ولقي بها جماعة من العلماء والمحدثين ودخل بغداد فسمع بها من طراد الزينبي ونصر بن البطر وجماعة وأخذ الأصلين عن أبي بكر الشاشي و الغزالي والأدب عن أبي زكريا التبريزي وحج ورجع إلى مصر والإسكندرية فسمع بهما من جماعة وعاد إلى بلده بعلم كثير لم يدخله أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق وكان من أهل التفنن في العلوم و الاستبحار فيها والجمع لها، مقدما في المعارف كلها، أحد من بلغ رتبة الاجتهاد وأحد من انفرد بالأندلس بعلو الإسناد، ثاقب الذهن ملازما لنشر العلم صارما في أحكامه هيوبا على الظلمة صنف التفسير و أحكام القرآن و شرح الموطأ و شرح الترمذي وغير ذلك وولي القضاء ببلده مات في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة. السيوطي عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات المفسرين**، تح: علي محمد عمر، مكتبة وهبة، مصر، ط ١، ١٣٩٦ هـ، ص ٩٠.

(٤) محمد المنوني، **حضارة الموحدين**، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٩، ص ١٩٢.

(٥) ابن العربي أبو بكر القاضي، **رسائل ابن العربي**، ضمن كتاب لعصمت دندش، **دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب إفريقيا ٤٣٠-٥١٥هـ/١٠٣٨-١١٢١م**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م، ص ١٩٥.

(٦) عبد القادر العيدروس، **تعريف الأحياء بفضائل الإحياء**، مطبوع بهامش الإحياء، تح: بدوي طبانة، مكتبة كرياطه فوترا، إندونيسيا، د ت، ج١، ص ١١.

(٧) نفسه، ص ١٧.

(٨) نفسه.

(٩) محمد المنتصر الكتاني، **الغزالي والمغرب**، ضمن كتاب **مهرجان الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده بدمشق**، رقم ٣٢، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مصر، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص ٧١٠. ابن العربي أبو بكر القاضي، **قانون التأويل**، تح: محمد السليماني، دار القبلة للثقافة الإسلامية، السعودية، ط١، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، قسم الدراسة، ص٥٤.

(١٠) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، لبنان، د ت، ج١، ص ٣- ٤ وص ١٤.

(١١) نفسه، ج١، ص ١٩.

(١٢) نفسه، ج١، ص ١٩-٢٠.

(١٣) نفسه، ج١، ص ١٨.

(١٤) نفسه.

(١٥) نفسه.

(١٦) هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان ابن شافع الهاشمي القرشي المطلبي (١٥٠ - ٢٠٤ هـ/٧٦٧ - ٨٢٠ م)، أبو عبد الله: أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. وإليه نسبة الشافعية كافة. ولد في غزة (بفلسطين) وحمل منها إلى مكة وهو ابن سنتين. وزار بغداد مرتين. وقصد مصر سنة ١٩٩ فتوفي بها، وقبره معروف في القاهرة. له تصانيف كثيرة، أشهرها كتاب الأم في الفقه في سبع مجلدات، ومن كتبه المسند في الحديث، والرسالة في أصول الفقه. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٦، ص ٢٦.

(١٧) شيبان الراعي من عباد أهل مرو، يروي عن سفيان الثوري، روى عنه أهل بلده، وكان من الأمّارين بالمعروف، وسكّة شيبان بمرو تعرف به، وهو صاحب حكايات عجيبة مروية، وكان ابن المبارك لا يميل إليه لميله إلى مذهب الرأي. ابن حبان محمد بن أحمد أبو حاتم البستي، **الثقات**، تح: شرف الدين أحمد، دائرة المعارف العثمانية، الهند، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، ج٦، ص ٤٤٨.

(١٨) ما ذكره الغزالي هنا من الحكاية عن جلوس الشافعي بين يدي شيبان الراعي -الذي كان أمّيا لا يعرف القراءة ولا الكتابة -حتى قال عنه ابن حبان كما أسلفنا: "وهو صاحب حكايات عجيبة مروية، وكان ابن المبارك لا يميل إليه لميله إلى الرأي". فهي حكاية غير ثابتة نقلها الغزالي عن أبي طالب المكي دون سند، بل قال ابن تيمية: "وكذلك اتفق

أهل المعرفة على أن الشافعي وأحمد لم يلقيا شيبان الراعي بل ولا أدركاه". ابن تيمية أحمد، **مجموع الفتاوى**، ج١١، ص ٥٨١. ينظر مشهور حسن، **قصص لا تثبت**، دار الصميعي، السعودية، ط١، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٨، ص ٢٤٩-٢٦١.

(١٩) هو أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، أبو عبد الله ١٦٤-٢٤١هـ/ ٧٨٠-٨٥٥م فقيه ومحدِّث، ورابع الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة. اشتُهر بعلمه الغزير وحفظه القوي، وكان معروفًا بالأخلاق الحسنة كالصبر والتواضع والتسامح، وقد أثنى عليه كثير من العلماء منهم الإمام الشافعي بقوله: «خرجتُ من بغداد وما خلَّفتُ بها أحدًا أورع ولا أتقى ولا أفقه من أحمد بن حنبل»، ويُعدُّ كتابه" المسند "من أشهر كتب الحديث وأوسعها. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج١، ص ٢٠٣.

(٢٠) هو يحيى بن معين بن عون بن زياد بن بسطام أبو زكريا. وقيل: اسم جده غياث بن زياد بن عون بن بسطام الغطفاني ثم المري، مولاهم البغدادي (١٥٨ -٢٣٣ هـ/٧٧٥ - ٨٤٨م) الإمام الحافظ، إمام الجرح والتعديل، أحد كبار علماء الحديث النبوي عند أهل السنة والجماعة. خير الدين الزركلي، نفس المرجع، ج٨، ص ١٧٢-١٧٣.

(٢١) هو معروف بن فيروز الكرخي، أبو محفوظ (..- ٢٠٠ هـ/..- ٨١٥ م): أحد أعلام الزهاد والمتصوفين. ولد في كرخ بغداد، ونشأ وتوفي ببغداد. خير الدين الزركلي، نفس المرجع، ج٧، ص ٢٦٩.

(٢٢) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء....**، المصدر السابق، ج١، ص ٢١.

(٢٣) نفسه، ج١، ص ٣٩.

(٢٤) نفسه، ج١، ص ٥٦.

(٢٥) نفسه، ج١، ص ١٠٠.

(٢٦) نفسه، ج١، ص ٥.

(٢٧) الغزالي محمد أبو حامد، **المنقذ من الضلال والموصل إلى ذي العزة والجلال**، تح: جميل صليبًا وكامل عياد، دار الأندلس، بيروت، ط٧، ١٩٦٧، ص ١٠٦.

(٢٨) النعمان بن ثابت، أبو حنيفة التيمي بالولاء، الكوفي (٨٠ - ١٥٠هـ/٦٩٩ -٧٦٧م)، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة. قيل: أصله من أبناء فارس. ولد ونشأ بالكوفة. وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء. وكان قوي الحجة، من أحسن الناس منطقا، وعن الإمام الشافعي: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. توفي ببغداد وأخباره كثيرة. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٨، ص ٣٦.

(٢٩) يعقوب بن إبراهيم بن حبيب الأنصاري الكوفي البغدادي (١١٣ -١٨٢هـ/٧٣١ -٧٩٨م) أبو يوسف: صاحب الإمام أبي حنيفة، وتلميذه، وأول من نشر مذهبه. كان فقيهًا علامة، من حفاظ الحديث. ولد بالكوفة. وتفقه بالحديث والرواية، ثم لزم أبا حنيفة، فغلب عليه "الرأي" وولي القضاء ببغداد أيام المهدي والهادي والرشيد. ومات في خلافته، ببغداد، وهو على القضاء. وهو أول من دعي "قاضي القضاة" ويقال له: قاضي قضاة الدنيا!، وأول من وضع الكتب في أصول الفقه، على مذهب أبي حنيفة. وكان واسع العلم بالتفسير والمغازي وأيام العرب. خير الدين الزركلي، نفس المرجع، ج٨، ص ١٩٣.

(٣٠) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء ....**، المصدر السابق، ج١، ص ١٨.

(٣١) نفسه، ج١، ص ١٩.

(٣٢) نفسه، ج١، ص ١٩.

(٣٣) نفسه، ج١، ص ١٧.

(٣٤) نفسه، ج١، ص ٤٢.

(٣٥) ابن عربي محمد بن علي، **الفتوحات المكية**، تح: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، لبنان، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٤، ص ٤١٠-٤١١.

(٣٦) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء ....**، المصدر السابق، ج١، ص ٢٤.

(٣٧) نفسه، ج١، ص ٣٢.

(٣٨) نفسه، ج١، ص ٤.

(٣٩) نفسه، ج١، ص ٢١.

(٤٠) نفسه، ج ١، ص ٦٠-٦١.

(٤١) نفسه، ج ١، ص ٥٨-٨٢.

(٤٢) ابن العربي أبو بكر القاضي، **رسائل ....**، المصدر السابق، ص ١٧٢.

(٤٣) نفسه، ص ١٩٥ وص ٢٠٠-٢٠٤.

(٤٤) ابن خلكان أحمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تح: إحسان عباس، دار صادر، لبنان، د ت، ج٤، ص ٢١٧.

(٤٥) الغزالي محمد أبو حامد، **الوجيز في فقه الإمام الشافعي**، تح: علي معوض وعادل عبد الموجود، دار الأرقم بيروت، ط١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ج١، مقدمة المحققين، ص ١٩.

(٤٦) عليان عبد الفتاح الجالودي، **إضاءات على سيرة محمد بن محمد الطوسي الإمام الغزالي الشخصية في ضوء المصادر التاريخية**، المجلة الأردنية للتاريخ والآثار، ج٢، العدد١، ص ٨٦.

(٤٧) عبد الرحمن بدوي، **مؤلفات الغزالي**، وكالة المطبوعات، الكويت، ط٢، ١٩٧٧، ص٢٣.

(٤٨) اليافعي اليمني عبد الله بن أسعد، **مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان**، تح: خليل المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/١٩٩٧م، ج٣، ص ١١١ وص ١٣٦.

(٤٩) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، **نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان**، تح: محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٠، ص ٧٠.

(٥٠) نفسه، ص ٧٣.

(٥١) هو محمد بن عبد الله بن تومرت (٤٨٥ -٥٢٤ هـ/١٠٩٢ - ١١٣٠م) البربري، المصمودي، المتلقب بالمهدي فقيه، أديب، أصولي، زاهد. ولد ونشأ في قبيلته هرغة من المصامدة من قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى، ورحل

إلى المشرق طالبا للعلم. لقي عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي، فاتفق معه على الدعوة إليه، ثم قوي أمر ابن تومرت، وعاجلته الوفاة في آخر سنة ٥٢٤ هـ في جبل تينملل. من آثاره: عقيدة لقبها بالمرشدة، وأعز ما يطلب. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٦، ص ٢٢٨-٢٢٩.

(٥٢) اختلف المؤرخون حول لقاء ابن تومرت للغزالي على ثلاثة أقوال:

- منهم من أثبته كابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص٧٣. وصاحب **الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية**، تح: سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، ط١، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، ص ١٠٤-١٠٥.
- منهم من أشار إليه مع شيء من التحفظ مثل عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تح: محمد سعيد العريان، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الجمهورية العربية المتحدة، د ت، ص٢٤٥-٢٤٦. وابن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومَنْ عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، تح: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م، ج٦، ص٣٠٢.
- ومنهم من أنكر اللقاء مثل ابن الأثير الجزري علي بن محمد، **الكامل في التاريخ**، تح: محمد الدقاق، دار الكتب العلمية، لبنان، ط٤، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م، ج٩، ص١٩٠ وغيره. والذي يظهر لي من خلال جمع المعلومات أن هذا اللقاء غير ثابت، وإنما هي مجرد قصة مفتعلة للأسباب التالية:

أولاً: لو ثبتت لكان فيها أكبر الطعن على الغزالي الذي يدعو في مؤلفاته الأخلاقية إلى التسامح وحسن الصفح والعفو، ولأصبحت علامة على أن الرجل يبطن ما لا يظهر وأن فعله يناقض قوله.

ثانيًا: أن ابن القطان المراكشي وابن صاحب الصلاة فيما ينقل عنه صاحب الحلل الموشية قد تفردًا بسوق هذه القصة عن الرجل المسن المجهول، وكل من جاء بعدهما ينقلها عنهما من نظم الجمان أو الحلل الموشية. وابن القطان هذا متهم في إيرادها، لأنه متحامل جدًا على المرابطين حيث يرميهم بأقذع الأوصاف، بسبب اختلاف المشرب والاتجاه الفكري، ولأنه إنما ألف كتابه (نظم الجمان) لتعظيم دولة الموحدين، ومدحهم والثناء عليهم، وإبراز مآثرهم، فلا يبعد أن يكون قد لفق أو تلقف هذه القصة تشفيًا من دولة المرابطين. وغالب الكتب التي ألفت بعد سقوط المرابطين كانت تعمل لصالح الموحدين، وأصبح كثير من الباحثين يعتمدون عليها كمصادر من دون تمحيص.

ثالثًا: إن ابن تومرت لم يلتق بالغزالي البتة، وذلك أن ابن تومرت خرج لطلب العلم من المغرب سنة ٥٠١هـ وعلى أقل تقدير في أواخر سنة ٥٠٠ هـ ورحل منها إلى الأندلس، ومنها إلى الإسكندرية، ومنها إلى الحج، ومنه إلى بغداد، وهنا تورد القصة أنه التقاه في بغداد، فكيف يمكن أن يقابله في بغداد والغزالي خرج منها سنة ٤٨٨هـ، أو في دمشق وهو خرج منها سنة ٤٩٠هـ أو في بيت المقدس والغالب أنه تركها سنة ٤٩٢هـ لاستيلاء الصليبيين عليها.

رابعًا: أن قضية إحراق كتاب الإحياء كانت في أوائل سنة ٥٠٣هـ، وعلى أقل تقدير في أواخر سنة ٥٠٢هـ، ويومها كان الغزالي في بلده (طوس) وابن تومرت لا يعرف عنه أنه تجاوز بغداد شرقًا في رحلته، فلم يدخل إقليم خراسان أصلاً، فكيف تصح هذه القصة.

خامسًا: الظاهر أنها أسطورة نسجت مثل أسطورة نسبة ابن تومرت إلى آل البيت، وأنه المهدي المنتظر.

سادسًا: التصريح بأن ابن تومرت درس على الغزالي بالمدرسة النظامية في كتاب سر العالمين وكشف ما في الدارين أو بعنوان السر المكنون، فلا يخفى أن هذا الكتاب منسوب للغزالي وليس من تأليفه. ينظر: سليمان الخراشي، **قصص لا تثبت**، دار الصميعي، السعودية، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، ج٥، ص ١٢٥-١٤٦.

(٥٣) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص ٧٣. وأورد هذه الحادثة كذلك صاحب، **الحلل الموشية**، المصدر السابق، ص ١٠٤-١٠٥ نقلا عن ابن صاحب الصلاة عبد الملك، **المن بالإمامة**، تح: عبد الهادي التازي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٣، ١٩٨٧، ولم أجد ذكر الحادثة في "المن بالإمامة" بعد البحث، كما أوردها الونشريسي في **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تح: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، ج١٢، ص١٨٥-١٨٦ نقلاً عن ابن القطان.

(٥٤) حسين مؤنس، **نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين**، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، العدد الثالث، ١٣٧٤هـ/١٩٥٥م، ص ١١٣.

(٥٥) محمد المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص ٧٠٦.

(٥٦) نفسه، ص ٧٠٧.

(٥٧) محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز بن حمدين أبو عبد الله القرطبي الأندلسي المالكي قاضي الجماعة، علامة زمانه صاحب العلوم والتصانيف، له إجازة من ابن عبد البر، وأبي العباس بن دلهاث، وروى عنه القاضي عياض وكان يعظمه جدًا، مات لثلاث بقين من المحرم لسنة ثمان وخمسمائة. ابن بشكوال خلف بن عبد الملك، **الصلة**، تح: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٠، ج٢، ترجمة رقم ١٢٥٤، ص ٢٠٤.

(٥٨) أشار أنه قرأه عليه تلميذه: عبد الحق بن عطية، **فهرس ابن عطية**، تح: محمد أبو الأجفان ومحمد الزاهي، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط٢، ١٩٨٣، ص١١٢.

(٥٩) الذهبي محمد بن أحمد، **سير أعلام النبلاء**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م، ج١٩، ص ٣٣٢.

(٦٠) نفسه.

(٦١) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص ٧٠.

(٦٢) لم أجده في نظم الجمان.

(٦٣) مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص١٠٤.

(٦٤) محمد بن الوليد بن محمد بن خلف الطرطوشي (٤٥١ -٥٢٠ هـ/١٠٥٩ - ١١٢٦م) أبو بكر القرشي الفهري الأندلسي، ويقال له ابن أبي رندقة: أديب، من فقهاء المالكية الحفاظ. من أهل طرطوشة بشرقي الأندلس. تفقه ببلاده، ورحل إلى المشرق سنة ٤٧٦ فحج وزار العراق ومصر وفلسطين ولبنان، وأقام مدة في الشام. ابن بشكوال خلف بن عبد الملك، المصدر السابق، ج٢، ترجمة رقم ١٢٦٩، ص ٢١٠-٢١١.

(٦٥) الذهبي محمد بن أحمد، المصدر السابق، ج١٩، ص ٤٩٥.

(٦٦) الونشريسي أحمد بن يحي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٨٦. الذهبي محمد بن أحمد، **تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام**، تح: عمر تدمري، دار الكتاب العربي، لبنان، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م، ج١٩، ص٤٩٥-٤٩٦.

(٦٧) لسان الدين بن الخطيب، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تح: محمد عنان، مكتبة الخانجي، مصر، ط١، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م، ج٣، ص ٢٦٧.

(٦٨) الضبي أحمد بن يحي، **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، تح: إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج١، ص ١٧٦.

(٦٩) الطاهر المعموري، **الغزالي وعلماء المغرب**، الدار التونسية، تونس، ١٩٩٠، ص ٣٤. وأحال على البستان لابن مريم ولم أجده فيه.

(٧٠) سبقت ترجمته.

(٧١) ابن العربي أبو بكر القاضي، **العواصم من القواصم**، تح: عمار الطالبي، مكتبة دار التراث، مصر، د ت، ص ٧٨-٧٩. وفيه أيضًا رد على الغزالي من ص ١٢ إلى ص ٣٨.

(٧٢) ابن العربي أبو بكر القاضي، **قانون...**، المصدر السابق، ص ٥١٠-٥١١.

(٧٣) الذي في الإحياء: "لكان بخلاً يناقض الجود وظلمًا يناقض العدل"، الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء ...**، المصدر السابق، ج٤، ص ٢٥٨.

(٧٤) الذهبي محمد بن أحمد، **سير...**، المصدر السابق، ج١٩، ص ٣٣٧.

(٧٥) ابن العربي أبو بكر القاضي، **قانون...**، المصدر السابق، ص ٦٣٧-٦٣٨.

(٧٦) الذهبي محمد بن أحمد، **سير...**، المصدر السابق، ج١٩، ص ٣٢٧. ابن كثير إسماعيل أبو الفدا الدمشقي، **البداية والنهاية**، تح: عبد الله التركي، دار هجر، مصر، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، ج١٦، ص ٣٦١. وينظر ردود أخرى لابن العربي على شيخه عند: الطاهر المعموري، المرجع السابق، ص ٦٣-٧١.

(٧٧) هو عياض بن موسى بن عياض بن عمرون (٤٧٦ - ٥٤٤هـ/١٠٨٣ - ١١٤٩م) اليحصبي السبتي، أبو الفضل: عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته. كان من أعلم الناس بكلام العرب وأنسابهم وأيامهم. ولي قضاء سبتة، ومولده فيها، ثم قضاء غرناطة. وتوفي بمراكش مسمومًا، قيل: سمّه يهودي. محمد بن عياض اليحصبي، **التعريف بالقاضي عياض**، تح: محمد بن شريفة، مطبعة فضالة، المغرب، ط٢، ١٩٨٢، ص ٢ وما بعدها.

(٧٨) ابن العماد الحنبلي عبد الحي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تح: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤١٠هـ/١٩٨٩م، ج٦، ص ٢٢٧.

(٧٩) الذهبي محمد بن أحمد، **سير...**، المصدر السابق، ج١٩، ص ٣٢٧.

(٨٠) محمد بن خلف بن موسى الأنصاري المتكلم سكن قرطبة يكنى أبا عبد الله ويعرف بالإلبيري لأن أصله منها روى عن أبي بكر محمد بن الحسن المرادي وأبي الحجاج يوسف بن موسى الكلبي وأخذ علم الكلام عنهما وكان حافظا لكتب الأصول والاعتقادات واقفا على مذهب أبي الحسن الأشعري وأصحابه مع مشاركة في الأدب وله تواليف منها كتاب النكت والأمالي في النقض على الغزالي وله رسالة الانتصار على مذاهب الأئمة الأخيار ورسالة البيان عن حقيقة الإيمان وشرح مشكل ما وقع في الموطأ وكتاب البخاري واختصر كتاب الرعاية للمحاسبي حدث عنه أبو الوليد بن خيرة وأبو إسحاق بن قرقول وأبو عبد الله بن الصيقل المرسي وذكر أن له رواية عن ابن الطلاع وأبو زيد بن نزار الشاطبي أخذ عنه بقرطبة في سنة ست وخمسمائة وغلط في اسم أبيه فجعله يوسف وأبو خالد المرواني وقال أخبرني أنه ولد يوم الثلاثاء الثاني عشر من ربيع الآخر سنة سبع وخمسين وأربعمائة وتوفي في جمادى الآخر سنة سبع وثلاثين وخمسمائة. ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، **التكملة لكتاب الصلة**، تح: عبد السلام الهراس، دار الفكر، لبنان، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ج ١، ص ٣٥٨-٣٥٩.

(٨١) لسان الدين بن الخطيب، المصدر السابق، ج ٣، ص ١٦٦.

(٨٢) عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى ابن محمد بن المختار، الحسني، الجزائري (١٢٢٢ - ١٣٠٠هـ/ ١٨٠٧ - ١٨٨٣م)، ولد في القيطنة من قرى وهران بالغرب الجزائري وتعلم في وهران. أدى فريضة الحج مع والده سنة ١٢٤١هـ ثم زار بغداد ودمشق وعاد إلى الجزائر. وفي السنة ١٨٣٣ بعد استيلاء الفرنسيين على الجزائر بثلاثة أعوام، تولى القيام بأمر الجهاد، فنهض وقاتل الفرنسيين وخاض عددا من المعارك ضدهم. استسلم في ٢١ ديسمبر ١٨٤٧ ونفي إلى طولون ومنها إلى انبواز. وقد زاره نابليون الثالث وأفرج عنه مشترطا عدم عودته إلى الجزائر، ورتب له ولأسرته مبلغا من المال يأخذه كل عام. فزار باريس والأستانة. ثم توجه إلى سورية حيث استقر بدمشق سنة ١٢٧١ إلى حين وفاته. ينظر عادل نويهض، **مُعجَمُ أعلام الجزائِر**، مؤسسة نويهض الثقافية للتأليف والترجمة والنشر، لبنان، ط ٢، ١٤٠٠ هـ/ ١٩٨٠ م، ص ١٠٣-١٠٤.

(٨٣) برهان الدين البقاعي إبراهيم بن عمر، **مصرع التصوف**، تح: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب العلمية، لبنان، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص ١٤-١٥.

(٨٤) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص ٧١.

(٨٥) يوسف بن محمد بن يوسف التوزري الأصل، التلمساني، أبو الفضل، المعروف بابن النحويّ (٤٣٣ - ٥١٣هـ/ ١٠٤١ - ١١١٩م): ناظم "المنفرجة" التي مطلعها: "اشتدي أزمة تنفرجي" كان فقيها يميل إلى الاجتهاد، من أهل تلمسان. أصله من توزر. سكن سلجماسة، وتوفي بقلعة بني حماد (من أعمال قسنطينة) قرب بجاية. وله تصانيف. قلت: والمنفرجة شرحها كثيرون، وخمّسها بعضهم، وفي نسبتها إلى صاحب الترجمة خلاف. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٨، ص ٢٤٧.

(٨٦) ابن الزيات يوسف التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف**، تح: أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب بالرباط، المغرب، ط٢، ١٩٩٧، ص ٩١.

(٨٧) محمد المغراوي، **فتوى أبي الفضل بن النحوي حول كتاب إحياء علوم الدين للغزالي**، ضمن كتاب **متنوعات محمد حجي**، دار الغرب الإسلامي، لبنان، ط١، ١٩٩٨، ص ١٢٠.

(٨٨) نفسه، ص ١١٨.

(٨٩) ابن الزيات يوسف التادلي، المصدر السابق، ص ٩١.

(٩٠) نفسه.

(٩١) محمد المغراوي، المرجع السابق، ص ١٢٨.

(٩٢) نفسه، ص ١٢٣-١٢٤.

(٩٣) من أهل مدينة فاس وبها توفي في أواخر شعبان عام تسعة وخمسين وخمسمائة، قدم حضرة مراكش وكان فقيها زاهدًا في الدنيا سالكًا في التصوف سبيل أهل الملامتية. ابن الزيات يوسف التادلي، المصدر السابق، ص١٦٨-١٦٩.

(٩٤) نفسه، ص ١٦٩.

(٩٥) يُنظر القصة بتمامها عند: السبكي عبد الوهاب بن علي، **طبقات الشافعية الكبرى**، تح: محمود الطناحي وعبد الفتاح الحلو، مطبعة إحياء الكتب العربية، مصر، د ت، ج٦، ص٢٥٩-٢٦٠. والمرجح أن هذه القصة مكذوبة لأسباب:

- كيف يشترط الغزالي أن يتوب إلى الله وهو ميت.
- إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أُمّيًا لا يقرأ ولا يكتب، فكيف يكون قد تصفح الكتاب ورقة ورقة. والذي يبدو أن هذه القصة المراد منها تخويف كل من تعرض لكتاب الإحياء بانتقاد أو معارضة.

(٩٦) رجراجي الأصل من أغمات وريكة وبها مات قبل الأربعين وخمسمائة كان شديد الورع والتقشف. ابن الزيات يوسف التادلي، المصدر السابق، ص ١٤٥.

(٩٧) نفسه، ص ١٤٥.

(٩٨) علي بن محمد بن عبد الله الجذامي، كان مقرئًا مجودًا ضابطًا ذاكرًا للقراءات، أصولها وحروفها، فقيهًا حافظًا متفننًا في العلوم، خيرًا صالحًا وتوفي بالمرية سنة تسع وخمسمائة. ينظر ابن الأبار، **التكملة...**، المصدر السابق، ج٣، ترجمة رقم ٤٥٥، ص ١٨٢. ابن عبد الملك محمد المراكشي، **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، لبنان، ط١، ١٩٧٣، السفر الخامس، القسم الأول، ص٣٠٨. ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، **المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**، نشره فرانسيسكو كوديرا وزايدين، مطبعة روخس، إسبانيا، ١٨٨٥، ترجمة رقم ٢٥٣، ص ٢٧١-٢٧٢.

(٩٩) ابن الأبار، **التكملة...**، المصدر السابق، ص ١٨٢. ابن عبد الملك محمد المراكشي، المصدر السابق، ص٣٠٨.

(١٠٠) ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، **المعجم...**، المصدر السابق، ص ٢٧١-٢٧٢.

(١٠١) أحمد بن الحسين، أبو القاسم ابن قسيّ (٠٠٠ -٥٤٦هـ/ ٠٠٠ - ١١٥١م): أول ثائر في الأندلس عند اختلال دولة الملثمين. وهو روميّ الأصل من بادية شلب، استعرب وتأدب وقال الشعر ثم عكف على الوعظ وكثر مريدوه فادعى (الهداية) وتسمى بالإمام، وطلب فاختبأ، وقبض على طائفة من أصحابه فسيقوا إلى إشبيلية، فأشار من مختبأه على من بقي من أصحابه بمهاجمة قلعة ميرتلة (في غرب الأندلس) فاستولوا عليها وجاءهم ابن قسي. ثم ضعف أمره فخلعوه. وأعيد، فهاجر إلى الموحدين (سنة ٥٤٠ هـ متبرئا مما كان يدعيه، فوثقوا به وولوه (شلب) Silves بلدته، فعاد إلى الخلاف، فقتله أهل شلب. ويظهر أنه هو مصنف كتاب (خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين) مختصر في التصوف، شرحه محيي الدين ابن عربي. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج١، ص ١١٦.

(١٠٢) ابن الأبار محمد بن عبد الله القضاعي، **الحلة السيراء**، تح: حسين مؤنس، دار المعارف، مصر، ط٢، ١٩٨٥، ج٢، ص١٩٧.

(١٠٣) ابن خلدون عبد الرحمن، المصدر السابق، ص ٣١٢-٣١٥.

(١٠٤) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص ٧٤.

(١٠٥) نفسه، ص ٧٠.

(١٠٦) نفسه، ص ٧٠-٧١.

(١٠٧) ابن الأحمر إسماعيل، **بيوتات فاس الكبرى**، تح: عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة، المغرب، ١٩٧٢، ص ٣٤.

(١٠٨) هو مَيْمُون بْن ياسين الصنهاجي اللمتوني، سكن المرية وَأَصله من صحراء الْمغرب يكنى أَبَا عُمَر عني بالرواية وَسَمَاع الْعلم وَكَانَت لَهُ رِحْلَة حجّ فِيهَا وَسمع بِمَكَّة، كَانَ رجلاً صَالحًا معتنيًا بالآثار مقتنيًا للْأُصُول وَصَحب أَبَا عبد الله مَالك بن وهيب وَتُوفِّيَ بإشبيلية فِي ذِي الْقعدَة سنة ٥٣٠. ينظر ابن الأبار، **التكملة...**، المصدر السابق، ج٢، ترجمة رقم ٥٣٠، ص ١٩١-١٩٧.

(١٠٩) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص ٧٠-٧١.

(١١٠) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٢٣٧.

(١١١) مصطفى بنسباع، **السلطة بين التسنن والتشيع والتصوف ما بين عصري المرابطين والموحدين**، مطابع الشويخ، المغرب، ط١، ١٩٩٩، ص ٨١.

(١١٢) تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين الصنهاجي اللمتوني، أبو المعز (٠٠٠ - ٥٣٩ هـ/ ٠٠٠ - ١١٤٥ م): صاحب

المغرب، من ملوك دولة الملثمين. كان شجاعا بطلا. تولى في أيام أبيه غزو الفرنجة بالأندلس (سنة ٥٢٠ هـ فعبر البحر، وافتتح حصونا من طليطلة، وظفر في معركة (فحص الصباب) واحتل مدينة (كركي) و(أشكونية) وعاد إلى مراكش. فخرج أبوه - أمير المسلمين - للقائه في موكب عظيم (سنة ٥٣٢ هـ ولما توفي والده (سنة ٥٣٧ هـ بويع له، بعهد منه. وكان عبد المؤمن بن عليّ قد توغل في المغرب، فقاتله تاشفين. فكانت أيامه كلها حروبًا (ما أوى فيها إلى بلد، ولا عرَّج على أهل ولا ولد) انتهت بمقتله في وهران، وقد باغته الموحدون ليلا وأضرموا النار حول حصنه، فركب يريد النجاة أو الهجوم، فانقلب به جواده فسقط قتيلاً. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٢، ص ٨٢-٨٣.

(١١٣) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ١١٣.

(١١٤) إدريس الشنوفي، **لماذا أحرق المرابطون كتاب "الإحياء"**، ص ٢، www.groups.google.com/forum، نظر فيه بتاريخ ٢١-٠٥-٢٠١٠.

(١١٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تح: إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، ط٣، ١٩٨٣، ج٤، ص ٥٩.

(١١٦) مجهول، الحلل الموشية، المصدر السابق، ص ١٠٤.

(١١٧) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٢٣٦-٢٣٧.

(١١٨) إسماعيل بن الأحمر، المصدر السابق، ص٣٣-٣٤.

(١١٩) محمد ولد داداه، **مفهوم الملك في المغرب من انتصاف القرن الأول إلى انتصاف القرن السابع**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط١، ١٩٧٧، ص ١١٩، نقلا عن إدريس الشنوفي، المرجع السابق، ص ٦-٧.

(١٢٠) محمد القبلي، **رمز "الإحياء" وقضية الحكم في المغرب الوسيط**، ضمن كتاب **مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط**، دار توبقال للنشر، المغرب، ط١، ١٩٨٧، ص ٢٩.

(١٢١) نفسه، ص ٤٦.

(١٢٢) إبراهيم القادري بوتشيش، **إضاءات حول تراث الغرب الإسلامي وتاريخه الاقتصادي والاجتماعي**، دار الطليعة، لبنان، ٢٠٠٢، ص ١٣٦، نقلا عن إدريس الشنوفي، المرجع السابق، ص٧. محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٢٩.

(١٢٣) مصطفى بنسباع، **السلطة...**، المرجع السابق، ص ٨٥-٨٦.

(١٢٤) نفسه، ص ٨٤.

(١٢٥) نفسه، ص ٨٥.

(١٢٦) محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٤٦-٤٨. جورج مارسيه، **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، تر: محمود هيكل، منشأة المعارف، مصر، د ت، ٢٨٤-٢٨٥. مصطفى بنسباع، **إحراق كتاب الإحياء** (ملتقى الدراسات المغربية الأندلسية)، الندوة ٥، المغرب، ١٩٩٣، ص ٣٥٧، نقلاً عن محمد بن بيه، **الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين**، مذكرة ماجستير، جامعة أم القرى، السعودية، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م، ص ١٠٥.

(١٢٧) إبراهيم القادري بوتشيش، **إضاءات ...**، المرجع السابق، ص ١٣٢، نقلاً عن فاطمة الزهرة جدو، **السلطة والمتصوفة في الأندلس عهد المرابطين والموحدين**، مذكرة ماجستير في التاريخ الوسيط، جامعة منتوري، قسنطينة، السنة الجامعية ١٤٢٨-١٤٢٩هـ/٢٠٠٨-٢٠٠٩م، ص ١١٠. محمد بن بيه، المرجع نفسه، ص ١٠٦.

(١٢٨) محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٤٦.

(١٢٩) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص٢٧٦-٢٨٣، وص٢٨٨-٢٩٢، وص ٢٩٨-٢٩٩.

(١٣٠) محمد المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص ٧٠٦.

(١٣١) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ص ٣٣ - ٧٨.

(١٣٢) محمد بن بيه، المرجع السابق، ص ١٠٨.

(١٣٣) صلاح الدين كرماني الطوخي وآخرون، **الكشف عن حقيقة كتاب «إحياء علوم الدين» وعلاقته بالتصوف**، دراسة نقدية، د ت، ج١، ص ص ٣-٤. إدريس الشنوفي، المرجع السابق، ص ٩.

(١٣٤) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ١٢٥-١٢٨.

(١٣٥) الونشريسي أحمد بن يحي، المصدر السابق، ج١٢، ص ١٨٥-١٨٦. محمد اليعقوبي البدراوي، **إحراق كتاب الإحياء في الغرب الإسلامي**، المغرب، مجلة المناهل، السنة الرابعة، العدد التاسع، رجب ١٣٩٧هـ/جويلية ١٩٧٧م، ص ٣١٩. محمد بن بيه، المرجع نفسه، ص ١٠٦. عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط٢، ٢٠٠٠، ص ١٦٠. الشيخ الطيب بن عمر بن الحسين، **السلفية وأعلامها في موريتانيا**، دار ابن حزم، بيروت، ط١، ١٤١٦هـ / ١٩٩٥م، ص ١٩٤-١٩٦. محمد المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص ٧٠٦. أحمد بن عبد الله السلمي، **إتحاف الأحياء بخلاصة الكلام على أبي حامد وكتابه الإحياء**، مكتبة الرشد، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص ٣٧٦. فاطمة الزهرة جدو، المرجع السابق، ص ١١١. مصطفى بنسباع، **السلطة...**، المرجع السابق، ص ٨٨. حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، دار الجيل، لبنان، ط١٤، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م، ج٤ ص ٤٣٢.

(١٣٦) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ٦٤-٦٦.

(١٣٧) ابن العربي أبو بكر القاضي، **قانون...**، المصدر السابق، ص ٥٤. الشيخ الطيب بن عمر بن الحسين، المرجع السابق، ص ١٩٥.

(١٣٨) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ٢١٠-٢١١.

(١٣٩) محمد اليعقوبي البدراوي، المرجع السابق، ص ٣٢١.

(١٤٠) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ١٢٩-١٣٩، وص ١٦٥-٢٠٩.

(١٤١) نفسه، ص٢١٢- ٢٥١.

(١٤٢) محمد بن العياشي، **محاربة البدع في رسائل المرابطين إحراق كتاب "إحياء علوم الدين" للغزالي نموذجًا**، نشر بتاريخ ٣-١٢-٢٠١٠ www.forums.arabsbook.com نظر فيه بتاريخ ٢٠١٤/١٢/١١.

(١٤٣) عبد السلام غرميني، **المدارس الصوفية المغربية والأندلسية في القرن السادس الهجري**، دار الرشاد الحديثة، المغرب، ط١، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م، ص ٤٢٠. فاطمة الزهرة جدو، المرجع السابق، ص ١١٠-١١١. عبد الله العروي، المرجع السابق، ص ١٢٨-١٣٦. حسن إبراهيم حسن، المرجع السابق، ج٤، ص ٤٣٢.

(١٤٤) أحمد حسن محمود، **قيام دولة المرابطين**، دار الفكر العربي، القاهرة، د ت، ص ٤٤٦.

(١٤٥) إدريس الشنوفي، المرجع السابق، ص٦.

(١٤٦) محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧.

(١٤٧) محمد عبد الله عنان، **دولة الإسلام في الأندلس**، العصر الثالث: **عصر المرابطين والموحدين: القسم الأول**، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٢، ١٤١١هـ/١٩٩٠م، ص ٧٩. حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص ٤٤٦. محمد المنتصر الكتاني، المرجع السابق، ص ٧٠٦.

(١٤٨) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ٨١.

(١٤٩) محمد اليعقوبي البدراوي، المرجع السابق، ص ٣١٩-٣٢٠. محمد بن بيه، المرجع السابق، ص ١٠٥-١٠٦. الشيخ الطيب بن عمر بن الحسين، المرجع السابق، ص ١٩١. محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ١١٣-١٢٣. أحمد بن عبد الله السلمي، المرجع السابق، ص ٣٧٦. إدريس الشنوفي، المرجع السابق، ص٥-٦.

(١٥٠) محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق، ص ٨٣.

(١٥١) نفسه، ص ٨٢.

(١٥٢) الغزالي محمد أبو حامد، **قانون التأويل**، تح: محمد بيجو، ط١، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م، ص ٣٠.

(١٥٣) محمود الحداد، **تخريج أحاديث إحياء علوم الدين**، دار العاصمة، السعودية، ط١، ١٤٠٨هـ/١٩٨٧م، ص ٢٨١٧.

(١٥٤) حسن أحمد محمود، المرجع السابق، ص ١٦٠. محمد اليعقوبي البدراوي، المرجع السابق، ص ٣٢٠.

(١٥٥) عبد القادر العافية، **لماذا أحرق الإحياء**، مجلة دعوة الحق، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، العدد ٧، السنة ١٦، رجب ١٣٩٤-أوت ١٩٧٤، ص ١٧٦.

(١٥٦) محمد بن تومرت، **أعز ما يطلب**، تح: عمار الطالبي، وزارة الثقافة، الجزائر، ٢٠٠٧، ص ٢٤٩.

(١٥٧) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣٥٥.

(١٥٨) محمد اليعقوبي البدراوي، المرجع السابق، ص ٣١٣.

(١٥٩) أحمد بن حنبل، **المسند**، تح: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، لبنان، ط١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م، حديث رقم ١٥١٥٦، ج٢٣، ص ٣٤٩.

(١٦٠) التنّور: الفرنُ يخبز فيه، ج: تنانير. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، طبع مجمع اللغة العربية، مصر، د ت، ج١، ص ١٠٩.

(١٦١) ابن قيم الجوزية محمد، **الطرق الحكمية في السياسة الشرعية**، تح: نايف الحمد، دار عالم الفوائد، السعودية، ط١، ١٤٢٨هـ، ص ٧١٠.

(١٦٢) البخاري محمد بن إسماعيل، **الجامع الصحيح**، تح: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، مصر، ط١، ١٤٠٠هـ، حديث رقم ٤٩٨٧، ج٣، ص ٣٣٨.

(١٦٣) هو محمد بن عبد الله بن أبي عامر محمد بن وليد القحطاني المعافري القرطبي الملك المنصور، حاجب الممالك الأندلسية، أبو عامر، القائم بأعباء دولة الخليفة المرواني المؤيد بالله هشام بن الحكم أمير الأندلس، فإن هذا المؤيد استخلف ابن تسع سنين. الذهبي محمد بن أحمد، **سير...**، المصدر السابق، ج ١٧، ص ١٥.

(١٦٤) نفسه.

(١٦٥) الصوارم الحداد لمحمد الشوكاني، ص ٦٨، نقلاً عن مشهور حسن، **كتب حذر منها العلماء**، دار الصميعي، السعودية، ط١، ١٤١٥هـ/١٩٩٥م، ج١، ص ٣٨-٣٩.

(١٦٦) محمد بن تومرت، المصدر السابق، ص ٢٤٧.

(١٦٧) ابن عبد البر القرطبي يوسف، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تح: عبد الله بن الصديق وآخرون، وزارة الأوقاف، المغرب، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، ج ١٦، ص ٢٢٩.

(١٦٨) الشيخ الطيب بن عمر بن الحسين، المرجع السابق، ص ٢١٦.

(١٦٩) كضريبة الأسواق التي لجأ إليها بعض عمال علي بن يوسف بالأندلس، والمسماة "قبالة" والتي نبه عليها القاضي عياض. يُنظر: محمد بن عياض اليحصبي، المصدر السابق، ص ١١٥.

(١٧٠) جورج مارسيه، المرجع السابق، ص ٢٨٤-٢٨٥.

(١٧١) محمد القبلي، المرجع السابق، ص ٣٦-٣٧.

(١٧٢) البخاري محمد بن إسماعيل، المصدر السابق، حديث رقم ٢٢٦٣، ج٢، ص ١٣٠-١٣١.

(١٧٣) ترك الغزالي كتابًا يُعَدّ اعترافًا هو "المنقذ من الضلال"، أودع بين طياته وصفًا مسهبًا لحالته النفسية والمعاناة التي كابدها مما هاله من حال عصره وكثرة المتناقضات فيه، وكذلك مرضه الذي عجز الأطباء عن مداواته المسمى بمرض الكنظ أو الغنظ وهو عبارة عن همّ لازم يصيب أصحاب الاتجاه الديني المتطرف. عمر فروخ، **رجوع الغزالي إلى اليقين**، ضمن كتاب **مهرجان الغزالي في الذكرى المئوية التاسعة لميلاده بدمشق**، رقم ١٣، المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، مصر، ١٣٨٢هـ/١٩٦٢م، ص٣١١.

(١٧٤) مرّ الغزالي بمراحل عديدة بحثا عن الحق، وتغيّر في كل مرحلة فيها رأيُه، وفكره العقدي. قال في ذلك عن نفسه: "... انحصرت أصناف الطالبين عندي في أربع فرق: المتكلمون... الباطنية ... الفلاسفة... الصوفية ... فقلت في نفسي: الحق لا يعدو هذه الأصناف الأربعة، فهؤلاء هم السالكون سبل طلب الحق، فإن شذّ الحق عنهم، فلا يبقى في درك الحق مطمع...فابتدرت لسلوك هذه الطرق، واستقصاء ما عند هذه الفرق، مبتدئًا بعلم الكلام، ومثنيًا بطريق الفلسفة، ومثلثًا بتعلم الباطنية، ومربعًا بطريق الصوفية". الغزالي محمد أبو حامد، **المنقذ...**، المصدر السابق، ص ٦٩-٧٠.

(١٧٥) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء...**، المصدر السابق، ج ٣، ص ٧٦.

(١٧٦) محمد اليعقوبي البدراوي، المرجع السابق، ص ٣١٨.

(١٧٧) عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٣٠٠-٣٠١.

(١٧٨) زكي مبارك، **الأخلاق عند الغزالي**، كلمات عربية للنشر، القاهرة، د ت، ص ٢٨.

(١٧٩) عمر فروخ، المرجع السابق، ص ٣٠١.

(١٨٠) الغزالي محمد أبو حامد، **إحياء ...**، المصدر السابق، ج٤، ص ٣٥٦. ينظر في بيان المخالفات: محمد المغراوي، **العقيدة...**، المرجع السابق. صلاح الدين كرماني الطوخي وآخرون، المرجع السابق. أحمد بن عبد الله السلمي، المرجع السابق.

(١٨١) عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، **القول المبين في التحذير من كتاب إحياء علوم الدين**، تح: عبد العزيز آل حمد، دار المنار، السعودية، ط١، ١٤١٤، ص ٤٤ وما بعدها.

(١٨٢) ابن العربي أبو بكر القاضي، **العواصم ...**، المصدر السابق، ص ٧٩.

(١٨٣) عبد اللطيف بن عبد الرحمن آل الشيخ، المرجع السابق، ص ٤٤-٦٩.

(١٨٤) يُنظر عقيدته ومذهبه عند: عبد الهادي محبوبة، **نظام الملك**، دار المصرية اللبنانية، مصر، ط١، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م، ص١٣٨-١٤١.

(١٨٥) ابن كثير إسماعيل أبو الفدا الدمشقي، المصدر السابق، ج١٦، ص ٢١٥.

(١٨٦) ابن أبي زرع الفاسي علي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص ١٣٦.

(١٨٧) المراكشي عبد الواحد، المصدر السابق، ص ٢٣٥.

(١٨٨) مجهول، **مفاخر البربر**، تح: عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق، المغرب، ط١، ٢٠٠٥، ص ١٧١.

(١٨٩) ابن عذاري المراكشي، المصدر السابق، ج٤، ص٧٩.

(١٩٠) ابن القطان المراكشي حسن بن علي، المصدر السابق، ص٧٠-٧١.

(١٩١) محمد بن عياض اليحصبي، المصدر السابق، ١٠٦-١٠٧.

(١٩٢) هو يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن (..- ٦٢٧ هـ/..- ١٢٣٠ م) التادلي، أبو الحجاج، المعروف بابن الزيات: لغوي أديب، من قضاة المالكية. من أهل " تادلة " بالمغرب، بين تلمسان وفاس. له كتب، منها" التشوف إلى رجال التصوف" و "نهاية المقامات في دراية المقامات" وهو شرح للمقامات الحريرية، و "مناقب الشيخ أحمد السبتي دفين مراكش". التنبكتي أحمد بابا، **نيل الابتهاج بتطريز الديباج**، كلية الدعوة الإسلامية، ليبيا، ط١، ١٣٩٨هـ/١٩٨٩م، ص ٦٢٦-٦٢٧. خير الدين الزركلي، المرجع السابق، ج٨، ص ٢٥٧.

(١٩٣) محمد بن عياض اليحصبي، المصدر السابق، ص ١٠٦.

(١٩٤) عبد القادر سعدي، **أثر كتاب الإحياء للإمام الغزالي في مجتمع الغرب الإسلامي**، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في العلوم الإسلامية تخصص تاريخ وحضارة، جامعة الجزائر (١)، كلية العلوم الإسلامية، قسم اللغة والحضارة العربية الإسلامية، السنة الجامعية ١٤٣١-١٤٣٢هـ/٢٠١٠-٢٠١١، مقدمة الباحث، ص أ.

(١٩٥) عبد القادر العافية، المرجع السابق، ص١٧٦.

(١٩٦) الغزالي محمد أبو حامد، **الإملاء في إشكالات الإحياء أو الأجوبة المسكتة عن الأسئلة المشكلة المبكتة**، مطبوع آخر الإحياء، دار الشعب، مصر، د ت، مج٤، ج١٦، ص ٣٠٢٦ وما بعدها.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

الزعامات ومقاومة القبائل للاستعمار الفرنسي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية



د. عبد السلام انويكًة
أستاذ باحث في التاريخ المعاصر
المركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
فاس – مكناس – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كانت ردود الفعل التي أبانت عنها قبائل المغرب على عهد الحماية الفرنسية، بمثابة تفجير لتناقضات لصيقة بتركيبة مجتمعِ مغربٍ ما قبل الحماية. وعليه، فظواهر التمرد في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي لم تكن ترتبط فقط بضغوط استعمارية أجنبية على البلاد، بل بتناقضات داخلية حكمت العلاقة بين المركز والمحيط على امتداد فترات زمنية طويلة. وكانت سيطرة الفرنسيين على حوض إيناون بوسط المغرب وبلوغ مدينة تازة سنة ١٩١٤، قد ولد شعورًا وحماسًا كبيرًا في الجهاد عند قبائل المنطقة المناوئة لكل أشكال الأطماع الأجنبية، كما حصل في عدة جهات خلال السنوات الأولى لفرض الحماية على البلاد. وفي ضوء عوامل اجتماعية ونفسية تمكنت عدة زعامات أو قيادات محلية من كسب ثقة القبائل ودعمها بدرجات متفاوتة حسب الإمكانات والفترات. فكانت هذه الزعامات كلما أبانت عن عدم انسياقها مع تقصير السلطة في إعلان الجهاد، وعن جرأتها في تهديد قوات الاحتلال الفرنسي ومضايقة أنشطتها وتوغلاتها المجالية، كلما تقوى وزنها داخل القبائل وزادت قدرتها على إلهاب مشاعرها واستثارة نزعاتها الدفاعية. ولعل ما يثبت مكانة هذه الزعامات عند القبائل هو ما أحيطت به من تتبع استعلامي استعماري بهدف إضعافها، خاصة وأنها كانت تعتبرها آلية أساسية منشطة للعصيان (المقاومة). لدرجة أن الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب كانت ترى في هذه الزعامات داخل القبائل، خطرًا محدقًا بالأمن والاستقرار وفتيل المقاومة الأساس. وقد ظهرت هذه الرؤية الأمنية بشكل جلي مع الدعاية الألمانية في المغرب، التي استهدفت زعزعة أركان الحماية الفرنسية بالبلاد، خاصة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى وهزيمة فرنسا في معركة "الهري" الشهيرة بجبال الأطلس المتوسط سنة ١٩١٤م. كلها متغيرات داخلية ودولية قوّت من فاعلية وأدوار الزعامات السياسية ضمن قبائل منطقة تازة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٢ ديسمبر ٢٠١٧
تاريخ قبـول النشـر: ١٧ مارس ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

الفقيه الشنقيطي، الفقيه الحجامي، عبد المالك الجزائري، قبائل المغرب، قبيلة البرانس

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055408

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد السلام انويكًة. "الزعامات ومقاومة القبائل للاستعمار الفرنسي في المغرب على عهد الحماية الفرنسية".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٤٤ – ١٥١.

مُقَدِّمَة

كانت ردود الفعل التي أبانت عنها قبائل المغرب على عهد الحماية الفرنسية، نتيجة لما طرأ من متغيرات على طبيعة العلاقة التي كانت تجمع بينها وبين ممثلي السلطة (المخزن). وعليه، فإن ما ظهر من انتفاضات قبلية بعدة جهات من البلاد، كان بمثابة تفجير لتناقضات لصيقة بتركيبة وواقع مجتمعِ مغربٍ ما قبل الحماية. ومن هنا سبب عصيان عدد من القبائل وهجومها على مدن مجاورة لها، مع أهمية استحضار ما كان هناك من تفاوت تاريخي قائم على مستوى النمو والتحول بين المدن والبوادي المغربية. وعليه،

بحيث لم تكن ترتبط ظواهر التمرد في مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين الميلادي، بضغوط استعمارية أجنبية على البلاد فقط، إنما بتناقضات داخلية حكمت العلاقة بين المركز والمحيط على امتداد فترات زمنية طويلة.[١]

وكان إحكام السيطرة على حوض إيناون وسط المغرب وبلوغ تازة سنة ١٩١٤ من قِبل القوات الفرنسية، قد ولد شعورًا وحماسًا كبيرًا في الجهاد عند قبائل المنطقة المناوئة لكل أشكال الأطماع الأجنبية، كما حصل في عدة جهات خلال السنوات الأولى لفرض الحماية على البلاد. وفي ضوء هذه العوامل الاجتماعية والنفسية، تمكنت عدة زعامات محلية من كسب ثقة ودعم القبائل بدرجات متفاوتة حسب الإمكانات والفترات. فكانت كلما أبانت عن عدم انسياقها مع تقصير السلطة في إعلان الجهاد، وعن جرأتها في تهديد قوات الاحتلال الفرنسي ومضايقة أنشطتها وتوغلاتها المجالية، كلما تقوى وزنها داخل القبائل وزادت قدرتها على إلهاب مشاعرها واستثارة نزعاتها الدفاعية. ولعل ما يثبت مكانة هذه الزعامات عند القبائل هو ما أحيطت به من تتبع استعلامي استعماري بهدف إضعافها، خاصة وأنها كانت تعتبرها آلية أساسية منشطة للعصيان (المقاومة). لدرجة أن الإقامة العامة الفرنسية بالمغرب كانت ترى في هذه الزعامات داخل القبائل، خطرًا محدقًا بالأمن والاستقرار وفتيل المقاومة الأساس.[٢]

وقد ظهرت هذه الرؤية الأمنية بشكل جلي مع الدعاية الألمانية في المغرب، التي استهدفت زعزعة أركان الحماية الفرنسية بالبلاد، خاصة عند اندلاع الحرب العالمية الأولى وهزيمة فرنسا في معركة "الهري" الشهيرة بجبال الأطلس المتوسط سنة ١٩١٤م. كلها متغيرات داخلية ودولية قوَّت من فاعلية وأدوار الزعامات السياسية ضمن قبائل منطقة تازة، التي شكلت خلال هذه الفترة الحرجة من تاريخ فرنسا وِجهة لأنشطة الدعاية الألمانية في المغرب، معتمدة على دور الإعلام (الجرائد) انطلاقاً من إسبانيا وطنجة، بحيث كانت منطقة الشمال بمثابة قاعدة سياسية خلفية لكل عمليات الدعاية المعادية لفرنسا. ولتحقيق أهداف هذه الاستراتيجية الألمانية المضايقة لفرنسا خارج أوربا، وطدت ألمانيا تعاونها مع المقاومة المغربية في الصحراء (الهيبة بن ماء العينين)، ومع بعض رجالات المخزن المغربي (عيسى بن عمر العبدي، وزير الخارجية في عهد المولى عبد الحفيظ، وعبد الله بن سعيد الصنهاجي عامل مدينة سلا)، ثم مع عبد المالك الجزائري في شمال تازة.[٣] وإذا كانت ألمانيا قد اعتبرت هذه الزعامات/ الزعماء وسيلة لإضعاف فرنسا وأداة لتفجير الثورات الشعبية عن طريق دعمها سياسيا وماديا. فقد اختارت التقارير الفرنسية العسكرية نعت هؤلاء، بالمنشقين والمتمردين في محاولة للتقليل من شأنهم.[٤] فماذا الزعامات في المقاومة المسلحة بقبيلة البرانس ضمن مجال حوض اناون خلال العقود الأولى لِما سمي التهدئة في المغرب خلال فترة الحماية الفرنسية على البلاد؟

أولاً: الفقيه الشنقيطي بين روح الزعامة والدعوة للجهاد بمجال قبيلة البرانس

من الزعامات السياسية الجهادية التي تميزت بنفوذ معنوي وتواصلي عند قبائل تازة ومنها قبيلة البرانس، هناك "الفقيه الشنقيطي" الذي أسهم بأدوار أساسية في تحريض قبائل المنطقة على الانتفاض والجهاد منذ السنوات الأولى لاحتلال تازة. فقد سارعت قبائل المنطقة للجهاد واختارت منذ شهر ماي ١٩١٣م "الشنقيطي" سلطانًا لهذه العملية، حتى بعد دخول الجيش الفرنسي بإيعاز من الزاوية الدرقاوية بتازة. وقد ظلت حركته نشيطة في شمال هذه المدينة بتنسيق مع حركة عبد المالك الجزائري، الذي إلتحق بصفوف الجهاد في مارس من سنة ١٩١٥،[٥] وهي الوقائع التي تدل على الدور الجهادي النشيط للصوفية بالمنطقة.

وكانت التقارير السرية الشهرية للإقامة العامة بالمغرب نهاية سنة ١٩١٤م قد تحدثت عن صعوبة الوضعية في منطقة تازة، وعن أهمية اتخاذ الحذر بشكل مستمر مشيرة إلى أن وقع الهجمات تقوى على أطراف ونواحي تازة (القبائل). وأنه رغم جهود "الشنقيطي" الذي كان يبحث عن تنظيم حَرْكةٍ تجاه مجال قبيلة البرانس، فإن هذه القبيلة لم تظهر سوى قليلاً من الحماس في مهاجمة القوات الفرنسية خلال هذه الفترة.[٦] ففي يناير من سنة ١٩١٥ كانت تحركات "الشنقيطي" وأنشطته بالقبيلة على درجة هامة من التأثير، بفعل تزايد أتباعه من أهالي المنطقة وإقدامهم على تنظيم هجمات على عدة مراكز عسكرية. الأمر الذي خلق وضعية أمنية حرجة دفعت القوات الفرنسية لتوجيه عمليات عسكرية، قامت بها

مجموعة عسكرية متنقلة تابعة لتازة قادها المقدم (Derigion) إلى موقع سيدي أحمد زروق. ورغم ما أبدته قبيلة البرانس من مقاومة فإن عدم تكافؤ الإمكانات التقنية والبشرية، جعلها تتراجع إلى المرتفعات ليتم احتلال هذا المركز بعد قتال دام عدة ساعات.[٧]

وقد وصفت جريدة السعادة (فبراير من سنة ١٩١٥م) "الشنقيطي" بالمتمرد وبإذكائه للفتنة بين قبائل تازة فأوردت: "أما في ناحية فاس وتازة فما زال الشنقيطي يعيث فساداً في قبيلة البرانس، ولكن كلمة هذه القبيلة لم تجتمع على المذكور ورفض عدد من أفخاذها الانحياز إليه".[٨] وكانت أنشطة الفقيه الشنقيطي قد أجبرت القوات الفرنسية على التوجه إلى شمال تازة حيث قبيلة البرانس، ومن جملة عملياتها العسكرية بالمنطقة على أثر ذلك تلك التي قادها الكولونيل "بيلوكس" الذي اعتمد فيها على أربعة كتائب، وعلى سريتين كانتا تابعتين للمجموعة المتنقلة المتمركزة بتازة موظفًا ترسانة أسلحة ثقيلة (مدافع). وكانت قصبة بني ورياغل بالبرانس أول وجهة للتوغل الفرنسي، بعد مواجهة حدثت بمنطقة مكناسة السفلى كلفت الجيش الفرنسي قتيلاً واحدًا وأربعة جرحى في يوم ٢١ يناير ١٩١٥م. وقد تعقدت الوضعية أكثر حينما قصد الكولونيل "بيلوكس" في اليوم الموالي مركز سيدي أحمد زروق، بحيث كانت خسائره جسيمة بسبب الثلوج والأمطار والبرودة الشديدة.[٩] ويظهر أن المقاومة الشعبية القبلية التي انطلقت من الجبال والبوادي كانت على درجة عالية من الأهمية، لارتباطها بشعور وطني لم يكن يقتصر على جهة دون أخرى، ذلك أن البادية (القبائل) لم تكن راضية على ما آلت إليه الأوضاع مع السيطرة الأجنبية على البلاد. وعليه، فقد شكلت هذه المقاومة القبلية بهذه التلقائية أمرًا واقعًا في مواجهتها لقوات الاحتلال، متخذة من الجهاد في البوادي شعارًا لها عوض الاستسلام والقبول بالأمر الواقع.[١٠]

وكانت الاندفاعية التي ميزت مقاومة قبائل تازة ومنها البرانس، وراء بروز زعامات جهادية منها حركة الفقيه "الشنقيطي"، الذي تقوت أدواره منذ سنة ١٩١٣م أي بعد فرض الحماية على المغرب وقبل احتلال تازة، وتنصيبه ملكًا من طرف قبائل المنطقة ومنها البرانس.[١١] والشنقيطي هذا استقر بتازة بمساعدة الزاوية الدرقاوية عام ١٩١٣ وكان يُعرف كذلك بـ "الحاج محمد بن المامون"، اشتغل مدرسًا بالجامع الأعظم بهذه المدينة قبل مبايعته سلطانا في ماي من السنة نفسها بهدف تنظيم الجهاد ومقاومة الاحتلال.[١٢] وقد انتقل إلى فاس وهو في حوالي الثلاثين من عمره، حيث تم استقباله بحفاوة من قِبل علماء السلطان مولاي عبد العزيز عام ١٩٠٧م. ودرس لمدة قصيرة مادتي النحو والحديث بجامع القرويين ومدرسة العطارين، قبل أن يتوجه إلى مكة لأداء فريضة الحج المناسبة التي تمكن خلالها من زيارة مدن القدس ودمشق وبيروت والإسكندرية. قبل أن يعود إلى المغرب سنة ١٩١٠م ثم إلى فاس التي قضى بها مدة قصيرة، ليرحل من جديد إلى الصحراء عبر تازة متأثرًا بسياسة مولاي عبد الحفيظ. ونزولا عند رغبة أهل هذه المدينة قبل بمهمة التدريس بها، ثم الانخراط إلى جانبهم في مقاومة الفرنسيين بعدما تم اختياره سلطانًا عليهم. وبعد سنتين من الإقامة بتازة تحول الشنقيطي بحسب ما أورته حوليات إفريقيا الفرنسية، إلى عنصر مؤطر وموجه للمقاومة عند قبيلة البرانس، فقد توجه للبحث عن مدعمين له ضد فرنسا وكان يوقع رسائله ب: "سلطان ملوية وتازة والنواحي"، ويوفر حاجياته من الأسلحة والعتاد بالاعتماد على وكيل وممثل ألماني بمدينة مليلية. وإلى حدود سنة ١٩٢٥ توجه الشنقيطي لمقاومة التوغل الإسباني ثم الفرنسي، فسقط أسيرًا أواخر هذه السنة لتسمح له السلطات الفرنسية بالإقامة من جديد في مدينة تازة.[١٣]

ثانيًا: الفقيه الحجامي بين التنسيق الجهادي وقيادة القبائل

بناءً على رسالة تم العثور عليها من قِبل قوات الكولونيل "كُورو"، بعد انهزام الفقيه الحجامي على ضفاف نهر سبو، تبين أن استراتيجية حصار مدينة فاس كانت خاضعة لتعليمات دقيقة تعلقت بكيفية تموقع القبائل المهاجمة للمدينة، وكانت القوة الممثلة لقبيلة البرانس عن تازة ضمن المجموعة التي اختير لها باب الجنود بفاس. وكان الشريف محمد بن أحمد الحجامي هذا كقائد ومنسق لعملية الجهاد، قد انطلق في عملياته بالاعتماد على قبائل ناحية تازة ومنها البرانس وعين لكل قبيلة الجهة التي ستهاجم منها العاصمة فاس. ففي ماي من سنة ١٩١٢م هاجمت القبائل المدينة من جهات معلومة، ودارت

معارك دموية تمكن خلالها هؤلاء من دخول فاس، لدرجة إقدام البعض على صعود قبة ضريح مولاي إدريس وأخذ علم من أعلامه كان يصحبه "الحجامي" معه في جميع أسفاره.[١٤]

وعليه، فإن هذه المقاومة القبلية الجماعية عشية فرض الحماية على البلاد، كانت بمثابة ثورة قروية الأصول ضد الزحف الفرنسي. وقد تشكل رد الفعل هذا من قبل مجاهدين ألهبوا الحماس الشعبي خلال هذه الفترة من تاريخ المغرب، كما الحال بالنسبة للحجامي، الذي جابه القوات الفرنسية بعزة نفس رغم تباين الإمكان القتالي.[١٥] وكان حصار العاصمة فاس من طرف قبائل الجوار بتأطير وتنظيم من الفقيه الحجامي، بمجرد إعلان توقيع عقد الحماية ١٩١٢م. لدرجة أن الجنود المغاربة العاملين مع المخزن تمكنوا من الفرار من خدمتهم والتحقوا رفقة أسلحتهم بالقبائل، وهو ما مكن من تكثيف عدد الرجال المحاصرين للعاصمة فاس والذين بلغ عددهم حوالي ٢٠ ألف.[١٦]

ويذكر محمد حسن الوزاني أنه في العاشر من ماي ١٩١٤م، شنت القوات الفرنسية هجوما على قبيلة البرانس والتسول بقوة تعدادها ستة آلاف جندي، فكانت من أشد المعارك التي دارت رحاها في المغرب. وأورد "ليوطي" المقيم العام الفرنسي بالمغرب حول هذه المعارك التي دامت خمسة أشهر، أن هذه القبائل المحاربة كانت تحت قيادة "الحجامي"،[١٧] الذي برز ضمن زعامات المرحلة متزعماً قبائل البرانس واتسول وغياتة، رغم قلة عدته وعتاده أمام قوات احتلال مدعمة بأسلحة حديثة وطيران حربي، حيث واصلت القبائل كفاحها بقيادة هذا الزعيم لحوالي عقدين من الزمن.[١٨] وإذا كانت مقاومة البرانس للاحتلال الفرنسي قد اتخذت طابعا محليا ولم تفرز شخصيات محلية، فقد أبانت عن غيرة وطنية منذ فرض الحماية من خلال انضمامها لدعوة هذا الأخير في الجهاد.[١٩]

وقد أسهمت متغيرات الحرب العالمية الأولى في إرباك تدبير الأمور الأمنية والعسكرية بالمغرب، الوضع الذي استغله قبيلة البرانس لاستنفار قبائل الجوار والالتفاف حول القيادي المحلي مولاي محمد الغازي، الذي شكل نواة مشروع جهادي اعتماداً على أهل "وربة" وعلى القاسم المشترك الروحي والثقافي لأحمد زروق، الضريح الذي كان منطلقاً لهذه الحركة يوم ١٤ غشت ١٩١٤م. غير أن هذه المحاولة المبكرة لم تكلل بالنجاح لأسباب عدة منها الإمكانات البسيطة المعتمدة، وإخفاق تحقيق تنسيق مع الفقيه الشنقيطي من أجل خلق قيادة مشتركة. فبعد تجميع القوام القتالي القبلي محليًا والإقدام على هجمات ضد قوافل عسكرية فرنسية، تبين على إثر خسائر معتبرة أن القدرات القتالية غير متكافئة بين الطرفين، فكان انسحاب محمد الغازي للعبادة في زاوية "كركر" مما أثر على نهاية هذه التجربة الجهادية المحلية.[٢٠]

ثالثًا: عبد المالك الجزائري ومجال قبيلة البرانس

سواء قبل فرض الحماية على المغرب بعدة سنوات أو بعدها إلى غاية مقتله في نواحي مليلية عام ١٩٢٤، كان "عبد المالك الجزائري" بدور كبير في المقاومة المسلحة بمنطقة تازة، مشكلا تجربة وزعامة محلية لم تلق بعد ما هو كافٍ من البحث في حقل التاريخ العسكري الوطني. وكان هذا الزعيم قد اضطلع بأدوار هامة في فترتين متميزتين من تاريخ الحماية، الأولى منها ارتبطت بالحرب العالمية الأولى من مارس ١٩١٥ إلى نونبر ١٩١٨م والثانية من بداية ١٩٢١م إلى حدود صيف ١٩٢٤م. وقد بدأت الإدارة الفرنسية في المغرب تعمق اهتمامها بأخبار عبد المالك منذ سنة ١٩١٥ في عز الحدث العسكري الأوربي الكبير، اهتمام تقوى بسبب ما كانت تنشره وسائل الإعلام الألمانية وبعض الصحف الإيطالية والسويسرية حول ثورته في المغرب، وتَحكُّمه في عدة مدن ومناطق كما هو الأمر بالنسبة لتازة.[٢١] وعبد المالك الجزائري[٢٢] كان حاضرًا بناحية تازة زمن حركة الفقيه الزرهوني (بوحمارة)، بحيث حظي باحترام وتكريم كبيرين عند قبيلة غياتة التي كانت تتظاهر بتعاطفها معه على أنه أحد المدافعين عنها.[٢٣] وكان هذا الزعيم قد سبق له أن كان عضوًا في مجلس الشيوخ العثماني،[٢٤] تلقى إعلان الجهاد من قبل السلطان العثماني وعليه إلتحق بمنطقة تازة لتولي عملية التنسيق.[٢٥]

وفي مارس ١٩١٠م اجتمعت قبائل المنطقة ومنها البرانس وقبلت بشكل نهائي مولاي عبد الكبير قائدا عسكريا لها، بعد أن تمكن من السيطرة على قصبة امسون غير بعيد عن تازة مدعماً من طرف عبد المالك. حيث تم التمكن من إغلاق ممر تازة بالقوة أمام المحلة

المخزنية التي كان يقودها ويرأسها بوشتى البغدادي، وفي هذا الخضم كانت أنشطة عبد المالك الطامع في السلطة تسير وبشكل قوي عندما أعلنته قبائل غياتة والحياينة واتسول والبرانس سلطانا عليها في تازة.[٢٦]

وكان عبد المالك الجزائري قد رهن بعض ممتلكاته سنة ١٩١٥م، وأرسل عائلته إلى إسبانيا ثم غادر فجأة مدينة طنجة عبر قبيلة الأنجرة وبني زروال. ليصل في غشت من السنة نفسها إلى نواحي تازة، حيث استقر بجنوبها عند قبيلة غياتة على رأس قوات مسلحة تسليحًا جيدًا. ومنذ هذا التاريخ بدأ يرد هذا الاسم في وثائق وتقارير فرنسية، كأخطر الزعامات التي تواجه فرنسا بالمغرب وتهدد مشاريعها. مستفيدًا من مستوى علاقاته بالقبائل المحلية وخبرته بالمغرب وبرجال الحماية الفرنسية، واستقراره في منطقة ذات استراتيجية في منتهى الأهمية بها قبائل توجد على خط الحدود بين منطقة النفوذ الإسبانية والفرنسية.[٢٧] وحول الوضعية السياسية والعسكرية بمنطقة الحماية الفرنسية بالمغرب خلال شهر شتنبر ١٩١٥، ورد بخصوص منطقة تازة أن عبد المالك بن محي الدين هذا، لم يتمكن من توحيد فروع قبيلة غياتة تحت إمرته بسبب الاختلاف الحاصل بينها. وأنه غادر مجال القبيلة متوجها صوب قبائل ما تزال عصية على الاحتلال شمال تازة، وكله أمل في تقوية حماس الأهالي الذين أبانوا آنذاك عن عدم تجاوب مع أهدافه.[٢٨] وخلال أبريل ١٩١٥م تعقدت الأمور أكثر بالمنطقة عندما تحولت قبيلة البرانس صوب عبد المالك، الذي كان يقوم بتحريض واسع في أفق دفع الأهالي للثورة والتمرد انطلاقًا من المنطقة الإسبانية، وهي الوضعية التي زادت من اهتمام الإدارة والقوات الفرنسية بقبيلة البرانس.[٢٩]

وقد اعتبرت فرنسا "عبد المالك" خصمها الأساسي في المغرب وبالشمال تحديدًا، حيث القرب من مجال النفوذ الإسباني ومن مليلية قاعدة عملياته العسكرية مستفيدًا من دعم الألمان وتموينهم له، حيث الصراع كان ألمانيًا فرنسيًا داخل مجال مغربي. ولم تكن ألمانيا قد فقدت أملها في قوتها ورغبتها في استرجاع مكانتها العسكرية بإفريقيا الشمالية، كما أن الانتفاضات المسلحة سواء بجنوب أو شمال المغرب كانت تتم عبر اتصالات بين عبد المالك الجزائري والمقاومة، نظرًا لما كان يقدمه من تشجيع لها ومن تأكيده على دعم ألمانيا[٣٠] التي كانت تستغل صعوبة الوضعية الداخلية في حوض ورغة والمجال الممتد من فاس حتى البرانس بشمال تازة.[٣١]

ورغم أن عبد المالك كان مجرد أداة مأجورة في يد الألمان فقد كان يصعب توجيهه،[٣٢] وعدم افتقاره للمال مكنه من القيام بعدة أنشطة سياسية لوقف رغبة مغراوة وأولاد بوريمة وكَزناية ثم قبيلة البرانس في الاستسلام للفرنسيين. مقدمًا للذين فقدوا أراضيهم الفلاحية بسبب توغل القوات الفرنسية تعويضًا بلغ ١٠٠ دورو، بل كان يُضاعف هذا التعويض تقريبًا ثلاث مرات للأعيان وللراغبين في الانضمام إليه.[٣٣] وقد اعتبرت الإقامة العامة بالمغرب أن دعم الألمان لعبد المالك في المغرب، هو بالأساس من أجل إثارة الاضطراب في المنطقة السلطانية وإحداث متاهات، لشغل قوات فرنسا عن الحرب بضرب وجودها وأمنها في المغرب. وعليه، فقد كانت تؤكد على أهمية الاتصال الذي كان جاريًا بين الألمان وهذا الثائر في شمال تازة (البرانس)، بحيث كانت المنطقة الخليفية بمثابة وجهة استراتيجية للدعاية الألمانية.[٣٤]

وكرد فعل على ما كانت تشكله هذه الأنشطة من مخاطر أمنية انطلاقًا من المنطقة الخليفية، أقدم ليوطي على تعيين الجنرال هنريس عام ١٩١٤م قائدًا عامًا لمنطقة الشمال ضمن مجال النفوذ الفرنسي، بهدف الضغط على القبائل الثائرة واحتوائها اعتمادًا على نقاط مراقبة ثابتة.[٣٥] وقد ظلت كل جهود الإدارة العسكرية الفرنسية بالمغرب في هذه الفترة، موجهة لجبهة شمال تازة التي كانت تقريبا منشقة.[٣٦] ففي سنة ١٩١٦ اجتمعت قبيلة البرانس مع أتباع عبد المالك الجزائري الذي تمكن من تنظيم هجمات خلال شهر غشت من السنة نفسها، استهدفت مركز باب مروج بعدما تمكن من استمالة قبيلة البرانس ودفعها للمقاومة. ورغم الخسائر التي تلقاها عبد المالك رفقة أتباعه من القبيلة، تمكن خلال شهر يوليوز من الهجوم على معسكر جبل الحلفة، والذي كلف القوات الفرنسية خسارة ضابط واحد وخمسة جرحى.[٣٧]

وكان قد رُوِّج عن عبد المالك كونه شريكا لأطماع ألمانيا في المغرب، وأداة لعزل فرنسا عن الجزائر بالسيطرة على ممر تازة، عبر دفع قبائل المنطقة للعصيان بفضل ما تهيأت له من إمكانيات مادية

ساعدته على ذلك. فقد توفر على كمية هامة من الأسلحة الألمانية، وعلى جهاز مهم للاستخبارات ومعسكرات محاطة بعدد من الخنادق ذات تهيئة جيدة.[٣٨] وقد أشار ليوطي إلى أن عبد المالك كان يستفيد من خدمات عدد هام من التقنيين الألمان، كانوا يوفرون له خدمات تدريب وتكوين وتنظيم، كما كانوا يسهمون في تقوية أطماعه غير الهامة إنما المتوقعة.[٣٩] وفي خطاب موجه للمقاومين من القبائل ذات العلاقة بعبد المالك، أضاف ليوطي أنه منذ عدة سنوات كانت ألمانيا ومعها تركيا تستأجر وتدفع الأجر، لِمَنْ يقلق راحة الأهالي ويدفعهم للهجوم على مراكز القوات الفرنسية حتى يكونوا لوحدهم ضحايا مدفعيتها ورشاشاتها.[٤٠]

وقد سجلت الوثائق الفرنسية أخبار عبد المالك، فوصفته بالشخص الذي كان قد تحول إلى أخطر العناصر المناهضة لفرنسا بالمغرب. بحيث يقول ليوطي في أحد تقاريره الموجهة لوزير الحربية Berthou بتاريخ ٢٥ يونيو سنة ١٩٢١م، "إن كل القبائل المجاورة لورغة والتي كان البعض منها يدور في الفلك الفرنسي انضمت لعبد المالك، وأن هذا الأخير يدير المنطقة التي يسيطر عليها بعدل ونظام وبحكمة ورزانة مع حفاظه على كل التقاليد والأعراف وأنه يتمتع بنفوذ قوي كشريف أولا وكأمير له ثقافة واسعة". ويضيف حول موقف عبد المالك من فرنسا فيقول: "إن عبد المالك لا يعادي الآن الفرنسيين وهو لا يتحدث أبدًا عن الاستسلام لهم وإنما عن هدنة معهم، ويرغب في الاتفاق مع فرنسا من أجل استقلاله بالمنطقة التي يحتلها".[٤١]

وفي غشت (أغسطس) ١٩١٨م تقوت الانتفاضات في شمال تازة، وقام عبد المالك المدعم من ألمانيا بالضغط على القبائل الخاضعة. الأمر الذي دفع الإدارة العسكرية الفرنسية لتنظيم عملية استطلاعية ضد هذا الأخير، عبرت منطقة "الروف" ثم مرتفع "باب تارمست". وأحكمت السيطرة على "سوق الأحد"، قبل انتقالها إلى مرتفع "تزي تايدة" العمليات التي تمت في ظروف صعبة بمنطقة تضاريسها جبلية ومسالكها وعرة. وبعد تخريب معسكر "الكيفان" المكان الذي كان يتلقى فيه أتباع "عبد المالك" تداريبهم، مستفيدين من خبرة الألمان، أقدم الفرنسيون على بناء مركز خاص بالمراقبة بعين المكان مع مجموعة أبراج في النواحي بنفس المهام. وأمام هذا الضغط العسكري توجه عبد المالك الجزائري إلى صنهاجة، حيث أُخرج من معسكر "بوهارون" ولجأ إلى الريف، لتنتهي طموحات الألمان في المغرب بالفشل أمام فرنسا.[٤٢]

وكان "عبد المالك الجزائري" قد دخل شمال تازة الجبهة المتاخمة للريف، ومنها توجه إلى منطقة بني بوعلة بقبيلة البرانس في ربيع ١٩١٧م. وهو ما دفع القوات الفرنسية لتنظيم عملية عسكرية بقيادة العقيد Aubert في ١٣ يونيو من السنة نفسها، تعرضت لهجمات من قبل أتباع عبد المالك وتمخضت عنها خسائر شملت الطرفين.[٤٣] ونظرًا لما كان لهذه الأحداث العسكرية من تأثير على القوات الفرنسية بالمنطقة، شن الجنرال Cherrier غارة على قبيلة البرانس في ١٦ أبريل من السنة نفسها شملت الأطراف المجاورة لوادي لحضر، حيث تم إحراق المحاصيل الزراعية للضغط على القبيلة. وبعد معارك متفرقة منذ شهر يوليوز ١٩١٧م بغرب قبيلة البرانس (بوهارون، وبني بوعلة...) ومطاردات للمقاومين البرنوسيين التابعين لعبد المالك، اختفى هذا الأخير وتم إخضاع القبيلة.[٤٤] وكانت قبائل الجبال الممتدة على الحدود مع المنطقة الخليفية، كما الشأن بالنسبة لتازة ومجال قبيلة البرانس بها، قد خاضت معارك عنيفة ضد القوات الفرنسية برز خلالها عبد المالك بالمنطقة مستغلا الصراع الفرنسي الألماني.[٤٥]

خَاتِمَةٌ

لقد كان لتجاوب قبائل المغرب ومنها قبيلة البرانس مع زعامات محلية لمقاومة الاستعمار الفرنسي بالمغرب على عهد الحماية، من قبيل الفقيه الشنقيطي والفقيه الحجامي وعبد المالك الجزائري بكيفية خاصة، أثره الواضح في إرباك الاستراتيجية العسكرية الاستعمارية الفرنسية بمنطقة حوض ايناون وسط البلاد، إنْ زمنيًا بتأخير أهدافها المجالية والسياسية أو من حيث تكلفتها البشرية والمادية، هذا قبل أن تنضم القبيلة لثورة الريف الشهيرة سنة ١٩٢٥م مُسهمة في خلق وضع جديد، كاد أن يعصف بالنفوذ الفرنسي في المغرب لولا استسلام محمد بن عبد الكريم الخطابي بعد عمليات تنسيق استراتيجية عسكرية بين القيادتين الفرنسية والإسبانية.

الهَوامِشُ:

(١) الهراس المختار، **القبيلة والسلطة، تطور البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي، مطبعة الرسالة، الرباط، ١٩٨٨، ص١٦٦.

(2) Daniel Rivet, Lyautey et L'Institution du Protectorat au Maroc 1912-1925, T 2 Edition l'Harmattan, Paris, 1988, p 137.

(٣) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، ج. ٩، ط١، مطبعة شركة ناس للطباعة، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٣٦٩.

(4) Archive National de Rabat, Rapport Mensuel du Protectorat, juillet 1916, P.7.

(٥) الوارث أحمد، **التيار الصوفي ومقاومة المد الإمبريالي**، ندوة علمية، المقاومة والحركة الوطنية بجهة تازة– الحسيمة – تاونات، منشورات المندوبية السامية للمقاومة، ٢٠٠١، ص ٢٦٧.

(6) Rapport Mensuel d'Ensemble du Protectorat, décembre1914, pp1– 2.

(7) Voinot L. C. Sur les Traces Glorieuses des Pacificateurs du Maroc, op. cit, p 145.

(٨) دحمان محمد، **المجاهد الشيخ محمد المامون وقبائل تازة**، ندوة المقاومة المسلحة وجيش التحرير بمنطقة تازة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ٧٩.

(٩) Voinot L. C. op. cit, p 122.

(١٠) التمساني خلوق عبد العزيز، **جوانب من المقاومة المسلحة في شمال المغرب، ١٩١٣-١٩٢٠**، ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، أكادير ١٩٩١، منشورات المندوبية السامية للمقاومة، طبعة ثانية، ٢٠٠٨، ص١٤١.

(١١) الركَوك علال، **مراحل احتلال تازة منذ سنة ١٩١٤**، مجلة الذاكرة الوطنية، ندوة تازة حول المقاومة المسلحة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١٠٣.

(١٢) البكراوي محمد، **مقاومة قبائل ناحية تازة للاحتلال الفرنسي (١٩١١-١٩١٨)**، مجلة الذاكرة الوطنية، ندوة تازة حول المقاومة المسلحة، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١١٨.

(13) Cagne Jacques, Un Grand Nom de la Lutte Contre La Pénétration Etrangère Au Maroc, Muhammad Al-Ma'mun, Revue Dar Alniaba, N°8, Tanger, 1985, p 30.

(١٤) العلوي زين العابدين، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني**، ج٢، المغرب في عهد السلطان المولى يوسف، Editions Idguel، الرباط، ٢٠٠٩ ص ١٦١.

(١٥) التمساني عبد العزيز خلوق، **مقالات ووثائق حول تاريخ المغرب المعاصر**، منشورات سليكي إخوان، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٧، ص ٢٠-٣٠.

(16) Lugan Bernard, Histoire du Maroc des Origines à Nos Jours, Librairie Académique, Perrin, 2001, p 244.

(١٧) الوزاني محمد حسن، **مذكرات حياة وجهاد، التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية**، ج ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٢، ص ٤٢٤.

(١٨) اللوه العربي، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، مطابع الشويخ، تطوان، ١٩٨٢، ص ١٧٥.

(١٩) بوزويتة سمير، **مساهمة قبيلة البرانس في مقاومة الاستعمار الفرنسي ١٩١٢- ١٩٢٥**، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، مطبعة عكاظ، ٢٠٠١، ص ٩٩.

(٢٠) نفسه، ص ١٠٠.

(٢١) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين، وثائق عهد الحماية رصد أولي، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي**، منشورات كلية الآداب الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥٧، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص.٧٧- ٧٨.

(٢٢) هو أصغر أبناء الأمير عبد القادر الجزائري وفي هذا الأمر اختلاف بين الباحثين، كان ملحقًا بقصر السلطان عبد الحميد العثماني بإسطنبول، دخل المغرب سنة ١٣٢١هـ، تحول إلى وزير في حركة تمرد الفقيه الزرهوني، ثم تعاون مع المخزن المغربي بعد خلافاته معه ١٣٢٢هـ. عند اختياره للعصيان في عهد المولى عبد الحفيظ، التحق في إحدى محطاته الدعائية بقاضي البرانس شمال تازة السيد إبراهيم البرنوسي، الذي آواه وجمع عليه القبيلة، وبعد توسط لقنصل فرنسا بفاس لدى عبد الحفيظ، عين رئيسا لبوليس طنجة ونائبا لوزير الحرب، وعندما اندلعت الحرب العالمية الأولى انقلب ضد فرنسا بعد انتقاله إلى المنطقة الخليفية. لمزيد من المعطيات يمكن الرجوع لـ: الخلوفي محمد الصغير، **انتحار المغرب الأقصى بيد ثواره**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة جديدة، ١٩٩٤.

(23) Un Correspondant de Révolution, Journal d'un Israélite de Fès, 1908-1910, p. 149.

(٢٤) الفيلالي عبد الكريم، **التاريخ السياسي للمغرب العربي الكبير**، مرجع سابق، ص ٤٣.

(25) Louis Barthon, La Bataille Du Maroc, Librairie Ancienne Honoré Champion, Paris, 1919, p 41.

(26) Un Correspondant de Révolution, op. cit, p 173.

(٢٧) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين، وثائق عهد الحماية رصد أولي**، إنجاز الجمعية المغربية للبحث التاريخي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٥٧، طبعة أولى، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص ٨٠-٨١.

(28) Bulletin Officiel, Empire Chérifien, Protectorat de la République Française au Maroc, N°153, 27 Sept. 1915, p.619.

(29)Voinot L. C. Sur les Traces Glorieuses des Pacificateurs du Maroc, Charles- Lavauzelle, Paris, 1939, p 123.

(30)Augustin Bernard, la France au Maroc, Annales de Géographie,1917, vol. 26, n°139, p. 49.

(31) Lyautey L'africain, Textes et Lettres, 1915 -1918, T2, Librairie Plon, Paris, 1954, p 18.

(32)Ibid, p 190.

(33)Rapport Mensuel du Protectorat, juillet 1918, p 4.

(34)Voinot louis colonel, Sur les Traces Glorieuses, op. cit, p154.

(35)Vial Jean, Le Maroc Héorique, Librairie Hachette, Paris, 1938, p 111.

(36)Bordeaux Henry, Le Visage du Maroc, La France et son Empire, Collection Dirigée par Madame Paule de Masclary, Editions Colbert, paris.

(37)Voinot L. C. op. cit, p 148.

(38)Reinach Joseph, La Guerre de 1914-1918, Les Commentaires de Polype, 14éme série Bibliothèque Charpentier, Paris 1918, pp 329-330.

(39)Lyautey. Paroles d'Action (1900-1926), Librairie Armond Colin, Paris 1927, p 255.

(40) Iibid, 263.

(٤١) بناني عثمان، **عبد المالك الجزائري من خلال محفوظات فانسين**، مرجع سابق، ص ٨٥.

(42)Commandant, Chef l'Escadron du Bois, 8éme Groupe d'Artillerie, Coloniale d'Afrique, Historique Sommaire, Campagne d'Afrique, 1904-1919, juil. 1919, p7.

(43)Voinot L.C.Sur les Traces Glorieuses des pacificateurs du Maroc, op. cit, p 129.

(٤٤) بوزويتة سمير، **المقاومة البرنوسية للاحتلال الفرنسي**، مجلة الذاكرة الوطنية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ٢٠٠١، ص ١٥٧.

(٤٥)اللوه العربي، **المنهال في كفاح أبطال الشمال**، مطابع الشويخ (دسبريس)، تطوان، ١٩٨٢، ص ١٧٦.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

تطوان والمجتمع التطواني من خلال رحلة بوطوكي (١٧٦١ - ١٨١٥)



أ.د. مصطفى غطيس
أستاذ التاريخ القديم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد الملك السعدي – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

كان بوطوكي Jan POTOCKI أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد السلطان العلوي المولى اليزيد (١٧٩١). وتعتبر رحلته إلى تطوان، في شمال المغرب، (من ٢ إلى ٢٠ يوليوز ١٧٩١) من أهم رحلات الأجانب الذين وصفوا هذه الحاضرة وسكانها. فلقد كان الرجل من ذوي الاطلاع الواسع، دقيقًا في ملاحظاته للناس وطبائعهم، وكذا في وصفه الغني للمدينة وأرباضها؛ وأخذ من مناهل العلم أنّى كانت، واطّلع خلال مقامه بالمدينة على كل ما أمكنه الاطلاع عليه من كتب، على اختلاف مشارب أصحابها، يهودًا كانوا أو عربًا... ولقد ترك لنا في رحلته وصفًا دقيقًا لمدينة تطوان ومجتمعها في أواخر القرن الثامن عشر. وهي تشتمل على بعض التفاصيل الهامة التي من شأنها إغناء تاريخ المدينة خاصة، والمغرب عامة. وهذه الرحلة متميزة بالنظر إلى الثقافة الموسوعية لصاحبها الذي كان فذًّا في علمه، ونموذجًا لمثقف عصر الأنوار المتضلع من كل علوم زمانه، وهي العلوم التي تتجلى بين فقرات رحلته، من خلال أسماء مشاهير العلماء ومؤلفاتهم. ويتميز صاحب هذه الرحلة بروح الملاحظة ودقة الوصف. وهذا ما مكّنه من الوقوف على أوجه الشبه والاختلاف بين حاضرة تطوان والمغرب من جهة، والمشرق وأوربا من جهة ثانية... وتشتمل الرحلة على وصف دقيق لبعض أبواب المدينة، ومبانيها، ومساجدها، ودروبها، وغِرَسِها الجميلة، وطيورها، وحيوانات أحوازها... كما يحدثنا عن المجتمع التطواني، بوصفه بعض أفراد الخاصّة وبيوتاتهم ونمط عيشهم، وثقافتهم؛ ويصف العامة من خلال ملبسها وسلوكها وبعض ألعابها... ويحدثنا عن وضعية اليهود في المدينة، وبُغض المغاربة الشديد للإسبان... وتبقى هذه الرحلة وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ المغرب عامة، وتاريخ تطوان خاصة، خلال القرن الثامن عشر.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٧ مارس ٢٠١٨
تاريخ قبول النشر: ٢٨ يونيو ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

المغاربة، النساء، اليهود، الأجانب، الفروسية

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055409

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى غطيس. "تطوان والمجتمع التطواني من خلال رحلة بوطوكي (١٧٦١-١٨١٥)".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٥٢ – ١٧٤.

مُقدِّمَةُ

تعتبر رحلة بوطوكي[1] (Jan POTOCKI) إلى تطوان (من ٢ إلى ٢٠ يوليوز ١٧٩١) من أهم رحلات الأجانب الذين وصفوا هذه الحاضرة وسكانها ؛ وهي تشتمل على بعض التفاصيل الهامة التي من شأنها إغناء تاريخ المدينة خاصة، والمغرب عامة. وهذه الرحلة متميزة بالنظر إلى الثقافة الموسوعية لصاحبها الذي كان فذًّا في علمه، ونموذجًا لمثقف عصر الأنوار المتضلع من كل علوم زمانه، وهي العلوم التي تتجلى بين فقرات رحلته، من خلال أسماء مشاهير العلماء ومؤلفاتهم... فلقد كان الرجل من ذوي الاطلاع الواسع، دقيقًا في ملاحظاته للناس وطبائعهم، وكذا في وصفه الغني للمدينة وأرباضها ووسطها الطبيعي؛ وأخذ من مناهل العلم أنىّ كانت، واطّلع خلال مقامه بالمدينة على كل ما أمكنه الاطلاع عليه من كتب، على اختلاف مشارب أصحابها، يهودًا كانوا أو عربًا... فما هي المعلومات

التي خلفها لنا بوطوكي حول تطوان وأهاليها في أواخر القرن الثامن عشر ؟

وصول بوطوكي إلى تطوان

وصل بوطوكي إلى تطوان بحرًا، يوم السبت ١٧٩١/٧/٢، قادما إليها من جبل طارق، صحبة سيدي التاودي بوهلال الذي حدثه عن تجارة آل بوهلال في السودان، وعن رحلته الحجازية التي نهب البدو كل أمتعته خلالها[٢]. وهذه هي ثالث رحلات بوطوكي إلى إفريقيا[٣]. ولقد استيقظ الرحالة بوطوكي في سفينته وهي تقترب من تطوان، الحاضرة التي تقع، حسب وصفه، على بعد فرسخ من شاطئ البحر المتوسط، في موضع تنفرج فيه جبال سلسلة الريف[٤]، وتكشف عن أودية أكثر اخضرارًا. ويتساءل الكاتب: هل هو بصدد كتابة حكاية رحلته؟ ثم يجيب بالنفي قائلاً إنه يحس وكأنه استسلم لشعور قوي لا يحس به إلا الرحالة. ويضيف بوطوكي: وإذا ما قمت بنشر يوميات رحلتي هاته، فسأكون بعملي هذا قد استسلمت لذلك الشعور. ثم إنني أول أجنبي يزور هذا البلد بصفتي رحالة، وبالتالي فلن تكون هذه الرحلة عديمة الفائدة[٥].

نزل بوطوكي من سفينته عند مصب نهر (مرتيل)[٦] ذي الضفاف الرملية والمكسوة بالخلنج[٧] (bruyères). وترك أمتعته الشخصية الكثيرة بين أيدي رجال ديوانة تطوان الذين يبدون من خلال وصفه أمناء، وإنْ وصف رجال الجمارك عامة، وفي جميع بلدان العالم، بالأعداء الطبيعيين والدائمين للمسافرين[٨]. ومبنى ديوانة تطوان، حسب بوطوكي، يشبه تمامًا مباني الجمارك في الأندلس، ويُعنى به عناية تامة، شأنه شأن حصن مجهز بستة مدافع، وكذا جسر صغير بُني بالحجر بالقرب من مقر الديوانة[٩]. ولقد وصل إلى تطوان محملاً بكتاب التوصية الذي سلّمه إياه محمد بن عثمان[١٠]، "سفير المغرب في إسبانيا"[١١]، حسب بوطوكي الذي أثنى على صاحبه هذا جميل الثناء، وكان يسامره طوال مدة مقامه في مدريد[١٢]. ونموذج بن عثمان، حسب بوطوكي، يكذّب ما زعمه شينيي (M. Chénier) من أن المغاربة لا يعرفون معنى للصداقة[١٣]. ولعل حكم شينيي هذا من الأحكام المسبقة التي يقول بوطوكي بخصوصها: «للأسف، لا يشاهد الرحالة الأجانب عادة إلا من خلال النظارات التي أتوا بها من بلدانهم، ويهملون كليًا الاهتمام بتكييف زجاج هذه النظارات في البلاد التي يذهبون لزيارتها، وهذا ما يفسر مشاهدات خاطئة كثيرة»[١٤]. وبالتالي فبوطوكي ليس من أولئك الذين تجذّر تيار الغرابة في حديثهم عن الآخر ووسطه، ووصفوه في خطابهم ليس كما كان، وإنما كما أرادوا أن يكون[١٥]. كما أنه لم يصدر، في حديثه عن تطوان وأهاليها أحكاما مسبقة أو نعوتًا قدحية تعكس شعورًا ما بالتفوق، كما فعل غيره. ويخلو نص بوطوكي من "أسلوب المفاضلة" الذي نراه حاضرًا بشكل لافت في مؤلفات صاحبه بن عثمان، كلما تعلق الأمر بأناه الثقافية وتعارضها التام مع أنا الآخر وثقافته المسيحية[١٦].

ويطلعنا كتاب توصية بن عثمان على أن بوطوكي هو أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد المولى اليزيد[١٧]. ولقد وافق هذا السلطان على استقباله في سلا بشرط أن تكون بولونيا حليفة الباب العالي؛ وأتاه أمر السلطان بالقدوم عليه يوم السبت ١٧٩١/٧/١٦، وحمل هذا الأمر جِنْوي يسمى فرانتيشكو تشيابي (Francesco Ciapi)، كان بمثابة وزير خارجية المولى اليزيد[١٨].

مقر إقامة بوطوكي في تطوان

توجه بوطوكي يوم وصوله إلى تطوان (١٧٩١/٧/٢) لزيارة قائد المدينة في داره. وكان القائد لما أُخبر بوصول الزائر البولوني إلى الديوانة، بعث إليه بغاله ليُحمل وأمتعته إلى الدار التي خُصّصت لمقامه في تطوان[١٩]. ثم بعث له بعض المؤونة مع شاب قسيم الوجه، رحّب بقدومه ترحيبًا في غاية الظرف. وبعد ذلك استقبل الرحالة في مقر إقامته بعض الزوار، ذكر من بينهم نائب القنصل الإنجليزي، وهو شيخ مغربي "موري" (Maure)، أبيض اللحية، يتكلم الإنجليزية بطلاقة وكأنها لغته الأم. ولقد فضل بوطوكي المقام في دار ترجمانه اليهودي سمويل السرفاتي (Samuel Serfati)، عوض الدار التي خصصها له القائد، ولم يكن هذا الأمر، حسب الرحالة، هيّنًا، لأن هذا الاختيار كان يعني أن بوطوكي يفضل ذوقه على ذوق القائد.

وهكذا أصبح الرحالة يسكن دارًا يشرف سطحها الصغير على السهل والجبال والبحر... وكانت هذه الدار تقع وسط دور أخرى كلها في ملك اليهود[٢٠]، إلا أنه كان يمكن للمرء أن يشاهد من أعلى سطحها الأسطح الأخرى البعيدة، ويبصر عن بعد بسهولة النسوة المسلمات. ويحدثنا بوطوكي عن درجة الحرارة التي سجلها محراره يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/٥، وهي ١٠١° Fahrenheit (38°.33)، وتراوحت درجة حرارة سطح الدار التي كان يقيم فيها بوطوكي خلال مقامه بتطوان ما بين ٨١° و٨٢° Fahrenheit (٢٧,٢٢° و ٢٧,٧٧°)[٢١].

بادية تطوان[٢٢]

في طريقه إلى المدينة، انطلاقا من الديوانة، عبر طريق يمتد على مسافة فرسخ وسط بادية تطوان، لاحظ بوطوكي غنى هذه البادية بالزّرع والضّرع[٢٣]، وأشجار فواكه الغِرس القريبة من المدينة. فلقد تم الحصاد، (مطلع يوليوز) وأُطلقت المواشي في حقول القمح؛ وكان الفلاحون يجمعون الزرع، وبينهم عدد كبير من النساء[٢٤].

غِرس تطوان[٢٥]

Les plus beaux jardins du
monde, de Foucauld

حوالي الساعة السادسة مساء، من يوم ١٧٩١/٧/٥، بعث القائد إلى بوطوكي يقترح عليه القيام بنزهة للتفسح في الغِرس الواقعة جنوب المدينة، صحبة ترجمانه اليهودي وحارسين... استأنف بوطوكي طريقه صحبة حارسيه، وعبروا مخاضة[٢٦] النهر (وادي مرتيل) ركبانًا، ثم ساروا بين الغِرس في دروب تحدها سياجات (زروب[٢٧]) من القصب المرصوص، تتخللها نباتات شائكة[٢٨]؛ وكانت هذه السياجات متقنة الصنع ونضيرة، يتقي بها أصحاب الغِرس ومحارمهم من أنظار الغرباء.

ودخل بوطوكي إلى إحدى هذه الغِرس صحبة حارسه، وقيل له إن نسوة يوجدن فيها، إلا أن سياجًا (زربًا) داخليًا آخر حجب بينه وبينهن. واستمر في نزهته داخل الغِرس وهو يسمع أصوات عدة نساء كانت تصله من اليمين والشمال، دون أن يتمكن من رؤيتهن من وراء سياجات القصب (زروب) التي لا تسمح بنفاذ الضوء، وكأنها بنيان مرصوص[٢٩]! وكان للقائد عدة غِرس مغروسة بأشجار البرتقال والليمون والتين والإجاص[٣٠]... وتوجد في بعض هذه الغِرس دُويرات وأكواخ بنيت من القصب على شكل عُرش تشبه تمامًا نظراءها في كل أنحاء غرناطة...[٣١].

وبعد بضعة أيام من فسحته الأولى في غِرس أشعاش[٣٢]، استُدعي بوطوكي يوم الاثنين ١٧٩١/٧/١١ للتنزه في غرسة راغون[٣٣]. ولقد حكى نزهته هذه قائلاً: «زارني سيدي التاودي بوهلال – الذي أصبح بفضل مصاهرته للإمبراطور من علية القوم في المدينة – لأقضي العشية صحبته في غرسة الحاج عبد الكريم راغون، وهو مغربي من أصل أندلسي، أي يتحدر من أحد البيوتات المعروفة بالأندلس[٣٤]. وغرسته أجمل من الغِرس الأخرى التي زرتها لحد الآن، وتبدو بحق ممتعة للرائي، أنىّ كان بلده. ولقد شاهدت زخرفة في الأرض لم يتخيلها بعد أي بستاني في أوربا، ويتعلق الأمر بمساتل تحد حواشيها عظام، هي عبارة عن عظام أفخاذ وظنابيب ذوات الأربع التي غُرزت في الأرض وقد رُصّت ترصيصًا، بحيث لا ترى منها إلا المفاصل التي تحد المساتل ذات اليمين وذات الشمال. ونظرًا لانتظامها، فلن أستغرب إن حاول الهولنديون تقليدها في بساتينهم الخلابة[٣٥]. وفي طريق رجوعي إلى مقر إقامتي بتطوان، شاهدت مدخل قصر الإمبراطور الذي له قصور مشابهة لهذا في جميع كبريات حواضر المملكة، بإمائها البيضاوات والسوداوات، وخصيان قائمين على حراستهن، وكل ما يتطلبه استقبال السلطان[٣٦]».

وفي يوم ١٧٩١/٧/١٤، خرج بوطوكي للنزهة مرة ثالثة في غرسة البروبي. وقال بخصوص هذه النزهة: «(...) وبعد عبورنا للنهر ومرورنا بين بعض الغِرس، وصلنا إلى غرسة سيدي محمد البروبي التي هي أقل جمالا من غرسة الحاج عبد الكريم راغون التي زرتها سابقًا. (...) جاء سيدي محمد البروبي في وقت الغذاء، كما سبق أن وعدني بذلك. وتربعنا في جلوسنا إلى الطعام حول سماطين دائريين من الجلد الأحمر، خُصص أحدهما لباقي الضيوف، والآخر لرب البيت وسيدي التاودي، وكنت ثالثهما. وقدمت لنا أربعة أو خمسة أطباق حُضرت على الطريقة التركية، وشربنا اللبن الرائب»[٣٧].

مدينة تطوان

دخل بوطوكي إلى المدينة يوم ١٧٩١/٧/٢ من خلال باب من أبوابها[٣٨] التي لم يسمها، ولعل هذا الباب أحد الأبواب الثلاثة التي ذكرها صاحب مرآة المحاسن[٣٩] دون أن يحدد مواضعها؛ أما باب العقلة على شكله الحالي، فلم يبنه محمد أشعاش إلا عام ١٨٣٠ م، بأمر من المولى عبد الرحمن ابن هشام[٤٠]. غير أن السكيرج في حديثه عن سيدي عبد القادر ابن مرزوق[٤١]، ذكر أنه خرج هاربًا من باب العقلة، لما أزمع أهل البلد توليته قضاء المدينة. وكان ابن مرزوق قد توفي قبل ١١٣٩ ه (١٧٢٧ م)، وهو تاريخ وفاة المولى إسماعيل الذي كان قد أمر ببناء قبته. ويستنتج مما سبق أن محمد أشعاش قام على الأرجح بتجديد بناء الباب المذكور.

بيد أن بوطوكي الذي يصف طراز هذا الباب بالطراز العربي الجميل، يذكر كذلك مباشرة بعد الباب، قناة من الطراز نفسه[٤٢]. ومن المعلوم أن تاريخ قناة باب

العقلة، يرجع إلى ١١٦٤هـ (١٧٥٧ م)، في عهد ولاية الحاج محمد لوقش على المدينة (١١٦٤ هـ)[٤٣]. فهل دخل دخل بوطوكي المدينة من هذا الموضع، أي من باب العقلة، قبل أن يبنى على شكله الحالي؟

وتحدث الرحالة بعد ذلك عن الدروب الضيقة التي سلكها، والتي كانت كلها في ذلك العهد على الصفة التي اختطها الأندلسيون، وعن الدُّور التي بنيت على جوانبها، وقد أحسن تجصيصها، وهي لا تطل على الأزقة إلا من خلال نوافذ ضيقة[٤٤]. ولم يفت بوطوكي استراق النظر وهو يمر أمام مداخل المساجد، ليلاحظ أن بناياتها من الداخل، تشبه جامع قرطبة، فيما يخص الشكل الذي اعتُمد في توزيع السواري داخل المسجد[٤٥]. وشاهد يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/٥ حشدًا هائلاً من الناس يتجه من مخاضة النهر إلى المدينة، أكد له العدد الكبير لسكان تطوان التي تعتبر عامة، حسب بوطوكي، ثانية حواضر المملكة من حيث عدد السكان، بعد فاس، وتأتي بعدهما مراكش ومكناس وسلا، إلخ[٤٦].

التشابه بين الأندلس وتطوان

لفت انتباه بوطوكي التشابه الكبير بين مدينة تطوان وبلاد الأندلس بحاضرتيه غرناطة وقرطبة ومآثرهما. فخلال طريقه لزيارة البرج الذي أمر السلطان أشعاش ببنائه على الشاطئ، (يوم الثلاثاء ١٧٩١/٧/١٩)، في منتصف الطريق بين تطوان وسبتة، وهي أول جولة له خارج أرباض المدينة، تبيّن له من خلالها أن هذا البلد يشبه الأندلس إلى حد كبير فيما يخص الأشكال التضاريسية ومكوناتها، والغطاء النباتي، والثروة الحيوانية. فإذا كانت إفريقيا، حسب الرحالة، تبدأ في المضيق (جبل طارق) بالنسبة للجغرافي، فإنها لا تبدأ بالنسبة لعالم الطبيعة إلا فيما وراء جبال الأطلس[٤٧].

وكتب في طريقه إلى طنجة يوم الخميس ١٧٩١/٧/٢١: «لو لم نلتق بين الفينة والأخرى قوافل الجمال لحسبنا أنفسنا في بلاد الأندلس»[٤٨]. ويشمل هذا التشابه أيضًا بعض مباني المدينة. فمبنى ديوانة تطوان، حسب بوطوكي، يشبه تمامًا مباني الجمارك في الأندلس، ويُعنى به عناية تامة، شأنه شأن حصن مجهز بستة مدافع، وكذا جسر صغير بُني بالحجر بالقرب من مقر الديوانة[٤٩]. ولما استقبل القائد أشعاش بوطوكي في داره، أعجب الزائر أيما إعجاب بروعة هذا البيت وحسن تنظيمه وطراوة هوائه ونظافته، وهي صفات تعكس التأثر بذوق بناة قصر الحمراء بغرناطة[٥٠].

ولاحظ الرحالة في بعض غِرس تطوان دُويرات وأكواخ بُنيت من القصب على شكل عُرش تشبه تمامًا نظراءها في كل أنحاء غرناطة[٥١]، بما فيها جنة العريف (Généralife) [ربما يعني قصر الحمراء؟] التي كانت ستعد من بين أجمل المواضع الأثرية في العالم، لولا بوّاب ملعون قام بتشويه البناء الأصلي بإضافة رسوم جدارية تعكس ذوقًا هجينًا. وهذا التوافق في العادات بين الإسبان والموريين (les Maures) يشمل مجالات كثيرة، يمكن تخصيص كتاب لها، وبالتالي فلن أتطرق إليها في المناسبات الأخرى[٥٢].

وشاهد بوطوكي في طريق رجوعه من نزهته في غرسة راغون يوم الاثنين ١٧٩١/٧/١١ مدخل قصر السلطان (الإمبراطور)، الذي له قصور مشابهة لهذا في جميع كبريات مدن المملكة، وتتميز هذه القصور بأجنحتها العالية والمغطاة بقرميد مبرنق شبيه بنظيره الذي يغطي قصر الحمراء بغرناطة[٥٣]. ولم يفت بوطوكي استراق النظر وهو يمر أمام مداخل المساجد، ليلاحظ أن بناياتها من الداخل، تشبه جامع قرطبة[٥٤]، فيما يخص الشكل الذي اعتُمد في توزيع السواري داخل المسجد[٥٥]. ويفسر بوطوكي سبب بغضاء سكان تطوان وأرباضها للإسبان، بطرد هؤلاء لأجدادهم المتحدرين من موريي (les Maures) إسبانيا. ولقد تعرف بوطوكي على أحدهم، وهو ما زال يحتفظ بمعلومات عن الدار التي كان أجداده يسكنونها في قرطبة[٥٦]. ويقول عن الحاج عبد الكريم راغون، إنه مغربي من أصل أندلسي، أي يتحدر من أحد البيوتات المعروفة بالأندلس[٥٧].

وصف بعض شخصيات المدينة

عبد الرحمن أشعاش:

توجه بوطوكي يوم وصوله إلى تطوان لزيارة القائد عبد الرحمن أشعاش[٥٨] في داره، وهو الذي يسميه بعد ذلك عمر[٥٩]. وكان قائد المدينة[٦٠] لما أُخبر بوصول الزائر البولوني إلى الديوانة، بعث إليه بغاله ليُحمل وأمتعته... ووصفه مرتديًا ملابس بسيطة، قاعدا القرفصاء على بساط، في زاوية من روضته. وبعد الترحيب به، طمأنه قائلا له: إنه لن ينقصه أي شيء، وإنه إن شاء الله، سيرى وجه السلطان، وفي انتظار ذلك، فإنه سيُرافَق إلى الدار التي خُصّصت لمقامه في تطوان[٦١].

وفي يوم الاثنين ١٧٩١/٧/٤، استقبل القائد بوطوكي في داره، واحتفى به أكثر من المرة الأولى. ولقد أعجب الزائر أيما إعجاب بروعة هذا البيت وحسن تنظيمه وطراوة هوائه ونظافته[٦٢]، وهي صفات تعكس التأثر بذوق بناة قصر الحمراء بغرناطة[٦٣]. ثم غادر بوطوكي دار القائد مصحوبًا بشاب بهيّ الطلعة، كلفه أشعاش بمرافقته[٦٤]. وفي هذه الدار التي استدعي إليها بوطوكي لتناول طعام الغذاء، شاهد الرحالة في نفس اليوم البرتغالي الصغير الذي ارتد عن دينه، وتم تكريمه؛ ورأى بوطوكي في استدعاء هذا المارق تذكيرًا بانتصار الإسلام على دار الحرب[٦٥]. ولم يفت بوطوكي تسجيل مراحل رحلة القائد أشعاش (عمر حسب بوطوكي؟) إلى السودان[٦٦].

ويحكي لقاءه بأشعاش للمرة الثالثة يوم الخميس ١٧٩١/٧/٧ قائلاً: «بعد الغذاء، قضيت العشي مع القائد في ذلك البستان الذي استقبلني فيه يوم وصولي إلى تطوان. وحديثه دائمًا يهمني كثيرًا، لأنه كان يحدثني عن داخل البلاد الذي كان يعرفه جيدًا، بفضل الأسفار التي قام بها في البداية قصد الاتجار، والتي تلتها عدة أسفار أخرى بصفته رئيسًا لبغّالي السلطان. ولم يخف القائد عني أنه قبل أن يمتهن التجارة، كان جمّالا. وأنهى القائد سمرنا بحديثه عن طريق سفر قام به من فاس إلى طرابلس، عبر بلاد الجريد. ولم تكن ذاكرته وهو يروي تفاصيل مراحل سفره هذا قوية بالمقارنة مع روايته لرحلته إلى سوق أسّا (Soukassa) [هكذا] التي وصف لي مراحلها يوم الاثنين ١٧٩١/٧/٤[٦٧]».

وكان السلطان مولاي اليزيد قد كلف قائد تطوان ببناء برج مزود بثلاثة مدافع، على الشاطئ، في منتصف الطريق بين تطوان وسبتة. وخلال زيارة بوطوكي للقائد الذي كان يشرف بنفسه على عملية البناء، استقبله في خيمته وخصه بأحسن مجلس فيها قائلاً له إنه باستطاعته الآن أن يمشي فوق رأسه، ويضع قدمه على وجهه لأنه سيرى وجه السلطان قريبًا. ويعلق بوطوكي على كلام القائد هذا بقوله: «ولعل القارئ الذي يستشف من خلال هذه العبارات الاستبداد الذي كان سائدًا في المغرب، قد يرى أن هذا الكلام يعكس لغة عبيد آسيا، غير أنه سيكون خاطئًا في اعتقاده هذا لأن كلام القائد يعكس في الواقع الودّ الذي يكنه لسلطانه، أو تظاهره بذلك[٦٨]». واستقبل أشعاش بوطوكي لآخر مرة يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٢٠، حيث جاء قائد بأمر السلطان القاضي بالتحاق بوطوكي وحرسه بسفير السويد في طنجة التي سافر إليها اليوم نفسه. وقبل رحيله، استقبله أشعاش لتوديعه في المشور بلطافة صادقة، حسب بوطوكي، صِدْق المودة التي كان الرحالة يكنها له. ويضيف قائلاً: «وأعلم أنه كلما ذكرني في غيابي إلا وذكرني بخير»[٦٩].

محمد البروبي[٧٠]:

تعرّف بوطوكي على أمين الديوانة محمد البروبي[٧١] يوم الأحد ١٧٩١/٧/٣ حيث زاره في محل إقامته. وهو حسب بوطوكي، شخصية أكثر نفوذًا من القائد؛ وكان للرحالة كتاب توصية موجه لأمين الديوانة هذا الذي قال له إن رجال الجمارك لن يقوموا إلا بإلقاء نظرة على ما تحتويه صناديق أمتعته، وأن هذا الإجراء ضروري، ويطبق حتى على أبناء السلطان أنفسهم[٧٢]. وفي الغد، توجه بوطوكي من دار القائد لزيارة أمين الديوانة محمد البروبي، في مقر عمله. ولقد وجد في صحبته شريفين من عائلة السلطان ومجموعة من أصحابهما، وكانوا قد قدموا من تافيلالت. ويقول بوطوكي بخصوصهم أنه لم ير قط في حياته أناس دِمام إلى هذا الحد، وقسمات أوجههم غليظة بهذا الشكل[٧٣]... ويبدو التناقض جليًا في وصف بوطوكي بين دمامة هؤلاء الفيلاليين والشاب التطواني الأندلسي الأصل، القسيم الوجه الذي كلفه أشعاش بمرافقته، أو أولئك النساء البهيات الطلعة اللاتي صادفهن في طريق رجوعه من إحدى نزهاته في أرباض المدينة.

وبعد عشرة أيام (١٧٩١/٧/١٤)، زار أمين الديوانة بوطوكي صباحًا لاستدعائه لقضاء اليوم في متنزهه ببادية تطوان، معتذرًا لعدم تمكنه من استقباله بنفسه، نظرًا لأشغاله التي لن تسمح له بالالتحاق بالرحالة وباقي الضيوف قبل وقت الغذاء، لكنه كلف ابنه بهذا الاستقبال. وخلال هذه النزهة، لاحظ بوطوكي سخرية ابن البروبي من "دروس الجغرافية" التي كان يعطيها له القائد (أشعاش)، وأضاف الفتى بخصوص القائد عبارات مختلفة أثبتت للرحالة أنه كان ضيف وسط معارض للقائد. وبالرغم من نزقه، كان هذا الفتى، حسب بوطوكي، رقيق الجانب[٧٤].

النساء

شاهد رحالتنا على شطان وادي مرتيل – الذي لا يسميه يوم وصوله إلى تطوان (١٧٩١/٧/٢) - جماعات من الصيادين، وسربًا من الإماء السوداوات اللائي كن يستحممن، غير آبهات بمن قد يسترق النظر إليهن.

وشبه بوطوكي سرّاق النظر المحتملين بالأكطيونيين[٧٥] (les Actéons). ولقد أُخبر رحّالتنا بأن هؤلاء النسوة السوافر[٧٦] العاملات في البادية ما هن إلا عجائز دمائم، وأما الجواري، والغواني منهن خاصة، فإنهن يعشن في نعيم. ولقد اقترب صاحبنا من بعض النسوة العاملات في الحقول، وتأكد من صحة قول مُخبره[٧٧].

وشاهد بوطوكي من أعلى سطح دار اليهودي (السرفاتي) التي كان يقيم فيها منذ (١٧٩١/٧/٣) النسوة المسلمات اللائي يمكن معرفتهن، حسب الرحالة، من خلال ملابسهن الفضفاضة والشبه شفافة (لعله الدفين)؛ غير أن التحديق في هذه العورات كان من الخطر بمكان، ويعرض صاحبه لا محالة للموت أو الختان[٧٨]! واقترب في نفس اليوم من سطح الدار التي كان يقيم فيها بوطوكي سرب من الجواري السوداوات والموريسكيات (moresques)، أثار وجوده فضولهن، إلا أنهن خفن وابتعدن على عجل[٧٩].

ويصف الرحالة طريق رجوعه من نزهته يوم (١٧٩١/٧/٥) في اتجاه المدينة، عبر نفس المخاضة التي عبرها في اتجاهه نحو غرس كيتان[٨٠]، ولقد صادف رجوعه رجوع حشد هائل من الناس يتجهون إلى المدينة من كل حدب وصوب، فيهم جمع غفير من النساء البهيات الطلعة، بعضهن يمتطي البغال، والبعض الآخر يعبر المخاضة على الأقدام، ماسكات أخفافهن في أيديهن. ولاحظ بوطوكي أنهن كن خلال عبورهن يحجبن وجوههن ويكشفن عن سيقانهن إلى ما فوق الرّكب، وكأن لا حرج عليهن في ذلك! ويخلص بوطوكي إلى القول إن مظهر النساء الموريسكيات (mauresques) أكثر احتشامًا من نظيراتهن التركيات. وبصفة عامة، حسب الرحالة، فإن المغاربة ينظرون للقسطنطينية كبؤرة فساد[٨١].

وأبدى بوطوكي خلال مقامه بتطوان عدة ملاحظات بخصوص لباس المرأة، والغيرة، والمحجبات والسّوافر، والفرق بين هؤلاء في المغرب، ونظائرهن في المشرق. «اقتربت اليوم (الجمعة ١٧٩١/٧/٨) جارية مورية (maure) من سطحي، وكانت تلك أول مرة تمكنت من خلالها تكوين فكرة عن الملابس التي ترتديها النسوة تحت حياكهن. فهي ملابس ملائمة للمناخ، بيد أنها غير مريحة. ومعظم النساء يرتدين ملابس يغلب عليها اللونان الأبيض والأحمر[٨٢].

وبخصوص الغيرة، سأقص هنا إحدى الحكايات التي حكاها لي صديقي بن عثمان، وهي نموذج من سرده سأحاول أن أقلده بأمانة ما استطعت. وهذه الحكاية مفيدة لفهم ممارسات المجتمع المغربي. ويتعلق الأمر بحكاية وقعت في فاس، وهي عبارة عن خيانة زوجية تمكنت أم الزانية، بدهائها، من تخليص بنتها من سوء مغبة فعلها. ومغزى الحكاية الذي عمل بن عثمان على إيصاله لصديقه بوطوكي من خلال سرده، هو التالي: إذا كان نساؤنا اللائي يُحبسن في البيوت يحتلن علينا كما رأيت، فما بالك فيما تفعله نساؤكم الحرائر! وذلك ما كان يقوله لي قبيل روايته للحكاية. وإني أتذكر أنه كان يقول أيضًا: كل شعوب العالم تجمع على أن النساء ناقصات عقل[٨٣]، غير أنها تستغرب لحبسنا لهن! [٨٤]».

وفي طريق فسحته في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، أبدى بوطوكي بخصوص نساء أحواز تطوان الملاحظات التالية: «وحوالي الساعة العاشرة صباحًا، أتى لمرافقتي سيدي التاودي بوهلال ببغاله، فانطلقنا سويًا في اتجاه جبال الغرب، وعبرنا النهر في منطقة أعلى من تلك التي عبرناه فيها في المرة السابقة. وشاهدت على ضفافه عدة غسّالات، سوداوات وبيضاوات سوافر، كاشفات عن سيقانهن وأذرعهن، وكذا رجالا كانوا يسبحون بالقرب منهن. فتعجبت من ذلك، فقيل لي إن الأمر يتعلق بإماء وخادمات لا يُعبأ بهن. وهكذا فإن الغيرة هي التي تفسر تحجّب النسوة في المغرب، بينما الدافع إلى التحجب في المشرق هو الورع. وبما أن المسنات من النساء في المشرق أكثر تدينًا، فإن تحجبهن أكثر تزمتًا، بينما نرى المسنات هنا في المغرب سوافر[٨٥]».

وضعية الأجانب في تطوان

لاحظ بوطوكي في اليوم الأول من مقامه بتطوان، أن الأجنبي لا يتعرض للسب وهو يجوب دروب المدينة، ولا يرى من سكانها إلا سمات تعكس طيبة القلب والنفس[٨٦]. ويضيف بوطوكي قائلاً إنه خلال كل الطريق الذي سلكه للنزهة في غِرس كيتان، يوم ١٧٩١/٧/٥، «لم أتعرض لأدنى شتيمة؛ صحيح أنني كنت وسط حارسيّ، ولكنني شاهدت ربابنة سفينة برتغال قاموا أيضًا بنزهة كتلك التي قمت بها تقريبًا، ولم يسبهم أحد[٨٧]. وفي طريق رجوعي [من غرسة البروبي، يوم ١٧٩١/٧/١٤]، مررت بالقرب من قبة[٨٨] (une chapelle)، حيث كانت عدة نساء وأطفال، تقدم أحدهم نحوي، وكان سنه يتراوح ما بين عشرة واثني عشر عامًا، وخاطبني قائلاً « fede di merda » (بئس الدين). وإني أذكر هذه الشتيمة لأنها أول مرة تعرضت

فيها للسب؛ ولقد تأثر بذلك المسلمون الذين كانوا يرافقونني تأثرًا بالغًا. ومنذ ذلك اليوم، لم أتعرض للسب إطلاقًا[٨٩]».

شعور المغاربة نحو الإسبان

لاحظ بوطوكي خلال مقامه في المدينة بغض المغاربة للإسبان ومقتهم مقتًا شديدًا. وذكر أنه لما يلتقي بعض العامة أجنبيًا، يبادره بالقول: «الإنجليز طيبون، والإسبان خبثاء»[٩٠]. ولقد صادف فيما مضى جماعة من الموريين إنجليزيَّيْن كانا يقنصان في أرباض تطوان، فسألوهما هل هما إنجليزيان أم إسبانيان؟ وأراد الإنجليزيان أن يمتحنا درجة بُغض المغاربة للإسبان، فكذبا وقالا لهم نحن إسبانيان، فذاقا وبال أمرهما، وضُربا ضربًا مبرحا[٩١]. ويفسر بوطوكي سبب هذه البغضاء بطرد الإسبان لأجداد سكان تطوان المتحدرين من موريي (les Maures) إسبانيا. ولقد تعرف بوطوكي على أحدهم، وهو ما زال يحتفظ بمعلومات عن الدار التي كان أجداده يسكنونها في قرطبة[٩٢].

وضعية اليهود

حوالي الساعة السادسة مساء من يوم ١٧٩١/٧/٥، بعث القائد إلى بوطوكي يقترح عليه القيام بنزهة للتفسح في الغِرس الواقعة جنوب المدينة، صحبة ترجمانه اليهودي وحارسين. ولقد وجد الرحالة في باب محل إقامته بغلتين، إحداهما خُصصت له، والثانية لترجمانه[٩٣]. غير أن اليهودي لم يُسمح له بركوب مطيته وسط المسلمين، واضطُر للمشي على قدميه إلى أن خرج من باب المدينة، حيث سُمح له بامتطاء دابته. وبعد نصف ساعة من السير، توقف حارسا بوطوكي، وتحدثا إلى اليهودي هنيهة، اضطر الترجمان بعدها إلى الرجوع إلى الوراء. والسبب في ذلك هو أن المسلمين كانوا يحتفلون يومئذ بالعنصرة[٩٤]، أو حفلة الحصائد، وكانوا بالتالي سيلتقون في طريقهم لا محالة عددًا غفيرًا من المحتفلين، فلا يمكن والحال هذه أن يسير اليهودي ممتطيًا بغلته في حين يمشي المؤمنون الحقيقيون على أقدامهم، فذلك من باب المنكر[٩٥] !

ووصف بوطوكي حاخام مكناس الذي زاره في محل إقامته بتطوان يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٦؛ وكان هذا الحاخام قد علم بأن الرحالة يبحث عن كتاب Rabi (Jehoudah-Levi el –Khozari)، فأتاه بهذا "الكنز"... ويقول بوطوكي بخصوص الحاخام: «وعلاوة على كونه علّامة في الفقه الحاخامي، فإنه كان متضلعًا من فلسفة أرسطوطاليس. ولقد سألني[٩٦] هل يهتم علماؤنا أيضا بدراسة هذه الفلسفة؟ فأجبته بأن أوربا تخلت منذ مدة طويلة عن هذا النوع من الدراسات النظرية، وأقبلت على العلوم التجريبية، وأنها تركت الاستدلال وطورت الآلات العلمية. وشرحت له بعض التجارب فيما يتعلق بالكهرباء، والمواد الغازية، واستعمال الموصّلات (les conducteurs) إلخ. وكان ينصت لي بإعجاب مشوب بالتحسر؛ وتأسفت على مصير هذا الشيخ الذي استنفذ قدراته العقلية في أعمال فكرية لا تجدي نفعًا. ولو أنه شحذ ذهنه في أوربا، لصار عالماً شهيرًا. وكانت مكتبة هذا الحاخام في مكناس تحتوي على عدة كتب طُبعت في بولونيا[٩٧]».

ولاحظ بوطوكي في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، استهزاء أحد أحفاد صاحب الغرسة بقبعة ترجمانه، اليهودي السرفاتي. وكان هذا الشاب يبلغ من العمر ما بين خمس وست عشرة سنة، ويمرح كما يمرح صنوانه من شبان الفرنسيين[٩٨].

الحيوان والقنص

شاهد بوطوكي في طريقه إلى تطوان بعد نزوله من السفينة، أعدادًا كبيرة من اللقالق[٩٩] التي بنت أوكارها فوق سطوح أكواخ قرية صغيرة بأرباض تطوان، لم يشاهد نظيرها فيما تقدم من حياته[١٠٠]. وحدّثه القائد أشعاش يوم استدعاه إلى داره (١٧٩١/٧/٧) عن القنص: «وأراد القائد أن يرفّهني فاقترح عليّ مطاردة الرّت بكلاب صيده، وهي صغيرة الحجم لكنها من فصيلة جيدة. ولا يصطاد الموريون (les Maures) الرت إلا للتسلية، لأنهم لا يأكلون لحمه أبدًا. غير أنني تعجبت من رؤيتهم وهم يلمسون هذا الحيوان بلا حرج، بل منهم من لطّخ ملابسه بدمه[١٠١].

وبخصوص القنص، حدثني القائد عن النُّمر التي كثيرًا ما تأتي إلى أحواز تطوان، وفي بعض الأوقات تأتي الأسود أيضًا. ولما يفترس بعض هذه السباع بقرة أحد الجبليين، فلا يهدأ له بال حتى يقتل الحيوان الضاري ويأكل من لحمه. وهذه العادة عامة في أوساط الجبليين، وتفسرها الممارسات الخرافية والثأر من السباع[١٠٢]». وفي يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/١٣، أتاه بربريان (2 Brèbes) [هكذا] بإهاب نمر (une panthère) قُتل قبل ذلك بقليل. ولقد قدما من الجبال الواقعة على بعد ثلاث مراحل من تطوان. وكانا مع أصحابهم في جماعة من عشرين قناصًا حاصروا مأوى هذا الحيوان الذي كان يغير وجهته من قناص لآخر وكأنه

يطير من شدة العدو. وهو الذي افترس شابًا بربريًا، وجرح آخرين.

وعلم بوطوكي بالمناسبة بوجود عدة ضباع بأرباض تطوان؛ ولقد نُسجت بخصوصها عدة أساطير، من بينها أن الرجل يصبح غبيًا بعد أكله لمخ هذا الحيوان. ويوصف الغبي عادة بالمثل القائل «كْلا الضباع[١٠٣]». كما وصف طريقة صيد الأرانب الوحشية بواسطة النمس[١٠٤].

ألعاب الفروسية في تطوان

شاهد بوطوكي خلال مقامه في تطوان ألعاب الفروسية، وتحدث عن خصائص فن الفروسية في المغرب، وتشابه طريقة ركوب المغربي والبولوني، ووصْف إنجليزي للفرسان المغاربة[١٠٥].

العامة

ملاحظات بوطوكي عن عامة تطوان وأرباضها قليلة. ويشير الرحالة إلى أن الخاصة قليلة الاكتراث بديانة العامة التي لا يعرف أفرادها في الأرياف النائية كيف يؤدون صلاتهم، وشعورهم الديني الوحيد يكمن في بغضهم الشديد للنصارى. ولقد تكونت لديهم بخصوص هؤلاء أفكار عجيبة، إلى حد تصورهم أكلة لحوم البشر![١٠٦] كما شاهد أبناء العامة يلعبون كرة القدم (la pelota) في تطوان بنفس الطريقة التي يلعبها بها نظراؤهم الإسبان[١٠٧].

وبعد انصرافه من الحفل الذي أقيم على شرف موكب المارق البرتغالي يوم ١٧٩١/٧/٤، تزاحم الناس، وخاصة الأطفال، وسدوا الطريق التي كان يسلكها للرجوع إلى مقر إقامته؛ فشرع الحراس الذين كانوا يرافقونه في ضرب المارة بعصيهم حتى يحيدوا عن الطريق، ويتمكن الرحالة ومرافقوه من المضي قدمًا، فلاحظ بوطوكي أن الحراس لا يضربون إلا الجبليين ذوي البرانس[١٠٨] المخططة، وليس فتيان الحاضرة وحيّاكهم البيض[١٠٩].

والتقى بوطوكي بعيساوة تطوان، يوم الأربعاء ١٧٩١/٧/٦، وذكر أن شيخهم مدفون في مكناس، وهم في رأيه مشعوذون لا غير. ولقد سبق للرحالة أن رأى في المشرق مجانين عُنف من كل الأصناف. كما سبق له أن قرأ كتاب (M. Le Gentil) الذي بيّن من خلال ملاحظاته في الهند الطرق التي يستعملها الهنود لإزالة السم من الأفاعي. وبما أنه كان يعرف هذه الحيل من خلال مطالعاته، فإنه لم يطرح أي سؤال على عيساوة[١١٠].

التجارة[١١١]

تجوّل بوطوكي يوم ٨ /١٧٩١/٧ في قيسارية تطوان، وقال عنها: «هي ما يسمى في المشرق بالبزار، ويمكنني القول بناء على ما شاهدته، أن حجم تجارة تطوان يناسب مدينة من الدرجة الثالثة، فيما يتعلق بتصنيف المدن التي يقوم اقتصادها على التجارة. والذي ينبغي ملاحظته هنا هو أن التجار تعودوا على عرض عينات فقط من البضائع التي يخزنونها في مخازنهم بكميات كبيرة. ولقد أعجبت أيما إعجاب بأنسجة فاس، وهي من الفنون التي تشهد بحق على ازدهار حضارات الأسر الحاكمة التي تعاقبت على السلطة في هذا الجزء من إفريقيا. كما شاهدت منتجات صناعة الدباغة المغربية الشهيرة التي اشتق منها اسم "ماروكان" (maroquin) بالفرنسية، والذي يعني كل الأهب المصبوغة[١١٢]. والأثواب المطرزة التطوانية تعادل في جودتها تلك التي تصنع في القسطنطينية. ولاحظت في السوق "البراحين[١١٣]" يحملون السلع صائحين لبيعها بالمزاد. وهي ممارسة في المجتمعات العربية ينبغي معرفتها لفهم عدد لا يحصى من نصوص ألف ليلة وليلة[١١٤]».

الأخلاق

في رسالته المؤرخة ب ١٧٩١/٧/١٣، تناول الرحالة جانبًا من جوانب الأخلاق في تطوان، وكتب فيها ما يلي: «لقد سبق لي وأن ذكرت في إحدى رسائلي أن الأخلاق هنا يغلب عليها التزمّت، وهذا صحيح. واليوم، أتيحت لي الفرصة لأعلم أن ظاهرة مغازلة النساء منتشرة في المدينة، وهذا صحيح أيضًا. ولا أدري كيف سيحكم قرّائي على هذه الثنائية في سردي لهذه الرحلة. بيد أن الشعوب تتكون من جماعات من الأفراد، والفرد مزيج من التناقضات، فطبيعي إذًا أن يوجد في هذا المجتمع الزّمتاء والظرفاء الذين يغازلون النساء.

إلا أن المغازلة بين العشاق في تطوان تتم سرًا. وهوى الحبيب لحبيبته الذي طُبع الإنسان عليه، والذي يتجلى للعيان في المجتمعات الأخرى، يكتَّم هنا تكتيمًا. ولكن يوجد هنا شخصان من علية القوم، لن أسميهما، لا يكتمان ما يخفيه الآخرون، ولا يجرؤ القائد على الاصطدام بهما. لكنه لم يُظهر نفس التساهل مع أخي خليفته حمدون الذي ضُبط متلبسًا مع خليلته، فجلده جلدًا مبرحًا أقعده في فراشه لمدة ثلاثة أشهر. ولكن، بما أن القوانين "السخيفة" تقف سدًا منيعًا أمام

هوى العاشقين، فإن طبيعة هذا الهوى تتغير حتماً، وينقلب بالتالي الحب بين الرجال والنساء إلى سحاق تتكتّمه الإناث، ولواط يكاد يجهر به بعض الذكور[١١٥]».

الثقافة والعلوم

كان بوطوكي رجلاً غزير العلم، واسع الاطلاع، كثير القراءة، قوي الذاكرة[١١٦]. ولقد ذكر في رحلته العديد من المؤلفين الفرنسيين والإنجليز والألمان والإيطاليين الذين استشهد بكتبهم في مقاطع شتى من كتابه، نذكر من بينهم (M. Volney[١١٧])، و(M. Le Gentil[١١٨])، و(T. Shaw[١١٩])، و(Bruce[١٢٠])، و(Pr. Clénart[١٢١])، و(L'abbé Todérini[١٢٢])، و(Cronstedt[١٢٣])، و(Wallerius[١٢٤])، و(Homann[١٢٥]). ورأينا سابقًا أنه بعث إلى مكناس يطلب كتاب (Rabi Jehoudah-Levi el-Khozari)، ثم بحث في تطوان عن كتاب ألف ليلة وليلة[١٢٦]، ولكن بلا جدوى. ويبدو أن الطالب[١٢٧] الذي حدثه في هذا الموضوع افترى عليه كذبًا، وادعى وجود عنوان كتاب لم يُسمع به إلى اليوم، وزعم أن "جعفر البرمكي" عنوان كتاب... وفيما يلي بعض محتوى الرسالة المؤرخة بـ ١٧٩١/٧/١٢: «أتى هذا الصباح لزيارتي طالب شاب كان قد كُلف بأن يبحث لي عن نسخة من كتاب ألف ليلة وليلة. فقال لي إن هذا الكتاب الذي كنت أرغب في الحصول عليه، يحمل عندهم عنوان ثلاثمائة وأربع وخمسون ليلة: عدد أيام السنة القمرية، وأنه لا توجد في المدينة أية نسخة من هذا الكتاب؛ لكنه أتاني بكتاب آخر ينتمي لنفس الفن الأدبي، وعنوانه "جعفر البرمكي"، وهو يشتمل على العديد من الحكايات الواردة في الكتاب الآخر. ولما كنت أستمع إلى ترجمة مستهل هذا الكتاب (جعفر البرمكي) الذي يروي حكاية سلطان كان يصطاد ظبيًا أبيضًا، فتاه في قصر مسحور ... أُعلن عن مجيء سيدي التاودي بوهلال؛ فخبأ الطالب توًّا كتابه تحت جلبابه، وفر بنفسه عبر السطوح، وهو ما أثبت لي أن هذا البلد لم تتغير أحواله قط، وذلك منذ الرحلة التي قام بها إليه الأستاذ كلينار (Clénart) في القرن XVI، والذي غادره دون أن يتمكن من حمل أي كتاب من الكتب التي كان قد اشتراها في فاس.

وبخصوص العلوم، ينبغي القول إنه توجد بتطوان مدارس[١٢٨] حيث تُلقن مبادئ أقليدس[١٢٩] (Euclidès)، وبعض الجبر، وعلم الفلك، اعتماداً على كتاب المجسطي[١٣٠] لبطليمس[١٣١]. والمغاربة متشوقون عمومًا إلى المعرفة، ويجادلون في علم كهذا (الفلك) إلى حد ما. غير أنهم ما زالوا يومنون بالفكر الخرافي. وهكذا فبعد تفسيرك لهم الجاذبية، أو تكوين النيازك، فإنهم يبادرونك بأسئلة غريبة مثل كيف يتمكن سكان أوجلة (Ougela) [في ليبيا] من قتل إنسان إذا رأوه بعينهم اليسرى، وكيف يتمكن سكان أفنو (Afnou) [في النيجر] من شرب دم إنسان وهو على بعد مائة خطوة منهم؟ ونكران هذه الظواهر التي يحدثونك عنها، بعد إصغائهم إليك، يعتبر قلة أدب لا تغتفر في الأعراف المغربية[١٣٢]».

ولاحظ بوطوكي خلال نزهته في غرسة راغون، يوم ١٧٩١/٧/١١ حيث لم يكن معه في تلك العشية ترجمانه، أن بعض الحاضرين في ذلك الجمع كان يتكلم الإسبانية، والبعض الآخر التركية، فقضى والحال هذه أمسية جد ممتعة[١٣٣]. وخلال نزهة أخرى في غرسة البروبي يوم ١٧٩١/٧/١٤، حضر بعد الغذاء، لعبة trisset "التريسي"[١٣٤]، وهو ورق لعب مشهور في كل مدن الإمبراطورية. وكانت مصطلحات هذا اللعب إسبانية[١٣٥].

التطبيب

لقد عرف بوطوكي في اليوم الذي قضاه في غرسة البروبي أن التلقيح كان معروفاً في تطوان منذ زمن طويل، ولكن عدة أمهات كن يفتقدن الشجاعة الكافية لتطعيم أبنائهن بطعم الجذري[١٣٦]. ولاحظ أنه لا يوجد بتطوان أطباء، ولكن عدة عائلات تطوانية تتوفر على كتاب "القانون في الطب" لابن سينا الذي يتم الرجوع إليه كلما دعت الضرورة ذلك، حتى يتم تشخيص المرض[١٣٧].

أحكام عامة

أبدى بوطوكي بعض الملاحظات الذكية على سلوك المغاربة فيما يتعلق بتفسير ظاهرة الهدايا وتبريرها في المجتمع. ولم تفت بوطوكي الإشارة إلى أن خدام المخزن لا رواتب لهم، وبالتالي فهذه الهدايا " نفع" لا بد منه في هذا الوسط. وهناك ظاهرة أخرى استوقفت انتباهه، وهي مبالغة المغاربة في الكذب، وأمام الملأ.

الهدايا

في يوم ١٧٩١/٧/٨، بعثتُ أربعة مناديل حريرية إلى حفيدة القائد الصغيرة التي يربيها في داره. وإني أدون هذه الترهات لأنها تبين السلوك الذي ينبغي سلوكه مع المغاربة. فالهدايا وإن كانت قليلة قيمتها، تحفظ الود هنا أكثر من أي مكان آخر في الدنيا. صحيح أن الهدايا الثمينة قد تنجح أكثر في حفظ هذا الود، لكن تقديمها بلا انقطاع قد يؤدي إلى إفلاس صاحبها.

والناس هنا يعربون عن رغبتهم في الحصول على الهدايا بالمكشوف، وبطرق تصدم معظم الأجانب صدمة عنيفة. إلا أن هؤلاء لو فكروا في الأمر مليًّا، لتبين لهم أن لا فرق بين ممارساتهم وممارسات المغاربة فيما يتعلق بتقديم الهدايا إلا من حيث الشكل. فالثروات في جميع أرجاء الإمبراطورية جد مجزأة؛ ولا يوجد فيها شخص موسر لا يدير ممتلكاته باقتصاد، وبالتالي فالهدايا المفيدة هنا، وإن قلت قيمتها، تُتلقى بسرور[١٣٨].

ثم إن رجال المخزن لا يتقاضون رواتب قارة. والتقدمات التي يقدمها أفراد من الطبقة الدنيا إلى آخرين من الطبقة العليا في أوساط العرب، تعني منذ القدم احترام المرؤوس لرئيسه وإجلاله. وبالتالي فالرئيس الذي يتلقى الهدية قد يقول لنفسه وهو يتلقاها: «لقد انتفعت وشُرِّفت». ثم هل هناك بلد في العالم يوجد فيه رجل ذو نفوذ لا يتحيّل ليُحل مداخيله غير المشروعة، وذلك حتى يشعر بالرضى عن النفس؟ وأخيرًا، إن الدليل على أن الموريين يرون حصولهم على تقدمات شيئا شريفًا، يكمن في إصرارهم على أن يُحتفل بهم وهم يتلقون الهدايا علانية[١٣٩].

كذب المغاربة

والمغاربة (les Maures) عموما يكذبون كثيراً. فهم يكذبون أولا بشكل دائم، كلما تعلق الأمر بإعطاء صورة عن بلدهم، بحيث تكون هذه الصورة دائما في صالحه. وهم يكذبون ثانيًا لأنهم يحاولون اكتناه نية الرحالة حتى يجيبوه إجابات تطيب لها نفسه. وبالتالي فينبغي على المرء أن يحرص كل الحرص على الطريقة التي يطرح بها أسئلته؛ ويحسن أن يُسأل أحدهم وسط مجمع من الناس، وليس على انفراد. غير أن اتخاذ هذا الاحتياط لا طائل منه لأن المغاربة لا يخجلون من الكذب أمام الملأ، والمستمعون لا يجدون في هذا الفعل أي غضاضة، ويصدقون المحدث حتى يُضلوا الأجنبي. ثم إن المغاربة يعتقدون أنه من باب الأدب إرضاء الضيف في كل شيء. ولما كنت أحيانًا أطرح أسئلة ذات طابع جغرافي، أذكر أسماء مدن لم توجد أبدًا، كانوا يؤكدون لي أنهم يعرفونها حق المعرفة. والواقع أني لم أعرف إلا استثناءين فيما يخص ظاهرة كذب المغاربة، وهما صاحبي بن عثمان وقائد تطوان الذي حاولت مرارًا أن أختبر صدقه، دون أن يشعر بذلك. والآن وقد أنهيت رحلتي، ليس لي ما أضيفه إلى هذين الاستثناءين. وكان من بين ضيوف البروبي في غرسته (سكرتير) باشا سبتة[١٤٠]. فطرحت عليه بعض الأسئلة المتعلقة بانضباط جند هذه المحلة، فلم ألبث أن اكتشفت أنّ أجوبته كانت كلها كذبًا. ولم أخفه استنكاري عدم صدقه، فزاد ذلك في إثارة ضحكه[١٤١].

اختلاف مفهوم الزمن بين المغرب وأوروبا

قال له القائد يوم ١٧٩١/٧/٣ إنه من الأحسن أن يبعث مع الرسالة الموجهة إلى السلطان كتاب التوصية؛ وهكذا علم بوطوكي أن الرسالة التي كان من المفروض أن تُرسل البارحة، أي يوم وصوله، ما زالت بتطوان. ويقول الرحالة بهذا الصدد: «على المرء أن يتعود على هذا التمهل الذي يميز نمط عيش المسلمين، أو يَعدل عن السفر إلى بلادهم». فليس لهؤلاء أدنى فكرة عن قلة الصبر، تلك النقيصة التي تميز الأوربيين بالتأكيد، والتي لا وجود لها تقريبا في باقي نواحي العالم[١٤٢].

اختلاف المغرب عن المشرق

رجعت إلى المدينة عبر المقابر، ولاحظت أن أشكال القبور تختلف تمامًا عن نظرائها في المشرق، وهو اختلاف يشمل أيضًا المساجد والصوامع والمذاهب المتبعة؛ فالغرب الإسلامي كان دائمًا مالكي المذهب، بينما اتبع المشارقة مذاهب أبا حنيفة وابن حنبل والشافعي[١٤٣].

مفهوم الضجر

حضر بوطوكي مع عدد كبير من المدعوين مأدبة الغذاء التي أقامها البروبي في غرسته، ولم يجاذبهم أطراف الحديث إلا نادرًا؛ ويبدو أن ذلك لم يحرجهم. ولم يكن ذلك، حسب الرحالة، بسبب قلة لطفهم أو عدم اعتنائهم به، لأنهم كانوا في نظره: «لطافًا وشملوني بحسن الالتفات؛ فكانوا يملؤون غليوني بالتبغ، ثم ينظفونه، ويقدمون لي الشاي والقهوة والفواكه، ويحمونني من الريح، ويسألونني هل أعاني من الحر أو البرد[١٤٤]... إلا أن احتمال ضجر ضيف أجنبي، وسط قوم يتحادثون وهو لا يفهم حديثهم، لم يخطر ببالهم، لأنهم لو كانوا مكاني لما ضجروا، كما لا يضجر أمثالهم من أهالي باقي بلاد إفريقيا وآسيا وأمريكا. والسبب الرئيس لهذا الداء الأوربي (الضجر) يكمن في تتابع الدروس التي تملأ كل أوقات طفولتنا بحيث يتعود المرء على الشغل طول وقته إلى أن يصبح هذا الشغل ضرورة قصوى. بيد أن المشارقة لم يتعودوا على ذلك، ولا يشعرون بضرورة شُغل أنفسهم بلا انقطاع[١٤٥]».

بعض الشخصيات البارزة التي تعرف عليها بوطوكي خلال زيارته لتطوان

تلقيتُ زيارة الطالب بوفارس (Boufarès)، وكان من بين أعضاء السفارة التي ُوجهت إلى فيينا (عاصمة النمسا). وكنت قد طلبت منه نصّ رحلته إلى الديار النمساوية، فأتاني به. وأعطى بوطوكي بعض تفاصيل هذه الرحلة التي تعرف من خلالها على حفلة راقصة (un bal) كانت قد نُظمت في قصر أمير ليشتنشتاين (Liechtenstein) حيث ظهر المغاربة في حفل أوربي لأول مرة، وحيث كنت حاضرًا أيضًا[١٤١].

خَاتِمَةٌ

كان بوطوكي أول مواطن بولوني زار المغرب في عهد المولى اليزيد (١٧٩١). ولقد ترك لنا في رحلته وصفًا دقيقًا لمدينة تطوان ومجتمعها في أواخر القرن الثامن عشر. فهو يحدثنا عن بعض أبوابها، ومبانيها، ومساجدها، ودروبها الضيقة، وغنى باديتها بالزرع والضرع، وأجنتها الجميلة، وطيورها، وحيوانات أحوازها، وقنص بعضها... كما يحدثنا عن المجتمع التطواني، بوصفه بعض أفراد الخاصة وبيوتاتهم ونمط عيشهم، وثقافتهم، كما يصف العامة من خلال ملبسها وسلوكها وبعض ألعابها... والنسوة حاضرات في هذه الرحلة، الإماء السوداوات، والجواري الموريسكيات، وملابس السوافر منهن والمحجبات، وأنشطتهن في أرباض المدينة أو فوق الأسطح... كما يحدثنا عن وضعية اليهود في المدينة، وبغض الموريين الشديد للإسبان. وشملت ملاحظاته أيضًا المغازلة بين العشاق في تطوان، وأهمية الهدايا التي تحفظ الود بين الأصحاب؛ وهو يكذّب ما زعمه شينيي (M. Chénier) من أن المغاربة لا يعرفون معنى للصداقة. ويحدثنا بوطوكي عن التمهل الذي يميز نمط عيش المسلمين، واختلاف مفهوم الزمن بين المغرب وأوربا، والتباين بين المشرق والمغرب فيما يخص مجموعة من الظواهر... وتبقى هذه الرحلة وثيقة في غاية الأهمية بالنسبة لتاريخ المغرب عامة، وتاريخ تطوان خاصة.

الهَوامِشُ:

(١) اعتمدت في هذه الدراسة على الطبعة التالية:
POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, fait en l'année 1791. Préface de Jean-Louis Miège, Paris, Maisonneuve et Larose, 1997.
ولقد ورد نص هذه الرحلة أيضا في طبعة صدرت في ١٩٨٠:
POTOCKI (Jean), Voyages en Turquie et en Egypte, en Hollande, au Maroc. Introduction et notes de Daniel Beauvois, Fayard 1980.

(2) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 37.

(3) Ibid., p. 21.

(٤) يسميها بوطوكي (ص. ١٧) خطأ سلسلة الأطلس الصغير la (chaîne du Petit Atlas).

(5) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 17.

(٦) الذي لم يسمه في صفحات:١٨؛ ٣٩و؛ ٦٦-٦٧؛ وسماه بسيْل "بوصفياح" (Bousfiah)، وهو تصحيف لبوصفيحة في ص. ص. ٨٠-٨١، مذكرا باحتمال مطابقة هذا الاسم لاسم (Bousherah)الذي أورده الخرائطي الألماني هومان (J. B. Homann) في أطلسه الذي صدر في نورمبرغ (Nuremberg) سنة ١٧١٦؛ وراجع دراستنا: "نهر تمودة، النهر ذو الأسماء الخمسة"، **من الأندلس إلى تطوان**، أعمال الندوة التكريمية للدكتور امحمد بن عبود، تطوان ٢٠١٣، ص. ص. ٤١٣-٤٣٦. وانظر وصف دو فوكو الدقيق لهذا النهر:
FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc 1883-1884, Paris, 1888, p. 3 :«Dans toute la route [entre Tanger et Tétouan], un seul passage difficile, les environs du col. [...] Un seul cours d'eau important, l'Ouad Bou Çfiḥa (berges escarpées de 5 à 6 mètres de haut ; eau claire et courante de 6 à 8 mètres de large et de 0,30 à 0,40 centimètres de profondeur ; lit de gravier). On le franchit sur un pont de deux arches en assez bon état».

(٧) كلمة معربة قديما من الفارسية، وهي جُنيبة من فصيلة الخلنجيات، خشبية. لها أزهار كثيرة غالبا ما تكون وردية اللون، وأوراق دقيقة، تزرع للتزيين. راجع: **المنجد في اللغة والأعلام**، مادة خلن؛ و**معجم المصطلحات العلمية والفنية**، إعداد وتصنيف يوسف خياط، بيروت، دار الجيل، دار لسان العرب، بدون تاريخ، مادة: خلنج.

(8)- POTOCKI (Jan), op. cit., p. 18 ; POTOCKI (Jean), Manuscrit trouvé à Saragosse, Texte établi, présenté et préfacé par R. Caillois, Gallimard, 1958, p. 200 : « Le chef des Bohémiens me fit apporter un ample déjeuner et me dit :
- Seigneur cavalier, les ennemis approchent, c'est-à-dire les gardes de la douane. (...)».
وانظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال في النبإ عن النسب والحسب والحال**، تقديم وتحقيق وتعليق د. أبو القاسم سعد الله، الجزائر، ١٩٨٣، ص. ٣١: «عادة المكس بتطوان:

وكانت عادة قبيحة بتطاون ابتدعوها، أنهم يأخذون كلما معك، ويحملونه إلى دار العشر...».

(٩) ورد في الجزء الأول من مؤلف الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، تطوان/ جمعية تطاون أسمير، ١٩٩٨، ص. ١٩٤: أن سيدي محمد بن عبد الله «لما زار تطوان عام ١١٧٢ ه، لقيه أهلها، ما عدا قائدهم السيد محمد بن عمر لوقش، فإنه فر للحرم العلمي، ... فعزله وولى عليهم كاتبه عبد الكريم ابن زاكور الفاسي الذي أمر ببناء برج مرتيل، في مصب وادي مرتيل والديوانة القديمة، (أي دار مرتيل) القريبة له». وعن بناء برج مرتيل عام ١١٣٢ ه (١٧١٩ م)، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، تطوان، دار كريماديس للطباعة، بدون تاريخ، الطبعة الثانية، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٤٩: «في عام ١١٣٢ بنى القائد أحمد بن علي الباشا برج مرتيل بإذن مولانا إسماعيل، وعين للقنطار من الشمع الذي يخرج من المرسى أوقية، ولقنطار الجلد نصف أوقية، وأمر أن يصرف ذلك على من يحرس في سبيل الله بالبرج المذكور. ومن المعروف أن البرج المذكور ما زال قائما إلى الآن وأن موقعه على شاطئ البحر الأبيض المتوسط عن يسار مصب النهر الكبير المنحدر من القبائل الجبلية الواقعة غرب تطوان وجنوبها، كما أن من المعروف أن ديوانة ميناء تطوان تقع قرب هذا البرج، ومنها كانت توسق صادرات تطوان ونواحيها إلى الخارج، ومن أهمها الشمع وجلود المواشي، (...). وسيأتي لنا عن **الاستقصا** أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله، أمر ببناء هذا البرج مرة أخرى عام ١١٧٣. ويظهر أن هذا البناء إنما كان تجديدا فقط، كما أن من المعلوم أن تجديدا آخر وقع فيه بعد حرب سنة ١٢٧٦ ه ١٨٦٠ م إذ كانت مدافع الأسطول الفرنسي قد قنبلته وألحقت به أضرارًا جسيمة». ولقد ذكر برايث وايت برج مرتيل قائلاً: «وحالما وضعنا أرجلنا على الأرض، حيتنا مدفعية البرج القائم على مصب النهر بإطلاق نيرانها، وهي تتكون من مدفعين هما كل ما في هذا الحصن الذي بني لمراقبة الإسبانيين، وهو حصن لا يمكن الصعود إليه إلا بسلم، (...)»؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١١٦.

(١٠) هو الذي ولاه المولى سليمان على تطوان، بعد عزل عبد الرحمن أشعاش عام ١٢٠٦ ه، وأقام حاكما عليها نحو عام، حيث عزله السلطان نفسه عام ١٢٠٧ ه. راجع بخصوصه: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، تحقيق: جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، ج ٢، الطبعة الثانية، ألطوبريس، ٢٠٠١، ص. ٦٦؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ١٩٧، الهامش ١: « - الكاتب السيد محمد بن عثمان، ترجم له ابن زيدان في **الإتحاف** (ج ٤، ص. ١٥٩)، وذكر أنه «محمد بن عبد الوهاب بن عثمان الكاتب السفير الرحالة الوزير [الكبير] المكناسي النشأة والدار.»، ووصفه أيضا بالفقيه العلامة الأديب الشاعر، وذكر أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله اتخذه كاتبا، ثم استوزره واتخذه سفيرا لدى الدول، ثم ذكر أنه ألف كتاب "**الإكسير في فكاك الأسير**"، وهو رحلته الأولى لإسبانيا، وكتابه "**البدر السافر**" عن رحلته الثانية لمالطة ونابولي، وكتاب "**إحراز المعلى والرقيب**" عن رحلته الأخرى للحجاز وغيره، وكانت وفاته رحمه الله عام ١٢١٢ على ما ذكره بعض المؤرخين، أو عام ١٢١٤ حسبما حققه أخونا العلامة المدقق الأستاذ محمد الفاسي حفظه الله »؛ وص. ٣٨٣: « حول ولاية الكاتب محمد بن عثمان على مدينة تطوان (...)، ص. ٣٨٤:« (...) ثم بعد تاريخ تلك الرسالة (١٦ رمضان من عام ١٢٠٦) بستة أشهر، أسند مولاي سليمان إلى ابن عثمان الولاية على تطوان وكلفه بمباشرة ما بين المغرب والأجانب من مصالح وشؤون، فكان بذلك قائما مقام وزير الخارجية، ومن المعروف أن ممثلي الدول الأجنبية من سفراء وقناصل (...) إنما كانوا يقيمون أولا بتطوان عندما كانت طنجة تحت الاحتلال البرتغالي ثم الإنجليزي، فلما استرجع المغرب طنجة من يد الأجانب، انتقل إليها نواب الدول الأجنبية بعد سنين عديدة، ثم بعد ذلك بمدة أنشئت عدة قنصليات في مدن أخرى بالمغرب».

(١١) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، المطبعة المهدية، تطوان، ص. ١٨٥: « [من السلطان مولاي اليزيد] إلى حاكم سبتة، سلام على من اتبع الهدى، وبعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد محمد بن عثمان طلبتم منا بعثه إليكم، وقد بعثناه وذكرنا له شروطا ثلاثة، وهي التخلي عن مدننا، أو دفع الجزية عنها، وإلا فالقتال أو المحاربة، وقد توجه وأقام عندكم هذه مدة من أحد عشر شهرا وما جاءنا جواب نعتمده، وإنما يأتينا أنكم تقولون عند الأمر والنهي، وأفعالكم ما طابقت أقوالكم، (...) وقد أعلمناكم وجعلنا لكم شهرا وعشرة أيام من الثاني من غشت آخرها الحادي عشر من شتنبر، (...) وبيننا وبينكم الشهر والعشرة الأيام، وفي الثالث عشر من ذي الحجة الحرام عام خمسة ومائتين وألف (١٧٩١/٨/١٣)؛ ص. ١٨٧: «: [من السلطان مولاي اليزيد] إلى عظيم صبانيات والهند الري كارلو الرابع، السلام على من اتبع الهدى، أما بعد فاعلم أننا كتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يعقد معك الصلح والمهادنة، (...) وكتبنا لباشدورنا السيد محمد بن عثمان يمضي معكم الصلح والمهادنة والسلام، في ٥ صفر الخير عام ١٢٠٦ (١٧٩١/١٠/٤) »؛ التازي (عبد الهادي)، **التاريخ الديبلوماسي للمغرب**، المجلد التاسع، ١٩٨٨، ص. ص. ١٢٢-١٢٦؛ ١٢٩؛ محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، حققه وعلق عليه الأستاذ محمد الفاسي، منشورات المركز الجامعي للبحث العلمي، الرباط ١٩٦٥، ص. ن.

(١٢) مدح بوطوكي بن عثمان، وذكر خصاله الحميدة؛ كما مدحه المولى سليمان قائلاً: «أما بعد فاعلموا أن كاتبنا الفقيه السيد بن عثمان، تعرفون منزلته عندنا وعند سيدنا الوالد رحمه الله صدقا وأمانة وعِرضا ومروءة، ولهذه الحالة المعروف بها عندنا، بعثناه لتطوان ووليناه أمرها وأمر من بها مفوضا له في ذلك، (...)»، انظر: داود (محمد)، **تاريخ**

تطوان، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ٣٨٤. وثلبه محمد داود ووصفه بطول اللسان...، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص. ٢٨٠: «فقيهان من تطوان في سفارة سلطانية عام ١١٩٦: ذكر ابن زيدان في تاريخه (ج ٣ ص. ٣٢٠) أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسل إلى جزيرة مالطة سفارة على رأسها كاتبه وسفيره السيد محمد بن عثمان، ومن رجالها السيد عبد الكريم بن قريش، (...). وهذه السفارة قد ألف فيها ابن عثمان المذكور، رحلة سماها "**البدر السافر لهداية المسافر إلى فكاك الأسارى من يد العدو الكافر**" (...) ثم غادروا طنجة إلى قادس بإسبانيا في سابع ربيع النبوي عام ١١٩٦ (...). ويظهر أن ابن عثمان المذكور، كان طويل اللسان إذ أنه ذم رفقاءه ذما، وسبهم سبا، (...) ووصف ابن قريش التطواني بأنه عدو الكريم، الشقي الغدار، الخائن الختار، ومذي الصالحين والأخيار، إلخ».

(13) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 23-24.

(14) Ibid., p. 33.

(١٥) راجع على سبيل المثال:

Histoire du naufrage et de la captivité de M. de Brisson, Officier de l'Administration des Colonies... ; Genève, 1789 ; فالمغاربة حسب دو بريسون مجرد وحوش، منعدمو الكرامة والذكاء، يطغى عليهم العنف، ومتعطشون لسفك الدماء...؛ انظر: القدوري (عبد المجيد)، **سفراء مغاربة في أوربا** (١٦١٠-١٩٢٢)، الدار البيضاء ١٩٩٥، ص. ٢٢.

(١٦) انظر على سبيل المثال: **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ٣٠: « (...) فخرجت، فإذا بجمع كثير من النساء قد أظهرن زينتهن وتبرجن تبرج الجاهلية الأولى، فأظهرن من الفرح والسرور والأدب ما قضينا منه العجب»؛ وص.١٦١: «ورقصن الضامات كما هي عوائدهم، فتجد الرجل جالسا وامرأته أو بنته ترقص مع أجنبي، ويناجي بعضهم بعضا خفاء ولا حياء، وكلام الناظرين يذهب جفاء ولا يبالي أحد بذلك مع ما هو معلوم فيهم وشائع في بلادهم من الفسق والزنى، ويعرف ذلك بعضهم في بعض، ومع ذلك فلا يبالون بشيء، فقد جبلوا على عدم الغيرة قبحهم الله وطهر منهم البلاد...».

(17) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 25.

(18) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 74 ; M. Arribas Palau, Una misión frustrada de Francesco Chiappe a España en 1791, Hespéris-Tamuda, vol. V, 1964, pp. 79-118 ; Idem, La estancia en España de Muhammad ibn Utman (1791-1792), Hespéris-Tamuda, vol. IV, 1963, pp. 119-192.

(19) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 19-20.

(٢٠) ربما كانت هذه الدار تقع في حومة سيدي مصباح التي كان أغلب سكانها من اليهود، ومعهم بعض النصارى، حسب: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٠٤: «حومة سيدي عبيس وسيدي مصباح: الخامسة: حومة سيدي عبيس وسيدي مصباح. وكانت مقسومة إلى قسمين: قسم خارج باب الرموز، أسفل السور، حيث ضريح سيدي عبيس. وكان مختصا باسم حومة سيدي عبيس. وقسم داخل السور، مطل على القسم الأول، كان مختصا باسم حومة سيدي مصباح، حيث ضريح الولي المذكور». ولما بلغ عبد القادر التبين الأندلسي تطوان، وجدها معمورة بالقرى من كل جهة، إلا الموضع المسمى بأنجريس (لعله الموضع المسمى إلى الآن بالمنجرة، بقعر الحافة). فصعد على حافة فوقه، فوجد الموضع في غاية الحسن، إذ كان يرى من الحافة الجهات الأربع. فضرب خِباءه فوق الحافة...، راجع: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ٥٣؛ ١٥-٦١. وفي حديثه عن ضريح سيدي سعود أسفل المصلى القديمة، فوق باب الرمّوز (...)، يقول الرهوني أنه كان يقع في بيت عال بدرجة، مكتنف بدور اليهود من كل جانب؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٦٨؛ فيحتمل أن يكون البيت الذي أقام فيه بوطوكي كان يقع في هذه الناحية: ما بين باب الرمّوز وأعلى الحافة التي ضرب التبين خباءه فوقها، والتي قد يكون سطح دار السرفاتي كان يشرف من أعلاها على "السهل والجبال والبحر".

(21) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 37-38.

(٢٢) عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان وسلوة الأحزان في الأخبار الواردة في بناء تطوان ومن حكم فيها أو تقرر من الأعيان**، تقديم وتحقيق يوسف احنانة، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٥، ص.٤٥: «وكان الرجل الذي أنشأ بناءها رجلا حكيما، أعمل لها مواضع الحرث من وادي بوصفيحة إلى البحر، سقيا وبعلا، فالسقي منها كيتان، والمنافع، والمحنش، والدردارة، وأوهّار وما والاها. والبعل دون ذلك. وعمل الأرحي بقربها، وداخلا فيها. وعمل الأجنات في الديور، إن بقيت على ذلك، لا تفتقر لأحد.»؛ وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص.٣١ .

(٢٣) انظر: الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، بيروت، الطبعة ٢، ١٩٨٤، ص. ١٤٥: «تيطاوان: بقرب مليلة مدينة قديمة، كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيبة الهواء والماء...»؛ وكتاب **الاستبصار في عجائب الأمصار**، (لكاتب مراكشي من كتاب القرن السادس الهجري)، نشر وتعليق سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء ١٩٨٥، ص. ١٣٧: «مدينة تيطاوان: وهي مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيبة الهواء والماء...» ؛ ومحمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد ٢، ص. ١٦٣:« وصف الكاتب الإنجليزي [برايث وايت] لتطوان وأهلها : لقد وجدتها أفضل إلى أقصى الحدود من جميع المدن الأخرى التي شاهدناها في رحلتنا، ويؤيد فضلها هذا، جمال الأراضي المحيطة بها التي تعتبر أحسن الأراضي زراعة في بلاد المغرب* (١)، وبها تجارة شعب من أقوى الشعوب روحانية وأكثرها تمدنا في هذه الإمبراطورية بأجمعها»؛

* (١) ليكون قول هذا المؤلف مطابقا للواقع، يجب أن نحمل كلامه على ما يتعلق بزراعة البساتين والغراسي وما كان بها

في ذلك العهد من خضر وفواكه وثمار ورياحين وأزهار وأنوار، ...

BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ... Amsterdam, 1781, p. 155 :«Mais, avant de sortir de Tetuan, je donnerai une petite description de cette ville, que j'ai trouvé infiniment au-dessus de toutes celles que nous avons vues dans notre voyage, et cet avantage est soutenu par la perspective du Pays des environs le mieux cultivé de toute la Barbarie, et le commerce d'un Peuple le plus spirituel et le plus civilisé de tout cet Empire».

(24) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 19.

(٢٥) انظر: الرهوني (أحمد)، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج٣، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، تطوان، ٢٠٠٣، ص. ص. ٢٦٧- ٢٦٨: «**الغرسة** بكسر الغين: البستان الذي يسقى. كما أن الجنان هو// البستان البعلي. هذا عرفنا في تطوان... وتجمع الغرسة على "غِرس"، بقياس»؛ ص. ١٠٥: «"**الجنان**": اسم لكل بستان بعلي لا يسقى. وأصله جمع جنة. ويُصغرونه على "جنيون"، بغير قياس؛ و ج ١، ص. ص. ٢٠٥-٢٠٦: «وأما خارجها [المدينة]، فمشتمل على حقول ومزارع؛ تسمى في عرفهم فدادين، وعلى غروس وجنات. والعادة أن ما كان غير مزرب من الأراضي، يسمى باسم الفدان. وما كان مزربًا بزرب // من قصب، فإن كان سقويًا، سمي غرسة، بكسر الغين. وما كان بعليا، سمي جنانا. وهذا اللفظ في الأصل، جمع جنة. ثم صار يطلق على خصوص البستان البعلي...

ثم إن خارجها [المدينة] يقسم على أقسام وحومات، كداخلها. فخارج باب النوادر، كانت فيه غراس في حجر جبل أرسى. وفوقها جنانات في موضع يسمى (راس القراور).». ولقد استعمل الرهوني تصغير غرسة، وهو غُريسة: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٢٧- ٢٨؛ والجزء ٦، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، منشورات جمعية تطاون أسمير، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٦، ص. ٢٥.

(٢٦) لوادي مرتيل عدة مخاضات (ج مخاضة) يسميها الأهالي "مجاز"، كانوا يستعملونها لعبور النهر، ذكر الرهوني منها: مجاز العطارة، ومجاز العدوة، ومجاز الحجر، ومجاز الزيتون، ومجاز الحمارة، ومجاز الشطبة؛ وغالب الظن أن بوطوكي ومرافقيه عبروا النهر إما عبر مجاز الزيتون الذي كان يستعمل للمرور إلى عدوة كيتان، أو مجاز الحجر؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ص. ٢١٠-٢١١؛ وج ٣، ص. ٣٩، ١٠٤؛ وج ٦، ص. ٢٣.

(٢٧) الزّرب: كل محيط ببستان، من قصب وغيره، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٩٠.

(٢٨) يسميها الأهالي في تطاون: العُلَّيْقُ. انظر: **لسان العرب**، مادة: علق: والعُلَّيْقُ: نبات معروف يتعلّق بالشجر ويَلْتَوي عليه. وقال أَبو حنيفة: العُلَّيق شجر من شجر الشوك لا يعظم، وإِذا نَشِب فيه شيء لم يكد يتخلَّص من كثرة شوكه، وشَوكُه حُجَز شداد، قال: ولذلك سمِّي عُلَّيْقًا، قال: وزعموا أَنها الشجرة التي آنَسَ موسى، على نبينا وعليه الصلاة والسلام، فيها النارَ، وأَكثر منابتها الغِياضُ والأَشَبُ. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٤، ص. ٢٧.

(29) BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ..., p. 82 :«[...] Ces dehors présentent une perspective des plus agréables, on ne voit que jardins le long de la rivière, où l'on arrive par plusieurs allées, que des espèces de palissades faites de roseaux rendent impénétrables aux rayons du Soleil».

(٣٠) راجع عادات التطاونيين في المصيف والخريف حسب **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٣٨: «من عاداتهم في المصيف، [وهي الفترة التي زار خلالها بوطوكي تطوان] أن جلهم يخرج لجنانه أو غرسته بعياله لشم الهواء الصافي، والتمتع بصحراء البادية، والتلذذ بغلة بستانه، مع أهله وجيرانه. فيبدؤون أولا بالمشمش، ثم بالباكور والتفاح والإجاص، ثم بالعنب والتين المنوع، والهندي والرمان»؛ و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢١١: «فأما العدوة الموالية لقنطرة أبي صفيحة، واستمرت إلى ما تحت مدشر بوسملال، فكلها مزارع لوادي راس وبني حزمر. وفيها أملاك كثيرة لسكان تطوان.

وأما ما تحت المدشر المذكور، فيسمى باسم العدوة. وفيه غراس كثيرة، بها لشين وتفاح وإجاص، وليمون وليم، وتين وغدان، وخوخ ورمان، وجوز وغير ذلك. وجلها ملك لأهل تطوان. ومنتهاها ما قابل مجاز الحجر، فإنه يسمى باسم مجاز الحجر. وقد اشتمل على غراس وجنانات لأهل البلد أيضًا»؛ عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان** ص. ١٣٤-١٣٥: «ومن عجيب أمرها أن الخريف لا ينقطع منها، ففي فصل الربيع تكون غلة اللشين، وتمتد إلى وقت العنب، وفي أوان المصيف، يكون بها خريف آخر من الباكور، والإجاص، والتفاح، وحب الملوك وغيرها من الفواكه. ويمتد ذلك مع غلة اللشين إلى وقت يطيب فيه العنب. ويتبعه أصناف ثمار الأشجار، ويبقى ذلك زمانًا طويلاً. وتتبعه غلة الجوز والرمان، وتمتد إلى أن يظهر خريف اللشين آخر»؛ وراجع وصف نزهة الأسبوع في الغرسة: داود (محمد)، **على رأس الأربعين**، ج ١، تقديم وتعليق حسناء داود، تطوان ٢٠٠١، ص. ٢١- ٢٥.

(31) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 38-40.

(٣٢) كانت لأشعاش عدة غِرس وجنانات ومتنزهات، ذكر الرهوني من بينها جنان العيّاط الذي كان يقع في دقم الجنانات بحومة الطوابل: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٠١. كما كان له متنزه في المرّة، وآخر بالمحنش، وآخر في المحل المسمى فم الجزيريّة، عند منتهى الطوابل، وغرسة في كيتان؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٧٦.

(٣٣) لعلها الغرسة التي كانت توجد في أبي قُدَيرة، وهو اسم قطعة من كيتان؛ كانت توجد بها غرسة راغون واللبادي حسب **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٤٠.

(٣٤) راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص. ص. ٢٦٧-٢٦٨: «السلطان يرسل الحاج عبد الكريم راغون التطواني سفيرا إلى تركيا عام ١١٨٠ (١٧٦٦/٨/١٤) »؛ داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثالث : ص. ١٠٣: «السفير الحاج عبد الكريم راغون: (...) وقد علمت من الفصل السابق أن السلطان سيدي محمد بن عبد الله أرسله سفيرا إلى سلطان تركيا (...) وقد علمنا أن سفارته إلى تركيا كانت في سنتي ١١٨٠ و ١١٨١، ولعل وفاته كانت في أواخر هذا القرن، والله أعلم» ؛ بل كانت بعد ١٠ ذو القعدة ١٢٠٥ (١٧٩١/٧/١١)، حسب شهادة بوطوكي. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٧٢؛ وكشاف **أسماء عائلات تطوان**، تطاون ١٩٩٩، رقم ٦٩٧، ص. ٧٣.

(٣٥) كان لغِرس تطوان رونق خاص نتيجة للمهارات التي طورها أصحابها الأندلسيي الأصل المتميزين بذوقهم الرفيع. ووصفها دو فوكو في ١٨٨٣ بأجمل بساتين العالم، انظر: FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 4 :«Dominée [Tétouan] au nord et au sud par de hautes montagnes, ayant à ses pieds les plus beaux jardins du monde, arrosée par mille sources, elle a l'aspect le plus riant qu'on puisse voir. […] Les environs de la ville sont d'une grande fertilité ; les fruits de ses immenses jardins sont renommés dans tout le nord du Maroc : on les exporte à El Qçar et à Fâs… ».

ولقد دأب بعض سلاطين المغرب، كعبد الرحمن بن هشام، على طلب البستانيين (الرباعين) التطوانيين للإشراف على تهيئة بساتينهم وغرسها، في فاس ومراكش، وجلبوا من تطوان شتلات أشجار الفواكه، وبذور الخضر، بل حتى الفؤوس ؛ انظر : داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٨، ص. ١٠٧-١٠٨؛ ١١١: «... وبلغ الغرس بأنواعه غضًّا طريًا يانعا كما نحب،...»؛ ص. ١٧١: «وبعد، فوجه الغرس في إبانه من ليم وإنجاص وغير ذلك...»؛ ص. ١٨٧- ١٨٨؛ ١٩٤؛ ٢٦٩؛ ٢٨٤؛ ٤٢٦؛ ٤٢٨؛ ص. ١١٢:«... وجّه لحضرتنا العالية بالله تعالى أربع مائة فأس من الفؤوس التي تخدمون بها جنتكم وعشر عتلات، ولا بد والسلام»، وص. ١٤٣؛ و**تاريخ تطوان**، المجلد التاسع، تطوان، منشورات الخزانة الداودية، ١٩٩٨، ص. ٤٤٣: "السلطان عبد الرحمن بن هشام يطلب من تطوان عارفا بتنظيم البساتين (١٢٦٦)"؛ ص. ٤٥٠: "مائة قضيب من الياسمين الدق من تطوان إلى فاس"...

(36) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 59-60.

قد يتعلق الأمر بالغرسة التي كانت معروفة بالسانية في كيتان، والتي كانت في ملك أحمد بن علي الريفي سابقا، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ١٨٥: «(...) وتتابع انتصار التطوانيين عليه [الباشا أحمد الريفي]، حتى هدموا القصر الجميل الذي كان بناه الباشا أحمد بكيتان. (سانية السلطان)»؛ ج ٢، ٥٣. وكان John Windus قد وصفه كالتالي: «ويوم ١٧٢١/٥/١٥ تناولنا الغذاء ببستان الباشا، وهذا البستان يبعد عن المدينة بنحو ثلاثة أميال، وكان حديث العهد بغراسته، وهو واقع في وادي جميل تحيط به جبال وتلال وأشجار وخضر، وله مناظر بديعة من جميع نواحيه، وتشقه ساقية ماء لا شك أنها كلفت خدمات كبيرة لجلب مائها من سفح الجبل، وكان غذاؤنا تحت شجرة خروب ذات ظل وافر. وعقب الغذاء وصل حاكم تطوان فتفسح معنا وقدم لنا أطيب الفواكه من برتقال وليمون ومشمش مذاقه لذيذ. وطرق البستان مفصولة عن غيرها بحواجز قصبية في غاية الإتقان، وفي الوسط عريش متقن تتوسطه خصة يجري بها ماء معين، (...). وهذا العريش تحيط به حديقة جميلة بها قرنفل كثير قد التف حول الحواجز والنوافذ، الأمر الذي جعل العريش ذا منظر جميل، وصير الجلوس به لذيذا ممتعا. وهذه الناحية يوجد بها أحسن أصناف البرتقال والليمون والزيتون والعنب والتين والبطيخ والرمان والمشمش "النيش"؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٠-٦١.

(37) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 67-69.

(٣٨) راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ٢٠٢-٢٠٣: «في أقسامها وحوماتها. كان داخلها مشتملا في القديم على خمسة أقسام وفروع، تسمى الحومات... وأكبر هذه الفروع، فرع البلد. وله أبواب ثلاثة: باب المقابر، والباب السفلي، ويسمى أيضا باب الجيف، لخروج الجيف منه... وباب السعيدة... وللفرع الثاني بابان: باب الرموز، وباب العقلة. وللفرع الثالث باب واحد، وهو باب التوت. وللرابع باب واحد، وهو باب النوادر. وقد سميت هذه الأبواب بعد الاحتلال بأسماء أخرى؛ فسميت باب النوادر، (لا بويرطا دي فاس)، أي باب فاس، وباب التوت، (لا بويرطا دي طنخير)، أي باب طنجة، وباب الرموز// (لا بويرطا دي المار)، أي باب البحر، وباب العقلة، (لا بويرطا دي الرينا)، أي باب الملكة، وباب السعيدة، (لا بويرطا د سعيدة)، وباب السفلي (...)، وباب المقابر، (لا بويرطا دي سبتة)، أي باب سبتة».

(٣٩) سيدي العربي الفاسي، **مرآة المحاسن**، طبعة فاس ١٣٢٤هـ: «إنها بلد مربع وقصبتها في ركنها ولها ثلاثة ابواب وسورها في عرضه سبعة أدرع ودار بالسور الأول سور ثان وبعده دارت الحفائر، وأعظمها حفير القصبة...».

(٤٠) مصطفى غطيس (ترجمة)، **تطوان، الحاضرة الأندلسية المغربية**، منشورات جمعية تطاون أسمير، طنجة، ٢٠٠٢، ص. ٥١؛ ٥٧.

(٤١) **نزهة الإخوان**، ص.١٢٠: «وحدثني شيخنا العالم العلامة سيدي عبد الرحمن الحايك، المتقدم الذكر أن علماء البلدة التطاونية كان لهم جمع في الجامع الأعظم، على من يكون قاضيا فخرج السهم عليه (سيدي عبد القادر بن مرزوق)، فلما أُفحم ولم يجد جوابا قال: انتظروني أن أدخل الميضات لقضاء حاجتي. وترك أمامهم السراويل والبرنس والرداء ونعليه، وخرج للميضات ومن ثم خرج على باب العقلة إحدى أبواب تطوان، وسار ذاهبا على حالته المذكورة وعلى قدميه إلى أن وصل بني هليل أحد مداشر القبيلة الزياتية من القبيلة الغمارية لأن بعض أناسه كان قاطنا بها، ...».

(42) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٤٣) داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثاني، ص٢٤٢: «ومن آثاره [محمد لوقش] بها قناتان للماء الجاري للعموم، إحداهما "قناة باب العقلة" والأخرى "قناة باب التوت" وهما صهريجان كبيران يجري بهما الماء الصافي الصالح للشرب في جميع فصول السنة، بل هما أكبر الصهاريج "السقايات" الموجودة من نوعهما بتطوان، (...). أما صهريج باب العقلة فهو واقع أمام الداخل إلى المدينة من الباب المذكور، وحوضه من الحجر، وله أنبوبان يجري بهما الماء إلى وقتنا هذا (١٩٤٩ م). ويستقي منه بعض سكان الحومة القريبة منه، وكثيرا ما تشرب من حوضه البهائم والبقر»؛ و**مختصر تاريخ تطوان**، ص. ١٠٢-١٠٣؛ ومصطفى غطيس، **تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية**، ص. ٤٧.

(44) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٤٥) راجع وصف John Windus لمساجد تطوان: « وطريقة بناء هذه المساجد غير منتظمة، وهي في الغالب محاطة بديار، ولا يسمحون للإنسان بدخولها إلا إذا كان منتميا إلى دينهم، والذي لاحظته عند مروري أمامها أنها مربعة الشكل، وأن سقفها منحني وأن بها سواري عديدة، وأنها مقسمة إلى عدة بلاطات سعة الواحد منها نحو أربع يردات، (...) : داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٧٤؛ وراجع تعريف "البلاط" في ج ٣ من **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ص. ص. ٨١-٨٢: «(...) وهو قطعة من الدار أو المسجد، المسقفة على حدتها. فيقال في المسجد الفلاني بلاط واحد، أو بلاطان. (...)»؛ وانظر: **رحلة سفارتين إسبانيتين إلى مراكش (ق ١٨ و ق ١٩)**، تعريب د. أحمد صابر، الرباط ٢٠٠٣، ص. ٢٣ : «وكان إذ ذاك بتطوان ثلاثة وعشرون مسجدا وسبع بيع يهودية وأيضا دار سكة...».

(46) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

تبدو تطوان من خلال وصف John Windus مدينة عامرة بالسكان، حيث يقول: «وسكان تطوان عديدون معافون، كما أن شروط الصحة متوفرة لديهم، فهم متمتعون بهواء جيد (...)؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٤؛ وص. ١٦٤، حيث يقول برايث وايت: «ويقدر عدد سكان تطوان بنحو ثلاثين ألفا بما فيهم اليهود، ويلوح للزائر أن هذا العدد فادح بالنسبة لصغر المدينة، رغم أنني قد خفضت كثيرا من الرقم الذي أرادوني أن أعتقده، لأنني لاحظت دائما أن المؤلفين الأقدمين والحديثين وجميع الذين عاشوا في هذه البلاد، يبالغون بإسراف في عدد السكان، وفي تقدير قوة ومقدرة هذه الإمبراطورية». ويقول الرهوني في هذا الصدد: «اعلم أن تقدير عدد السكان على التحقيق، كان قبل الاحتلال غير متيسر لأسباب. أما على التقريب، فكان عدد المسلمين يتراوح ما بين العشرين ألف نفس، إلى نحو الخمسة والعشرين ألفًا. وكان عدد اليهود يتراوح بين السبعة آلاف، إلى ثمانية آلاف»؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٥.

(47) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 77.

(48) Ibid., p. 82.

(49) Ibid., p. 18.

(50) Ibid., p. 27.

(٥١) هي التي يسميها بن عثمان بـ "شبابيك من القصب المسمى عندنا بالماموني"؛ والماموني في الأصل قبة وسط بستان تتخذ من قصب أو نحوه متشابك ثم صارت اللفظة تطلق على كل ستار من قصب أو خشب من هذا النوع في جوانب الممرات في الحدائق. ويظهر أن أصل الكلمة نسبة إلى المامون بن ذي النون صاحب طليطلة، وقد كان أنشأ قصرا فخما وجعل في وسط حدائقه بحيرة، وجعل وسطها قبة من زجاج وصفها الأدباء وذكرها المؤرخون (انظر **نفح الطيب**، طبعة ليدن، ج ١، ص. ٣٤٧، وج ٢، ص. ٦٧٣): محمد بن عثمان المكناسي، **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ١٧٩، والهامش ٢؛ و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٣٠.

(52) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 39-40.

(53) Ibid., p. 60.

(٥٤) وقد وصفه محمد بن عثمان بإسهاب، راجع: **الإكسير في فكاك الأسير**، ص. ٥٧-٦٢.

(55) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(56) Ibid., p. 40.

ذكر الرهوني في الجزء الأول من **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ص. ١٧٨، أن كثيرا من الأندلسيين «أتوا بمفاتيح أملاكهم التي كانت بالأندلس، تبركا بها وحفظا لآثارها، وانتظارا لأيام رجوعهم لأرضهم وأملاكهم، حين يفرحون بإخراج الكفار منها. وقد ذكر بعض رواة الخرافات الأروباوية أن عند أهل تطوان عددا من تلك المفاتيح. وهذا لا أصل له. بل هو كذب. نعم. رسوم الأملاك كانت لا زالت عندهم محفوظة. وقد بحث مؤرخ إنجليزي عن هذه المفاتيح، فلم يقف لها على أثر. وأخبره بعض أولاد الخطيب، أنه كان عندهم بعض رسوم من الأندلس، مع سيف أبي عبد الله ابن الأحمر الذي سلم غرناطة للإصبان، إلى أن نُهبت منهم في حرب عام ١٨٦٠ مسيحي، ١٢٧٦ هجري. أما الرسوم، فممكن وجودها عندهم. وأما السيف، فيبعد وجوده عندهم». تقدم إلينا الكاتبة الإنجليزية فرنسيس مكنب «ملاحظاتها عن مقامها في مدينة تطوان، وفي طليعة ذلك كراهية المغاربة الشديدة للإسبان، [...] وإنها ترجع إلى أيام طرد المغاربة من إسبانيا وقد غادروها وهم على يقين أنهم سيعودون إليها، إلى درجة أن كثيرا من سكان غرناطة صحبوا معهم مفاتيح منازلهم، ويقال أن عددا من هذه المفاتيح ظل يوجد في منازل بعض الأرستقرطيين من سكان المدينة إلى عهد الحرب المغربية الإسبانية، فلما احتلها الإسبان صادروا هذه المفاتيح (١٨٦٠)»؛ انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٩٠١)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ١٧.

(57) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 59.

(٥٨) راجع بخصوصه: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج٢، ص. ٦٥- ٦٧؛ ٦٩-٧٠؛ وج ٣، ص. ٥١-٥٨؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ص. ١٨٠-١٨١: «ولاية الحاج عبد الرحمن أشعاش على تطوان عام ١٢٠٤: كان

قائد تطوان، هو الحاج عبد الرحمن قردناش، وقد عزله المولى يزيد حين قدم على المدينة المذكورة عقب بيعته في شعبان عام ١٢٠٤، وذكر السكيرج [**نزهة الإخوان** ص. ٨٠] أن المولى اليزيد لما عزل القائد قردناش، ولى مكانه الحاج عبد الرحمن أشعاش، وأن هذا بقي حاكما بها إلى أن عزله السلطان مولاي سليمان، وسيأتي لنا أن عزله كان حوالي عام ١٢٠٦»؛ ص. ١٩١: «انتصار السلطان مولاي سليمان، وعزل أشعاش قائد تطوان : وتم الأمر للمولى سليمان لما عرف به من الجد والمروءة والدين، فبسط نفوذه على جل بلاد المغرب، ومن جملتها تطوان ونواحيها من الجهات التي كانت قد بايعت المولى مسلمة، وبإثر ذلك عزل السلطان المولى سليمان، قائد تطوان الجديد الذي ولاه المولى يزيد، وهو الحاج عبد الرحمان أشعاش، بالرغم من أنه لم يكن من مؤيدي خصمه المولى مسلمة، ولم يذكر المؤرخ السكيرج تاريخ ذلك العزل [**نزهة الإخوان** ص. ٨٢]، وإن كان من أهل تطوان وسكانها في ذلك العهد، والظاهر أنه كان عام ١٢٠٧هـ»؛ ص. ١٩٧: «ولاية الكاتب محمد بن عثمان على تطوان عام ١٢٠٧: ذكر أبو محمد السكيرج [**نزهة الإخوان** ص. ٨٢]، أن المولى سليمان لما تولى ملك المغرب، عزل قائد تطوان الحاج عبد الرحمان أشعاش، وولى بدله الفقيه الكاتب محمد بن عثمان، ولم يذكر تاريخ ذلك، وإنما اقتصر على أن ابن عثمان المذكور، أقام حاكما بتطوان نحو العام، والظاهر أن ولايته هذه كانت عام ١٢٠٧»؛ محمد ابن عزوز حكيم، **كشاف أسماء عائلات تطوان**، رقم ٩٨، ص. ٢٤.

(59) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 31 ; 36.

(٦٠) بعد تعريفه مصطلح "قائد" (le caïd)، كتب مييج (J.–L. Miège)، ص. ١٨٥، هامش ص. ١٩ أن الأمر يتعلق في هذا التاريخ (١٧٩١) «بعمر الريفي الذي توارثت عائلته منصب القائد». لكن الصحيح هو أن قائد تطوان في هذا العهد هو الحاج عبد الرحمن أشعاش الذي ولاه المولى اليزيد عام ١٢٠٤ ه / ١٧٩٠ م، بعد عزل الحاج عبد الرحمن قردناش. فهل خلط مييج (J.–L. Miège) بينه وبين القائد عمر بن حدو البطوئي [الريفي] الذي توفي من جراء وباء الطاعون في نوفمبر ١٦٨١ ؟ أم خلط بينه وبين القائد عمر ابن الباشا أحمد بن علي الريفي الذي لم يحكم تطوان؟ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ص. ١٨٤-١٨٥؛ وج ٢، ص. ٤٩-٥٠؛ و**مختصر تاريخ تطوان**، ص.١١٧؛ و**تاريخ الضعيف** (تاريخ الدولة السعيدة) لمحمد الضعيف الرباطي، تحقيق وتعليق وتقديم أحمد العماري، الرباط، ١٩٨٦ ص.١٢٦؛ ومصطفى غطيس، **تطوان الحاضرة الأندلسية المغربية**، ص. ٣٠. ولعل بوطوكي سمع أفراد الجيش يجيبون المنادي الذي ينادي بنصرة السلطان ثلاث مرات، فيجيبونه بالمثل، ثم بالبركة في عُمْرِ الباشا، فخلط والحال هذه بين عُمُر الباشا واسم عُمَر؟ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٧٧.

(61) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 20.

(٦٢) لاحظ برايث وايت «شدة نظافة» الدار التي خصصت له ولمرافقيه؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢١. ويعبر أهالي المدينة عنما يسميه بوطوكي بحسن التنظيم والنظافة... التي تميز دورهم باستعمالهم مصطلحات التّاويل والتقعديد والتّقعديدة، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ١٠٠.

(63) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 27.

راجع وصف John Windus لديار تطوان الوارد في: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٣-٦٤: «ديار تطوان جميلة جدا ولكن شوارعها ضيقة جدا أيضا. وقلما ترى بتلك الدور نوافذ، وإنما ترى بها فتحات صغيرة، والنور ينفذ إليها بواسطة فناء بوسطها مربع الشكل مكشوف فيه أعمدة تحمل الأروقة بسقوف من خشب مطلية تحيط بداخل الدار، وهي تكاد تشبه ديارنا، وفي وسط الفناء توجد خصة إذا كانت الدار لشخص صاحب حيثية، والحجرات طويلة ضيقة وتوجد منها في العادة، أربعة في كل طبقة، وهذه الحجر تقابل الأروقة وأبوابها واسعة منها يدخل النور. وهذه الدور تكون بها في العادة طبقتان، ماعدا دار الباشا ودور أشخاص معدودين، والطبقة العليا مسطحة بحيث في بعض الجهات يمشي الإنسان بكل سهولة، ولكن الدور التي للتجار المسيحيين توجد بسطوحها شرفات».

(64) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 29.

(65) Ibid., p. 30.

(66) Ibid., pp. 33-37.

(67) Ibid., pp. 44- 47.

(68) Ibid., pp. 76-77.

(69) Ibid., pp. 79-80.

(٧٠) البروبي: اسم عائلة أندلسية. والكلمة إفرنجية، منسوبة إلى البروبنسية، أي العمالة أو الإيالة؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٦٧؛ و**كشاف أسماء عائلات تطوان**، رقم ٤٥١، ص. ٥٤.

(٧١) لم يكن محمد داود متأكدا من شغل البروبي لمنصب أمين ديوانة تطوان، إذ يقول بخصوصه "لعله كان أمينا بديوانة تطوان"؛ ونص بوطوكي هذا صريح ويؤكد أن البروبي كان فعلاً على رأس ديوانة المدينة في التاريخ المذكور؛ انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ٢٣٦: «من المستندات الرسمية في عهد القائد أشعاش: وقفت على أوراق رسمية يرجع تاريخها لعهد ولاية الحاج عبد الرحمان أشعاش، ودونك بعض نماذج منها : فهذه شهادة للتاجر عبد الرحمن مدينة عام ١٢١٢ ونصها: الحمد لله وفي منتصف ذي الحجة الحرام عام اثني عشر ومائتين وألف، ورد التاجر الأبر السيد عبد الرحمن ابن المرحوم بكرم الله سبحانه الفقيه الأجل السيد الحاج علي مدينة الأندلسي التطاوني لدار الأعشار من محروسة تطوان بقصد السفر في البحر لبر النصارى لتجارة رائجة إن شاء الله، فأظهر لشهوده ما بصندوقه من المال، (...) فمن عاين ما ذكر لمن ذكر، قيده شاهدا به لسائل ذلك منه في تاريخه، ثم علامة (...)، ثم إمضاء عبد الرحمن بن علي قرضناش، ثم

عبد ربه محمد بن محمد البروبي لطف الله به آمين، (ولعل هذين كانا أمينين بديوانة تطوان)، ثم إمضاء عامل تطوان هكذا خديم المقام العالي بالله عبد الرحمان عشعاش لطف الله به آمين».

(72) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 21-22.

(73) Ibid., p. 27.

(74) Ibid., pp. 66-67.

(٧٥) نسبة إلى أكطيون (Actéon)، وهو شخص ميثولوجي مُسخ إلى أيّل قبل أن تفترسه كلابه، مجازاة له على استراق النظر إلى ديان (Diane) وهي تستحم.

(٧٦) وانظر ملاحظة دو فوكو بخصوص النساء السوافر في أرباض تطوان:

FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 3 :«Aujourd'hui comme hier, j'ai rencontré beaucoup de passants sur le chemin, surtout en plaine : c'étaient presque tous des piétons, paysans qui se rendaient aux champs ; peu étaient armés : il y avait un assez grand nombre de femmes ; la plupart ne se voilaient pas» ; p. 11 : « ... toutes laissent leur visage découvert... ».

(77) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 18-19.

(٧٨) أشار John Windus إلى عقاب الزنى قائلاً: «والزنى يعاقب عليه بالموت، وإذا اكتشف أن مسيحيا أو إسرائيليا له علاقة بامرأة مسلمة فإنه يلزم باعتناق الدين الإسلامي وإلا يحرق»، انظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٩. وعن ارتياد نسوة تطوان لأسطح دورهن، انظر:

BRAITHWAITE (John), Histoire des révolutions de l'Empire de Maroc, ... pp. 93, 94-95.

(79) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 22- ٢٣.

(٨٠) كيتان: حومة غراس اللشين والتفاح وغيرهما، ما بين الحومة المعروفة بالمحنش، وبين الحومة المعروفة بالعِدوة. والكل عُدوة الوادي الفاصل بين تراب تطوان، وتراب بني حُزمر، لناحية الجبل. وتشمل عدة أقسام، مثل المنافع والجَنب والمُنية والمقاصب، وبو قديرة وتاغزوت، إلخ؛ راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢١٦؛ وص. ٢٥٣: «**العِدوة**: مثلّثُ العين؛ وبالكسر ينطق أهل تطوان: كل ما كان مفصولاً بوادي أو بحر أو ساقية. ومنه حومة العِدوة؛ اسم لقطعة من غِراس اللشين والليمون وغيرهما، واقعة تحت مدشر أبو سملال الحزمرية». ولقد اشتهرت هذه الحومة بجمال غرسها وجنانها، وجودة فواكها؛ فهذا أديب تطوان وشاعرها محمد بن علي الرافعي يذكر احتفال أهل مصر بعيد الفطر، وما أكرموه به من الأطعمة وغيرها، وما شاهد من البساتين والرّياض. ومع ذلك، فضّل تطوانه وكيتانها على ذلك في قصيدة نظمها. راجع: أبو العباس أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، الجزء السابع، تحقيق جعفر ابن الحاج السلمي، تطوان، مطبعة الخليج العربي، ٢٠٠٧، ص. ٨١.

(81) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

(٨٢) راجع وصف John Windus لنساء تطوان: «ولهن [نساء تطوان] عيون جميلة جدًا، ولبعضهن بشرة جميلة أيضًا. وقد سنحت لنا فرصة لرؤية بعضهن، لأنه يمكن أن يعيش الشخص في تطوان مدة سنة دون أن يرى وجه امرأة في الشارع، فإذا كن في الخلاء أو على السطوح (إذا لم يكن هناك رجل مسلم) فإنه يمكن أن يكشفن الحجاب عن وجوههن ويضحكن ويعطين أنفسهن شيئا من الحرية، حتى إذا ما بدا أي رجل فإنهن يعدن لتغطية وجوههن مرة أخرى. وجميع النساء يصبغن وجوههن بالطريقة التي بيناها سابقا في اجتماعاتهن العمومية، وهن جميلات لدرجة كبيرة، مربيات أحسن تربية يتصورها الإنسان، [...]: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٧-٦٩.

(٨٣) ورد نص هذا الحديث في **صحيح البخاري**، وغيره من كتب الحديث، وروي من طرق متعددة. ففي صحيح البخاري عن أبي سعيد الخدري قال: خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في أضحى أو فطر إلى المصلى، فمر على النساء فقال: "يا معشر النساء تصدقن فإني رأيتكن أكثر أهل النار. فقلن: وبم يا رسول الله قال: تكثرن اللعن وتكفرن العشير، ما رأيت من **ناقصات عقل ودين** أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن. [...]"

(84) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 53-56.

(85) Ibid., pp. 66-67.

(86) Ibid., p. 20.

وهو الانطباع نفسه الذي خرج به John Windus بعد مقامه في تطوان: «لقد قضينا في هذه المدينة (تطوان) وقتا مملوءا بالسرور، نصطاد ونركب الخيل، ونتفسح في الحدائق، والناس يقابلوننا بغاية الأدب، (...)؛ راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦٣؛ وص. ١٢٤، حيث يقول برايث وايت: «فإذا ما سرنا في المدينة أو في خارجها كانوا يفسحون لنا الطريق رغم أن جمهورا كبيرا كان ينتظرنا، ولم يكن أحد يضايقنا أو يحدق في وجوهنا... ».

(87) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 41.

(٨٨) لعلها قبة أبي الحسن، سيدي علي مغيث بن الوفائي الحسني، المدعو الريفي، المدفون شماليّ مدشر كيتان، حيث المسجد والقبة المنسوبة إليه... راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٣٦: «[...] وأصل من ببني سعيد من الريف. والأصل الأصيل من الشرفاء الوفائيين الحسنيين المصريين. ومنهم الولي الصالح، سيدي علي الريفي، دفين مدشر كيتان، المتوفي عام ١٠٢٠، حسبما أخبرني بذلك بعضهم.»؛ و ج ٦، ص. ص. ٢٦-٢٨؛ وداود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثالث: «ص. ١٥٧: [الشيخ محمد الزبادي الفاسي وذكر مجاذيب تطوان] وممَنْ لقيته أيضًا بتطوان، الشيخ سيدي علي الريفي المجذوب رحمه الله، لقيته قرب قبة شيخه المسمى عليه سيدي علي الريفي خارج المدينة في أعلى كيتان، وكان معي رفيق لي وذلك عام ثلاثة وخمسين ومائة وألف، فزرناه وأمر صاحبا له

أن يزورنا سيده، (...) ». وانظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال**...، الذي زار هذا الضريح ثلاث مرات، ص. ٣٣؛ ٧٠؛ ١٠٣.

(89) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 71.

(٩٠) عن تفضيل سكان تطوان للإنجليز، راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٥٨: «ثم جاء قردناش وأعلم بأن الباشا (أحمد بن علي الريفي) يقترب، فخرج السفير (الإنجليزي) لاستقباله، فقابله الباشا بكل حفاوة ورحب به ترحيبا ودعاه لمصاحبته إلى مخيمه، وعند اجتماعهما، وعد الباشا بأنه سيعمل كل ما في وسعه لتسهيل الوسائل للسفير حتى يشعر في زيارته للمغرب باللذة والسرور، وصرح له بأنه يفضل الإنجليز على جميع الدول المسيحية، (...)»؛ وص. ١٢٣: قبول أمين ديوانة تطوان، محمد لوقش، لهدية السفير البريطاني المستر روسل، مردفًا «عبارات شكره بدلائل تؤكد ما يكنه للإنجليز من التقدير المنقطع النظير، (...)».

(91) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 37.

(٩٢) يعلق محمد داود في الهامش ١ على كلام John Windus بخصوص بغض أهل تطوان للمسيحيين قائلا: «الذي نعرفه، هو أن عقلاء أهل تطوان ما كانوا يبغضون المسيحية لذاتها، وإنما كانوا يبغضون أعداءهم المتعصبين من المسيحيين الذين أخرجوهم من وطنهم الأول (الأندلس) ثم صاروا باسم المسيحية والتعصب الأعمى لها، يحاربونهم في وطنهم الثاني (المغرب)، وكم أذاقهم أولئك المتعصبون من تقتيل وتعذيب بالحديد والنار، مما لا يترك في القلوب محلا لغير الحنق والبغضاء»؛ راجع: داود (محمد)، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٧٣.

(٩٣) يتعلق الأمر بنصراني ويهودي، فهما من أهل الكتاب الذين كان يُشترط عليهم في عقد الجزية شرطان: مستحق ومستحب. «وأما المستحب فستة أشياء: أحدهما تغيير هيآتهم بلُبس الغيار وشدّ الزُّنّار، والثاني ألاّ يعلوا على المسلمين في الأبنية، ويكونوا إن لم ينقصوا مساوين لهم، والثالث ألاّ يُسمعوهم أصوات نواقيسهم، ولا تلاوة كتبهم، ولا قولهم في عُزير والمسيح، والرابع ألا يجاهروهم بشرب خمورهم، ولا بإظهار صلبانهم وخنازيرهم، والخامس أن يُخفوا دفن موتاهم ولا يجهروا بندب عليهم ولا نياحة، والسادس أن يمُنعوا من ركوب الخيل عتاقا وهُجْنا، ولا يمنعوا من ركوب البغال والحمير؛ [...]؛ انظر: النويري، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، السّفر الثامن، القاهرة، بدون تاريخ، ص. ٢٣٨.

(٩٤) راجع بخصوصها: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٤١: «العنصرة هي يوم المهرجان الواقع في ٢٤ يونيو. ولا يقع عندنا فيه احتفال. إلا أن سكان الجبال ينزلون للبحر رجالاً ونساء بطبولهم وسلاحهم، فيلعبون البارود، ويسبحون في البحر على أصوات نسائهم التي يسمونها (أعيوع). ثم يرجعون»؛ ومصطفى غطيس، "عالم البحر في معتقدات سكان المغرب"، ٣- الطقوس المرتبطة بالبحر: العنصرة نموذجا، **المغرب والأندلس**، دراسات في التاريخ والأركيولوجية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بتطوان، ٢٠٠٦، ص. ص. ٢٣-٢٦.

(95) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 38-39.

(٩٦) «عنصر الحوار من أهم العناصر التي يجب أن يزود بها الرحال عمله؛ ذلك أنه يتيح الفرصة للشخصيات لتظهر ظهورا حرا، فتعبر عن نفسها بنفسها، كما يؤكد على السمة الأدبية لكتب الرحلات. وكثيرون أولئك الذين يلجؤون لهذا العنصر مدركين أثره في إضفاء الحيوية والواقعية على كتبهم، ومدركين أنه فرصة لـ "أنا الآخر" كي يكشف عن ذاته، وأن تنوع الأسلوب يتفق وتنوع الحياة وتقلبها...»؛ انظر: ناصر عبد الرزاق الموافي، **الرحلة في الأدب العربي**، ط. ١، دار النشر للجامعات المصرية، القاهرة، ١٩٩٥، ص. ٧٩.

(97) Ibid., pp. 43-44.

(98) Ibid., p. 67.

عن أوضاع يهود تطوان في القرن الثامن عشر، راجع رحلة برايث وايت: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢٣: « وقد ذهبنا بعد الظهر (١٧٢٧/٩/٢٢) لنشاهد بيع اليهود التي يبلغ عددها سبعة، وأما عدد اليهود المقيمين في تطوان، فهو خمسة آلاف تقريبا، موزعين على مائة وسبعين دارا يقيم في كل منها عدد من العائلات، وهم هنا أغنى من اليهود في أية ناحية أخرى من الإمبراطورية المغربية، ومع ذلك فهؤلاء البؤساء يعيشون في فقر مدقع لما يفرض عليهم من ضرائب مرهقة، وتمر جميع التجارة هنا بين أيديهم، لأنهم يقومون بدور السماسرة بين المسلمين والنصارى، وإذا لم يحترس كل من الجانبين المعنيين بالأمر، فإنه لا بد أن يكون دائما ضحية لجشع الوسطاء وتلاعبهم، وجميع اليهود هنا يتكلمون الإسبانية، وهو ما لا يفعلونه في باقي جهات المملكة »؛ وص. ١٥٨ من المرجع نفسه: «... إذ يجب أن نعرف أن المغاربة يبعثون في اليهود خوفا شديدا ويخضعونهم كالعبيد، حتى إن هؤلاء اليهود البؤساء يعاملون المغاربة – حتى شرار القوم – باحترام عظيم جدا، فلا ينادونهم بأسمائهم إلا مصحوبة بلقب السيد، ولا يظهرون لهم إلا معاملة الأتباع لأسيادهم، ومقابل ذلك لا يصلهم إلا أشد التحقير، ويوجه إليهم أقل المغاربة الأوامر بأشد الازدراء، فيقول يا يهودي افعل هذا، ويا يهودي اصنع ذاك».

BRAITHWAITE (John), op. cit., pp. 144-145 : «Car il faut savoir que les Mores tiennent les juifs dans une crainte servile et dans une soumission d'esclaves : aussi ces misérables juifs traitent ils les Mores, même de la plus vile populace, avec un respect des plus profonds, ne nommant jamais leur nom, qu'ils ne fassent suivre le terme de Monsieur, et des démonstrations de leur dépendance. Au lieu qu'ils ne reçoivent que des marques du dernier mépris, le plus abject des Mores prononce des ordres de la

manière la plus dédaigneuse, juif, dira-t-il, fais ceci, juif fais cela».

(٩٩) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٣٨؛ ١٩٩-٢٠١.

(100) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 19.

(١٠١) انظر: **صبح الأعشى** للقلقشندي، شرحه وعلّق عليه وقابل نصوصه محمد حسين شمس الدين، ج ٢، ط ١، بيروت ١٩٨٧، ص.٤٧: "ما يعتنى بصيده من الوحش، والمشهور منه عشرون ضربا" ؛ وص. ٥٢ : «الثاني عشر "الخنزير" – وهو حرام بنص القرآن، نجس في مذهب الشافعي رضي الله عنه قياسا على الكلب، بل قالوا : إنه أسوأ حالا منه لعدم حِلّ اقتنائه، إلا أنه مباح القتل فيكون في معنى الصيد ». وعن اصطياد الخنزير في نواحي تطوان، راجع وصف John Windus الذي أورده داود (محمد)، تاريخ تطوان، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٦١: «اصطياد الخنزير: ويوم ١٧٢١/٥/٢٠ خرجنا مع الباشا لاصطياد الخنازير الجبلية في الجبال الواقعة بين تطوان وسبتة، وقد قتلنا ستة خنازير كبيرة وأتينا بستة من أولادها الصغار حية، وأثناء الاصطياد، انكسر للباشا رمح عند اصطدامه بأحد الخنازير، وهذه الرماح التي يستعملونها في الصيد، مختلفة عن تلك الرماح التي كان الفرسان يتسابقون بها، إذ أن هذه يصنع نصفها من خشب متين ثقيل حتى لا تنكسر عند ضرب الخنزير بها». وعنما يسميه بـ "الغسل الديني"، ص. ٧٢، يقول: «والمسلمون كثيرا ما يغسلون رأسهم ويديهم ورجليهم حسبما يوجبه عليهم الدين، ويقومون بذلك قبل الصلوات (التي هي خمس مرات في كل يوم). لكن إذا أصابهم سوء الحظ ولمسوا خنزيرًا أو قاموا بعمل دنس جدًا أو تحدثوا مع زوجاتهم، يكونون ملومين بغسل جميع أجزاء الجسم (...)».

(102) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 45-46 ;

وانظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الثاني من المجلد الثالث، ص. ص. ١٨٢-١٨٣: «[عامل طنجة: عبد المالك بن محمد (١٧٩٠/٥/٢٥)]. من عبد ربه سبحانه وخديم مولانا نصره الله، عبد المالك بن محمد لطف الله به، آمين، إلى صاحبنا طونيو سالمون قونصو الإصبنيول (...) ويوم الكتب سألني سيدنا عن خبركم وعن ورود الباشدور، فأجبته أن الباشدور في أقرب وقت يكون بالمغرب عند سيدنا بحول الله وقوته، وقد أمرني نكتب لك أمره الشريف ويعرفك فيه أنه خاطره معكم، وأمرني نوجه لك اسباع ونمر، توجه بهم للراي على يديك، (...) ويوم الخميس ١٢ رمضان (١٧٩٠/٥/٢٦) نوجه لك اسباع ونمر صحبة أصحابنا الواردين عليك، وفي صحبتهم كتاب سيدنا الشريف، (...)»؛ ص. ٢٩٥: «السلطان يرسل قائد تطوان سفيرا إلى فرنسا عام ١٢٦١: قال ابن زيدان (**الإتحاف**، ج ٥، ص. ٧٧): وفيها (يعني سنة ١٢٦١) وجه (يعني سلطان المغرب مولاي عبد الرحمن) عامله على ثغر تطاوين سفيرا لفرنسا وفي معيته جماعة من أعيان الثغر المذكور، ووجه معه وحوشا وخيلا وطرفا، (...)».

(103) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 63.

(104) Ibid., p. 79 ;

و**عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٦: «الصيادة، وهي نوعان: صيادة الحيوان البري، من قلين وأرنب، وذيب وضربوب، وقنفذ وثعلب وحجل، وبقية الطيور. وذلك كله يصطاد بالبندق من الرصاص، وبالخشب على هيئة معلومة، وبالشبكات. وصيادة الحيوان البحري...».

(105) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 30- 33.

بلغ عدد إصطبلات تطوان نحو ثمانمائة، انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ١٠؛ وج ٤، ص. ص. ٨٦-٨٧: «إن حومة السانية كانت تربط ٦٠٠ من الخيل. ويشهد لذلك رسالة اليوسي لمولاي إسماعيل، في الحض على عمارة الثغور»؛ راجع: فاطمة خليل القبلي، **رسائل أبي علي الحسن بن مسعود اليوسي**، ج ١، الدار البيضاء ١٩٨١، ص. ٢٤٠: «[...] وقد حضرت بمدينة تطاوين أيام مولانا الرشيد رحمه الله تعالى، إذا سمعوا الصريخ تهتز الأرض خيلا ورماة. وقد بلغني اليوم أنهم سمعوا صريخا من جانب البحر ذات يوم، فخرجوا يسعون على أرجلهم، بأيديهم العِصيّ والمقاليع.»؛ وانظر: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ٥٨: « الاحتفال بالسفير Charles Stewart ١٧٢١/٥/٦: وبين الساعة الثالثة والرابعة وصل الباشا [أحمد ابن علي بن عبد الله الريفي] من تطوان مصحوبا بنحو مائتين من الفرسان وثلاثمائة من المشاة، وقد حملوا بنادقهم وأخذوا يطلقون منها العيارات النارية، ثم اصطفوا على شكل نصف دائرة أمام خزائننا، وقام الباشا ورجاله بألعاب الفروسية، وهنا وصف المؤلف [John Windus] تلك الألعاب التي اشتهر بها المغربيون وامتازوا بها، ... »؛ وص. ٥٩؛ وراجع وصف برايث وايت لألعاب الفروسية على الطريقة المغربية، وركابات الخيل...: المرجع نفسه، ص. ص. ١١٧-١١٨؛ وراجع: **رحلة سفارتين إسبانيتين إلى مراكش**، ص. ٢١؛ وص. ٢٢: «مكثت السفارة في تطوان إلى غاية يوم ١٣ أبريل من نفس السنة [١٧٦٧]. وخلال هذه الفترة أقيمت في سوق المدينة عدة عروض الفروسية أبان فيها المغاربة عن مهارتهم التي يضرب بها المثل في الركوب وهم على صهوات خيول رشيقة.»

(106) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 67.

(107) Ibid., p. 31 ; J. Potocki, Manuscrit trouvé à Saragosse, op. cit., p. 232.

وكان آرثر ليرد بعد زيارته للمغرب سنة ١٨٧٢، قد أشار إلى أن المغاربة «يعرفون كرة القدم، وتتمثل في رفس الكرة دون هدف...»؛ انظر: عبد المجيد بن جلون، **جولات في مغرب أمس (١٨٧٢)**، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ١٩٧٥، ص. ١٢٦.

(١٠٨) يستعمل بوطوكي مصطلح (capes) "برانس" الجبليين، وقد يكون المقصود هنا هو الجلاليب. وبالنسبة لفتيان الحاضرة يستعمل مصطلح "الحيّاك"، وجلي أن الأمر هنا يتعلق بالحايك الرجالي. ويعتبر نص السكيرج: **نزهة الإخوان**، ص. ٦٣، أقدم مصدر تطواني تحدث عن ألبسة رجال الحاضرة - وبعض ألوانها (الأخضر والأبيض) - بما فيها الحايك الذي كان يرتديه عمر لوقش يوم "عيطة السبت" (١٧٢٧/١٠/٧).

كما ذكر في هذا النص الطربوش، والقفطان، والتشامير، والقمجّة، والكسوة، والقشابة. وفي نص آخر: **نزهة الإخوان**، ص. ١٢٠، بخصوص عبد القادر بن مرزوق، ذكر السكيرج السراويل، والبرنس، والرداء، والنعلين. وفي حديث الرهوني عن محمد الحراق، قال إنه كان يلبس جُبّة الصوف، وحائك الصوف الخشن، ...؛ انظر: **عمدة الراوين**، ج ٤، ص. ١٧١. وانظر: محمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، ص. ١٥-١٦: رسالة من عبد الرحمن بن هشام لأمينه عبد الرحمن أشعاش ورد فيها أمر بإكساء المساجين الذين في طنجة "حائكًا وتشامير كتان"...، وص. ١٤٥: «... وبعد، فنأمرك [عبد الرحمن بن هشام يأمر قائد تطوان محمد أشعاش ٤ شوال ١٢٤٣)] أن تدفع لأخ خديمنا القائد أحمد غداوش كسوة كتان، قشابة وتشامير وسروال كتان، وقفطان بيظراشة وحايكا، وسلهام ملف أزرق، ...»؛ و**تاريخ تطوان**، المجلد التاسع، ص. ٣٧٣: «[عبد الرحمن بن هشام] خديمنا الأرضى الحاج عبد القادر أشعاش، ... فيرد عليك حامله ... واجعل له كسوة جيدة مكمولة بسلهامها من الملف وقفطانها وحائكها، ... (١٦ ربيع الثاني ١٢٦٤)». وانظر: إدريس الجُعيدي السلوي، **إتحاف الأخيار بغرائب الأخبار**، حققها وقدم لها عز المغرب معنينو، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي ٢٠٠٤، ص. ١٥٤: "«الخروج لملاقاة عظيم دولتهم" : ... وذلك بعد ما لبسنا الكساوي التي أنعم بها مولانا علينا أنعم الله عليه بخير الدارين، وتقبل عمله وبلغه قصده وأمله. وهي لكل واحد قفطان عجمي، وسروال وسلهام سكري من ملف البحر الكبير، وفرجية وقميص بالحرير وقلنسوة، وشقة حياتي، وحايك فاسي رفيع». وانظر: محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي، **الرحلة الأوروبية** (١٩١٩)، حققها وقدم لها: سعيد الفاضلي، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ٢٠٠٣، ص. ١٢٠: «... وهذا السؤال من هذا الهندي [هل أنتم يهود؟ وقد طرحه على الحجوي وابنه لما رآهما يلبسان الزي المغربي] كان ونحن لابسون جلابة وشاشية وكسوة ملف، ولو كنا بالكساء والبرنوس والعمّة والفرجية والقفطان لكان أكثر». وراجع: أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٢: «وأصحاب هذه الحرفة [تدرازت (الحياكة)] يصنعون الجلاليب، جمع جلابة، بيضا وسودا وحُمرا، والقشاشيب، جمع قشابة، والفراشات التي يغطى بها عند النوم، والكرازي، أي حزم الرجال، وحزم نساء البوادي، والحياك، جمع حائك، أي محوك»؛ ص. ٢٤٥: «الثياب: الصنف الأول: ثياب الصوف البلدية، من جلاليب وقشاشيب، وفراريش وحيّاك، وسلاهيم وكرازي، وغير ذلك. وبائعو هذا الصنف يسمون بالبرغازين، جمع برغاز. مأخوذ من التبرغيز، وهو في عرف البربر، إبدال سلعة بأخرى. وهو ما يعبر عنه الفقهاء بالمعاملة. واسم هذه التجارة (تابرغازت)». وانظر وصف جون وندوس (John Windus) سنة ١٧٢٠ لملابس الرجال في تطوان: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٥-١٦؛ و**على رأس الأربعين**، ج ١، تقديم وتعليق حسناء داود، تطوان ٢٠٠١، ص. ١٤٣: «رأيت مرة ابن خالي، وقد لبس جلابة صوف سوداء، وكانت العادة في ذلك العهد أن ذلك النوع من الثياب لا يلبسه إلا الفلاحون أو الجبليون، وكنت إذ ذاك طفلا دون العشرة، فطلبت من والدي أن يشتري لي مثل جلابة ابن خالي، فامتنع من ذلك وقال لي: «ذاك ثوب لم يلبسه أبوك ولا جدك». وبخصوص الحايك، راجع مادة "حائك" في قاموس:

DOZY (R.), Dictionnaire détaillé des noms des vêtements chez les Arabes, Amsterdam 1845, pp. 147-153.

وانظر وصف لباس قبيلتي بني حسان والأخماس في كتاب دو فوكو الذي يتحدث عن البرانس القصيرة التي كان يرتديها الفقراء من جبالة (ص. ١١)، ثم يصف بعد ذلك بتفصيل (ص. ٢٢-٢٣) لباس سكان الحواضر المغربية بفئاتها الاجتماعية المختلفة، الأغنياء والطبقة الوسطى والفقراء:

FOUCAULD (Vicomte Ch. De), Reconnaissance au Maroc, op. cit. p. 11; 22-23.

(109) POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, op. cit., p. 32.

(110) Ibid., p. ٤٢.

(١١١) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ٢٤٤-٢٤٥: «التجارة: وأما تجارة هذه المدينة، فاعلم أنها مركز مهم للتجارة البرية والبحرية».

(١١٢) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٢٣: «الدباغة، ويقال لها أيضا (تادباغت). وهي عبارة عن دبغ النعال وجلود المعز، المسماة إن كانت بيضا بالزواني، أو حمرا بالوردي، وجلود الغنم المسماة البطانة، لأنه يبطن بها البلاغي».

(١١٣) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٠: «الدّلالة والسمسرة: وهي النداء على المبيعات من أصول وعروض وغيرهما، حتى تقف على آخر زائد فيها. وهي حرفة كثيرة، لا بأس بأهلها هنا. ويتعاطاها في الغالب أهل الطبقة السفلى».

(114) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 57.

(115) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 64-66 ;

وانظر: عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان**، ص. ٨٧: « ... فلما تولى بعد الحاج محمد مامي القائد عبد الكريم اللواجري، وأقام حاكما ما شاء الله، فولى بعده السلطان [سليمان] السيد محمد الجعيدي الفاسي. فأقام حاكما ما شاء الله ونزعه السلطان لتطلعه على فعله الدنيء السيء، قيل إنه كان يرسل لزناة أهل البلد وفسّادهم، فمنهم من يريد الوصول إليه ومنهم من يمتنع. وسبّه ونهره...»؛ و ص. ١٣٤: « ... والزنى فيها قليل. ولا ترى أحدا يلوط، ولا يفعل ذلك إلا من انتقل إليها طريا، وأما إذا طال يلزم الحكم المذكور». بيد أن صاحب "مخطوط مدريد" يؤكد وجود «الفاسدات من النساء» في المدينة قبل حرب تطوان، غادرنها قبيل دخول الإسبان إليها؛ انظر: محمد داود، **تاريخ تطوان**، المجلد ٥، تطوان ١٩١٥، ص. ٢٨٦.

(١١٦) انظر ما كتبه في هذا الصدد:
R. Caillois, Nouvelle préface du Manuscrit trouvé à Saragosse de J. Potocki, Gallimard, 1958, pp. 32-33 : « (…) Potocki n'a pas renié ses maîtres. Il est assurément Encyclopédiste, mais il est d'abord encyclopédique. Il donne sous une forme plaisante, imagée, volontiers ironique, la somme, non pas des connaissances de son temps, mais des siennes propres, qui sont exceptionnellement étendues, et qui, dans le // domaine de ses études personnelles, devancent celles de ses contemporains les plus informés.
(…) L'auteur a beaucoup lu. Il a beaucoup voyagé. Il est perspicace et observateur…
(…) Potocki était un homme entreprenant, ardent, impétueux, avide d'expérience et de savoir. »
(117) POTOCKI (Jan), Voyage dans l'Empire du Maroc, op. cit., p. 21.
(118) Ibid., p. 42.
(119) Ibid., p. 46.
(120) Ibid., p. 46.
(121) Ibid., p. 61.
(122) Ibid., p. 62
(123) Ibid., p. 65.
(124) Ibid., p. 65.
(125) Ibid., p. 80.
(١٢٦) عن اهتمام الفرنسيين بكتب المسلمين وبحثهم عنها، بما فيها هذا الكتاب، انظر على سبيل المثال: إدريس العمراوي، **تحفة الملك العزيز بمملكة باريز**، تقديم وتعليق زكي مبارك، طنجة ١٩٨٩، ص. ٤١: «... ولهم [الفرنسيون في مرسيليا] تشوق لأخبار النواحي ومعرفة أحوال البلاد وأنواع التجارة والفلاحة والعمارة، وقد أكثروا السؤال عن العلوم والكتب وسؤالهم عن علم الهندسة والهيئة والتنجيم واللغات أي لغة كانت، وعن كتب التاريخ والسير والحكم والأدب وكتب الحكايات، وقد ذكروا لنا أنهم ترجموا كتبا عديدة من كتب الإسلام باللغة الفرنصاوية مثل كتاب آداب الكتاب [=**أدب الكاتب**] لابن قتيبة و**كتاب الأمثال** للسمعاني و**القاموس**، وكتاب **ألف ليلة وليلة**. ويشترون من كتب المسلمين الكتب الرفيعة ويتغالون في ثمنها ويشترطون جودة الخط وصحة الضبط...». ويبدو من خلال رحلة ابن حمادوش الجزائري أن سوق الكتاب في تطوان كانت تعرف رواجًا في منتصف القرن الثامن عشر؛ فلقد اقتنى صاحب الرحلة مجموعة من الكتب المختلفة مواضيعها، وقد ذكر عناوينها وأثمان بعضها، كـ**مقامات** الحريري، و**كتاب الشفا** للقاضي عياض، و**شمائل** الترمذي وشرحها لابن مخلص، و**مفيد الحكام** لابن هشام، و**مختصر** القزويني، و**الدواني**، و**مضحكات** ابن عاصم، و"ميارة على **لامية الزقاق**"؛ انظر: عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري، **لسان المقال**...، ص. ٧١؛ ١٠٧؛ ١١٠-١١١.
(١٢٧) يطلق الطالب، حسب الرهوني، على معنيين: على حافظ القرآن الكريم، وعلى طالب المعروف بالأبواب؛ وحسب السياق، فالطالب هنا يحمل المعنى الأول؛ انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٣، ص. ٢٠٨؛ وانظر على سبيل المثال ج ٤، ص. ٢٠٠: «الطالب السيد محمد بن عبد العزيز الفُقّاي التطواني».
(١٢٨) راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٨: «التّدرير: أي تعليم الذراري القرآن العزيز، وحروف الهجاء، وكيفية الرسم والضبط والتجويد. ويسمى ذلك في القديم التأديب. والقائم بهذه الحرفة بعض أهل البلد.
التدريس: ومنها تدريس العلوم. وهي حرفة العلماء. والقائمون بها لا يبلغون الثلاثين في كل عصر. وقد يقلون إلى ثلاثة في بعض الأوقات... وانظر: العلوم التي تُقرأ في تطوان، ص. ص. ٢٣٩-٢٤١.
(١٢٩) القرن الثالث ق. م. رياضي يوناني علّم في الإسكندرية. وضع مبادئ الهندسة المسطحة. وانظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ١، ص. ٢٣٠: «الطّبجية، أي حرفة الرمي بالمدافع. (...) وهذه الحرفة على قلة أهلها هنا، الذين كانوا لا يزيدون على المائة، كانت حرفة شريفة معتبرة؛ يحترف بها أهل الطبقة العليا، ويتنافسون فيها، ويتدارسون كتبها على الطّرز القديم، بادئين بالقلصادي في الحساب».
(١٣٠) أقدم كتاب في الفلك، ألفه بطليمس (١٤٨)، وعربه حُنين بن إسحق.
(١٣١) كلوديوس بطليمس: فلكي وجغرافي يوناني (نحو ٩٠ – ١٦٨). نشأ في الإسكندرية. له "المجسطي" و"جغرافية بطليمس".
(132) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 60-62.
(133) Ibid., p. 60.
(١٣٤) لعله "الترّيس"، لأن التريسيو (Tresillo) لم يظهر في إسبانيا إلا في القرن XIX. ويحدثنا الرهوني في ج ٦ من **عمدة الراوين**، ص. ٦١، عن صاحب "**نزهة الإخوان**": عبد السلام السكيرج الذي كان مولعا بلعب "الكرطة"، ونظم لخلانه الذين كان من بينهم عبد الكريم الخطيب، قصيدة في بيان أسماء أوراقها، وكيفية لعبها...؛ وانظر: عبد السلام السكيرج، **نزهة الإخوان**، ص. ١١-١٢. وكان صاحب **تاريخ تطوان** محمد داود أيضًا مولعا بلعب الورق، راجع: حسناء محمد داود، **على رأس الثمانين**، الجزء المكمل لمذكرات الأستاذ محمد داود "على رأس الأربعين"، تطوان ٢٠١١، ص. ٣١٠.
(135) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 69.
(١٣٦) انظر: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢١٣: «عادتهم في الجدري والحصبة».
(١٣٧) **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج١، ص. ٢٣٤: «الطّبّ: ومنها الطبابة، أي مداواة المرضى. وهذه الحرفة على الطراز

الجديد الناشئ عن علوم الطب العصرية، مفقودة في هذه المدينة، عند المسلمين والإسرائليين. وإنما يتعاطاها المسيحيون. وأما على الطّرز القديم، من الإشارة على المريض باستعمال دواء بسيط أو مركب من العقاقير والأدوية المعروفة، فهنا عدد من المسلمين يتعاطونه مجّانا. وأفضلهم وأكملهم، وأصوبهم وأعلمهم بالصناعة، الشريف البركة، الولي الصالح، سيدي محمد ابن سيدي الحسني البقالي، حفظه الله. فإنه في إشاراته وإرشاداته الطبية، فاق كل من يزاول هذه الصناعة من جميع الأديان، لأنه باشر ذلك بإذن خاص من شيخه، القطب مولاي عبد السلام ابن سيدي علي الريسوني. رضي الله عن الجميع، فأعطاه الله مهارة عظيمة في فهم كتب الصناعة، كـ "**قانون**" ابن سينا، و"**تذكرة**" الشيخ داوود الأنطاكي وغيرهما، فهما صحيحا دقيقا يعجز عنه أكابر المتخرجين من المدارس العصرية. وبخصوص محمد بن الحسني البقالي وشغفه بمطالعة "قانون" ابن سيناء، و"تذكرة" داوود بن الأنطاكي وغيرهما، ومهارته في الطب والتشريح...، راجع: **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٦، ص. ٢٠١-٢٠٥؛ داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، المجلد الثامن، ص. ١٨٦: رسالة من السلطان عبد الرحمن بن هشام إلى محمد أشعاش بخصوص ابن عم السلطان الذي قصد تطوان لأجل العلاج: «... فانزله عندك وكلّف الطبيب بمعالجته حتى يعافيه الله، ...».

(١٣٨) يرى برايث وايت أن تقديم الهدايا في المغرب «عادة واجبة الاتباع، ولا يستطيع المغاربة أنفسهم أن يخرقوها، تلك هي أن يحمل الزائر معه هدية للشخص الذي يزوره، تكون دليل اعتبار وتقدير، ويكون لهذه الضريبة أثر كبير في تسهيل المقابلة وفي حسن الاستقبال، وتتكون هدية المستر روسل [للباشا عبد الملك بوشفرة] من أربع قطع من الجوخ، وقطعة من نسيج حريري مشجر، ورطلين من الشاي، وأربعة أقراص كبيرة من السكر، وساعة فضية»؛ راجع: داود (محمد)، **تاريخ تطوان**، القسم الأول من المجلد الثاني، ص. ١٢٢.

(139) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. 58- 59.

(١٤٠) لم يكن لسبتة باشا، وإنما يتعلق الأمر بقائد محلة المجاهدين المحاصرين للثغر المحتل.

(141) POTOCKI (Jan), op. cit., pp. ٧٢- 73.

(142) Ibid., p. 23.

(143) Ibid., p. 69.

(١٤٤) راجع الفصل الرابع عشر في أخلاق أهل تطوان: أحمد الرهوني، **عمدة الراوين في تاريخ تطاوين**، ج ٢، ص. ٢٤٥-٢٤٨: «أعلم أن أخلاق جل أهل هذه المدينة، أخلاق شريفة، كما يعلم ذلك من مارسهم... ومنها الكرم... والعفة... والتواضع...وعزة النفس... والشجاعة... والأدب ورقة الحاشية واللطافة...».

(145) POTOCKI (Jan), op. cit., p. 68.

(146) Ibid., p. 75.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

ترجمات

الجزر الجعفرية
من ١٨٤٨ إلى أواخر القرن التاسع عشر



محمد عبد المومن

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

باحث دكتوراه في تاريخ وحضارة الأندلس

تطوان- المملكة المغربية

مُلَخّصْ

بعد احتلال الجزائر سنة ١٨٣٠، تصاعد الضغط الاستعماري الأوربي على المغرب، فحاولت فرنسا مد نفوذها انطلاقًا من الشرق، فاصطدمت بالجيش المغربي في معركة إسلي سنة ١٨٤٤، التي فتحت المجال للقوات الفرنسية للتدخل في الأراضي المغربية، أربع سنوات بعد ذلك احتلت إسبانيا أرخبيل الجعفرية، الذي يتكون من ثلاث جزر صغيرة المساحة، وذلك بهدف جعلها منطلقًا لاستعمار المغرب الشرقي. ولإدامة احتلالها للجزر عملت إسبانيا على بناء مجموعة من الثكنات العسكرية والحصون، كما حاولت طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر استثمار هذه الجزر اقتصاديًا، عبر تشجيع التهريب والصيد البحري، لكن ذلك لم يحقق النتائج المرجوة فتحولت تلك الجزر إلى معتقل لعتاة المجرمين، ومنفى للثوار الكوبيين والفلبينيين المطالبين باستقلال بلدانهم، وحتى للسياسيين الإسبان، خصوصًا ذوي التوجهات الاشتراكية. هذا المقال الذي كتبه الباحث الإسباني كارلوس إسكمبري هينوخو، يسلط الضوء على تاريخ هذه الجزر الصغيرة المنسية، ومن خلاله على تاريخ إسبانيا والمغرب خلال القرن التاسع عشر، معتمدًا على الصحف الإسبانية الصادرة خلال تلك الفترة. وتجدر الإشارة إلى أن الإحالات التي بالإسبانية من وضع المؤلف، وتلك التي بالعربية من وضع المترجم.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام المقال: ٠٩ نوفمبر ٢٠١٨

تاريخ قبـول النشـر: ١٨ فبراير ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

الاستعمار الإسباني، الصراع الحدودي، الموانئ الحرة، الثروة السمكية، قبيلة كبدانة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055410

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

كارلوس إسكمبري هينوخو. "الجزر الجعفرية من ١٨٤٨ إلى أواخر القرن التاسع عشر": **ترجمة:** محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ١٧٥ – ١٨٦.

أولاً: أهم الأحداث من احتلال الجزر إلى حرب ١٨٥٩

١/١-السنوات الأولى، الوقائع الأولى:

في الوقت الذي غابت في الأفق السفن التي نقلت الجنرال سيرانو(١) والوفد المرافق له، والفرق العسكرية التي قامت بعملية غزو الجزر،(٢) بقيت هناك على جزيرة إيزابيلا الثانية،(٣) جماعة تشكلت من العمال والمساجين الذين كلفوا بأعمال شاقة، منها بناء الثكنات والمخازن، والتحصينات لتأمين الممتلكات الإسبانية الجديدة.

من الناحية الإدارية أصبح الأرخبيل تابعا لمليلية،(٤) وجزءًا من القيادة العسكرية العامة لأفريقيا المستحدثة سنة ١٨٤٧، التي كانت مدينة سبتة مركزا لها، وتم تعيين ضابط، حمل لقب حاكم ليسير شؤون الأرخبيل، وكان العقيد بيثينطي إيلاردولا (Vicente Ilardulla) أول من تقلد هذا المنصب. وفي فبراير١٨٥١ تم إلغاء القيادة العامة لإفريقيا، وأصبحت مليلية والمستعمرات الإسبانية التابعة لها جزءا من القيادة العسكرية العامة لغرناطة، وصنفت مليلية منطقة عسكرية من الدرجة الثانية، أما الجزر الجعفرية، صخرة نكور،(٥) صخرة بادس،(٦) فصنفت في الدرجة الثالثة.(٧)

ترجمات

وبالنظر إلى ما يميز فصل الشتاء، وخصوصًا شهر فبراير، فقد كان الشغل الشاغل للعقيد إيلاردرولا هو توفير ملجأ لرجاله، ليحتموا من الطقس العاصف، وبالفعل فقد تمكنوا في الأيام الأولى من شهر فبراير من بناء عدد من الأكواخ لإيوائهم.[٨]

في مقابل هذا التقدم المتواضع والضروري، من أجل تحسين ظروف الحامية، تعالت أصوات تدعو إلى القيام بعمل أكثر قوة، أي القيام بهجوم انطلاقا من الجزر الجعفرية.

يومية إل إسبانيول (El Español) المدريدية، نشرت بتاريخ ١٦ مارس ١٨٤٨، رسالة وصلتها من مليلية، تتضمن دعوة لإقامة حصن مدفعي في موقع رأس الماء،[٩] لتأمين إمدادات الماء والحطب لمن يوجدون بالجزر. ومن جهة أخرى كانت هناك أصوات انتقدت العملية، حيث نشرت بعض الجرائد مقالات تنتقد إهدار الأموال والرجال في عملية محدودة وبسيطة، مثل احتلال تلك الجزر، وظهرت شائعات تؤكد أن تلك العملية ليست إلا جزءًا من خطة لإبعاد الجنرال سيرانو عن البلاط تمهيدا لإرساله إلى الفليبين.[١٠]

رغم الوضع السياسي في إسبانيا، المتأثر بالموجة الثورية التي اجتاحت أوربا، فإن ذلك لم يمنع الحكومة من الدخول في مغامرات خارجية طموحة. ففي ٢٦ مارس من نفس السنة، انطلقت حركة ثورية من مدريد، وقد نفي العديد من معتقلي هذه الحركة إلى الجزر الجعفرية، وبداية من تلك اللحظة أصبحت هذه الجزر منفى للسجناء والمنفيين لأسباب سياسية أو اجتماعية. وقد استنكرت الصحافة الأوضاع الحياتية لأولئك السجناء والمنفيين السياسيين، ورغم أن التقارير تفيد بأن السلطة التنفيذية أعطت تعليمات لتحسين ظروفهم المعيشية،[١١] لكن لا يبدو أن ذلك ساهم بشكل ملموس في التخفيف من المعاناة التي عاشوها في المنفى. بل إن الحكومة ألغت (المساعدة) التي كانت تقدم للمنفيين، لدرجة أن من كانوا عاجزين على أداء تكاليف إقامتهم في الجزر، اضطروا إلى استهلاك حصص الخبز الأسود ذي النوعية الرديئة والمليء بالقذارة.[١٢]

في أبريل من سنة ١٨٤٨، تم عزل إيلادولا، وخلفه في منصب الحاكم، عقيد من جيش المشاة، هو فرانسيسكو خابيير بيغا (Francisco Javier Vega) ورغم أن تعيينه كان بصفة مؤقتة إلى أنه ظل في المنصب ست سنوات.[١٣] وفي سنة ١٨٤٩ أثمرت جهود التشييد المبذولة على جزيرة إيزابيلا الثانية نتائج ملموسة، رغم أنها كانت تعتمد بشكل كلي على سفينة شراعية صغيرة تابعة للبحرية الإسبانية، استعملت لنقل المواد من جزيرة الملك،[١٤] فقد تم إنشاء العديد من الحصون الدفاعية، والمباني لإيواء الجنود والمنفيين، وقد شجعت احتياجات ومتطلبات هؤلاء على ظهور نشاط تجاري صغير، وأصبحت الجزر تستقبل بعض التجار القادمين على متن مراكب صغيرة.

كل تلك الإنشاءات كانت مهددة بالانهيار، بسبب العاصفة الرهيبة التي ضربت الجزر من الشمال الشرقي في شهر مارس من سنة ١٨٤٩، وهناك رسالة أرسلت من جزيرة إيزابيلا الثانية، تصف الساعات العصيبة التي ضربت أثنائها العاصفة، التي صاحبتها أمواجا هائلة غمرت جزيرة الملك، ووصلت حتى حصن لا كونكيسطا (La Conquista) المدفعي. فقد اقتلعت الرياح أبواب ونوافذ المباني المشيدة في المناطق المرتفعة، أما المد العالي فقد تدفقت مياهه من ضفة إلى أخرى بجزيرة الملك، مدمرة الإنشاءات التي كان العمل فيها متواصلاً منذ عشرة أشهر، وسحبت مركبا كان هناك وقذفت به إلى الشاطئ، كما سحبت إلى البحر ثلاثة مدافع برونزية من عيار ٢٤، كانت لا تزال مفككة بالقرب من المكان الذي كان من المقرر أن تنصب فيه.

المركب الشرعي خاسون (Jasón) ذي الأربع والعشرين مدفعاً، والذي كان يستعمل للربط بين الجزر فقد مرساته، وأصبح مهدداً بالانجراف نحو الشاطئ، وقد كان من الممكن المخاطرة بإنقاذه، لكن ذلك ليشكل مخاطرة بأرواح البحارة والجنود، الذين ظلوا على سطحه طيلة الأربعين ساعة التي استمرت فيها العاصفة، وبعد هدوئها أقيمت قداديس الشكر لأن المركب بقي سالماً.[١٥]

كشفت نتائج العاصفة عن مدى هشاشة المنشآت التي تم إقامتها في جزيرة إيزابيلا الثانية، وتزايدت الانتقادات الموجهة لعملية الاحتلال، ولتكاليف الصيانة لدرجة أنه أثناء مناقشة مجلس النواب لميزانية سنة ١٨٥١، كان هناك اقتراح بالتخلي عن تحصين الجزر بسبب التكلفة المرتفعة. في مقابل هذه الاقتراحات كانت هناك مواقف قوية للمتحمسين لعملية الاحتلال، حيث طالبوا بالبقاء في الجزر، ولو بحامية أصغر، وتحصينات أصغر، وكانت المبررات هي تأمين ميناء بديل لمليلية، والموقع الجغرافي للأرخبيل والذي سيعزز موقع إسبانيا في مواجهة الأطماع الفرنسية في واد ملوية، وفي منطقة الحدود المغربية الجزائرية.[١٦]

٢/١-الجزر الجعفرية في سياق الصراع الحدودي بين المغرب وفرنسا من خلال التقارير الصحافية:

أثارت التحركات الفرنسية نحو واد ملوية خلال أواسط القرن التاسع عشر قلقا عميقا لدى السلطات المغربية، التي شعرت بالتهديد القادم من الحدود الشرقية، فأرسلت فرقًا عسكرية وهذا أوجد حالة من التوتر. في هذا السياق، برزت أهمية الاستراتيجية للجزر الجعفرية، خصوصًا أنها وفرت لإسبانيا قاعدة في المنطقة، تمكنها من متابعة الأحداث الجارية عن كثب، ومن التعبير ولو بصفة رمزية - من خلال وجود حامية صغيرة - على اهتمامها وحرصها على حماية مصالحها في هذا الجزء من المغرب.

فبالإضافة إلى المعلومات التي كانت ترسلها السلطات العسكرية، من الجزر الجعفرية إلى الحكومة، ظهر على الساحة أشخاص لا نعرف أسمائهم، قاموا بدور المراسلين لعدد من الجرائد الإسبانية، حيث أرسلوا تقارير عن الأحداث والمواجهات التي جرت في المناطق القريبة من الأرخبيل.

في عددها الصادر يوم ٦ دجنبر من سنة ١٨٥٦، أوردت جريدة لا إبيبريا (La Iberia) المدريدية، بناء على تقارير قادمة من الجزر، معلومات عن معركة بين قوات فرنسية عبرت من الضفة اليسرى لواد الملوية، وحركة[١٧] مكونة من قبائل المنطقة. وفي عدد الثامن عشر من شهر يونيو من سنة ١٨٥٧، لجريدة لا إسبانيا (La España) نشرت رسالة بعثها أحد من كانوا آنذاك في الجزر - والذي عرض القيام بدور المراسل - تضمنت أخبارًا عن احتمال نشوب الحرب بين المغرب وفرنسا، وعن وصول مركب بريطاني إلى مصب واد ملوية، وعلى متنه قنصل بريطانيا في طنجة، ونائب عن السلطان، وقد رسا المركب لاحقا في رأس الماء، حيث نزلت منه شخصيات أخرى.

كان الهدف من تلك الزيارات جمع معلومات ميدانية، عن التحركات العسكرية الفرنسية، خصوصا أن بريطانيا لم تكن لترضى عن أي عمل فرنسي ضد المغرب، أو عن احتلال إسبانيا لمدينة طنجة.[١٨]

في صحيفة لا إيبيريا يمكننا أن نتابع يومًا بيوم، ما بدا أنه صدام عسكري وشيك بين الفرنسيين والمغاربة، وقال مراسلها، أنه راقب بواسطة المنظار تحركات القوات الفرنسية والمغربية بالقرب من مصب واد ملوية. كما تحدث أيضًا عن زيارة لمركب حربي فرنسي للجزر، حيث قدم الفرنسيون طلبًا رسميًا للسماح لهم بالرسو هناك في حالات الطقس المسيء، أو في حالة وقوع حادث، مع إمكانية أنزال القوات، في حال أجبرتهم الظروف على البقاء مدة طويلة، وحسب مراسل الصحيفة فقد سمح لهم باستخدام جزيرة الملك.

وفي ٢٣ من نفس الشهر- يونيو ١٩٥٧ - رست بالميناء ثلاث سفن بخارية فرنسية بسبب حالة الطقس، وقد كانت هذه السفن تنقل فرقا عسكرية من جنوة ووهران إلى الغزوات،[١٩] وقال الفرنسيون أن بوهران تسعة سفن تحمل فرقًا أخرى تنتظر الأوامر.[٢٠] وفي يوم ٢٤ من نفس الشهر رسا بالميناء، مركب خفر السواحل الإسباني إيسبارتاكو (Espartaco)، والذي كان يحمل البريد ووثائق رسمية، ومعلومات من إسبانيا تؤكد قرب إعلانها الحرب ضد المغرب، مما أثار فرح الحامية العسكرية والمقيمين.

هذه المصادفة في الضغط العسكري على المغرب، أثارت شكوك الحكومة البريطانية، أخذتها على محمل الجد، فثارت شائعات مفادها، أن هناك مشروعا فرنسيا إسبانيا، يقوم على تنازل إسبانيا لفرنسا عن جزر الجعفرية، مقابل دعم فرنسا احتلال إسبانيا لمدينتي تطوان وطنجة، لذلك كان على السفير الإسباني في لندن أن ينفي هذه الشائعات.[٢١]

٣/١-الجزر الجعفرية وحرب ١٨٥٩

الحرب التي بدأت أواخر سنة ١٨٥٩،[٢٢] نتيجة لسلسلة طويلة من الخلافات الديبلوماسية، والصدامات المسلحة، والاستفزازات التي تورط فيها الطرفان المغربي والإسباني، وكلها بسبب ممتلكات إسبانيا في شمال إفريقيا، ومن بينها طبعا الجزر الجعفرية، التي أثار احتللها من طرف إسبانيا احتجاجات السلطان الذي كان يعتبرها جزءا من مملكته.[٢٣]

ومن القضايا التي كانت تزيد من حدة التوتر بين الدولتين، القرصنة[٢٤] التي مارسها المغاربة، ضد السفن والمراكب الإسبانية، التي كانت تبحر في تلك السواحل. ففي يناير من سنة ١٨٥٢ تعرض سفينة شراعي انطلق من مليلية، لهجوم من طرف قلعيين[٢٥] كانوا يبحرون على متن قاربين[٢٦] انطلقا من شاطئ لاس سالينا (La Salina)، (كان يوجد في الموقع الحالي لميناء بني أنصار[٢٧])، وقد وقع الهجوم على بعد ستة أميال فقط من المدينة، ونظرا لأن هذه الهجوم تم مشاهدته من الشاطئ، ففي الحال تم إرسال مركب مسلح ومجهز بمحرك فأطلق النار المهاجمين.[٢٨] وفي شتنبر من السنة الموالية،

تعرضت فلوكة[٢٩] كنت تبحر في اتجاه مليلية قادمة من الجزر الجعفرية، لهجوم من طرف قراصنة أبحروا على متن ثمانية مراكب من نفس الشاطئ، (لا سالينا) لكن تم إحباط الهجوم بسبب وصول النجدة من مليلية.[٣٠]

التوتر المتصاعد مع المغرب جعل الحكومة الإسبانية تركز على الممتلكات الإسبانية في شمال إفريقيا. حيث أنشأت سنة ١٨٥٥ لجنة ترأسها حاكم مليلية العميد بوثيطا (Buceta)، مهمتها إنجاز دراسات عن الساحل الممتد من صخرة بادس، إلى مصب واد ملوية، وتقديم تقرير حول حالة المنطقة ووضعية الممتلكات الإسبانية، مع الإشارة إلى ما يجب القيام به لتقوية وضعها في حال قيام حرب ضد المغرب.[٣١]

وبالنسبة لأرخبيل الجعفرية، فقد خلصت اللجنة، إلى ضرورة تحسين حالة مينائها الطبيعي، وإقامة رصيف يربط بين جزيرة إيزابيلا الثانية وجزيرة الملك، وإلى واحتلال نقطة على الشاطئ المقابل لتقديم الدعم للجزر، بالإضافة إلى إعلانها ميناء للتجارة الحرة، وربطها بباقي الأرضي الإسبانية بواسطة سفن بخارية تقوم برحلات منتظمة، بعد سنتين من إنشاء اللجنة لا يبدو أن الوضع كان قد تحسن كثيرًا. فوفقًا لتقرير عن الأرخبيل، نشرته جريدة لا إسبانيا في عددها الصادر بتاريخ ٣٠ يناير ١٨٥٧، يمكن من خلاله أن نعرف حالة الجزر وعلاقتها بمحيطها، ففيما يتعلق بالحالة، فقد أشار كاتب التقرير إلى أن الأكواخ الخشبية التي شيدت سنة ١٨٤٨ كملاجئ مؤقتة لا تزال قائمة، لكن هذه الأكواخ التي كان يسكنها أفراد الحامية والمنفيين لم تعد بحالة جيدة.[٣٢] كانت التشكيلات العسكرية المكونة للحامية، وهي مفرزة مشاة، ومفرزة مدفعية، وفصيل من القوات البحرية، تتوفر على ثكنات خاصة بها، لكنها كانت لا تزال قيد الإنشاء وكذلك المستشفى والمباني الرسمية، وكانت هناك مباني ومنازل أنجزت بجهود بعض الأفراد.[٣٣]

ويؤكد كاتب التقرير أن سلطات الجزر قامت بمحاولات عديدة لكسب ثقة أعيان قبيلة كبدانة،[٣٤] من أجل بناء الثقة وتطوير العلاقات التجارية، لكن هذه المحولات التي قام بها بشكل أساسي المترجم (José Torregrosa) خوسي طوريغروسا، لم تحقق نتائج تذكر، أما محاولات الوصول إلى أراضي قبيلة كبدانة، فقد تم إفشالها من طرف الحراسة التي أقامتها القبائل في رأس الماء، حيث لم يكن يسمح للمبعوثين بالنزول في الشاطئ، ودخول البلاد لأجل تطوير التجارة، الذي ظلت مقتصرة على بضع رؤوس من الماشية وخصوصا الأبقار والماعز، حيث تمكن بعض سكان المناطق المجاورة من التسلل خفية إلى الجزر، عبر التحايل لخرق الحظر المفروض على ممارسة المتاجرة مع سكان الجزر.

طوال سنة ١٨٥٧ استكمل العمل في أوراش التحصين والإيواء، ولهذا السبب زاد عدد السجناء الذي اشتغلوا في مشاريع البناء، حيث تجاوز عددهم آنذاك مائة سجين.

هذه الزيادة الكبيرة في عدد السجناء الذين يعيشون ظروفا قاسية، ويجبرون على الأشغال الشاقة، دفع بعضهم إلى التخطيط للتخلص من الحامية العسكرية ومن ثَمَّ الفرار. وقد قامت خطتهم على جلب مخدر من إسبانيا، وخلطه مع طعام الحامية، لتصبح الجزر في قبضة المتمردين، لكن تم اكتشاف المؤامرة من طرف سلطات الجزيرة، وتم التخلص من المتآمرين عبر إرسالهم إلى مليلية.[٣٥]

في شتنبر ١٨٥٨ بلغ التوتر بين المغرب وإسبانيا ذروته، عندما وقع (Francisco Álvarez) فرناسيسكو ألفاريز (جندي من حامية مليلية) مع ستة من المنفيين، في كمين دبره أفراد من قبيلة قلعية. بعد ذلك ببضعة أيام أمر حاكم مليلية باعتراض مركب كان يبحر بالقرب من الجزر، واعتقال ركابه الثمانية والعشرين لضمان سلامة الأسرى الإسبان.

في يناير ١٨٥٩ وقبيل اندلاع الحرب بين المغرب وإسبانيا، تم إعطاء دفعة جديدة لأشغال البناء والتحصين، عبر إرسال مجموعة من السجناء المختارين من ذوي الدراية بالحرف، المتعلقة بالبناء. أما الحرب التي شنتها إسبانيا على المغرب، جرت كل وقائعها في المنطقة الفاصلة بين سبتة وتطوان، فقد ظلت الجزر الجعفرية بمنأى عن أية مواجهات عسكرية. وقد شكل انتصار إسبانيا في هذه الحرب فرصة لجلب الكثير من المنافع والفرص لهذا الأرخبيل الصغير، الذي لم تتم الإشارة إليه في معاهدة ١٨٦٠.[٣٦] [٣٧]

ثانيًا: المحاولات الأولى لتثمين الجزر

١/٢-إنشاء خدمة مواصلات بحرية منتظمة

في أواخر عقد الخمسينات، وبداية عقد الستينات من القرن التاسع عشر، قامت الحكومة بمجموعة من الإجراءات لإنعاش الاقتصاد وتحسين شروط الحياة في الممتلكات الإسبانية بشمال إفريقيا، ومن تلك التدابير كان تحسين خدمة النقل البحري، كما أوصت بذلك لجنة ١٨٥٥، ولذلك اتخذت الإجراءات الضرورية لإنشاء خط بحري بواسطة السفن البخارية، كان يربط مالقة

ترجمات

بالممتلكات الشمال إفريقية. [٣٨] وإلى سنة ١٨٥٨ لم يتم تفعيل الخدمة، فقد فشلت المناقصة الأولى، وفي مارس سنة ١٨٥٩، تم منح الامتياز أخيرًا لشركة كاسا هرمانوس (Casa Hemranos Retortillo) ريطوريو. وهم رجال أعمال قادسيين[٣٩] كانت لديهم استثمارات في المجال البحري، كما أنهم رجال مال وسياسة كانوا قد حصلوا قبل ذلك على امتياز تزويد تلك المستعمرات الإسبانية بالمواد التموينية. وبالإضافة إلى البريد والمؤن والمسافرين، كان على السفن أن تنقل إلى الجزر المياه التي كانت تفتقر إليها.

ووفقًا لبنود الاتفاق فقد كانت هناك رحلتان في كل شهر، وأول رحلة انطلقت يوم ٢٠ أبريل ١٨٦٠.[٤٠] في الاتفاقيات التالية تمت زيادة عدد الرحلات إلى أن وصلت إلى رحلة كل أسبوع، كما تمت إضافة خدمة نقل المسافرين المدنيين في الاتفاق المبرم سنة ١٨٧١، وهو إجراء هام لتنمية الممتلكات الشمال إفريقية.

٢/٢-إعلان الموانئ الحرة

في عدد ٦ يناير من سنة ١٨٦٣ لجريدة (Gaceta de Madrid) غاثيطا دي مدريد، تم نشر بيان من وزارة المالية بخصوص صياغة قانون يتم بموجبه تحويل مينائي مليلية، والجزر الجعفرية إلى موانئ حرة. وقد تضمن البيان توضيحا لمبررات تحويل المستعمرات الشمال إفريقية إلى موانئ حرة، كتحويلها إلى مراكز تجارية هامة على شاكلة ميناء سبتة[٤١] الذي كان قد أعلن " ميناءً حرًا مع بعض الاستثناءات". وقد خُتم ذلك البيان، بعدد من الآمال التي كان هناك طموح إلى تحقيقها في تلك الأماكن: "وأملنا أن تتحول من أماكن خالية وحزينة ترتبط بالعقاب والنفي، إلى مراكز كبيرة لتحقيق الثروة، ولترويج منتجات صناعتنا، وأن تصير عنصر من عناصر نشر حضارتنا في تلك البلاد الشاسعة".

في عدد يوم الأربعاء الموافق لـ ٢٠ ماس من سنة ١٨٦٣، لجريدة لاغاثيطا دي مدريد، نشر قانون نص في بنده الأول، على الذي نص تحويل موانئ سبتة ومليلية والجزر الجعفرية إلى موانئ حرة، وأكد البند الثاني على أن السلع الإسبانية المصدرة إلى باقي مناطق البلاد انطلاقا من الموانئ الثلاثة، لا تعتبر محلية بل أجنبية.

٣/٢-محاولات الاستفادة من الثروة السمكية

لقد شكل الصيد البحري عنصرًا أساسيًا في تحقيق الإقلاع الاقتصادي المنشود للأرخبيل، فقد وفرت المياه المحيطة به والغنية بالثروات السمكية إمكانات كبيرة لخلق الثروة. في سنة ١٨٤٩ منح (Ors Miguel) ميغيل أورس، ترخيصًا لتثبيت مضربات[٤٢] في الجزر الجعفرية، وقد قام هذا المقاول أيضًا ببناء بعض الورشات المخصصة لتمليح الأسماك.[٤٣] وفي سنة ١٨٦٨، قام بعض الصيادين ومقرهم بيا خوايوسا (Villajoyosa)،[٤٤] باستئجار بعض السفن بهدف الصيد في مياه الجزر، لكن هذا النشاط لم يعمر طويلاً.[٤٥]

يجب ألا يغيب عن بالنا، أن هؤلاء الرواد كان عليهم مواجهة معيقات تطوير هذا النشاط الاقتصادي، وخصوصًا البند الثاني من قانون تحويل ميناء الجزر إلى ميناء حر، والذي نص على معاملة السلع القادمة من الجزر معاملة البضائع الأجنبية، هذا البند أعاق بشكل كبير تصدير هذه المنتجات إلى إسبانيا. وكان يجب الانتظار إلى سنة ١٨٩٤، لتقوم الحكومة بتغيير ذلك البند الوارد في قانون ١٨ ماي ١٨٦٣، ولتم بذلك تحرير الصادرات السمكية شبه الجزيرة الايبيرية.[٤٦]

٤/٢-التجارة والعلاقات مع قبيلة كبدانة

كان الدافع من وراء إعلان موانئ سبتة ومليلية والجزر الجعفرية موانئ حرة، تعزيز التجارة مع سكان المناطق الحدودية، وجعل الممتلكات الإسبانية بشمال إفريقيا مناطق منتجة، وتحويلها إلى أداة لخدمة المصالح الإسبانية في المنطقة.

في الجزر الجعفرية تعثرت هذه الآمال، لأنه لم يكن للمغرب مكتب جمارك في رأس الماء، وبالتالي تعذر تصدير البضائع من الجزر بشكل قانوني. فقد وافق المغرب على نشاط تجاري محدود مع الممتلكات الإسبانية بشمال إفريقيا، (باستثناء مليلية)، وقد انحصر ذاك النشاط التجاري في تصدير المنتجات الزراعية والحيوانية، لتموين سكان تلك المناطق، ورغم انتصار إسبانيا في حرب إفريقيا، فإنها لم تفرض على المغرب إنشاء مكتب جمارك في رأس الماء، وضاعت بذلك أفضل فرصة لتنمية الجزر.

على الرغم من الحظر المغربي على الاستيراد من الجزر الجعفرية، فإن تجارًا من كبدانة قصدوا الجزر لبيع منتجاتهم الفلاحية، ولشراء السلع بثمن مناسب بسبب الامتيازات التي كان يتمتع بها الميناء الحر، مما أدى إلى ظهور نوع من التبادل التجاري نسميه اليوم في مليلية "تجارة غير نمطية".[٤٧] هذه التجارة الغير نمطية، جعلت ممثلي السلطان في المنطقة يمنعون زيارة الجزر تحت طائلة أداء غرامات ثقيلة - كان يقررها أعيان القبائل أو قياد المنطقة بدون أن تتدخل الحكومة

المركزية المغربية- وهذا ما أدى إلى اضطراب في التجارة.

وهكذا في سنة ١٨٧٩ أمرت الحكومة المغربية قايد كبدانة بعدم التدخل في شأن تموين سكان الجزر، لكن هذه الاضطرابات في التجارة كانت تؤدي إلى تناقص عدد السكان. [٤٨] ففي شتنبر من سنة ١٨٦٤ تم إرسال مركب من الجزر الجعفرية إلى مدينة مليلية ليجلب من هناك الزيت واللحم بسبب الافتقار إلى هاتين المادتين الغذائيتين، رغم أن تلك الفترة عرفت "ازدهارًا" في تجارة الأغنام مع سكان قبيلة كبدانة. وقد تم الاستجابة للطلب فتم إرسال أربعين خروفًا حيًا من مليلية، أم الزيت فقد جلبه مركب البريد (Ceres) سيريس من مالقة.[٤٩]

ومع ذلك كان هناك رجال أعمال مثل (Higinio Fernández) هيجينيو فرنانديث، يراهنون على الاستثمار في الأرخبيل، وفي سنة ١٨٧٠ سمحت الحكومة له ولشريكه (Manuel Sánchez) مانويل سانشيث، بتنظيم رحلات منتظمة بسفن بخارية في ملكيتهما بين موانئ سبتة، مليلية، صخرة نكور، والجزر الجعفرية، لتطوير العلاقات الاقتصادية (لمصلحتهما أو مقابل عمولة أو حصة من الأرباح) مع شمال المغرب.[٥٠]

نحن لا نعرف ما آل إليه مصير هذا المشروع التجاري، بسبب أما عرفته العلاقات بين إسبانيا والمغرب أو قل قبائل الريف، وخصوصا قلعية وكبدانة، من تقلبات سببها الأساسي، احتجاجات الحكومة المغربية على ممارسة السفن الإسبانية للتهريب. ففي سنة ١٨٧٤ نشرت المفوضية الإسبانية بالمغرب تقريرًا عن الشكوى المقدمة من الحكومة المغربي من التهريب الممارس من طرف السفن الإسبانية في سواحل الريف، وذكرت المفوضية أن التجارة ممنوعة على طول الساحل الممتد من تطوان حتى الحدود المغربية الجزائرية، ومسموح بها فقط عبر ديوانة[٥١] مليلية، وتم إعفاء الإمدادات التموينية لصخرتي بادس ونكور ولأرخبيل الجزر الجعفرية.[٥٢]

٥/٢-المشروعات الأولى لساتورنينو خيمينيث SATURNINO JIMÉNEZ في الجزر الجعفرية: مصنع رأس الماء، والقاعدة العسكرية الألمانية

كان لساتورنينو خمينيث شخصية مركبة، فقد كان مغامرًا، ومكتشفًا، ورجل أعمال وسياسة. ولد في مينورقة،[٥٣] وحارب إلى جانب الحزب الجمهوري الفيدرالي،[٥٤] وشارك في الاحتجاجات التي شهدتها مدينة قرطجنة، وقد اضطر بعد فشلها سنة ١٨٧٤،[٥٥] إلى الهروب إلى مدينة وهران، وبعد استفادته من العفو عاد إلى إسبانيا، ومن هناك بدأ سلسلة من الرحلات التي قادته إلى بلدان أوربا الشرقية، وإلى روسيا، والإمبراطورية العثمانية. وبعد عودته سنة ١٨٨٣ استقر مجددًا في مدينة وهران، وهناك امتهن الصحافة، كما صار ممثلا للجمعية الجغرافية الإسبانية (مقرها مدريد)، والجمعية الأفريقانية (مقرها برشلونة). بعد رحلته إلى وادي ملوية الواقع بين مليلية ووجدة وكبدانة، زاد اهتمامه بالجزر الجعفرية، ومنطقة ورأس الماء، وهناك أقام معسكره في مطلع سنة ١٨٨٤.

خيمينيث المتخصص في الصحافة، أرسل من هناك سلسلة من الرسائل لجريدة اليوم (El Dia) المدريدية، شرح في فيها خططه لإقامة وكالة تجارية في رأس الماء، تكون مرتبطة بالجزر الجعفرية، التي ستستخدم كميناء لمشروعه. من خلال هذه الرسائل تمكننا من معرفة تفاصيل ما كان يقع في الجزر، وطبيعة علاقاتها بكبدانة، والجزائر الفرنسية، ففي إحدى تلك الرسائل وتاريخها ٤ مارس ١٨٨٤، وصف الجزر بأنها: "مستعمرة إسبانية تحتل ممتازا من الناحية التجارية والاستراتيجية والملاحية... لكنها لا يستغل إلا كمعتقل". وقد انتقد الوضع الذي كان عليه ساكنة جزيرة إيزابيلا الثانية وتحصيناتها، هذه الساكنة التي بلغت آنذاك ٦٠٠ نسمة، منهم ١٨٦ منفيون، بالإضافة إلى حامية من المشاة، و١٢ من جنود المدفعية، بالإضافة إلى عدد من المستخدمين وعائلاتهم.

أما بالنسبة للنشاط التجاري فقد قال إنه مزدهر، لأن قبيلة كبدانة طردت القائد، وهذا ما سمح لأفرادها بممارسة التجارة بحرية مع الجزر، حيث جلبوا مركبين من الغزوات، وبالتالي فالاتصال مع الجزر مستمرا. واعتبر خيمينيث أن هذه القبيلة كانت تميل إلى جانب إسباني، وكان يأمل أن يبعد ذلك الفرنسيين.[٥٦]

لكن مشاريعه لم تجد طريقها إلى التنفيذ كما كان يتوقع. فبعد أن عاد إلى الأرخبيل، وأعد له الموثق (Francisco Marín) فرنسيسكو مارين عقد شراء الأراضي، التي يرغب في إقامة وكالته التجارية عليها، فوجئ برفض الحاكم العسكري (Francisco Gallego) فرانسيسكو غاييغو توثيق العقد، على اعتبار أن هذا العقد سيوتر العلاقة مع القبائل. وقد اعتبر خيمينيث أن هذه العراقيل سببها الرضوخ لمصالح تتعارض مع مشروعه، لذلك أعلن أنه سينتقل للأراضي الجزائرية لمواصلة مشاريعه.[٥٧]

ترجمات

في ٣٠ من أبريل (سنة ١٨٨٤)، نشرت رسالة من خيمنيث، ذكر فيها أنه اجتاز واد كيس[٥٨] نحو الأراضي التابعة لفرنسا، وانتقد تقاعس السلطات الإسبانية عن تطوير التجارة وتنمية مليلية الجزر الجعفرية، ويعطي مثالاً بمدينة الغزوات، التي جلبت لها التجارة منافع عظيمة، وحيث تباع الزيوت الإسبانية المستودة من مالقة من طرف الفرنسيين، ويؤكد على أن الكثير من المنتجات التي تستهلك في مليلية والجزر الجعفرية يتم نقلها واسطة الشركات الملاحية الفرنسية مثل الشركة (Oranesa de Transportes Marítimos) الوهرانية للنقل البحري، التي تربط وهران بالغزوات وبالجزر الجعفرية ومليلية. وبعد إبداء السلطات الإسبانية عدم اهتمامها بمشروع وكالته التجارية، في رأس الماء توجه خيمنيث نحو مشروع آخر.

ففي عدد ٢٠ مارس لسنة ١٨٨٥، من الجريدة الاستعمارية الألمانية (Deutsche Kolonial Zeitung)، التي كان خيمينيث مراسل لها في الجزائر، نَشر مقالا عنوانه: "ألمانيا في المغرب"، تحدث فيه عن إمكانية تخلي إسبانيا عن إحدى الجزر الجعفرية الثلاث، لصلح ألمانيا لبناء قاعدة البحرية، ومخازن للفحم. ونحن نفترض أن مراد خيمينيث كان يطمح إلى الاستفادة من القاعدة، لتكون ميناءً لمشروعه الذي لم يلق أي اهتمام في إسبانيا.

هذا المقال، أثار احتجاجات في صفوف الاستعماريين الفرنسيين، الذين استنتجوا من مما ورد فيه تنازل إسبانيا عن الجزر لصالح ألمانيا لوقف توسع فرنسا في المغرب، أما الاستعماريين الإسبان فاعتبروا الاقتراح حطا لكرامة الأمة الإسبانية، ونتيجة لذلك طرد خيمينيث من الجمعيات الاستعمارية، أما السلطات الفرنسية فقامت مباشرة بعد ذلك بطرده من الأراضي الجزائرية، ومع هذا الطرد انتهت خططه الفاشلة.[٥٩]

مشكلة القاعدة العسكرية الألمانية تفاقمت في غشت ١٨٨٥، حيث رست فرقاطة ألمانية في جزر المرجان[٦٠] التابعة لإسبانيا تعبيرا عن ضمها إلى ألمانيا، مما كان يمكن أن يؤدي إلى حرب طاحنة بين الدولتين. ونظرا لأن ألمانيا كانت مهتمة بالجزر الجعفرية، وحتى لا يتكرر ما وقع في جزر المرجان فقد تم تعزيز الدفاعات، وجلب المزيد من قطع المدفعية.

وأخيرًا ذكرت صحيفة إل سيغلو فوتورو (El Siglo Futuro) المدريدية، بأن هناك إشاعات عن عزم الحكومة المغربية التخلي عن رأس الماء لصالح إسبانيا، في إطار عملية تبادل أراضي، وذلك مقابل المستعمرة الاسبانية القديمة (Santa Cruz de la Mar Pequeña) سانطا كروز دي مار بيكينيا،[٦١] وذلك استكمالاً لما نصت عليه اتفاقية الصلح الموقعة سنة ١٨٦٠، مع هذا التنازل لإسبانيا، واقتراحات أخرى لفرنسا، أرادت الحكومة المغربية كسب دعم الدولتين لمواجهة الطموح الاستعماري الألماني.[٦٢]

ثالثًا: الجزر الجعفرية (المعتقل)

١/٣-معتقل الجزر الجعفرية

بغض النظر على المشاريع التي كان من المحتمل أن تحقق مردودًا اقتصاديًا في الجزر الجعفرية، فإن الحكومة الإسبانية كانت تعتبرها مجرد معتقل، ومنفى للمسجونين لأسباب سياسية أو اجتماعية.

كان معتقل الجزر الجعفرية مرتبطا بمليلية، لكنه شكل استثناءً - ينطبق هذا الوضع أيضا على معتقلي نكور وبادس - داخل النظام الجزائي الإسباني، حيث كان من مسؤولية وزارة الحرب من حيث الإدارة والإشراف، - رغم أن العديد من السجناء الذين قضوا هناك عقوبتهم السجنية تمت محاكمتهم من طرف محاكم مدنية عادية - وكان السجانون وموظفو المعتقل يختارون من بين العسكريين ذوي الخبرة والكفاءة.

وحسب قانون السجون الصادر سنة ١٨٤٤، كانت إدارة المعتقل من مسؤوليات الحاكم العسكري للجزر، وكان السجناء مقسمين إلى فرق يرأس كل واحد منها مراقب، كما كانت الفرق مقسمة إلى طوابير ويرأس كل واحد منها رئيس الطابور. ومن المهام الأخرى بهذا المعتقل، نجد المسئولين عن الوُرَش وقد كانوا يختارون من السجناء ذوي المهارة الحرفية.

السجناء ذوي السلوك الحسن، الذين لا توضع لهم الأصفاد، كانوا مكلفين بالأشغال المنزلية، أو بتقديم المساعدة في المخازن والمستشفى، أما الباقون فكانوا مكلفين ببناء التحصينات، والأشغال العامة. وكان من يقومون بأشغال من السجناء يتلقون أجرة، كان جزء منها يوضع في بنك ادخار، حتى يتمكن السجين الذين أكمل عقوبته السجنية من الاستفادة منها في الاندماج من جديد في المجتمع، وقد كان مقدارها سنة ١٨٥٧ ريالاً واحدًا في اليوم،[٦٣] ومع ذلك فالحياة في الجزر الجعفرية لم تكن سهلة، بسبب انعدام الموارد وخصوصا الماء، الذي كان يخضع لنظام الحصص.

في عدد يوم ١٦ فبراير لسنة ١٨٦٥ من جريدة لا إيبيريا (La Ibiria) المدريدية، نشر مقال يندد بالمعاملة

ترجمات

السيئة التي يلقاها السجناء في مليلية، والجزر الجعفرية، الذين تعرضوا لتجاوزات، وعقوبات صارمة لا يسمح بها القانون. بعد إصلاح نظام السجون الإسباني والذي طبق ابتداءً من سنة ١٨٧٠[٦٤] أصبحت معتقلات مليلية، الجزر الجعفرية، بادس، نكور تابعة لوزارة الحرب على مستوى الإدارة، والأطر العاملة، والموارد الاقتصادية. وتابعة لوزارة الداخلية في كل ما عدا ذلك. كما صارت هذه المعتقلات الشمال إفريقية خاصة بسجن المنفيين، والمحكومين بالمؤبد والأشغال الشاقة.

تبعية موظفي المعتقلات الشمال إفريقية لوزارة الحرب، تسبب في بعض الحزازات مع موظفي السجون الأخرى، حيث أن موظفي السجون الشمال إفريقية كانوا يعينون في مراكزهم دون إجراء المباراة التي كان على موظفي السجون التابعة لوزارة العدل النجاح في فيها.[٦٥] أما بالنسبة لعدد المعتقلين الذين كانوا في الجزر فقد كان يتراوح بين ثمانين ومئة خلال عقد الخمسينات من القرن التاسع عشر،[٦٦] لكنه ارتفع لاحقًا بسبب الاضطرابات السياسية والاجتماعية التي عصفت بإسبانيا، وفي شهر ماي من سنة ١٨٧٤ وصل عددهم إلى ١١٧، معتقل منهم ٢٨ محكومون بالمؤبد، وذلك بسبب قمع الاحتجاجات الشعبية والثورتين الكارلية[٦٧] والكوبية.[٦٨] [٦٩] من بين أولئك المعتقلين نجد الزعيم الفوضوي[٧٠] القادسي (نسبة الى قاديس)، فرمين سالبوشيا (Fermín Salvochea)،[٧١] أحد قادة الاحتجاجات الشعبية بإقليم قادس. وتصادف وجوده في المعتقل مع وصول الأفواج الأولى من المبعدين الكوبيين، الذين قدم لهم المساعدة عبر تحويل زنزانته إلى مدرسة يدرس فيها أبنائهم، خصوصا أن العديد منهم جاؤوا بصحبة أسرهم.[٧٢]

٢/٣-كوبيون وفلبينيون

بدأ الكوبيون في الوصول إلى الجزر الجعفرية عند نهاية عقد السبعينات من القرن التاسع عشر، وكان من أوائل من وصلوا (Emilio Bacardí) إيميليو باكاردي،[٧٣] كما وصل شخص معروف آخر هو (José Maceo) الجنرال خوصي ماثيو،[٧٤] وشقيقه رافاييل،[٧٥] الذي توفي هناك. كان الإبعاد عقوبة يقررها الحاكم العام لكوبا أو للفلبين، وقد كان معظم المبعدين من المثقفين، وذوي المهن الحرة، المدافعين عن استقلال بلدانهم، وقد تمت معاملتهم بأفضل مما كان يعامل المساجين، ولأجل إيوائهم تم تخصيص إحدى ثكنات جزيرة إيزابيلا الثانية.

في أكتوبر من سنة ١٨٨٠، بعد نهاية ما عرف بـ (Guerra Chiquita) الحرب الصغيرة،[٧٦] كان عدد المبعدين من كوبا إلى الجزر الجعفرية ١٩٠ رجلاً، ٣٠ امرأة و١٨ طفلاً.[٧٧] وقد تسبب ذلك في بروز مشكلة الإيواء، فتم إرسال مئة شخص إلى مدينة سبتة.[٧٨] وفي السنة الموالية تم السماح للعديد من المبعدين بمغادرة الجزر والاستقرار في إسبانيا، مع اندلاع حرب ١٨٩٥[٧٩] عاد عدد المبعدين الكوبيين إلى الارتفاع، حيث وصل عددهم سنة ١٨٩٧، إلى ٩٩ كوبيا و٣٦ فلبينيا.[٨٠]

أهم ما حدث أثناء وجود خلال الكوبيين في الأرخبيل، هو فرار خوسطو غارسية Justo García، (نجل الزعيم الانفصالي كاليكسطو غارسية Calixto García)،[٨١] ومانويل بلاناس Planas Manuel، اللذين تمكنا من ركوب مركب فرنسي أبحر بهم إلى الغزوات، ومن هناك توجهوا إلى فرنسا فكوبا. وعند نهاية الحرب في كوبا والفلبين، عاد هؤلاء المبعدين إلى بلدانهم الأصلية.

٣/٣-فوضويون مسجونون في الجزر الجعفرية

في أواخر القرن التاسع عشر، تحولت الجزر الجعفرية إلى منفى خاص بالفوضويين المدانين بالمشاركة في التفجير الشهير، الذي استهدف شارع كامبيوس نويبوس Cambios Nuevos في مدينة برشلونة، ففي السابع من شهر يونيو من سنة ١٨٩٦ وعند مرور موكب كوربوس كريستي Corpus christi،[٨٢] انفجرت قنبلة في هذا الشارع مخلفة الكثير من القتلى والجرحى في صفوف الحشود التي حضرت الموكب، وخلال الأيام الموالية للحادثة تم اعتقال الكثير من الفوضويين للاشتباه في مشاركتهم في المؤامرة.

وقد تم محاكمتهم أمام محكمة عسكرية انعقدت في مونطيجويك (Montjuic)،[٨٣] خلال شهر ديسمبر من نفس السنة، وقد قضت بإعدام البعض وبأحكام بالسجن لمدد طويلة مع الأشغال الشاقة لآخرين، رغم ادعاء المعتقلين أنهم تعرضوا للتعذيب وللعديد من الانتهاكات.[٨٤]

مزاعم التعذيب والتعرض انتهاكات التي أطلقها الفوضويون المعتقلون، تسببت في إطلاق حملة لمساندتهم كان لها صدى وطني ودولي كما ساهمت في بروز الزعيم اليساري المعروف أليخاندرو ليروكس،Alejandro Lerroux. وفي فبراير سنة ١٩٠٠، خففت الحكومة من عقوبة من تمت محاكمتهم في مونطيجويك، باستثناء فرانسيسكو كاليس كالابيريا

Francisco Callis Clavería، الذي بقي هناك خمسة أشهر أخرى قبل أن يسمح له بمغادرة المعتقل بعد إصابته بخلل عقلي.[٨٥] ولكن بقي هناك بعض الفوضويين حتى الأيام القليلة التي سبقت إغلاقه النهائي.

وفي أبريل من سنة ١٩٠٤ وخلال زيارة قام بها الملك ألفونسو الثالث عشر[٨٦] إلى برشلونة، التقى بلجنة عمالية تمثل منظمة الطبقات الثلاث Federación de lasTres Clases، قدمت له طلبا بالإفراج عن العامل أنطونيو كابفير Antonio Capvert، الذي قضى حكما بالسجن في معتقل الجزر الجعفرية، بسبب اتهامه بمحاولة اغتيال رجال الحرس المدني.[٨٧]

٤/٣-نهاية معتقل الجزر الجعفرية

شكلت سنة ١٩٠٦ نهاية معتقل الجزر الجعفرية، وباقي المعتقلات الموجودة في شمال إفريقيا، ففي يوم ٢٦ من يونيو وصلت إلى مليلية الفرقاطة "الخنرال كونشا General Concha"، وعلى متنها ١٠١ شخصًا هم آخر من السجناء. وقد وصلوا إلى مليلية في عهدة رائد سلاح المشاة مانتيو(Mantillo)، والذي كان حتى ذلك التاريخ رئيسًا للمعتقل. ومباشرة بعد نزولهم بميناء المدينة تم اقتيادهم تحت حراسة عسكرية إلى حصن فيكتوريا غراندي (Victoria Grande)، وهناك احتجزوا حتى تم التعرف على وجهتم الجديدة.[٨٨]

مصادر ومراجع المؤلف

1- BARCÍA, María del Carmen (2003). *Desterrados de la Patria. Cuba 1869 – 1898. La Habana: Universidad, nº 258 (2º) semestre.*

2 - BECKER, Jerónimo (1915). *Historia de Marruecos. Madrid.*

3- DEL REY, Miguel (2001). *La Guerra de África. Medusa Ediciones.*

4 - HERRÁN LÓPEZ, Ángel y AVILÉS, Juan (2003). *El nacimiento del terrorismo en occidente. Ed. Siglo XXI.*

5 - LÓPEZ CORDÓN, MaríaVictoria (1982). *"La política exterior en la era isabelina y el Sexenio Democrático". Historia de España, tomo XXXIV. Madrid: Espasa Calpe.*

6- LÓPEZ TIRADO, Jacinto (2002). *Islas Chafarinas, un paseo por su historia. Melilla: Ciudad Autónoma.*

7 - MOGA ROMERO, Vicente (1988). *"Melilla y las Plazas Menor es (Chafarinas, Vélez de la Gomera yAlhucemas) en el Diccionario Geográfico-Estadístico-Histórico de España y sus posesiones de ultramar (Madrid 1845-1850) Pascual Madoz". En: Aldaba nº 9. UNED de Melilla.*

8 - MORALESY MENDIGUTÍA, Gabriel de (1909). *Datos para la historia de Melilla. Melilla: Imp. El Telegrama del Rif.*

9 - PASTOR GARRIGUES, Francisco. *España y la apertura de la cuestión marroquí (1897 – 1904). Tesis doctoral. http://hdl.handlenet/10803/9958.*

VILLAR, María José (2006). *"España, Alemania y las islas Chafarinas en vísperas del replanteamiento de la cuestión marroquí". Studia histórica. Historia Contemporánea, nº 24; págs. 207 – 229.*

10 - VIRUELA MARTÍNEZ, Rafael (1995). *"Expansión y crisis de la actividad pesquera valenciana en el siglo XIX". Investigaciones geográficas nº 13; págs. 117 – 133.*

المصدر

CARLOS ESQUEMBRI HINOJO

Spanish title: LAS ISLAS CHAFARINAS, DESDE 1848 HASTA FINALES DEL SIGLO XIX

English title: THE CHAFARINAS ISLANDS, FROM 1848 TO THE END OF THE XIX CENTURY

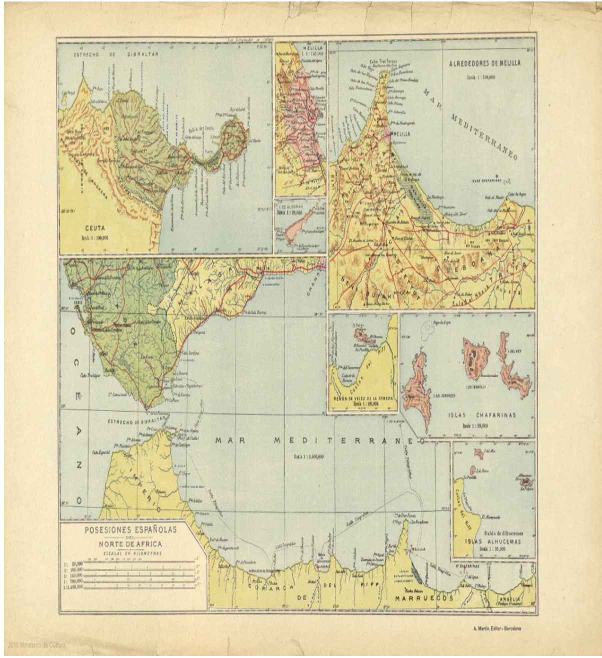
Aldaba: revista del Centro Asociado a la UNED de Melilla, ISSN 0213-7925, Nº. 37, 2013 (Ejemplar dedicado a: Chafarinas: El ayer y el presente de unas islas olvidadas, páginas. 191-220

ترجمات

الملاحق



صورة جوية للجزر الجعفرية



خريطة يعود تاريخها إلى سنة ١٩٠٣
تمثل المدن والجزر المغربية المحتلة من طرف إسبانيا

المصدر:

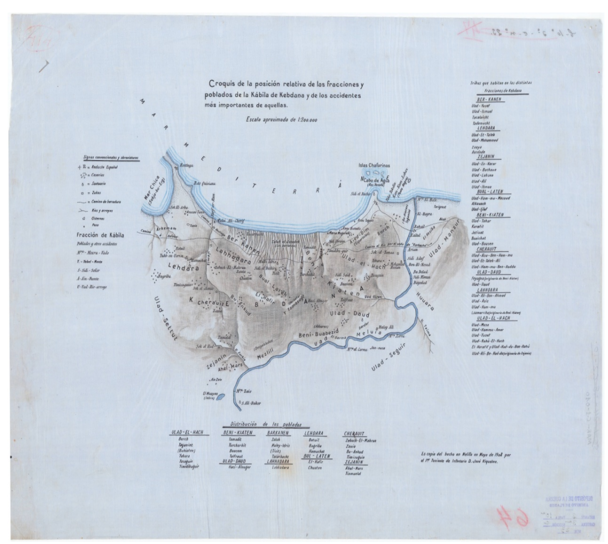
Archivo General Militar de Madrid — Colección: SH — Signatura: AT-1/51



قبائل قلعية ومدينة مليلية
من خلال خريطة إسبانية قديمة

المصدر:

Archivo Cartográfico de Estudios Geográficos del Centro Geográfico del Ejército — Colección: PCGE — Ubicación: DE — Signatura: MAR-C.1-012 — Código de barras: 9776564



قبيلة كبدانة والجزر الجعفرية
ممثلة في خريطة إسبانية من القرن ١٩

المصدر:

Archivo Cartográfico de Estudios Geográficos del Centro Geográfico del Ejército — Colección: PCGE — Ubicación: DE — Signatura: MAR-C.1-010 — Código de barras: 9776473

ترجمات

الهَوامِش:

(١) سياسي وعسكري إسباني قاد سنة ١٨٤٨ حملة عسكرية لاحتلال الجزر الجعفرية شغل مناصب رفيعة في الدولة الإسبانية.
(٢) أرخبيل يوجد قبالة السواحل الشرقية للمغرب يتكون من ثلاث جزر هي جزيرة الملك، جزيرة إيزابيلا الثانية، وجزيرة كونغريسو.
(٣) إحدى الجزر الجعفرية الثلاث مساحتها حوالي ١٥ هكتار توجد بها قواعد عسكرية إسبانية.
(٤) مدينة بالشمال الشرقي للمغرب احتلها الإسبان سنة ١٤٩٧ مساحتها ١٢,٣ كيلومترًا مربعًا.
(٥) جزيرة صغيرة بالمياه المغربية تحتلها إسبانيا منذ سنة ١٥٥٩.
(٦) جزيرة صغيرة متصلة حاليًا بالبر المغربي تحتلها إسبانيا منذ سنة ١٥٦٤.
(7) Moga Romero, Vicente (1988). En: *Aldaba* nº 9; pág. 216.
(8) *Diario constitucional de Palma* 07/02/1848.
(٩) رأس بحري بالساحل المغربي قبالة الجزر الجعفرية ضمن أراضي قبيلة كبدانة.
(10) *El Clamor Público* 09/03/1848.
(11) *El Balear* 08/08/1848.
(12) *El Genio de la Libertad* 02/04/1849
(13) *Estado Militar de España. 1849 1850.*
(١٤) إحدى الجزر الجعفرية الثلاث، مساحتها ١٢ هكتار لا يوجد عليها أي بناء، وتعتبر حاليًا محمية طبيعية.
(15) *La Esperanza 12/04/1849.*
(16) *El Ancona* 08/01/1850.
(١٧) حملة عسكرية حسب الاصطلاح المغربي القديم.
(18) Historia de España XXXIV, págs. 866 y ss.
(١٩) مدينة جزائرية تابعة لولاية تلمسان وتوجد بالقرب من الحدود المغربية الجزائرية.
(20) Jerónimo Becker pág. 225. Expedición francesa contra los Beni Snassen. Véase también *La Iberia* del 05-11-1859
(21) *La Discusión 21/10/1859. Sobre implicaciones extranjeras en el conflicto véase Histor ia de España XXIV pág. 866 y ss., y La Guerra de África, pág. 28.*
(٢٢) حرب تطوان ١٨٥٩ – ١٨٦٠ صراع مسلح دارت رحاه بشمال المغرب أفضى إلى انتصار إسبانيا واحتلالها لمدينة تطوان.
(23) Jerónimo Becker, pág. 215.
(٢٤) خلال أواسط القرن ١٩ مارس بعض أهالي منطقة إعزانن بقبيلة قلعية القرصنة ردا على الوجود الأوربي في سواحلهم.
(٢٥) قلعية اتحادية قبلية تتكون من خمس قبائل موطنها الريف الشرقي تحيط أراضيها بمدينة مليلية.
(٢٦) اعتمد هؤلاء القراصنة على قوارب كبيرة من نوع الشباك المعروف في شمال المغرب.
(٢٧) مدينة مغربية حدودية تابعة لإقليم الناضور ملاصقة لمدينة مليلية المحتلة.
(28) *La Esperanza* 12/02/1852.
(٢٩) مركب شراعي صغير.
(30) *El Ancona* 08/10/1853.
(31) La guerra de África pág. 26 y Datos para la Historia de Melilla, de Gabriel de Morales Mendicutía, 1909, pág. 203.
(32) *El Clamor Público* 18/02/1857.
(33) Islas Chafarinas, pág. 28
(٣٤) قبيلة أمازيغية من قبائل الريف الشرقي توجد أراضيها على ساحل البحر الأبيض المتوسط قبالة أرخبيل الجعفرية.
(35) La *Iberia* 16/04/1858 y 20/04/1858 *La España* 25/03/1858.
(36) *La España 23/01/1859.*
(٣٧) معاهدة واد راس الموقعة في ٢٦ أبريل ١٨٦٠ التي انتهت بها حرب تطوان وحصلت بموجبها إسبانيا العديد من المكاسب.
(٣٨) المناطق الخاضعة للسيادة الإسبانية بالساحل المغربي: سبتة، مليلية، صخرة نكور، صخرة بادس، والجزر الجعفرية.
(٣٩) نسبة إلى مدينة قادس.
(40) *La Correspondencia de España* 17/04/1860.
(٤١) سبتة مدينة في أقصى شمال المغرب على مضيق جبل طارق احتلها البرتغاليون سنة ١٤١٥ وتنازلوا عنها لإسبانيا سنة ١٦٦٨.
(٤٢) طريقة تقليدية لصيد الأسماك التونة.
(٤٣) - Islas Chafarinas, pág. 28.
(٤٤) مدينة ساحلية توجد شرق إسبانيا ضمن إقليم القنت.
(45) Expansión y crisis de la actividad pesquera valenciana.
(46) Gaceta de *Madrid* del martes 17 de julio de 1894.
(٤٧) التجارة غير النمطية هي التهريب.
(48) *La Correspondencia de España* 07/09/1879.
(49) *El Clamor Público 02/10/1864.*
(50) Carta de Higinio Fernández publicada en *La Iberia* 14/01/1865. *El Imparcial* 28/08/1870.
(٥١) مركز الجمارك في الاصطلاح المغربي القديم.
(52) *La Época* 03/10/1874.
(٥٣) إحدى جزر البليار.
(٥٤) حزب سياسي إسباني منحل تأسس خلال الثورة المجيدة وحكم إسبانيا خلال مرحلة الجمهورية الأولى ١٨٧٣ – ١٨٧٤.
(55) Para una *visión* general de los planes de Jiménez y el contexto intenracional: España, Alemania y Chafarinas.
(56) *El Día* 17*/04/1884.*
(57) *El Día* 26/04/1884
(٥٨) أو واد أغبال مجرى مائي صغير يصب في البحر الأبيض المتوسط ويفصل بين الأراضي المغربية والجزائرية.
(59) España, Alemania y Chafarinas.
(٦٠) مجموعة من الأرخبيلات والجزر والحلقات المرجانية الموجودة إلى جنوب الفلبين تابعة حاليًا لكيريباتي وبالاو.
(٦١) مستعمرة إسبانية قديمة بالساحل الجنوبي للمغرب يعتقد أنها سيدي إفني.
(62) *El Siglo Futuro* 22/12/1885.
(63) *El Clamor Público* 18/02/1857.
(64) La Gaceta de Madrid 14/12/1874.
(65) *Revista de prisiones* 24/11/1902.
(66) *La España* 02/10/1857.

ترجمات

(٦٧) سلسلة من الحروب الأهلية التي عرفتها إسبانيا خلال القرن ١٩ سببها مطالبة كارلوس دي بوربون وأبنائه بعرش إسبانيا.
(68) La Gaceta de Madrid 26/06/1874.
(٦٩) سلسلة من الحروب التي وقعت بكوبا خلال القرن ١٩ بين الجيش الإسباني والثوار الكوبيين الساعين إلى تحقيق الاستقلال.
(٧٠) الفوضوية تيار سياسي سعى معتنقوه إلى إقامة مجتمعات متحررة من سلطة الدولة تؤطرها جمعيات تطوعية.
(٧١) زعيم سياسي إسباني تولى مناصب هامة خلال مرحلة الجمهورية الأولى.
(72) Testimonio de Salvochea al diario *El País* 27/10/1902.
(٧٣) سياسي ورجل أعمال ومفكر كوبي كان ناضل من أجل الاستقلال عن إسبانيا.
(٧٤) ثائر كوبي معروف ناضل مع شقيقيه أنطونيو ورفاييل من أجل استقلال كوبا قتل في المعركة سنة ١٨٩٦.
(٧٥) جنرال في جيش التحرير الكوبي ناضل إلى جانب شقيقيه خوسي وأنطونيو من أجل الاستقلال توفي فذي منفاه بالجزر الجعفرية.
(٧٦) إحدى حروب استقلال كوبا جرت وقائعها بين ١٨٧٩ و١٨٨٠.
(77) *La Iberia* 01/10/1880.
(78) *La Correspondencia de España* 07/10/1880.
(٧٩) ثاني حروب استقلال كوبا عن إسبانيا وقعت بين ١٨٧٩ و ١٨٨٠.
(80) Desterrados de la patria.
(٨١) زعيم ثوري كوبي شارك بفعالية في حروب استقلال كوبا الثلاث، حرب العشر سنوات، الحرب الصغيرة، وحرب ١٨٩٥.
(٨٢) عيد ديني مسيحي يحتفل به في بعض الدول الكاثوليكية.
(٨٣) بلدة كطالونية تابعة لإقليم برشلونة.
(84) Sobre el atentado de Cambios Nuevos y el proceso de Montjuic: El nacimiento del terrorismo en occidente págs. 116 y ss.
(85) *La Dinastía* 02/07/1900.
(٨٦) ملك إسبانيا بين ١٨٨٦ و١٩٣١.
(87) *La Dinastía* 12/04/1904.
(88) *El Telegrama del Rif* 27/06/1906.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

مقالات

شهداء حلب خلال الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨



أحمد فوزي شمسي

باحث دكتوراه في طرائق التدريس

كلية التربية – جامعة شرق البحر المتوسط

قبرص الشمالية

مُلَخّصْ

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على مرحلة مهمة من تاريخ حلب بداية القرن العشرين. ففي ذلك الوقت، فقدت حلب الكثير من شبابها ممن ذهبوا للقتال تحت راية الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ولم يعودوا بعدها. إن بقاء هذه الحقبة من حياة حلب مبهمة يجعل البحث عنها أمر مهم ولو تأخر قرنا من الزمن، كونه يوضح إلى حد ما طبيعة ما حصل في تلك الفترة التي أدت إلى استشهاد المئات من أبناء حلب. وتتطرق هذه الدراسة إلى أسباب الحرب العالمية الأولى ودخول الدولة العثمانية فيها، مرورًا بعملية التجنيد التي أخذت الشباب بغير رجعة. كما يضيف الباحث بعضًا من المعلومات التي تشرح ظروف الحرب والتي قد تشكل تصورًا عن طبيعة تلك الفترة لفهم حقيقة ما حصل معهم. بالإضافة إلى توضيح أهمية ولاية حلب لدى الدولة العثمانية. ويختم الباحث هذه المقالة بسرد لأسماء شهداء حلب خلال الحرب العالمية الأولى.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١١ ديسمبر ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ مارس ٢٠١٩

كلمات مفتاحية:

سفربرلك، الحرب العالمية الأولى، الدولة العثمانية، شهداء حلب

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055411

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

أحمد فوزي شمسي. "شهداء حلب خلال الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ - ١٩١٨".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص١٨٧ – ٢١٨.

مُقَدِّمَة

تُعَدّ فترة الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) من أهم الفترات المفصلية في تاريخ مدينة حلب في العصر الحديث. حيث تم أخذ الكثير من شبابها إلى الحرب وبقي قسم كبير منهم في عداد المفقودين. ثم تبعت هذه الحرب تغيرات سياسية انتهت بخروج الدولة العثمانية من مدينة حلب بعد حكم دام ٤٠٠ عام لينشأ بعدها نظام حكم عربي لم يدم طويلاً لتصبح بعدها سوريا تحت الانتداب الفرنسي. وتعد هذه التغيرات أحد الأسباب التي حالت دون القيام بأي بحث يشرح ما حصل مع من ذهب إلى الحرب ولم يعد. إذ إن العلاقات بين تركيا وسوريا بعد خروج الدولة العثمانية كانت سيئة. فلم يتلق ذوي الشهداء أي أخطار باستشهاد أولادهم كونهم أصبحوا في دولة أخرى لا تتبع لحكم تركيا. وهذا ما جعل البحث في هذا الموضوع أمرًا مهمًا لكشف الغموض عن مصير الكثير ممن ذهب إلى الحرب ولم يعد. وتُعَدّ هذه الدراسة الأولى من نوعها التي تحصي أسماء شهداء حلب في الحرب العالمية الأولى، بينما كانت الدراسات السابقة تتكلم عن الحرب بشكل عام. واتبع الباحث طريقة البحث في الأدبيات السابقة من أجل الاطلاع على ظروف الحرب بالإضافة إلى تمحيص ملفات أسماء شهداء الدولة العثمانية

خلال الحرب العالمية الأولى والتي وثقت مؤخرًا من قبل دائرة الشهداء التركية نقلاً عن الأرشيف العثماني.

١-تعريف السفر برلك

"السَفَر بَرْ :أو السَفَر برلك، تعبير تركي: استمدت فيه التركية من العربية السَفَر واستعملته بمعنى الحرب، ثم ألحقته ب (بَر)، يريدون :الحرب البرّية، ثم (لك): أداة تركية تلحق الصفات فتجعلها مصادر كالمصادر الصناعية في العربية. وقيل :بل أصله سفر بِرلك، بكسر الباء بمعنى الحرب الموحدة :(من بِر bir بمعنى الواحد. والحلبيون قد يخففوها ويقولون : السَفَربَره."[١] ويتداول أهل حلب "السفربرلك" للدلالة على فترة الحروب التي أعلن فيها النفير العام من قبل الدولة العثمانية التي كانت حلب تتبع لها حينها. وأصبحت هذه الفترة المظلمة نقطة تأريخ لأهل حلب حتى بات أحدهم يقول: "تجوزت بعد السفربرلك بسنتين"، "ولدت قبل السفربرلك بأربع سنين".

٢-الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨)

بدأت الحرب العالمية الأولى في ٢٨ تموز ١٩١٤ واستمرت حتى١١ تشرين الأول عام ١٩١٨ حينما وقعت ألمانيا على الهدنة لتدخل بعدها عملية سياسية عبر مؤتمر باريس انتهت بالتوقيع على معاهدة فيرساي وخسارة ألمانيا الحرب. كان هنالك عدة أسباب غير مباشرة للحرب. منها ظهور ألمانيا كدولة قوية في أوربا مما أقلق فرنسا كونها دولة متواضعة القدرات بالمقارنة مع جارتها ألمانيا التي كانت على نزاع معها على مقاطعتي الألزاس واللورين والاستراتيجيتين. وانتهى النزاع بحصول ألمانيا على تلك المقاطعات.[٢] كما أن ظهور ألمانيا القوي أقلق بريطانيا العظمى وهدد مصالحها كدولة استعمارية في العالم. وخاصة بعد تدخل الألمان ضد البريطانيين في حرب البوير في جنوب أفريقيا بين عامي ١٨٩٩ و١٩٠٢ .[٣] فضلاً عن خوف بريطانيا من الأسطول الألماني البحري المتطور والذي يسمح لها بمحاصرة الممرات البحرية في بحر الشمال مما قد يحاصر بريطانيا العظمى اقتصاديا.[٤] كما أن انسحاب الدولة العثمانية من منطقة البلقان بعد خسارتها الحرب في عام ١٩١٣ خلف فراغًا كبيرًا بعد خروج العثمانيين مما أدى إلى تنامي قوى محلية مثل المملكة الصربية، الأمر الذي كان يهدد مصالح مملكة النمسا والمجر.[٥] أما السبب المباشر فيعود إلى اغتيال وريث عرش النمسا والمجر الأرشيدوق فرانز فيردناند على يد مواطن صربي في ٢٨ حزيران ١٩١٤ لتكون بذلك شرارة الحرب التي حصدت الملايين من الأرواح على مدار أربع سنوات. وانقسمت الدول خلال الحرب إلى قسمين رئيسيين:

- **دول الحلفاء أو دول الاتفاق:** التي تضم بريطانيا وفرنسا وروسيا وأمريكا واليابان والصين وبلجيكا واليونان والصرب والجبل الأسود ورومانيا والبرتغال.
- **دول المركز أو دول التحالف المربع:** التي تضم الإمبراطورية الألمانية والإمبراطورية النمساوية المجرية والدولة العثمانية والمملكة البلغارية.[٦]

٣-دخول الدولة العثمانية في الحرب

كانت الدولة العثمانية أمام عدة خيارات في الحرب العالمية الأولى. إما أن تقف على الحياد، وهذا ما سعت إليه كلا من روسيا وبريطانيا. أو أن تنضم لصف ألمانيا التي كانت تحثها على دخول الحرب إلى جانبها. وفي الواقع فقد بقيت الدولة العثمانية على الحياد عند بداية الحرب، إلا أنها وقعت اتفاقية في الأول من آب عام ١٩١٤ تنص على دخول الدولة العثمانية في الحرب إلى جانب ألمانيا. ولكن هذه الاتفاقية لم تنفذ إلا في نهاية شهر تشرين الأول من نفس العام.[٧] وقد ذكر الغزي عدة أسباب لدخول الدولة العثمانية في الحرب العالمية مع ألمانيا، منها: حفظ مضائق إستانبول من استيلاء روسيا عليها في حال فازت في الحرب، وحصارها اقتصاديًا مما يساعد حلفاء الدولة العثمانية ألمانيا ومملكة النمسا والمجر. بالإضافة إلى رغبة ألمانيا في التحالف مع بلاد المشرق والتي تقع تحت سيطرة الدولة العثمانية، والذي يساعدها في تشتيت أعدائها عبر عدة جبهات، بالإضافة إلى ترويج البضائع الألمانية والنمساوية في البلاد العربية وكذلك الاستفادة من القوة البشرية في العالم الإسلامي لصالحها في الحرب.[٨]

ويُعَدّ دخول البارجتين الألمانيتين غوبن وبرسلاو إلى مضيق الدردنيل بداية دخول الدولة العثمانية الرسمي في الحرب، حيث أعلن أنور باشا الصدر الأعظم في الدولة العثمانية عن السماح للبارجتين الألمانيتين الهاربتين من الأسطول البريطاني في البحر المتوسط من الدخول إلى المضيق. كما أعلنت الدولة العثمانية عن إلغاء الامتيازات الأجنبية في السلطنة وإغلاق المضائق في وجه الملاحة التجارية وزيادة الرسوم

الجمركية. وهنا كانت بداية الحرب التي أعلنتها روسيا في الثالث من تشرين الثاني، تلتها فرنسا وبريطانيا في الخامس من نفس الشهر.[٩] كانت حروب الدولة العثمانية متوزعة على عدة جبهات:

١. مضيق الدردنيل، والذي حصلت فيه المعركة الكبرى معركة جناق قلعة أو غاليبولي، وانتصر فيها العثمانيون على الإنكليز والفرنسيين.
٢. قناة السويس: حاولت القوات التركية والألمانية عبور قناة السويس لاستعادة مصر من يد الإنكليز عبر سلسلة من الحملات انتهت بالفشل.
٣. البصرة: قامت القوات العثمانية بمهاجمة القوات الإنكليزية المتمركزة في ميناء البصرة في الثاني عشر من نيسان عام ١٩١٥.
٤. الكويت: استطاعت القوات العثمانية من الاستيلاء على الكويت في ٢٩ نيسان ١٩١٥، واستطاعت بعدها الدولة العثمانية من إيقاف تقدم الإنكليز في العراق.[١٠]
٥. شمال فلسطين: جرت معركة بين القوات العثمانية والألمانية من جهة والقوات الإنكليزية من جهة أخرى في معركة حرج ابن عامر والتي أسفرت عن سيطرة إنكلترا على كامل سوريا في أواخر تموز ١٩١٨.[١١]

٤-إعلان النفير العام

أعلنت الدولة العثمانية النفير العام في جميع ولاياتها، ونظرًا لعظم الحرب فقد قامت باستدعاء كافة الشباب الذين هم في سن التكليف من أجل سد جميع الجبهات التي فتحت. ننقل هنا ما أورده الغزي في كتابه نهر الذهب في تاريخ حلب عن النفير العام الذي حصل في حلب وكيف تعاطى الناس معه فيقول: "يوم السبت العاشر من رمضان سنة ١٣٣٢ الموافق الثالث من آب سنة ١٩١٤ م أصبح الناس ليقرؤا في منعطفات الشوارع وأبواب الأماكن الشهيرة كالجوامع والخانات أوراقًا ملصقة بالجدران مطبوعة ملونة فيها صورة الشعار العثماني وتحته سطر واحد فيه كلمة (سفر برلك) أي النفير العام.... وقد عظم هذا الأمر على الناس وأصبح تحدثهم به شغلهم الشاغل وبعد أيام قليلة علق بالشوارع من الجهة العسكرية إعلان فحواه "أن كل من كان بالغًا سن المكلفية العسكرية أن يحضر إلى المكان المعين (مثل برية المسلخ) ويثبت اسمه وكنيته في سجلات العسكرية في برهة أيام قليلة. فتسارع الناس إلى تلك الأماكن لتسجيل أسمائهم وكان المسلمون صائمين والحر شديدا فتكبدوا من اجل ذلك مشقة زائدة. وبعد أيام دعت الجهة العسكرية كل مَنْ اثبت اسمه وكنيته إلى حمل السلاح والدخول في السلك العسكري".[١٢] كان سن المكلفية العسكرية يشمل كل مَنْ هو من مواليد الفترة ما بين ١٢٨٠ و١٣١٥ هجري الموافق لمواليد ما بين عامي ١٨٦٣ و١٨٩٧.[٣] كما أنه كان هنالك إعفاءات تمُنح على شكل ورقة يحملها الرجل معه كإثبات أينما ذهب. ولم نقف على أي من هذه الإعفاءات التي كانت تمنح من قبل "العسكرية".

٥-معركة جناق قلعة (جاليبولي)

لم نقف على أي دراسة تشير إلى الجبهات التي تم إرسال شباب حلب إليها، إلا أن المتوقع أن تكون الجبهة الأساسية هي الدردنيل، كون هذه الجبهة هي الأقرب لحلب. كما أنه كان لولاية حلب فرقتان بتعداد يتراوح ما بين العشرة آلاف إلى اثني عشر ألفًا لكل فرقة منهما، وكانتا تحت إمرة مصطفى كمال باشا والذي كان أحد قادة معركة جناقلعة.[١٣]

تُعَدّ معركة جناق قلعة أو غاليبولي والتي وقعت على مضيق الدردنيل بين الدولة العثمانية من جهة وبريطانيا وفرنسا من جهة أخرى من أهم المعارك التي خاضتها الدولة العثمانية والتي كان لها أثرًا كبيرًا على الحرب العالمية الأولى. في بدايات عام ١٩١٥ قام الحلفاء باقتحام مضيق الدردنيل الاستراتيجي والذي يتمتع بتحصينات قوية، وذلك للاستيلاء على إستنبول، عاصمة الدولة العثمانية في تركيا. وتذرعوا بدخول البارجتين الألمانيتين إلى مضيق الدردنيل، مما جعل الدولة العثمانية تخرج عن حيادها وتدخل الحرب إلى جانب ألمانيا. قامت القوات البريطانية والفرنسية بمهاجمة المضيق، إلا أن غارتي ١٩ شباط، و١٨ آذار باءتا بالفشل. وفي ٢٥ نيسان نزلت القوات البريطانية والأسترالية والنيوزيلندية في شبه جزيرة جاليبولي، بينما اتجهت القوات الفرنسية إلى الجنوب. ثم حدث إنزال ثان في آب في خليج سفلا، الذي يقع بشبه الجزيرة. وعلى الرغم من نجاح عملية الإنزال، كان معدل الإصابات عاليًا، ولم يستطع الحلفاء التقدم من الشواطئ بسبب المقاومة التركية الشرسة. وبمرور الشهور ارتفع معدل الوفيات. وفي النهاية، انسحب

الحلفاء في كانون الثاني ١٩١٦، تاركين الإمبراطورية العثمانية مسيطرة على الدردنيل ومستمرة في الحرب.(١٤)

٦-ظروف الحرب

كانت الظروف التي عاشها الجنود خلال الحرب قاسية جدًا. لدرجة أن معالجة الجرحى كان أمرًا صعبًا نظرًا لكثرة عدد الإصابات في الحرب. كما أن انتشار الجثث لدى الطرفين المتحاربين أدى إلى انتشار الذباب الناقل للأمراض والذي تسبب بوباء الدوسنتاريا (مرض الزحار) في شهر كانون الأول من عام ١٩١٥، مما جعل المؤرخين يسمون ميناء جاليبولي بشاطئ الأمراض.(١٥) كما أن كثرة عدد الجنود في الطرف العثماني (حوالي نصف مليون جندي) جعل الإمدادات ضعيفة مما أدى إلى انتشار الجوع وسوء التغذية.(١٦)

٧-ولاية حلب في زمن الدولة العثمانية

لفهم أهمية حلب في هذه الحرب، لا بد من أن نفهم تاريخها وتقسيمها الإداري زمن الدولة العثمانية. فقد انضمت حلب إلى السلطنة العثمانية بعد معركة مرج دابق لتصبح بذلك من أهم الولايات العثمانية من حيث المساحة والأهمية بعد إستنبول. فكانت قريبة من مركز الدولة العثمانية وكانت مركزًا لحشد الجيوش البرية. كما لا يخفى على أحد الأهمية الاقتصادية والثقافية والحضارية التي كانت تتمتع بها حلب مما جعلها تتميز عن غيرها وتصبح قبلة لكل من أراد العلم أو التجارة. يقول الدكتور حسن علي عبد الله أستاذ التاريخ في جامعة القادسية في دراسته "التقسيمات الإدارية لولاية حلب": "أما المدينة نفسها فكانت محطة أساسية للولاة الذاهبين إلى مراكز ولايتهم أو العائدين من مهماتهم برًا، ولكبار الأسر العثمانية العريقة التي تنشد الإقامة في أقرب منطقة عربية، ولطلاب العلم من الفتيان العثمانيين الذين يطمحون إلى تعلم اللغة العربية أو للتلمذ على يد الزهاد وشيوخ الطرق والمتصوفة، ومحطة للوفود القادمة شرقًا أو جنوبًا لتلتقي الباب العالي."(١٧)

وفي عام ١٨٦٤ صدر قانون الولايات والذي عمل على تنظيم الولايات العثمانية بحيث ترتبط بشكل منظم بالعاصمة إستنبول. وكانت ولاية حلب (وعاصمتها حلب المدينة) من أكبر الولايات، حيث تم تنظيمها في عام ١٨٦٦ لتشمل مناطق واسعة وصلت للأناضول. وضمت ولاية حلب ستة ألوية وثمانية وعشرون قضاء وثلاث وسبعون ناحية. وتشمل هذه المناطق في وقتنا الحالي كلا من: حلب وريفها، أدلب وريفها، دير الزور وريفها، الرقة وريفها، أنطاكيا، اسكندرون، كلس، مرعش، اورفا، عثمانية، اضنة وصولاً إلى مرسين. ثم في عام ١٨٧٠، تم فصل ألوية قوزان وبياس وأضنة عن حلب بسبب صعوبة ضبط الأمور ضمن هكذا مساحة. وبقيت المساحات على ما هي عليه مع تغيرات بسيطة مثل فصل دير الزور واعتبارها لواء مستقل أو مرتبطة بالباب العالي تارة وعودتها لحلب تارة أخرى.

وفي عام ١٩١٠ تم فصل لواء اورفا عن حلب ومن ثم فصل لواء عنتاب ومرعش وكلس في عام ١٩٢٠ لتنفصل بذلك حلب عن ريفها الشمالي. بعد ذلك تم ترسيم الحدود وفقا لمعاهدة لوزان في سويسرا عام ١٩٢٣ بين فرنسا وتركيا.(١٨) وفي عام ١٩٣٩ تم فصل لواء اسكندرون عن حلب وضمه لتركيا.(١٩) يتبين مما سبق، أن حلب لم تكن مدينة عادية، بل كانت مركز ثقل تاريخي واقتصادي وعلمي. إلا أن حلب كان لها ميزة أخرى لا تقل أهمية عن هذه النواحي، فقد كانت مخزنا بشريا ساعد الدولة العثمانية في حروبها المختلفة. مما جعل لأهل حلب أهمية بالغة في الحروب التي مرت في تلك الحقبة.

٨-شهداء حلب في الحرب العالمية الأولى

بحسب سجلات الدولة العثمانية، فإن عدد الشهداء المسجلين من ولاية حلب في الحرب العالمية الأولى هو ٣٠٦٣ شهيد. إلا أن هذا العدد يشمل مَنْ كان في عموم ولاية حلب سابقًا. ولكن بعد ترسيم الحدود بين فرنسا وتركيا في معاهدة لوزان، انقسمت الولاية إلى قسمين:

١. القسم السوري: ويشمل حلب وأدلب والباب وحارم ومعرة النعمان وجبل سمعان وجسر الشغور ومنبج والرقة (جدول ١).

٢. القسم التركي: ويشمل عنتاب وكلس ومرعش وأورفا ولواء اسكندرون (جدول ٢).

المدينة	تعداد سكان(٢٠)	شهداء(٢١)
حلب	١٠٨٤٤٥	٤٥٧
ادلب	٥٠٥٨٤	٢١٨
الباب	٢٥٢٤١	١١٤
حارم	٢٦٩٧٥	٨٢
معرة النعمان	١٧٢٩٠	٦١
جبل سمعان	٢٥٩٣٥	٣٧
جسر الشغور	٢٩٠٢٣	٢٤
منبج	٦٩٦٨	٢
الرقة	٨٨٦٨	٢
إجمالي	٢٩٩٣٢٩	٩٦٠

جدول (١)

عداد سكان الجانب السوري من ولاية حلب وشهدائه

في الحرب العالمية الأولى

المدينة	تعداد السكان (٢٢)	شهداء (٢٣)
لواء حلب	٢٩٩٣٢٩	٩٦٠
قضاء عنتاب وكلس	١٥٩٦٨٢	٩٥٠
لواء مرعش	١٥٨٠٦٥	٦٥٩
لواء اسكندرون	٩٥٤٠٧	٤٩٤
لواء أورفا	١٣٥٧١٤	لم يوثق بعد
المجموع	٨٤٨١٩٧	٣٠٦٣

جدول (٢)

أعداد سكان عموم ولاية حلب مع عدد شهدائها

في الحرب العالمية الأولى

٩-قائمة شهداء حلب في الحرب العالمية الأولى[٢٤]

توثق هذه الدراسة أسماء شهداء القسم السوري من ولاية حلب استناداً إلى ملفات مديرية الشهداء في وزارة الدفاع التركية التي استندت إلى الأرشيف العثماني. وكان عدد الشهداء المسجلين في هذه الوثائق هو ٩٦٠ شهيد موزعة بين حلب المدينة وأدلب ومعرة النعمان والباب وحارم والرقة ومنبج وجسر الشغور. وقد لوحظ بعض الاختلافات في القائمة نتيجة ترجمتها من العثمانية إلى التركية وكتابتها بالحرف اللاتيني ومن ثم ترجمتها إلى العربية. مما جعل نطق بعض الأسماء غريبا مع احتمال وجود أخطاء أثناء النقل من العثماني إلى التركي. لذلك عمد الباحث إلى وضع إشارة (*) جانب الأسماء التي يعتقد بأن الاسم فيها غير دقيق. كما أن الأسماء نشرت في الوثائق الرسمية بحسب الأبجدية التركية فتم ترتيبها في هذه الدراسة بحسب الأبجدية العربية لتسهيل البحث. وقد تم تسجيل المعلومات وفقا لما يلي: الاسم -اسم الأب – الكنية – اللقب -محل الإقامة. كما أن الكنية لم تسجل لأي من الشهداء وقد يعزى هذا الكلام لأن الكنيات لم تكن مثبتة في النفوس في زمن العثمانيين، بل كان ينادى بفلان بن فلان. ومع ذلك فتجد أن بعض الكنيات كانت تذكر مع اسم الشهيد أو اسم أبيه. أما اللقب فقد كان موجودا لدى بعض الشهداء دون غيرهم والذي غالبا ما كان ينتهي بكلمة (أوغلاري) بمعنى أبناء.

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
1	إبراهيم	أحمد		حلب
2	إبراهيم	اسعد		حلب حارم
3	إبراهيم	حجي حسن بيك		حلب
4	إبراهيم	حجي علي		حلب
5	إبراهيم	حجي محمد		حلب ادلب
6	إبراهيم	حسن		حلب ادلب
7	إبراهيم	حسن كتخدا		حلب حارم
8	إبراهيم	حسين		حلب
9	إبراهيم	خالد راجوك		حلب معرة النعمان

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
10	إبراهيم	خضر محمد		حلب ادلب
11	إبراهيم	زكريا باطاري		حلب
12	إبراهيم	صادق		حلب معرة النعمان
13	إبراهيم	طه		حلب ادلب
14	إبراهيم	عبد الله محمد حمود		حلب الباب
15	إبراهيم	عمر		حلب الباب
16	إبراهيم	عواد		حلب
17	إبراهيم	غنوم		حلب
18	إبراهيم	محمد		حلب ادلب
19	إبراهيم	محمد حجازي		حلب حارم
20	إبراهيم	محمد صالح الدارمي		حلب ادلب
21	إبراهيم	محمود حجي جاويش		حلب ادلب
22	إبراهيم	مصطفى		حلب الباب
23	إبراهيم	مصطفى		حلب ادلب
24	إبراهيم	موسى		حلب
25	إبراهيم	موسى		حلب
26	أحمد	إبراهيم قهواني		حلب الباب
27	أحمد	أحمد		حلب ادلب
28	أحمد	أحمد		حلب ادلب
29	أحمد	أحمد		حلب
30	أحمد	بكر	حجي زكور اوغلاري	حلب ادلب
31	أحمد	بكور زين		حلب ادلب
32	أحمد	جنيد		حلب
33	أحمد	حجي إبراهيم باشا		حلب ادلب
34	أحمد	حجي حسن		حلب ادلب
35	أحمد	حجي حسن حلاق		حلب
36	أحمد	حجي شعبان		حلب حارم
37	أحمد	حجي قدور		حلب
38	أحمد	حجي محمود		حلب ادلب
39	أحمد	حجي مصطفى		حلب
40	أحمد	حسن		حلب حارم
41	أحمد	حسن		حلب
42	أحمد	حمادة		حلب
43	أحمد	خالد		حلب
44	أحمد	خالد جبار		حلب
45	أحمد	خليل		حلب الباب
46	أحمد	خليل		حلب الباب
47	أحمد	خليل		حلب الباب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
48	أحمد	درويش		حلب حارم
49	أحمد	ديب		حلب
50	أحمد	رحيم		حلب ادلب
51	أحمد	سالم		حلب ادلب
52	أحمد	شيخو كلاوي		حلب ادلب
53	أحمد	عبد الجليل		حلب
54	أحمد	عبد الرحمن عيسى		حلب ادلب
55	أحمد	عبد الرزاق		حلب
56	أحمد	عبدي		حلب
57	أحمد	عثمان		حلب
58	أحمد	عقالا		حلب معرة النعمان
59	أحمد	عقلو		حلب
60	أحمد	علي		حلب ادلب
61	أحمد	علي		حلب جسر الشغور
62	أحمد	علي		حلب
63	أحمد	علي		حلب
64	أحمد	علي		حلب الباب
65	أحمد	علي إبراهيم		حلب الباب
66	أحمد	علي إبراهيم كوجك		حلب الباب
67	أحمد	علي ططرن		حلب معرة النعمان
68	أحمد	علي علي صيناريس		حلب معرة النعمان
69	أحمد	عمر		حلب
70	أحمد	عمر		حلب الباب
71	أحمد	عمر		حلب جبل سمعان
72	أحمد	عمر زكور		حلب
73	أحمد	عمو		حلب الباب
74	أحمد	غريب		حلب
75	أحمد	قرمو حسن		حلب الباب
76	أحمد	محمد		حلب معرة النعمان
77	أحمد	محمد		حلب
78	أحمد	محمد		حلب
79	أحمد	محمد		حلب ادلب
80	أحمد	محمد		حلب ادلب
81	أحمد	محمد		حلب ادلب
82	أحمد	محمد		حلب ادلب
83	أحمد	محمد		حلب حارم
84	أحمد	محمد	أحمد اوغلاري	حلب
85	أحمد	محمد الحسن		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
86	أحمد	محمد تركي		حلب
87	أحمد	محمد حسين		حلب معرة النعمان
88	أحمد	محمد خير		حلب ادلب
89	أحمد	محمد خيري	حجي أحمد اوغلاري	حلب
90	أحمد	محمد ريح عبيدي		حلب ادلب
91	أحمد	محمد سارير		حلب ادلب
92	أحمد	محمد صالب		حلب ادلب
93	أحمد	محمد صالح		حلب
94	أحمد	محمد صبري علي باشا		حلب ادلب
95	أحمد	محمد طاهر		حلب
96	أحمد	محمد عبد الله		حلب
97	أحمد	محمد علي		حلب ادلب
98	أحمد	محمد علي		حلب حارم
99	أحمد	محمود عبد الرحمن		حلب جبل سمعان
100	أحمد	مصطفى		حلب
101	أحمد	مصطفى		حلب حارم
102	أحمد	مصطفى		حلب
103	أحمد	مصطفى	محمد اوغلاري	حلب ادلب
104	أحمد	مصطفى عدي		حلب جسر الشغور
105	أحمد	مصطفى عيسات		حلب ادلب
106	أحمد	ناصيف	جيمو حسن اوغلاري	حلب الباب
107	أحمد	يحيى		حلب حارم
108	أحمد	يوسف		حلب ادلب
109	أحمد	يوسف		حلب
110	أحمد	يوسف		حلب
111	أحمد	يوسف جبان		حلب ادلب
112	أحمد	-------------		حلب معرة النعمان
113	أحمد بدوي	يوسف		حلب ادلب
114	أحمد حاضري	حجي ناجي		حلب
115	أحمد حمدي	حجي إبراهيم		حلب
116	أحمد حمدي	حجي إبراهيم		حلب
117	أحمد حمدي	عبد الرزاق		حلب
118	أحمد حمدي افندي	عبد الرزاق		حلب
119	أحمد دبيو	عرب أحمد	عرب اوغلاري	حلب
120	أحمد مرجان	محمد		حلب حارم
121	اسماعيل	إبراهيم مصري		حلب
122	اسماعيل	حجي عمر كركوك		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
123	اسماعيل	ديروي افندي		حلب الباب
124	اسماعيل	صاري محمد		حلب جسر الشغور
125	اسماعيل	عز الدين	حمور أحمد اوغلاري	حلب ادلب
126	اسماعيل	كاريس		حلب حارم
127	اسماعيل حقي	لطفي باشا		حلب
128	الياس	نخلة دباغ		حلب
129	ايبو	محمد		حلب
130	أحمد عقاد	حجي محمود	درويش آغا اوغلاري	حلب
131	أربو	عبد الرحمن		حلب ادلب
132	أسعد	عبد اللطيف		حلب
133	أسعد	محمد		حلب حارم
134	أمين	محمد		حلب ادلب
135	بشير	حمدي	جند اوغلاري	حلب حارم
136	بشير	عكاش		حلب الباب
137	بشير	يوسف حمرا		حلب معرة النعمان
138	بشير افندي	عمر		حلب
139	بطال	سيدو		حلب الباب
140	بكر	أحمد		حلب
141	بكر	اسماعيل		حلب جبل سمعان
142	بكر	حسن		حلب
143	بكر	حمدي مرجان		حلب ادلب
144	بكر	سيد		حلب
145	بكر	شيخ شوقي	جمعة اوغلاري	حلب الباب
146	بكر	عباس		حلب
147	بكر	عبدي		حلب
148	بكر	علي ويس	عمر اوغلاري	حلب
149	بكر	محمد حلاق		حلب
150	بكر	محمد عثمان		حلب جبل سمعان
151	بكر	مصطفى		حلب ادلب
152	بكر	يوسف		حلب جبل سمعان
153	بكور	محمد		حلب ادلب
154	بكور ضاني	محمود		حلب ادلب
155	بيازيد	سيد		حلب
156	بيرم	حجي قعرور		حلب
157	تحسين	حسن		حلب منبج
158	تحسين	علي		حلب جسر الشغور
159	توفيق	بكور		حلب ادلب
160	توفيق	موسى		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
161	جمال	حجي موسى		حلب جسر الشغور
162	جمال	مصطفى	دولا أوغلاري	حلب
163	جمالي	محمد		حلب ادلب
164	جمعة	حمادي		حلب ادلب
165	جمعة	شيخ شوق		حلب الباب
166	جمعة	عبد القادر		حلب الباب
167	جمعة	مصطفى		حلب الباب
168	جمعة	نايف		حلب حارم
169	جمعة	أحمد		حلب الباب
170	جمعة مصطفى	يونس صالح		حلب حارم
171	جميل	حجي بكر		حلب
172	جميل افندي	يحيى		حلب
173	جنيد	أحمد عزيز		حلب
174	جواد افندي	أسد		حلب
175	حبيب	أحمد		حلب ادلب
176	حبيب	حسين		حلب
177	حجازي	حمود قاق		حلب ادلب
178	حجي إبراهيم	محمد بدور		حلب
179	حجي أحمد	محمود		حلب
180	حجي حسن	جعفر		حلب الباب
181	حجي حسن	حانون جعفر		حلب الباب
182	حجي حسن	نجيب		حلب ادلب
183	حجي حميد	علي حميد		حلب ادلب
184	حجي سليمان	حمدو سليمان		حلب
185	حجي سويد	محمد بكري		حلب جبل سمعان
186	حجي عقيل	تيمور		حلب الباب
187	حجي علي	حسن		حلب
188	حجي علي	حلمي		حلب
189	حجي عمر	حسين		حلب ادلب
190	حجي عمر	صالح		حلب
191	حجي عمر	يوسف	أحمد اوغلاري	حلب
192	حجي قيس	زكريا		حلب
193	حجي محمد	بكر		حلب ادلب
194	حجي محمد	حجي خطاب		حلب
195	حجي محمد	حسن		حلب
196	حجي محمد	عبد الله	طاهر اوغلاري	حلب ادلب
197	حجي محمد	علي		حلب
198	حجي محمد	علي		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
199	حجي محمد	محمد		حلب ادلب
200	حجي مصطفى	حسين		حلب حارم
201	حجي مصطفى	قادير		حلب
202	حجي مصطفى	قادير		حلب
203	حجي يوسف	حجي محمد		حلب
204	حرمان	حرمان		حلب
205	حرناق	طه عبد الله		حلب الباب
206	حسن	أحمد		حلب ادلب
207	حسن	أحمد		حلب
208	حسن	جنيد		حلب
209	حسن	جنيد		حلب بلاط فوقاني
210	حسن	حجي سليمان		حلب معرة النعمان
211	حسن	حجي علي		حلب
212	حسن	حجي علي		حلب
213	حسن	حجي محمد حبيب		حلب
214	حسن	حجي محمد مرياني		حلب ادلب
215	حسن	حسين		حلب ادلب
216	حسن	حمود		حلب ادلب
217	حسن	خاطر		حلب
218	حسن	خالد		حلب
219	حسن	سليمان		حلب جبل سمعان
220	حسن	عبد الرحمن		حلب
221	حسن	عبد الله		حلب ادلب
222	حسن	عثمان بارونجو		حلب
223	حسن	علوان		حلب معرة النعمان
224	حسن	علي		حلب
225	حسن	علي		حلب
226	حسن	علي		حلب جسر الشغور
227	حسن	قدور محمد		حلب الباب
228	حسن	محمد		حلب الباب
229	حسن	محمد		حلب ادلب
230	حسن	محمد		حلب
231	حسن	محمد		حلب معرة النعمان
232	حسن	محمد		حلب ادلب
233	حسن	محمد		حلب جبل سمعان
234	حسن	محمد		حلب الباب
235	حسن	محمد		حلب جسر الشغور
236	حسن	محمد برغوث		حلب الباب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
237	حسن	مصطفى		حلب
238	حسن	مصطفى	حسن أوغلاري	حلب
239	حسن	مصطفى		حلب
240	حسن	مصطفى		حلب
241	حسن	مصطفى حميد الغاري		حلب الباب
242	حسن	ويسو		حلب الباب
243	حسن	يوسف		حلب ادلب
244	حسن	يوسف		حلب حارم
245	حسن افندي	مصطفى		حلب
246	حسن ديب	حجي خليل		حلب الباب
247	حسن قيران	إبراهيم		حلب
248	حسيب	محمد		حلب ادلب
249	حسين	أحمد		حلب
250	حسين	أحمد		حلب جسر الشغور
251	حسين	أحمد	ليباب سيد اوغلاري	حلب
252	حسين	أحمد منصور		حلب حارم
253	حسين	حجي حسن كرزون		حلب
254	حسين	حسن		حلب الباب
255	حسين	حسن		حلب ادلب
256	حسين	خالد قاسم		حلب معرة النعمان
257	حسين	خليل	خليل اوغلاري	حلب الباب
258	حسين	سليمان حسن		حلب جبل سمعان
259	حسين	شيخ		حلب
260	حسين	عبد الجواد		حلب حارم
261	حسين	عبد الله سيد قاسم		حلب معرة النعمان
262	حسين	ماكور		حلب ادلب
263	حسين	محمد		حلب حارم
264	حسين	محمد		حلب
265	حسين	محمد		حلب
266	حسين	محمود		حلب ادلب
267	حسين	يوسف		حلب ادلب
268	حسين	يوسف طحان		حلب ادلب
269	حسين جير	عمر زبيدة		حلب ادلب
270	حسين عكر	طه		حلب ادلب
271	حسين معروف قيلادي	محمد		حلب معرة النعمان
272	حشاوي	مصطفى		حلب الباب
273	حقي	عمر		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
274	حلمي افندي	حجي علي غالب		حلب
275	حمادي	اسماعيل		حلب ادلب
276	حمادي	اسماعيل		حلب ادلب
277	حمادي	حمود		حلب
278	حمادي	صادق		حلب ادلب
279	حمدو	محمد حوداي		حلب
280	حمدو	محمد دربي		حلب ادلب
281	حمدو محمد	دبريش		حلب جبل سمعان
282	حمدي	مصطفى		حلب ادلب
283	حمشو	خليل		حلب
284	حمود	علي		حلب ادلب
285	حمود	محمد ويسي		حلب معرة النعمان
286	حميد	أحمد		حلب معرة النعمان
287	حميد	جميل		حلب الباب
288	حيدر	أحمد زياد		حلب
289	خالد	أحمد		حلب ادلب
290	خالد	علي		حلب
291	خالد	علي جيهان		حلب ادلب
292	*خطوف	قدور		حلب معرة النعمان
293	خلف	حسن		حلب الباب
294	خلف	حسين		حلب الباب
295	خلوف	أحمد		حلب الباب
296	خليل	إبراهيم		حلب الباب
297	خليل	صادق		حلب ادلب
298	خليل	عبد الرحمن		حلب الباب
299	خليل	علي		حلب
300	خليل	مصطفى خاليجان		حلب الباب
301	خليل إبراهيم	محمد		حلب
302	خليل حناوي	مصطفى		حلب الباب
303	دالي	جاووش		حلب جسر الشغور
304	داوود	محمد		حلب ادلب
305	درويش	محمد		حلب جسر الشغور
306	دياب	عمر شعبان		حلب معرة النعمان
307	ديب	حمدي		حلب ادلب
308	ديبان	زيدان		حلب ادلب
309	ديبو	ديبو جواد ميعاز		حلب ادلب
310	رجب	بكر		حلب
311	رجب	حسين		حلب الباب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
312	رجب	علي		حلب
313	رجب	عمر		حلب ادلب
314	رحمو	شهادة		حلب
315	رحمو	عمر		حلب
316	رزوق افندي	أحمد رحال		حلب الباب
317	رشيد	أحمد		حلب
318	رشيد	علي		حلب منبج
319	رشيد	عمر	بال اوغلاري	حلب
320	رشيد	عمر		حلب
321	رشيد	نعمان		حلب ادلب
322	رشيد بهنان	محمد		حلب حارم
323	رضا افندي	صالح		حلب
324	رمضان	حسن		حلب
325	رمضان	حسين		حلب
326	زكريا	فوز الله	يوزباشي اوغلاري	حلب
327	زكي	خليل		حلب حارم
328	زكي	قاسم		حلب
329	زكي	محمود		حلب
330	زيدان	حسين		حلب حارم
331	زين الدين	مصطفى عثمان		حلب ادلب
332	سالم	محمود كيتو		حلب ادلب
333	سامي	ناجي		حلب
334	سانلي	اردولتو		حلب الرقة
335	سليم	مصطفى سليم		حلب ادلب
336	سليمان	حجي حسن		حلب
337	سليمان	حمدو		حلب الباب
338	سليمان	عبد الله		حلب حارم
339	سليمان	عبدول		حلب حارم
340	سليمان	محمد علي		حلب
341	سيد	أحمد		حلب ادلب
342	سيد	حمود شوبك		حلب ادلب
343	سيد	شوبك		حلب ادلب
344	سيد	عبد الله عيسى		حلب
345	سيد	علي مندو		حلب ادلب
346	سيد	مصطفى		حلب
347	سيد افندي	أحمد		حلب
348	سيلاش	قدور		حلب معرة النعمان
349	* شازي	حسين		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
350	شعبان	إبراهيم		حلب
351	شعبان	محمد إبراهيم		حلب جسر الشغور
352	شعبان	مصطفى	بروغوت اوغلاري	حلب ادلب
353	شحود	محمد		حلب معرة النعمان
354	شيخ علي	حجي محمود		حلب
355	صادق	اسماعيل		حلب ادلب
356	صادق	حمدي		حلب معرة النعمان
357	صادق افندي	عبد القادر		حلب
358	صالب	محمد شريف		حلب
359	صالح	إبراهيم		حلب معرة النعمان
360	صالح	أحمد		حلب حارم
361	صالح	أحمد بهلول		حلب حارم
362	صالح	جمعة		حلب ادلب
363	صالح	حجي أحمد		حلب
364	صالح	علي		حلب ادلب
365	صالح	علي		حلب
366	صالح	علي جبقجي		حلب
367	صالح	قدور اماس		حلب
368	صالح	مصطفى	شيخ اوغلاري	حلب
369	صائب افندي	محمد علي		حلب
370	صبحي افندي	محمد	اوراق زادة حجي أحمد افندي	حلب
371	صبري افندي	صالح ثابت		حلب
372	طالب	أحمد		حلب
373	طالب	حجي محمد		حلب ادلب
374	طالب	شيخو		حلب ادلب
375	طالب	محمد		حلب
376	طالب	محمد		حلب
377	طالب	مصطفى غازي		حلب
378	طاهر	أحمد		حلب معرة النعمان
379	طاهر	أحمد		حلب الباب
380	طاهر	حسن		حلب جبل سمعان
381	طاهر	خيري		حلب
382	طاهر	عيسى		حلب معرة النعمان
383	طاهر	ميميش	حيلاز اوغلاري	حلب الباب
384	طاهر	ويسي		حلب
385	طه	بكر		حلب جبل سمعان
386	طه	صالح بركان		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
387	طه	محمد حوا		حلب ادلب
388	ظافر	محمد خلف		حلب حارم
389	عارف	عبد الرحمن		حلب حارم
390	عباس	----------		حلب
391	عباس	حسن		حلب
392	عبد الجليل	خالد		حلب
393	عبد الجليل	نصر الله		حلب جبل سمعان
394	عبد الحميد	حجي أحمد		حلب ادلب
395	عبد الحميد	حجي علي ارسلان		حلب
396	عبد الحميد	صالح سيد		حلب حارم
397	عبد الحميد	محمد		حلب معرة النعمان
398	عبد الحميد	محمد خابر		حلب ادلب
399	عبد الحميد	محمد عبدو		حلب ادلب
400	عبد الرحمن	أحمد		حلب
401	عبد الرحمن	حجي صالح		حلب ادلب
402	عبد الرحمن	حجي يوسف		حلب ادلب
403	عبد الرحمن	شعبان		حلب
404	عبد الرحمن	طالب		حلب
405	عبد الرحمن	محمد		حلب
406	عبد الرحمن	مصطفى		حلب
407	عبد الرحمن	مصطفى		حلب
408	عبد الرحيم	عبد الرزاق		حلب حارم
409	عبد الرحيم	حجي صالح		حلب ادلب
410	عبد العزيز	حسين		حلب
411	عبد العزيز	عز الدين	سلوم اوغلاري	حلب معرة النعمان
412	عبد الغني	محمد عبدو عليا		حلب حارم
413	عبد الغني	مصطفى		حلب
414	عبد القادر	إبراهيم صباغ		حلب الباب
415	عبد القادر	أحمد		حلب معرة النعمان
416	عبد القادر	حجي مصطفى		حلب حارم
417	عبد القادر	حسن اغا خميسي		حلب الباب
418	عبد القادر	حسين		حلب حار
419	عبد القادر	حمو		حلب الباب
420	عبد القادر	سالم		حلب ادلب
421	عبد القادر	سيد أحمد		حلب معرة النعمان
422	عبد القادر	شيخو		حلب معرة النعمان
423	عبد القادر	صالح نيازي		حلب
424	عبد القادر	عبد الله		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
425	عبد القادر	عبد الله		حلب
426	عبد القادر	علي بدري		حلب
427	عبد القادر	محمد صباغ		حلب
428	عبد القادر	محمد ظلام		حلب
429	عبد القادر	محمد قيشاني		حلب ادلب
430	عبد القادر	مرشد		حلب معرة النعمان
431	عبد القادر	مصطفى إبراهيم		حلب الباب
432	عبد القادر	نمير		حلب ادلب
433	عبد القادر	ولي		حلب ادلب
434	عبد القادر	أحمد		حلب
435	عبد القادر سياحي	حجي عمر		حلب
436	عبد الكريم	قاسم		حلب
437	عبد اللطيف	حجي محمد		حلب
438	عبد اللطيف	عبد الرزاق عبد الله		حلب حارم
439	عبد اللطيف	عبد الله	عيسى اوغلاري	حلب
440	عبد اللطيف	محمد هاشم		حلب
441	عبد الله	إبراهيم صباغ		حلب
442	عبد الله	حسين حسين دانجا		حلب
443	عبد الله	خليل		حلب حارم
444	عبد الله	صالح		حلب
445	عبد الله	عبد الرحمن		حلب
446	عبد الله	علي بدري		حلب
447	عبد الله	علي عجمي		حلب ادلب
448	عبد الله	عمر		حلب
449	عبد الله	محمد		حلب
450	عبد الله	محمد ايفاج		حلب معرة النعمان
451	عبد الله	محمد حجي		حلب
452	عبد الله	محمد ساغي		حلب
453	عبد الله أبو حمزة	أحمد		حلب
454	عبد الله تحسين	علي		حلب
455	عبد الهادي	حسين		حلب حارم
456	عبد الهادي	سليمان		حلب ادلب
457	عبد الواحد	علي		حلب الباب
458	عبد الوهاب	أحمد حمدي		حلب
459	عبد الوهاب	أحمد حوت		حلب معرة النعمان
460	عبد الوهاب	صمود		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
461	عبد الوهاب	قارسي		حلب
462	عبد الوهاب	محمد زكور		حلب الباب
463	عبدو	جعفر		حلب حارم
464	عبدو	عبد اللطيف		حلب جبل سمعان
465	عبدو	عبد الله		حلب حارم
466	عبدو	عبد الله		حلب معرة النعمان
467	عبدو	حاجي	إبراهيم محمد بيك اوغلاري	حلب الباب
468	عبدو خليل	شاطير دوغانجي		حلب
469	عبدو خليل	محمد يحيى		حلب ادلب
470	عبدي	بكر		حلب
471	عبدي	حسن		حلب جبل سمعان
472	عبود	مصطفى		حلب الباب
473	عثمان	أحمد	حجي اوغلاري	حلب
474	عثمان	أحمد عثمان		حلب الباب
475	عثمان	أحمد نظيف		حلب الباب
476	عثمان	اسعد	حجي بكري اوغلاري	حلب
477	عثمان	حجي بكر اسعد		حلب
478	عثمان	عبد القادر		حلب ادلب
479	عثمان افندي	حسن		حلب
480	عثمان حسين	عثمان		حلب
481	عثمان شمروح	محمد		حلب حارم
482	عرب عبدي	صالح		حلب
483	عزت	محمد		حلب جبل سمعان
484	عقيل	غنوم		حلب الباب
485	عقيل	فرج		حلب
486	علي	إبراهيم	قوجة عرب اوغلاري	حلب ادلب
487	علي	إبراهيم		حلب ادلب
488	علي	أحمد		حلب حارم
489	علي	أرماشتا		حلب
490	علي	حجي محمد		حلب
491	علي	حجي محمد		حلب جسر الشغور
492	علي	حسن		حلب
493	علي	حمام		حلب ادلب
494	علي	حمدي مرجان		حلب الباب
495	علي	حمو		حلب حارم
496	علي	دايو		حلب
497	علي	صادق		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
498	علي	عبد الفتاح		حلب جبل سمعان
499	علي	عبد الله		حلب الباب
500	علي	عبد الله		حلب
501	علي	عمر		حلب
502	علي	كارا حسن		حلب الباب
503	علي	محمد		حلب
504	علي	محمد	علي عبيدو اوغلاري	حلب ادلب
505	علي	محمد		حلب
506	علي	محمد إيفاس		حلب
507	علي	محمد خليل		حلب معرة النعمان
508	علي	محمد علي فلاحة		حلب الباب
509	علي	محمد قارنلي		حلب الباب
510	علي	محمد ميحاتي		حلب
511	علي	مصطفى		حلب الباب
512	علي	موسى	جيتا اوغلاري	حلب
513	علي	هادي		حلب
514	علي	يوسف		حلب حارم
515	علي	يوسف		حلب ادلب
516	علي افندي	حسن		حلب
517	علي حسن	حميد أحمد		حلب الباب
518	علي مصطفى	إبراهيم		حلب جسر الشغور
519	عمر	أحمد		حلب جبل سمعان
520	عمر	أحمد		حلب جبل سمعان
521	عمر	أحمد زير		حلب ادلب
522	عمر	أحمد علي		حلب جسر الشغور
523	عمر	أحمد قاسم		حلب
524	عمر	حجي محمود		حلب ادلب
525	عمر	حسن بكر		حلب حارم
526	عمر	رمضان		حلب الباب
527	عمر	صمد		حلب حارم
528	عمر	عبد الرشاد		حلب جسر الشغور
529	عمر	قدور مشعل		حلب حارم
530	عمر	محمد		حلب حارم
531	عمر	محمد		حلب
532	عمر	محمد عازم		حلب ادلب
533	عمر	محمود كيتو		حلب جسر الشغور
534	عمر	مصطفى		حلب حارم
535	عمر	يوسف باه		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
536	عمر افندي	محمد حمشو		حلب حارم
537	عمر قدور	قياميش		حلب ادلب
538	عيد	محمد		حلب
539	عيسى	درويش		حلب
540	عيسى	مصطفى		حلب
541	*غاني	شعبان		حلب
542	غريب افندي	توفيق		حلب
543	فارس	محمد		حلب ادلب
544	فاضل	أحمد		حلب
545	فاضل	محمد		حلب ادلب
546	فايق	توفيق		حلب
547	قادير	اسماعيل		حلب
548	قادير	اياد		حلب معرة النعمان
549	قادير	أحمد		حلب حارم
550	قادير ميليس	حجي محمد		حلب
551	قاسم	أحمد الموسى		حلب ادلب
552	قاسم	محمد		حلب ادلب
553	قاسم	محمد ديبان		حلب ادلب
554	قاسم	مصطفى		حلب الباب
555	قاسم	موسى		حلب
556	قاسم	يوسف		حلب ادلب
557	قاق مصطفى	اسماعيل		حلب ادلب
558	قداد	قدور		حلب معرة النعمان
559	قدور	حجي علي دجاجة		حلب
560	قدور	منصور مصطفى		حلب الباب
561	كامل	حجي محمد		حلب
562	كامل	شعبان		حلب
563	* كانبولات	حجي رجب آغا		حلب الرقة
564	ماميش	حجي عمر		حلب
565	محمد	إبراهيم	عبدو موز اوغلاري	حلب الباب
566	محمد	إبراهيم		حلب جبل سمعان
567	محمد	إبراهيم		حلب
568	محمد	إبراهيم كريم		حلب ادلب
569	محمد	أحمد		حلب ادلب
570	محمد	أحمد		حلب
571	محمد	أحمد		حلب
572	محمد	أحمد		حلب حارم
573	محمد	أحمد		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
574	محمد	أحمد		حلب ادلب
575	محمد	أحمد بدلي		حلب ادلب
576	محمد	أحمد حبال		حلب ادلب
577	محمد	أحمد حورا		حلب
578	محمد	أحمد داكول		حلب
579	محمد	أحمد سودان		حلب ادلب
580	محمد	أحمد شريف		حلب
581	محمد	أحمد طيار		حلب ادلب
582	محمد	أحمد فاعور		حلب
583	محمد	أحمد كورلو		حلب ادلب
584	محمد	أحمد لالا		حلب ادلب
585	محمد	ارسلان		حلب
586	محمد	اسعد		حلب ادلب
587	محمد	بكر		حلب
588	محمد	بكر جيلو جمال		حلب
589	محمد	بكر نداف		حلب
590	محمد	بكور		حلب الباب
591	محمد	بكور كامل		حلب حارم
592	محمد	بنهان		حلب جبل سمعان
593	محمد	تامر		حلب
594	محمد	جمعة		حلب حارم
595	محمد	جمعة		حلب جبل سمعان
596	محمد	حجي أحمد		حلب
597	محمد	حجي أحمد		حلب
598	محمد	حجي اسماعيل		حلب معرة النعمان
599	محمد	حجي دلال		حلب
600	محمد	حجي عبدي		حلب
601	محمد	حجي علي طاهر		حلب ادلب
602	محمد	حجي عمر		حلب
603	محمد	حجي عمر		حلب
604	محمد	حجي عمر سنجار		حلب
605	محمد	حجي محمد	فاضل اوغلاري	حلب ادلب
606	محمد	حجي محمد		حلب
607	محمد	حجي محمد		حلب
608	محمد	حجي محمد		حلب
609	محمد	حسن		حلب
610	محمد	حسن		حلب الباب
611	محمد	حسن		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
612	محمد	حسن		حلب
613	محمد	حسن اسكيف		حلب جبل سمعان
614	محمد	حسن آغا		حلب حارم
615	محمد	حسين		حلب
616	محمد	حسين		حلب
617	محمد	حسين ريحاوي		حلب
618	محمد	حسين عباس		حلب ادلب
619	محمد	حمودي	حمود اوغلاري	حلب الباب
620	محمد	حيدر		حلب جبل سمعان
621	محمد	حيدر بحاري غزال		حلب
622	محمد	خلف		حلب معرة النعمان
623	محمد	خليل		حلب
624	محمد	درويش		حلب حارم
625	محمد	ديدي		حلب
626	محمد	رشيد		حلب جبل سمعان
627	محمد	رندان		حلب
628	محمد	ساجد		حلب
629	محمد	سليمان		حلب الباب
630	محمد	سيد		حلب
631	محمد	شوكت		حلب
632	محمد	شيخ عمر		حلب معرة النعمان
633	محمد	طاهر		حلب جبل سمعان
634	محمد	طاهر كاسكين		حلب معرة النعمان
635	محمد	عاتوقي حجي حمدو		حلب
636	محمد	عبجي		حلب جسر الشغور
637	محمد	عبد الحق		حلب ادلب
638	محمد	عبد الرحمن		حلب
639	محمد	عبد الرحمن		حلب
640	محمد	عبد الرحيم		حلب الباب
641	محمد	عبد الرحيم رزاق		حلب حارم
642	محمد	عبد القادر		حلب
643	محمد	عبد الله		حلب
644	محمد	عبد الله		حلب حارم
645	محمد	عبدو		حلب
646	محمد	عبدو	محمد عبدو اوغلاري	حلب ادلب
647	محمد	عبدي		حلب
648	محمد	عثمان		حلب جسر الشغور
649	محمد	عز الدين عيسى		حلب الباب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
650	محمد	عقلولال		حلب الباب
651	محمد	عكاش		حلب حارم
652	محمد	علي		حلب الباب
653	محمد	علي		حلب
654	محمد	علي		حلب
655	محمد	علي		حلب
656	محمد	علي		حلب الباب
657	محمد	علي		حلب
658	محمد	علي عاصي		حلب حارم
659	محمد	عمر		حلب حارم
660	محمد	عمر فجر		حلب ادلب
661	محمد	فرج محمد		حلب ادلب
662	محمد	قاسم		حلب
663	محمد	قدور		حلب
664	محمد	محمد		حلب ادلب
665	محمد	محمد		حلب
666	محمد	محمد		حلب حارم
667	محمد	محمد		حلب
668	محمد	محمد		حلب
669	محمد	محمد بدوي		حلب ادلب
670	محمد	محمد بشير		حلب ادلب
671	محمد	محمد تيواره		حلب
672	محمد	محمد دسوهي		حلب ادلب
673	محمد	محمد عكوش		حلب
674	محمد	محمد علي		حلب ادلب
675	محمد	محمد علي		حلب ادلب
676	محمد	محمد علي		حلب جبل سمعان
677	محمد	محمد علي		حلب الباب
678	محمد	محمد غوروش		حلب
679	محمد	محمد قرهيلي		حلب
680	محمد	محمد هوداجي		حلب
681	محمد	محمود		حلب
682	محمد	محمود		حلب جبل سمعان
683	محمد	محمود		حلب ادلب
684	محمد	محمود		حلب ادلب
685	محمد	محمود		حلب
686	محمد	محمود عمر علي باشا		حلب ادلب
687	محمد	محوك	بكر اوغلاري	حلب حارم

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
688	محمد	مراد		حلب معرة النعمان
689	محمد	مصطفى		حلب
690	محمد	مصطفى		حلب
691	محمد	مصطفى		حلب ادلب
692	محمد	مصطفى	دباغ اوغلاري	حلب حارم
693	محمد	مصطفى		حلب
694	محمد	مصطفى		حلب ادلب
695	محمد	مصطفى		حلب ادلب
696	محمد	مصطفى		حلب
697	محمد	مصطفى		حلب
698	محمد	مصطفى	شراق الزيت اوغلاري	حلب الباب
699	محمد	مصطفى		حلب الباب
700	محمد	مصطفى		حلب الباب
701	محمد	مصطفى		حلب جبل سمعان
702	محمد	مصطفى		حلب جسر الشغور
703	محمد	مصطفى سيدي		حلب
704	محمد	مصطفى عثمان		حلب الباب
705	محمد	مصطفى قصاب		حلب
706	محمد	مصطفى لبيدي		حلب
707	محمد	معزوز		حلب
708	محمد	منصور		حلب حارم
709	محمد	موسى		حلب ادلب
710	محمد	همة		حلب
711	محمد	ياسين قرمو		حلب جبل سمعان
712	محمد	يوسف		حلب ادلب
713	محمد	يوسف		حلب الباب
714	محمد	يوسف		حلب جسر الشغور
715	محمد	يوسف حمدان		حلب الباب
716	محمد	يوسف سيقلو		حلب ادلب
717	محمد	يوسف مأذون		حلب ادلب
718	محمد	يوسف مراد		حلب ادلب
719	محمد إبراهيم	رجب		حلب ادلب
720	محمد اسكيف	مصطفى		حلب
721	محمد افندي	أحمد		حلب
722	محمد افندي	اسماعيل		حلب ادلب
723	محمد افندي	حجي أحمد		حلب
724	محمد افندي	كامل		حلب
725	محمد امين	شيخ خليل		حلب الباب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
726	محمد امين	عمر		حلب حارم
727	محمد بشير	حسين		حلب
728	محمد بكري	جلو جمال		حلب
729	محمد ثابت افندي	أحمد		حلب
730	محمد جبار	مصطفى		حلب
731	محمد جدويه	حسن		حلب
732	محمد جمعة	أحمد		حلب الباب
733	محمد جمعة	عبدي		حلب
734	محمد جواد	عبود		حلب
735	محمد حابير	عمر زبيدة		حل ادلب
736	محمد حجازي	محمد		حلب ادلب
737	محمد حنيفي	أحمد		حلب الباب
738	محمد خميس	كارو محمود		حلب الباب
739	محمد خيري	حسن		حلب معرة النعمان
740	محمد ديب	مؤيد درويش		حلب ادلب
741	محمد زيا بيك	أحمد		حلب
742	محمد زيرماني	هون		حلب
743	محمد زين الدين	محمد علي		حلب ادلب
744	محمد زينو	مصطفى		حلب الباب
745	محمد سالم	هلال ترك		حلب ادلب
746	محمد سيد	أحمد التنجي		حلب
747	محمد سيد	حجي صالح		حلب جبل سمعان
748	محمد شريف	محمد شريف		حلب
749	محمد شفيق	محمد خير		حلب
750	محمد صالح	عبد المجيد		حلب
751	محمد صالح	كاسكين		حلب
752	محمد صبري افندي	محمد		حلب
753	محمد صوفي افندي	---------		حلب
754	محمد عابد	محمد		حلب
755	محمد عجاج	محمد عجاج		حلب ادلب
756	محمد علي	اسماعيل جوان		حلب ادلب
757	محمد علي	حسن		حلب الباب
758	محمد علي	حسن نفعي		حلب الباب
759	محمد علي	حسين برغوث		حلب الباب
760	محمد علي	سليمان		حلب معرة النعمان

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
761	محمد علي	شيخ		حلب ادلب
762	محمد علي	قدور		حلب الباب
763	محمد علي	محمد		حلب ادلب
764	محمد علي	محمد		حلب ادلب
765	محمد علي افندي	عارف		حلب
766	محمد عمر	محمد		حلب الباب
767	محمد فاعور	محمد		حلب اد
768	محمد قاسم	محمد خليل		حلب الباب
769	محمد كامل	حجي سيد		حلب حارم
770	محمد كمال	محمد		حلب
771	محمد محمود	عيسى فوزي		حلب ادلب
772	محمد مرعي	علي محمد مرعي		حلب
773	محمد مصري	حجي سليمان		حلب جبل سمعان
774	محمد مصري	حجي سليمان		حلب ادلب
775	محمد مهدي	شيخ علي		حلب جبل سمعان
776	محمد نوار	أحمد مصطفى درويش		حلب الباب
777	محمد نور الدين	حجي محمد		حلب
778	محمد نور الله	محمد		حلب
779	محمد نوري	فيروز		حلب
780	محمد نوري	محمد		حلب
781	محمد نوري	مصطفى		حلب الباب
782	محمد نوري افندي	سالم		حلب
783	محمد هاشم	وحيد ميفوق		حلب ادل
784	محمد هورو	حلي عثمان		حلب حارم
785	محمود	أحمد		حلب
786	محمود	أحمد		حلب
787	محمود	ارسلان		حلب
788	محمود	بكر		حلب
789	محمود	بكر		حلب
790	محمود	بكر ضاني		حلب ادلب
791	محمود	بكري		حلب جسر الشغور
792	محمود	حجي أحمد جمال		حلب
793	محمود	حجي مصطفى		حلب
794	محمود	حسن الكنجور		حلب
795	محمود	خطيب حميديوت		حلب الباب
796	محمود	خليل		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
797	محمود	ديبو		حلب ادلب
798	محمود	سليمان		حلب
799	محمود	شريف		حلب
800	محمود	عبد الله		حلب ادلب
801	محمود	عبدي عيسى		حلب ادلب
802	محمود	علي	فاتح اوغلاري	حلب ادلب
803	محمود	عمر		حلب
804	محمود	قدور		حلب
805	محمود	قدور اسكيف		حلب
806	محمود	محمد		حلب
807	محمود	محمد		حلب ادلب
808	محمود	محمد حمو		حلب
809	محمود	محمد خضر		حلب
810	محمود	محمد دخان		حلب
811	محمود	محمد صبري		حلب
812	محمود	مصطفى		حلب
813	مخبر	أحمد زير		حلب ادلب
814	مراد	أحمد علي		حلب
815	مراد	موسى	قوضي اوغلاري	حلب
816	مسلم	ايوب		حلب الباب
817	مسلم	خليل		حلب
818	مشعل	يوسف		حلب معرة النعمان
819	مصطفى	إبراهيم		حلب جسر الشغور
820	مصطفى	إبراهيم		حلب ادلب
821	مصطفى	أحمد		حلب ادلب
822	مصطفى	أحمد		حلب
823	مصطفى	أحمد	خطيب اوغلاري	حلب جبل سمعان
824	مصطفى	أحمد اوران		حلب
825	مصطفى	أحمد صالح اماك		حلب ادلب
826	مصطفى	اسعد		حلب معرة النعمان
827	مصطفى	اسعد دعبول		حلب معرة النعمان
828	مصطفى	بكور		حلب معرة النعمان
829	مصطفى	حجي أحمد		حلب ادلب
830	مصطفى	حجي أحمد ديكور		حلب حارم
831	مصطفى	حسن		حلب ادلب
832	مصطفى	حسين		حلب حارم
833	مصطفى	حسين		حلب
834	مصطفى	حسين		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
835	مصطفى	حمدي		حلب
836	مصطفى	حميد		حلب
837	مصطفى	حميد السفاري		حلب
838	مصطفى	خطيب أحمد		حلب جبل سمعان
839	مصطفى	خليل		حلب الباب
840	مصطفى	خليل		حلب
841	مصطفى	راغب		حلب
842	مصطفى	رحمان		حلب معرة النعمان
843	مصطفى	سليمان	امير حسين اوغلاري	حلب ادلب
844	مصطفى	شريف		حلب
845	مصطفى	شيخ علي قاسم		حلب الباب
846	مصطفى	شيخ غوريلي		حلب الباب
847	مصطفى	طه		حلب
848	مصطفى	عباس		حلب
849	مصطفى	عبد الرحمن		حلب ادلب
850	مصطفى	عبد السلام		حلب حارم
851	مصطفى	عبد القادر		حلب ادلب
852	مصطفى	عبد القادر		حلب ادلب
853	مصطفى	عثمان زين الدين		حلب ادلب
854	مصطفى	علي		حلب الباب
855	مصطفى	علي		حلب
856	مصطفى	علي		حلب
857	مصطفى	علي تونة		حلب
858	مصطفى	عمر		حلب ادلب
859	مصطفى	عمر		حلب
860	مصطفى	عواد		حلب
861	مصطفى	محمد		حلب جسر الشغور
862	مصطفى	محمد		حلب جبل سمعان
863	مصطفى	محمد		حلب
864	مصطفى	محمد		حلب
865	مصطفى	محمد		حلب
866	مصطفى	محمد		حلب ادلب
867	مصطفى	محمد		حلب ادلب
868	مصطفى	محمد		حلب
869	مصطفى	محمد		حلب
870	مصطفى	محمد اشكار		حلب معرة النعمان
871	مصطفى	محمد زيدان		حلب
872	مصطفى	محمد سيد		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
873	مصطفى	محمد شومان	إبراهيم اوغلاري	حلب الباب
874	مصطفى	محمد علي		حلب معرة النعمان
875	مصطفى	محمد نور		حلب
876	مصطفى	محمود كيتو		حلب ادلب
877	مصطفى	مرعي		حلب معرة النعمان
878	مصطفى	مصطفى		حلب
879	مصطفى	هاشم		حلب حارم
880	مصطفى	هاشم		حلب
881	مصطفى اسعد	دعبول		حلب معرة النعمان
882	مصطفى افندي	محمد		حلب
883	مصطفى العجور	علي مولود		حلب حارم
884	مصطفى باختيار	إبراهيم		حلب حارم
885	مصطفى حمدي	عبد الله		حلب الباب
886	مصطفى رجب	عبد الله		حلب
887	مصطفى عثمان	بدر الدين		حلب ادلب
888	مصطفى عساف	محمد		حلب
889	مطر	محمد		حلب الباب
890	معراج	سيد		حلب معرة النعمان
891	معراج	محمد		حلب
892	معروف	قادير		حلب حارم
893	منيب	محمد		حلب
894	مهدي امام	درويش جاسم		حلب
895	موسى	محمد		حلب ادلب
896	ميرا	حجي حسن		حلب
897	ميرا	ديب مصري		حلب ادلب
898	ميرا	محرز		حلب حارم
899	ناجي	حسن		حلب معرة النعمان
900	ناجي	محمد		حلب
901	ناصر	حجي محمد		حلب
902	نايش	علي		حلب جسر الشغور
903	نايف	ابو ايشام		حلب جبل سمعان
904	نايف	صالح		حلب
905	نجيب	بكر		حلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
906	نجيب	عبد الغني		حلب حارم
907	نعمان	عمر		حلب ادلب
908	نعمان	محمد خالد		حلب ادلب
909	نهاد	محمد رشيد		حلب حارم
910	نور الدين	محمد		حلب
911	نور الدين	محمد حايمري		حلب
912	هاشم	حسن	ياديب اوغلاري	حلب معرة النعمان
913	هاشم	طاهر	أحمد اوغلاري	حلب
914	هاشم	وحيد معشوق		حلب ادلب
915	هلال	خالد		حلب
916	هلال	هلال		حلب معرة النعمان
917	هنادي	مصطفى		حلب
918	وجهي افندي	سيد علي		حلب
919	وحيد	أحمد		حلب
920	وحيد	علي		حلب معرة النعمان
921	وحيد	محمد		حلب
922	وحيد	محمد حلوم		حلب ادلب
923	وصفي	أحمد		حلب
924	وفا	محمد	حجي اوغلاري	حلب
925	ويس	أحمد العمر		حلب الباب
926	ياسين	حجي علي		حلب
927	ياسين	حسن		حلب ادلب
928	ياسين	حسن ملاح		حلب الباب
929	ياسين	رشيد		حلب ادلب
930	ياسين	علي		حلب ادلب
931	ياسين	مصطفى قره محمد		حلب حارم
932	ياسين قاسم	مصطفى		حلب ادلب
933	يتيم	صادق سليمان		حلب
934	يحيى	محمد		حلب
935	يحيى	محمود لقمي		حلب ادلب
936	يوسف	أحمد		حلب معرة النعمان
937	يوسف	بكر		حلب معرة النعمان
938	يوسف	حجور		حلب ادلب
939	يوسف	حميد		حلب
940	يوسف	خالد حسين		حلب ادلب
941	يوسف	سيد		حلب الباب
942	يوسف	عبدي		حلب حارم
943	يوسف	عبيدير		حلب ادلب

الرقم	الاسم	اسم الأب	اللقب	المدينة
944	يوسف	عثمان		حلب
945	يوسف	عثمان شراق الزيت		حلب الباب
946	يوسف	عمر		حلب
947	يوسف	عمر		حلب
948	يوسف	عمر		حلب
949	يوسف	محمد		حلب حارم
950	يوسف	محمد		حلب
951	يوسف	محمد		حلب ادلب
952	يوسف	محمد		حلب
953	يوسف	محمد جمعة		حلب الباب
954	يوسف	محمد دعاس		حلب
955	يوسف	محمد علي	كرمش اوغولاري	حلب معرة النعمان
956	يوسف	محمود		حلب حارم
957	يوسف	محمود غريب		حلب
958	يوسف	يوسف	صارم اوغلاري	حلب حارم
959	يوسف فستق	محمد		حلب
960	يونس	نعمان		حلب

خَاتِمَةُ

يتضح مما سبق؛ أن مدينة حلب كانت ذات أهمية كبرى في بداية القرن العشرين، ففضلاً عن أهميتها التاريخية والتجارية، فقد قدمت الكثير من الشهداء خلال الحرب العالمية الأولى مما جعلها خزانًا بشريًا ساعد الدولة العثمانية في الانتصار في معركة جناقلعة، خاصةً وأن عدد الشهداء من حلب بالنظر إلى إجمالي عدد شهداء جناقلعة هو حوالي (١,٥%). وتُعَدّ هذه الدراسة الأولى من نوعها التي تسلط الضوء على هذه الحقبة الهامة من تاريخ حلب وتسرد أسماء الشهداء وأماكن ولادتهم مما يسهل البحث عن المفقودين من قبل ذويهم. كما أن هذه الدراسة تُعَدّ مرجعًا هامًا لدراسات أخرى لبحث أسباب الوفاة لهؤلاء الشهداء أو أماكن دفنهم أو أي متعلقات لهم قد تساعد على فهم طبيعة الحرب بشكل أكبر. بالإضافة إلى أن هذه الدراسة تشكل نقطة ارتكاز أساسية لدراسات أخرى اجتماعية توضح المعاناة التي عاشها ذوي الشهداء على أمل اللقاء بأولادهم في تلك الحقبة.

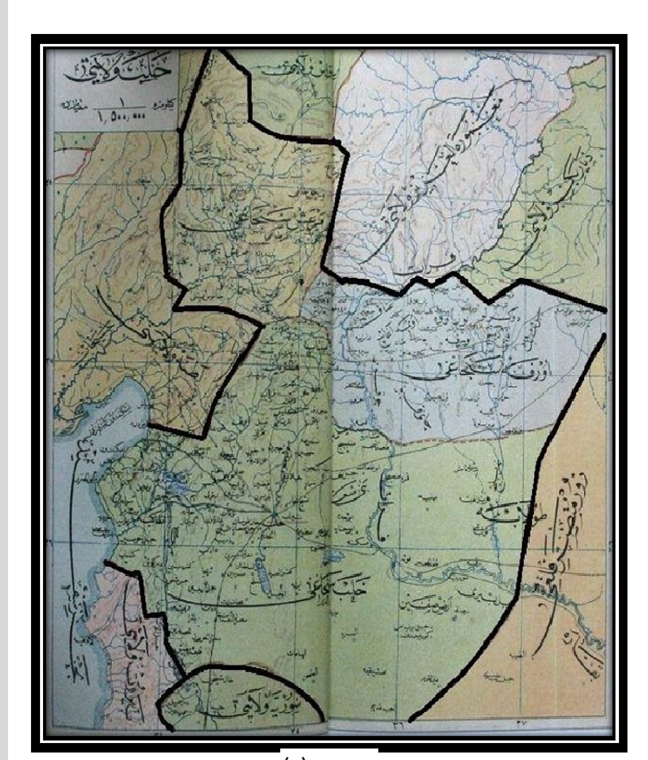
الملاحق



صورة (١)
مصطفى كمال باشا (أتاتورك) في جبهة الدردنيل

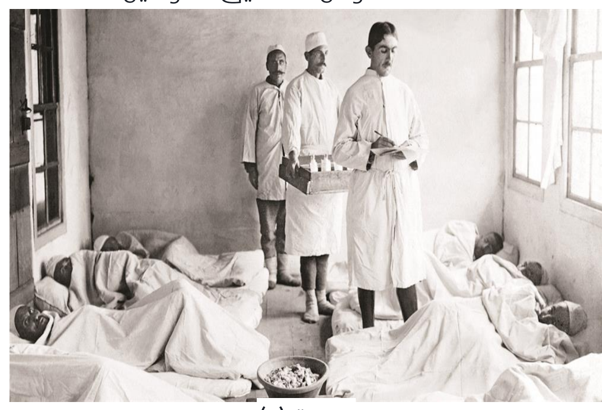

صورة (٢)
جنود في أحد الخنادق في معركة جناق قلعة


صورة (٣)
أحد المدافع التي استعملها الجيش العثماني
في معركة جناق قلعة



صورة (٤)
حدود ولاية حلب بحسب تقسيم عام ١٨٧٠


صورة (٥)
شاطئ الأمراض – مضيق الدردنيل


صورة (٦)
أحد المستشفيات الميدانية في جناق قلعة

الهَوامِشُ:

(١) خير الدين الأسدي، **موسوعة حلب المقارنة**، ٢٠٠٩، ص: ٣٥٤.
(٢) نيل هايمان، **الحرب العالمية الأولى**، ت. ر: حسن عويضة، ط١، ٢٠١٢، ص: ١٨.
(٣) المصدر السابق نفسه.
(٤)المصدر السابق نفسه.
(٥) المصدر السابق نفسه.
(٦) كامل الغزي، **نهر الذهب في تاريخ حلب**، ج٣، المطبعة المارونية، ص: ٥٣٨.
(٧) منصر زريقة، رمضان أحلامي، **دور الدولة العثمانية في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤-١٩١٨**. ١٩١٧، ص٣٠
(٨) الغزي، المصدر السابق ص: ٥٥٣-٥٥٤.
(٩) زكريا قورشون، **العثمانيون وآل سعود في الأرشيف العثماني ١٧٤٥م – ١٩١٤م**، ط١، الدار العربية للموسوعات، بيروت، ٢٠٠٥م، ص ٢٠٤.
(١٠) توماس فريدريك ولمسون، **التاريخ السياسي شمر لجربا**، ت. ر: جوزيف نادر بولص، ط١، الأهلية، بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٦٧-١٦٨.
(١١) المصدر السابق نفسه
(١٢)عمر عبد العزيز عمر، **تاريخ لبنان الحديث**، ط١، دار النهضة العربية، بيروت، ٢٠٠٤م، ص ١٧٣.
(١٣)الغزي، المصدر السابق، ص: ٥٦١.
(١٤) الغزي، المصدر السابق، ص: ٦٢٦.
(١٥)محمد فؤاد عنتابي & نجوى عثمان، **حلب في مئة عام ١٨٥٠- ١٩٥٠**، ج٢، ١٩٩٣، ص: ١٤٤.
(١٦) آدمز، المصدر السابق، ص: ٤٠.
(١٧)حسن علي عبد الله & بان راوي شلتاغ، **التقسيمات الإدارية لولاية حلب ١٨٦٦ – ١٩١٨**، مركز بابل للدراسات، ٢٠١٥.
(١٨) المصدر السابق نفسه.
(١٩)حسام النايف، **لواء اسكندرونة حكاية وطن سلب عنوة**، ٢٠١٣، الهيئة العامة السورية للكتاب، ص: ١٥
(٢٠)**سالنامة حلب ١٣١٨ هجري**، مطبعة ولاية حلب، ١٩٠٠، ص: ٣٦٧
(٢١)**موقع مديرية الشهداء التركية** *http://uyg.tsk.tr/SehitYakini_Kullanici/amackapsam.aspx?fbclid=IwAR1GDsia2bnTHmLTPcOwH1t42R5uUu-YNbNHY_wx5V3gP7aPoJg3vyr3d00* تم الاطلاع عليه بتاريخ ١٥,١٠,٢٠١٨
(٢٢) الغزي، المصدر السابق، ص: ٥٣٧.
(٢٣) موقع مديرية الشهداء التركية، المصدر السابق.
(٢٤)موقع مديرية الشهداء التركية، المصدر السابق.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

نفط السودان في خارطة التنافس الدولي

١٩٩٩ – ٢٠١١



أ.م.د. ذاكر محي الدين عبد الله
أستاذ مساعد تاريخ حديث
قسم التاريخ – كلية الآداب
جامعة الموصل – جمهورية العراق

مُلَخّصْ

لابد من إيضاح أهمية نفط السودان الاستراتيجية، وأبرز ميزاته، إذ أشارت المعلومات الإحصائية الدولية إلى أنه يسبح في بحر من النفط، فبلغ الاحتياطي المؤكد ٦,٨ مليار برميل، ومليار متر مكعب من الغاز في عام ٢٠١٠. كان أول تدشين للتنقيب عن النفط، في آب ١٩٥٩، وفي عام١٩٨١ أعلنت شركة شيفرون عن اكتشافها حوض نفطي في هجليج، وكانت تقديراتها أن تبدأ إنتاج وتصدير النفط في عام ١٩٨٦، إلا أن اندلاع الحرب في الجنوب عام ١٩٨٣ حال دون ذلك. على أية حال، أثمرت الجهود المبذولة في السودان إلى الإنتاج والتصدير، وهو ما تحقق في عهد حكومة الإنقاذ (١٩٨٩–٢٠١٩)، والتي شهد عهدها تدهورًا ملحوظًا في علاقاتها مع الولايات المتحدة التي انتهجت ضدها سياسة المواجهة، واتهمتها بانتهاك حقوق الإنسان وبالمسؤولية عن استمرار الحرب الأهلية...، وقدمت دعمها السياسي والعسكري للتجمع المعارض لها بزعامة جون قرنق، وبذلك تكون أمريكا، وشركاتها النفطية هي التي شجعت على إبقاء النزاع في الجنوب، ولم يكن لها ما يبرره، إلا وجود النفط. وكانت الصين قد ظهرت في أواخر القرن العشرين كقوة اقتصادية كبرى في العالم، واشتركت مع الولايات المتحدة كأكبر مستهلكين للنفط، ولمواجهة حاجتها المتزايدة للطاقة اعتمدت البحث عن حصص في الحقول النفطية خارج حدودها عن طريق المشاركة أو الشراء أو التنقيب، في العديد من دول أفريقيا، ومن بينها السودان، وبدأت أول عمليات تحميل النفط في يوم الاثنين ٣٠ آب/ أغسطس ١٩٩٩ في الباخرة ثيوتيكوس، والتي غادرته إلى سنغافورة في اليوم التالي، محملة بما يقارب ٦١٥ ألف برميل من مزيج النيل. لقد تخوفت واشنطن من التمدد الصيني، ومن الوفرة المالية التي أمنتها عائدات النفط للسودان، والذي كان يواجه حربًا في الجنوب، وتوجهها شبه الكلي نحو الصين، التي وفرت لها التكنولوجيا والتمويل والسلاح الذي تحتاجه في مواجهة تلك الحرب. وبذلك أصبح النفط سببا لتدويل أزماته، بدخول أهم لاعبين دوليين: الصين التي استخرجت وصدرت، والولايات المتحدة التي نقبت وكشفت عنه، ولم تستفد منه، وسارعت إلى قراءة فداحة تأثيره في أحداث فجوة في التوازن الاستراتيجي بين الحكومة والمعارضة التي غدت عاجزة عن تحقيق نصر عسكري عليها.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٨ يناير ٢٠١٨
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ أبريل ٢٠١٨

كلمات مفتاحية:

النفط السوداني، الحكومة السودانية، الإدارة الأمريكية، إنتاج النفط، الصين

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055412

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

ذاكر محي الدين عبد اللّه. "نفط السودان في خارطة التنافس الدولي ١٩٩٩ – ٢٠١١".- دورية كان التاريخية.- السنة الثانية عشرة- العدد الرابع والأربعون؛ يونيو ٢٠١٩. ص ٢١٩ – ٢٤٠.

مُقَدِّمَةٌ

صدّر السودان نفطه ولأول مرة في تاريخه في عام١٩٩٩، فدخل على اثر ذلك سريعًا ولأكثر من عقد كامل (١٩٩٩-٢٠١١) في مجمل خارطة التنافس الدولي كجزء من أهمية النفط الأفريقي حوله من لدن الولايات المتحدة الأمريكية والصين، الدولتان اللتان سعيا للحفاظ على مصالحهما النفطية في أفريقيا بعامة وفي السودان بخاصة، ولاسيما وأن شركات الأولى اكتشفت النفط ولم تستخرجه، وشركات الثانية قامت بإنتاجه وتصديره، ما أدى إلى تزايد المنافسة بينهما عليه، مستغلين الحاجة للنفط للاستفادة من وارداته

في التنمية، وفي التصدي للأزمات الداخلية التي تواجهه.

وكان الحافز لكتابة هذا البحث: حوار أجريته مع الأستاذ الدكتور بابكر باشا المؤرخ السوداني في بغداد صيف عام ٢٠٠٢، وكان عن سعي الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين للحيلولة دون تحول السودان إلى دولة نفطية. ومع أني لم أستطع تأكيد هذه المعلومة أو نفيها، إلا أني ومن ثنايا هذا البحث اكتشفت إلى حد ما، خطورة سعي السودان لامتلاك النفط على وحدة أراضيه واستقراره، وهو ما تحقق لاحقا، في انفصال جنوب السودان عام ٢٠١١. فضلاً عما شهده السودان ومنذ مطلع القرن الحالي من مشاكل، وعدم استقرار، واقتتال داخلي في بقاع مختلفة، وفي مقدمتها دار فور.

اعتمدت هذه الدراسة المنهج التاريخي التحليلي، الذي يعتمد البيانات الاقتصادية، والمعطيات الجيو-ستراتيجية في التحليل واستنباط النتائج. هناك دراسات عن النفط الأفريقي، وأهميته بالنسبة للصين والولايات المتحدة الأمريكية، واعتقد لا توجد دراسة مشابه عن أهمية نفط السودان في التنافس الدولي وأثره عليه، شعبًا، ودولة.

أولاً: حملات استكشاف واستثمار نفط السودان

التقارير الأولى التي صدرت في عشرينيات القرن العشرين أكدت عدم وجود النفط فيه بعد إخفاق المحاولات الأولى للتنقيب عنه في منطقة ساحل البحر الأحمر في عام ١٩١٨ والتي قام بها وفد الحكومة البريطانية المكون من الجيولوجيان (جراهام وطمسون)، وتكررت المحاولة بين عامي ١٩٣٣-١٩٣٤ دون جدوى، ومع ذلك استمرت محاولات التنقيب من لدن شركات أخرى وحتى عام ١٩٥١ دون أن تعثر على النفط.[١]

وكان أول تدشين للتنقيب بعد الاستقلال عام ١٩٥٦ إبان مدة الحكم العسكري الأول الذي حكم بين عامي(١٩٥٨-١٩٦٤)[٢]، عندما قامت شركة أجب (AGIB) الإيطالية في آب١٩٥٩بأولى عمليات التنقيب في ساحل البحر الأحمر، والتي تمكنت من العثور على بعض الشواهد النفطية والغازية في بئري دوارة ومرافيد، ثم منحت الحكومة في عام ١٩٦٠ شركة كاليفورنيا الأمريكية للتنقيب في بقعة مساحاتها٥٦٠٠ كلم٢، كما قامت الحكومة بالاتفاق مع شركة رويال دتش شل للنفط(Royal Dutch Shell) بإنشاء مصفى بورتسودان كأول مصفى للنفـط دخـل الخدمة فعليًا في عام١٩٦٤[٣]،وفي كانون الثاني/ يناير١٩٦٧حصلت شركة دقنة- وهي شركة سودانية كويتية أمريكية- على التنقيب في مساحة ١١٢٠٠كلم٢، وأعقبـــــها حصول شركة النفط البريطانية برتش برتوليوم (British Petroleum[BP]) على ترخيص للقيام باستطلاعات جيولوجية في الصحراء الشمالية الغربية، وفي عام ١٩٦٨ منحت الحكومة ترخيصًا جديدا لشركة كونتنال للنفط (Conoco) الأمريكية لعمل مسوح جوية في الصحراء الشمالية الغربية لتغطية مساحة أربعون ألف ميل مربع، والتي عدت أكبر مساحة منحت لشركة تنقيب عن النفط وقتئذٍ، لم تسفر هذه العمليات عن نتائج مهمة.[٤]

وعندما تولى الحكم العسكري الثاني (١٩٦٩-١٩٨٥) السلطة بعد انقلاب (ثورة) ٢٥ أيار/ مايو١٩٦٩، توجه قادته أول عهدهم نحو الصين، وبحث أبان زيارته الأولى لها في عام ١٩٧٠ الرئيس جعفر نميري[٥]مع مسؤوليها ملفات استخراج النفط، واتفق على ارسال٥٠ خبيرًا لإجراء الدراسات اللازمة وقامت فرقتين صينيتين مختصتين بإجراء المسوحات في مناطق التنقيب، إلا أن أسبابًا عديدة حالت دون حدوث تقدم يذكر آنذاك منها: توتر علاقات السودان مع الدول الشيوعية أثر الانقلاب الشيوعي الفاشل في ١٩تموز/ يوليو١٩٧١ والاطاحة المؤقتة بالرئيس نميري ومن ثَمَّ عودته إلى السلطة وقيامه بقمع نشاط الشيوعيين، ما أثر على العلاقات مع هذه الدول ومنها الصين، وضعف تقنياتها وإمكانياتها التنقيبية والإنتاجية، وعدم حاجتها الملحة للنفط المستورد، لأنها لم تكن قد أصبحت مصاف الدول الصناعية المستهلكة للنفط آنذاك[٦]، فضلاً عن توجه الرئيس نميري نحو الغرب بعد عودته إلى السلطة في الانقلاب المضاد في ٢٢ تموز/ يوليو ١٩٧١،وهو ما سمح للولايات المتحدة بتوسيع استثماراتها النفطية فيه، ولاسيما بعد سلسلة الإجراءات القانونية ومن بينها إصدار قانون الثروة النفطية لعام ١٩٧٢ الذي فسح المجال أمام النشاط الاستثماري الأجنبي في السودان.[٧]

ومما ساعد على ذلك انتهاء التمرد في الجنوب[٨]، وبمساعدة الولايات المتحدة التي وفرت الدعم لعقد اتفاقية أديس أبابا في عام١٩٧٢ بين الحكومة السودانية والمتمردين[٩]، ما أتاح حقبة من الاستقرار فسح المجال أمام الاستثمارات الأجنبية وسهل للحكومة عقد مجموعة من الاتفاقيات مع شركات عالمية في عامي١٩٧٤-١٩٧٥،منها: شركة (وول اند كوليبتر) البريطانية في شباط/ فبراير١٩٧٤ للاستكشاف في البحر الأحمر، وشركة أوشانك للتنقيب جنوب مدينة

سواكن، شركة شيفرون(Chevron) والتي منحت في١٤ تشرين الأول/ أكتوبر١٩٧٤ ترخيصًا للتنقيب في المنطقة القريبة من الحدود مع أرتيريا حتى شمال بورتسودان في البحر الأحمر وفي الجنوب الأوسط، وهو ما مكنها من جمع معلومات عن نوعية وكمية النفط وأماكن تواجده ومقدار كمياته، وبدأت هذه الشركة بالتنقيب الفعلي في عام ١٩٧٤[١٠].

ووقعت الحكومة اتفاقية أخرى مع هذه الشركة في عام ١٩٧٩ سمحت بموجبها في توسيع التنقيب في حوض المجلد والنيل الأزرق وحصلت مقابل ذلك على أسلحة من الولايات المتحدة مكونة من طائرات مقاتلة ودبابات بقيمة ١٫٧ مليون دولار، والتي صادق الكونغرس الأميركي عليها في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٧٩، ما أدى إلى استمرار نشاط هذه الشركة طوال المدة بين عامي١٩٧٤-١٩٨٢، وبذلك تكون من أكبر الشركات الأمريكية والعالمية التي حصلت على امتياز للتنقيب عن النفط في السودان آنذاك[١١]، وقامت الحكومة في تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٧٩ بمنح شركة توتال (Total) حق التنقيب في منطقة البحر الأحمر، ومنحت شركة تكساس وسترن في كانون الأول/ ديسمبر١٩٧٩ حق التنقيب بشمال البحر الأحمر، ومنحت في أوائل عام ١٩٨٠ تراخيص لشركة صن أويل (OIL SUN or SUNOC) الأمريكية للتنقيب في منطقة أبو جن وجاءت التقارير غير مشجعة، إلا أنه سرعان ما انتعشت الآمال اثر إعلان شركة شيفرون في عام١٩٨١ اكتشافها حوض نفطي في هجليج في شمال إقليم الجنوب وبتقديرات بلغت نحو ٢٣٦ مليون برميل، وهو ما عزز توجهات الشركة والحكومة للاتفاق على إنشاء شركة نفط (النيل الأبيض للبترول)مشاركة بين الطرفين، وحصلت شركة (صن أويل) في عام ١٩٨٢على امتياز التنقيب في المنطقة الواقعة بين الجزيرة وعطبرة ، ومع ذلك ظلت مناطق شاسعة من الأراضي السودانية لم تجر فيها عمليات التنقيب[١٢].

وكان للدور الأوربي حضوره أيضًا في السودان، وحلت فرنسا في طليعة تلك الدول، وحصلت في عام١٩٨٠على حق التنقيب في ما بين ملكال وبور، ثم أعقبها إبرام اتفاقية مع شركة النفط الفرنـــسية توتال (Total) في١٩٨١ لاستكشاف مربعي (CgB)، أن مما عزز التوجه الفرنسي السابق تأكيدات المهندسين الفرنسيين امتلاك المنطقة مخزونًا ضخمًا من النفط في الآبار المكتشفة بين عام١٩٧٩– ١٩٨٤يصل إلى نحو٥٫١مليار برميل[١٣].

وفي عام ١٩٨٣ انفجرت الحرب الأهلية في الجنوب ما اضطر الشركات الأمريكية والفرنسية وغيرها إلى تعليق عملياتها تحت وطأة الحرب وقيام مجموعة مسلحة كانون الأول/ ديسمبر١٩٨٣ بخطف ثلاثة من موظفين شركة شيفرون من منطقة ربكونا وقتلهم، وكانت تقديرات هذه الشركة أن تبدأ إنتاج وتصدير النفط في عام ١٩٨٦، إلا أنها اضطرت لإيقاف نشاطها في عام١٩٨٥بعد اشتداد هجمات المتمردين الملتحقين بالجيش الشعبي لتحرير السودان على منشآتها النفطية، ما أجبرها على وقف أعمالها والرحيل بعد عشرين عامًا من النشاط التنقيبي[١٤].

وبالمقابل اتخذت الولايات المتحدة موقفًا معاديًا واتبعت سياسة ترمي إلى عزل السودان دوليًا وتقديم العون لجماعات التمرد في كل من أوغندا وإريتريا وإثيوبيا، والتي توحدت اثر تأسيس الحركة الشعبية لتحرير السودان[١٥] في آب/ أغسطس١٩٨٣، وهو ما أكسب التمرد شكلاً رسميًا، كما حاولت جاهدة منع الشركات غير الأمريكية من الاستثمار في نفطه، وعلى الرغم من ذلك حاولت الحكومة استئناف المشاريع النفطية وعقدت صفقة في تموز/يوليو عام١٩٨٤مع شركة ترانز آفريكان لأنابيب النفط الأميركية لأنشاء خط أنابيب بطول١٧٦٠ كلم عبر السودان إلى أفريقيا الوسطى،إلا أنه لم ينفذ بسبب اشتداد وطأة التمرد وقيام الانتفاضة الشعبية في نيسان ١٩٨٥، والتي أطاحت بالحكم العسكري الثاني[١٦].

بعد قيام الحكم المدني الثالث في السودان فيما عرف بـ (حقبة الحكم الديمقراطي الثالث ١٩٨٥-١٩٨٩)[١٧]، أقدمت حكومة الصادق المهدي[١٨] في تشرين الثاني/ نوفمبر١٩٨٦على تعليق كل العقود الخاصة بخطوط الأنابيب والتنقيب السابقة، واتجهت شرقًا إلى الصين، إلا أنها كانت محاولة خجولة بالمقارنة مع الحكم العسكري الثالث[١٩] الذي تولى السلطة فيما بعد، ومع ذلك حاولت شركة شيفرون في عام ١٩٨٨إقناع الحكومة للعمل في مشاريع النفط وقدمت برنامجًا للاستكشاف مدته ستة أعوام إلا أنها لم تنفذ[٢٠] بسبب التبدل الواضح في نهج الحكم الجديد والتغير في توجهات علاقاته الخارجية، وتزامن ذلك مع انهيار الاتحاد السوفيتي السابق وظهور الولايات المتحدة كقوى متفردة في القرار الدولي أبدت اهتمامًا ملحوظًا بالقارة الأفريقية وثرواتها النفطية ومنها السودان الذي اتخذت ضده سلسلة من القرارات الدولية.

ثانيًا: الأهمية الاستراتيجية وميزات النفط السوداني

قبل الحديث عن التنافس الدولي على النفط وأثاره على السودان، لابد من إيضاح أهميته الاستراتيجية، وأبرز ميزاته والتي أدت إلى أحداث التنافس الدولي عليه، ولا سيما بعد أن أكدت مجمل الاستكشافات النفطية وجود احتياطات واعدة ومحفزة للاستثمار من لدن الشركات الأجنبية فيه، والتي ناهزة في عام ٢٠٠٦ ما نسبته ٥% من احتياطات النفط الأفريقية، وتشير المعلومات الإحصائية الدولية اللاحقة إلى أنه يسبح في بحر من النفط، وبلغ الاحتياطي المؤكد ٦٫٨ مليار برميل في عام٢٠١٠، وهو بهذا احتل المرتبة ٢٠ في العالم، وبلغت احتياطاته المؤكدة من الغاز مليار متر مكعب في عام٢٠١٠، وتضم أراضيه قبل انفصال جنوبه، ٦ أحواض نفط منتجة رئيسة هي: حوض النيل الأزرق وحوض ملوط وحوض المجلد وحوض البحر الأحمر وحوض المردي وحوض جبل أبيض، وقسم السودان إلى٢٣ بلوك من الحجم الهائل تبلغ معدل مساحة البلوك الواحد ٦١ ألف كم٢، ويعتقد أن السودان يمتلك أكبر احتياطات غير مستغلة من النفط في أفريقيا وأوروبا تفوق تلك الموجودة في خليج غينيا[٢١].

ولدى السودان نوعين من النفط الخام متفاوتين في النوعية والسعر، فالنفط الخام مزيج النيل يباع بسعر أعلى من النفط الخام مزيج دار، ويتم استخراج مزيج النيل من أربعة بلوكات منتشرة على طول الحدود الشمالية – الجنوبية في وسط السودان، بينما يوجد مزيج دار في حوض ميلوت شرق النيل الأبيض، ونظرًا لرداءة نوعية مزيج دار فان سعره منخفض جدًا قياسًا إلى مزيج النيل، فمزيج دار ثقيل ويستلزم نقله ساخنًا بدرجة حرارة تتراوح ما بين ٤٥-٥٠ درجة مئوية لكي يتم تجنب تخثره في خزانات ناقلات النفط[٢٢].

وأدى ارتفاع صادرات النفط في السودان إلى شغله الموقع الثالث في إنتاج النفط في أفريقيا إذ بلغت مجمل صادراته في عام ٢٠٠٦ من النفط ٣٦٤ ألف برميل يوميًا وهو بذلك الإنتاج تفوق على كل من غينيا الاستوائية ٣٣٠ ألف برميل والكونغو برازفيل ٢٤٤ ألف برميل، والغابون ٢٣٧ ألف برميل، بينما تتقدمه أنغولا ١٫٤ مليون برميل، ونيجيريا ٢٫٢ مليون برميل، واقترب من مصر التي تراجع إنتاجها إلى ٥٧٩ ألف برميل، وتسبقه ليبيا ١٫٨ مليون برميل، والجزائر٢٫١ مليون برميل في اليوم، ثم ارتفعت بعد ذلك قدراته الإنتاجية لتصل إلى ما يقارب ٤٧٦ ألف برميل في اليوم عام ٢٠١٠، وبذلك شكّل النفط ما زادت نسبته على ٧١% من إجمالي الناتج المحلي، وكان من المرجح أن ترتفع هذه الصادرات إلى اكثر من ذلك في السنوات اللاحقة[٢٣]، إلا أن الإعلان عن انفصال الجنوب في ٩ تموز عام ٢٠١١ حال دون ذلـــك.

ولنفط السودان ميزات عديدة، يُعَدّ ذا جودة عالية سهل في عملية التكرير، لأنه من الخامات الخفيفة التي تنخفض فيها نسبة الكبريت، وسهولة تحويله إلى مشتقات مثل: الجازولين، البنزين العادي، والمواد التي تستخدم في الصناعات البلاستيكية، وعُد أفضل من نفط الشرق الأوسط ونفط بحر قزوين[٢٤].

ومن أهم ما ميز اتفاقيات النفط في السودان ضمانها نسبة كبيرة من حقوق الدولة، فعندما تصل الشركات إلى مرحلة الإنتاج تبدأ في استعادة نفقاتها ماعدا نفقة الخدمات الاجتماعية التي صرفت بنسبة من الإنتاج الكلي السنوي تتراوح بين ٣٠-٤٠%، وقد تزيد وتنقص هذه النسبة وتسمى بـ(التكلفة) أما النفط المتبقي من الإنتاج الكلي، يقسم بين الحكومة بمتوسط ما نسبته ٧٠% لها وما نسبته ٣٠% للشركات قابلة للزيادة أو النقصان، وبزيادة الإنتاج ومرور الزمن تزيد نسبة الحكومة منه وتقل نسبة الشركات تدريجيًا حتى تصل إلى مرحلة يملك السودان الإنتاج بنسبة ١٠٠%، وتتحمل الشركات دفع إيجار من المساحة التي خصصت لها للتنقيب فيها، كما أنها تدفع منحة للدولة عند توقيع العقد يتفق عليه الطرفان، وتتحمل الشركات تقديم الكثير من الخدمات الاجتماعية مثل إنشاء المستشفيات وحفر الآبار الارتوازية في المناطق التي تعمل بها، وتدريب السودانيين العاملين في الشركات لرفع كفاءتهم، وفي أغلب الأحيان تحدد المدة الزمنية بين ٢٠ إلى٣٠ سنة، والحكومة غير ملزمة بأي التزامات مالية في حال فشلت الشركات في الحصول على اكتشافات نفطية[٢٥].

وكان لمجمل الميزات السابقة أثرها في استمرار التنافس الدولي عليه، فضلاً عن نتائج التطورات الداخلية والمواقف الدولية منها، ولاسيما من لدن الإدارة الأمريكية التي أبدت انحيازها الواضح تجاه حركات التمرد فيه، والتي دفعت حكومة السودان ومنذ عام ١٩٨٩ للتوجه نحو قوى دولية شرقية وغربية أخرى تسعى أيضًا للتنافس على النفط فيه.

ثالثًا: التنافس الدولي على النفط السوداني

كانت القوى الكبرى قد أبدت اهتمامها في العقدين الأخيرين من القرن العشرين، وفي العقد الأول من القرن٢١ بأفريقيا - والسودان جزء مهما منها- ذات الموقع الاستراتيجي والتي يقع نفطها

في مناطق مهمة[٢٦]، وبعد تفرد الولايات المتحدة بالقرار الدولي، بدأت مرحلة جديدة أصبحت فيها القارة مركزًا مهمًا لدبلوماسيتها في مواجهة قوى جديدة أبدت اهتمامًا ملحوظًا فيها كالصين واليابان والهند والبرازيل وروسيا ودول أوربية، فالثروة النفطية فيها أسالت لعاب الجميع، إذ لا يخلو شهر إلا وتجد مسؤولاً غربيًا أو شرقيًا أو من أمريكا اللاتينية إلا ويزور القارة الأفريقية[٢٧].

وتسعى الولايات المتحدة عبر السيطرة على النفط الإفريقي إلى إحكام سيطرتها على كميات مهمة من المخزونات العالمية، وارتفعت وارداتها من النفط الأفريقي بشكل تصاعدي في السنوات العشر الماضية، مما نسبته ١٥% في مطلع القرن الحالي إلى ما نسبته ٢٥% في عام ٢٠١٠، وهوما دفع وزارة الطاقة الأمريكية إلى استثمار ١٠ مليار دولار في النفط الأفريقي منذ من عام ٢٠٠٣، وتُعَدّ شركاتها العملاقة مثل: أكسون موبيل وشيفرون وتكساكو من أهم الشركات العاملة في أفريقيا والسودان[٢٨].

على أية حال، أثمرت الجهود المبذولة في السودان في تجاوز مرحلة التنقيب إلى مرحلة الإنتاج والتصدير، وهو ما تحقق في عهد الحكم العسكري الثالث، الذي تشكل على أثر انقلاب قاده العميد عمر البشير في ٣٠ حزيران/ يونيو١٩٨٩ والذي اعلن عن قيام حكومة الإنقاذ فيه[٢٩]، وكان من أبرز نتائجه تدهور علاقاتها مع الولايات المتحدة التي انتهجت ضدها سياسة المواجهة وأعلنت إدانتها للتغيير في السودان وعدته انقلاب على سلطة ديمقراطية منتخبة، واتهمته بانتهاك حقوق الإنسان وبالمسؤولية عن استمرار الحرب الأهلية وبإعاقة جهود الإغاثة الدولية ونقل وتهجير مئات الآلاف من المدنيين رغمًا عنهم، وعملت الإدارة الأمريكية على خلق إطار إقليمي معاد له شمل أوغندا وإريتريا وأثيوبيا، وقدمت دعمها السياسي والعسكري للتجمع المعارض له وللجيش الشعبي لتحرير السودان في الجنوب بزعامة جون قرنق[٣٠]، ثم فرضت في عام١٩٩٧عقوبات جديدة وأدرجته ضمن قائمة الدول الداعمة(للإرهاب)[٣١]، ومنعت شركاتها النفطية من مزاولة أي النشاط فيه، ونتيجة لذلك أجبرت الشركات الغربية على الانسحاب منه ما دفع الحكومة للضغط على شركة شيفرون وبعض الشركات الأمريكية الأخرى، لترتيب أوضاعها ورفع يدها عن النفط السوداني[٣٢]، وبذلك تكون السلطات الأمريكية وشركاتها النفطية هي التي شجعت على إيجاد المتمردين في الجنوب، مما كبَّد السودان حربًا شديدة، راح ضحيتها ما يزيد عن مليوني نسمة، ولم يكن لها ما يبررها إلا وجود النفط في الجنوب[٣٣].

وهو ما فسح المجال واسعًا للصاعدين الجدد، صينيون وهنود وماليزيون، الذين استعصموا بمواقعهم على خارطة الاستثمار النفطي وقاموا بتعزيزها مستغلين خلو المجال من المنافسين ومنذ اللحظات الأولى لمغادرة الشركات الأمريكية، وهو الأمر الذي زاد من غيض الإدارة الأمريكية على الحكم الجديد في السودان والذي قام بين عامي (١٩٨٩-١٩٩٩) بالتحرك في اتجاهات أخرى لفك الحصار الأمريكي عليه، وللتعويض عن انسحاب شركاتها وتأثيرات عقوباتها السيئة عليه، وتمكن ومنذ أواخر عام ١٩٩٠ من عقد اتفاقات مع الشركات العالمية منها: شركات صينية وماليزية وكندية وشركات من الخليج العربي وشركات سويسرية ونمساوية، وكان هذا التوجه نقطة تحول مهمة في مسار تعامله مع أمريكا والغرب الذي ابدى انحيازًا في الصراع الدائر في الجنوب، والذي فتح الباب أمام صراعات أخرى في شرق البلاد وغربها[٣٤].

استطاعت الشركات الصينية ملئ الفراغ الذي أحدثه انسحاب الشركات الأمريكية وأخذت الصين تقوي روابطها مع الدول المنتجة كإيران والعراق حتى عام ٢٠٠٣ والسودان وغيرها من الدول التي تتقاطع سياساتها مع سياسة الولايات المتحدة[٣٥]، وكانت الصين قد ظهرت في أواخر القرن العشرين ومطلع القرن الواحد والعشرين كقوة اقتصادية كبرى في العالم واشتركت مع الولايات المتحدة كأكبر مستهلكين للنفط، ولمواجهة حاجتها المتزايدة للطاقة اعتمدت الصين البحث عن حصص في الحقول النفطية خارج حدودها عن طريق المشاركة أو الشراء أو التنقيب وعكست الخطة الخمسية الصينية الثامنة (١٩٩١-١٩٩٥) هذا التوجه عندما دعت شركات النفط لضرورة الخروج لتطوير عمليات النفط خارج الحدود، لتصبح ومنذ عام ١٩٩١ سياسة خروج الشركات الصينية للمنافسة في العالم سياسة رسمية للحزب والدولة[٣٦].

وفي هذا الاتجاه بدأت الصين تحت ضغط الظروف الجديدة تعاونها الخارجي منذ عام ١٩٩٢ وذلك عندما قامت شركة النفط الوطنية الصينية سينوبك (CNPC)[٣٧] بالعمل خارج الصين وبدأت تسعى لتأمين احتياجاتها من مصادر الطاقة في أماكن مختلفة من العالم، كما سعت للتحرر من الاعتماد الكلي على مصادر الشرق الأوسط المتعرض للمخاطر دوما ووجدت

ضالتها في أفريقيا منذ أواخر تسعينيات القرن الماضي حتى وصل حجم طلبها على النفط إلى٥٠ مليون طن و٥٠ مليار متر مكعب من الغاز عام٢٠١٠[٣٨]، وترتب على تزايد هذا النفوذ في النفط الأفريقي والسوداني تحديدًا عن فتح شهية قوى آسيوية أخرى للاستثمار في هذه الصناعة، ومنها اليابان والهند وماليزيا وغيرها[٣٩].

وتعود بدايات الاهتمام الصيني بالنفط السوداني إلى عام ١٩٨٨، إذ حاولت حكومة الصادق المهدي في هذا العام التوجه إلى الصين لملء الفراغ الناجم عن توقف الشركات الأمريكية[٤٠]، وتمكنت من عقد اتفاق شراكة لتصدير النفط وعقد صفقة سلاح معها لمواجهة التمرد الذي هدد مناطق إنتاج النفط إلا أنها لم تجن فائدة اتفاقها السابق بسبب الإطاحة بها بانقلاب ٣٠حزيران/ يونيو١٩٨٩، ونقل عن حسن الترابي قوله: ".. إننا سعينا [الحركة الإسلامية في السودان] إلى الصين [عام ١٩٨٨] للتعريف بأنفسنا قبل الاستيلاء على السلطة.. وعندما استلمنا السلطة في حزيران/ يونيو ١٩٨٩ وجد الصينيون الوجوه التي تدير البلاد مألوفة بالنسبة لهم.."[٤١].

وهو ما سهل على الحكم الجديد القيام بإجراء اتصالات معها لأقناعها بالمشاركة في الصناعة النفطية، ويدفعها إلى ذلك أسباب عديدة منها: الموقف المعادي لأمريكا وحلفائها من النظام الجديد ووصفهم بـ(الأصوليين الراديكاليين) وسعت إلى عزلهم دوليًا، ما دفع قادة الإنقاذ إلى التوجه شرقًا نحو دول أخرى لاتعاديهم كالصين فضلاً عن حاجتهم لأحداث إنجاز اقتصادي سريع مثل استخراج النفط يعتمد تكنولوجيا رخيصة تتوفر في الصناعة الصينية التي تُـهيمن على صناعة النفط السوداني، وهو ما لا يجد قبولاً لدى واشنطن، التي تعد الصين منافسها الاستراتيجي الأهم والتي يجب ألا تتمتع بأية ميزة نسبية في صناعة النفط العالمية، بل يجب محاربتها في المواقع التي تسيطر عليها، ومعظمها الآن في إفريقيا، ومن أبرزها السودان[٤٢].

وبذلك شكلت الصين طوق نجاة للرئيس عمر البشير الذي استثمر ذلك وقام بزيارة إلى الصين عام ١٩٩٠ سعى فيها لإقناع مسؤوليها على الاستثمار في النفط وشدد فيها على أهميته بالنسبة لحكومته التي تعاني وضعًا اقتصاديًا صعبًا وحربًا ضروسًا تستنزف موارده المالية وتستلزم منه السعي للحصول على السلاح، ولاسيما السلاح الصيني[٤٣]، وعلى اثر ذلك استطاع السودان تأمين جزء من احتياجاته عبر صفقة تسليح عقدت مع الصين في آذار/ مارس١٩٩١ تضمنت الحصول على أسلحة وعددًا من المروحيات العسكرية بلغت أقيامها ٣٠٠ مليون دولار، وبذلك وجد السلاح الصيني طريقه إلى الحكومة الجديدة التي تلقته بارتياح كبير وهي تخوض معارك شرسة في الجنوب[٤٤]. ولتعزيز التوجه شرقًا نحو الصين وغيرها اتخذت الحكومة إجراءات عديدة كإنشاء اللجنة الاقتصادية في تموز/ يوليو١٩٨٩، وعقدت المؤتمر الاقتصادي الخاص بالنفط في تشرين الأول/ أكتوبر١٩٩٠، وتصويت المجلس الوطني الانتقالي في عام ١٩٩١ على قرار يقضي باستئناف الاستكشافات النفطية، وقامت الحكومة بتعديل قانون الاستثمار وإعادة تقسيم المناطق الاستكشافية إلى١٥ قطاعًا رئيسًا تمهيدًا لتوزيعها على الشركات الأجنبية، وفي مقدمتها الشركات الصينية[٤٥].

وعلى الرغم من مجهودات الحكومة السودانية المبذولة طوال المدة من١٩٨٩-١٩٩٢ لإقناع الشركات الصينية بالاستثمار في قطاع الطاقة إلا أنها اعتذرت عن العمل أثناء هذه المدة، ومعللة ذلك بأنها لا تمتلك تكنولوجيا مناسبة لمساعدته في استخراج وإنتاج وتصدير النفط، وتعزى أسباب التردد أيضًا لتعرضها لضغوط من لدن الولايات المتحدة ، إذ أشار رئيس الشركة الوطنية الصينية وانغ تاو في اجتماع مع وفد سوداني أن الأمريكان وغيرهم حاولوا إقناعهم بعدم الدخول في استثمارات نفطية بحجة الحاجة إلى تقنيات عالية، فضلا عن المخاطر الأمنية في الجنوب[٤٦].

وأمام إصرار الحكومة السودانية وإلحاحها، قامت الصين بإرسال وفود فنية لاستطلاع الحقول النفطية في عامي١٩٩١-١٩٩٢ وقامت حكومة السودان بتأمين مناطق النفط عسكريًا وشنت في عام١٩٩٢حملتها المعروفة بـ(صيف العبور)التي مكنتها من استرداد أجزاء من قبضة الحركة الشعبية، كما استعانت بالفصائل المنشقة عن الحركة لتأمين تلك الحقول[٤٧]،وفي مطلع عام١٩٩٣ فرغ مسؤولو الشركة الوطنية الصينية من دراسة الخرائط والمعلومات التي وفرتها الحكومة السودانية، وهكذا غدا الصينيون على استعداد لتنشيط هذا الملف، ولاسيما وأن حكومة السودان كانت تلح على هذا التعاون في وقت شدّد فيه الاستراتيجيون الصينيون على أهمية العمل بشكل أسرع لتأمين احتياجاتهم من حقول في خارج الصين، كما أن خروج الشركات الأمريكية وحالة العداء الغربي للسودان في ذلك الوقت، بدت في تقدير الجهات الصينية مناخًا جيدًا للتقدم وبسرعة في هذا الملف[٤٨].

وكان وصول الإنقاذ عام١٩٨٩الى الحكم قد أنهى آمال شركة شيفرون الأمريكية في استثمار آمن بعد اشتداد حرب الجنوب، وفي العام ١٩٩٠ وبعد مفاوضات مضنية نجحت الحكومة في إقناعها في التخلي عن منطقة امتيازها بعد أن وضعتها أمام خيارين: إما أن تستأنف الإنتاج في مناطق امتيازها أو أن تبيع وتغادر، إلا أنها رفضت وأظهرت ميلاً للتنازل عن امتيازاتها لشركة غير مملوكة للحكومة السودانية[٤٩]، وقامت في منتصف عام١٩٩٢ببيع استثمارها البالغ مليار دولار لشركة كونكورب (Concorp) [٥٠] بمبلغ قدره ٢٥ مليون دولار، والتي قامت ببيعه في تشرين الأول/أكتوبر١٩٩٢الشركة ستيت بتروليوم (State) الكندية المملوكة لشريك كندي مسلم من أصول باكستانية فضّل التعامل مع السودان رغم الضغوط التي واجهتها شركته، وبذلك تجاوز السودان واحدة من أهم معوقات التعاون في قطاع النفط ليس مع الشركات الصينية فحسب، بل مع الشركات الأجنبية بشكل عام بعد أن استطاع وزير الطاقة صلاح كرار أن يصل إلى حل للنزاع بين الحكومة وشركة كونكورب والذي امتد طوال المدة من١٩٩١-١٩٩٣[٥١].

وسمح الاستقرار النسبي آنذاك لشركة ستيت بتروليوم في البدء في العمل وتنشيط الآبار المكتشفة ونجحت لاحقا في٢٥حزيران/ يونيو١٩٩٦ في إنتاج النفط بكميات تقارب٢٠ألف برميل في اليـوم في وقت كانت الخرطوم تحاور فيه الصينيين للعمل بدلاً عن الشركات الأمريكية المنسحبة أو المتوقفة عن العمل في البلاد [٥٢] لذا تحركت الحكومة الصينية سريعًا لملء الفراغ الناجم عن انسحاب الشركات الأمريكية وسعت لأن تحظى شركاتها بالاستثمارات النفطية وقامت بأرسال وزير الخارجية الصيني تشيان تشي شن وعلى رأس وفد كبير ضم عشرين شركة إلى السودان في كانون الثاني/ يناير١٩٩٤، وكان لهذه الزيارة صداها السياسي لأنها جاءت أثر تصنيف الولايات المتحدة للسودان كدولة راعية (للإرهاب)، فضلاً عن صدها الاقتصادي إذ تم فيها الإعلان الرسمي بقبول الصين المشاركة في الصناعة النفطية، ولتنظيم ذلك وُقّع الطرفين مذكرة تفاهم بينهما أكدت استعداد الصين للتعاون في عمليات التنقيب والإنتاج، وفي نهاية عام١٩٩٤ أقرّت اللجنة الوزارية المشتركة الدخول في مرحلة التنفيذ الفعلي وفق اتفاقية وقعت في حزيران/يونيو١٩٩٥، ووصلت الجهود ذروتها أثناء زيارة الرئيس البشير للصين في٢٤-٢٩ أيلول / سبتمبر١٩٩٥، بالاتفاق على إنشاء شركة سودانية - صينية للحفر، وتوقيع اتفاقية قسمة الإنتاج وبذلك دخلت الصين كشريك أساسي ما مكنها من الفوز بالاستثمارات وغدا التقارب السوداني- الصيني المثال الأهم في حلقة الارتباط الصيني الأفريقي والنفعية المتبادلة بينهما[٥٣].

عزز السودان توجهه بعيدًا عن الشركات الأمريكية بالدعوة لاثنتي عشرة شركة عالمية لزيارة الخرطوم، وتمكن من الاتفاق مع بعضها على تكوين تحالف نفطي الذي تقدمته الشركة الوطنية الصينية في عام١٩٩٥، بما نسبته٤٠%، وحصلت شركة بتروناس (Petronas) الماليزية بما نسبته ٣٠%، وشركة استيت الكندية بما نسبته ٢٥%، وحصلت شركة سودابت (Sudapet) السودانية على ما نسبته٥%، وأطلق في عام١٩٩٧على هذا التحالف تسمية: شركة (النيل الكبرى لعمليات البترول) (GNPOC) كشركة وطنية تسهم بعمليات التنقيب والإنتاج[٥٤].

وكانت الشركة الصينية لهندسة إنشاءات البترول (CPECC) التابعة للشركة الوطنية الصينية قد فازت في آذار/ مارس ١٩٩٨بعقد لتنفيذ خط أنابيب بطول١٦١٠كم لنقل النفط من مناطق الإنتاج إلى ميناء بشائر على البحر الأحمر وسط منافسة حادة اشتركت فيها٣٠ شركة عالمية غير أمريكية، والذي عد أضخم مشروع تنفّذه الصين في قطاع النفط في الخارج آنذاك، ووصفته صحفها بأنه".. **أكبر صفقة في قطاع النفط في تاريخ الأمة الصينية.."**، واكتمل إنشائه في نيسان/أبريل١٩٩٩ [٥٥]، ويوضح الجدول الآتي التحالفات النفطية التي حصلت على امتيازات التنقيب ونسب حصصهم وأماكن تواجدهم في السودان بين عامي ١٩٩٥-٢٠٠٣.

الجدول رقم (١)

التحالفات النفطية وامتيازات التنقيب وعدد الآبار والاحتياطي المقدر وأماكن تواجدهم بين عامي ١٩٩٥-٢٠٠٣(*)

الشركات	اسم التحالف (الكونسورتيوم)	المربعات(**) وأماكن تواجدهم	عدد الآبار	الاحتياطي المقدر مليار برميل	تاريخ الامتياز
تجمع الشركات: الشركة الصينية (CNPC)وشركة سودابيت السودانية	(CNPCIS)	٦ منطقة الفولة	.	.	١٩٩٥وعدل الاتفاق عام ٢٠٠٢
تجمع الشركات: الشركة الصينية(CNPC) وشركة بتروناس الماليزية وشركة ستيت بتروليوم الكندية وشركة سودابيت السودانية	(GNPOC)	١ و ٢ و ٤ غرب و جنوب السودان في: الوحدة ، هجليج ، توما الجنوبية ، النار ، الطور ، موتقا ، يامبيو ودفرة.	١٦٣	٢,١١	١٩٩٦
تجمع الشركات: شركة بتروناس الماليزية والشركة الهندية (ONGC) والشركة السودانية سودابيت	(WNPOC)	A٥ الجنوب منطقة سارجاس	.	٠,٢٥٠	١٩٩٦
تجمع الشركات: شركة بتروناس الماليزية والشركة لندين السويدية والشركة الهندية (ONGC) وشركة سودابيت السودانية	(WNlPOC)	B٥ الجنوب	.	.	١٩٩٧
تجمع الشركات: الشركة الصينية(CNPC) وشركة بتروناس الماليزية والشركة سينوبيك الثاني والشركة الإماراتية	(Petrodar)	٣و٧ حوض ملوط و فلوج في كل من ولايتي أعالي النيل والنيل الأبيض	٨٨	٣,٥	٢٠٠٠-٢٠٠٣

*- الجدول من عمل الباحث بالاعتماد على معطيات الجزولي، البترول في السودان...،المصدر السابق

**- نقصد بالمربعات الأماكن المحددة لكل تجمع تنقيبي عن النفط (الكونسورتيوم) في السودان

رافق النشاط الفني والاقتصادي في مجال النفط بين البلدين عمل سياسي ودبلوماسي نشط، تبادل فيها الزيارات كبار المسؤولين، ولاسيما الرئيس البشير الذي قام بزيارات عديدة إلى الصين لحث حكومتها على المزيد من الشراكات وتقديم التطمينات وتقديم كامل الدعم لشركاتها في تعاونها الاقتصادي، كما انتهز احتفالات حكومته بالذكرى العاشرة للوصول إلى سدة الحكم ليعبّر عن امتنانه للصين قائلاً: "..حاولت القوى الغربية والأجنبية عرقلة تطور قطاع الطاقة.. ولكن التعاون الصيني -السوداني نجح في استخراج النفط.."(٥٦).

وبدأت أول عمليات تحميل النفط في يوم الاثنين ٣٠ آب/ أغسطس١٩٩٩ في الباخرة ثيوتيكوس الراسية في ميناء بشائر والتي غادرته إلى سنغافورة في اليوم التالي الأول من ايلول/سبتمبر١٩٩٩ محملة بما يقارب٦١٥ ألف برميل من مزيج النيل، وشرعت وزارة الطاقة بتوسيع عمليات التنقيب وقامت في١١تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٠بتوقيع تحالف نفطي باسم شركة بترودار(Petro–Dar) حصلت فيه الشركة الوطنية الصينية على ما نسبة ٢٣% وشركة الخليج على ما نسبته ٤٦% وشركة ملوط الكندية على ما نسبته ٤٦% وشركة سودابت على ما نسبته ٨% وشركة ثاني الإماراتية على ما نسبته٢٣%، وفي عام ٢٠٠٣ انضمت كل من شركتي بتروناس الماليزية وسينوبيك الصينية (Sinopec) إلى التحالف النفطي (بترودار) للتنقيب في ولايتي أعالي النيل والنيل الأبيض، وقعت اتفاقية أخرى لتطوير المربع (A5) في منطقة السدود، ساهمت فيه: شركة لوندين السويدية بما نسبته ٤٠٬٣٧%، وشركة (OMV) النمساوية بما نسبته ٢٦٬١٣%، وشركة بتروناس بما نسبته ٢٨٬٥٠% وشركة سودابت بما نسبته ٥%، وأعقب ذلك بيع شركة ثاني الإماراتية ما نسبته ١٨% من أسهمها لصالح الشركة الوطنية الصينية لتصبح حصتها في هذا التحالف بما نسبته ٤١% ونتج عن التوسع إنتاج النفط تحسن في الاقتصاد وارتفاعاً للناتج المحلي بنسبة ٦%(٥٧).

تخوفت الإدارة الأمريكية من التمدد الصيني ومن الوفرة المالية التي أمنتها عائدات النفط لحكومة السودان ذات التوجه الإسلامي والتي تواجه تمرداً جنوبيًا نصرانيًا مدعومًا من الغرب، علاوة على توجهها شبه الكلي نحو الصين التي وفرت لها التكنولوجيا والتمويل والسلاح الذي تحتاجه في مواجهة المتمردين(٥٨)، وحاولت واشنطن احتواء ذلك بتغير سياستها التي انتهجتها في تسعينيات القرن الماضي والقائمة على عرقلة جهود تطوير إنتاجه النفطي والحيلولة دون الاستفادة منه عبر فرض عقوبات في مجلس الأمن يكون فيها الحظر على النفط والعقوبات على الشركات المتعاملة معه أول بند فيها(٥٩)، كما قدمت الدعم لمتمردي الجنوب في السودان وخارجه وضغطت على الحكومة لإبرام اتفاق سلام معهم وأيدت خطة الإيغاد (الهيئة الحكومية للتنمية في الشرق الأفريقي) التي تنص على حق الجنوب في تقرير مصيرهم عبر استفتاء شعبي، وذلك بهدف الضغط على السودان وتطويق توجهاته السابقة البعيدة عن نهجها والتي تسببت بأقصاء شركاتها في

الوقت الذي استفادت منه دول وشركات أخرى منافسة أو غير متوافقة مع توجهاتها، ولاسيما الصين(٦٠).

وبذلك أصبح إنتاج وتصدير النفط سببًا لتدويل أزمات السودان، بدخول أهم لاعبين دوليين إلى أراضيه: الصين التي استخرجت وصدرت وساهمت في إنتاجه، والولايات المتحدة التي نقبت وشخصت وجوده ولم تستفد منه وسارعت إلى قراءة فداحة تأثير تصديره في أحداث تحول استراتيجي في موازين القوى المتصارعة فيه لصالح الخرطوم التي ساعدها تضاعف الإنفاق العسكري بعد سنتين من بدء الإنتاج النفطي، ما أدى إلى حدوث فجوة في التوازن الاستراتيجي بين الحكومة والمعارضة التي غدت عاجزة عن تحقيق نصر عسكري بل باتت ضئيلة اكثر من أي وقت مضى وبوتيرة متزايدة، ووجد قادتها أن التفاوض مع الخرطوم وتحت مظلّة الدعم الخارجي افضل ويضمن لهم تحقيق مصالحهم(٦١).

وبدأت الإدارة الأمريكية تعد النفوذ الصيني بمثابة حافز للاجتهاد في سعيها لإقناع القادة الأفارقة بالعمل المشترك معها(٦٢)، وهو ما استدعى إجراء تقيمًا سريعًا لسياساتها، تجاه القارة الأفريقية بعامة والسودان بخاصة في مسعى منها لاحتواء توسع النفوذ الصيني وغيره واتخاذ سلسلة من الإجراءات كان من بينها عدم عرقلة الجهود الرامية في مجلس الأمن إلى رفع العقوبات الدولية الصادرة ضده منذ عام ١٩٩٦ تعبيرًا عن تقديرها للتعاون السوداني الأمني معها في مجال مكافحة ما يسمى بـ(الإرهاب) وحتى قبل أحداث ١١ أيلول/ سبتمبر٢٠٠١(٦٣)،كما عملت على إزالة العقبات أمام الشركات الأمريكية لكي تعاود نشاطها النفطي فيه(٦٤).

وبذلك أصبح النفط عنصرًا أساسيًا للسودان في خلق شراكات خارجية تكاملية مع الدول المستثمرة أو شركات الإنتاج ولاسيما الصين، في الوقت الذي استشعرت فيه واشنطن خطورة تصديره النفط على مصالحها ووجدت أن الفرصة مواتية لأن تنخرط بفعالية وبالتعاون مع بعض القوى الأوربية لإنهاء الحرب الأهلية فيه لإدراكها خطورة تجاهل تأثيرات الإفرازات الناتجة عن اختلال موازين القوى لصالح النظام واستمرار الحرب هناك(٦٥)، والمفارقة أن الصين لم تجد في المساعي الأمريكية لفرض تسوية في السودان ما يثير قلقها على مصالحها، خاصةً وأن واشنطن تجنبت مضايقة شركاتها العاملة في الصناعة النفطية في أسواق الأسهم على غرار ما فعلته مع شركات دول أخرى، لإدراك الإدارة الأمريكية القدرات المحدودة للشركات النفطية الصينية في السودان وأفريقيا بالقياس إلى الشركات العالمية والأمريكية منها، إذ لا تتعدى قدرتها على ما نسبته (٣%) من قدرة الشركات كأكسن موبل أو بترش بتريوم لافتقارها إلى التقنيات المتطورة التي تحتكرها هذه الشركات، كما أن نجاح المساعي الأمريكية من شأنه أن يحقق استقرار يضمن لبكين الاستفادة من استثماراتها باستمرار تدفق النفط دون عوائق، وقد بات يشكل لها مصدرا مهما من مصادر الطاقة(٦٦).

ولتحسين علاقتها بالسودان، اعتمدت واشنطن سياسة إرسال المبعوثين الرئاسيين، وكان من بينهم السيناتور السابق جون دانفورث (John Dan forth) الذي أعلن عن تعينه في٦ أيلول/ سبتمبر٢٠٠١ أكد في تقريره الصادر عام٢٠٠١ امتلاك السودان احتياطًا نفطيًا هائلاً، وأن تحقيق السلام يسهم بشكل كبير في إقبال الشركات والمستثمرين عليه، ودعا إلى ضرورة اعتماد مبدأ التوزيع العادل وتقاسم الثروة كأساس للمباحثات بين الفرقاء، واعتماد كل الوسائل المتاحة لمعالجة أوضاعه الداخلية المضطربة نتيجة لتفجر تمردات في مناطق شرق ووسط وغرب البلاد(٦٧) وكان أخطرها التمرد في دارفور عام ٢٠٠٣(٦٨)، كما عطلت تشريعًا أقره الكونجرس يحظر تسجيل الشركات الأمريكية في البورصة اذا شاركت في التنقيب عن النفط في محاولة منها لتشجيع تلك الشركات على العمل هناك(٦٩).

وفي المقابل دفع التنافس الأمريكي -الصيني، الأخيرة إلى تأكيد دورها وموقفها الاستراتيجي في الدفاع عن مصالحها، وكثيرًا ما أكد مسؤوليها على مواصلة نهجها وتنسيقها مع السودان ومع المجتمع الدولي فيما يخص أزماته الداخلية، ومنها ازمتي الجنوب ودارفور، وأنها على استعداد دائم لتعزيز علاقة معه على أساس الاحترام وتبادل المنفعة وهددت في أكثر من مناسبة باستخدام حق النقض (الفيتو) في مجلس الأمن لتعطيل أي قرار يصدر ضده وشكلت بذلك حائط الصد الأساسي ضد أي قرار دولي يمكن أن يؤذيه(٧٠)، ومن ثم يهدد استثماراتها النفطية والتي كانت قد بلغت في عام٢٠٠٣، نحو٣٫٥ مليار دولار أمريكي احتل السودان المرتبة السادسة عالميًا في ترتيب الدول التي وردت النفط للصين عام ٢٠٠٣ بعد كل من السعودية وإيران وعمان وأنغولا واليمن بتصدير٩٫٦% من نسبة الاستيرادات النفطية الصينية العالمية(٧١).

وهو ما دفع حكومة السودان للإعراب عن امتنانها للصين ومواصلة التمسك بسياستها القائمة على توسيع التعاون بين البلدين، ولغرض تنسيق ذلك تبادل الخبراء الصينيون والسودانيون الزيارات في كانون الأول/ ديسمبر عام ٢٠٠٣، وتكررت الزيارات لاحقا في عام ٢٠٠٥، ثم أعيدت الاتصالات وعلى اعلى المستويات في نيسان/ أبريل عام٢٠٠٧، وتمخض عن مجمل هذه الاتصالات إقدام الصين على تجهيزه بأسلحة ومعدات مختلفة كان من أهمها تجهيزه بـ(١٢) طائرات نوع Shenyang المقاتلة معF7طائــرات) التـــــي هـــــي نسخة مـــــن طـــــائرة (MiG-21) الروسية، واستخدام مطارات شركة النفط الوطنية الصينية للطيران المروحي السوداني الذي يستخدم طائرات مروحية صينية الصنع، وعلق نائب وزير الخارجية الصيني (Zhou Wenzhong) على سؤال حول موقف الصين من ذلك بقوله: "..العمل عمل، علينا التفريق بين السياسة والعمل، وما يحدث في السودان شأن داخلي لا سلطان لنا عليه.." [٧٢].

وكان السودان ينفق سنويا ما يزيد على ما نسبته٨٠% من وارداته النفطية على شراء الأسلحة، وتعد الصين البائع الأساسي والمهم للأسلحة وتقنيات صناعة وإنتاج المعدات العسكرية لحكومة السودان التي استغلت عدم اكتراث الصين للانتقادات الدولية لها- والتي عدت صادراتها العسكرية والمقدرة بمليار دولار سنويًا تسهم في إذكاء العنف واستمرار الحرب- وتمكنت من عقد اتفاقية معها لبناء ثلاث مصانع لصنع الأسلحة حول الخرطوم، وكانت التقارير الصحفية الدولية قد قدمت وثائق تتهم فيها الصين بالتورط في الحرب الدائرة في دارفور لوجود أسلحتها ومعداتها العسكرية هناك، فضلاً عن تدريب الطيارين السودانيين على الطائرات المقاتلة الصينية التي استخدمت لقمع التمرد في دارفور[٧٣]، وعدت مساهمتها تلك خرق واضح لهذا الالتزام الذي أقرته الأمم المتحدة في آذار/ مارس ٢٠٠٥ والذي أقر حظر تام على بيع الأسلحة للسودان[٧٤].

ومع ذلك فأن التقارب السوداني الصيني غدا المثال الأهم في إطار العلاقات الصينية الأفريقية القائمة على تبادل المنفعة بينهما، وشهد عام٢٠٠٤ ذروة مساهمة شركات النفط الصينية في السودان إثر أعلنها عن عدد من المشاريع فيه، وبلغت مجموع الفرق الصينية العاملة في حقول النفط السوداني ٢٠ فرقة من أصل ٣٨ فرقة صينية في العالم بنهاية عام٢٠٠٤[٧٥].

عد السودان الموقف الصيني المؤيد له في مواجهة أزماته الداخلية حافزًا مهمًا في التحرك لاستثمار النفط بعيدًا عن الشركات الأمريكية أو المرتبطة معها، وقام أيضًا بمنح امتيازات التنقيب لشركات أخرى غير صينية، ولتعزيز ذلك أُقر في نيسان/ أبريل ٢٠٠٣ خطة وزارة الطاقة الرامية إلى رفع الإنتاج إلى٢٧٠-٣٠٠الف برميل في اليوم بنهاية عام٢٠٠٣، ولتحقيق ذلك عقدت مجموعة من التحالفات كان من أهمها التحالف النفطي مع شركة بتروناس الماليزية وشركة سودابيت وشركة هاي تك السودانيتان، والآخر مع شركة سودابيت وشركة ظافر الباكستانية في العام نفسه، في الوقت الذي غضت الإدارة الأمريكية وفي اطار مسعاها لتحسين علاقاتها وتغيير مواقفها، الطرف عن مسعى السودان للتعاقد مع شركة كليفدن السويسرية، المملوكة لفريدهلم ارونات الأميركي من أصل تركي لتنقيب في ولاية جنوب دارفور وولاية شمال بحر الغزال[٧٦]. ويوضح الجدول الآتي هذه التحالفات والشركات العاملة في إنتاج النفط وحصصهم وأماكن تواجد مربعات الإنتاج في عام ٢٠٠٣ وما بعده:

الجدول رقم (٢)

شركات التحالف النفطي التي حصلت على امتيازات التنقيب وحصصهم وأماكن تواجدهم عام ٢٠٠٣(*)

الشركات	رمز التحالف (الكونسورتيوم)	المربعات وأماكن تواجدهم	نسب حصة كل شركة وحسب الترتيب	تاريخ الامتياز
تجمع الشركات: بتروناس الماليزية وسودابيت السودانية وهاي تك السودانية	(WNPOC)	٨ دار فور وبحر الغزال	%٧٧، %١٥، %٨	٢٠٠٣
تجمع الشركات: شركة ظافر الباكستانية شركة سودابيت السودانية	(Sudapak)	٩ ولاية نهر النيل مرورًا بالخرطوم ووسط الجزيرة	%٨٥ %١٥	٢٠٠٣
تجمع الشركات: كليفدن السويسرية وهاي تك السودانية وسودابيت وشركة ولاية الخرطوم وهجليج	(APCO)	C ولاية الخرطوم وهجليج	%٣٧، %٢٨، %١٧، %١٠، %٨	٣٠٠٣

*-الجدول من عمل الباحث بالاستناد إلى مجلة النفط والغاز، المؤسسة السودانية للنفط، العدد الرابع، أيار/مايو ٢٠٠٤.

وكانت الحكومة السودانية كثيرًا ما تلجأ للشركات العالمية غير الصينية للاستثمار في مناطق لم تشهد عمليات تنقيب من قبل مع أنها غالبًا ما تميل لأشراك الشركات العالمية مع الشركات الصينية في هذه

تحالفات على الرغم من أحجام الأخيرة وتفضيلها العمل في استثمارات مضمونة وخالية من المغامرة، وهو ما دفعها للتوسط عند الحكومة الصينية لإقناع الشركة الوطنية الصينية التي كانت لا تشارك في الاستثمارات الجديدة إلا بعد تردد كبير على أن تكون ضمن تحالف يضم مجموعة شركات تضمن فيها نسبة كبيرة ما بين الثلث والنصف من مجموع نسب أسهم المشاركة، في محاولة منها وعلى ما يظهر لتقليل المخاطر[٧٧]، وأظهرت مؤشرات عام ٢٠٠٤ والأعوام اللاحقة نشاطاً كثيفاً في أروقة وزارة الطاقة السودانية لطرح تراخيص تنقيب في مربعات جديدة أمام الشركات الأجنبية من غير الصين، ومنها مربعي التنقيب(A12) و(B12) الممتدان في شمال وغرب دارفور، والتي فازت بها الشركة الهندية(Reliance)، كما وقعت الحكومة اتفاقية مع شركة الزيت الجنوب أفريقية وشركة سودابت للتنقيب في القطاع (١٤) بالولاية الشمالية[٧٨].

خارطة رقم (١)

تبين المربعات(البلوكات) النفطية والاستثمارات الصينية وخطوط الأنابيب والآبار المنتجة والمحتملة

استثمارات شركة النفط الوطنية الصينية ضمن تحالف النيل الأعظم (GNPOC). خطوط أنابيب نقل النفط ( )

- الخارطة نقلاً عن: Rodgers, SUDAN Projected Oil,op,cit.

وجاء فوز بعض الشركة الهندية بتنفيذ مشاريع نفطية على اثر التقارب السوداني- الهندي، ولاسيما بعد ما أبدت الحكومة الهندية استعداداً لتقديم القروض الميسرة له ومنها قرض بنك الاستيراد والتصدير الهندي والبالغ ٣٥٠ مليون دولار أمريكي لتمويل مشاريع طاقة في كانون الثاني/ يناير٢٠٠٦، وهو يشير في الوقت نفسه إلى أن الشركات الصينية لم تعد وحدها العاملة في المشاريع النفطية السودانية، والمتابع للنشاط الهندي– الصيني في مناطق مختلفة من العالم، يلحظ تنافساً كبيراً بين شركات النفط الصينية والهندية إلى حدٍ أزعج القيادات السياسية في كلا البلدين ودفعهما إلى عقد اتفاق تعاون في قطاع الطاقة على الساحة الدولية بعامة والسودان بخاصة، وذلك خلال زيارة (ماني شانكار آيار) وزير النفط والغاز الطبيعي الهندي إلى الصين في آذار/ مارس٢٠٠٦[٧٩].

وفي حقيقة الأمر إن الشركات الصينية والشركات الهندية كثيراً ما عملا سوية في أكثر من تحالف نفطي، ولم يشعر المسؤولين السودانيين بوطأة هذا التنافس بين العملاقين الآسيويين على المشاريع المقامة في السودان على عكس مما هو حاصل بينهما على الساحة الدولية، وكثيراً ما أكدت الحكومة الهندية بأنها ليست في منافسة مع الصين على النفط والغاز السوداني والأفريقي لعدم وجود الإمكانات المادية التي تمكنها من تحقيق هذه المنافسة، وهو ما دفعها إلى تحويل هذه المنافسة- التي تتسبب بإضاعة الملايين دون أن تحقق مكاسب لكلا الطرفين- إلى نوع من التعاون فيما بينهما بدخل الطرفان في شراكة ضمن مجموعة من الشركات العالمية كجزء من مجموعة أكبر من اتفاقيات الطاقة في السودان وأفريقيا.[٨٠]

لقد حث التنافس الدولي على النفط، حكومة السودان على انتهاج سياسة متوازنة وحذرة لكي تضمن تحقيق مصالها الاقتصادية والعسكرية مع الصين وغيرها، وعملت أيضًا على الاستفادة من المرونة الأمريكية تجاه قضاياه داخليًا وخارجيًا[٨١]، ولاسيما بعد أن طالب بعض مسؤوليها من الولايات المتحدة أن تساهم بشفافية في توجيه وتشجيع طرفي النزاع على الاجتماع في ماشاكوس بكينيا للعمل على حل الأزمة، وقامت جماعات الضغط النفطية(لوبي شركات النفط الأمريكية)، بالضغط لتخفيف العقوبات المفروضة على السودان لذا سمحت بصفة غير رسمية لشركاتها بالعودة إلى

مناطق امتيازها وممارسة عملها، وبدأت في التدخل المباشر والضغط على الشماليين والجنوبيين للعمل على التوصل لحل مشكلة الجنوب بالتوقيع على اتفاقية مشاكوس عام ٢٠٠٢، ومن ثَمَّ التوقيع الطرفين على إعلان نيروبي في حزيران/ يونيو ٢٠٠٤ [٨٢] اللذين حددا الأطر العامة للعلاقة بين طرفي النزاع في الجنوب، ثم التوقيع على اتفاقية السلام الشامل في نيفاشا في٩ كانون الثاني/ يناير٢٠٠٥، والتي حظيت بالإشراف الكامل من البيت الأبيض، وكان من أهم بنودها تأكيد حق تقرير المصير -أي الانفصال- الذي أعلن عنه في ٩ تموز/ يوليو٢٠١١ مع ضمان قسمة الثروة فيما بينهما، ومنح الحركة الشعبية الجنوبية السيطرة الكاملة على النفط هناك بعد الإعلان عن رفع الحظر عن الشركات الأمريكية للعمل فيه عام ٢٠٠٦[٨٣].

وبذلك ضمنت الولايات المتحدة نفط الجنوب لشركاتها أو المحسوبة عليه، وكانت هذه الشركات تتحين حدوث الانفصال للحصول على فرصتها في التنقيب عن النفط في الجنوب من جهة، واستثمار أراضيه المليئة بالثروات المعدنية والزراعية من جهة ثانية، بعدما حرمتها من ذلك العقوبات المفروضة على السودان، ومما سهل لها ذلك إقدام حكومة الجنوب بعد الانفصال على تغيير العديد من الشركات الآسيوية العاملة هناك بشركات أميركية، ولاسيما في منطقة أبيي التي تنتج ما نسبته ٧٠% من إنتاج النفط في السودان[٨٤].

وبدأت حكومة السودان بعد توقيع اتفاقية نيفاشا عام ٢٠٠٥ تجري مباحثات مع شركات عالمية منها المباحثات التي أجراها وزير الطاقة عوض أحمد الجاز في ٢٨ أيار/ مايو٢٠٠٥ مجموعة شركات (SKM) العالمية التي لها مكاتب في الولايات المتحدة، والعاملة في مجال النفط والتي أبدت رغبتها للاستثمار بعد عقد اتفاقية السلام بما وفرته من نسب عالية من الأمان في السودان أعلى بكثير من بعض الدول الأفريقية الأخرى[٨٥].

ويبدو أن احتدام المنافسة الدولية وميل الشركات الصينية للعمل في المناطق النفطية المضمونة دفعها لخفض مشاركتها في جولات التراخيص النفطية آنذاك، وكثيرًا ما حاولت الحكومة إقناع هذه الشركات للمشاركة في جولات جديدة، وما كانت زيارات مسؤولي البلدين (السودان والصين) المتكررة إلا محاولة لتجاوز وتذليل الصعوبات التي تحد من مشاركة الشركات الصينية التي كانت تعتذر عن المشاركة، ولعل ذلك بدواعي سياسية للحكومة الصينية لمكاسب تبتغي تحقيقها، ولاسيما وأن الاستثمار الصيني في أفريقيا يوفر لها تدفق آمن من النفط، وكذلك الحصول عليه بالمشاركة مع الدول الأفريقية المنتجة وبأسعار تفضيلية، باستثناء السودان الذي بحث اكثر من مرة عن شروط أخرى وتجديد العقود السابقة بما يضمن نصيبه في هذه العقود[٨٦].

وكان السودان كثيرًا ما يلجأ لعقد تحالفات نفطية مع شركات دول أخرى كالشركات الهندية والشركات الرومانية والشركات الجزائرية للاستثمار في بعض الحقول في محاولة منه لسد النقص في أحجام تلك الشركات عن المشاركة من جهة، وربما محاولة منه للتقليل من الضغط الذي قد تتعرض له من الصين فيما لو ذهبت الاستثمارات كلها لشركاتها أو لعله محاولة منه للالتفاف على العقوبات الدولية والحصار الأمريكي عبر إشراك شركات مقربة منها وللغرب كما هو الحال مع بعض الشركات الباكستانية والماليزية والشركات اليابانية أو الأفريقية من الجنوب أفريقيا ونيجريا، ومع ذلك فقد بلغت واردات الصين من نفط السودان مانسبته٥٠% من وارداتها الخارجية، والتي تعادل ما نسبته ٦٥% من صادرات السودان النفطية إلى العالم عام ٢٠٠٦[٨٧].

وكانت زيارة الرئيس الصيني هو جينتاو للسودان في شباط/ فبراير٢٠٠٧ قد جاءت في سياق التأكيد على الشراكة السودانية– الصينية، وتعزيز مساعي السودان في إقناع شركاتها العازفة عن العمل في مربعات جديدة، ومنها المشاركة في جولات التراخيص للتنقيب في المربع (١٣) والذي استدعى بذل جهود سودانية مضنية استمرت أشهر عديدة حتى أفلحت حكومة السودان في تموز/ يوليو عام ٢٠٠٧ في إقناعها للمساهمة في تشكيل تحالف نفطي باسم شركة (كورال لعمليات البترول) استحوذت فيه الشركة الوطنية الصينية(CNPC)على نسبة٤٠% [٨٨]، وشهد عام ٢٠٠٧ أيضًا نجاح الحكومة في إقناع تحالف بترودار النفطي الذي تمتلك الشركات الصينية ما نسبته ٤٧% من حصتها المكونة من ما نسبته ٦% لشرك (SINOPEC)[٨٩] وما نسبته٤١% للشركة الوطنية الصينية(CNPC)، في إكمال مرافق الشركة التخزينية في مربع (٣/٧)،بهدف رفع حجم الإنتاج النفطي[٩٠].

وجاءت زيارة الرئيس الصيني هو جينتاو للسودان أيضًا في اطار مسعى الصين لحث الرئيس البشير على إبداء شيء من المرونة في ما يتعلق بأزماتها وحوارها مع المجتمع الدولي، مع التأكيد على استمرار الدعم الصيني للسودان في المحافل الدولية

لضمان تحقيق ذلك، مع تقديم كل المساعدات التكتيكية للغرب لغرض إقناع السودان بذلك، في إشارة للضغوط الدولية والأمريكية التي واجهتها الصين آنذاك، فضلاً عن سعيها لتجنب المصادمة أو المواجهة مع الولايات المتحدة ، ولتضمن عدم تدخلها في شؤونها الداخلية، وديمومة تدفق التجارة المتبادلة بين البلدين، وكانت الإدارة الصينية تدرك أن نموها الاقتصادي والعسكري هو ما تخشاه الولايات المتحدة البعيدة جغرافيًا عنها، فالقوة تعني تمدد النفوذ الصيني إقليميًا وعالميًا، لذلك يدخل نفط السودان وغيره في دائرة النزاع الصيني - الأمريكي، إلا أن الصين لا تريد الدخول في صراع مع أمريكا بسبب السودان وغيره في أفريقيا[٩١]، ووجدت أن من الأفضل لها أن تعمل بالتنسيق مع الولايات المتحدة حول توفير مصادر الطاقة لا أن تعمل لوحدها في العالم[٩٢].

ولعل ما سبق يظهر حقيقية ما تشهده دارفور من حرب يغذيها لاعبان أساسيان, ألا وهما الصين والولايات المتحدة اثر انسحاب التنافس الاقتصادي بينهما إلى صلب أزمات السودان، ففيانيسان/ أبريل٢٠٠٧وقف لورانس روسين رئيس (الائتلاف الأمريكي انقذوا دارفور) ليلقي بشهادته أمام لجنة العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ الأمريكي والتي أكد فيها على أن الجهود الدبلوماسية أثبتت فشلها في التعامل مع حكومة السودان التي اتهمها بتحدي المجتمع الدولي، وتهاجم دارفور بجيوشها وطائراتها وندد في شهادته هذه بالصين وحرض على معاقبتها، وأضاف روسين قائلا: " .. إن لها علاقات متشابكة مع السودان.. في المجال الاقتصادي والعسكري والسياسي.. إنها أكبر مستثمر في مجال الصناعات النفطية فيه.., ولا يجب أن يخدعنا الصينيون بمقولة أنهم يتبعون دبلوماسية هادئة، إن ما تفعله الصين خطأ، ويتعين علينا أن نجبرها على فعل الصواب، وأعتقد أن دورة بكين الأولمبية لعام ٢٠٠٨ لها أهميتها في هذا الصدد.. وان على المجتمع الدولي أن يهددها بمقاطعة الدورة هذه.."[٩٣].

ونتيجة لمواقفها السابقة تعرضت الصين لضغوطات أمريكية كبيرة، كان منها الحملة الإعلامية التي عدت دورة الألعاب الأولمبية المقامة في الصين عام ٢٠٠٨ (بالألعاب الأولمبية والإبادة الجماعية genocide Olympics)[٩٤]، وذلك بسب دعمها للسودان في مواجهة تمرد دارفور، ويصب في اتجاه الضغط على السودان والصين في آن واحد إعلان الرئيس جورج بوش الابن في ٢٩ أيار/ مايو ٢٠٠٧عن تشديد العقوبات الاقتصادية المفروضة على السودان مبررًا ذلك بامتناع النظام عن وقف العنف الدائر في إقليم دارفور، قائلاً: ".. إن على العالم.. وضع حد لهذه الأعمال، وإدانة الرئيس البشير الذي دأب على ... عرقلة جهود وقف أعمال القتل في دارفور.."[٩٥].

وعلى ذلك غيرت الصين من موقفها تجاه أزمة دارفور, وضغطت على الحكومة السودانية لكي تقبل بقوات حفظ السلام هناك، لكي ترفع عنها الحملة الإعلامية الأمريكية حول الألعاب الأولمبية في بكين وترفع عنها تهمة المشاركة بالإبادة الجماعية، وقال المتحدث باسم وزارة الخارجية الصينية ليو جيان تشاو في وقت لاحق أن الصين ستزيد وجود قواتها لحفظ السلام في دارفور, في مسعًا منها لتخفيف الأزمة الإنسانية في دارفور, وقال أيضًا: "..ندعو باستمرار إلى الالتزام باستراتيجية المسارين التي تقضي بتحقيق التوازن بين عملية حفظ السلام والعملية السياسية.., والقائمة على تنفيذ الاتفاق الذي تم التوصل إليه بين الأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي والحكومة السودانية، كما يجب حث الأطراف ذات الصلة على الإسراع في الانضمام إلى المفاوضات من أجل التوصل إلى اتفاقات سياسية في وقت مبكر.." [٩٦].

وتوجهت فيما بعد نحو تحسين العلاقة مع الجنوبين وفتح قنصلية لها في جوبا وحث السودان على الموافقة على الاستفتاء وقبول نتائجه والعمل على المحافظة على مصالحها النفطية هناك[٩٧]، وهو ما أثنى علية المبعوث الأمريكي للسودان الذي عد الموقف الصيني يتحسن شيئًا فشيئًا وعلق عليه بالقول: ".. الصين في رأيي متعاونة جدًا، ومستوى التنسيق والتعاون يتحسنان كل شهر.."[٩٨]، وسارعت بكين للتحذير فيما يتعلق باتهام الرئيس البشير بارتكاب جرائم حرب في دارفور,[٩٩] وعلى لسان وانغ غوانجيا ممثلها لدى الأمم المتحدة، والذي حذر من خطورة إصدار مذكرة توقيف بحقه, عادًا أن إجراء كهذا".. يعرض للخطر عملية السلام الهشة أصلا في دارفور.."[١٠٠].

والحق أن إقليم دارفور يمثل منطقة محورية في هذا الصراع، ذلك بأن الذي يسيطر عليه لن يهيمن على نفط هذا الإقليم فقط، وإنما على نفط تشاد كذلك، ومن هنا كان سعي الصين إلى التواجد في المنطقة بغية الحصول على نصيب وافر من نفط كل من تشاد ودارفور، ويبدو الأمر وكأننا بصدد منافسة خفية حقيقية بين الولايات المتحدة والصين على مصادر النفط الهائلة في السودان وما جاوره وعدت سلسلة التدخلات الأمريكية في السودان أوضح دلالة على

التوجه الاستراتيجي الأمريكي نحو أفريقيا، والتي بدأت باتفاق السلام فيه وتعقب التطورات في دارفور التي تصف ما يجري فيها تطهير عرقي وإبادة جماعية، وممارسة الضغوط الأمريكية عليه للتعاون من أجل إيجاد حل لها، غير أن هناك ما يؤكد الدوافع النفطية في الاهتمام الأمريكي بدارفور التي تشكل- بموقعها المحاذي لبحيرة نفطية تمتد من إقليم بحر الغزال مرورا بتشاد والنيجر وموريتانيا ومالي والكاميرون - صمَّام أمان لتدفق النفط المستخرج من هذه المنطقة، وتمثل المدخل الرئيسي لغرب إفريقيا وتلاصق حدودًا مفتوحة على مناطق النفوذ الفرنسي في تشاد وأفريقيا الوسطى لذلك تدافعت الولايات المتحدة للضغط على السودان لكي لا يؤدي الوضع المتردي في دارفور إلى زعزعة استقرار المنطقة وتهديد تدفق النفط، ولاسيما من تشاد[١٠١]، وهو ما أفصح عنه الرئيس البشير في اكثر من منسابة، مشددًا على أن النفط هو أحد أبرز العوامل المحركة للسلوك الأمريكي المعادي لنظام في السودان، وحاول الرئيس البشير ثني الأمريكان عن مواقفهم تلك بالإعراب عن عدم ممانعته".. مشاركتهم في هذه الخيرات، ولكننا لا نريد أن يستحوذوا عليها بالكامل.."[١٠٢].

على أية حال، ترتب على المواقف الصينية السابقة المؤيدة للسودان ارتفاع واضح في معدلات استيرادات الصين من النفط السوداني الى٥٠٠،١٠مليون طن في عام ٢٠٠٨، وبرر السودان ذلك إلى حرص الصين على شراء حصته النفطية، فضلاً عن حصص شركاتها، بعد أن كانت تذهب لليابان وسنغافورة قبل دخول الصين في تلك المناقصات، وهكذا ترتب على الشراكة السودانية- الصينية، تحول السودان إلى دولة منتجة للنفط وقادرة على تصدير مابين٤٥٠ -٤٨٠ألف برميل من النفط يوميًا، وفقًا للإحصاءات عام ٢٠٠٩.[١٠٣]

وكان هناك تفاؤل لدى السودان بإمكانية إنتاج٧٠٠ ألف برميل في اليوم في نهاية العام نفسه، إلا أنه لم يتحقق لأسباب عديدة ومنها الخلاف الناشب بين طرفي الحكم، واحتمالات انفصال الجنوب، فضلاً عن اشتداد الأزمات في مناطق أخرى في البلاد والتي عرقلة المشاريع النفطية وحالة دون تحقيق الأمنيات في التصديرات المليونية [١٠٤]، لقد تحققت الإنجازات السابقة بفعل المساهمات الصينية في التحالفات النفطية وبشكل لافت، وحرص كلا الطرفين على الإعلان عن إدامة وتعزيز العلاقات بينهما، ومنها التصريحات بمناسبة الاحتفال بالذكرى٥٠ لإقامة العلاقات بينهما في شباط/فبراير عام٢٠٠٩، والتي شدد فيها رئيس الصين هو جين تاو للرئيس السوداني عمر البشير على أن".. بكين ستتبع دائمًا سياسة ودية تجاه السودان، وأيا كان التغيير في الوضع الدولي أو الداخلي.،، فإن هذه السياسة لن تتغير.." [١٠٥].

وأبدت رغبة في تطوير العلاقات الودية مع كلا الطرفين، وتعهدت بزيادة التعاون التجاري والاقتصادي والمالي في الشمال والجنوب على حد سواء، وأبلغت ذلك للرئيس البشير الذي زارها قبل عشرة أيام فقط من إعلان استقلال الجنوب في٩ تموز/ يوليو ٢٠١١[١٠٦]، لاعتقادها أن الانفصال لم يؤثر على استثماراتها الضخمة التي عادت عليها بالمنفعة الكبيرة، وهو ما قلل من المخاطر بالنسبة لشركاتها العاملة في السودان والتي ستعيد وضعها بعد انفصال الجنوب[١٠٧].

إلا أن العلاقات بين البلدين تأثرت كثيرًا بعد ظهور مؤشرات تؤكد انفصال الجنوب، ولاسيما في مجال النفط، وكانت الصين قد تحركت بسرعة تجاه الجنوب وافتتحت في عام ٢٠٠٨ قنصلية لها في جوبا التي استقبلت لاحقًا وفدًا من الصين، وتعهدت حكومة الجنوب أثناء اللقاء على احترام العقود النفطية مع الشركات الصينية التي أبرمها السودان أثناء الحرب الأهلية، كما توجه الاستثمار الصيني بعد ذلك توجهًا جديدًا في التعامل مع دولتي السودان بعد الانفصال، ولاسيما وأن حقوق السيطرة على المواقع النفطية شكلت محورًا لخلاف كبير بين الشمال والجنوب الذي ينتج ما نسبته٨٠% من النفط، إلا أن جميع منشآت تصدير النفط تقع في الشمال[١٠٨]، وهوما أوجب على الشركات الصينية التي تملك ما نسبته٤٠% من منشآت النفط أن تعيد توقيع اتفاقيات جديدة مع حكومتي الشمال والجنوب، وأعربت الصين أثناء زيارة الرئيس البشير لها عام٢٠١٠ عن سعيها لأن تلعب دورًا إيجابيًا في تعزيز السلام والمصالحة في السودان ودفع تنفيذ اتفاقية السلام الشامل قدمًا ووقف العنف وحل المسائل العالقة في شأن اتفاقية نيفاشا، وكان هذا الموقف صدى لما جاء في استراتيجية أوباما الخاصة، والتي أكد فيها حمل اللاعبين الدوليين على تنفيذ اتفاقية السلام ووقف العنف هناك.[١٠٩]

ومن جانب آخر، استشعر السودان دور الولايات المتحدة في المفاوضات حول مستقبل العلاقات بين الشمال والجنوب، والتي كان من أهم نتائجها الإعلان عن الرفع الجزئي للعقوبات الأمريكية في تشرين الأول/ أكتوبر٢٠١٠، وتخفيض الحظر على تصدير المعدات والخدمات الزراعية، والإعلان عن دخول ٦ شركات

أمريكية للعمل في هذا المجال، وكانت الإدارة الأمريكية قد أصرت على ضرورة إبقاء السودان على علاقات ودية مع دولة الجنوب بعد الانفصال في مقابل الوعد بالسعي لرفع كامل العقوبات الدولية وشطبه من قائمة الدول الداعمة لما يسمى بـ(الإرهاب)، وتقديم المساعدة في خفض ديونه، وممارسة الضغط على المتمردين لإنهاء التمرد في دارفور[١١٠]، كما وضعت الإدارة الأمريكية خطة تستهدف الاستحواذ على نفط السودان بعد الكشف عن وجود مخزون نفطي أكبر مما توقعته تقارير أمريكية سابقة، بما فيها استكشافات شركة شيفرون[١١١].

وبذلك واصل نفط السودان جذب الاهتمام العالمي، واستطاع أن يوقع في كانون الأول/ ديسمبر٢٠٠٩اتفاقية مع شركة النفط الفيتنامية (بترو فيتنام Petro Vietnam)، وقام وزير النفط الهندي بزيارة السودان في كانون الثاني/ يناير عام٢٠١٠ واجرى محادثات للتعاون المكثف بين السودان وشركة النفط والغاز الطبيعي الهندية (ONGC Videsh Ltd)،وفي الاطار ذاته التقى في آذار/مارس٢٠١٠ ميخائيل مارجيلوف المندوب الروسي بوزير الطاقة والتعدين الزبير أحمد الحسن في الخرطوم لغرض مناقشة اهتمام الشركات الروسية بدخول قطاع النفط والغاز[١١٢]، بعد أن أثبتت الدراسات وجود مكامن نفطية في الشمال أكبر من الجنوب، إلا أنها تنقصها الخبرة والتمويل، وترى وزارة النفط أن الدخول إلى دائرة الإنتاج تستغرق بعض الوقت ما بين ٣-٥ سنوات[١١٣] مع تأكيدات على امتلاك احتياطي نفطي كبير غير مستخدم ،وذلك لتركز الإنتاج في الرقع القديمة الغنية بالنفط والتي يقع غالبها في الجنوب، وشمال السودان يمتلك أنابيب التصدير المهمة لنفط الجنوب والتي تمر شمالا إلى ميناء بشائر، لذا بدأ السودان يصدر نفط الجنوب مقابل رسوم عبور، وسرعان ما تصاعدت التوترات بين البلدين في نهاية عام٢٠١١، وبعد مفاوضات وتدخلات أمريكية وصينية وإقليمية، أعاد جنوب السودان تشغيل إنتاج النفط في نيسان/ أبريل٢٠١٣ [١١٤].

خاتِمَةٌ

وهكذا أسهم النفط في جعل السودان بشماله وجنوبه ساحة لتنافس دولي بين الشركات الصينية والأمريكية وغيرهما، يدفعهم إلى ذلك استغلالهم لحاجته للتمويل الازم لمعالجة أزماته الداخلية وللتصدي للتمردات المسلحة التي نشبت على أراضه،

وكان لهذا التنافس تأثيراته عليه لأنه أصبح في دائرة الاستهداف العالمي والإقليمي، ولا سيما بعد انقلاب حزيران/ يونيو عام١٩٨٩، والذي كان من أهم نتائجه انسحاب الشركات الأمريكية من قطاع النفط، وإخلاء الساحة تماماً للصاعدين الجدد (صينيين وهنود وغيرهم) ممن استطاعوا الاعتصام بمواقعهم على خارطة الاستثمار النفطي، وقاموا بتعزيزها نظرًا لخلو المجال من المنافسين الأمريكان الذين سرعان ما عادوا إلى المشهد التنافسي الدولي على النفط السوداني بخاصة والأفريقي بعامة، ومع حدته، إلا أنهما يشتركان في أسباب استهدفهما للسودان والتي توحدت في جوهرها، ومنها حرصهما على تنويع المواقع الجغرافية لوارداتهما النفطية لضمان تدفق مستمر لموارد الطاقة فيما لو تعرضت للخطر، ولاسيما مصادر الشرق الأوسط المضطرب، وفي الوقت نفسه عدت الدولتان السودان (بشماله وجنوبه) سوقًا واعدة وأرضًا بكرًا تنتظر المستثمرين وتعد بأرباح طائلة.

ويمكن أن نلمس وجود اختلاف في رؤى هاتين الدولتين حول الوسائل الأنسب لاقتناص الفرصة والنابعة من لوازم وكوابح سياسية وأيديولوجية تفرق بينهما، ومن أهمها: الاختلافات بينهما في مستوى التكتيك وفي مستوى الاستراتيجية في التعامل مع السودان، مع أنهما ينشطان في استمالة الطبقات الحاكمة وفق السياسات التي تضمن لكل منها مصالحهما، وضمان استمرار تدفق النفط وضمن ضوابط وأهداف خاصة بكلاهما، فضلاً عن قناعة كلا الدولتين بأن السيطرة على منابع النفط البكر يحقق لهما- في المستقبل القريب والبعيد- ما يطمحان لهما من مصالح وأهداف اقتصادية حيوية، وقد تتحول مع اشتداد الحاجة إلى النفط وازدياد أهميته التنافسية إلى صراع دولي حوله، إلا أنه لم يمنع الكل التمسك بقواعد اللعبة وعدم الانجرار إلى صراع أكثر قوة وعنفًا.

وعد النفط السبب المباشر في تعقيد الكثير من قضايا السودان ويغذي صراعاته الداخلية ويعمقها، وحرمه من استغلال عوائده في تحقيق تنمية مستدامة تحقق الرفاهية والتطور العلمي والعمراني، وبدلاً من ذلك، وظفت هذه العوائد في استدامة زخم المعركة والمواجهة في الجنوب وفي أقاليم أخرى تحرك فيها من يطالب بالإصلاح واقتسام الثروة، سواء بتأثير الواقع المحلي أو بتأثير تدخل إقليمي ودولي، والذي انتهى بفصل الجنوب الغني بالنفط عن الشمال الذي لم تشهد الكثير من أراضيه

أعمال كشف وتنقيب، ما أدى إلى حرمانه من موارد مالية كبيرة.

وكان للنفط تأثيراته السلبية على العديد من مناطق الإنتاج من تهجير قسري أو طوعي للسكان في مناطق الإنتاج من لدن الدولة أو الشركات النفطية العاملة، وكانت السمة الرئيسة الغالبة على سياسة الحكومة تجاه القاطنين في تلك المناطق التهجير قسرًا، فضلاً عن الهجمات بطائرات المروحية المقاتلة عليهم بقصد إخلاء مناطقهم من الوجود البشري وتأمينها من أي هجوم محتمل، لأنها كانت مسرحًا للنزاع الدائر بينها وبين المتمردين، كما اعتادت القوات من الجانبين حرق ونهب القرى في المنطقة بقصد تصفية عدو لم يعد له وجه، وذلك جراء اختلاط المتمردين مع مليشيات محلية تعمل إلى جانب الحكومة، ولعبت الشركات المنتجة دورًا رئيسًا في الصراع، وذلك بفتح منشآتها لاستعمال القوات الحكومية المقاتلة وحلفائها من المليشيات، وترتب على ذلك حرمان أعداد كبيرة منهم من الأراضي الزراعية بحجة وقوعها في مناطق التنقيب والإنتاج، ومنها ما حدث في هلجليج ومنطقة أبيي وفي منطقة الجزيرة، فضلاً عن انتشار المخلفات الصناعية وحدوث تأثيرات بيئية خطيرة، واستشراء الفساد المالي والإداري وظهور طبقة من المنتفعين السياسيين أو من المقربين منهم، على حساب الأغلبية، وفي هذا يقول حسن الترابي ".. إن البترول الذي أخرجناه من آبار دخل... آبار أعمق منها وأصبح وبالاً على السودان.."[115].

على أية حال أحدث إنتاج النفط وتصديره في السودان تأثيرات مهمة في الاقتصاد الذي تحول من جراء ذلك إلى اقتصاد ريعي يعتمد النفط كمادة أساسية في الناتج القومي، واستشعر السودان بعد انفصال الجنوب علم ٢٠١١ أهمية استغلال موارده الطبيعية الأخرى، فضلاً عن النفط بما يلبي احتياجات شعبه في مختلف أوجه التنمية البشرية وتطوير الإنتاج الزراعي والصناعي والحيواني، والخروج بالبلاد من حالة الاقتصاد الريعي الأحادي الجانب الذي يعتمد على النفط إلى اقتصاد متعدد المصادر يؤمن حاجة البلاد من الموارد المالية لتحقيق أهدافها المنشودة، وعلى هذا نجد توجه واضح للحكومة نحو اكتشاف المعادن الأخرى ولا سيما الذهب فضلاً عن زراعة المواد الأولية الداخلة في الصناع وأهمها القطن وكذلك الاستفادة القصوى من الوارد الحيوانية المتنوعة والكبيرة في البلاد.

الهَوامِشُ:

(١) جمهورية السودان، وزارة الثقافة والإعلام، **قصة البترول في السودان**، (الخرطوم،١٩٨١)، ص١٨-٢٠؛ عادل أحمد إبراهيم، **"النفط..جدلية الوحدة والانفصال"** ورقة قدمت في المؤتمر العلمي الرابع تحت عنوان (قضايا ما بعد الاستفتاء)، المنعقدة بقاعة الشهيد الزبير محمد صالح في الخرطوم، في ٢٨-٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠١٠، ص١٢.

(٢) قاد الفريق إبراهيم عبود انقلابًا عسكريًا في١٧تشرين الأول/ نوفمبر١٩٥٨، ودخلت البلاد في حقبة الحكم العسكري الأول ١٩٥٨-١٩٦٤. يُنظر: ذاكر محي الدين عبد الله، **الانقلابات العسكرية في السودان ١٩٥٨-١٩٧١، دراسة تاريخية**، منشورات مكتبة بشار، (الموصل،٢٠١٤)، ص ٨٥-١١٣.

(٣) الموسوعة الحرة ويكيبيديا www.wikipedia.org/wiki/Agip؛ موقع الشركة: -www.shell livewire .org؛ جمهورية السودان، قصة البترول .. ص ١٨-٢٠.

(٤) موقع الشركة: www.bp.com؛ موقع الشركة: .www Conoco .com؛ سيف الدين حسن صالح: **البترول السوداني، قصة كفاح أمة**، بلا، ٢٠٠٤، ص ٢٠ -٣٠.

(٥) ولد عام١٩٣٠ في قرية ود نميري قرب مدينة دنقلا، تولى الحكم العسكري الثاني في٢٥ أيار ١٩٦٩، وأطيح به في نيسان ١٩٨٥. لطفي جعفر فرج، **جعفر نميري**، الجامعة المستنصرية، بغداد، ١٩٨٥، ص٥ وما بعدها.

(6) Zhao Hong, China's Oil Venture in Africa, China in the World, Regional and Global Impacts", 5-6 August 2007, Institute of China Studies, University of Malaya.p61.

(٧) القانون رقم ٥٩ الصادر في ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٧٢ نظم عملية التنقيب واستغلال النفط. جمهورية السودان، المجلس الوطني على الرابط الآتي: www.sjsudan.org/display.

(٨) بدأت بتمرد الفرقة الجنوبية في الجيش عام ١٩٥٥ وانتهت بتوقيع اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢، وفي عام ١٩٨٣ بدأت المرحلة الثانية على أثر تطبيق الشريعة الإسلامية في سبتمبر١٩٨٣ وإعادة تقسيم ولايات الجنوب وأنهت بعقد اتفاق السلام عام ٢٠٠٥. منصور خالد: **جنوب السودان في المخيلة العربية**، دار تراث، (بيروت،٢٠٠٠)، صفحات متعددة.

(٩) وقعت في ٢٧ شباط/ فبراير١٩٧٢ في أديس أبابا بين الحكومة وحركة تحرير السودان لإنهاء الحرب الأهلية. عبد اللطيف كريم الزبيدي، **مشكلة جنوب السودان**، رسالة ماجستير، معهد الدراسات القومية والاشتراكية، الجامعة المستنصرية، (بغداد، ١٩٨٥)، ص٣٦-٥٩؛ ذاكر محي الدين عبد الله، **"الابراغماتية الأمريكية: قراءة في خلفيات صدور قانون سلام السودان"**، آداب الرافدين، العدد٥١، كلية الآداب، جامعة الموصل، أيلول ٢٠٠٨، ص ١١٥ -١٤٤.

(١٠) توصلت إلى كشف مخزون كبير للغاز في حقل سواكن وحقل بشائر. صالح: البترول... ص٢٨؛ موقع الشركة على الرابط: www.chevron.com؛ منصور خالد، السودان والنفق المظلم، (لندن، ١٩٨٥)، ص١٣٦.

(١١) وتمكنت من التنقيب في طوكر وفي آبار: الوحدة و٢٥ مايو ويانج وبئر أمل وأبو جابره في المجلد، ومنذ عام ١٩٨٠

بدأت المساحة المشمولة بالتنقيب لها بالتقلص إلى نحو ٢٢٥ كم٢حسب الاتفاقية والتي تقضي بالتنازل عن نسبة من الأراضي في كل سنة تمضي من الاتفاق. جعفر كرار أحمد، **الحزب الشيوعي السوداني والمسألة الجنوبية**، دار جامعة الخرطوم، ٢٠٠٤، ص ٢٦٢-٢٦٣.

(١٢) موقع الشركة على: (www.Sunoco.com)؛ منظمة إيكوس (ECOS: الائتلاف الأوروبي حول النفط في السودان)، صناعة النفط في السودان عشية الاستفتاء، حقائق وتحليل (٤)، كانون الأول/ ديسمبر٢٠١٠، ص٢٧-٢٩ على الرابط الأتي: www.ecosonline.orgugn.

(١٣) موقع الشركة على: www.total.com؛ صالح: البترول.. ص٢٨؛ إبراهيم، النفط.. جدلية.. ص٥.

(١٤) صالح: البترول.. ص١٤١ – ١٤٢.

(١٥) أسسها عام ١٩٨٣ جون قرنق، أقامت علاقات وثيقة بالولايات المتحدة لها ذراع مسلح سمي الجيش الشعبي الذي دخل في حرب مع السلطة لمدة ٢٠ عامًا انتهت بتوقيع اتفاق نيفاشا عام ٢٠٠٥. يُنظر: بونا مالوال: **السودان، رابطة بين أفريقيا العربية وأفريقيا غير العربية**، الخرطوم (بدون تاريخ)، ص١٠ وما بعدها؛ عبد الله، الابراغماتية.. ص ١١٥-١٤٤.

(١٦) حدثت في أبريل ١٩٨٥، وترتب عليها سقوط الحكم العسكري الثاني والذي كان يقوده الرئيس نميري وعودة الحكم المدني الذي يعرف بالديمقراطية الثالثة. محمد الشيخ حسين، **مرفأ الذاكرة السودانية**، الخرطوم، ٢٠٠٩، ص ١٠ وما بعدها.

(١٧) هي حقبة الحكم الديمقراطي الثالث (١٩٨٥-١٩٨٩) وهي التي شهدها السودان بعد نجاح الانتفاضة الشعبية السودانية في أبريل١٩٨٥، عاد على أثرها النظام المدني والذي أسقطه انقلاب يونيو ١٩٨٩. سرحان غلام العباسي، **التطورات السياسية في السودان المعاصر١٩٥٣-٢٠٠٩، دراسة تاريخية وثائقية**، (بيروت، ٢٠١١)، ص ١٠٠وما بعدها.

(١٨) ولد في عام ١٩٣٥، وهو رئيس حكومة مرتين (١٩٦٧ - ١٩٦٩) و(١٩٨٦ - ١٩٨٩)، إمام الأنصار ورئيس حزب الأمة، رئيس الجبهة القومية المتحدة. منى حسين عبيد الشمالي، **حزب الأمة ودوره في الحياة السياسية السودانية من عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٨٩**، رسالة ماجستير، كلية التربية للبنات، جامعة بغداد، ٢٠٠٣، ص٤٨ وما بعدها.

(١٩) يُطلق على الحكم بعد بانقلاب حزيران/ يونيو ١٩٨٩ ثورة الإنقاذ الوطني، وما زال يسيطر على مقاليد السلطة حتى الآن. يوسف الشريف، **السودان وأهل السودان، أسرار السياسة وخفايا المجتمع**، دار الشروق، ط٢، (القاهرة،٢٠٠٤)، ص٢٠؛ المحجوب عبد السلام، **الحركة الإسلامية السودانية، دائرة الضوء.. خيوط الظلام**، القاهرة، ص٢٤.

(٢٠) صالح: **البترول السوداني**.. ص١٠١ وما بعدها؛ صحيفة الصحافة، (الخرطوم)، ٤ كانون الاول٢٠١٠ .

(٢١) كريم القاضي "**النفط ووحدة السودان**"، مجلة السياسة الدولية، القاهرة، العدد ١١٣، نيسان ٢٠٠٤.

(٢٢) وكانت الولايات المتحدة قد حذرت شركة بتروشاينا الصينية من استلام أية شحنة من النفط السوداني في مصفاتها المبنية حديثًا في جنوب الصين، والقادرة على معالجة مزيج دار. لاحقًا عالجت العديد من المصافي الأسيوية مزيج دارًا ما أدى إلى ارتفاع عائدات السودان المالية على أثر تزايد الطلب عليه. منظمة إيكوس، صناعة النفط في السودان.. ص٩-٢٦.

(23) Paul Goldsmith, Lydia A Abura and Jason Switzer, Oil and Water in Sudan, Chapter Five, Scarcity and Surfeit, Pp.187-241.

(٢٤) قناة الجزيرة القطرية، برنامج بلا حدود ٧شباط/ فبراير ٢٠٠٨، على الرابط: www. Aljazeera .net ؛ Chris Mansur, The Secret War Between China and the US for Africa's Oil Riches20 November 2012, www.oilprice.com/Market-Intelligence-Report.php.

(٢٥) إبراهيم ، "**النفط.. جدلية**.. ص١٢؛ صالح: **البترول السوداني**.. ص ١٠١.

(٢٦) تحتوي على ما نسبته ٧-١٠% من احتياطيات النفط في العالم، وزاد إنتاجها في السنوات الأخيرة بنسبته ٣٦% مقابل نسبته ١٦% لباقي القارات. عبد الكريم حمودي، **الولايات المتحدة تضع النفط الإفريقي ضمن قائمة الأهداف الاستراتيجية**، نقلاً عن: موقع المشكاة على الرابط الاتي: www.meshkatnet/new/contentsphp?

(٢٧) عقدت القمة الأفريقية الفرنسية في مدينة كان في أذار/ مارس٢٠٠٨، وفي حزيران/ يونيو ٢٠٠٨ قام توني بلير رئيس وزراء بريطانيا بجولة في أفريقيا، تبعته أنجيلا ميركل المستشارة الألمانية في تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٨، ثم عقد في كانون الأول ٢٠٠٨ القمة الأفريقية الأوروبية في لشبونة. قناة الجزيرة، برنامج بلا حدود، المصدر السابق.

(٢٨) إيان رتليدج، **العطش إلى النفط، ماذا تفعل أمريكا بالعالم لضمان أمنها النفطي**، ترجمة مازن الجندلي، بيروت، ٢٠٠٦، ص٧.

(٢٩) ولد عام ١٩٤٤ بقرية حوش بانقا ربفي شندي، تخرج من الكلية الحربية السودانية عام ١٩٦٧، قاد انقلابًا عسكريًا في ٣٠ حزيران/ يونيو ١٩٨٩، وجمع بين منصب رئاسة الحكومة ورئاسة الدولة ورئيس مجلس قيادة الثورة، وأعيد انتخابه في ٢٦ نيسان ٢٠١٠. عصام عبد الفتاح، **البشير رجل لا ينحني.. وزعيم لن يبيع**، كنوز للنشر والتوزيع، (القاهرة، ٢٠٠٨)، ص٣٧ وما بعدها؛ موقع البشير الإلكتروني على الرابط الاتي:www.albashir.sd

(٣٠) ولد عام ١٩٤٥، وهو من قبائل دينكا الجنوبية ، تلقى دراسة الدكتوراه في الاقتصاد في الولايات المتحدة ،وبعد اتفاقية أديس أبابا عام ١٩٧٢ التحق بصفوف الجيش. وعند اندلاع التمرد عام ١٩٨٣ التحق به وأصبح من مؤسسي الحركة الشعبية لتحرير السودان، تولى منصب النائب الأول للرئيس بعد توقيع اتفاقية السلام، لقي مصرعه إثر سقوط طائرته في اغسطس٢٠٠٥. الواثق كمير(تحرير)، **جون جرنق، رؤيته للسودان الجديد وقضايا الوحدة والهوية**، المجموعة الاستشارية، (القاهرة، ١٩٩٨).

(٣١) ألزمت الحكومة بدفع مستحقات الشركة خلال عام واحد على أن يشتري وسيط ثالث أسهم الشركة حسب قانون الشركات الأمريكية، والذي لا يسمح لها بالبيع لها مباشرة، فاشترت شركة كونكورب الأسهم ثم قامت ببيعها لها. صديق عبد الهادي، **ثقافة الاستثمار الأمريكية**، موقع

الاقتصاد السياسي السوداني، على الرابط الاتي: www.sudaneseeconomist.com.

(٣٢) أدرج ضمن الدول الراعية (للإرهاب) منذ عام ١٩٩٣ أثر اتهامه بدعم وإيواء أسامة بن لادن (الإرهاب). يُنظر: تيم نبلوك، **العقوبات والمنبوذون في الشرق الأوسط، العراق، ليبيا والسودان**، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت، ٢٠٠١)، ص٢٢٠؛ ندوة استشراف مستقبل العلاقات السودانية الأمريكية التي نضمها مركز دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا، الخرطوم ٧-٨ كانون الثاني ٢٠٠٣، ص١٧، وص٣٥٠.

(٣٣) ألزمت الحكومة بدفع مستحقات الشركة خلال عام واحد على أن يشتري وسيط ثالث أسهم الشركة حسب قانون الشركات الأمريكية، والذي لا يسمح لها بالبيع لها مباشرة، فاشترت شركة كونكورب الأسهم ثم قامت ببيعها لها. صديق عبد الهادي، **ثقافة الاستثمار الأمريكية**، موقع الاقتصاد السياسي السوداني، على الرابط الاتي: www.sudaneseeconomist.com.

(٣٤) مجدي الجزولي، **البترول في السودان... مورد وطني** أم" مؤتمر وطني (سلسلة حلقات)، ٢٧ نيسان/ أبريل ٢٠١١، موقع الاقتصاد السياسي السوداني، على الرابط الآتي: www.sudaneseeconomist.com.

(٣٥) نشطت الدبلوماسية تبرز التوجه هذا بالتأكيد على إن واشنطن والغرب تجدا صعوبة في التأثير على قرار السودان، لأنه يمثل نموذجًا متمردًا في إفريقيا لا يخضع لأدوات السيطرة الغربية. **ندوة استشراف مستقبل**، المصدر السابق، ص١٧ وما بعدها.

(36) Hongyi Harry Lai, China's Oil Diplomacy: is it a global security threat?, Third World Quarterly, Vol. 28, No. 3, 2007, pp 519 – 537.

(٣٧) جعفر كرار أحمد، **صناعة النفط والبتروكيماويات في الصين وانعكاساتها على العلاقات العربية الصينية**، أوراق آسيوية، رقم ٥٤، مركز الدراسات الآسيوية، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، شباط/ فبراير ٢٠٠٤، ص٢-١١.

(٣٨) هي أكبر الشركات الصينية الحكومية تأسست عام ١٩٨٨ وهي، ولديها مشاريع للتنقيب في ٣٠ دولة، وتأتي قوتها من شراكتها مع حكومات الدول النفطية والشركات المتعددة الجنسيات، وتُعَدّ أكبر أربع شركات أجنبية تعمل في السودان، موقع الشركة على الرابط الآتي: www.cnpc.com.cn/en؛ أحمد، **صناعة النفط والبتروكيماويات في الصين**، المصدر نفسه، ص ٢-١١.

(٣٩) اتبعت فيها سياسة (دبلوماسية النفط الصينية) التي تشدد على أهمية تحقيق أمن الطاقة وركزت بمجملها على تنويع مصادرها وإقامة علاقات جيدة مع الدول المصدرة للنفط وتقديم الاستثمارات والدعم السياسي والاقتصادي.. وهو ما دفع معظم الأنظمة، إلى رفع شعار (التوجه شرقًا) نحو الصين هربًا مما يُعرف (بفقه المشروطية السياسية) التي يفرضها الغرب، واستطاعت تقوية علاقاتها عبر منتدى التعاون الصيني -الأفريقي الذي أنشئ عام ٢٠٠٠، وضم ٤٦ دولة. Lai, China's Oil op.cit,pp519-522; Peter C. Evans, Untangling China's Quest for Oil through State- backed Financial Deals, Asia Strategy Toranomon, Tokyo, March 29, 2006,pp1-19;

(٤٠) ويتوقع أن يزيد بنسبة ١٥٠% في عام ٢٠٢٠، أما استهلاكها للغاز الطبيعي فسيزيد بنسبة ١١٠٠%. جعفر كرار أحمد، **التعاون الصيني – السوداني في قطاع النفط، النشأة والتطور.. الفرص والتحديات**، دراسة تحليلية، معهد دراسات الشرق الأوسط-جامعة الدراسات الدولية-(شنغهاي، د.ت)، ص٨-١٠. إدارة معلومات الطاقة، "نظرة على الطاقة في العالم عام ٢٠٠٢"، "الاستهلاك العالمي للطاقة خلال الفترة ١٩٧٠-٢٠٢٠"، على الرابط الاتي: www.eia.doe.gov/oiaf/ieo/figure-2.html.

(41) ZHAO HONG ,China-U.S. Oil Rivalry in Africa, The Copenhagen Journal of Asian Studies 26(2)•2008, pp97-100; Stephanie Hanson, China, Africa, and Oil, Council on Foreign Relations, June 6, 2008.www.CFR.org., Pp 1–5.

(٤٢) علق حسن الترابي السبب بقوله: "..اختارت الحركة الإسلامية الصين كقوى كبرى تلجأ إليها في صراعها المتوقع مع الغرب.. وكانت زيارتنا للصين في عام ١٩٨٨ جزء من الإعداد لاستلام السلطة..". أحمد، **التعاون الصيني**.، ص١٠-١٣.

(٤٣) حيث كانت تربط نائب رئيس الوزراء الماليزي السيد أنور إبراهيم ببعض قادة الحركة الإسلامية السودانية كحسن الترابي صداقة قديمة. أحمد، **التعاون الصيني**... ص١٠-١٣.

(44) Lai, China's Oil Diplomacy,op.cit,pp519-522; Bill Gertz and Rowan Scarborough, "Chinese in Sudan," Inside the Ring, March 5, 2004, at www.gertzfile.com.

(٤٥) حمدي عبد الرحمن حسن، **"التنافس الدولي في القرن الإفريقي"**، السياسة الدولية، العدد ١٧٧، تموز/ يوليو ٢٠٠٩، ص ١٧٤.

(٤٦) جمهورية السودان، وزارة الاستثمار: www.sudaninvest.org؛ وزارة الصناعة، على الرابط: www.industry.gov.

(47) Lee, H.and D.A. Shalmon, "Searching for Oil: China's Oil Initiatives in the Middle East" .Faculty Research Working Papers Series, March 2007.at:http//ksgnotes.harvard.edu.

(٤٨) الجزولي، **البترول في السودان**.، المصدر السابق؛ Chris Mansur: The Secret War Between China and the US for Africa's Oil Riches, 20 November 2012,www.oilprice.com.

(٤٩) أحمد، **صناعة النفط** .. ص٥ وما بعده؛ تقارير شركة النفط الوطنية الصينية على الرابط الآتي: www cnpc.com.cn/en

(٥٠) شجعتها واشنطن لانتهاز انفتاح الاستثمار في دول الاتحاد السوفيتي السابق وحفزتها بخصم ديونها من التزاماتها الضريبية. منصور خالد، **النخبة السودانية وإدمان الفشل**، ج٢، مطابع سجل العرب (القاهرة، ١٩٩٣)، ج٢، ص٣٣٨-٣٣٩.

(٥١) المملوكة لرجل الأعمال السوداني محمد جار النبي. **"العولمة وسياسة السودان الخارجية"** موقع المشكاة نت، على الرابط الآتي: www.mmeshkat.net/node/؛ صالح المصدر السابق، ص ٤٨ -١٠٠.

(٥٢) منحت شركة كونكورب حقولها لشركة ستيت الكندية وذلك في آب/ أغسطس١٩٩٣، وعقدت الحكومة مجموعة أخرى من الاتفاقات مع شركات غير أمريكية أو المحسوبة عليها، منها الشركة الكندية (IPC) عام١٩٩١، وشركة لندين في كانون الثاني/ يناير١٩٩٢، وبنهاية عام ١٩٩٢ كانت كل من شركة ستيت وشركة آراكيس الكنديتان تسيطران على جزء من قطاع النفط، كما اتفقت مع شركة الخليج (GPL) في عام 1990. كرار أحمد، **صناعة النفط والبتروكيماويات**.. ص٢-١١؛ الجزولي، المصدر السابق.

(٥٣) صالح المصدر السابق، ص٤٨ -١٠٠؛ عبد الهادي، **ثقافة الاستثمار**، المصدر السابق؛ Mansur:, op.cit, P.12.

(٥٤) قط سمير، **الاستراتيجية الاقتصادية الصينية في إفريقيا: فترة ما بعد الحرب الباردة، قطاع النفط أنموذجًا**، رسالة ماجستير مقدمة إلى كلية العلوم السياسية والعلاقات الدولية، جامعة محمد خيضر – بسكرة، السنة الجامعية ٢٠٠٧-٢٠٠٨، ص ٣٠-٨٠.

(٥٥) قامت الحكومة بالضغط على شركة ستيت بتروليوم في آب/ أغسطس١٩٩٦ للقبول بالتحالف، وقامت هذه الشركة في تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٩٨ ببيع أسهمها لشركة تاليسمان، وكان الهدف من التحالف تحقيق إنتاج ١٥٠-٣٠٠ ألف برميل يوميًا بحلول عام١٩٩٩. أحمد، **التعاون الصيني**.. ص٢٢-٢٤؛ ورابط شركة تلمسان -www.talisman energy.co.

(٥٦) تاج السر عثمان، **النفط السوداني: الشركات متعددة الجنسية وصراع المصالح**، منشور في موقع الحوار المتمدن على الرابط الاتي www.ahewar.org/debat/show؛ أحمد، **التعاون الصيني – السوداني**، ص٢٢-٢٨.

(57) Michael Rodgers, SUDAN Projected Oil Production and Revenues, PFC Strategic Studies, August, 2009.

(٥٨) كان معدل الإنتاج بما يزيد على ٢٦٠ ألف برميل بنهاية عام ٢٠٠٢، وبلغت العائدات النفطية في العام نفسه ما يقارب ١٫٣ مليار دولار. عثمان، المصدر نفسه؛ مجلة النفط والغاز، المؤسسة السودانية للنفط، العدد الأول، مارس٢٠٠٣، ص١٥؛ مجلة النفط والغاز، العدد السابع، سبتمبر ٢٠٠٥، ص٥٥؛ Rodgers,op, cit.

(59) US, China Interests Compete In Sudan,www.voanews.com/ content/us .china وموقع وزارة الخارجية السودانية www.Sudan mfa.com; على الرابط الأتي;Chenchen Wu, China's Foreign Policy towards Africa,he School of Government and International Affairs,Durham University,www.Pol.ed.ac.uk

(٦٠) ومنها شركة تاليسمان الكندية، التي وجهت إليها تُهمًا بالمشاركة في أعمال التطهير العرقي بالاستناد إلى تقارير صادرة عن مؤسسات آمنستي إنترناشيونال (١٩٩٦، ١٩٩٧) وهيومان رايتس ووتش (١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٦)، والادعاء العام الامريكي في عام ٢٠٠٠، فادى ذلك إلى وقيام شركة النفط الهندية بشراء حصتها والبالغة ما نسبته ٢٥% بمبلغ ٧٥٠ مليون دولار. ابراهيم، **النفط .. جدلية**.. ص ٥ ؛ Hong, China's Oil Venture,op.cit,pp13-14

(٦١) اغتنمت واشنطن مبادرة منظمة الإيجاد عبر تصريحات مادلين أولبرايت وزيرة خارجيتها في نيروبي في تشرين الثاني ١٩٩٩ والتي جاء فيها: "أن الولايات المتحدة لن تتعامل إلا مع مبادرة الإيجاد وحدها". ذاكر محي الدين عبد الله العراقي: **دراسات في تاريخ السودان المعاصر**: سلسلة شؤون إقليمية رقم ٤٠، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة الموصل، الموصل، ٢٠١٢ص ٤٠؛ Downs, E. "Energy Security Series: China". The Brookings Foreign Policy Studies, Dece- mbera.at:www.brookings.edu/fp; LUKE.A.PATEY, CRUDE DAYS AHEAD?OIL ANDTHE RESOURCE CURSE IN SUDAN, African Affairs,pp109/437, 617–636

(٦٢) خالد التيجاني النور، النفط.. جدلية التقارب والتباعد، ورقة قدمت في ندوة " **دولتا السودان.. فرص ومخاطر**" بالدوحة، كانون الثاني/ يناير ٢٠١٢، مركز الجزيرة للدراسات، (الدوحة، ٢٠١٢)، ص٢-٥.

(٦٣) قام الرئيس بوش الابن بزيارة أفريقيا، وتضاعفت المساعدات إبان رئاسته بواقع أربعة أضعاف، ووضعت نصب عينيها الاستثمارات النفطية الكبيرة للصين كمثال حي للاستراتيجيات التي تتبعها والتي تقوم على تقديم حزم متكاملة تشمل التمويل والخبرة التقنية إلى جانب النفوذ في المحافل الدولية. الجزولي، البترول في السودان.. المصدر السابق؛ يُنظر: موقع أفريقيا اليوم على الرابط الآتي:www.africaalyom.com/web: US, China Interests Sudan ,op .cit;

(64) Gill,B.,Chin-hao Huan and J. S. Morrison. "China's Expanding Role in Africa" .CSIS (Center for Strategic and International Studies) Report, January 2007. at:www.csis.org.

(65) Peter Brookes, Ji Hye Shin ,China's Influence in Africa: Implications for the United States, The Heritage Foundation, No.1916, February22, 2006, p2-8.at www.heritage.org; HONG,op.cit,p110.

(٦٦) يُعَدّ مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية في واشنطن أول من نبه إلى خطورة ذلك وشكل في تموز ٢٠٠٠ ورشة عمل لتقييم أداء إدارة كلنتون الثانية تجاه السودان وتقديم التوصيات للإدارة بوش الابن، وشارك في عضوية هذه الورشة اكثر من ٥٠ عضوًا في الكونكرس، وفرنسيس دينق السياسي الجنوبي المعارض وجي ستيفن موريسون مدير برنامج أفريقيا في المركز، وممثلون لإدارة كلنتون وللأمم المتحدة، وفي شباط ٢٠٠٢ رفعت تقريرها إلى الرئيس بوش الابن بعنوان (سياسة الولايات المتحدة لإنهاء الحرب في السودان) تقترح فيه على الإدارة خارطة طريق لتعاطي مع الوضع في الجنوب. النور، النفط.. جدلية.. ص٥-١٢.

(67) David H. Shinn, Africa, China, the United States, and Oil, Center For Strategic and International Studies. (CSIS), 7Jan 2013, www.csis .org.

(٦٨) عن تقرير السناتور جون دانفورت: يُنظر موقع الحكومة الأمريكية الرسمي على الرابط الاتي: www .america gov/st.

(٦٩) اندلع التمرد في شباط عام ٢٠٠٣ نتيجة تراكمات سياسية واجتماعية وأخطاء حكومية ولا يقل خطورة عن خطر تمرد الجنوب. يُنظر: ذاكر محي الدين عبد الله، **"الجماعات المسلحة والسياسية في دارفور، دراسة في الخلفية التاريخية ومنطلقاتها الفكرية"**، آداب الرافدين، العدد٦٠، كلية الآداب، جامعة الموصل، نيسان عام ٢٠١٢؛ F. William Engdahl, Darfur: Forget genocide, there's oil, Asia Times Online ,China Business,May 25, 2007,www.atimes .com.

(70)Peter Brookes, Ji Hye Shin,China's Influence inAfrica,op.cit,p5;www .voanews.com/content /us-china-interests-compete -in-Sudan-October 03, 2010; أحمد، **التعاون الصيني** ...ص ص٨٠-٩٤.

(٧١) امتنعت عن التصويت على قرارات مجلس الأمن حول دارفور ومنها القرار رقم ١٥٥٦ الصادر في٣٠ يوليو٢٠٠٤، والقرار رقم ١٥٦٤ الصادر في أيلول/ سبتمبر من نفس العام والقرار رقم ١٥٧٤ الصادر في ١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر٢٠٠٤، وحذرت من صدور مذكرة توقيف بحق الرئيس البشير، وعدته إجراء يعرض عملية السلام في دارفور للخطر. Victor Ojakorotu, Ayo Whetho: Sino-African Relations:The Cold War Years and After, Asia Journal of Global Studies, The Asia Association for Global Studies Sakurabashi Chiyoda Bldg.6FDoujima,Kita-ku, Osaka, JAPAN,Vol.2 ,No.2 (2008) ,pp35-43. HilaryAndersson, China'is fuelling war in Darfur', BBC News, Darfur, 2008/07/13, The BBC has found the first evidence that China is currently helping Sudan's government militarily in Darfur.

(٧٢) أحمد، **التعاون الصيني**... ص٣٠ وما بعدها.

(73) J.Peter Pham, China's African Strategy and Its Implications for U.S. Interests, American Foreign Policy Interests, 28: 239–253, 2006, p272; Hong, China's Oil .., op.cit,Pp. 60-64.

(٧٤) فضلاً عن فرنسا وروسيا وغيرهم ممن اتخذوا السودان سوقًا مهما للأسلحة. Hanson,China, Africa..,P 1-5; وعن صفقات السلاح للسودان يُنظر: سامى صبري عبد القوى، **الموقف الصيني من أزمة دارفور في مجلس الأمن**، مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، ملف الأهرام الاستراتيجي، المجلد الخامس عشر، العدد ١٨٠، ديسمبر٢٠٠٩ على الرابط الأتي: http://acpss.ahram.org.eg /ahram.htm; Large, Daniel. (2007). "Arms, Oil and Darfur, The evolution of relations between China and Sudan", in Sudan Issue Brief No.7, Small Arms Survey, Sudan Human Security Baseline Assessment, Switzerland; Pham,op.cit,p 300.

(٧٥) أعلنت هيئة الإذاعة البريطانية (بي بي سي) قيام الصين بتقديم مساعدات عسكرية للحكومة السودانية وتزودها بشاحنات عسكرية وتدرب عناصرها على قيادة طائرات قتال صينية، في خرق للحظر المفروض من الأمم المتحدة، إلا أن الصين رفضت تلك الاتهامات وأكدت بانها ليست الدولة الوحيدة للأسلحة السودانية. Bill Gertz and Rowan Scarborough, "Chinese in Sudan", Inside the Ring, March5, 2004, at.www.gertzfile.com; Hilary Andersson, "China'is fuelling war in Darfur", BBC News, Darfur, 2008/07/13.atwww.bbc.co.uk/hi/en-news; Hong,op.cit,pp60-64.

(٧٦) للتفاصيل عن النشاط الصيني في أفريقيا. يُنظر:-ECOWAS-SWAC, Africa and China ,ECOWAS SWAC /OECD,2006 -December 2006. www.ecowas.int; Brookes& Shin,China's Influence ..,op.cit,p4.

(٧٧) وقع العقد في تشرين الأول ٢٠٠٣، ضم شركة كليفدين بنسبته ٢٧% مع شركة هاي تك بنسبته ٢٨% وشركة سودابت بنسبته١٧%، وولاية الخرطوم بنسبته ١٠%، وشركة هجليج بنسبته ٨% إلا أن شركة لندين تعرضت لضغوط من الحكومة السويدية التي عدت نشاطاتها في الجنوب تعبيرًا سلبيًا، وأجبرتها على بيع حصتها في حزيران ٢٠٠٣ لشركة بتروناس بمبلغ ١٤٢٬٥ مليون دولار أميركي. مجلة النفط والغاز، المؤسسة السودانية للنفط، العدد الخامس، أيلول/ سبتمبر٢٠٠٤، ص٥٦؛ Peter Brookes, Ji Hye Shin ,China's Influence in Africa,op.cit,p2.

(٧٨) كما حصل في الكثير من التحالفات، ومنها التحالف المشكل في٣٠ آب/ أغسطس عام ٢٠٠٥ لتطوير المربع (١٥) في البحر الأحمر، من شركة النفط الوطنية الصينية بما نسبته ٣٥% وشركة بتروناس بما نسبته ٣٥% وشركة سودابت بما نسبته ١٥% وشركة نيجيريا بما نسبته ١٠% وشركة هاي تك بما نسبته ٥%. تقارير شركة النفط الوطنية الصينية على الرابط الآتي:www.cnpc.com.cn؛ أحمد، **التعاون الصيني – السوداني**، ص ٣٠ وما بعدها.

(٧٩) صحيفة، السوداني، ١٧ تشرين الأول/ أكتوبر٢٠٠٧؛ صحيفة الرأي العام، ١٦ أيلول/ سبتمبر ٢٠١١.

(٨٠) أحمد، **التعاون الصيني – السوداني**، ص ٣٠ وما بعدها؛ China and India Go to Africa, Harry G., Broadman, (Foreign Affairs March /April, 2008).

(٨١) لم يكن التعاون مع الهند سلسًا كما كان مع الصين، وظهرت خلافات بين وزارة الطاقة وشركة النفط والغاز الهندية بسبب عدم إيفاء السودان بسداد دفعات تكاليف بناء خط النفط الذي نفّذته الشركة والمقدرة بمبلغ ١٥ مليون دولار عن كل دفعة. للتفاصيل عن التنافس الصيني الهندي يُنظر: SANJAY KUMAR PRADHAN, Rise of India and China in African Oil & Gas Market: Strategies, Competition and Assessment, Indian Association of International Studies (IAIS) & Institute for Research on India and International Studies(IRIIS), Annual Convention on the theme, The Dawning of the 'Asian Century': Emerging Challenges before Theory and Practice of IR in India, 10-12 December 2012.pp1-26.

(٨٢) يُنظر كلمة وزير الخارجية السوداني الأسبق، حسين سليمان أبو صالح في ندوة استشراف مستقبل...، ص ١٧؛ وكلمة د. مضوي الترابي وزير خارجية السودان الأسبق، المصدر نفسه، ص ٢٣.

(٨٣) تم التوقيع عليه في مشاكوس بالقرب من العاصمة الكينية في ٢٠ حزيران/ يونيو٢٠٠٢، ومنح بموجبه الجنوب

حق تقرير المصير بعد مدة انتقالية يجري بعدها استفتاء شعبي، والاتفاق على إطار دستوري خاص يجمع بين دستورين، على أن يجمع هذين الدستورين دستور موحد. محمد عناد مراد، **"الجمهورية السودانية الديمقراطية بين الوحدة والتجزئة والعوامل المؤثرة"**، مجلة الفكر السياسي، دمشق، السنة ٦، العددان ١٨-١٩،٢٠٠٣، ص٢٥؛ وحدد اتفاق نيروبي الموقع فـي ٥حزيران ٢٠٠٤، الملامح الأساسية لاتفاق السلام الموقع بين الطرفين في ٩ كانون الثاني ٢٠٠٥. إجلال رأفت (وآخرون)، **السودان على مفترق طرق: بعد الحرب.. قبل السلام**، مركز دراسات الوحدة العربية، (بيروت،٢٠١٠)، ص٢٣-٣٠.

(٨٤) وضعت اتفاقية السلام الشامل عام ٢٠٠٥ حدّاً للحرب واقتسام إيرادات النفط المستخرج من حقول النفط بالتساوي بين الحكومة وبين الإقليم، وشارك الجنوبيون ولأول مرة في حكومة ائتلافية، ومنصب نائب الرئيس من قادة الحركة الشعبية، ويكون هناك جيشان أحدهما في الشمال والآخر في الجنوب. عبدة مختار موسى، **"مستقبل العلاقات السودانية الأمريكية بعد اتفاقية السلام"**، مجلة المستقبل العربي، بيروت، العدد ٣١٩ أيلول ٢٠٠٥، ص٦٧؛ Ashraf Kamal Abdelhay, Busi Makoni, Sinfree Bullock Makoni: The Naivasha language policy: the language of politics and the politics of language in the Sudan, Received: 21 July 2009/Accepted: 20January 2011/ Published online: 13 February 2011 Springer Science+Business Media, B.V. 2011 PP1-18; نقلاً عن: المكتبة الافتراضية العراقية على الرابط التالي: www.japss.org/upload/12sudanarticle.

(٨٥) تتمتع المناطق الثلاث (أبيي، وجبال النوبا، والانقسنا في جنوب النيل الأزرق) بأهمية خاصة، إذ أنها تمثل خطا فاصلاً بين الشمال والجنوب وهي فاصل عرقي وبشري، وانتهت لكي تصبح منطقة مواجهة. سرحان غلام حسين، **النزاع حول آبيي وآثاره في مستقبل العلاقات بين شطري السودان**، مركز المستنصرية للدراسات العربية والدولية، الجامعة المستنصرية، بغداد،٢٠١١، ص٢١-٢٥.

(٨٦) صحيفة الأيام، (الخرطوم)، ٢٩ أيار/ مايو ٢٠٠٥؛ مجلة النفط والغاز، العدد ١٥، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٠٧، ص٤٧.

(87) HONG, China-U.S. Oil,op.cit, pp113.

(٨٨) تضاعف أعداد العمال الصينيون ووصل عددهم إلى ما يزيد على ٢٤ ألف عامل عام ٢٠٠٦، وهو عدد في تزايد مستمر بسبب الحاجة إلى خبراتهم وتتوقع وزارة الخارجية الصينية أن يكون عدد الجارية الصينية أكثر من ١٦ ألف يتركزون في الخرطوم وبور تسودان بشكل أقل China in Africa, Prepared by: Exective Research Associtess ltd, Octocber 2009,p28.

(٨٩) وشاركت فيه شركة سودابت بنسبته ١٥% وشركة بارتمانيا بنسبته ١٥% وشركة سودانس دينار بنسبته ١٠% ونيجيريا اكسبرس بنسبته ١٠%، وشركة افريكان بنسبته ١٠%. HONG,China-U.S. Oil,op.cit,pp102-103.

(٩٠) دخلت عام ١٩٩١ عبر ذراعها شركة Zhongyuan Petroleum Exploration Bureau (ZPEB) ، وتقوم بخدمات الحفر وتوريد معدات النفط والمسح الزلزالي، وقامت بتصميم مركز معلومات النفط السوداني. أحمد، **التعاون الصيني** ...، ص٣٠ وما بعدها.

(91) HONG, China-U.S. Oil, op.cit, pp102-103.

(٩٢) تملك أمريكا وسائل ضغط عديدة، وتمثل دائرة منفعة هامة ومن الصعوبة الانفكاك منها، فمثلاً صدّرت الصين إليها ما يعادل ١٦٣٫٢٥ مليار دولار في عام ٢٠٠٣، واستوردت منها ما يعادل ٣٣٫٩٤ مليار دولار، مع تدفقات ميسرة من التقنية الأمريكية المتطورة التي تحتاجها لأغراض الارتقاء بعملية البناء الداخلي. صبري الشفيع، البشير إلى بكين.. ما هي حقيقة موقف الصين من السودان، صحيفة الرؤية الخرطوم، على الرابط الآتي: www.arruiapress.com/index.php?view=article.

(93) HONG, China-U.S. Oil, op.cit, pp114-115.

(94) Rossin, Lawrence, G., Darfur, China and the Urgent Need for Effective Global Diplomacy to End the Genocide, Available at: www.savedarfur.org/page/-/Rossin Hogrtestimon., Pp19-23.

(95)Voice of America, US, China Interests Compete In Sudan, at, www.voanews. com/ content /us-china-interests-compete-in-sudan-104295273/155963.html

(٩٦) بوش يحث الخرطوم على وقف الإبادة الجماعية في دارفور، وهو بيان رقم٥ صادر عن مكتب الإعلام الخارجي (يو إس إنفو)، نشرة واشنطن، موقع وزارة الخارجية الأمريكية، على الرابط الاتي: www.usinfo,stste.gov/arabic

(97) Daniel, op.cit.

(٩٨) صحيفة السوداني اليوم، تقرير: القسم السياسي، **"هل تخرج الصين من اللعبة؟ صراع النفط بين الخرطوم وجوبا.. حرب الظاهر والباطن"**، النسخة الالكترونية على الرابط الاتي: www. alsudani.sd/news/index.

(99) LYDIA POLGREEN, China, in New Role, Presses Sudan on Darfur, www . NY times .com; Adam Wolfe, 'China Claims Success on Darfur'. The Power and Interest News Report, April 24, 2007. At, www.pinr.com/report.php.

(١٠٠) أصدر مجلس الأمن في ٣١ أذار/ مارس ٢٠٠٥ قراره رقم ١٥٩٣ أحال بموجبه الوضع في دارفور إلى المحكمة الجنائية الدولية، وفوض المدعي العام لويس أوكامبو الذي قدم مذكرة إلى المحكمة طالبها من خلالها بتوقيف كل الرئيس البشير والوزير أحمد هارون وعلي محمد على عبد الرحمن المعروف بعلي كوشيب أحد قادة الجنجويد، حيث جه إليهم تهمة الإبادة الجماعية وبناءً على هذه المذكرة أصدرت المحكمة في ٢٧ نيسان/ أبريل ٢٠٠٧ قرارها القاضي بتوقيف المعنيين. يُنظر: بيان أمريكي حول إصدار المحكمة الجنائية الدولية مذكرة القبض على البشير، موقع وزارة الخارجية الأمريكية على الرابط: www.america.gov.

(١٠١) ومضيفًا أن السلام فيها يستند إلى ".. ثلاثة أسس: محادثات السلام بين الخرطوم والمتمردين في دارفور، والقوة المشتركة للأمم المتحدة والاتحاد الأفريقي، والمساعدة الإنسانية للأمم المتحدة إلى اللاجئين والنازحين..."، أن توجيه الاتهام إلى البشير".. يعرض للخطر الأسس الثلاثة

هذه..". أحمد محمد وهبان، **السياسة الأمريكية تجاه مشكلة دارفور بين اعتبارات المصلحة ودعاوى الأخلاقية**، مجلة كلية العلوم السياسية، جامعة الإسكندرية، د.ت، ص ٣٩-١٧؛ Mamdouh G. Salameh, China's Global Oil Diplomacy: Benign or Hostile?, International Association for Energy Economics, First Quarter 2010, www. iaee .org /en .asp,pp21-25; Daniel ,op .cit.

(١٠٢) لقاء مع ديفيد سموك، نائب مدير مركز الوساطة وحل الصراعات، التابع للمعهد الأمريكي للسلام في واشنطن، نقلاً عن موقع سويس إنفو، على الرابط الآتي: www.swissinfo.ch/ara؛ خليل حسين، **البُعد الأمريكي - الصيني في حرب السودانيين**، ٢٥ نيسان/أبريل ٢٠١٢، موقع سودان سفاري على الرابط الاتي: www.sudansafari.net

(١٠٣) وهبان، المصدر السابق، ص ٣٥-٣٩؛ Adam Wolfe, 'China Claims Success on Darfur'. The Power and Interest News Report, April 24, 2007. at www.pinr.com /report .php

(١٠٤) وكان الإنتاج الكلي في عام ٢٠٠٨ نحو٣٩٬٧٩٩ مليون برميل، منها ٣٢٬٤٢٤ مليون برميل من الجنوب، والباقي والبالغة نحو٧٬٣٧٥ مليون برميل من الشمال. صحيفة الأيام (الخرطوم)، ٢٤ حزيران/ يونيو٢٠٠٨.

(105) David Shinn, Joshua Eisenman, Responding to China in Africa, American Foreign Policy Council, June 2008,pp1-12. وهبان، المصدر السابق، ص ٣٥؛

(106) Donata Hardenberg, China: a force for peace in Sudan?,at www.ecosonline.org/.

(107) saferworld briefing, china and south sudan, London, august 2012, www. saferworld. org.uk, p1-12.

(108) HONG, China-U.S. Oil Rivalry..,op.cit, pp114.

(109) Claude Harding, Business Focus, 9 things you should know about China's economic ties with Africa, March26, 2012,at, www.howwemadeitinafrica.com/ category/articles.

(١١٠) عبد الحي زلوم، **البترول واقتصاد المقامرة والمشروع الإمبراطوري الأمريكي**، محاضرة ألقيت في مركز أبحاث الشرق الأوسط جامعة كولومبيا، ٣٠ آيار/ مايو٢٠١٠، نقلا عن مركز الكاشف للمتابعة و الدراسات الاستراتيجية، شباط/ فبراير ٢٠١٢، ص١-١٦؛ IanrTaylo, China's Relations with Africa and the American Context , http://www.e-ir.info.

(١١١) وجاءت زيارة المبعوث الأمريكي سكوت غرايشن لتؤكد أن هنالك رغبة في تعزيز علاقاتها الثنائية معه، على أن يرافقه تحركات إيجابية من الحكومة وتحسين الأوضاع دارفور، ورشح أن هناك خطة أمريكية لأنهاء النزاع في دارفور، كما فعلته في رعاية مفاوضات نيفاشا. هاني رسلان، "**دوافع التدخل وكوابحه: الموقف الأمريكي من أزمة دارفور**"، موقع مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية (القاهرة) الإلكتروني www.scpss, Ahram ..org.eg

(١١٢) كشفت دراسة ألمانية عن خطط لحكومة الجنوب لتشييد خط سكة حديد يصل بين عاصمة الجنوب جوبا وميناء مومباسا الكيني الواقع على المحيط الهندي والهدف منه إنهاء اعتمادهم كليًا على السودان في تسويق مواردهم ونقل النفط والمواد الخام إلى الساحل الكيني مباشرة وتصديرها. موقع مجلة فورين بوليسي الألمانية: www.german-foreign-policy.com /de.

(١١٣) محمد صديق الزين علي، **احتمالية السودان، مآلات ما بعد الاستفتاء، اليقظة**، الخرطوم ٢٠١١، ص١٧-٩٤.

(١١٤) الاستكشافات الجديدة للنفط.. بشريات على الطريق، موقع العطاء على الرابط الاتي: .www.Sudabids.com/index.php

(١١٥) توسطت الحكومة الصينية في آب/ أغسطس ٢٠١٢ لحل النزاع على مناطق حدودية غنية بالنفط، في محاولة منها ضمان انسيابية عمل شركاتها على جانبي الحدود، وكان السودان قد طلب رسوم عبور ما بين ٣٢ و٣٦ دولار للبرميل، في حين عرض جنوب السودان رسوم عبور أقل من دولار واحد للبرميل. مركز الجزيرة للدراسات، الحرب: النفط يحرق دولتي السودان، تقدير موقف، مركز الجزيرة للدراسات، الدوحة، ٢٢ أبريل/ نيسان ٢٠١٢، ص٢-٧؛ صحيفة القدس العربي، (لندن)،١١ أيلول/ سبتمبر٢٠١٣؛ safer world briefing, china and south sudan,pp1-12



الندوة الوطنية حول الاستشراق البريطاني المعاصر

التراث العربي والإسلامي

بعيون المستشرقة كارول هيلينبراند



د. مضوي خالدية

عضو هيئة التدريس

قسم العلوم الإنسانية

جامعة معسكر – الجمهورية الجزائرية

قسم العلوم الإنسانية بجامعة معسكر بالجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية احتضن بمبادرة من الدكتورة مضوي خالدية وبرعاية كريمة من السيد مدير جامعة معسكر البروفيسور سمير بن طاطة وعميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية البروفيسور طيبي غماري، فعاليات الندوة الوطنية حول "الاستشراق البريطاني المعاصر: التراث العربي والإسلامي بعيون المستشرقة كارول هيلينبراند" وذلك بتاريخ ١٢ ديسمبر ٢٠١٨م.

وتأتي فكرة عقد هذه الندوة تتمة لسلسلة من الندوات الوطنية والمؤتمرات الدولية التي عُقدت في رحاب جامعات ومراكز بحث عربية وغربية، ركزت جل اهتمامها على الاستشراق عمومًا وحوار الحضارات على وجه الخصوص، غير أن ما يميز هذه الندوة عن غيرها من الفعاليات العلمية السابقة، كونها تأتي لتلقي أضواء - وإن كانت خافتة- على أعمال المستشرقة البريطانية "كارول هيلينبراند– Carole Hillenbrand" أستاذة التاريخ الإسلامي بجامعة "إدنبرة" باسكتلندا التي تُعَدّ من أبرز المستشرقين عالميًا في بحوثها حول المشرق العربي وتاريخ المجتمعات العثمانية والفارسية، والتراث العربي والإسلامي عمومًا وتاريخ الحروب الصليبية على وجه الخصوص، إذ يُنظر إلى كتاباتها في هذا المجال على أنها أصيلة ومتميزة وبخاصة كتابها "الحروب الصليبية: رؤى إسلامية-The Crusades: Islamic Perspectives"، الذي توجّها بحصولها على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية سنة ٢٠٠٥م، وتم ضم اسمها كأول باحثة غربية غير مسلمة إلى قائمة المفكرين المسلمين الذين نالوا شرف الحصول على هذه الجائزة من قبلها، وكان لهذا الكتاب أثر بالغ في تصويب فهم الغرب لتاريخ الحروب الصليبية.

كما منحتها الملكة البريطانية إليزابيث الثانية في سنة ٢٠٠٩م وسام الإمبراطورية البريطانية برتبة ضابط تقديرًا لجهودها الكبيرة في مجال التعليم العالي، كما حصلت ذات الباحثة في سنة ٢٠١٦م على جائزة "نايف الروضان Nayef Al-RodhanPrize" للتفاهم بين الثقافات والحضارات عن كتابها "الإسلام: مقدمة تاريخية جديدة - Islam: A New Historical Introduction"، وهي جائزة تمنحها الأكاديمية البريطانية في العلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية سنويًا للباحثين الذين أسهمت أعمالهم في حوار الحضارات. هذا وساهمت الأستاذة الدكتورة كارول هيلينبراند بنشاط كبير في تدريس التاريخ والفكر الإسلامي والأدب العربي على مستوى الجامعات البريطانية وخارجها؛ إضافة إلى تاريخ الحروب الصليبية، وبذلت جهودًا عظيمة في دعم الدراسات الإسلامية ودراسات الشرق الأوسط في الجامعات البريطانية.

وتزامن عقد هذه الندوة التي تُعَدّ الأولى من نوعها على الصعيد العربي، بعيد إسناد مؤسسة جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية شرف ترجمة كتاب "الحروب الصليبية: رؤى إسلامية" للجزائر ممثلة في المعهد العالي العربي للترجمة التابع لجامعة الدول العربية بمقتضى الاتفاقية المبرمة بتاريخ ٢٢ جويلية ٢٠١٨م، وبعيد أسابيع من منح الملكة البريطانية للباحثة كارول هيلينبراند، وذلك للمرة الثانية على التوالي، لوسام الإمبراطورية البريطانية برتبة القائد بتاريخ ١٣ نوفمبر ٢٠١٨م، وذلك نظير خدماتها "من أجل تعزيز فهم أفضل للتاريخ الإسلامي".

أهداف الندوة

جاءت فكرة عقد هذه الندوة داعية إلى التعريف بمنجزات هذه الباحثة في الحقول المعرفية ذات الصلة بالتراث العربي والإسلامي وإسهاماتها في تكوين الرأي العام الغربي عن العرب والمسلمين، كما سعى القائمون على هذه الندوة إلى توفير فرصة للقاء المختصين في مجال العلوم الإنسانية والإسلامية واللغات لتبادل البحوث والأفكار حول إنجازات الباحثة، وكذا حث الباحثين والطلبة على ضرورة الانفتاح على منجزات المدرسة الأنجلو- سكسونية في مجال العلوم الإنسانية والحقول المعرفية ذات الصلة بالتراث العربي والإسلامي باعتبارها من المدارس الرائدة في وقتنا الحاضر.ولم تكن هذه الندوة لتبصر النور لولا سخاء الأستاذة الدكتورة كارول هيلينبراند التي وفرت لنا مؤلفاتها عندما واجهتنا صعوبة انعدام كتبها على مستوى المكتبات الكلاسيكية والرقمية مجاناً، كما أغدقت من وقتها للتواصل معنا من خلال الروابط العلمية الأكاديمية لذات الغرض.

جلسات الندوة

انطلقت فعّاليات هذه الندوة بجلسة افتتاحية ترأسها عميد كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية البروفيسور طيبي غماري، قدمت من خلالها رئيسة الندوة الدكتورة مضوي خالدية كلمة بهذا الخصوص، ثم أعقبتها كلمة رئيسة قسم العلوم الإنسانية الدكتورة بليل رحمونة، لتليها كلمة البروفيسور سمير بن طاطة رئيس جامعة معسكر واختتمت هذه الجلسة بقراءة رسالة المحتفى بها المستشرقة البريطانية كارول هيلينبرند التي خصت بها الندوة والتي ألقاها رئيس المجلس العلمية بذات الكلية البروفيسور بشير خليفي. وقد شارك في إثراء جلسات هذه الندوة ومداخلاتها ومناقشاتها ثلة من الباحثين من جامعة معسكر ومن خارجها، يأتي في مقدمتهم عميد كلية العلوم الإنسانية والحضارة الإسلامية بجامعة وهران(١) البروفيسور دحو فغرور الذي ألقى مداخلة افتتاحية بعنوان "قراءة منهجية في كتابات الباحثة كارول هيلينبراند".

أ.د الحبيب تلوين (قسم العلوم الاجتماعية جامعة وهران٢ محمد بن أحمد) "الإسلام وواقع المجتمعات المعاصرة من خلال أعمال الباحثة كارول هيلينبراند".

أ.د بشير خليفي (قسم الفلسفة جامعة معسكر) " المرأة المسلمة في تصور كارول هيلينبراند".

د ة. مضوي خالدية (قسم العلوم الإنسانية جامعة معسكر)" كارول هيلينبراند : عقود من العطاء في التاريخ الإسلامي".

أ.د محمد أوفقير (قسم اللغة الإنجليزية جامعة الأغواط) "مميزات الحروب الصليبية من خلال مؤلف الحروب الصليبية: رؤى إسلامية – The Crusades Islamic Perspectives لكارول هيلينبراند ".

د ة. بليل رحمونة (قسم العلوم الإنسانية جامعة معسكر) "معركة ملاذكرد- Manzikert والأسطورة التركية من منظور كارول هيلينبراند ".

د. أحمد رنيمة (قسم التاريخ وعلم الآثار جامعة وهران ١ أحمد بن بلة) "المصادر الأوربية للحروب الصليبية وموقف كارول هيلينبراند منها".

دة. كرازار فوزية (قسم العلوم الإنسانية جامعة معسكر) "شخصية صلاح الدين الأيوبي بقلم كارول هيلينبراند ".

دة. بوسحابة رحمة (قسم اللغة والأدب العربي جامعة معسكر) "ترجمة المصطلح الديني في كتاب "الإسلام: مقدمة تاريخية جديدة Islam : A New Historical Introdution لكارول هيلينبراند".

توصيات الندوة

وبناءً على ما تقدم من أعمال خلصت اللجنة العلمية وكذا المشاركون بجملة من التوصيات وهي:

١ – مواصلة هذا النمط من النشاطات العلمية مع قطب آخر من أقطاب الفكر ممن لهم دور في مد الجسور بين الشرق والغرب.

٢ – توسيع دائرة هذا النوع من الندوات الوطنية مستقبلاً إلى الإطار الدولي حتى يتجسد الحوار مع الآخر والانفتاح عليه.

٣– عرض الأوراق البحثية على المستشرقة "كارول هيلينبراند - Carole Hillenbrand" بغرض تحقيق فعل حواري بين المؤلفين.

٤ – طبع أعمال الندوة وتوفيرها للباحثين والطلبة.

The National Seminar on:
Spotlights on the British Contemporary Orientalism
The Arabic and Islamic heritage in the eyes of Carole Hillenbrand

Abstract

Holding this seminar belongs to a series of national seminars and international conferences held in the Arab and Western universities and research centers on orientalism in general, and dialogue among civilizations in particular. However, unlike the previous scientific events, this seminar focuses on the work of the British Orientalist "Carole Hillenbrand", who is one of the most prominent orientalists all over the world due to her researches on the Arab, the Ottoman and Persian communities as well as studying the Arab and Islamic heritage in general, and the history of the Crusades in particular. Her researches are considered as original and accurate, exclusively her book "The Crusades: Islamic Perspectives" as it is based on hundreds of sources and references in their source languages, as well as it is written in a clear and simple language, and in an objective and deep way, adopting a method based on criticism, analysis and over more than six hundred pages, the book was the first ever attempt by a European scholar to examine the history of the Crusades through Muslim eyes.

Professor Carole Hillenbrand has been awarded the prize of 'King Faisal International Prize for Islamic Studies intended to "Studies on Muslims Defense of their Homeland during the 5th and 6th Centuries A.H" in recognition of this unique pioneering research. The book provides a more nuanced view than the previous Eurocentric perspective of the Crusades. Hillinbrand is the only non-Muslim and the only female recipient of the King Faisal International Prize for Islamic Studies.

Professor Hillenbrand was awarded also "Nayef Al-Rodhan Prize for Global Cultural Understanding" in 2016 for her book "Islam: A New Historical Introduction", the Prize is awarded annually by The British Academy of Humanities and Social Sciences for outstanding contribution to global cultural understanding.

Professor Carol Hillenbrand, the professor of Islamic history at the University of Edinburgh, has contributed widely in teaching Islamic history, thought, and literature at the British universities and beyond; in addition to the history of the Crusades, and presenting the works of the great Islamic thinker Abu Hamid al-Ghazali, as well as providing researches and studies on the Middle East at British universities.

Axes of the seminar

The seminar provides the opportunity to explore the works and achievements of this orientalist in a variety of disciplines related to the Arabic and Islamic heritage:

1- The Holy Quran, Sunna, Fikh and the Prophet Mohammed PBUH Biography (Sira nabawia)
2- Islamic and political thought and Sufism.
3- Arabic and Islamic history, and the role of the Orientalist Hillenbrand in publishing the sources, translating and realizing the corpus Arabic language and literature.
4- The Orientalist contributions in forming the Western public opinion about Arabs and Muslims.

SCHEDULE of the Symposium

- Welcoming addresses
- Prof. Samir Bentata, the Rector of the University.
- Prof. Tayebi Ghomari, the Dean of the faculty.
- Dr, Bellil Rahmouna the head of department
- Dr .Madhoui Khaldia, the director of the symposium

- 1st plenary
- President: Professor Daho Faghrour
- 09:40 – 09:55 Pr.Habib Telween (university of Oran 2) "Islam and the reality of the contemporary societies through the books of Carole Hillenbrand"
- 09:55- 10:10 Pr .Bachir Khelifi, (University of Mascara), "The Muslim woman in Carole Hillenbrand's perception".
- 10:10 -10:25 :Pr.Daho University of Oran1), Faghrour, ("A methodological reading in Carole Hillenbrand writings"
- 10:25 -10:40: Dr.Madhoui Khaldia, (University of Mascara), "Carole *Hillenbrand* decades of studying the Islamic history"
- 11:40 -11:00 :Debate.

- 2nd plenary.
  President: Professor Boudaoud Abid
- 11:30 -11:45: Mohamed Oufkir, (University of AlAghouat) "The characteristics of the crusades through the Book:The crusades-Islamic perspectives of Carole Hillenbrand".
- 11:45-12:00:Dr.Bellil Rahmouna, (University of Mascara) "The struggle of Manzikert and the Turkish myth, Carole Hillenbrand point of view".
- 12:00-12:15:Dr.Ahmed Ranima, (University of Oran1) "The European sources of the Crusades, and the position of Carole Hillenbrand" .
- 12:15-12:30: Dr.Karzaz Fouzia,(University of Mascara), " Salah Eddine El-Ayoubi personality written by Carole Hillenbrand".
- 12:30-12:45:Dr.Rahma Boushaba, (University of Mascara), Translating religious terms in the Book 'Islam, A New Historical Introduction' by Carole Hillenbrand.
- 12:45 -13:15: Debate.

- Closure of the symposium.

رسالة سعادة البروفيسورة كارول هيلينبراند في نسختها الأصلية المكتوبة بالإنجليزية الموجهة إلى الندوة الوطنية حول "التراث العربي والإسلامي بعيون كارول هيلينبراند" من تنظيم قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، بجامعة معسكر، عشية انعقاد الندوة.

Dear Dr Madhoui,

Very many thanks for your kind message; I am happy to confirm that my health is now much improved.

Words are not enough to express my gratitude and pleasure to you for the wonderful and totally unexpected honour that you have given to me in organising this seminar entitled 'The Arabic and Islamic Heritage in the eyes of Carole Hillenbrand.' I feel exceptionally fortunate. I only wish that it were possible for me to be present on this very special occasion. Perhaps it will be possible for me to see a recording of the event.

It is quite a challenge for me to write even a brief prelude to this ambitious seminar, given that the ten papers to be delivered cover a wide range of topics. But I think it would be appropriate to emphasise to you and your colleagues that in the fifty years that have passed since I first began to study Arabic, Persian and Turkish I have developed a deep respect and admiration for Islam, its history and its culture. I have been fortunate enough to travel throughout almost all the Muslim-majority countries in the world, from Senegal to South-east Asia, with more lengthy stays in East Jerusalem, Syria and Iran. For me it has been both a pleasure, an honour and a duty to give courses on the religion, history and culture of the Islamic world to generation after generation of students in Great Britain, and also in the United States, and thus to do what I can to counter and negate the stream of hostile, prejudiced and frequently inaccurate information about that world that is routinely presented in the Western media. My study of that world has been a source of never-ending interest and satisfaction and thus of personal happiness and fulfilment, and I enjoy doing research today as much as ever.

Do let me know whether you would like me to send you copies of my other books; it will be my pleasure to send them to you.

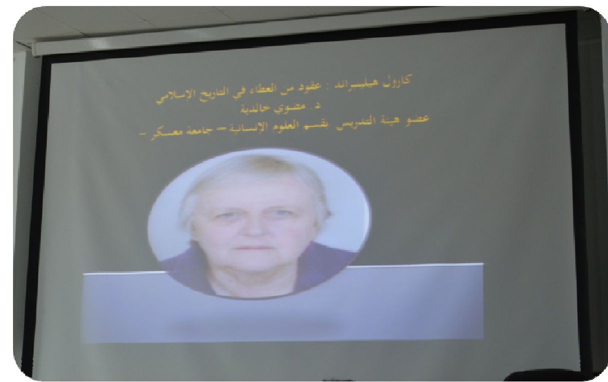
In addition to the awards, which I have received, and which you kindly mentioned in your seminar notice I would be most grateful if you could let the participants of the seminar know about a wonderful letter that came to me recently. In June this year, I received from the Office of Her Majesty Queen Elizabeth II the following message:

In June 2018 in the Queen Elizabeth II Birthday Honours List, Professor Carole Hillenbrand has been appointed a Commander of the Order of the British Empire (CBE). She will receive this honour on 13 November 2018 from Queen Elizabeth in person in Buckingham Palace, London, for her 'Services to Promoting a Better Understanding of Islamic History'.

Please accept once more the expression of my gratitude and friendship to you and your colleagues. I will be thinking of you next week during the time of the seminar.

Warmest greetings,
Carole Hillenbrand


صور من فعاليات الندوة



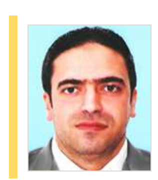






علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي

١٥١٠ - ١٦٥٩



د. زين العابدين زريوح

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

كاتب وباحث في التاريخ الحديث

العرائش - المملكة المغربية

بيانات الأطروحة

أطروحة مقدّمة لنيل شهادة الدكتوراه

تخصّص التاريخ المغربي الحديث

التاريخ والمجتمع بالحوض الغربي للمتوسط

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالقنيطرة

جامعة ابن طفيل

المملكة المغربية ٢٠١٨

الباحث:	زين العابدين زريوح
إشراف:	أ. د. المصطفى البوعناني
لجنة المناقشة عبد العزيز بل الفايدة	رئيسًا
د. محمد الغرايب	مقررًا
د. حفيظة الدازي	عضوًا
د. عبد الإله الدحاني	عضوًا

كلمات مفتاحية:

المهمشين، الدولة السعدية، العامة والمخزن، التاريخ الاجتماعي، الأمراء السعديون

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.12816/0055407 DOI

مُقدِّمَة

شهد التاريخ الاجتماعي والتاريخ المنظور إليه من أسفل في المغرب عدة تطورات أسهمت في بروز مواضيع جديدة في البحث التاريخي، ومنها موضوع العوام، الذي تزخر المصادر بمعطيات تاريخية مهمة حوله، لما لهذه الفئة من دور تاريخي كبير داخل المجتمع. ومن أجل الكشف عن بعض الحقائق التي حاول التاريخ الرسمي إخفاءها عن قصد، أو بشكل عفوي في حالات أخرى، بفعل اعتماد المؤرخين القدماء على رواية الأحداث التاريخية بطريقة سردية تتمحور حول تاريخ الحكام والحروب أساسًا، في تغييب صارخ لطبقة العامة، والجوانب السلبية لعلاقة هذه الطبقة بالسلطة السياسية. وعمل هؤلاء الباحثون على تفادي تلك الهفوات مستعينين بالمصادر الكلاسيكية نفسها، بإعادة قراءتها بموضوعية استئناسا بوثائق أخرى متنوعة تحتوي على مادة تاريخية مفيدة، للخروج بنتائج مرضية تمكن من معرفة أحوال طبقة العامة وعلاقاتها ببقية فئات المجتمع، وخاصة علاقاتها بالسلطة، رغم انحياز المصادر التقليدية لهذه الأخيرة على حساب فئات العوام التي ظلت مهمشة سواء من طرف المصادر أو السلطة السياسة نفسها. ومن هنا تظهر ضرورة التطرق لطبقة العامة وعلاقاتها بالطبقة الحاكمة في تاريخ المجتمع المغربي، عبر عملية استنطاق الوثائق التاريخية الرسمية والمعارضة والأجنبية وغيرها من أنواع النصوص، بمساعدة بعض الدراسات التي اعتمدت في أسلوب بحثها -بشكل كلي أو نسبي - حسا اجتماعيًا أو سياسيًا، أو هما معًا.

التعريف بموضوع وسياق البحث

يأتي موضوع هذه الأطروحة (علاقة العامة بالمخزن خلال العصر السعدي ١٥١٠-١٦٥٩م) من أجل إلقاء الضوء على وضعية العامة كطبقة من المهمشين في علاقتها بالمخزن -كمؤسسة سياسية ذات خصوصية مغربية-على امتداد عمر الدولة

السعدية بالمغرب ما بين سنتي (٩١٥-١٠٦٩هـ/١٥١٠-١٦٥٩م) وفق توسع أو انكماش نفوذ أمرائها ضمن المجال، هذه الفترة التي لا تزال تفتقر إلى أبحاث مستفيضة من هذا النوع، على عكس فترة العصر الوسيط التي عرفت تقدما ملموسا في هذا المضمار على يد مجموعة من الباحثين. حيث يمكن اعتبار العصر السعدي فترة مواتية لدراسة هذه العلاقة التفاعلية بين العامة والسلطة، في ظل ظرفية تاريخية عرفت عدداً من الأزمات والتطورات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وكذا التأثيرات الناتجة عن بداية بروز التفوق الأوروبي خلال الفترة الحديثة. ويبقى المجتمع السعدي نموذجا للمجتمعات الإسلامية التي ارتبط تاريخها بظاهرة تهميش العوام من طرف السلطة السياسية والمؤرخين التقليديين، وبالتالي تأتي الحاجة الملحة لمثل هذه الأطروحة للكشف عن الغموض الذي أحاط بجوانب مهمة من طبقة العامة وعلاقتها بالمخزن السعدي.

هدف وإشكالية البحث

إن الهدف الذي سطر لهذه الدراسة هو محاولة رفع النقاب عن العلاقة الغامضة بين العامة والمخزن، ومختلف أوجه تطوراتها وتفاعلاتها على أصعدة متعددة خلال الفترة السعدية، إذ ظلت فئة العامة وأحوالها مجهولة إلى حد كبير، رغم أنها كانت ولا تزال تشكل القسم الأكبر من السكان.

إذ إن البحث في ثنايا التاريخ المغربي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي والسياسي والعسكري في الفترة الحديثة أو غيرها، لا يكتمل إلا بالنظر إلى التاريخ من الأسفل، أي من بالاهتمام بأوضاع العامة ودورها في شتى تلك الأوضاع الحضارية، لاسيما وأنها تعتبر جزءا لا يتجزأ من المجتمع وعاملا من عوامل تكوينه الأساسية. فلسنا بحاجة لإبراز قيمة طبقة العامة والشرائح المكونة لها، إذ يكفي للدلالة على ذلك أنها كانت تشكل عصب عمليات الإنتاج في هذا المجتمع ومحركا من أهم محركاته السياسية. فمن هذه النقطة يبدأ تشكل علاقتها بالسلطة السياسية السعدية وهو ما قد يمكن من الوصول إلى استنتاجات مفيدة، إضافة إلى حقائق وتصورات تاريخية جديدة متعلقة بفترة الدراسة، على ضوء إعادة قراءة هذه العلاقة المطبوعة بنوع من الغموض بسبب الغطاء التاريخي الرسمي، هذا التاريخ الذي حاولت جاهدا العمل على الكشف عن بعض جوانبه الخفية.

فهذا البحث يمثل دراسة حول قضية تاريخية بدأت تأخذ مكانتها لدى الباحث العربي والمغربي المعاصر، وهي قضية العامة وما لاقته من تهميش سلطوي طال شرائح واسعة من المجتمعات الإسلامية، ومن بينها المجتمع المغربي الحديث -وبالتحديد هنا- المجتمع السعدي. إذ لا مناص من أن هذه القضية تشكل حلقة في نسق التاريخ المغربي، ولابد من إيلاء العامة وعلاقتها بالمخزن أهمية في البحث والدراسة.

تقوم الإشكالية الرئيسة للبحث على محاولة رصد مختلف أوجه وتطورات وتفاعلات علاقة العامة -ككل واحد وكفئات - بالمخزن السعدي على مختلف الأصعدة السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية وغيرها خلال الفترة الممتدة ما بين ١٥١٠-١٦٥٩م. وتتوزع هذه الإشكالية على مجموعة من التساؤلات الفرعية وفق الشكل التالي:

- فما هي رؤية مصادر الفترة السعدية لكل من العامة والمخزن؟ وماذا نعني بمفاهيم العامة والمخزن؟ وماذا عن حال المجتمع السعدي وفئتي العامة والمخزن ضمنه؟
- كيف كانت وضعية مختلف فئات عامة العصر السعدي؟ وما هي طبيعة العلاقة التي جمعتها بالمخزن كفئات، ثم كطبقة واحدة على ضوء الأوضاع السياسية والاقتصادية والقضائية والدينية والثقافية والعلمية؟
- وأين تجلت أبرز تطورات تفاعل العوام مع أمراء المخزن السعدي وحكمهم تبعا لتوالي مراحل عمر الدولة؟ وما هي أهم حركات وانتفاضات العامة ضد هذا الحكم؟

منهج وطريقة الاشتغال على البحث

اشتغلت في هذه الدراسة اعتماداً على المنهج الاجتماعي التاريخي كمنهج رئيس للبحث[1]، إلى جانب أسلوب النقد والتحليل، وكذا الموضوعية العلمية التي يجب أن يتميز بها أي بحث أكاديمي جاد. وبهدف كشف خبايا فترة الدراسة على ضوء الموضوع المسطر لها، والمؤثرات التي طبعت هذا المسار التاريخي على مختلف المستويات، وخاصة على المستوى الاجتماعي وأبعاده السياسية أو العكس. كان لا بد من العودة أولا وقبل كل شيء إلى التراث المتوفر من كتابات تاريخية سعدية، حتى يتسنى لنا تقييم محتواها، وتتبع منهج أصحابها في التدوين والتحليل، والكشف عن خلفياتهم السياسية والاجتماعية التي أثرت في أسلوبهم التاريخي، حتى نجد تبريرا وطريقة للانتقال إلى مجالات أكثر خصوبة وعطاء فيما يخص التأريخ للعامة وعلاقاتها بالمخزن السعدي.

وإلى جانب تحليل وإعادة النظر في طريقة التعامل مع المصادر الكلاسيكية، وتفحص ما احتوته من إشارات غير مقصودة بين سطورها، توجب السعي كذلك إلى البحث عن مصادر جديدة تفيد في مثل هذا المجال من البحث التاريخي، عن طريق الاستعانة ببعض الوثائق والنصوص المهمة كتراجم المتصوفة ومناقب الأولياء، وكتب الرحلات، والنوازل الفقهية، إلى جانب بعض المصادر التي يمكن أن تدخل ضمن خانة كتابات المعارضة، وكذا المصادر الأجنبية، رغم ما احتوته هذه الأخيرة من معطيات ذات خلفيات سياسية أو دينية توجب التعامل معها بحذر. مما يمكن بالتالي من التوصل إلى دراسة أوسع وأكثر تكاملاً لفئات العامة وعلاقاتها بالمؤسسة المخزنية السعدية، وتجديد الرؤية التاريخية عن هذه العلاقة.

ورغم ما تعاني منه الخزانة التاريخية المغربية من نقصان فيما يتعلق بالدراسات النقدية لمصادر التاريخ الرسمي السعدي وتغييبها للعوام، إلا أن هذا لا ينفي وجود بعض الإشارات حول الموضوع في عدد من المؤلفات والأبحاث، والتي لمحت إلى هذه المسألة، وحاولت إنصاف العامة في إطار بعض المواقف أو الأحداث التاريخية التي حملت طابعًا اجتماعيًا وسياسيًا، والتي أمكننا الاستفادة منها.

لقد عملت خلال هذا البحث على استنطاق مجموعة من المصادر والمراجع، من أجل الاستفادة مما احتوته من ذكر لفئات العامة، وإشارات حول علاقتها بالسلطة السياسية السعدية، ثم محاولة تحليلها على ضوء عدد من الدراسات التي توفرت بين أيدينا. دون الجزم بالقدرة على الإحاطة بكل فئات العامة، أو الحكم أن كل هذه الفئات قد تعرضت للتهميش، مادام أن بعضها حظي بنصيب من الحظوة والمكانة. ومع ذلك وجب التعرض لكل ما يمكن أن يتيحه لنا البحث التاريخي من أجل التمكن من صياغة مقاربة متكاملة لوضعية طبقة العامة وفئاتها، ورصد علاقتها بالمخزن السعدي في انتقالها ما بين مد وجزر بين مختلف أزمنة وأحداث فترة الدراسة من أجل الوصول إلى استنتاجات ذات فائدة.

الدراسات السابقة في الموضوع

من البديهي أن يصعب على الدراسات الحديثة الإحاطة بكل جوانب علاقة العامة بالسلطة في التاريخ المغربي بعد مدة طويلة من سيادة التوجه التاريخي الرسمي، والذي عمل على إقصاء العوام وعوالمهم الاجتماعية والثقافية والسياسية من الذكر، وإن تم استحضارهم فبطريقة تخدم مصالح السلطة وتأخذ بوجهة نظر الفئة الحاكمة دون معرفة موقف واضح للجزء الأكبر من المجتمع الذي تشكله العامة. ورغم ظهور عدد من الدراسات المغربية التي اهتمت بالتاريخ الاجتماعي عمومًا وبتاريخ العوام أساسًا، والمتأثرة بالاتجاه القائم على تجديد بعض جوانب التاريخ الإسلامي وإعادة قراءته من زوايا جديدة ومختلفة عن التي سبق تناوله بها، بعيدًا عن القراءة التقليدية للنصوص وعن رؤية مؤرخي البلاط، وذلك بالتطرق للعوام وحركاتهم وعلاقاتهم بالسلطة بشكل موضوعي وبنظرة حيادية عن طريق إعادة قراءة المصادر الرسمية واستقراء مصادر أخرى ككتب التراجم والرحلات والنوازل وغيرها[٢]. إلا أن هذه الدراسات على أهميتها اقتصرت بالجملة على العصر الوسيط[٣].

وعلى العكس من ذلك، ما يزال البحث في تاريخ الطبقات الدنيا من المجتمع وتفاعلاتها السياسية خلال الفترة الحديثة بالمغرب، وضمنها الفترة السعدية، ضعيفا اللهم إذا استثنينا بعض الدراسات التي حاولت معالجة علاقة السلطة –أي المخزن- بالمجتمع ككل، أو بمكون معين من المجتمع كالقبائل، أو ضمن نطاق جغرافي محدد[٤]. كما نجد دراسات تميزت بنوع من العمومية[٥]. ونفس الأمر ينطبق على باقي عمر الفترة الحديثة[٦].

لكن، ظلت الفترة السعدية مفتقرة إلى أبحاث حول طبقة العامة وعلاقتها بالسلطة، على اعتبار عدم اهتمام نصوص الفترة –هي الأخرى- بأحوال العامة وتأثيرها في سير الأحداث وضعف المعلومات حول عناصرها باستثناء بعض تحركاتها السياسية[٧]. وذلك رغم وجود دراسات مهمة اقتربت بنسب متفاوتة من تصور موضوع البحث، كأطروحة **"الفقر والفقراء في مغرب القرنين ١٦-١٧م"** للباحث محمد استيتو[٨]، التي حاول من خلالها إثارة الانتباه إلى هذه الفئة من العوام، التي اعتبرها من "المغيبين" أو "منسيي التاريخ" في إستطغرافيتنا، وتسليط الضوء على أصناف من الفقراء خلال هذه الفترة التاريخية لتشجيع الباحثين على النبش في تاريخ باقي فئات العامة[٩]. إلى جانب بعض الدراسات التي لم تخل من أهمية، مثل دراسة إدريس كرم حول **"ثقافة العامة في كتابات فقهاء المغرب خلال القرنين ١٠ و١١ هـ"**، ودراسة أحمد الوارث حول **"تصوف العوام خلال القرنين ١٧ و١٨م التيار الشرقاوي نموذجا"**. وهناك مَنْ تناول فقط علاقة فئة معينة من العامة بالمخزن السعدي، مثل أطروحة **"اليهود والمخزن في عهد الدولة السعدية"** لمحمد الباكوري.

نستنتج من هذه الدراسات أنها اقتصرت على جزء أو فئات معينة من العامة، أو على جانب من واقع هذه الطبقة، دون الإحاطة بكافة حيثيات العلاقة بينها وبين المخزن السعدي. هذا الإشكال الذي سعيت لتجاوزه في هذا البحث، بغية إعطائه أهمية تاريخية وعلمية أكبر في هذا المجال من الكتابات.

مصادر ومراجع البحث

تم الاعتماد في هذا البحث على مجموعة من المصادر والمراجع المتنوعة توزعت على الشكل التالي:

- **المصادر السعدية التقليدية** التي وضعت في كنف السلطة الرسمية أو تأثرت برؤيتها وبالسياق العام للظرفية التاريخية، على غرار عدد من الحوليات والآداب السلطانية. بحيث سارت هذه المصادر تقريبا في نفس مجرى مجمل المصادر الإسلامية والمغربية، إذ تميزت بطابع السرد، معتمدة النمط التقليدي في رواية الأحداث، في غياب كبير للتفسير والتعليل مع الانحياز للسلطة الحاكمة وتهميش العوام وفاعليتهم التاريخية[١٠].

فقد ركزت المصادر السعدية، وخاصة الرسمية منها، على التأريخ لسلاطين الدولة الحاكمة ومحيطهم وإنجازاتهم، تمجيدا لذكرى هؤلاء ورفعا لمنزلتهم في نظر رعاياهم والأمم الأجنبية أيضا، حيث تنافس المؤرخون الرسميون في ذلك رغبة في الأعطيات الجزيلة التي يقدمها السلاطين، تحفيزا لهم أو طمعا في التقرب من هؤلاء السلاطين والارتقاء في الوظائف المخزنية، مما جعل هذه المصادر بعيدة عن الحقيقة ومجانبة للنزاهة والصدق[١١]، لأنها ما فتئت تظهر تحفظها في سرد أخبار السلاطين والتحيز لهم وإخفاء أسرار البلاط وما يكتنفها من دسائس ومؤامرات، وكذا الحقيقة عن غاراتهم وتحركاتهم العسكرية ضد الحركات المناوئة لهم[١٢]، مهملة عن قصد التاريخ الاجتماعي للعوام، مراعاة للصراع الخفي والصريح بين السلطة الحاكمة وبعض الزعماء الدينيين المتمثلين في شيوخ الزوايا والطرق الصوفية وما يربطهم بالعامة من نفوذ واسع[١٣]. بحيث أجمعت معظم مصادر العصر السعدي الأكثر أهمية وشهرة على تسفيه العوام وتحقيرهم ومهاجمة حركاتهم، وإن اختلفت التعابير ومواقع أصحاب هذه المصادر على غرار باقي المصادر الرسمية الإسلامية[١٤].

ومن بين أبرز المصادر الرسمية "**مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا**"[١٥] لعبد العزيز الفشتالي(ت١٠٣١هـ/١٦٢١م) مؤرخ الدولة ووزير القلم الأعلى على عهد المنصور[١٦]. وذهب في نفس المنحى أيضا أحمد بن القاضي(ت١٠٢٥هـ/١٦١٦م) صاحب "**المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**"، الذي ألفه اعترافا بجميل هذا الملك على تخليصه من أسر القراصنة[١٧].

ونجد من المصادر الرسمية على كثرتها مصدرا مهما أرخ للعصر السعدي، تميز بنوع من الموضوعية وهو "**نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**" لأبي عبد الله محمد الإفراني أو اليفرني(ت١١٥٤هـ/١٧٤١م). ويأتي الاختلاف هنا من حيث أن صاحب المصدر ولد بعد زوال الدولة السعدية حوالي سنة ١٠٨٠هـ/١٦٦٩م، مع أنه –كما يعتقد- كان من حاشية السلطان العلوي المولى إسماعيل[١٨]، الذي أثنى عليه وامتدحه في ختام النزهة[١٩]، وهذا ما جعله هو الآخر يتطبع برؤى المؤرخ الرسمي التقليدي، رغم أن النزهة لا تخلو من جرأة لم يتمتع بها غيره[٢٠].

- **المصادر التي تدخل في إطار كتابات المعارضة**، ولعل أبرزها "**تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**"[٢١] لمؤرخ مهجول، والذي تناول روايات محظورة على المستوى الرسمي السعدي، رغم ما يمكن أن يحسب عليه من تحامل يعود ربما لأسباب سياسية، ويأتي هذا المصدر في سياق مخالف تماما للمصادر الرسمية التي سبق ذكرها.

- وتظل **المصادر الأجنبية** كذلك ذات أهمية كبيرة لما تضمنته من إشارت اجتماعية وسياسية غيبت في المصادر الرسمية، رغم ما احتوته من مغالطات ذات خلفية دينية. ويبرز من بينها مصدر مهم هو "**تاريخ الشرفاء**" للبرتغالي "دييڭو دي طوريس"[٢٢]. وفي نفس الإطار، يدخل كذلك مصدر برتغالي آخر هو "**أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**" لأنطونيو دي صلدانيا[٢٣].

كما أن "**المصادر غير المنشورة لتاريخ المغرب (S.I.H.M)**"، تضمنت مجموعة من التقارير والرسائل الديبلوماسية التي احتوت بين ثناياها بعض الإشارات المتعلقة بأوضاع السلطة السياسية وعامة المجتمع بالمغرب خلال الحكم السعدي.

- كتب **التراجم والفهارس**: وهي مصادر ذات أهمية بالغة كمادة تاريخية غنية تحظى بمكانة بارزة في التاريخ الاجتماعي. نظرا لكون أصحابها أكثر اعتدالا، ولم يكونوا مدفوعين بحافز الحصول على هبات من الأسر الحاكمة أو ذوي صلات بالشخصيات البارزة التي يؤرخون لها، باستثناء حين يكونون من أقرباء أو أصحاب المترجم له، وتتجلى أهمية هذه التراجم في ارتكازها

على القيمة الاجتماعية للصلحاء المترجم لهم ودورهم الكبير في الحياة الروحية والفكرية والسياسية[٢٤]، حيث أمكن من خلالها استخلاص معلومات تاريخية حول العامة وعلاقتها بالمخزن تكون قابلة للتوظيف، وذلك في وقت أخذ فيه تأليف السير والتراجم اهتماما لم يسبق له مثيل منذ القرن السادس عشر الميلادي[٢٥].

ومن بين أبرز تراجم هذه الفترة **"دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر"** لصاحبه محمد بن عسكر الحسني الشفشاوني (ت٩٨٦هـ/١٥٧٨م)[٢٦]، الذي يعطي صورة واضحة عن الحياة العامة وإشارات مهمة حول الأوضاع الاجتماعية ككل وأوضاع العوام بشكل خاص، لاهتمام المتصوفة بهذه الفئة أو انتماء بعضهم إليها، كما يشير إلى مساوئ بعض السلاطين السعديين عبر الرشقات التي يوردها على لسان المتصوفة أو المجاذيب[٢٧]، وذلك رغم قربه من المخزن السعدي[٢٨]. وقد جرى على منواله في كتب التراجم وتكملة لعمله محمد الصغير الإفراني الذي ألف كتاب **"صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر"**[٢٩].

ونجد كذلك تراجم أخرى مثل **"درة الحجال في أسماء الرجال"** لأحمد بن القاضي[٣٠]، **"جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس"**[٣١]. وبالإضافة إلى كتب التراجم هاته، يدخل كتاب **"روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس"** لأحمد بن محمد المقري(ت١٠٤١هـ/١٦٣١م)[٣٢]. ونجد كذلك في السياق نفسه كتابيّ **"التقاط الدرر ومستفاد المواعظ والعبر من أخبار وأعيان المائة الحادية والثانية عشر"**، و**"نشر المثاني لأهل القرن الحادي والثاني"** لمحمد بن الطيب القادري(١٧١٢-١٧٧٣م)[٣٣]. بالإضافة إلى بعض فهارس مهمة اعتنت ببعض أقطاب الصوفية والعلم، من قبيل كتاب **"مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن"** لمحمد العربي الفاسي[٣٤]. زيادة على كتاب **"الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة"** لعبد الرحمان التمنارتي (١٠٤٥-١٦٥٠م) [٣٥]. زيادة على تراجم وفهارس أخرى أقل أهمية من حيث المعطيات الاجتماعية والسياسية التي يمكن أن نستقيها منها، عدا الاستعانة بها في تعريف بعض الشخصيات.

- **كتب الرحلات**، وجاءت بأوصاف دقيقة ومهمة لأحوال العوام في مختلف مناطق المغرب خلال هذه الفترة، ومن أبرزها **"وصف إفريقيا"** للحسن الوزان أو ليون الإفريقي[٣٦]. نجد في المقابل كتابا آخر من صنف الرحلات الجغرافية هو كتاب **"إفريقيا"** للإسباني "مارمول كربخال"[٣٧].

- بعض **كتب الفقه**: وتضمنت بين ثناياها جوانب من أحوال العامة، من خلال عدد من الفتاوي أو القضايا الفقهية لهذه الفترة، مثل **"معراج الصعود"** لأحمد بابا السوداني(ت١٠٣٦هـ/١٦٢٧م) و**"شرح أرجوزة عبد الله الهبطي"** لأبي القاسم بن خجو(ت٩٥٦هـ/١٥٤٩م)، ويُعَدّ عبد الله الهبطي(ت٩٦٣هـ/١٥٥٦م) وابن خجو من أبرز الفقهاء الذين أدركوا الفترة السعدية. لاسيما وأن كتابات الفقهاء تعدّ "خطاب المجتمع حول نفسه"، كونها اشتغلت بمشاكل الناس اليومية وتطلعاتهم المستقبلية وعلاقتهم بموروثهم الثقافي وبيئتهم ونمط عيشهم وطرق إنتاجهم، وذلك من خلال الإفتاء في علاقات الزواج والمعاملات التجارية والمالية وآليات الصناعة والفلاحة والرعي وشؤون أخرى[٣٨]، كما أنهم غالبًا ما كانوا يضمنون أسلوبهم مفردات وعبارات متداولة عند العامة[٣٩].

- كما تم الاعتماد -بالإضافة إلى ما سبق- على مجموعة من المراجع والرسائل الجامعية والدوريات المتنوعة المحلية والأجنبية التي ساعدت في إغناء البحث والمساهمة في تحليل معطيات المصادر، خاصة منها التي اعتمدت بشكل جزئي أو كلي مقاربة تاريخية اجتماعية وسياسية.

خطة وتصميم البحث

للإحاطة بالموضوع من مختلف جوانبه، تمت معالجته وفق خطة تتألف من مقدمة مفصلة توضح مختلف حيثيات البحث، إلى جانب مدخل وثلاثة فصول.

واشتمل **المدخل** "قراءة في المفاهيم والمجتمع" على مبحثين، حيث سعيت من خلال المبحث الأول إلى تحديد المفاهيم الرئيسة لموضوع البحث، والمتمثلة أساسًا في مفهومي العامة والمخزن وفق نظرة تاريخية واصطلاحية، إلى جانب التعريف بالمخزن السعدي ومساره وإطاره التاريخي، إضافة إلى المبحث الثاني "ملامح المجتمع السعدي وطبقتي العامة والمخزن" الذي كان الهدف منه إبراز مميزات ومكونات مجتمع العصر السعدي، وتموضع العامة والمخزن ضمنه، ثم المبحث الثالث "المظاهر الاجتماعية للعامة" الذي ضمنت فيه الخصوصيات الاجتماعية لطبقة العامة، مع الإشارة إلى بعض أحوال النخبة المخزنية من خلال الهوامش.

أما بالنسبة **للفصل الأول** من البحث الذي عنونته ب"فئات العامة وصلاتها بالمخزن السعدي"، فقد استعرضت فيه مختلف فئات عامة العصر السعدي وعلاقتها بالمخزن، وذلك بشكل أكثر تفصيلاً حسب كل فئة وتفاعلها مع هذه المؤسسة.

تطرقت في **الفصل الثاني** الذي يحمل عنوان "علاقة العوام بالمخزن السعدي على ضوء الأوضاع العامة" لعلاقة طبقة العامة بالمخزن السعدي من خلال مختلف الأوضاع السياسية والاقتصادية والقضائية والثقافية والعلمية والدينية، في محاولة لسبر أغوار مجمل أبعاد هذه العلاقة، وتشخيص مفارقاتها من وضع لآخر بعيدا عن نظرة المؤرخ الرسمي. لأنتقل بعدها إلى الفصل الثالث والأخير "تفاعل العامة مع الأمراء السعديين وانعكاساته"، والذي تكون من مبحثين، حيث تناول المبحث الأول منه دراسة تطور علاقة هذه الطبقة بشكل عام بالأمراء السعديين وفق مختلف مراحل عمر الدولة السعدية، على اعتبار أنهم أكبر عنصر مؤثر في سياسة المخزن، وتطرقت في المبحث الثاني من هذا الفصل لردود فعل طبقة العامة ضد هذه السياسة، وللأسباب والملابسات الحقيقية لحركاتها وانتفاضاتها المتعددة في وجه السلطة السعدية، والكيفية التي تعامل بها الأمراء السعديون معها، في محاولة للتجرد من الرواية الكلاسيكية والمخزنية وإنصاف بعض هذه الحركات وتاريخها.

إضافة إلى الخاتمة التي عملت في إطارها على الخروج بخلاصات واستنتاجات حول موضوع البحث وآفاقه وامتداداته المستقبلية.

نتائج البحث

من بين أهم الخلاصات والاستنتاجات التي توصلت إليها:

١- تعرض معظم شرائح العامة لشتى أنواع القهر والبطش والتهميش والتفقير تحت نير سلطة المخزن السعدي، الذي تميز حكامه ورجاله بالقسوة والاستبداد خلال جل مراحل عمره، بفعل ارتكازهم في الحكم على العنف وبث الخوف بين العامة التي شكلت معظم الرعية ومثلت بالنسبة إليهم مكمن الأخطار التي تهدد سلطتهم، على اعتبار أنها محرك أساسي للثورات ووقود لدعاة السلطة والانقلابات.

٢- أن تمرد العامة الذي أخذ في عدة أحيان طابعًا عنيفًا، ودعمها لطلاب الحكم لم يكن ليحدث إلا في سياق العنف المضاد والرد على تهميش أو استفزازات المخزن واستبداده الممارس بشكل أساسي عن طريق الاضطهادين العسكري والضريبي.

٣- عدم الجزم المطلق في الحكم على طبيعة العلاقة التي جمعت هذه الطبقة بالمخزن خلال الفترة السعدية، لا سيما أن قسما يسيرًا من بعض فئات العوام قد حاز على شيء من الحظوة، كجزء من الفقهاء أو النساء أو أهل الذمة من اليهود على سبيل المثال، والذين استفادوا من علاقاتهم بمختلف عناصر النخبة المخزنية. كما لا يؤكد أن كل هذه العناصر قد جمعتها علاقة نفور وتوتر مع العامة، لاسيما خلال أوقات الشدة والأزمات التي كانت تدفع في بعض الحالات جميع الطبقات إلى التآلف والتآزر من أجل تجاوز المحنة التي تغيب فيها أحيانا التراتبية، مادام أن الكل تقريبًا يقاسي من نفس الوضعية.

٤- أن المخزن ليس هو المسؤول الوحيد عن الوضعية المزرية للعامة وتهميشها، خاصة وأن عددا لا بأس به من رجالات السلطة السعدية أو المقربين منها أو الموالين لها قد أبانوا عن بعض المواقف الجليلة تجاه هذه الطبقة. مما قد لا يحلينا بالضرورة إلى حصر هذه العلاقة في زاوية الصراع الطبقي. بحيث ساهمت عوامل أخرى في ذلك، كتوالي سنوات الجفاف والأوبئة وتصاعد هجمات الإيبيريين، إضافة إلى التطاحن الداخلي حول السلطة سواء بين السعديين والوطاسيين في بداية نشأة الدولة، أو داخل الأسرة المالكة التي لطالما تصارع أمراؤها من أجل انتزاع الحكم، لاسيما في فترة الانحطاط. إلى غير ذلك من الأسباب. وإن كانت مسؤولية المخزن تبدو واضحة بشكل كبير خلال فترات الاستقرار والازدهار.

٥- أن موقف العامة لم يكن سليما في جميع أطوار وأوجه العلاقة مع المخزن، كما أنها لم تكن دائما الطرف المظلوم الذي كان فعله التاريخي مثاليًا وخاليًا من الهفوات، مادام أن بعض الفئات –مثل اللصوص وقطاع الطرق- كانت تتجاوز سلطة القانون وتخل بالنظام العام، بل وأسهمت بدورها -أحيانًا- في تأزيم الأوضاع والتأثير سلبًا على شق مهم من طبقة العامة ذاتها.

٦- الكشف عن جانب مهم من عورات التاريخ الرسمي وروايات السلطة السعدية، التي فرضت نفسها ورؤيتها لقرون عديدة حول أغلبية المجتمع وفاعله الرئيس المتمثل في العامة، هذه الطبقة التي لم تعدم أي دور في مختلف مناحي الحياة في العصر السعدي، في حين لم يسعفها الحظ في الدفاع عن مواقفها وإيضاح وجهة نظرها حول مجموعة من المحطات التي انفردت أو تشاركت فيها الفعل التاريخي مع المخزن، بفعل هيمنة وتفوق هذه

المؤسسة على كل المستويات، إلى جانب غياب الوعي الطبقي وضعف تبلور الفكر السياسي لدى العامة نفسها.

الهَوامِشُ:

(١) وقد برزت هذه المقاربة التاريخية الجديدة مع مدرسة الحوليات التي انطلقت مع "لوسيان فيفر Lucien FEBVRE" و"مارك بلوك Marc BLOCH" سنة ١٩٢٩، والتي تبنت موقفا شعوبيا في التعامل مع التاريخ مفاده ضرورة إعطاء مكانة أفضل لتاريخ ضعاف الحال إلى جانب تاريخ الأقوياء(أندريه بورغيار، **الأنثروبولوجيا التاريخية**، ضمن: **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧، ص. ٢٤٢)، وذلك في إطار التاريخ الاجتماعي الذي يضم في الوقت نفسه التاريخ الاقتصادي والتاريخ الثقافي -تاريخ الذهنيات-، في مقابل التاريخ التقليدي الذي يهتم بصورة خاصة بالأفراد وبالفئات العليا من المجتمع ونخبه (من ملوك وقادة ورجال دولة) وبالوقائع(الحروب والثورات) وبالمؤسسات السياسية والاقتصادية والدينية التي تهيمن عليها النخب، فعلى النقيض من ذلك فالتاريخ الاجتماعي يهتم بالكتل الاجتماعية التي بقيت على هامش السلطة وأولئك الذين يقاسون منها، أي الناس البسطاء(فيليب أرياس، **تاريخ الذهنيات**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٢٨٢-٢٨٣)، وفي هذا السياق ظهر ما سمي بتاريخ الهامشيين أو المهمشين(جان كلود سميت، **تاريخ الهامشيين**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٤٣٧)، بحيث أعادوا النظر كذلك في التعامل مع التاريخ السياسي بوقائعه وأحداثه، على اعتبار أنه واجهة يتخفى وراءها الدور الحقيقي للتاريخ الذي تدور أحداثه في الكواليس وفي البنى الخفية التي يتوجب الكشف عنها وتحليلها وتفسيرها(جاك لوغوف، **التاريخ الجديد**، ضمن: **التاريخ الجديد**، م.س، ص. ٨٧).

(٢) حيث قاد هذا الاتجاه في العالم العربي محمود إسماعيل عبد الرزاق الذي اشتغل على إعادة قراءة تاريخ بعض حركات العوام والمهمشين التي تم التحيز ضدها في ظل الدولة الإسلامية خلال الفترة الوسيطية، وفق ما أسماه بالمنهج الاجتماعي التاريخاني، وذلك تبعا لرؤية شمولية تحيط بكافة الظواهر التاريخية على أساس الوحدة والتكامل(أحمد الطاهري: **عامة قرطبة في عصر الخلافة**، سلسلة المعتمد ابن عباد للتاريخ الأندلسي ومصادره رقم ٢، منشورات عكاظ، الرباط، ١٩٨٩، ص. ٣)، وتبقى أهم الدراسات التي أنجزها في هذا الإطار: **"المهمشون في التاريخ الإسلامي"**، **"المهمشون في التاريخ الأوربي"**... ونقف هنا أيضا على أعمال قيمة لباحثين عرب آخرين: كفهمي سعد **"العامة في بغداد في القرنين الثالث والرابع للهجرة"**، وحياة ناصر الحجي **"أحوال العامة في حكم المماليك ١٢٧٩-١٣٨٢م: دراسة في الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية"**.

(٣) من بين هؤلاء الباحثين المغاربة أحمد المحمودي **"عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي"**، وأحمد الطاهري ("**عامة قرطبة في عصر الخلافة**"، "**عامة إشبيلية في عصر بني عباد**")، إضافة إلى محمد ياسر الهلالي **"مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين ٨-٩هـ/ ١٤-١٥م مساهمة في دراسة بعض مصطلحات التراتب الاجتماعي: العامة، الخاصة، الطبقة، المرتبة"**. وكذا إبراهيم القادري بوتشيش الذي وضع مجموعة هامة من الأبحاث التي تناولت بين ثناياها طبقة العامة، من بينها: **"مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس"**...

(٤) من قبيل هذه الدراسات التي تطرقت للعصر السعدي **"البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر"** لعبد الرحمان المودن.

(٥) على رأس هذه المؤلفات **"السياسة والمجتمع في العصر السعدي"** لإبراهيم حركات.

(٦) عرفت الفترة الحديثة بالمغرب كذلك بروز دراسات أخرى تميزت بنفس الخصائص السالفة الذكر مثل: **"المخزن والمجتمع في النصف الأول من القرن التاسع عشر عهد مولاي عبد الرحمان بن هشام ١٨٢٢-١٨٥٩م"** لخديجة بن بوسلهام.

(٧) أحمد بوشرب، **دكالة والاستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وأزمور(قبل ٢٨ غشت ١٤٨١م-أكتوبر ١٥٤١م)**، الشركة الجديدة دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٤، ص. ١٣٧ .

(٨) صدرت هذه الأطروحة في شكل مؤلف تحت عنوان **"الفقراء في المغرب نماذج من القرنين ١٦-١٧م"**.

(٩) محمد استيتو، **الفقراء في المغرب نماذج من القرنين ١٦ و ١٧م**، منشورات الزمن، الرباط، ٢٠٠٦، ص. ٥.

(١٠) وُضِعت المصنفات الإسلامية على العموم استنادا إلى الإيديولوجية الرسمية، بتبني موقف معادي للعوام الذين شكلوا الطرف المحكوم والمتمرد أحيانا على السلطة الحاكمة، فجعلتهم في عداد المارقين والعصاة والخارجين عن الجماعة، أو يجبرون في بعض الحالات على الخضوع بالإكراه، فلا يكون لهم بذلك أي وزن في نظر المؤرخين الذين اعتبروهم مجرد سفلة وغوغاء، فيضعونهم بذلك على هامش التاريخ(إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي: قراءات جديدة في بعض قضايا المجتمع والحضارة**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٤، ص. ٢٨). لأن العامة ظلت تمثل في مخيالهم سواد الناس الذين لا يملكون السلطة ويعيشون في عالم له أبعاده الفكرية والدينية المميزة التي تتدنى عن مستوى عالم "الخاصة"، ومن تم فإن إهمالهم وتهميشهم يبقى أمرا مشروعا حسب نظرتهم الضيقة (إبراهيم القادري بوتشيش، **الإسلام السري في المغرب العربي**، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥، ص. ١٧٦-١٧٧).

(١١) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، تعريب عبد القادر الخلادي، سلسلة التاريخ رقم ٥، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص. ٤٨-٤٩ .

(١٢) نفسه، ص. ٥٠-٥١.

(١٣) نفسه، ص. ٥٣.

(١٤) تعود بشكل عام أسباب اتخاذ المصادر الإسلامية هذا الموقف المعادي والمهمِّش للعامة إلى ما يلي :

الاعتماد على النسق التاريخي الظاهري السكوني الذي قدم فيه التاريخ على شكل ركامات كمية من الأحداث في إطار أسلوب كمي تجزيئي منطلق في الغالب من موقع ذاتي أو طائفي أو طبقي أو إيديولوجي ضيق، محمد تضغوت، **مباحث**

في التاريخ العباسي: رؤية جدلية، مطبعة وراقة سجلماسة، مكناس، ٢٠٠٤، ص. ٥.

- حرص المؤرخ الرسمي على تماسك الأمة ووحدتها وتغطية التناقضات الاجتماعية، إبراهيم القادري بوتشيش، **تاريخ الغرب الإسلامي**، **م.س**، ص. ٢٩.

-هيمنة فكرة البطل التاريخي، على اعتبار أن الأحداث من صنع الفرد المتمثل في الخلفاء والوزراء والأعيان، حيث شكل الخليفة عند المؤرخ "ظل الله في الأرض"(نفسه، ص. ٣٠)، إذ أقدموا على اختصار علاقة السلطان والرعية في إطار علاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على أساس التملك، ارتكازا على فاعلية السلطان وانفعالية الرعية التي لا تشكل سوى موضوع لذات السلطان وأداة لتحقيق رغبته عن طريق حاشيته(عز الدين العلام، **السلطة والسياسة في=« الأدب السلطاني**، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ١٩٩١، ص. ٥٧)، فيطرحون بذلك ضرورة السلطان لتجاوز الفتنة، بينما تبقى الرعية غير ذات فاعلية وضرورة ملحة (نفسه، ص. ٥٩).

- رغبة هؤلاء المؤرخين في الارتزاق والتملق للحاكم والطموح السياسي، نفسه، ص. ٥٧.

(١٥) عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية والثقافة، الرباط، ١٩٧٢، ص. ٥.

(١٦) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٨٠.

(١٧) أسر ابن القاضي أثناء توجهه إلى الشرق لنشر محاسن الدولة السعدية واستكمال تكوينه العلمي بإيفاد من المنصور نفسه، حيث عانى في أسره مختلف أصناف التعذيب والتجويع والتكليف، أحمد بن القاضي، **المنتقى المقصور على مآثر الخليفة المنصور**، دراسة وتحقيق محمد مرزوق، مكتبة المعارف، الرباط، ١٩٨٦، ج ١، ص. ٤٨،٨٥.

(١٨) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٨٩-٩٠.

(١٩) نفسه، ص. ٩٤.

(٢٠) ن.م.وص.

(٢١) مؤرخ مجهول، **تاريخ الدولة السعدية التكمدارتية**، تقديم وتحقيق عبد الرحيم بنحادة، دار تينمل للطباعة والنشر، مراكش، ١٩٩٤، ص. ٦.

(٢٢) كان مكلفًا بافتداء الأسرى المسيحيين بالمغرب، حيث مكث أزيد من ٣٠ سنة معايشا لأهم أحداث الدولة السعدية إلى حدود سنة ١٥٧٧م، دييكُو دي طوريس، **تاريخ الشرفاء**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الدار البيضاء، ١٩٨٨، ص. ٥.

(٢٣) يمثل هذا المصدر تسجيلاً لمذكرات شخصية لصاحبه المنحدر من أسرة برتغالية نبيلة، والذي أسر سنة ١٥٩٢م خلال إحدى الغارات البرتغالية خارج أسوار طنجة التي كان والده حاكما عليها، وتم نقله على عهد أحمد المنصور الذهبي إلى مراكش حيث ظل هناك إلى حين افتدائه سنة ١٦٠٩م، أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار أحمد المنصور سلطان المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق إبراهيم بوطالب وعثمان المنصوري ولطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ٢٠١١، ص. ٢١،١٣،١١،١٠.

(٢٤) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ٥٤-٥٥.

(٢٥) نفسه، ص. ١٥٠.

(٢٦) محمد بن عسكر، **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرآن القرن العاشر**، تحقيق محمد حجي، سلسلة التراجم ١، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٧٧، ص. ب/ ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ١٦٣.

(٢٧) ليفي بروفنصال، **مؤرخو الشرفاء**، **م.س**، ص. ١٦٤.

(٢٨) محمد بن عسكر، **الدوحة**، **م.س**، ص. ج.

(٢٩) يعتبر هذا الكتاب ذيلا لكتاب دوحة الناشر لمحمد بن عسكر، محمد الصغير الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٤، ص. ٢٣.

(٣٠) أحمد بن القاضي، **درة الحجال في أسماء الرجال**، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث، القاهرة، ١٩٧١، ج ١، ص. ٦،٨.

(٣١) أحمد بن القاضي، **جذوة الإقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٣، ص. ٥.

(٣٢) أحمد المقري، **روضة الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٨٣، ص. ك.

(٣٣) محمد القادري، **النشر**، **م.س**، ص. ٥٣.

(٣٤) محمد العربي الفاسي، **مرآة المحاسن من أخبار الشيخ أبي المحاسن**، تحقيق محمد حمزة الكتاني، دار إبن حزم، بيروت، ٢٠٠٨، ص. ٦.

(٣٥) عبد الرحمان التمنارتي، **الفوائد الجمة في إسناد علوم الأمة**، تحقيق اليزيد الراضي وتقديم محمد المنوني، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧، ص. ٢٤-٢٥.

(٣٦) هي التسمية التي ارتبطت به خلال فترة الأسر التي فرض عليه فيها التظاهر بالتمسح، حيث أنجز هذا الكتاب في ظروف الأسر بروما سنة ١٥٢٦ في كنف الكاردينال " Gilles de Viterbe"، باللغة العربية ثم ترجمه للغة الإيطالية، الحسن بن محمد الوزان الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ج ١، ص. ١٥،١٤،١١.

(٣٧) ألفه بعد سنة ١٥٧١م، وأخذ الكثير عن سابقه كتاب الوزان ونسج على منواله، كما يعتبر ذيلا مكملا له، مع تحريف واضح بسبب تعصب مارمول للمسيحية ضد الإسلام والمسلمين، مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الأخضر، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٤، ج ١، ص. ٧.

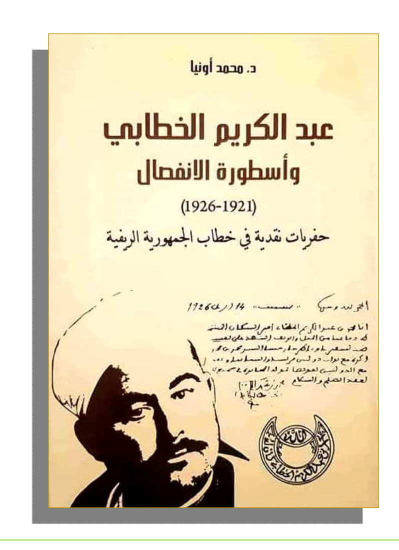
(٣٨) إدريس كرم، **ثقافة العامة في كتابات الخاصة بالمغرب نموذج الفقهاء في القرنين ١٠ و١١ هـ**، ضمن: مجلة أبحاث (مجلة العلوم الاجتماعية)، العدد ١٥-١٦، السنة الخامسة، ١٩٨٧، ص. ٧٥.

(٣٩) نفسه، ص. ٧٦.



عبد الكريم الخطابي وأسطورة الانفصال (١٩٢١ - ١٩٢٦)

حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية





د. عمر أشهبار

باحث في التاريخ والتراث

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي بباب تازة

مديرية شفشاون – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

عبد الكريم الخطابي وأسطورة الانفصال (١٩٢١-١٩٢٦)

حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية

المؤلف: الدكتور محمد أونيا

الناشر: مطبعة الخليج العربي

تطوان. الطبعة الأولى ٢٠١٨

٣٨٤ صفحة من الحجم المتوسط

كلمات مفتاحية:

الثورة الريفية، الجمهورية الريفية، عبد الكريم الخطابي، التاريخ والمجتمع، السلاطين المغاربة

معرِّف الوثيقة الرقمي: DOI 10.12816/0055414

مُقَدِّمَة

تعززت المكتبة التاريخية المغربية صيف العام المنصرم (٢٠١٨) بصدور مؤلف الباحث محمد أونيا، يحمل عنوان: عبد الكريم الخطابي وأسطورة الانفصال (١٩٢١ - ١٩٢٦) حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية. والباحث مختص في تاريخ منطقة الريف بالمغرب. (الريف منطقة جغرافية حدد حدودها عبد الحق البادسي "ما بين مدينتي سبتة وتلمسان". انظر: عبد الحق بن إسماعيل البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية، الرباط، ١٤٠٢ ه/ ١٩٨٢ م، ص ٥٠) وقد أثار صدور هذا الكتاب ردود فعل متباينة والكثير من الجدل، بل وصل الأمر بالبعض حد التجريح والتهجم على شخص المؤلِّف، مما يتنافى مع أدبيات النقد العلمي البناء، فليس من الحكمة والنقد الهادف التهجم على صاحب الكتاب بمجرد أن بدا العنوان للبعض مناقض مع ما ترسخ في ذهنه من "مسلمات وأحكام مسبقة " تروق مزاجه وعواطفه، أو أيديولوجيته. والخطير في الأمر أن هناك من انخرط في حملة التهجم على د. محمد أونيا دون أن يكلف نفسه عناء قراءة الكتاب، وينطبق في حق هؤلاء القول الحكيم "يا ناطح الجبل العالي ليوهنه.. أَشفق على رأسك لا تُشفق على الجبل".

إن القراءة المتأنية لهذا المؤلف الجديد تجعلنا نخلص إلى أن صاحبه استطاع الإسهام في التراكم المنجز عن الحركة التحريرية التي قادها الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وعن الدولة الحديثة التي أنشأها هذا الزعيم الوطني في شمال المغرب، خلال عشرينيات القرن الماضي، فالكتاب إضافة نوعية إلى الدراسات التي انصبّت حول المشروع التحديثي للأمير الخطابي. ولن نجازف القول إن دراسة د. محمد أونيا تُعَدّ أهم ما كتب عن موضوع تأسيس الأمير الخطابي

لكيان سياسي إبان حرب الريف (١٩٢١ - ١٩٢٦م)، وهذه الدراسة العلمية الممنهجة هي ثمرة مجهود علمي كبير تطلبت زمنًا طويلاً. ولعل دراية الباحث بالعلوم الاجتماعية المساعدة لعلم التاريخ، خاصة ما له ارتباط بالمجتمع الريفي، مكنته من سبر أغوار الموضوع من جوانب مختلفة. فالباحث له عدة أعمال علمية رصينة حول التاريخ والمجتمع بمنطقة الريف.

يقع المؤلف في ٣٨٤ صفحة من الحجم المتوسط بما فيه كلمة الشكر وفهرس المحتويات والتمهيد والخاتمة، والملحق الذي يضم ثلاث عشرة وثيقة، ولائحة البيبليوغرافيا التي تضم أكثر من ثلاثمائة عنوان، بالإضافة إلى لائحة الصور والجداول والوثائق والخرائط. والكتاب صادر عن مطبعة الخليج العربي بتطوان، وبإخراج جميل وأنيق.

زيّن غلاف الواجهة الأمامية بصورة للأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي وهو في مرحلة شبابه، وبصورة لوثيقة تاريخية عبارة عن تفويض مكتوب من قبل الخطابي لناظر الخارجية السيد محمد أزرقان للمشاركة في مؤتمر الصلح بوجدة سنة ١٩٢٦م، وأسفل هذه الوثيقة نجد صورة لتوقيع الخطابي بخط يده، وكذلك صورة لخاتم "إمارة الريف" مكتوب عليه عبارة "محمد بن عبد الكريم الخطابي كان الله له"، ويتضمن الغلاف الخارجي أيضًا لمحة مقتضبة عن المؤلف وأعماله العلمية، وعلى الواجهة الخلفية للغلاف أدرج المؤلف مقتطفًا من التمهيد المخصص للدراسة.

ونعتقد أن هذه الدراسة موجهة للباحثين المختصين وللمهتمين، وللقراء العاديين على حد سواء، فالمتخصص سيجد فيها القاعدة الأساسية للمادة المصدرية المتعلقة بالموضوع، والمهتم ستتوسع لديه قاعدة معطياته، والقارئ العادي سيستمتع بقراءة هذا الكتاب ويستفيد منه بلا شك، لأن الكتاب يتميز بأسلوب سلس، وواضح، مع عمق على مستوى التحليل والنقد.

إن الغاية المتوخاة من تأليف هذه الدراسة تتمثل أساسًا في بيان حقيقة تأسيس الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي لدولة حديثة وطبيعة هذا الكيان، وكذلك نقد كل الأطروحات التي تطرقت إلى الموضوع، فقد استهل الباحث دراسته بتمهيد مطول (إحدى عشرة صفحة) أقر فيه السعي إلى "إعادة بناء تصور جديد حول القضية بأكبر قدر من الموضوعية، وحد أدنى من التصور العاطفي (...) مما يتطلب قراءة أركيولوجية". (ص.١٤ من الكتاب)، واعتبر أن جل ما كتب عن الموضوع تحكمت فيه اعتبارات إيديولوجية، مما أدى -حسب الكاتب- إلى بروز ثلاث أطروحات وتصورات عن طبيعة الكيان السياسي الذي أسسه الأمير الخطابي، وهي كالتالي: "أطروحة أصحاب اليمين (السلفيين) الذين دافعوا عن تأسيس (الجمهورية الريفية) باعتبارها خطوة ضرورية وأولية في مسلسل تحرير باقي البلاد (...) ومتى تم التحرر سلموا البلاد لصاحب العرش" (ص. ١٥)، أما التصور الثاني فقد عبر عنه "أهل اليسار (التقدميّين) من زعماء الحركة الوطنية ممن أعجبوا بالتجربة الخطابية، فقد اعتبروا (الجمهورية الريفية) حلاً ملائمًا لتجاوز أزمة الحكم المخزني التقليدي" (ص.١٥)، وفي المقابل نجد موقفًا وسطًا "استمد رؤيته من تصور أنتروبولوجي يختزل (الجمهورية الريفية) في البعد القبلي الصرف" (ص. ١٥).

اعتبر الباحث أن هذه التصورات الثلاث "فشلت في تحقيق المصالحة التاريخية المنشودة مع تاريخ ابن عبد الكريم (...) بل ساهمت في تعميق أزمة الثقة بين الريف والمركز" (ص.١٦). ولعل سبب إخفاق هذه التصورات في تحديد طبيعة الكيان الذي أسسه الخطابي، وغايته من ذلك، يعود إلى المرجعيات الفكرية المؤطرة لأصحابها، وكذلك إلى كون هؤلاء قد "استمدوا مادتهم كلها من وجهة نظر (الآخر) الأوربي" (ص.١٧)، وبالتالي آن الأوان لضرورة الاحتكام إلى ما اعتبره الباحث "المرجعية المحلية "، أي العودة إلى رأي الخطابي نفسه، مما دفع د. أونيا إلى طرح سؤال مؤرق، يمكن إعادة صياغته على الشكل التالي: هل فعلاً أسس الخطابي "جمهورية ريفية" أم أن "التسمية الوحيدة التي اتخذها ابن عبد الكريم شعارًا لحكومته المحلية هي (الإمارة) وبالضبط (إمارة الريف)" (ص. ١٧).

محتويات الكتاب

قسم الباحث دراسته إلى بابين، كل باب منهما يشتمل على فصول، خصص الباب الأول لتبيان حقيقة وجود "الجمهورية الريفية"، فاختار لهذا الباب العنوان التالي: **"جمهورية الريف" الحقيقة والخطاب**، ويتضمن ستة فصول.

خصص **الفصل الأول** للنبش في الإشكالية المرجعية للحركة الريفية، ونجاح الأمير الخطابي في بناء قيادة مركزية لمجتمع لم تكن له زعامة، والعمل على "استقلال الريف بمعناه الجغرافي الممتد على طول الواجهة المتوسطية من ملوية شرقا، إلى المحيط

الأطلنتي غربًا، ومن تخوم البحر الأبيض المتوسط شمالاً، إلى ضفاف نهر ورغة جنوبًا". (ص. ٢٩). لينتقل للحديث عن بداية تداول تسمية "الجمهورية الريفية"، حيث اعتبر أن هذه التسمية لم تطلق محليًا على الحكومة الأولى التي أسسها الأمير الخطابي بل ارتبطت بها لاحقًا، ولم يستعمل الخطابي تسمية "الجمهورية الريفية" بشكل نهائي، ولم يوقع بها مراسلاته، وفي المقابل لم يعترض الخطابي على لقب "الأمير"، كما نجد في وثيقة بيعته. ليخلص الباحث إلى أن دحض تأسيس الخطابي للجمهورية الريفية يستدعي "إعادة النظر في كل ما قيل حول هذه القضية، وفي مقدمة ذلك تهمة الانفصال التي وجهت دائما للأمير ابن عبد الكريم ومعه كل الريف والريفيين" (ص. ٥٢).

انتقل الباحث، بعد ذلك، في **الفصل الثاني** إلى إبراز أصداء حرب الريف بين المشرق والمغرب والموقف الاستعماري من الثورة الريفية، والملاحظة الأساسية التي أثارها الكاتب هي أن "خطاب (الجمهورية الريفية) تبلور في الصحف والكتابات العربية الإسلامية في المشرق، قبل أن يتسرب إلى المغرب" (ص. ٦٢)، واتهم المترجمين العرب الأوائل الذين استعملوا تسمية "الجمهورية الريفية" بعدم احترام الأمانة العلمية، حيث تم استبدال لفظة "الإمارة" بلفظة "الجمهورية"، مما يفرض عدم الوثوق في الكتابات المشرقية التي تبنت عبارة "الجمهورية الريفية"، خاصةً أن أقطاب الحركة الوطنية بالمغرب اعتمدوا "التدوين أخبار (الجمهورية الريفية) ليس على المصادر المحلية، بل نقلاً عن الصحف والكتب العربية التي ظهرت في المشرق" (ص. ٧٥). ويفترض الباحث في آخر هذا الفصل، مرة أخرى، أن "تسمية (الجمهورية الريفية) لم تكن متداولة في بلاد الريف وجبالة، ولم يرد لها ذكر في أي مستند أو وثيقة محلية (...) وأن ما كان سائدًا هي عبارة (الإمارة)". (ص. ٨٠)

وفي **الفصل الثالث** تتبع الباحث لحظة انبثاق خطاب "جمهورية الريف" حيث يرجع استعمال عبارة "الجمهورية الريفية" لأول وهلة إلى الأوساط المالية والسياسية الأوربية، واتهم "اللوبي الفرنسي" بصنع الطابع الذي كان يحمل تسمية "الجمهورية الريفية".

أما ظهور بعض المراسلات التي تحمل "جمهورية الريف"، فقد أقر الباحث أنها ليست رسمية، وجلها "عبارة عن أوراق للتراسل الإداري انفردت بها شخصية سياسية ريفية (مزاجية) ... يتعلق الأمر بالقائد حدو بن حم البقيوي" (ص٩٢)، كما أن جميع "الوثائق التي نصت على فكرة (الجمهورية الريفية) اقتصرت على الخطاب الخارجي" (ص. ٩٧)، وهذه الوثائق مرتبطة أساسًا بالمصالح التجارية والمنجمية لجماعات الضغط الفرنسية والإنجليزية بمنطقة الريف.

أما **الفصل الرابع** فقد تناول فيه الباحث الظروف التي فرضت على حركة ابن عبد الكريم الحاجة إلى الشرعية الدولية، وتدويل القضية الريفية، وقد أثار مسألة مهمة جدًا، تتمثل في كون الرسالة الأصلية التي وجهها الخطابي إلى عصبة الأمم سنة ١٩٢٢م لا تتضمن تسمية "الجمهورية الريفية" إذ نصّت فقط على (حكومة الريف)" (ص. ١١٢). وفي الوقت نفسه طعن الباحث في مصداقية الوثائق التي تتضمن عبارة "الجمهورية الريفية" المنشورة من قبل بعض الأجانب، لكن ذلك "لا ينبغي أن يتخذ مبررًا للتشكيك في قيام دولة ابن عبد الكريم الخطابي جملة وتفصيلاً" (ص. ١٢٢).

ونظرًا لأهمية استيعاب الدلالات التاريخية للمصطلحات ذات الحمولة الأنتربولوجية والسوسيولوجية فقد أفرد الباحث **الفصل الخامس** للتمييز بين مصطلحي "الريفوبليك" و"الجمهورية"، حيث رأى أن هناك فرقا بين هذين الإصطلاحين المحليين، وبالتالي "عبارة (الريفوبليك) لا تنطبق على التسمية التي أطلقت على الكيان السياسي الذي استحدثه ابن عبد الكريم سنة ١٩٢٣ (...) ولهذا، فإن تقديم تفسير متكامل لمفهوم (الريفوبليك) ومقارنته مع (الجمهورية) لا يستقيم"(ص. ١٥٣).

انتقل الباحث في **الفصل السادس** إلى مناقشة رأي الأمير الخطابي في "الجمهورية" وكيف أسيء فهمه، فاستهل هذا الفصل بتصريح منسوب للخطابي، جاء فيه: "لم تكن لدينا أبدا جمهورية بالمعنى الغربي للكلمة، ولم نرغب البتة في أن نتوفر على مثلها" (ص. ١٦١). وقد استعرض الباحث مختلف الآراء الأجنبية والمغربية التي أثارت مسألة "جمهورية الريف"، ووضع كل تلك الآراء تحت مجهر النقد والتمحيص، ليخلص إلى أن "محمد بن عبد الكريم الخطابي لم يصف دولته العصرية باسم (جمهورية الريف) كما شاع في الجرائد الأجنبية، بل حرص على استعمال تسمية (الحكومة الريفية)" (ص. ١٨١)، ونسب إلى الخطابي عدم إقراره بتسمية "الجمهورية الريفية"، حيث "لم تكن القيادة الريفية ترغب في أن تتوفر على مثلها، ولم يصرح - أي الخطابي- بأنه هو الذي اختار تلك التسمية أصلاً، بل أرجع ذلك إلى الصحافة الأجنبية، وذلك هو عين الصواب" (ص. ١٩٥).

خصص الباحث **الباب الثاني** من دراسته لتبيان فرضيته المتمثلة في تأسيس الأمير الخطابي لـ"إمارة الريف"، فاختار لهذا الباب العنوان التالي: **الأسس الشرعية للإمارة الريفية بين المرجعية الإسلامية وإستراتيجية التحديث**. وهكذا استهله بالفصل السابع الذي أفرده لإبراز الأسس الشرعية للإمارة الريفية، حيث استند الخطابي لتأسيس كيانه السياسي على المشروعية الدينية والدنيوية، وهذه المشروعية عبر عنها نص بيعة الخطابي "أميرًا للجهاد" المحرر عام ١٩٢٣م. وبعدما فشلت المساعي الدبلوماسية التي بذلتها القيادة الريفية في انتزاع الاعتراف الدولي، عقد الخطابي العزم على بناء شرعيته السياسية من الداخل، مستندًا إلى المرجعية الإسلامية كما تجسدت في فجر الإسلام (ص. ٢١٧)، حيث أن مصطلح "الإمارة" كان متداولاً تاريخيًا في التراث العربي والإسلامي، بخلاف لفظة "الجمهورية".

بعدما فرغ الباحث من استنطاق النصوص المحلية لمعرفة موقف الخطابي نفسه من الإشكالية المركزية التي تعالجها الدراسة، انتقل في **الفصل الثامن** إلى الخوض في موقف الأمير الخطابي من العرش، فطرح سؤالا كبيراً، وهو كالتالي: **هل خطر ببال ابن عبد الكريم الخطابي أن يكون سلطانًا؟** للإجابة عن هذا السؤال عمل الباحث على رصد علاقة آل الخطابي بالمخزن المركزي منذ عهد السلطان المولى الحسن الأول أواخر القرن التاسع عشر الميلادي، حيث برز والد الأمير الخطابي كأحد أبرز قواد المخزن في قبيلة بني ورياغل، معقل الحركة الريفية.

يرى الباحث أن الجدل الذي أثير عن موقف الأمير الخطابي من السلطان المولى يوسف والعرش العلوي إبان حرب الريف، وتصوير الخطابي كمتمرد ومنشق، أو كمعارض للمخزن، "يستند على الخطة الاستعمارية (فرّق) تسد) وتغذيه المواقف الإيديولوجية للصراعات الحزبية خلال بعض الأحداث اللاحقة التي عرفتها المنطقة الريفية عقب الاستقلال "(ص. ٢٣٠). أكد الباحث بشكل قاطع على أن الخطابي لم تكن له أية أطماع لمنافسة السلطان، بل "بادر منذ بداية حركته إلى الاتصال بالسلطان (...) باعتباره هو وحده من له الحق في تولي القيادة العليا للبلاد" (ص. ٢٣١). أما ما قام به الخطابي-حسب الباحث- فهو تأسيس إمارة محلية لمواجهة الاستعمار الإسباني، وليس الخروج عن الإمام الشرعي، ولتأكيد هذا التصور أورد الباحث نصوصًا منسوبة إلى الخطابي نفسه يؤكد فيها أنه لا يسعى بأي حال من الأحوال إلى منافسة السلطان سواء على الصعيد الديني أو المستوى السياسي.

تناول الباحث في **الفصل التاسع** المشروع التحديثي الذي سعى إليه الخطابي من خلال تأسيس كيانه الجديد، حيث قامت الحكومة الريفية على هياكل وأجهزة "شكلت تحولاً عميقًا في البنية الاجتماعية والسياسية في الريف، إذ قامت على مؤسسات جديدة ومبدأ فصل السلط (...) حكومة تجاوزت القبيلة وتطلعت إلى أفق أعلى هو الأمة والوطن" (ص.٢٦٧)، مثلما دشن الخطابي العديد من الإصلاحات في مختلف المجالات، فهذا الأخير عمل على تنظيم المجتمع المحلي، وتحديث هياكله القبلية.

أما **الفصل الأخير** من الدراسة فقد حاول فيه الباحث تأكيد فكرة أساسية مفادها أن الخطابي جعل من الاعتراف بـ "الإمارة الريفية" شرطًا أساسيًا في مفاوضاته مع القوى الاستعمارية، وذلك ما بدا جليًا عندما رفض الخطابي العرض الإسباني القاضي بمنح الريفيين نوعًا من التسيير الذاتي الإداري تحت الحماية الإسبانية. فالخطابي ظل متمسكًا بضرورة استقلال "الإمارة الريفية" إلى أن انتهت "الحركة الريفية" بعد فشل مفاوضات وجدة وتدخل فرنسا، مما أرغم الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي على الاستسلام للفرنسيين، ليتم نفيه إلى جزيرة لاريونيون أواخر شهر مايو ١٩٢٦م.

وفي **خاتمة الدراسة** استعرض الباحث بشكل دقيق كل ما يعتبره البعض دليلاً على قيام "جمهورية الريف"، معتبرًا إياها أدلة لا تستند إلى أسس علمية صحيحة، ولم تخضع لأي "دراسة نقدية محايدة للتأكد من صحتها "(ص. ٣٢٣)، فكان من الضروري القيام بهذه العملية "بكل تجرد ودون خلفية معينة" (ص. ٣٢٣)، حيث تبيّن أن الأمير الخطابي شيد "إمارة" وليس "جمهورية"، وغايته الرئيسة هي الجهاد ومحاربة المستعمر، لكن هذا لا يمنع من القول إن عبد الكريم لم يكن له أي طموح آخر، بل كان يسعى إلى إقامة نظام "ديمقراطي بكل معنى الكلمة". (آخر عبارة وردت في الخاتمة، ص. ٣٢٨).

ملاحظات نقدية

بعدما حاولنا تقديم مضامين الدراسة، نرى أنه من الواجب العلمي إبداء بعض الملاحظات التي بدت لنا أثناء قراءة هذا العمل المتميز، فكل مجهود علمي وبحثي جاد قابل للنقد والتمحيص، فلا توجد حقيقة كاملة كما يقول المحققون. عندما شرعنا في قراءة مؤلف الدكتور محمد أونيا أول ما استرعى انتباهنا هو

العنوان، فعلى الرغم من أن أي كتاب لا يقرأ من عنوانه، إلا أن للعنوان أهمية في إثارة القارئ.

إن القراءة العادية للعنوان تفيد توظيف لغة لا تقبل الشك، وذلك من خلال عبارة "أسطورة الانفصال"، وبالتالي قد يُفهم أن الباحث لم يلتزم بالحياد العلمي المطلوب. وقد عزز الباحث العنوان الرئيس بالعنوان الفرعي التالي: حفريات نقدية في خطاب الجمهورية الريفية. فالمؤلف بين أنه أجرى حفريات تاريخية للمادة المصدرية وعمل على نقد خطاب الجمهورية الريفية. والملفت هنا أن الباحث وضع تسمية (الجمهورية الريفية) دون المزدوجتين، مما قد يجعلنا نعتقد أن المؤلف يقر بتأسيس الجمهورية الريفية، وأنه سيقتصر فقط على نقد خطابها. لكن عكس ذلك تمامًا، نجد أن المؤلف يضع هذه التسمية بين المزدوجتين، سواء في التمهيد، أو في الفصول اللاحقة، فهو يعلن بشكل صريح منذ البداية نفي تأسيس الأمير الخطابي للجمهورية الريفية، وفي المقابل تبنى فرضية تأسيس "إمارة الريف" أو "الإمارة الريفية"، وأن هذه الإمارة التي شيدها الخطابي هي "إمارة جهاد" وليست "إمارة حكم".

كما تجب الإشارة إلى أن الدكتور أونيا حصر دراسته خلال زمن يمتد من سنة ١٩٢١ إلى سنة ١٩٢٦م (فترة حرب الريف)، وبالتالي قد يكون موقف الخطابي من النظام السياسي بالمغرب، ومن طبيعة نظام الحكم، قد تغيّر فيما بعد، خاصة إذا علمنا أن الخطابي شخصية سياسية بامتياز، ومن المفترض أن تخضع العديد من مواقفه لمعطيات اللحظة السياسية. نقرأ في التمهيد، وفي الصفحات الأولى من الفصل الأول أن الباحث ينفي تشييد الخطابي "الجمهورية الريفية"، لكن في آخر هذا الفصل (ص. ٥٢)، وفي مناسبات أخرى (مثلاً في الصفحة ١٠٠)، نقرأ افتراض الباحث، بشكل أو بآخر، تأسيس هذه الجمهورية، وهنا نتساءل ما الداعي إلى هذا الافتراض ما دام أن الباحث قد حسم موقفه منذ البداية.

اعتبر الباحث أن الرسالة الوحيدة التي وظف فيها الخطابي لفظة "الجمهورية" هي الرسالة الموجهة إلى مسلمي الجزائر وتونس سنة ١٩٢٥م، وقد جاء في هذه الرسالة: "يتهيّأ لنا تشكيل جمهورية ضخمة تكون أركانها جميع بلاد إفريقيا الشمالية" (ص. ٤٤). وعلق على ذلك الباحث، قائلاً: "صحيح أنه وظف تلك المقولة في رسالة وحيدة لم تتكرر..." (ص. ٤٤). ونعتقد بأن الخطابي قد يكون قصد إلى ذلك قصداً، وبخاصة إلى الجزائريين الذين كانوا يرون ما حققته الجمهورية الفرنسية في مختلف المجالات. وكأنه قال لهم: إن نظامًا سياسيًا مماثلاً في شمال إفريقيا سيحقق لهم أفضل مما تحقق للفرنسيين بعد استعادة وحدتهم. ونرى أنه لا يمكن الجزم بأن تلك الرسالة هي الوثيقة الوحيدة التي تبنى فيها الخطابي لفظة "الجمهورية". فالمنهج العلمي يفرض علينا عدم الحسم النهائي، خاصةً أن إمكانية وجود وثائق محلية أخرى غير معروفة واردة، فمثلاً هناك حديث عن وجود مذكرات خطها الأمير الخطابي لم تظهر بعد. والملاحظة الثانية المسجلة على هذه الرسالة هي أننا قد نستخلص من مضمونها أن الخطابي عبر بشكل صريح عن طموح سياسي أكبر من تشييد "إمارة" صغيرة في شمال المغرب.

تكرر جزم الباحث في وجود وثيقة وحيدة متعلقة بمسألة معينة في مناسبات أخرى، فمثلاً ذكر الباحث أن هناك "وثيقة وحيدة تحمل الاسم والتوقيع الخطين لكل من بوجيبار واللوه باللغة العربية واللاتينية عندما كلفا بالتعريف بالقضية الريفية عند عصبة الأمم" (ص. ١١٢)، كما أقر بورود "إشارة وحيدة إلى الجبهة الريفية في مذكرة لسي امحمد" (الهامش ص. ١٦٦).

نعتقد أن منهج البحث التاريخي يقتضي اعتماد اللغة القائمة على النسبية، فحبذا لو استعمل الباحث لغة أخرى، كالقول إن تلك هي الوثائق هي الوحيدة التي يتوفر عليها، أو أنها الوثائق الوحيدة المعروفة إلى حدود الآن، فمن يدري قد تظهر في المستقبل وثائق أخرى تضيف أو تنفي ما ذهب إليه الباحث.

نفى الباحث بشكل صارم تبني الحركة الريفية لتسمية "الجمهورية الريفية" سواء في الداخل أو الخارج، لكنه أورد أن الصحافي الإسباني أوتايثا (Oteyza)، مدير اليومية الإسبانية (La libertad)، نقل عن شقيق الأمير سي امحمد تصريحًا اعتبر فيه أن طبيعة النظام السياسي الريفي هو "جمهورية" يترأسها شقيقه (ص. ١٢٦). والباحث لا يشكك في صحة هذا التصريح، بل تساءل فقط عن مدى إسقاط هذا الوصف على الواقع، وقد احتمل أن يكون تصريحًا موجهًا إلى الخارج، الأمر الذي وضع الباحث في نوع من التناقض، إذ سبق له أن نفى وصف الكيان الريفي بالجمهورية سواء داخليًا أو خارجيًا.

انتقد الباحث مضمون المذكرات المنسوبة إلى الأمير الخطابي، التي دوّنها كتابه الأربع، إذ شكك في صحتها، بل رجح أن يكون بعض هؤلاء الكتاب قد نقلوا معلوماتهم عن بعض الدارسين مثل عمر أبو النصر ورشدي الصالح. لكن يبدو أن هذا الحكم لا يستند إلى

حجج موضوعية مقنعة، خاصة إذا علمنا أن الباحث يشكك في هذه المذكرات فقط حينما يتعلق الأمر بإيراد تسمية "الجمهورية الريفية"، بينما يعتبرها في بعض الأحيان صحيحة، وذلك حينما تتطرق إلى أمور تتماشى مع رأيه والتصور الذي يدافع عنه. فمن بين الأمثلة الدالة على ذلك استدلال الباحث بما دوّنه علي الحمامي، أحد الكتاب الأربعة للخطابي، في سياق تأكيده على المرجعية الدينية لدستور "إمارة الريف"، معتبرا أن فكرة الدستور لدى الخطابي يقصد بها "الدستور السماوي"، مستندًا في ذلك على ما أورده أمين سعيد نقلا عن علي الحمامي، قائلاً: "يمكن الوثوق به -أي أمين سعيد-، لأنه نهل من مذكرات الخطابي التي دوّنها علي الحمامي بالقاهرة بموافقة الأمير وتحت مسئوليته التاريخية" (ص. ٧٣ و ٧٤).

وفي الاتجاه نفسه اعتبر الباحث أن مذكرات علي الحمامي "أقل غلوا وأكثر اعتدالا، لأن علي الحمامي لم يستخدم مصطلح الجمهورية الريفية" (ص. ٤٩). مما يجعلنا نفهم أن رأي الباحث في هذه المذكرات تتحكم فيه عدم استخدام تسمية "الجمهورية الريفية" فقط. وبهذا الحكم يستخلص أن كل من أقر بوجود الجمهورية الريفية في نظر الباحث غير معتدل ويتسم بالغلو.

ذكر الدكتور أونيا أن فرنسا استطاعت إقناع المولى يوسف بأن الخطابي يسعى إلى تأسيس عرش بديل (ص. ٥٧). ويمكن أن نتساءل في هذا الصدد: هل فعلاً كان المولى يوسف بحاجة إلى من يقنعه ليعادي الأمير الخطابي؟ وقد ذكر الباحث في نفس السياق أن هناك من حاول "تصور الزعيم الريفي كمتمرد على السلطان ومنشق عن العرش، وفي أحسن الأحوال كمعارض للمخزن" (ص. ٢٣٠)، واعتبر ذلك "تأويلاً خاطئًا يستند على الخطة الاستعمارية (فرّق تسد)" (ص. ٢٣٠)، كما أورد الباحث مقتطفا من رسالة للسلطان المولى يوسف نعت فيها الخطابي بالفتان، وبـ "الثائر الذي جاء ليوقظ نار الثورة والفساد" (ص. ٢٤٢)، مثلما أورد تصريحًا للخطابي، جاء فيه: "سنكون أول من يساند السلطان إذا تحرر من نير الحماية والعبودية" (ص. ٢٣٨).

نرى أن الباحث قد تفادى البحث في الأسباب الحقيقية التي كانت وراء توتر العلاقة بين السلطان المولى يوسف والأمير الخطابي، بل سعى إلى تلمس العذر للمولى يوسف، لأن هذا السلطان تبنى موقفًا سلبيًا من الحركة الريفية، ومن زعيمها. ويستخلص من تصريح الخطابي، المذكور أعلاه، أن هذا الأخير اشترط على السلطان عدم القبول بنظام الحماية ومقاومة المستعمر مقابل طاعته، وهذا ما لم يحدث وفق الوثائق المعروفة والمعطيات المتوفرة.

واعتبر الباحث أن ظهور دستور الحكومة الريفية بالمعنى الغربي للكلمة ضربًا من الخيال، وأن ما أورده الأستاذ عبد الرحمان اليوسفي غير مقنع لأنه استند في ذلك إلى ما رواه له الكاتب الخاص للأمير الخطابي السيد الحسن بن عبد العزيز الجزائري (ص. ٧٤). وواضح هنا أن الباحث استعمل في استنتاجه تعبيرا لغويا غير مستساغ في البحث العلمي، وكان بعيدا نوعا ما عن الحياد المطلوب، وذلك حينما وصف ما أورده اليوسفي أنه "ضرب من الخيال".

ذكر الباحث في الصفحة ٧٩ (الهامش) أن السيد أحمد شعيب الخطابي بورجيلة من القادة المحليين في حرب الريف (أمين عام للخزينة)، له مؤلف بعنوان: الحروب الريفية الدفاع المجيد بالنار والحديد. تطرق فيه إلى "بنود الميثاق القومي"، معتمدًا على ما أورده رشدي الصالح وعمر أبو النصر، مما جعل الباحث يستخلص بسهولة أن ما ذكره أحمد شعيب غير صحيح، دون استدلال مقنع. وهنا نتساءل: كيف لرجل عاصر الأحداث -أي أحمد شعيب الخطابي بورجيلة-، وكان قائدًا بارزًا في الحرب، أن ينقل معلومات بهذه الأهمية عن غيره، دون أن ينتبه إلى عدم صحتها.

إن القارئ لدراسة الدكتور محمد أونيا قد يستغرب من التصوير الذي قدمه لشخصية أساسية في الحركة الريفية، يتعلق الأمر بالقائد حدو بن حم البقيوي، المعروف بحدو لكحل، فقد وصفه الباحث، قائلا: "شخصية سياسية ريفية مزاجية، ومزهو بنفسه" (ص. ٩٢)، كما اتهمه بخدمة مصالح اللوبي الاستعماري الفرنسي، فقد كان "عضوًا وسيطًا ونشيطًا في جماعة بورساي بوهران" (ص. ٩٣). وتكرر نفس "الاتهام" في الخاتمة، حيث نقرأ أن هذا الرجل -أي حدو لكحل- "تشبع في بورساي بأفكار سيده دانييل بورماسي" (ص. ٣٢٤).

نعتقد، إن صح التعبير، أن هناك نوعًا من الإجحاف في حق هذه الشخصية الأساسية في حرب الريف، فالرجل كان دائمًا قريبًا من الخطابي، وحظي بثقته في مناسبات مهمة، فمثلاً كان ضمن بعثة الخطابي إلى باريس سنة ١٩٢٢، بل ظل من بين الشخصيات التي وضع فيها الخطابي الثقة إلى آخر لحظة من حركته التحريرية، والدليل هو تفويضه للمشاركة في مؤتمر وجدة في ماي ١٩٢٦. ونرى أنه لا يستقيم اعتبار السيد

حدو لكحل شخصية غير مسؤولة بمجرد أن مراسلاته كانت تحمل شعار "الجمهورية الريفية"، الأمر الذي اعتبره الباحث أنه لم يكن بموافقة الخطابي.

إن الباحث نفسه أقر بضرورة التريث وعدم التسرع في إصدار الأحكام والتحقق من المصادر جيدًا، فمثلا انتقد روبرت فورنو حينما نشر وثيقة تحمل عنوان: بيان الدولة ونداء إلى جميع الأمم "جمهورية الريف"، حيث اعتبر أن "فورنو لم يشر إلى مصدر تلك الوثيقة التي اعتمد عليها، وهذا خلل منهجي لا يقبله المؤرخ الذي يولي للإسناد ولتحقيق النصوص أهمية قصوى" (ص. ١١٦).

ذكر المؤلف أن الوفد الريفي إلى عصبة الأمم استند إلى مبدأ حق الريفيين في تقرير المصير (ص. ١١٢)، ونحن نعلم أن هذا المبدأ نص عليه مؤتمر الصلح المنعقد بعد الحرب العالمية الأولى، بحيث تبنى الرئيس الأمريكي ولسن هذا المبدأ للدفاع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها. وبالتالي قد يستخلص من الأمر أن الخطابي اعتبر "الريفيين شعب" له الحق في السيادة، ويتضح ذلك أكثر في الوثيقة التي أوردها الباحث، وهي عبارة عن رسالة من الخطابي إلى المندوب البريطاني في عصبة الأمم، فقد ورد فيها: "إننا شعب حر يرغب في استقلاله كما كان دائماً". وفي آخر الرسالة نقرأ "يشرفني أن أتقدم إليكم بأسمى عبارات التقدير الشخصي ونيابة عن الشعب الذي أمثله بموجب السلطة التي منحوني إياها" (الوثيقة رقم ٢ في الملحق، ص. ٣٣٤ - ٣٣٥). ويمكن القول إن هذه الرسالة وحدها تشكل إعلان صريح من قبل الخطابي للعالم الغربي عن موقفه المتمثل في كون الريفيين "شعب متميز" قرر منح السلطة لشخصه لتمثيله والحديث باسمه، ومما لا شك فيه أن هذا الموقف تحكمت فيه طبيعة الأوضاع الداخلية والخارجية آنذاك.

اعتبر الباحث أن "المتتبع للحركة الريفية منذ نشأتها سيلاحظ أن ابن عبد الكريم استهل مقاومته للاستعمار الإسباني باسم الدين والدولة" (ص. ١٤١)، إلا أننا نقرأ في الصفحة (١٢٩) أن حكومة الريف الأولى لم تكن تسمى حتى بإمارة الريف، أي أن قبل ١٩٢٣ لا يمكن الحديث عن تأسيس الخطابي لكيان سياسي، فكيف يمكن أن يكون الخطابي قد استهل حركته باسم الدولة، وهو لم يؤسس أي كيان سياسي يعبر عن تلك الدولة؟

شكك الباحث في مصداقية مجموعة من التصريحات التي أدلى بها محمد بن عبد الكريم الخطابي، سواء للصحف العربية أو الأوربية، فمثلاً اعتبر أن التصريح الذي أوردته مجلة المنار المصرية في عددها الصادر يوم ٥ نوفمبر ١٩٢٦ عار من الصحة (ص. ١٨٢)، ومن المعلوم أن هذا التصريح قد نسب للخطابي الإقرار بتأسيس "الجمهورية الريفية". وإن كانت فعلاً هذه المجلة قد افترت على الخطابي، فإننا نتساءل: لماذا قبل الخطابي الإدلاء بتصريحات لاحقة لهذه المجلة، ما دام أنها قد افترت عليه في قضية حساسة جدًا؟ والمثير أن الباحث قد اعتبر تصريحًا آخر للخطابي لأحد الصحافيين الأمريكيين في مارس ١٩٢٥ "حقيقة صارخة" (ص. ١٩٤)، لأن هذا التصريح للخطابي ينفي تأسيس "جمهورية الريف"، وكأننا بذلك نفهم أن الباحث يعتبر أي تصريح منسوب إلى الخطابي، يقر فيه بتأسيس الجمهورية غير صحيح ووجب التعامل معه بالشك والريبة، وفي المقابل أي تصريح آخر ينفي فيه تأسيس الجمهورية حقيقة لا تقبل الشك.

ذكر الباحث أن بيعة الخطابي مرت بمرحلتين، يطلق عليهما في تاريخ الأحكام السلطانية: بيعة الخاصة وبيعة الكافة، وقد بويع الخطابي بيعة الخاصة يوم ١٨ يناير ١٩٢٣، وحضرتها القبائل القريبة، ليبايع بيعة العامة يوم ٢ فبراير من السنة المذكورة، وحضرتها كل القبائل، حيث تم تدوين حدث البيعة (وثيقة رسمية) واختيار التشكيلة الحكومية، وقدمت جميع القبائل الولاء، وسلمت على الأمير (ص. ٢١٠).

يفهم من كل التفاصيل الدقيقة التي أوردها الباحث أن الخطابي بويع مثلما يبايع السلاطين من قبل أهل الحل والعقد والقبائل وليس كأمير للجهاد فقط، خاصة إذا استحضرنا قول الباحث أنه قد "جرت العادة في التاريخ الإسلامي إطلاق لقب (أمير المسلمين) على بعض السلاطين المغاربة لتفادي الصراع مع الحكام الذين عرفوا في المشرق الإسلامي بالخلفاء أو أمراء المؤمنين مثل سلاطين الدولة المرابطية " (ص. ٢١٧).

وردت في عقد بيعة الخطابي عبارة "جاءت له الخلافة تجر أذيالها"، ففسر الباحث ذلك استناداً على ما ذكره ريتشارد بينيل، فهذا الأخير نفى أن تكون هذه العبارة تحيل على أن الخطابي بويع حاكما عاما على جميع المسلمين (ص. ٢١٩). فما السبب الذي منع الباحث من مناقشة وتفسير دلالة اعتبار أهل الحل والعقد الخطابي "أهلا للخلافة"، والاقتصار على إيراد رأي باحث غربي ليست له الدراية الضرورية بالمفاهيم السياسية في التراث الإسلامي.

أورد الباحث في الصفحة (٢٦١) جدولاً مهمًا تضمن الهياكل الوزارية في الحكومة الريفية، ومن بين هذه الأجهزة "قائد المشور" و "رئيس البروتوكول". ومن

المعروف هذا النوع من الأجهزة كان يعتمدها السلاطين، مما يتنافى مع قول الباحث أن الخطابي رفض كل المظاهر الشكلية التي يحظى بها السلاطين. مثلما لاحظنا أن الخطابي قد استعمل لغة "السلاطين" في العديد من مراسلاته، ومن بين الأمثلة التي أوردها الباحث مقتطف من وثيقة لقانون الحركات الشعبية في الجيش الريفي، حيث ختم ذلك القانون بعبارة: "هذا إصدار أمر المخزن السعيد أعزه الله" (ص. ٢٨٠). بل أكثر من ذلك أورد الباحث أن "الجيش النظامي الريفي كان يؤدي تحية العلم صباحًا ومساء" (ص. ٢٨١).

وفي السياق نفسه ذكر الباحث أن "السلطة التشريعية" في الحركة الريفية صار يمثلها "مجلس الأمة"، أي البرلمان، بدل "مجلس الأعيان" الذي كان في البداية (ص. ٢٦٢)، إذ يلاحظ أن هناك تعديلات طرأت على أسماء الأجهزة السياسية المعتمدة من قبل الخطابي، وتطور على مستوى المفاهيم السياسية المعتمدة من قبل الحركة الريفية، مما قد يفيد أن هذه الحركة سعت إلى إقامة دولة مستقلة وحديثة على غرار النماذج الغربية، وليس مجرد إمارة للجهاد فقط، وبطبيعة الحال استحضار الدين الإسلامي كمرجعية أساسية لهذه الدولة.

سبق أن أشرنا إلى أن الباحث شكك في مصداقية بعض المصادر والمراجع، إلا أنه في الوقت نفسه يستدل بها حينما يجد فيها معطيات منسجمة مع آرائه واستنتاجاته، ونذكر على سبيل المثال تشكيك الباحث في مذكرات روجي ماتيو لأنها تبنت تسمية "جمهورية الريف"، ونقد ماريا روسا دي مادارياغا لاستعمالها كذلك عبارة "جمهورية الريف". لكنه استند إلى هذه المصادر والمراجع في بعض المناسبات، ونذكر على سبيل المثال ما ورد في الصفحة (٣٠٠) في سياق الحديث عن استقبال الخطابي لوفد إسباني سنة ١٩٢٤. وما ورد في الصفحة (٢٣٢) بخصوص الحديث عن محمد أزرقان، فهذا الأخير حسب ماريا روسا، نقلاً عن المؤلف، "عرف عنه حبه للمال، مما جعله يرتكب أحيانا بعض التجاوزات، مثلما فعل أثناء المفاوضات مع إسبانيا، حيث طلب عمولة لنفسه"، فالباحث يبدو أنه قد انساق وراء ما ذكرته ماريا روسا دون أي تفسير للتهمة الخطيرة التي اتهمت بها ناظر الخارجية السيد محمد أزرقان.

وأخيرًا وليس آخرًا، لابد من تكرار التنويه بالمجهود القيم الذي بذله الدكتور محمد أونيا في دراسته العلمية، فمن يطالع هذه الدراسة يشعر أن الباحث أنجز عملاً متميزًا سعى فيه إلى نفض الغبار عن إشكالية تاريخية شائكة جدًا أثارت اختلافات حادة بين الباحثين المغاربة والأجانب، وستظل في نظرنا مطبوعة بالنسبية، خاصة في ظل عدم "الإفراج" عن المذكرات التي يقال إن الأمير الخطابي قد خطها بيده، ويمتنع أحفاده من نشرها إلى الآن، دون ذكر الأسباب أو الموانع.

وسواء اتفقنا أو اختلفنا مع الفرضية التي سعى الباحث إلى تبنيها والدفاع عنها استنادًا على قراءة نقدية لجل ما كتب عن الموضوع، وإعادة قراءة الوثائق المحلية، فإننا نقر أن هذه الدراسة تعد أهم ما كتب عن موضوع الكيان السياسي الذي شيده الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي إبان حرب التحرير الريفية. وقد التزم الباحث منهجا صارما في البحث والتفسير والتركيب. وتظل هذه الدراسة القيمة تمهيدًا لتعميق البحث الرصين في المشروع التحديثي للأمير الخطابي وتجربته السياسية الفريدة.

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

Researches

Peaceful co-existence between Muslims and Christians in Jerusalem 1917-1948



Dr. Ibrahim S. Alzaeem
Director of the Palestinian History and Documentation Center
Gaza, Palestine

ABSTRACT

Jerusalem is a model of pluralism and coexistence among different religions and sects, in accordance with the rule of justice, tolerance and mutual respect. The Muslim-Christian coexistence in Jerusalem is a cultural phenomenon that must be studied carefully in order to benefit from this experience by learning the forms of that tolerance by identifying its causes and effects in the reality of the people and the reality of the Holy City. , And then as a role model in the world. Therefore, the objectives of this research are to determine the concept of peaceful coexistence and Delilah in the Holy Quran and Sunnah, and to highlight aspects of coexistence (religious, social, cultural and political) between Muslims and Christians in Jerusalem between 1917-1948. In his study, the researcher adopted the historical and descriptive approach, and resorted to the scientific interview to enrich. The study is divided into four sections: peaceful coexistence in the Qur'an and Sunnah, religious coexistence between Muslims and Christians, social and cultural coexistence between Muslims and Christians, and political coexistence between Muslims and Christians. The study found that Muslims and Christians in Jerusalem provided an excellent example of coexistence and tolerance, and succeeded in promoting the values of understanding and partnership, despite the political upheavals experienced by the city during the British mandate, and the consequent difficult effects on various areas of life.

Keywords:

Peaceful coexistence, Muslims, Christians, Jerusale, Quran, Sunnah

Research info:

Received: 16 May 2019
Accepted: 29 May 2019
DOI: 10.12816/0055415

Citation:

Ibrahim S. Alzaeem, "Peaceful co-existence between Muslims and Christians in Jerusalem 1917-1948".- Historical kan Periodical. - Vol. (12) Issue (44); June 2019. Pp. 261 – 270.

Introduction

The city of Jerusalem is of interest to all followers of the three Abrahamic faiths, because it contains much of the holy sites, including these belonging to Moses, Jesus and Mohammed, peace be upon them, which gave this city the qualifications to play an important role in civilization, and to be the center for stability and co-existence among the followers of the three religions, under the umbrella of Islam.

Ever since the beginning of the Zionist project in Palestine, the Muslim-Christian convergence in Jerusalem started to emerge more and more, as Zionist-driven Jewish hostility towards Muslims and Christians in the holy city mounted.

The state of agreement and co-existence continued to prevail, wither Christians were the majority, as in the case in the Post-Islam Era, or in case Muslims were the majority, as in the following periods.

The city of Jerusalem has always had the presence of churches, shrines, and Christian holy sites. Muslims took care of these places in the best

possible way, before and long after the Islamic Era. History tells us that Muslims improved these sites, by expanding and building yards and buildings, and spent much of the Islamic state money on them.[1]

This study focuses on the peaceful co-existence between Christians and Muslims in Jerusalem between 1917-1948. This co-existence includes religious, social, cultural and political aspects of life during this particular period.

Section I: Peaceful co-existence and its basis in Quran and Sunnah

Ibn Manzour, an Arab linguist, explained in his book that "to live life, to live with someone is to live with him, and life is to live, they say someone lived a good or a bad life."[2] In Alwaseet Arab dictionary, "they co-existed is to live on good terms and passion. Peaceful co-existence comes from this root, living: life. Life of what it contains of food, drinks, and income."[3] Peaceful co-existence is an agreement between two parties to regulate their relations and means of living based on a principle they agree upon by doing needed efforts to make it possible.[4]

Islam has established the relations of Muslims with non-Muslims based on peace and security, as Islam does not permit killing a soul just because it believes in another religion than Islam. Islam asks its followers to treat those who don't follow their faith nicely, and exchange benefit with them. This is clear in the Quran: "Allah does not forbid you from those who do not fight you because of religion and do not expel you from your homes - from being righteous toward them and acting justly toward them. Indeed, Allah loves those who act justly."[5]

Evidence from Sunnah was narrated by by Bukhari via Abdaullah Bin Amro, peace and blessings be upon them, Prophet Mohammed PBUH said "Who he kills a person believing in Abrahamic books will never smell heaven. Its smell is 40 years away from him."[6] Abu Daoud narrated that Prophet Mohammed PBUH said: "Who he oppresses the people of the book or takes their rights, or ask them to do something beyond their capacity, or forcefully takes something from them, I will bring evidence against them on the Day of Judgment." [7]

Section II: Religious Coexistence between Muslims and Christians

The religious life in Jerusalem during the consecutive Islamic Eras was characterized by complete freedom, as every religion had the right to build places of worship, and to practice religious rituals with complete freedom.

Islamic and Christian holies in Jerusalem

Jerusalem has many Islamic heritage sties, which are perceived as holy by Muslims, most importantly Alaqsa Mosque. It also has a number of Christian heritage sites, most importantly, the Church of the Holy Sepulcher[8] which was built by Saint Helena, the mother of the emperor Constantine the Great in 335.

Muslims provided help to Christian holy sites. The Khaldi family[9] was the principal supporter for the Orthodox Patriarchate of Jerusalem. Thanks to the influence of the Khaldi family which enabled the Patriarchate to purchase properties. That is why the photo of Shiekh Mohammed Ali Alkhalidi was stuck on the walls of the Patriarchate, the Mufti of the Shafites in Jerusalem, and the head of Islamic Courts in Jerusalem, which had the last word when it came to allowing or preventing certain deal from passing, through their Sharia claims.[10]

The secret behind this, Muslims think, is because of their great heritage and their good relationship with other faiths, and their perception of Christians as citizens who have full rights and that dealing with them should be based on the religious understanding of the other as well as respecting them.[11]

Performing Religious Practices

If I want to talk about texts in Islam (Quran and Sunna) which guaranteed the religious freedom of all religions inside Muslim countries, and the freedom of each group to perform and practice their religious rituals in relation to the situation in Jerusalem, I find that Muslims maintained Christians right to it. In Almisrara Neighborhood[12] of Jerusalem, the drums of Churches are heard along with the calls to prayers from nearby mosques.[13]

The Church of the Holy Sepulcher is the greatest example of the tolerance of the Muslims of Jerusalem towards Christians and their religious rituals. Muslims and Christians, have agreed for generations, to keep the keys of the church with two Muslim families: Nussieba and Jouda, upon a request made by all Christians groups in Jerusalem.[14]

For the sake of safety and stability in the city, Saladin handed the keys of the church over to Qadiah "Jouda" family to keep it, and to the Nussiba family to open and close it, and later returning the key back to Qadiah family.[15] The role of the family was not limited to opening and closing the gate, but it went beyond this during long periods of Islamic rule, to solving conflicts between various Christian groups.[16]

Muslim and Christian Feasts:

Christians celebrate Easter ever year. It is a big feast for them where celebrations take place for more than a week. What makes this feast more cheerful is

that it comes at the same time of Prophet Moses Season, which was initiated by Saladin, after the liberation of Jerusalem. Muslims and Christians celebrated their feasts with harmony.(17)

Muslim and Christian merchants meet in markets and Christians buy from Muslim merchants. During Christmas that kicks off on December 25 every year, according to the Western Calendar, and on 7(th) or 14(th) of January, according to the Eastern Calendar, preparations take place weeks earlier, where Muslim and Christian merchants decorate their shops and exhibit their products.(18)

Christians would participate in the celebrations of the holy month of Ramdan, along with Muslims, such as Jawhariah family, which would join Muslim families in their celebrations of Ramadan. Wasif Jawhariah(19) described this saying: "my brothers and I would participate in the memorization session at the shrine of Sheikh Rihan, and we would sing religious songs with professionals as well as visitors.(20)

Every year, Alfareer Christian School would organize a mass breakfast in the holy month of Ramadan, sponsored by Christians sects, at which Waqf Islamic bodies, headed by Abdulazeem Salhab, are invited, as well as the Islamic Commission, headed by Sheikh Ekrima Sabry, along with sending invitations to Christians to participate and discuss Jerusalem issues.(21)

Christian Boycott of Missionaries' Conferences:

The Muslim-Christian brotherhood was established on the basis of mutual sincerity. It is proven by the fact that Arab Christians boycotted the second missionary conference, which was held from March 24, to April 7, 1928 at the Mount of Olives in Jerusalem, and was attended by 240 representatives from 51 countries. It aimed at invading Islam at its heart as well as invading non-protestant Christian sects.(22)

Not only did Christians do this, but they also took actions against the conference, which led to its failure. Muslims and Christians in Palestine asked Mufti Ameen Alhussaini to take necessary action to stop it. The Palestinian people sent a letter of protest to the Ministry of British Colonies in Palestine over organizing the Jerusalem Conference.(23)

The people of Jerusalem believed that the main reason behind the failure of the conference was the commitments of Palestinian Christians to their Arab nation. Rafeeq Khoury stated that those stood behind organizing such conferences were Protestant groups, which the churches in the East perceived with suspicion. Every time Christians would know about a project which aimed at pulling them out of their Arab and Muslim societies, they would adopt a negative position against it.(24)

This opinion is shared by Muslims as well. The culture was the Christians of Jerusalem felt proud of being part of the Arab and Islamic culture, which their ancestors contributed to. Thus, missionaries which used charitable work such as building schools, clinics, and clubs, as a cover to operate, was strange to the citizens of Jerusalem.(25)

Section III: Social and cultural coexistence between Muslims and Christians

Muslims and Christians live side by side. In Muslim neighborhoods, a number of Christians live and in the Christians Neighborhood(26), a number of Muslims live.(27)

Social Relationships:

An atmosphere of brotherhood has shaped the nature of the life of the followers of Islam and Christianity in Jerusalem. They would visit each other, as Khalil Alsakakini (Christian) mentioned in his letters to Serri, his son, when he was studying in the United States of America, that Mousa Alalami and his wife, Raja'ie Alhussaini visited his house,(28) and that Adel Jaber and Mousa Alalami had visited him and then visited the house of Kamal Ismail, member of the Islamic Higher Council.(29)

They would also share food and drinks. When they would have occasions, they would support each other. This happened with the Jawharia family (Christians), where women and men from Muslim families neighboring them would visit them when they had both happy and sad occasions. Examples of these Muslim families were: Abdulqawas Aldawoudi, Mustapha Alsalhani, Alsamman, Alansari and others.(30)

The goal of exchanging visits between Muslims and Christians was either education-related or to discuss public affairs. Alsakakini wrote about this on May 4, 1919 saying: "Just before midday, Arif Aldawoudi, Abdulqader Tahboub, and Yaqoub, my cousin, had visited me, where we discussed current public affairs."(31)

They also would discuss political affairs. When Hussain Alkhalidi,(32) visited the house of Khalil Alsakakini in 1945, he said: "the danger threatening Palestine is mounting every day, and Arabs' efforts to stop this danger are not serious."(33)

These visits were at the level of elites in the national movement; in 1919, Haj Amin Alhussaini visited Khalil Alsakakini, where Palestine's political situation was discussed during the visit.(34)

Muslims and Christians would exchange visits on various occasions. When Haj Amin Alhussaini was

appointed as the Mufti of Jerusalem, many Muslims and Christians came to congratulate him and his family for being appointed in this important position.[35]

Wasif Jawharia mentioned that he received a number of gifts after marrying Victoria S. Saed. A big number of these gifts were from Muslims such as Raghib and Fakhri Alnshashibi, Muhieldeen Alhussaini, Jamil Alhussaini, and Judge Mohammed Yousef Alkhalidi, and others.[36]

When the father of Wasif Jawharia passed away in 1914, Muslims along Christians participated in his funeral. Among participants was Sheikh Ali Alrimawi who paid for his burial fees.[37] Muslims also paid respect on the death of Khalil Alsakakini's wife, Sultana.[38]

The strong ties connecting Jerusalem's old families were cross-generational and continuing. I would say every Muslim family had a Christian partner, in social life and other aspects of life.[39] An example of this special relationship was the relationship betweeb Jawaharia and Alhuassaini families, where Jawaharia family enjoyed the lands of Alhuassaini family as if they were theirs.[40]

Working for Governmental Bodies:

An evidence of the greatness of tolerance between Muslims and Christians in Jerusalem was working together or allowing someone from another religion to work in a place which belonged to the other religion. An example of this was that Jiris Jawaharia was working as a lawyer for Islamic courts.[41]

This mutual work was also at the Municipality of Jerusalem. In 1908, the council of the Municipality consisted of 10 members; six of them were Muslims, two Christians and two Jews.[42] In the same year, 1200 citizens voted in the elections. 700 of them were Muslims, 300 were Christians, and 200 were Jews.[43]

And to reduce the number of Muslim members to two,[44] the number of the council member was made six. In 1918, the council consisted of six members, two members from each religion, Islam, Christianity and Judaism, and the head of the council was a Muslim.[45] The council was later expanded to have four Muslim members, three Christian members, and there Jewish members and the head remained a Muslim.[46]

The British government continued to choose the head among the Muslim members. It also appointed two deputies for him, one was Christian and the other was Jewish. The same policy was adopted until 1944, when the Muslim mayor died, so it replaced him by his Jewish deputy. It was the first time a Jewish person was appointed as the mayor of Jerusalem. Arab members, both Muslim and Christians, protested the decision and submitted their resignations.[47]

Social Solidarity:

It is clear that Muslims were influenced by the teachings of Islam, which urge them to help those in need, regardless of their religion. When Sleem Alhussaini felt that the father of Wasif Jawaharia was going through difficult economic situation during Easter, he sent him a lot of items, including clothes and food for the religious occasion.[48]

On June the 1(st) 1919, Khalili Alsakakini said in his memoirs that he and his family were living in abject poverty. This was clear on their dusty clothes and lack of food. He was visited by Mousa Alalami, and then he took him to visit his teacher Nakhla Zriq. On their way, he gave him half a lira which he used to buy food. In the evening, Mustapha Abdilhadi visited him. He asked him for 15 fils; he gave him 12 fils, all he had.[49]

Cultural co-existence between Muslims and Christians

Cultural relationship between Muslims and Christians are divided into two: education and cultural life.

First: Educational Life:

Islamic private schools were founded in Jerusalem such as Orphan House, Islamic Orphans House, Islamic Girls School, National Knowledge College, and the Abrahamic College. Arab governmental schools were founded too such as: Arab College, Teachers House, Bakri School, Misrara School, Ummari School, Rashidi College, and Sheikh Jarrah School.[50]

Christian schools existed as well such as Preparation School for Rome Orthodox, Orthodox School for Girls, Assyrians Orthodox School, Armenians Primary School, Armenians Theology School, Tarasanta College,[51] Alfareer School for Boys, Alfareer College,[52] and Mar Joseph School.[53]

Muslim and Christian teachers worked together at the same school; Diaa Aldeen Alkhatib, George Petro Khamis, Talaat Alsaifi, Robert Talhami worked at Teachers House.[54] Khalil Bidas, Sharif Alnshahsibi, Najib Germanous worked at Almutran School (Christian school).[55] Kamal Alkhatib, Hussain Aldjani, Fakhry Jawharia worked at Altamreen Governmental School.[56]

Students also studied with each other; Muslims studied at Christian schools, such as Almutran School, such as Emile Alghouri,[57] Fuad Saba, Rajai Alhussaini, Daoud Alhussaini, and Ibrahim Bidas.[58] Bahjat Abughariba (Muslim) joined the night school of the Christian Youths Society in 1934.[59] Sometimes it was difficult to tell who was who based on names. Names like Omar, Khaled and Tareq are found among Christians.[60]

Teachers were from various religions, Muslims, Christians and Druze. This was the case at the Islamic School for Girls, which was initiated by the Islamic Higher Commission.[61]

Cultural Life:

The people of Jerusalem would meet to read books in public parks. Khalil Alsakakini and Marouf Alrusafi did this at the Municipality Park.[62] They would also meet to listen to Arab music at cafés, as Wasif Jawharia, Fakhry Asem, Tahseen Alkhalidi, Daoud Alfityani, Abdelqader Alalami, and Mustapha Alseria at Jawharia café.[63]

To some extent, cafés were far from people's eyes; this was in the advantage of politicians and intellectuals who found it suitable to go to cafés without prior appointments, and use cafés to take breaks when needed.[64]

These meetings would discuss Arab Literature; Nakhla Zriq (Christian) was a close friend of Alhussaini family; Hussein Alhussaini would visit him with Kamil Alhussaini (the Mufti of Jerusalem by then), and they would discuss language and poetry with him. Wasif Juwharia would sing some songs for them.[65] Adil Jaber (Muslim) would visit Khalil Alsakakini (Christian) and they would discuss Arabic grammar, linguistics and metaphor, and study poetry, and poets, while reading some books.[66]

Journalism in Jerusalem:

Journalism is part of the cultural life. Media in Jerusalem was a platform that Muslims and Christians alike would use to express their national opinions, and warn against plans to take Arab rights.

To achieve this noble goal, many magazines and newspapers were established in Jerusalem, which unified the pens of Muslim and Christian writers, to raise public awareness, and to expose the real intentions behind the British and Zionist plans, and to urge Arabs to continue the struggle to face all attempts that targeted their entity, existence and holy sites.

One of these magazines was Almanhal, which was established in 1913. It was a literary, historical, and social magazine that was published monthly. It attracted Muslim and Christian writers such as Ali Alrimawi, Issaf Alnshashibi, Habib Khoury, Khalil Alsakakini, Arif Alarif,[67] and others.[68]

Alhadaf, on other hand, was a social magazine. It first issue came out on November 1945. It continued to be in print for several months. The owner of its publishing rights and its editor-in-chief was Gabi Deeb, while Ali Aldajani was the representative of the editor-in-chief.[69]

Hazim Nussiba established in 1948 a literary magazine he called "The Forum", and hired famous writers and authors to write for it such as: Isaaf Alnashashibi, Khalil Alsakakini, Isssac Alhussaini, Iskander Khoury Albitjali, and Ali Aldajani.[70]

Muslims and Christians worked at Jerusalem Radio,[71] such as Ibrahim Abdilaal, Mohammed Iita, Iskander Alfalas, Yihyia Alsaudi, Ramez Alzagha, Kazim Alsabasi, Milad Farah, Tawfeeq Juwharia, and Artin Santorgy.[72]

Section IV: Political Coexistence between Muslims and Christians

While the connection between the Sunni Muslim majority and various Christian minorities were limited to some geographical areas, the situation in Jerusalem was completely different. It was nearly impossible that Muslims, who occupied certain local positions, would refrain from regularly contacting Arab Christians. This was a cornerstone in organizing Arabs against the British as well as Zionists after the 1st World War.[73]

British Attempts to Pass Balfour Declaration:

Britain practiced pressure on Arab intellectuals to normalize their relationship with Zionists, where a Zionist committee was working along with the British Military Administration, to organize the procedures that would formulate the policy that might lead to implementing the above-mentioned Balfour Declaration. In April 1918, a delegation representing the Zionist Committee in London headed by Haieem Weizmann arrived in Jerusalem.[74]

Colonel Ronald Stores, the British Military ruler in Jerusalem, forced the elites of the city, Muslims and Christians, to meet the Zionist Jewish Committee.[75] The British Military ruler, explained in his report that "Muslims and Christians didn't feel safe regarding their future, whatsoever. They had been worried that their rights would be violated if Zionist wishes were met, and they were working very hard to attain their own interests."[76]

British pressures and Zionist measures didn't succeed in paving the road to the Zionist project; Arab intellectuals faced these plans by all means, including arts in which they affirmed that Palestine belonged to Arabs. In the same month, a team of Jerusalem's writers performed "Adnan's girl and the witness of Arabs", at Alrashidia school, and a big map for Palestine was put on which was written: "People, this is Palestine, the place where our great Arab ancestors were buried."[77]

Establishing the Muslim-Christian Society in Jerusalem

In response to British attempts which aimed at normalizing the relationship between Arabs and Jews on one hand, and planting the seeds of instability and conflict between Muslims and Christians on the other hand, the Muslim-Christian Society was established in Jerusalem in 1918.[78]

Muslim-Christian Society in Jerusalem and other cities were to express popular opposition for the Zionist Movement,[79] and to stop, by all possible means, Jewish purchase for land. Declared objectives included protecting the rights of the people of the land, cultural and materialistic. In addition to this, improving the conditions of the country in the sectors of agriculture, economy, trade, and to revive knowledge as well as bringing up new generations.[80]

Forming Muslim-Christian societies was one of the important phenomenon which emerged at the beginning of the Arab Palestinian renaissance; it was a new phenomena which was contradictory to the claims of Christian isolation from public life.[81]

The brotherhood between Muslims and Christians appeared, by having both participating in the Arab Palestinian Conference, which was held for seven times from 1919-1928, three of them were held in Jerusalem: the first in 1919, the 4(th) in 1921 and the 7(th) in 1928.[82] The Arab Conference was a national institution, which resembled the Parliament in a country its Arab people were deprived of their rights to vote. Representatives were selected to attend the conference via the Muslim-Christian societies as well as other bodies, or by submitting electoral lists by Palestinian institutions, cities, and villages.[83]

The British Bias In Favor of Zionism and The Position of Arabs

Based on a decision taken at the San Rimo Conference by the British government on April 20, 1920, the British government appointed Herbert Samuel[84]as a Higher Commissioner on Palestine.[85] Biasness in favor of Jews was the most during his time. Jews were provided with weapons and were taught how to use them, while Arabs were not allowed to do so; in five years, 50,000 Jews moved to Palestine (1920-1925). They became 100,000 in total, and most of them chose to live in Jerusalem. Jews were allowed to purchase land, so their properties doubled especially in Jerusalem.[86]

In response to appointing Samuel as the British Higher Commissioner, and his anti-Arab policies, Khalil Alsakakini[87] resigned from his position as the Head of Teachers House.[88] In response to this policy, a huge conference took place in Jerusalem on June 25, 1921. The participants deiced to refuse the British Mandate, and to cancel the Balfour Declaration, as well as calling for the independence of Palestine, and establishing a democracy which later unites with other Arab countries. A delegation travelled to Europe, yet all doors were closed in their faces.[89]

Marshall Baron Bolmer[90] replaced Herbert Samuel. During his time, the conflict over the Buraq Wall (the Wailing Wall) became really intense in September 1925. Jews claimed it was their right to bring in chairs, benches and curtains, yet Muslims opposed this move, as the Place was considered an Islamic site. The conflict almost led to fighting, had not the government intervened, and issued a decision that supported the current status by then, and banned Jews from brining any item in the Buraq Wall.[91]

The role of Muslims and Christians in preserving the Arab identity of Jerusalem

The British government adopted a policy of spreading poverty among Arabs and making them economically vulnerable to force them to give up their lands and sell them to Jews; it intentionally increased taxes and fees gradually, increasing it by 32% in 1934, compared to taxes in Turkey, Greece, Iran and other Arab countries. At the beginning of 1935, it increased by 102% compared to taxes imposed on the countries of the Far East.[92] To face these moves, more calls to protect Arab lands were issued; the Arab Literary Forum issued a state in May 1919 which reminded Arabs of the holiness of their land, and warned them not to give it up, despite all promised privileges and money.[93]

The political efforts were not in isolation from the religious background of the Palestinian issue; Muslims and Christians realized more the holiness of this land and its status in the two religions; thus, the emergence of the role of scholars from both religions, who played in stopping the danger of letting more Arab lands go to Jews.

Among religious Christian leaders was the Priest of Catholics Gorgoris Hajajr, who said in speech he derived before Sharif Hussain in 1924 "We are the Arab Christians of Palestine. We hold to our land and will defend it. We are the natives of this land; we lived with our Muslim brothers for centuries in peace and love, and we want to continue this life together, to fight against plots threatening our country. Islam, since the time of Ummar Bin Alkhattab, treated us as brothers, and we don't want this to change at all."[94]

This call became a religious and national consensus,. On the 7(th) of August 1934, some 400 Muslim scholars met in Palestine, including judges, muftis, and leaders in prayers, in addition to teachers, at the invitation of Haj Ameen Alhussiani, at Enjoying the Good and Forbidding the Evil Conference, held in Jerusalem.[95]

The conference concluded that anyone selling lands to Jews in Palestine, directly or indirectly, in any form, should not be prayed on or buried in Muslims' graveyards, and should be isolated and boycotted and degraded.[96]

In 1934, Arab Orthodox Priests in Palestine Conference was held. It concluded that selling land off to Jews and their attempts to take over more

lands to be resisted. Any Christians selling land to Jews or helping them to gain it was considered a traitor and should not be prayed on nor buried in the graveyards of Christians. Both Christians and Muslims welcomed the decisions of the conference.[97]

Conclusion

Muslims lived with the people of the countries they invaded for centuries. They did not oppress them, nor did they take the rights of other faiths. The city of Jerusalem was a clear example of the tolerance between Muslims and Christians. The followers of both Islam and Christianity lived side by side in a city that has Al-Aqsa Mosque as well as the Church of the Holy Sepulchure near it.

The Muslims and Christians of Jerusalem were successful at strengthening the concepts of understanding and responsibility, despite the many political changes and turmoil Jerusalem had gone through, during the British Mandate and the Israeli occupation in 1967, and the consequences resulting from this, in terms of hardship in all walks of life.

The co-existence of the people of Jerusalem was a unique experience that other followers of faiths and beliefs cloud learn from, especially those who live in one society, which helps them overcome their religious diversities and differences, and instead, focus on their mutual interests, which would contribute to national development, and achieving security and societal security.

Notes:

(1) Abulhameed Alkatib, "Jerusalem: Post-Islam Era and the Crusaders' Invasion and the Zionist Assault, Cairo, Dar Alshorouq, Vol. 1, p. 156, 1994.

(2) Ibn Manzour, Mohammed Bin Mukram Alansari, the tongue of Arabs (the importance of Letter Ain (ع), Beirut, Dar Sader, Vol. 3, No. 6, p 321.

(3) Alwaseet Arab Dictionary, Arabic Language Complex, Cairo, Vol. 2, No. 2, pp 639-640.

(4) Abdulazeez Altwijri, Islam and Co-existence between Faiths in the 20th and 21st Centuries, The Islamic Society for Education, Science and Culture (ISESC), Rabat, Alma'rif Aljadeeda Print, 1998, p 12.

(5) Adel Algiryani, Peaceful co-existence during the Muslim eras, International Conference on Peaceful co-existance in Islam, held in Union of Muslim World in corporation with the Islamic Center in Colombo, Sri Lankah, Riyadh, King Fahed National Library, 1428 H, pp. 205-206.

(6) Mohammed Bin Ismail Albukhari, Saheeh Albukhari, reviewed by Mohammed Alnasser, Dar Tawqu Alnajat, Vol. 1, 1422 H, Aljeziah book, Section titled: those who kill a non-Muslim of the people of the book without a justification, Hadeeth No. 3166, part 4, p 99.

(7) Abu Daud Suliman Bin Alashaath Alsjestani, 275 H, Sunan Abu Daoud, Beirut, Alasriah Bookshop, the book of Emirate, Jeziah, and Donations, section on Exemption of the people of the book if they have different trade rules, Hadith No. 3052, part 3, p 170.

(8) It is located near the Gate of Hebron in Jerusalem, and it is the greatest church in the world, in terms of its holiness and status in the hearts of Christians. It is not affiliated to one particular group, as all groups in Jerusalem consider it as the holiest place. It also has some small churches and shrines which belong to various Christian sects. (Islam Abdulzaher, Churches of Jerusalem, Edited by Abdulqader Hussien, Alshoroq International Bookshop, Cairo, 1010, Vol. 1, pp. 161-162.

(9) The lineage of Khalidi family belongs to Prophet Companions. The men of this family played an important role during the Ottoman rule of Palestine. They took important jobs, such as Badr Alkhalidi, Yousef Diaa Alkhalidi, Mohammed Ali Alkhalidi, and others. The meeting house of this family was one of the biggest in Jerusalem. It included rooms, halls, courts, and even prisons (Nassar and Tamari, Issam and Salim, Mandate Jerusalem in the Essential Memoirs 1914-1948, Jerusalem, Institute of Jerusalem Studies, 2005, 2nd edition, p 380.

(10) Ibid.

(11) Jamil Hamami, a lecturer at Al-Quds University and member of Muslim-Christian Relations Committee, an interview on 7 June 2014.

(12) Almisrara Neighborhood is located in the northern part of Jerusalem to the north of Sheikh Jarrah Neighborhood, on the road connecting to Ramallah. All residents there are Arabs. Next to it is the Jewish Mea Shearim Neighborhood. Jews fired nearly 20 mortars into the neighborhood on March 27 1948. Seven were killed, 40 more were injured. Arab fighters targeted mortar launching sites in Mea Shearim Neighborhood with 100 bombs, which caused the death and injury of many and the displacement of the people of the

neighborhood. The Arab fighters rushed to storm the neighborhood but the British forces stopped them (the Palestinian Encyclopedia, General Section, Damascus, the Palestinian Encyclopedia Commission, part 4, Vol. 1, 1984, p 226).

(13) Sereen Shahid, Memories from Jerusalem, translated by Mohammed Baradah, Amman, Alshorouq Publishing House, 1st edition, 2008, p 41.

(14) Nizamuldeen and Aldajani, Irfan and Ali, Iman and Jihad, Beirut, the Arab Institute for Research and Publishing, Vol. 2, 1987, p 131.

(15) Subhi Qoushi, Social life in Jerusalem in the 20th century, Beirut, the Arab Institute for Research and Publishing, 1st Edition, 2010, p 453.

(16) Hazim Nussiba, "Jerusalem Memories: An Autobiography", Beirut, Reyad Alrayyes for books and publishing, 1st Edition, 2010, p 35.

(17) Ibid., Subhi Qoushi, p 310.

(18) Ibid., p 317.

(19) Wasif Jawhariah was born on January 14, 1897 in Jerusalem. He studied at Almurtan School for two years (1912-1914) when the school was shut down because of the First World War. He learned to play music and use musical instruments. After the death of his father, he was sponsored by Hussein Alhussini, who found him a job at Al-Quds Municipality. He was recruited by the Ottoman Empire during the First World War. In 1919, he worked in theFinance Department in the Lands Authority. He was the director of finance for two decades (Jehad Saleh, Palestinian Pioneers' Role in Literary and Intellectual Life in Palestine, Ramllah, General Union of Palestinian Writers and Critics, Vol. 2, 2011, Part 2, pp. 83-85).

(20) Tamari and Nassar, Sameer and Issam, Ottoman Jerusalem in the Jawhari memoirs (1904-1917), Jerusalem, Insititute for Jerusalem Studies, 2003, 1st Edition, p 77.

(21) Najeh Bkerat, the Director of Alaqsa Mosque, An interview on 7 September 2014.

(22) Issa Alsafari, Arab Palestine between British Mandate and Zionism, Jaffa, Palestine New Bookshop, 1st Edition, 1937, Part 1, p 117.

(23) Tayseer Jbara, Alhaaj Mohammed Ameen Alhussiani, a study in his religious activism 1921-1937, Dar Alfurqan, 1995, p 118.

(24) Rafeeq Khoury, Palestinian Priest, the Palestinian priests of the Latin Patriarch of Jerusalem, an Interview, 8 June 2014.

(25) Ibid, Hamami, an interview.

(26) Christians Neighborhood is located to the West of Jerusalem. Its total surface is 192 Dunums, and to the south of the neighborhood, the market of tanning is located. The neighborhood is a center for Palestinian Arab Christians in the city, thus it was named after them (Nasser Aldeen, et al., Christians and Jews Neighborhoods, Jerusalem, Rowya Institute, 2006, p 3).

(27) Abla Almohtadi, Jerusalem and the British military rule (1917-1920), Vol. 1, Beirut, Arab Institute for Studies and Publications, 2003, p 132.

(28) Khalil Alskakini, Diaries of Khalil Alskakini, edited by Akram Musallam, 5th book, Ramallah, Khalil Alskakini Cultural Center and Institute for Jerusalem Studies, 2004, part 2, p 81.

(29) Ibid., Khalil Alskakini, 2009, 7th book, p 412.

(30) Ibid., Tamari and Nassar, 2003, 1st book, p 20.

(31) Ibid., Khalil Alskakini, 2004, 3rd book, p 143.

(32) Hussain F. Alkhalidi (1894-1962): was born in Jerusalem. He joined the government of King Faisal the first in Damsacus and later returned to Jerusalem after the French had toppled him down in 1920. He was appointed as the mayor of Jerusalem in 1934 after his electoral campaign won the elections until he was ousted by the British mandate on Palestine when he was deported to Seychelles Island. He founded Reform Party in 1935 and he was selected as a member in Arab Higher Commission which was formed on 25 April 1936 (Ibid., Khalil Alskakini, 2010, 8th book, p 175).

(33) Ibid., Khalil Alskakini, 2010, 8th book, p 175.

(34) Ibid., p 170.

(35) Ibid., Jibara, p 65.

(36) Ibid., Nassar and Tamari, 2005, 2nd book, pp. 401-402.

(37) Ibid., Tamari and Nassar, 2003, 1st book, p 172.

(38) Ibid. Khalil Alskakini, 2009, 7th book, p 38.

(39) Ibid., Khoury, an Interview.

(40) Ibid., Tamari and Nassar, 2003, 1st book, p 27.

(41) Ibid., p 29.

(42) Mohammed Mahassana et al., the History of Jerusalem, Amman, Dar Hanin for publishing and distribution, Beurit, Alfalah Bookshop, 1st edition, 2003, p 239.

(43) Alexander Shoulash, Jerusalem in the 19th century, 1831-1917, Jerusalem in history, translated by Kamil Alasali, Amman, University of Jordan publications, 1922, p 290.

(44) Ibid., Almuhtadi, p 92.

(45) Karen Armstrong, Jerusalem: One City, Three Faiths, translated by Fatima Naser and Mohammed Anani, 1998, p 602.

(46) Ibid., pp. 606-607.

(47) Mustapha Aldabagh, Our Copuntry Palestine, second part, Kufir Qarei, Dar Alhuda, 2002-2003, Vol. 10, pp. 203-204.

(48) Ibid., Nassar and Tamari, 2003, 1st book, pp. 27-28.

(49) Ibid., Khalil Alskakini, 2004, 3rd book, pp. 163-164.

(50) Raja Ourabi, Alkafi in the History of Jerusalem, "Study on the history of Jerusalem since Pre-History Eras until the Contemporary Era", Damascus, Dar Alawail for publication and distribution and print services, 2009, 1st edition, p 614.

(51) It was founded by Saint Polis Society in 1926 and was opened in 1929. The college was later put under the administration of the French Holy Land Foundation. The college is located at the crossroad of King George Street next to Maman Allah. A spacious yard is surrounding the college and is used to practice sport. It is 300 meters away from Mamila pool, not far away from the Islamic Cemetery (Ibid., Ourabi, p 615, hind Abushaar, Foreign Schools in Jerusalem, Tarasnta College As An Example, Jerusalem, International Conference on Jerusalem, Amman, Ministry of Culture, 2009, part 1, p 614).

(52) It was founded in 1893. French, Arabic and English are taught there. A valuable library is attached to it (Ibid., Ourabi, p 615).

(53) Ibid., Ourabi, p 615.

(54) Mohammed Najim, Dar Almualemeen, Arab College in Jerusalem, Beirut, Sader Publishing House, 1st edition, 2007, pp. 76-82.

(55) Emile Alghouri, Palestine in 60 years, Beirut, Al-Nahar Publishing House, 1972, 1st edition, p 34.
(56) Bahjat Abughuriba, Memoirs or Struggler Bahjat Abughuraiba, 1916-1949, In the Midlist of Arab Palestinian Struggle, Beirut, Institute of Palestine Studies, 1st edition, 1993, p 4.
(57) Emile Alghouri was born in Jerusalem in 1907. He joined Saint George (Almutran) School in 1918. At the end of 1920-1921, he passed the high school exam. He was placed at a special class the administration ran for excellent students. He was later kicked out of it for political reasons; he worked at Thomas Cook Tourist Co. He got involved in the Orthodox movement; He was arrested during the Buraq Wall protests. He travelled to the United States where he specialized in history and political science. Upon his return, he started some publications such as Itihad Arabi, Shabab Magazine, Arab Unity, and others. After forced exile for 17 years, he returned back to Jerusalem in 1965. In 1966, he was elected to represent Jerusalem in the Jordanian Parliament. In 1969, he was appointed as the Minister for Social Affair and Labor in the Jordanian Government. In 1971, he was appointed as a state mister for Council of Ministers (Ibid., Saleh, Pioneers of Jerusalem, 2011, part 2, pp. 297-300).
(58) Ibid., Alghouri, 1972, part 1, p 35.
(59) Ibid., Abugharíba, p36.
(60) Jamal Amre, Lecturer of Architecture at the University of Birziet, an Interview, Monday, 3 November 2014.
(61) Ibid., Shahid, p 12.
(62) Ibid., Almuhtadi, p 140.
(63) Ibid., Nassar and Tamari, 2005, 2nd book, p 328.
(64) Saleem Tamari, Alsaleek café and the Emirate of Jerusalem unemployed, Jerusalem Periodicals, Vol. 2, Jerusalem, Institute of Jerusalem Studies, 2004, p 34.
(65) Ibid., Nassar and Tamari, 2003, 1(st) book, p 247.
(66) Ibid., Alsakakini, 2009, 7th book, p 135.
(67) Arif Shihada Alarif (1892-1973) was born in Jerusalem. He studied at the University of Istanbul, where he earned a degree in 1913. He fought with the Ottoman Empire in the Caucasus and he was captured in one of the battles. He served three years in prison in Siberia. He returned back to Palestine and participated in the revolution again Britain. He served in governmental positions in Trans Jordan. His publications include: the detailed in the history of Jerusalem, the History of Alharam Alqudsi, and Christianity in Jerusalem, and others. (Saleem Tamari, with God's Camel in Siberia, Arif Alarif in Russian Custody during 1(st) World War, Journal of Palestine Studies, Vol. 67, Biuret, Institute of Palestine Studies, 2008, pp. 111-112; Mohsin Saleh et al., Studies in cultural Heritage of Jerusalem, Biuret, Alazytouna Center for Consultations and Studies, Vol. 1, 2010, pp. 98-109.
(68) Jawad Aldalou, Studies in Palestinian Journalism, Gaza, Alamal Bookshop for Print and Distribution, Vol., 1, 2000, p 42.
(69) Yacoub Yahosha, the History of Palestinian Arab Journalism at the End of the British Mandate in Palestine, 1930, 1948, Shafa Amir, Dar Almshriq for Translation, Print and Publishing, Jerusalem, Harry Truman Institute for Research, Hebrew University, 1983, p 59.
(70) Ibid., Nussiba, p 124.
(71) Jerusalem radio was launched in 1936, two years only after establishing the first Arab radio in Cairo in the mid-1934. It started with three sections: English, Arabic and Hebrew. Ibrahim Touqan, Ajaj Nuwihid, Azmi Alnshashibi were in charge of its Arabic section during its very short time (Ilias Sahab, Jerusalem is here, Palestine Mandate Radio, Jerusalem Periodicals, Vol. 2, Jerusalem, Institute of Jerusalem Studies, 2004, pp. 62-63.
(72) Ibid., Nassar and Tamari, 2005, 2nd book, p 540.
(73) Mifdal and Kimiling, Yoel and Barouch, Palestinians: continuation of a people, translated by Mohammed Hamza Ghanaim, Ramallah, Palestinian Center for Israeli Studies, 2001, p 101.
(74) Ibid., Aldabagh, second section, in Jerusalem 2, part 10, p 230.
(75) Abdelfattah Abualia, Jerusalem: Historic Study about Alaqsa Mosque and Honorable Jerusalem, Riyadh, Dar Almarreekh, 2000, p 139.
(76) Ibid., Aldabagh, part 10, section 2, Jerusalem 2, p 232.
(77) Ibid., Aldabagh, p 230.
(78) Abdilhameed Alsaaeh, Palestine: No Prayer Under Guns, Memoirs of Sheikh Abdilhameed Alsaaeh, Vol. 1, Beirut, Institute of Palestinian Studies, 1994, p 31.
(79) Sana Hamoudi, the Concept of Political Leadership in Palestine During the British Mandate (Led by Haj Amin Alhussaini), Vol. 1, Arab Network for Research and Publishing, 2008, pp. 110-111.
(80) Ibid., Hamoudi, p 111.
(81) Y. Porath, the Emergence of the Palestinian-Arab National Movement, 1918-1929 (London, Frank Cass, 1974, p 293.
(82) Ziad Kifafi et al., Jerusalem Throughout the Eras, 2008, p 310.
(83) Ibid,. Palestinian Encyclopedia, General Section, part 4, p 368.
(84) He was born in 1870 to a conservative Orthodox Jewish Ashkinazi family that moved to Britain after migration from Germany in 1775. Some researchers believe that Samuel thoughts about Zionism developed after 1914, which means yeas before meeting the Zionist leader Haieem Weizmann (Amjad Alzoubi, Herbert Samuel and establishing trans-Jordan (1920-1925), Alkitab Academic Center, Amman, 2002, pp. 11-14.
(85) Palestine Papers: 1917-1922, composed and annotated by Doreen Ingrams (London: John Murray, 1972), pp. 187-188.
(86) Arif Alarif, the History of Jerusalem, 2nd Edition, Cairo, Dar Almarif, pp. 143-144.
(87) Khalil Qastandi Alsakakini (1878-1953) is an Orthodox Christian who graduated from the English College in 1893. He worked as a teacher at the Orthodox School. He moved to the US at the end of 1907. After imposing the Ottoman Constitution, he returned back to Palestine. He immediately resumed his literary activism. He co-edited Alasmai Magazine, and established Aljawzaa Magazine for the student of the House of Teachers. He served in many positions such as General Monitor for Arabic Language. His publications include: Following the path of someone else, Observations on Arabic language, Orthodox Renaissance in Palestine, I am like this, World, and others (Ibid., Saleh et al., pp. 61-75).
(88) Hisham Nashabih, Arab College in Jerusalem, Palestinian Studies, Institute of Palestine Studies, 1988, p 139.

(89) Ibid., Alarif, p 144.

(90) He was appointed in August 1925. He didn't mix with people on the ground and his only concern was to restore order and stability in the country. He was more of a military ruler. He appointed more British officers in governmental offices. Waves of Jewish migrants arrived in Palestine during his time. Jews were given the permit to use and benefit from the Dead Sea (Ibid., Alarif, p 147).

(91) Ibid., Alarif, p 147.

(92) Ibid., Alghouri, part 2, 1973, pp. 30-31.

(93) Ibid., Almuhtadi, p 181.

(94) Raoouf Abujaber, the Christian Presence in Jerusalem During the 19th and 20th centuries, Vol. 1, Beirut, Arab Unity Studies Center, 2004, p 130.

(95) Alfatih, folder 19, Vol. 431, 1935, p 15.

(96) Bayan Alhout, Palestinian National Movement Documents (1918-1939) (Akram Zieter Papers), 2nd edition, Beirut, Institute of Palestine Studies, 1984, p 389.

(97) Ibid., Abujaber, p 130, Emilie Alghouri, pp. 33-34.

ملخص الدراسة:

تتمتع القدس بمكانة عظيمة عند أهل الشرائع السماوية، فهي تحوي آثارًا لموسى وعيسى ومحمد -عليهم الصلاة والسلام-، مما أهل هذه المدينة أن تلعب دورًا حضاريًا، وتكون مركزًا للاستقرار والتعايش بين الديانات الثلاث في كنف الإسلام، وفق قاعدة العدل والتسامح والاحترام المتبادل. ولقد بدأت العلاقة بين المسلمين والمسيحيين منذ الفتح الإسلامي للمدينة، ثم ازداد التقارب بين أتباع الديانتين، منذ أن بدأ المشروع الصهيوني في فلسطين، فظلت حالة التوافق والتعايش قائمة، سواء أكان المسيحيون هم الأكثرية، كما كان بعد الفتح الإسلامي للمدينة، أو كان المسلمون هم الأكثرية، وذلك في الفترات اللاحقة. ويُعَدّ التعايش بين المسلمين والمسيحيين في القدس، ظاهرة ثقافية يجب دراستها بعناية من أجل الاستفادة من هذه التجربة من خلال تعلم أشكال هذا التسامح، وتحديد أسبابه وآثاره في واقع الناس وواقع المدينة المقدسة، ثم كنموذج يحتذى به في العالم. لذلك فإن أهداف هذا البحث تتمثل في: تحديد مفهوم التعايش السلمي وأدلته في القرآن والسنة، وتسليط الضوء على جوانب التعايش (الديني والاجتماعي والثقافي والسياسي) بين المسلمين والمسيحيين في القدس بين ١٩١٧-١٩٤٨. اعتمد الباحث على المنهج التاريخي والوصفي، ولجأ إلى المقابلة العلمية لإثراء الدراسة. تنقسم الدراسة إلى أربعة أقسام: التعايش السلمي في القرآن والسنة، والتعايش الديني بين المسلمين والمسيحيين، والتعايش الاجتماعي والثقافي بين المسلمين والمسيحيين، والتعايش السياسي بين المسلمين والمسيحيين. وجدت الدراسة أن المسلمين والمسيحيين في القدس قدموا مثالاً ممتازًا للتعايش والتسامح، ونجحوا في تعزيز قيم التفاهم والشراكة، على الرغم من الاضطرابات السياسية التي مرت بها المدينة خلال الانتداب البريطاني، وما ترتب عليها من آثار صعبة على مختلف المجالات الحياتية.

كلمات مفتاحية:

التعايش السلمي، المسلمون والمسيحيون، القدس

ISSN: 2090 – 0449 Online
UIF Universal Impact Factor, [0.1101].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.1].

Selling Water and the Disputes around It in Telouet Village during the 19th Century: a Traditional Water Crisis Management System Based On Manuscript Documents



Hamza Ait EL Housseine
PhD student, Specialty "Water in the History of Morocco"
Cadi Ayyad University
Marrakech, Morocco

ABSTRACT

Much has been said about water, and studies on it are of particular importance, as is the importance of this vital element, since it has played, and continues to be, central roles in the history and evolution of human societies, as well as in their movements, migrations, stability and interrelationship between them. Water formed a material which many social relations and transactions were woven around. These are difficult to understand except by evoking the human relationship with water on the one hand, and by understanding that water have created deep relationships between people themselves on the other hand. Accordingly, this work shows how the element of water is present in the day-to-day operations of the dwellers of Telouet village, and attempts to explain all the complex social relations that this presence creates, and the extent of their impact on the various aspects of the social, economic and cultural life of this area, by analysing the manuscript sources/documents produced in the context of these two transactions (Selling water and the disputes around it).

Keywords:

Telouet, water, conflicts, manuscript documents

Research info:

Received: 29 October 2018
Accepted: 11 January 2019
DOI: 10.12816/0055416

Citation:

Hamza Ait EL Housseine, "Selling Water and the Disputes around It in Telouet Village during the 19th Century: a Traditional Water Crisis Management System Based On Manuscript Documents".- Historical kan Periodical. - Vol. (12) Issue (44); June 2019. Pp. 271 – 278.

Introduction(1)

Is important to pointed out from the beginning that I would not stop in detail at the natural and historical characteristics of the field of research; I would just mention only briefly, to directly address the subject of water transactions.

The human been need for water has always led them to trace its sources, and to try to understand its movement in the geographical field, in order to optimize it to meet its various needs. Accordingly, water is an important element in which many social relations and transactions have been woven; Transactions that can only be understood by evoking the human relationship with water in one hand, and then the multiple relationships caused by water among the people themselves on the other hand.

The transactions intended for analysis in this work include both water "sale" and water "disputes", divided into two axes below:

1-Transaction of selling water

Starting from the "sale of water" is an important factor in understanding the social relations resulting

from this transaction, which have been linked Telouet village's dwellers to one another on the one hand, and the rest of the elements of the occupied field, especially the land, on the other hand.

The talk about selling water in the mountainous regions in general, and in Telouet village in particular, is a direct talk about the issue of possessing a means of production and an important economic resource in a society which, in all aspects of its daily life, is characterized by scarcity, In the light of local climatic characteristics volatile; and therefore the possession of this element means an urgent goal to achieve for the various social groups in the region(2).

In our analysis of this transaction, we rely on forty-five manuscript documents, through which we discover a number of information, which constitute the prices and conditions of sale, as well as occasional references to certain Methods of weight and measurement, coins and money. Before reading and analyzing the contents of these documents, we refer first to the sound legal way in which they were written, as illustrated in the following table:

Table 1: Examples of water sales documents in Telouet village

Document N°	seller	Purchaser	Subject of sale	The price	Terms of the contract	Date of contract	witness
1	The Woman Fatima bint Abderrahmane Ait Kader.	Sayed Ahmed bin Abdullah Ait Hadà-ounaser	All quarter in a quarter of a quarter of a tank of water held by Sidi Mohamed bin Abderrahmane	Thirty ounce s of silver	The full possession after the inspection and flipping, consideration and satisfaction and possession as it should, and sufficient knowledge and no ignorance of some of the sale, and the Sunnah in that and reference and merit.	1310AH 1892AD	His signature exists but is unknown to us
2	Abdullah bin Ali Al Haddad	Abdul Rahman bin Ali Bani Ait Abdullah bin Yusuf	All their part in the quarter of water which known held by Ait-Loul.	Forty-four silver mitqal .	In recognition of the seller that he took the price.	1286 AH 1869 AD	The word "servant of the Lord" refers to him, but we could not read his name in the signature

We draw from these models of documents, reassuring that the treatment of selling water was a phenomenon known to the inhabitants of Telouet in their social dealings; at a pace that may increase or decrease according to periods and historical events; but what draws attention in the content of these documents; as it suggests - Can be read in many ways:

For example, document N° 1 suggests two possibilities: first, either the saleswoman did not have land to use her share of water; this was known to the region, despite the correlation between irrigation and land, existence and absence, in the sense that the ownership of the share of the water and the ownership of the land In which this share is taken advantage of, without the assumption that a certain person has the right of irrigation without having any land to use for watering(3).

Second, they did not have the capacity to exploit their ownership of water and land, or merely a choice of selling for natural pressure, economic status, social relations, or a need that the document did not show what it was.

In both cases, the content of this document is an important issue. The jurists disagreed on the answer to the question of the right to share water for those who have no land or fields. Two of them are based on the fact that drinking is a right that is self-existent, beneficial and desirable. Without it, and it was thus decided that the irrigating-without-land claim was admissible, provided that the plaintiff had substantiated his case. The second is that irrigating is not heard in analogy, because having the right for irrigating without a land/filed is considered ignorant

and prevents the hearing of the case and the dispute, because the evidence without land is not realized, in addition to the lack of the need to irrigate to those who do not own the land/fields to be irrigated.

The models that we have tried to take advantage of are directly and explicitly related to the element of water in the land, in the treatment of the sale, and, in most cases, emphasize it as a social reality that always has the relation of the population to the elements of their field (especially land and water). The desire to have these two vital elements together, was not pure or boastful(4), but was the motivation to achieve the security of daily sustenance, adequate food for the big family first, and then to achieve a certain stock of feed for livestock second, especially in the situation that Known by the nineteenth-century Morocco, which is Characterized by frequent periods of epidemics and famine(5).

On the other hand, the comparison between the prices of sale of water rights seems to be of great importance, which leads to the conclusion, although preliminary, that the sale transaction in documents 1, 5, 12, 13 and 18 is exceptional. In the following table, some elements:

Table 2: Comparison of the prices of selling water and land through forms of the written documents.

Document N°	Subject of sel	The price	the year	Note
1	One round of irrigation	192 mitqal	1892	The price rises again, coinciding with the years of crisis (1890-1894).
5	One round of irrigation	37 mitqal	1869	End of the crisis, the price drop again.
12	¼ irrigation round One irrigation round	21 mitqal 84 mitqal	1867	The beginning of the crisis, where Morocco knew between 1867-1869 disaster was the peak point in the growing situation of misery experienced by the peasants, where the season is idle due to drought. See Bazzaz, p. 193 and beyond.
13	11 acres with enough irrigation water and three rooms in the house	35	1870	-----
18	20 acres with enough irrigation water and the whole house.	20 mitqal	1843	The price seems very low, when compared to the value of land and water, during the years before and after that date.

In the context of the documents No. 12 and No. 5, specifically the price of sale of the one-water tour, we are affected by the repercussions of the crisis that Morocco experienced in general, between 1867 and 1869, due to the precipitation of rains, which resulted in the high prices of consumer goods, especially grain; In comparison to the prices of the sale of water between the years preceding this date and the following; Document No. 18, dated 1252 AH / 1842 AD, the sale of twenty acres with water from each water tank, the price of twenty mitqual, and document No. 13, dated 1287 AH / 1870, to sell eleven acres with water, thirty-five mitqal, However, this recent decline in the price, he finds justification in the "rains in the winter 1869-1870"(6), which marked the breakthroughs situation even temporarily.

It is further confirmed that the sale of water and land in the region of Telouet affected by what was known in Morocco in the nineteenth century of crises and fluctuations, the rise in the price of selling one water round, again, in 1892, depending on the document No. 1 reached 192 mitqal, a very high price, in Year period coincided with a period in which the various regions of Morocco were known to have suffered various pests and crises, ranging from 1890 to 1894, ranging from drought to locust swarms that destroyed crops and led to a surge in prices(7).

It is clear from these quotations that, in general, the water transactions in Telouet, especially the sale transaction, although in isolation from the rest of the geographical regions of Morocco, to the distance of the region in the mountains, they were not far from affections by the fluctuations and crises experienced by Morocco during the period in question, Especially the climatic ones, but reflected on the daily transactions of the population, and perhaps the following disputes transactions can increase the confirmation of that.

2-Transaction of water dispute[8]

Water plays a strategic role in the area of Telouet during the period of research, especially when it comes to the urgent need of all parties to benefit from this vital element to the full; it becomes more acute and complex whenever it is raised the issue of the time of watering some of the crops in front of water shortage, While in ways other than the usual ones, which often led to disputes and conflicts between individuals and groups. In addition, the traditional agricultural/ subsistence production of the population is linked to self-sufficiency and to ensuring their food security rather than to marketing it.

According to the above elements, estrangement in obtaining luck from water, and unwillingness to relinquish it, has been characterized by a static correlation with this element, most likely in periods of drought or delayed precipitation, with extreme degrees of wait and desire to maintain interests Often ended in conflict and rivalry[9], which convinced everyone that it was necessary to return to reconciliation once again.

In analyzing the issues of the water dispute in Telouet region, we rely on three sources, namely, documents: 50, 49 and 51, dated respectively 1214 AH / 1799 CE and 1307 AH / 1889 CE and 1314 AH / 1896 AD. Three important issues are raised in the following table:

Table 3: Some water disputes in Telouet village:

Document N°	Dispute Parties	the dispute Subject	the dispute cause	Witnesses	Date	Note
50	Ali bin Yusuf, with Ait Sidi Croum (all of whom are residents of Egil Nabian)	water resource	the slave that attributed to Ait bin Yusuf has changed the water direction o their own fields	Ali ben Ait Hariz, Ait Fath, Ibn ija, Sidi Ali Bani Ait Hammad, Muhammad Bani Ait Krum, Ibrahim Bani Ait Al-Rayes and Al-Faqir Ahmad	1214AH 1799AD	The dispute over this water source has been repeated since there was a dispute about it in a period that the document failed to define. It is marked by the expression "the water resource in which the adversaries signed between them and Ait Sid Crom."
49	Mr.Mohammed bin Krum with Al-Faqih Mr. Ali ben Ahmed Ait Ali ben Ibrahim	the water resource of Ait Hamou Ben Al Hassan	The first claim that the second acts in the water of Ain Ait Hamou ben Al Hassan on the face of good and charity; while the second refused and said ownership of the water mentioned; each provided a fee to prove what he says.	Abdul Rahman ben Ali	1307AH 1889AD	-----

Document N°	Dispute Parties	the dispute Subject	the dispute cause	Witnesses	Date	Note
51	Residents of làraben area with the residents of Tomjusht area.	About the "Amerdoul" waterway	A member of the Tomjusht area destroyed the waterway set up by the members làraben area.	All the Residents of làraben area	1314AH 1896AD	-----

The first document (No. 50) refers to a dispute between Ait al-Ben Youssef and Ait Sidi Croum, a resident of "Eghil Nabian" area, around the water resources in the region. Where the text indicates that the servant that attributed to the first ones: **"make the channel in the water resource in which the conflict occurred between them"**, that is he turned the direction of the water of this resource to another channel directed to water the land of Ait Sidi Crom.

In this document it is clear that the factor of the need for the water element in the region is of the utmost importance in causing many conflicts among the population, which is reflected in the nature of the relationship between them and this element, which necessarily necessitate the recall of "water sensitivity in the threat of social peace in the rural area"(10). The phrase in the document: "Attended the servant that attributed to Ait bin bin Yusuf until he made the channel in the water resource in which the rivalry between them had occurred", Then the phrase "Abd al-Rahman Bani Ait Ali Ibrahim had linked the water resource mentioned above", Demonstrate a clear determination, and a great desire, to exploit the disputed water, A phrase that can be understood only in the context of the dependence of the economic life, or at least a large part of it, on the parties conflicts around this vital watercourse; a statement that is justified in the following:

By the first date of the text of the document in the month of Safar 1214 AH / January 1799, the beginning of the agricultural season of the year, a period where the region is known relatively intensive activity in the irrigation process after the end of the process of plowing, and may be associated with this conflict, and **"linking those Water"**, the desire of both parties to benefit and bring water for their crops, and thus ensure a kind of positive vision, and satisfaction, relative, the production of the new agricultural season.

On the other hand, the words: **"Then Ait Fateh rose up and called the masters of the aforementioned aforementioned slave"** and **"have Witnessed the testimony of God, no one else that the mentioned above attributed to Ait Fatih forever as long as we do not know others"**, this reflect part of the collective management of water On the basis of the rule of partnership and overlap of interests, as well as the importance of the water resource the subject of conflict, a significance that is not without implicit signs of an urgent desire to acquire this resource, by both parties, and thus put an important economic resource.

The second document (No. 49) refers to a dispute between Mr. Mohammed Ben Krom, with the Faqih Mr. Ali bin Ahmed Ait Ali bin Ibrahim, who are also the residents of the "Egil Nabian" area. In order to read the contents of this dispute, we add to the elements in the table the elements of judgment and result. The aforementioned judge was handed to the Faqih Ali bin Ahmed Ait Ali ben Ibrahim (the secont part of the dispute) on the marshes, Mr. Mohammed bin Krom (the first part of the dispute) with disputed water; "A provision which is required to be acted upon" (as the term refers).

The above-mentioned elements transcend the mere history of water treatment, manifested in the phenomenon of water conflict, and the prosecution of a person known for the integrity of the parties to the conflict. We also have the opportunity to open the analysis to a reading of another kind; Through the monitoring of the development of its traditional legal systems; its effectiveness in containing and solving its problems and conflicts; and working to highlight the role of historical, psychological and cultural factors. But it may go beyond that; it enables us to stand on the part of a population's mind and its theoretical perceptions about its legal apparatus. Here, the importance of this type of documentation becomes apparent to the historian; it stops him on a forgotten side of history; as long as modern historians call it, History of the Depth of Society.

The third document (No. 51) is the certificate of the right of the "làraben" population in the waters of "Amradoul"(11) channel, the waters that they fought with the population of Tomjusht area (high), because one of the members of this last ones destroyed the watercourse "Which was developed by members of the first ones, resulting in a dispute that the oral history has some repercussions to date, but the resonance of this conflict is still frequent among the population, which is the reflection of the generosity

of priority between the high and down of the watercourses exploitation, "One of the most important social features of the water problems in the Moroccan villages"(12).

We read the contents of this certificate, in which the dispute was settled and the separation of the parties, which despite the simplicity of its style and the shortness of content, the document of separation, especially by members of the Iàraben area, whenever the beginning of a new conflict looming on the horizon; the content we read from two sides :

The first aspect appears in its depth positive and the other side negative, to varying degrees; negative because this conflict was a factor that threatened stability, positive relations and mutual interests between individuals in the villages. It is clear that it resulted in material and moral losses, which are justified in the nature of the discourse in which watercourses and the ownership of it were defended as a defense of a vital area component to which the interests of this human group are related and thus a factor of its existence and continuity. What the document said was: "They were holding it and using water for lawns"(13).

And positive because it reflects the continuous mobility identified by the human groups adjacent to watercourses in their relations with each other, in a dynamic that forms the basis for the continuity of living; so that after each conflict, these groups return to reconcile the reconciliation and settlement of the conflict and try to restore rights to their relatives; That the conflict over water in the Telouet region, especially between the two groups of Iàraben and Tomjusht as an example, is nothing but a process of renewal and creation of a kind of pulse in the relations between its beneficiaries, as a vital mechanism of cohesion and social solidarity.

While the reference to the dialectic of eligibility between upstream and downstream is implicit and not explicit in the content of this document, the realization of careful consideration of its content - recognizing the need to read it from multiple angles: historical, cultural, social, legal, economic and political ... - And the perception that this society has surrounded its facilities and water resources, particularly the "dam building" and the water channels, and how to manage them for exploitation, in order not to inflict the least harm to its beneficiaries; especially since the oral narrative states that the last ones have always believed in the conflict Waterproof; Respondents expressed: "Every region knows disputes and conflicts about water despite the existence of norms and customs"(14).

As is customary in this type of contract, it was emphasized that the party with the right to ownership of the disputed water should be clearly mentioned, and so as not to be confused later, especially since these contracts were some of which continued to be traded for long periods without losing their legal effect. The judge Ahmed bin Abdullah Nayet al-Asri, the writer of the contract, said, "but they were Iàraben" and then followed them in their right to the subject of the dispute through the phrase: "they hold and using water to their lawns And they did not offer it to somebody else" This last phrase raises a number of fundamental questions To read:

Was the proximity of water resources from the area of a particular tribe a crucial and decisive factor in owning or benefiting from those sources? What is the nature of the systems regulating the process of its management? Within any geographical limits, this proposal can be generalized in case of its reality. Is the phrase "they are already farming" contained in the document indicate the beginning in the cultivation of the land, or that the author wanted by the already population of Iàraben in order to stabilized, and therefore that the population of Tomjusht emergency in this area, which came after and stabilized higher?

Is a set of questions that require the necessary and obligatory response to collect as much of these documents as possible in all the field of Telouet and armament in the necessary methodological tools so as to clarify the limits on which we can summarize the conclusions we may draw, Which makes the model we have adopted the key to the entry into and understanding of history.

These conflicts suggest the extent to which social relations on water oscillate between solidarity and synergy on the one hand, and conflict on the other. In the process of exploiting the latter to the extent of the conflict and the "impossibility of understanding"(15). it is a sign that the economic and social life of the inhabitants of the area depends on the watercourse and resource. Ensuring their continuity in time and space.

It is concluded from these transactions that the inhabitants who exploit the water dealt with the management of different types of transactions, and woven various social relations, without losing that society's deep solidarity values, the transactions were sale and mortgage water, and facilitate the exploitation, stations where the beneficiaries of the type Another measure, In which beneficiaries demonstrated a long-standing form of management, in which tolerance, giving and offering were a fundamental principle.

What we have analyzed from water transactions is an effective tool known by the habitants of Telouet village as a way of benefiting and exploiting

it to manage the elements of their fields: land and water. which contributed to ensure its stability and continuity, at various levels of economic, social and cultural, which were, in some ways, factors to rebuild And the consolidation of local social balance, which is vulnerable to the conditions of conflict and instability.

Conclusion

During the period under review, the water component a vital material on two levels, at the field level, where it was considered a vital and fundamental element of all human activity, of food, as well as the readiness of all beneficiaries to protect their part from water. And the level of transactions between the beneficiary population; it was the reason for the creation of important social relations between the populations, differed between the transactions of sale and mortgage and conflict; and these levels have sprung up other levels; where the water is sometimes a material for economic dealings through foreclosure and sale, and sometimes a material of social solidarity through the ratification And also gave rise to a crisis factor that destabilized the stability of the habitants, which is represented in conflicts and quarrels.

Notes:

(1) I note that the subject of water transactions has already been the subject of an article I have published in the electronic journal "ANFAS FOR CULTURE AND HUMAN", under the title: aspects of water transactions in Telouet Village: technical analysing of local documents. See the magazine's website on the link: http://anfasse.org/2012-07-03-21-58-09/2010-12-30-15-59-35/5945-2015-03-20-15-41-09، published : March 20, 2015 at 5.41pm.

(2) This argument is justified in the written manuscript documents, where the various social groups that stabilized in the region had been selling water and buying it.

(3) In our manuscript documents, we have found many cases in which people have the right to use water for irrigation without having field, so they rely on selling their part of water for their daily subsistence.

(4) The possession of important crops from agricultural land is a symbol of sovereignty and glory in the area of Telouet.

(5) During the eighteenth and nineteenth centuries, Morocco witnessed crises and years of periodic drought, including the famine of 1721-1724 and 1737-1738, then the plague of the mid-eighteenth century, followed by famine 1776, 1779 and 1782, plague 1798-1800, plague 1818-1820, 1825-1826, then the food crisis between 1847-1851, then the cholera epidemic in 1854-1855 and 1859-1860m, then the disaster of 1867-1869 (food crisis + cholera), then the disaster of 1878-1883 (food crisis + cholera and typhoid) .. Etc. In order to further explore these crises, see: Al-Bazaz (Muhammad Al-Ameen); History of Pest and Famine in Morocco in the 18th and 19th Centuries, published by the Faculty of Arts and Humanities in Rabat, Basket letters and theses No. 18, Rabat, 1992.

(6) Al-Bazaz (Muhammad al-Amin); History of Pest and Famine ..., ibid, p. 209.

(7) Ibid, p 318_319.

(8) Many teachers and researchers have spoken about the subject of the water dispute in various regions of Morocco, for example: Ait Hamza (Mohamed); the traditional irrigation system and the organization of the field in southern Morocco (a model of the Dades basin), Journal of the Faculty of Arts and Humanities, 13, Rabat, 1987, p. 145. And Arabi Essidiki (Mohamed); Water and its Social Impacts in the Tafilalet Region through a New Document, Amal Magazine, History of Culture and Society, Issue 31/32, The Fourteenth Year, Casablanca, 2006, pp. 244-258. Water Issues in the Oasis of Draa (through Local Documents), in the Proceedings of the Water Symposium in the History of Morocco, Publications of the Faculty of Arts and Humanities, Casablanca, Series of Seminars and Debates No. 11, Al Ma'aref Al-Jadida, Casablanca, 1999, pp. , 79-99. And Abd al-Jalil (Muhammad); study and presentation of the manuscript: the result of the prettiest references to the claim of the ownership of the valley of Masmouda by Abdul Qadir al-Fassi, in : Hasan Hafidi Alawi and Abdul Jalil al-Karifa (coordination); And the National Paper in Marrakech, First Edition, Marrakech, 2002, pp. 75-91. And a new document on the distribution of water in Fez of the old city (Adwa al-Andalus) in the late Marinite period, Journal

ملخص الدراسة

تكتسي الدراسات المتّخِذة من الماء موضوعاً لها أهمية خاصة، أسوة بالأهمية التي يتميز بها هذا العنصر الحيوي، لما لعبه، وما يزال، من أدوار مركزية في تاريخ سيرورة وتطور المجتمعات الإنسانية، كما في تنقلاتها وهجراتها واستقرارها وعلاقاتها فيما بينها، فحاجة الإنسان إلى الماء، كانت تدفع به، على الدوام، إلى تتبع مصادره، ومحاولة فهم حركته في المجال، قصد استغلاله بشكل أمثل يلبي مختلف حاجياته منه؛ تبعا لذلك شكل الماء مادة نسجت حولها علاقات ومعاملات اجتماعية متعددة، معاملات يستعصي فهمها إلا باستحضار علاقة الإنسان بالماء من جهة، وما نسجه هذا الأخير من علاقات بين الإنسان وأخيه الإنسان من جهة ثانية. تبعاً لذلك، يروم هذا العمل تبيان كيفية حضور عنصر الماء في المعاملات اليومية لساكنة منطقة تلوات، ومحاولة تفسير كل ما يخلقه هذا الحضور من علاقات اجتماعية معقدة، ومدى تأثير كل ذلك في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لساكنة هذا المجال، من خلال التحليل الدقيق لعدد من المصادر المخطوطة، التي أنتجت في سياق هاتين المعاملتين. مشيرا منذ البداية إلى أنني لن أتوقف عند الخصائص الطبيعية والتاريخية للمجال المعني بالبحث بتفصيل؛ بل سأكتفي بالإشارة فقط إليها بشكل مختصر، لأتطرق مباشرة لموضوع المعاملات المائية؛ نظرًا لإكراهات عِدة تفرضها سعة البحث.

of the Faculty of Arts and Humanities, Fez, second and third volumes, 1979-1980, pp. 388-402. Zerhouni (Muhammad); The Earth and Water Dispute in the Western Upper Atlas Region in the 1860s, Amal Journal of Culture, Society, Issue 9, Third Year, New Knowledge Press, Casablanca, 1997, pp. 29-36. And Ben Hamada (Said); Water and Man in Andalusia during the 7th and 8th H / 13 and 14 AD Contribution to the Study of the Field, Society and Ideologies, Dar al-Tali'ah for Printing and Publishing, First Edition, Beirut, July 2007, p. Water Disputes in Morocco and Andalusia, "Determinants and Representations", Hispres Tamouda, No. 44, 2009, pp. 41-69. In addition, the opening of the valley of Masmouda in Fez, an example of the conflicts over water, as part of the symposium on water in the history of Morocco, ibid, pages 167-175.

(9) It is not the fight to kill, as we have not found a single indication of a case of murder due to the water dispute.

(10) Ben Hamada (Said); The Effect of Tribal Structure in the Management of Water Disputes in Morocco and Andalusia ..., (in Arabic), ibid, p. 44.

(11) name of a water channel.

(12) Ben Hamada (Said); The Impact of Tribal Structure in the Management of Water Disputes in Morocco and Andalusia ..., ibid, p. 51.

(13) Excerpt from the text of the document.

(14) talked to me about this subject, Mr. Idar Abkhar, a resident of Tabugamt village, was about 73 years old, on Thursday, April 30, 2018, at 11:40.

(15) Zerhouni (Muhammad); Land and Water Dispute in the Western Great Atlas Region ..., ibid, p. 33.



Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal, indexed and abstracted in several international databases.

info@kanhistorique.org